الأخلاق
أصولها الدينيّة وجذورها الفلسفية

د. محمد علي البار

شكر وتقدير

أتقدم بالشكر الجزيل لكرسي أخلاقيات الطب بجامعة الملك عبد العزيز بجدة والذي يرأسه الأخ الأستاذ الدكتور عدنان أحمد البار والذي يدعمه الوطني الغيور الشيخ محمد حسين العمود ي والذي يدعم العديد من الكراسي في الجامعات السعودية، أشكرهم على دعمهم المعنوي والأدبي لاصدار هذا الكتاب.

كما أشكر الأخ الحبيب العلامة السيد عدنان بن علي بن أحمد مشهور الحداد على مراجعته الدقيقة للجزء الثاني من هذا الكتاب ولعدة فصول من الجزء الأول فجزاه الله عني خير الجزاء.

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا *وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا *} [الأحزاب: 45، 46] .
{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيْ هِمْ} [البقرة: 129] .
{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ *} [ن: 4] .
{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب: 21] .
وقال : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (موطأ مالك ومسند أحمد).

المقدمة

الحمد لله وحده الذي جعل بناء كل دين أظهره، وكل نبي أرسله، الأخلاق الذي عليه تقوم أساسات الدين والدولة، والدنيا والآخرة، وبه ينال الفوز برضا رب العالمين. قال تعالى لنبيه المصطفى وحبيبه المجتبى محمد : {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا *وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا *} [الأحزاب: 45، 46] ، وهو دعوة إبراهيم وإسماعيل ليزكّي نسلهما ويطهرهم من الأدناس ونجاسات الشرك والأخلاق الذميمة . قال تعالى على لسانهما : {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيْهِمْ} [البقرة: 129] ، فبعث الله محمداً بعد فترة من انقطاع الرسل، هادياً وبشيراً وسراجاً منيرا ليزكّيهم ويطهرهم. ولم تكن دعوته مقتصرة على العرب، بل كانت للعالمين وكان هو الرحمة المهداة والنعمة المسداة لخلق الله أجمعين قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ *} [الأنبياء: 107] .

وقد وصفه ربه وخالقه سبحانه وتعالى بأنه على خلق عظيم قال تعالى : {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ *} [ن: 4] ، وتلك هي أعظم صفاته وأبرز مظاهر شخصيته الفذّة حتى جعله الله المثل الأعلى لجميع المخلوقات عامة وللبشر خاصة، ولاتباعه خاصة الخاصة قال تعالى : {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب: 21] . فهو القدوة الحسنة والمثل الأعلى لكل مسلم مؤمن موحّد.

ورسول الله يقول : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[1] . ومعنى هذا أن تعاليم الإسلام كلها تهدف إلى مكارم الأخلاق، وتنهى عن فواحشها وسفسافها . وقد أوضحت في الجزء الثاني من هذا الكتاب كيف أن مبادىء الإسلام كلها هي الأساس النظري والعملي للأخلاق . وكما قال إقبال:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحيي دينا

كما قال: دستوفسكي الروائي الروسي العظيم في «الجريمة والعقاب»، «إذا لم يكن هناك إله فكل شيء جائز حتى القتل».

وكل جريمة تنبع من الشرك والكفر والإلحاد، وكل عمل صالح وأخلاق عاليه تأتي من التوحيد والإيمان بالله سبحانه وتعالى وبصفاته وأسمائه الحسنى والإخلاص في عبادته قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ *} [الذاريات: 56] .

وتبدأ سورة البقرة بقوله تعالى: {الم *ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدَىً لِلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ *أُولَئِكَ عَلَى هُدَىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [البقرة: 1، 5] .

والإيمان بالغيب يعني الإيمان بالله سبحانه وتعالى، فهو غيب الغ يوب، وهو الظاهر والباطن، كما يقتضي الإيمان بالملائكة وهم مخلوقات نورانية، لا يعصون الله ما أمرهم

(1)أخرجه الإمام مالك في الموطأ الحديث : رقم 1723، وأخرجه الإمام أحمد في المسند بلفظ : إنما بعثت لاتمم صا لح الأخلاق ..

يفعلون ما يؤمرون. كما يقتضي الإيمان بالغيب الإيمان باليوم الآخر. فإذا لم يكن هناك بعث ولا نشور ولا حساب ولا عقاب، ولا جنّة ولا نار، ولا رضا الله والنظر إلى وجهه الكريم، ولا سخطه والحجاب بينه وبين هؤلاء الجاحدين المارقين، فإن أغلب الناس، إن لم نقل كلهم سيعملون جهدهم كله للحصول على متاع هذه الحياة الدنيا، بأي سبيل وأي طريق {إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ *} [المؤمنون: 37] .

وتكون الدنيا جحيماً فعلياً لأن القوي يأكل الضعيف، والخِبُّ المخادع اللئيم يخدع الغرّ السليم، ويتفشّى الكذب والسرقة وتُبهرج الأمور ويصبح الحقُّ باطلاً والباطل حقا، كما نشاهده ونراه كل يوم في العراق وجوانتنامو وأبو غريب وأفغانستان.. وما تفعله إسرائيل في غزة والضفة الغربية والقدس وقتل النساء والأطفال عمداً والتلذّذ بذلك، وانتهاك كافة الحرمات والمقدسات. ومع ذلك يتم تغليف ذلك في الاعلام الغربي بالزيف والكذب والبهتان . وهو أمر متوقع من اليهود الذين كذبوا على الله وعلى رسلهم وعلى أنبيائهم، وقتلوهم وكذبوهم: {فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ} [البقرة: 87] . وقد لعنهم أنبياؤهم قال تعالى : {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ *} [المائدة: 78] .

وهم الذين قالوا: {...اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ونقول ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [آل عمران: 181] ، وقالوا: {يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا} [المائدة: 64] ، ولا يوجد في التوراة الحالية أي ذكر لليوم الآخر وإنما هي الدنيا فقط، وبالتالي هم حريصون على هذه الحياة الدنيا {يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ} [البقرة: 96] .

{قُلْ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ *قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *} [الجمعة: 6، 8] .

لهذا جعلتُ لليهود فصلاً طويلاً بعنوان الأخلاق عند اليهود . وهو فصل مهم لمعرفة أخلاقهم من كتبهم: من التوراة والعهد القديم التي كتبها الأحبار من عند أنفسهم وكذبوا فيها على الله. ومن تعاليم التلمود الذي يقرّون بأنه من كلام الأحبار، ويجعلونه عندهم أهم من التوراة ذاتها.

واستعرضت قبل ذلك الأخلاق عند الأمم السابقة ابتداء من قدماء المصريين في مصر فالسومريين والبابليين والآشوريين في العراق، والبوذيين والهندوس في الهند وآسيا، ثم الكونشفيوسية في الصين، ثم الزرادشتية في فارس وما تبعها من أديان وأخلاق. ثم اليهود، ثم بعد ذلك النصارى، ثم تأثيرات الفرس على الحضارة الإسلامية من الجانب الأخلاقي . ثم اليونان وتأثيرهم على الحضارة الإسلامية، واستعرضت بالذات الفلاسفة اليونانيين ثم بعد ذلك فلاسفة المسلمين بتفصيل واف وكاف، وخاصة في الجانب الأخلاقي.

وقد بدأت الكتاب بتعريفات كلمة الأخلاق والخلق في اللغة . قال ابن منظور في لسان العرب: «الخُلُق السجيّة والدين والطبع، وتخلّق: أظهر في خُلُقه خلاف نيته، والخلاق الحظ والنصيب من الخير والفلاح، وفي القرآن الكريم : {مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ } [البقرة: 102] ، أي نصيب» واستعرضت أقوال أهل التفسير . قال الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن: «الخَلْقُ والخُلْقُ والخُلُقُ : في الأصل واحد، ولكن خُصَّ الخَلْقُ بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر وخُصَّ الخُلُق بالقُوى والسجايا المُدركة بالبصيرة».

وقد خصَّ الله نبيه محمداً بالخَلُق العظيم حيث قال : {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ *} [ن: 4] ، وكان خُلُقُه القرآن كما قالت أم المؤمنين عائشة .

وقال الفيروزبادي في «بصائر ذوي التمييز »، «اعلم إن الدين كله خُلُق . فمن زاد عليك في الخُلُق زاد عليك في الدين . وهو يقوم على أربعة أركان : الصبر والعفّة والشجاعة والعدل». ويقول الجرجاني في التعريفات : «الخُلُقُ عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروّية . فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً، سُمّيت الهيئة خُلُقاً حسناً، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سُمّيت الهيئة التي هي المصدر خُلُقاً سيئاً».

وقد قالت الصحابية التي ذهبت تطلب الطلاق من زوجها لرسول الله : «ما أعتبُ عليه في خُلُق ولا دين ، ولكني أكره الكفر في الإسلام »، فردّت عليه حديقته (وهي المهر والصداق الذي أصدقها إياه)، وفي الحديث: «إن لكل دين خُلُقاً وخلق الإسلام الحياء » فالدين أعمُّ من الخُلُق، والحياء جزء هام من الخُلُق الحسن، وفي حديث آخر : «كرم الرجل دينه ومرؤته عقله وحَسبَه خُلُقه » . وقد روي عنه قوله : «لا عقل كالتدبير ولا ورع كالكفّ، ولا حسبَ كحسن الخُلُق» .

وقد قال رسول الله : «ألا أخبركم بأحبّكم إليّ وأقربكم منيّ مجلساً يوم القيامة؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال : أحسنكم خُلُقاً » (أخرجه أحمد في مسنده)، وعندما سئل رسول الله : أي المؤمنين أكمل إيماناً؟ قال: «أحسنهم خُلُقاً» (أخرجه الطبراني)، وسألوا رسول الله فقالوا: من أحبُّ عباد الله إلى الله تعالى: «قال أحسنهم أخلاقاً» (أخرجه الطبراني).

وعن عائشة قالت: سمعت رسول الله يقول: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم» «وفي رواية عنها » «إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجات قائم الليل وصائم النهار» (أخرجه أبو داود).

وقال : «أقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم خلقاً» (ابن النجار)، وقال : «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، إن الله يكره الفاحش البذيء . وإن صاحب الخُلق الحسن ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة » (أحمد في مسنده)، وفي صحيح البخاري قال : «والله لا يؤمن والله لا يؤمن . قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه» وفيه أيضاً : «من كان يؤمن بالله واليوم الآ خر فليقل خيراً أو ليصمت » (صحيح البخاري)، وقال : «أتدرون من المفلس؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال : المفلس من أمتي من يأت يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام. ويأتي، وقد شتم هذا، وقذف هذا،

وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار » (أخرجه مسلم في صحيحه).

وقد حذّر من أخلاق المنافقين قال: «ثلاث من كُنَّ فيه فهو منافق، وإن صام وصلى وحجّ واعتمر وقال إني مسلم: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف وإذا أُوتمن خان» (أخرجه مسلم في صحيحه)، وأخرج البخاري في صحيحه قوله : «أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ! إذا أُوتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» .

وقد قال : «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخُلق » . وعلى العكس من ذلك أكثر ما يدخل الناس الجنة: «تقوى الله وحُسن الخُلُق» وقد قال : «ما أعطي أحدٌ أفضل من حُسن خلق» كما قال : «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخُلُق» .

ويقول الراغب الأصفهاني في «الذريعة إلى مكارم الشريعة » في شرحه للخُلُق : «فجُعِلَ الخُلُقُ مرَّةً للهيئة الموجودة في النفس التي يصدر عنها الفعل بلا فكر، وجُعل مرّة اسماً للفعل الصادر عنه باسمه . وعلى ذلك أسماء نحو العفّة والعدالة والشجاعة، فإن ذلك يقال للهيئة والفعل جميعاً.

ويلخّص الدكتور محمد عابد الجابري في كتابه «العقل الأخلاقي العربي » المعاني التي يستخدم فيها لفظ الخُلُق كالآتي: (وأضفت إليه نظرية الأمزجة اليونانية).

(1) ـ القوة الغريزية الموجودة في النفس التي يصدر عنها الفعل بلا فكر (وهذا قريب من معنى الطبع والسجّية) Character باللغة الانجليزية) .

(2) ـ الحالة المكتسبة التي يصير بها الإنسان خليقاً أن يفعل شيئاً دون شيء، كمن هو خليق بالغضب لحدة مزاجه . ويُعرف المزاج باللغات الأوروبية باسم Temperament وقد جعل أبقراط وجالينوس الأمزجة أربعة تمثل الطبائع الأربع وهي:

(أ) المزاج الدموي Sanguinous Temperament) ، وهو عنيف ومشاكس، ووقته في سن الشباب. وفيه يكون الاندفاع وعدم التروي.

(ب) المزاج الصفراوي (Bilious Temperament) وهو ناتج عن المرّة الصفراء حسب زعمهم ويلحق من أعراضه، كما يقول أبو بكر الرازي الطبيب : الذكاء والنباهة والحدّة والطيش. وغلبته في آخر سن الشباب وبداية الرجولة. وقد يصحبه شعور بالغثيان في الاستعمال لكلمة صفراوي (Bilious) .

(ج) المزاج السوداوي (Melancholous Temp) : وهو تابع للمِرّة السوداء ومسكنها، حسب زعمهم الطحال، وبها يكون الصمت والتفكر والتروّي.. ومنها أيضاً الحُزن والانقباض وسلطانه في زمن الكهولة، ومنها عند العامة مرض المناخوليا.

(د) أما المزاج البلغمي (Phlegmatic Temp) فمصدره البلغم ويأتي حسب زعمهم من الرئة أو من الدماغ . وهو سكن الرطوبة والبرودة ومزاجه العجز والفتور والحلم واللين وسلطانه في سن الشيخوخة.

وقد انتهى موضوع الأمزجة والطبائع الأربع في الطب الحديث، ولكن هذه الألفاظ لا تزال تستخدم في علم النفس وفي اللغة والأدب للتعبير عن الحالات المزاجية التي يمرّ بها الإنسان والتي تعتورها عوامل معقدة جداً من الهرمونات، وتفاعل البيئة مع الجينات.

(3) ـ يستعمل لفظ الخُلُق اسماً للهيئة والفعل معاً، مثل العدالة والعفّة والشجاعة .

(4) ـ يستعمل لفظ الخلق للفعل الصادر عن تلك الهيئة .

وقد زعم بعض القدماء أن الإنسان لا يستطيع أن يغيرّ أخلاقه، وهو أمر غير صحيح فقد قال : «حسّنوا أخلاقكم» وقد قال تعالى: {وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا *} [الشمس: 9، 10] . ولو لم يكن كذلك لبطلت فائدة الأمر والنهي، والوعد والوعيد والمواعظ والوصايا . وإذا كان من الممكن ترويض الحيوانات حتى أن الوحشي منها ينتقل إلى التآنس، فكيف بالإنسان؟ ! وموضوع التربية كله هو هذا المجال، تغيير الأخلاق وتهذيبها. وقد بُعث محمد ليتمّم مكارم الأخلاق، كما أخبر هو بنفسه عن ذلك.

وقد استطاع المصطفى أن ينقل العرب بعنجهيتهم وتكبّرهم وعنفهم إلى عكس ذلك من الأخلاق الحميدة. ولولا أن الأخلاق تتغير لما قام بذلك نبيٌّ ولا رسول، ولا مصلح، ولا قائد أمة. ولا شك أن التغيير في الصغر أيسر وأسهل من التغيير في الكبر، ولكن ذلك ممكن أيضاً مع صعوبة وعسر. والناس في ذلك يختلفون اختلافاً تاماً فمنهم من يقبل التغيير بيسر، ومنهم من لا يقبله إلا بعسر، ومنهم أجادب لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ.

وقد تنبّه أرسطو إلى ذلك وصرَّح في رسالته إلى نيقوماخوس (تعرف باسم كتاب نيقوماخيا) أن الأخلاق كلها عادات تتغير، وأن ليس شيء منها بالطبع، وإن الإنسان يمكنه أن ينتقل من كل واحد منها إلى غيره بالاعتياد » وهو قول فيه مبالغة، فلا شك أن الناس تختلف. وقد مثَّل الله سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة بالشجرة الخبيثة قال تعالى : {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ *تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ *وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ *يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ *أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ *} [إبراهيم: 24، 28] .

وقولُ جالينوس أقربُ إلى الصواب من قول أرسطو حيث اعتبر «الخلق حال للنفس داعية إلى أفعالها من غير فكر ولا روية . وهي قسمان طبيعي م ن أصل المزاج ومستفاد بالعادة والتدرب حتى يصير مَلكةً وخُلُقاً» .

وطوّر هذا الكلام الماوردي في كتابه «تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك» وتحدث عن أخلاق تصدر بالطبع، وأخلاق تصدر بالإرادة. ثم يفرّق الماوردي بين السجايا، وهي التي لم تظهرها الطبائع، والأخلاق وهي ما أظهرته بالفعل أو القول، وأفعال الإرادة يتحكم فيها العقل والرأي والهوى، فإذا صدرت عن العقل كانت فضيلة وإذا صدرت عن الهوى كانت رذيلة.

وقد عرّف أحمد أمين في كتابه «الأخلاق» بقوله: «علم الأخلاق هو علم يوضح معنى الخير والشرّ، ويبيّن ما ينبغي عليه معاملة الناس بعضهم بعضاً، ويشرح الغاية التي ينبغي أن يقصدها الناس في أعمالهم».

ولا شك أن الكتب والنظريات في الأخلاق لا يمكن أن تحقق الأخلاق أو تعلّمها بل الذي يعلّم الأخلاق هو القدوة والمثل الأعلى. ويبدأ ذلك في المولود، الذي يلتقم ثدي أمه فتنتقل إليه أحاسيسها وانفعالاتها. وقد أثبتت الأبحاث الحديثة أن الجهاز العصبي للطفل وخاصة الدماغ ينمو نمواً سريعاً جداً خلال السنتين الأولى من عمره. ويمتصّ الطفل الأخلاق والعادات واللغة من أمه خاصة، ثم بعد ذلك من أبيه وأخوته والأطفال المقاربين له في سنه. وما أن يصل الطفل إلى سن الثالثة حتى يكون إجتماعياً وله قدرات لغوية كبيرة.. ولا يكاد يوجد نمو بعد سن السادسة، وإنما هي تراكم خبرات ومعلومات وتوجيهات.. وهو أمر يؤكد على أهمية الأم:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

والوضع في الحضارة الحالية مؤلم ومأساوي. فإجازة الوضع لا تزيد عن شهرين في أحسن الأحوال، وتضطر الأم إلى ترك وليدها للذهاب إلى العمل. وقد قامت بعض الدول المتقدمة بتوفير حضانات للأطفال الرضع، داخل أماكن العمل، بحيث تستطيع الأم أن تعود إلى طفلها بعد ثلاث ساعات لإرضاعه. وهو أمر حسن نسبياً والأفضل بل الواجب هو تفريغ الأم المرضع لمدة عامين قال تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُّمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *} [البقرة: 233].

وهي آية عجيبة جداً وضعت الأمور في أحسن ما يمكن لمصلحة الطفل الوليد، وراعت مصلحة الأم ومصلحة الأب ومصلحة الأسرة كلها في حال الوفاق وفي حال الطلاق فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله الذي أنزل على محمد هذا القرآن هدى للمتقين. وللأسف فإن المرضعات قد اختفين من الوجود، فلم يعد إلاّ أن تقوم الأم الوالدة بالإرضاع، وتوصيات منظمة الصحة العالمية بالإرضاع التام لمدة حولين كاملين كما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة.

والتأثير الأخلاقي والنفسي والجسدي لهذه الرضاعة أمر يفوق الوصف. ولا بد أن تعود المرأة إلى بيتها، وقد أوجب الإسلام على الزوج الانفاق عليها، كما أوجب على وليّ أمرها

الانفاق عليها إن تأيمت أو ترمّلت . وفي جميع الأحوال هي مكفولة . ولا يمنع ذلك أن تقوم بأعمال مختلفة، لكن بشرط أن لا يضرّ ذلك بأطفالها وبيتها . وأن لا يتحول السكن والمودة إلى شقاق ونقار وسوء خلق.

ثم يأتي بعد دور الأم دور الأب وولي الأمر، وأن يكون قدوة لأطفاله . وقد منع رسول الله الأم أو الأب من أن يقول أحدهما: لطفله الصغير تعال أعطيك، ثم لا يعطيه شيئاً فتلك كذبة تكتب على الأب أو الأم.. ولا يمكن أن يتعلم الطفل الصغير الصدق، ويرى أمّه أو أباه يكذبان عليه.. ولا بد أن يجاهد الأبوان نفسيهما ليكونا مثلاً يحتذى من أجل أطفالهما، ويتحملا في ذلك المشاق. وليحرصا كل الحرص على الصدق والأمانة والعفة، وحسن الأدب في الحديث فالطفل يمتصّ هذه الأخلاق ويتشربها بسرعة فائقة . ولا سبيل إلى تعويد الطفل الأخلاق الحسنة بالمواعظ أو الأوامر فقط، بل إن الأوامر والمواعظ لا فائدة لها إذا لم تكن مصحوبة بواقع ملموس من أخلاق الأبوين والأهل المحيطين بالطفل أو أخوته الذين يكبرونه.

لهذا كله اهتم الإسلام اهتماماً عظيماً بالتربية، وكان هو المربي الأول لهذه الأمة والمثل الأعلى لها في جميع سكناته وخطراته وروحاته وأقواله وأفعاله، ثم جاء آل بيته الكرام، وزوجاته من آل بيته، فكانوا هم القُدوة بعده . وكذلك كان صحابته رضوان الله عليهم، وخاصة السابقين من المهاجرين والأنصار الذين مدحهم الله في كتابه وأثنى عليهم عاطر الثناء قال تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [الحشر: 8 - 10] .

ثم جاء التابعون وتتالت الأجيال .. وفي كل جيل تظهر قمم سامقه في الأخلاق والعلم والتربية. وعندما كثرت الثروات وكثر معها الفساد والفتن، ترك أهل الله هذه المعارك التافهة على الدنيا وصفّوا نفوسهم من أدرانها وتخلّوا عن الولوغ في أوحال الدنيا فكانوا نبراساً للأمة وأعلاماً لها في الخلق والدين نذكر منهم: عبدالله بن المبارك والفضيل بن عياض وبشر الحافي والأئمة الأربعة أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والإمام محمد الباقر وجعفر الصادق وموسى الكاظم وسفيان الثوري ومالك بن دينار وإبراهيم بن أدهم والحارث المحاسبي والجنيد وأستاذه سرى السقطي ومعروف الكرخي مولى الإمام علي الرضا وداود الطائي وسهل التستري وأبو طالب المكي والغزالي، (حجة الإسلام) وفي كل جيل وزمان يظهر منهم أقوام يكونون مثلاً أعلى في الأخلاق والعلم والزهد ، نذكر منهم أيضاً ابن تيمية وابن القيم والهروي والعز بن عبد السلام. ولا تخلو منهم الأمة في كل زمان ومكان، إلا أن عددهم ليس بالكثرة التي كانت في الأزمنة الأولى، كما أن بعضهم يلتحف الخمول ويبتعد عن الشهرة، فلا تعرفه الأمة إلا بعد وفاته. ولكن فضل الله واسع ولا تزال طائفة من أمة محمد على الحق ظاهرين لا يضرّهم من ناوأهم وحاربهم وعاداهم حتى قيام الساعة . وهم موجودون في كل مكان وزمان . ولكنهم أكثر ما يكونون في آخر الزمان في بيت المقدس

وأكناف بيت المقدس، والإيمان يأرز إلى المدينة وإلى مكة وإلى الحجاز كما ورد في الأحاديث الصحيحة. كما إن الايمان يمان، ويخرج في آخر الزمان اثنا عشر ألفاً من عدن (أبين) هم خير ما بينه وبينهم. كما أن عصائب الشام وأبدال العراق ومصر وخراسان تأتي في آخر الزمان لتبايع المهدي . ويظهر عيسى ويقتل المسيح الدجال وقومه من يهود وتكون المعركة الفاصلة: «تقاتلكم يهود فتقتلونهم حتى يقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله تعال ها هنا يهودي ورائي فاقتله»، فيطهّر الله الأرض من شرّهم وفسادهم. وهم أهل الفساد ما عدا أفراد منهم : {كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَ ادًا وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}» [المائدة: 64] .

وقد أفسدت الحضارة الغربية البشر بل وأفسدت الشجر والحجر والأرض والبحر قال تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَ عَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ *قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ *فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ *مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ *} [الروم: 41، 44] .

وقد أدَّى هذا الفساد إلى تلوث البيئة وارتفاع الحرارة في الأجواء وما يسمى الاحتباس الحراري، وظهر جنون البقر ومنه انتقل إلى الإنسان بسبب تغذية الأبقار ببقايا الحيوانات النافقة بدلاً من الحشائش والنباتات . وسبب ذلك شيء يدعى البايرون (Piron) وهو عبارة عن بروتين في منتهى الضآلة. وليس فيه الحامض النووي DNA أو RNA الذي يعتبر أس الحياة . والعلماء في حيرة من أمرهم كيف يتكاثر هذا البروتين وينقسم ويعدي الح يوان والبشر!!.

وهذا كله بسبب فساد الأخلاق والجشع والرغبة في زيادة الإنتاج والبروتين، أو زيادة إنتاج الألبان، أو زيادة إنتاج الدواجن، فتعطى الهرمونات والأغذية التي فيها الدم وبقايا الحيوانات النافقة فتسبب الأمراض وتسبب سوء الأخلاق !! وكذلك التلوث البيئي وزيا دة العوادم وثاني أوكسيد الكربون بسبب الصناعات التي لا تلتزم المعايير الأخلاقية ولا تقلل من هذه العوادم توفيراً للمال.. وكل ذلك يؤدي إلى الفساد في البر والبحر وفي السماء والأرض.

وقل مثل ذلك في الشركات الضخمة التي تسوّق التبغ والسجائر وتقتل كل عام خمسة ملايين شخص (منذ أواخر القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين) وسيزداد العدد حتى يصل عشرة ملايين نفس كل عام بحلول عام 2015 كما تقول منظمة الصحة العالمية .. وتصيب هذه الشركات مئات الملايين من البشر بالأمراض والأسقام كل عام، وذلك كله بسبب الجشع. والأزمة المالية الخطيرة التي أوكست العالم في أواخر عام 2008 والتي لا تزال البشرية تعاني منها، وربما لا تستطيع الخروج منها، والتي أدت إلى فقدان تريليونات الدولارات (التريليون مليون مليون) هي بسبب الجشع وفقدان الأخلاق. «إذا لم يكن هناك إله فكل شيء جائز حتى القتل» كما يقول دستوفسكي، أو كما يقول إقبال:

إذا الايمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحيى دينا

وعندما فقدت البشرية في العصر الحديث الإيمان والدين فقدت معهما الأخلاق، رغم الحديث الطويل عن الأخلاق في مجال العمل، وفي مجال الأسرة، وفي مجال الطب، وفي مجال الصناعات، والكلام الجميل بدون إيمان بالله وبالرسل وباليوم الآخر لا قيمه له.. والبناء الإنساني يتقوض.. والحضارة تنهار.

وقد أكّد الإسلام على وحدة دين الله ووحدة الرسالة قال تعالى : {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ} [فاطر: 24] ، وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ *} [غافر: 78] .

وعدد الأنبياء كبير جداً، قيل مائة وأربعة وعشرين ألفاً، كما أن عدد المرسلين أكثر من ثلاثمائة. والنبي يوحى إليه ولكنه يتّبع رسالة من قبله، والرسول يوحى إليه وقد أرسله الله برسالة إلى قومه، وما من أمة إلا خلا فيها نذير.

ولا يكون الإنسان مسلماً إلا بإيمانه بجميع رسل الله وأنبيائه قال تعالى : {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ *فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ *} [البقرة: 136، 138] .

وجميع هؤلاء الأنبياء والرسل الكرام جاؤوا برسالة التوحيد، قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *} [الأعراف: 59] .

وقال هود لقومه نفس القول: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ *} [الأعراف: 65] ، وقال صالح نفس القول ودعاهم نفس الدعوة: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ} [الأعراف: 73] ، وقالها إبراهيم وشعيب ولوط وموسى وعيسى وجميع الأنبياء والمرسلين.

والمسلمون اليوم هم الوحيدون الذين يؤمنون إيماناً جازماً بوحدة الإنسانية ووحدة الرسالة ولا إله لهم إلا الله خالق الأكوان ومدبرها قال تعالى : {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ *} [البقرة: 285] .

وقد قال : «مَثَلي ومَثَلُ الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمّها وأكملها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجّبون منها، ويقولون: لولا موضع اللبنة فأنا موضع اللبنة، جئت فختمت الأنبياء» (أخرجه مسلم في صحيحه). وانظر إلى وحدة هذا الدين الرباني على المدى الطويل لتاريخ البشرية من آدم إلى محمد صلى الله عليهم جميعاً . ثم انظر إلى هذا التواضع والخلق الرفيع. يقول خاتم الأنبياء وإمام المرسلين «فأنا موضع اللبنة في بناء شامخ أقامه أنبياء الله على مدى تاريخ البشرية كلها» أفضل ما صلّى على أحد من الخلق أجمعين . وقد ختم الله به

الرسالات وكمل به الدين قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} [المائدة: 3] .

ولا شك إن الأنبياء جميعاً قد أمروا بحسن الخلق ونهوا عن سوء الخلق ودعوا إلى مكارم الأخلاق. والرسول يقول: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (من رواية مالك في الموطأ) «وصالح الأخلاق» (في رواية أحمد في المسند). فالأخلاق قد جاء بها الأنبياء الكرام ودعوا إليها وجاء محمد ليتمّ البناء ويكون هو اللبنة الأخيرة في هذا البناء الشامخ، ويتمّم مكارم الأخلاق، ويهذّب ويشذّب ما فسد منها أو شذّ.

لهذا كله نجد لدى الأمم جميعاً، السابقة واللاّحقة أخلاقاً عالية محمودة، مصدرها ثلاثة أشياء:

(الأول) الأديان السماوية التي أنزلها الله سبحانه وتعالى.

(الثاني) الفطرة السليمة التي خلق الله الناس عليها {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً } [البقرة: 138] ، {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ } [الروم: 30] ، وفي الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . والإسلام هو دين الفطرة.

(الثالث) العقل الذي وهبه الله للإنسان والذي به عرف الحقَّ والباطل وصدَّق المرسلين . فإذا اجتمعت هذه الثلاث سعدت الإنسانية، وإذا ضاعت تمزقت الإنسان ية والبشر واجتالتهم الشياطين.

لهذا عندما استعرضت الأخلاق لدى الأمم السابقة منذ الفراعنة والسومريين والبابليين والهندوس والبوذيين والصينيين والفرس ثم اليونان، وجدت كثيراً من الأخلاق الرفيعة الهامة، ولكنها تذهب وتضيع بسبب ما ران عليها من التغييرات في دين الله .. {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ } [فاطر /24] . وبسبب فساد الفطرة وما ران عليها من العادات والتقاليد التي قسّمت البشر، وجعلتهم طبقات يأكل فيها القوي الضعيف ويستبد بها الحاكم بالمحكوم، ويتقاتلون فيها على الدنيا ومتاعها الحقير.

لهذا كله ركّزت في الجزء الثاني من الكتاب على أهمية التوحيد وتعاليم الإسلام وأركانه وأوضحت كيف أن الأخلاق لا يمكن أن تمارس وتطبق بدون هذا الدين الذي يملأ العقول والنفوس والقلوب.. أما إذا تحول إلى شقشقات وإلى طقوس فإن ذلك قليل الجدوى . وهو ما يوضح ما يعانيه المسلمون من انهيار في أخلاقهم وأحوالهم، ولا سبيل إلى العزّة والكرامة والحياة السعيدة في الدنيا والآخرة إلا باتباع تعاليم هذا الدين والاقتداء بسيّد المرسلين .. وفصَّلتُ الحديث عن القمة السامقة التي دعا إليها الرسول الكريم في الحديث القدسي «لا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإذا سألني لأعطينّه ولئن استعاذني لاعيذنّه» (أخرجه البخاري في صحيحه)، ثم ذكرت شرح الحديث عند ابن حجر العسقلاني في فتح الباري، وانتقلت إلى الشوكاني في كتابه قطر الولي في شرح حديث الولي، ورجعت إلى ابن تيمية وابن القيم ثم ذكرت أبياتاً من الرشفات للحبيب العلاَّمة عبد الرحمن بلفقيه.

رشفة من عذب موردهم   ونسمة من طيب مشهدهم

وشرحت ما قال مستعيناً بشرح الشيخ عبد الله باسودان، ثم أوردت ما ذكره الحبيب عبد الله الحداد، ثم ذكرت المقامات التسع التي ذكرها الحبيب عبد الله الحداد في ديوانه:

مقاماته تسع عليك بحفظها وإحكامها وابدأ بتصحيح توبة

وخوفٍ، ونعم الخوف للعبد سائق ونعم الرجا من قائد للسعادة

وصبرٌ جميل عند كل بليّة وأمر ونهي أو ركون لشهوة

وشكر على النعماء برؤية منعم   وصرف الذي أسداه من سبل طاعة

وصحّح مقام الزهد فهو العماد   والتوكّلُ وهو الزاد في كل رحلة

وحبِّ إله العالمين مع الرضا   بكل الذي يقضيه في كل حالة

وجاهد تشاهد واغنم الوعد بالهدى هدى نصّه بالعنكبوت بآية

وحافظ على المفروض من كل طاعة وأكثر من النفل المفيد لقربة

بكنتُ له سمعا إلى آخر النبا عن الله في نصِّ الرسول المثبّتِ

وجانب هديت النهي من كل جانب وما تشتهيه النفس من كل لذةِ

وكن في طعام والمنام وخلطةٍ ونُطق على حد اقتصار وقلّةِ

وجالس كتاب الله واحلل بسوحه ودم ذاكراً فالذكر نور السريرةِ

عليك به في كل حين وحالة وبالفكر إن الفكر كحل السريرة

وكن أبداً في رغبة وتضرّعٍ إلى الله عن صدق افتقار وفاقة

ووصف اضطرار وانكسار وذلّةٍ وقلب طفوح بالظنون الجميلة

وحقّق أصول القوم واعلم طريقهم وكل اصطلاح بينهم في الطريقة

كفرق وجمع والحضور وغيبة وصحو ومحو وانفصال ووصلة

ولا بد من شيخ تسير بسيره إلى الله من أهل النفوس الزكية

من العلماء العارفين بربهم فإن لم تجد فالصدق خير مطية

وقد شرحت هذه الأبيات شرحا موسعاً مستعيناً بالله، ثم بما كتبه الأئمة من المشايخ من أمثال ابن تيمية وابن القيم رحمهم الله تعالى.

ثم انتقلت إلى موضوع المصلحة في الشريعة الإسلامية والمصلحة في الحضارة الغربية والفروق بينهما وكان كتاب الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي «ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية» وكتاب العز بن عبد السلام سلطان العلماء «قواعد الأحكام المعروف بالقواعد الكبرى» أساساً هاماً لتوضيح هذه المعالم ، بعد أن استعرضت الفلسفة النفعية في الحضارة الأوروبية استعراضاً وافياً واستعراض رجالاتها ومنظّريها وفلاسفتها، وناقشت

الدكتور محمد عابد الجابري في كتابه الهام «العقل الأخلاقي العربي » وما فيه من محاولة لجعل المصلحة في الشريعة الإسلامية مشابهة للمصلحة في الحضـ ارة الغربية وشتّان ما بينهما.

ثم تعرّضت لفلسفة الواجب عند الفيلسوف الألماني (كانط) ومن تبعه من الفلاسفة إلى اليوم. وتأثير ذلك على الأخلاق في الغرب، مع مقارنات مختصرة وتعليقات فيما هو صواب وفيما هو خطأ على ضوء فهمي للشريعة الاسلامية.

والخلاصة إنني قد بذلت جهدي وتوسّعت في هذا الكتاب وجعلته على قسمين:

القسم الأول : الأخلاق في الأديان والأمم السابقة واعتبرت فلاسفة المسلمين متأثرين بفلاسفة اليونان ولذا ألحقتهم بهم، رغم بعض التوجهات الإسلامية.

القسم الثاني : الأخلاق في الإسلام.

والله أسأل أن يتقبل هذا العمل فما كان فيه من صواب فمن الله وحده، له المنّة والفضل، وما كان من خطأ فمنّي ومن الشيطان . والله لا يحرمني الأجر في الحالين فإياه نعبد وإياه نستعين وعليه وحده نتوكل. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . سبحان ربك رب العزة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

كتبه الفقير إلى رضا ربه

وعفوه محمد علي البار

جدة 7 شوال 1430 هـ

26 سبتمبر 2009م

الفصل الأول

الأخلاق: تعريفاتها اللغوية والاصطلاحية والفلسفية

تعريفات علم الأخلاق

الخُلُق في اللغة:

وردت كلمة خلق في اللغة بمعاني متعددة مثل الدين والسجية والطبع والشيمة والعادة وقد وصف الله سبحانه وتعالى رسوله وصفيّه ومجتباه محمد بقوله : {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ *} [القلم: 4] ،وقد جاء في الذكر الحكيم على لسان قوم هود لنبيهم: {إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ *} [الشعراء: 137] .

وفي لسان العرب لابن منظور[1] : «الخلق السجيّة والدين والطبع وتخلّق أظهر في خلقه خلاف نيته.. والخَلاق: الحظ والنصيب من الخير والفلاح وفي القرآن الكريم : {مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ} [البقرة: 102] ، أي نصيب.

ومادة (خ ل ق) تدل على تقدير ا لشيء. قال ابن فارس في مقاييس اللغة [2]: «ومن هذا المعنى (أي تقدير الشيء) الخُلُق وهو السجيّة لأن صاحبه قد قُدِّر عليه».

ويقول ابن منظور في لسان العرب مستطرداً في ماهية الخُلُق : «وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصّة بها، ب منزلة الخَلْق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها . ولها أوصاف حسنة وقبيحة . والثواب والعقاب يتعلّقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة .. والخُلُقُ للنفس كالخِلْقة للجسد، لهذا تكررت الأحاديث في مدح حسن الخُلُق».

ويقول أبو هلال العسكري في كتابه الفروق في اللغة [3] مادة (خ ل ق): الخَلْق في اللغة التقدير يقال خَلَقْتُ الأديم (أي الجلد) إذا قدَّرته خُفًّا أو غيره (حذاء مثلا) والخُلْق والخُلُقْ : العادة التي يعتادها الإنسان ويأخذ بها نفسه على مقدار بعينه، فإن زال عنه إلى غيره قيل تخلَّق بغير خلقه. وفي القرآن (الكريم) {إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ *} قال الفرّاء: يريد عادتهم . والمُخَلَّق: التام الحُسْنُ لأنه قُدِّر تقديراً حسناً، والمتَخلِّقْ : المعتدل في طباعه وسمع بعض الفصحاء كلاماً حسناً فقال: هذا كلام مخلوق وجميع ذلك يرجع إلى التقدير».

الأخلاق في التفسير:

---

(1) ابن منظور: لسان العرب، بيروت، ج 86/10 - 88.

(2)ابن فارس: مقاييس اللغة ج 214/2.

(3) أبو هلال العسكري: الفروق في اللغة، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1980 ص 129.

قال الراغب الأصفهاني [1] الخَلْقُ والخُلْقُ والخُلُقُ : في الأصل واحد، ولكن خُصَّ الخَلْقُ بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخُصَّ الخُلُق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة.

وقال الطبري[2] في تفسير قوله تعالى : {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ *} [القلم: 4] : «الخلق العظيم الأدب العظيم، وذلك أدب القرآن الذي أدّبه الله به وهو الإسلام وشرائعه . وعن ابن عباس (لعلى خلق عظيم) أي على دين عظيم وهو الإسلام. وعن عائشة تصف خُلُق رسول الله قالت: «كان خُلُقه القرآن » أي أنه كان ممتثلاً امتثالاً تاماً بأوامر القرآن ونواهيه حتى صار هو القرآن مجسداً.

وقال القرطبي في تفسيره [3]: «المراد بالخُلُق العظيم أدب القرآن، وقيل : هو رفقه بأمته وإكرامه إياهم، وقيل: إنك على طبع كريم». ورجّح قول عائشة «كان خُلُقه القرآن » لأنه لم تكن له همّة سوى الله تعالى: وقد اجتمعت فيه كل تلك المعاني فقد كانت فيه مجامع مكارم الأخلاق وامتثل تأديب الله إياه.

وقال الماوردي [4]في الخلق العظيم ثلاثة أوجه أحدها : أدب القرآن والثاني : دين الإسلام والثالث الطبع الكريم وهو الظاهر.

والخليقة الطبيعة، قال الشاعر زهير بن أبي سلمى:

ومهما تكن عند امرء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

وجمعها خلائق، قال لبيد:

واقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بيننا علاّمها

وقال الطاهر بن عاشور في تفسيره[5] : الخُلُق السجيّة المتكّنة في النفس باعثة على عمل يناسبها من خير أو شرّ. وتشمل طبائع الخير وطبائع الشرّ، ولذلك لا يُعرف أحد النوعين من اللفظ إلا بقيد يضم إليه فيقال : خُلُق حسن، وفي ضده خلق قبيح، فإذا أطلق عن التقييد انصرف إلى الخلق الحسن».

وقال الفيروزبادي في «بصائر ذوي التمييز»[6] : «اعلم إن الدين كله خُلُق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في ال دين، وهو يقوم على أربعة أركان : الصبر والعفّة والشجاعة والعدل... وذكر أن الصبر يؤدي إلى الاحتمال وكظم الغيظ، وإماطة الأذى، وعدم الطيش، والأناة. والتوسط منشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

(1)الراغب الاصفهاني: مفردات القرآن.
(2)الطبري: 12/ جزء 28 ص 13.
(3)القرطبي: جزء 28 مجلد 227/18 .
(4)الماوردي: النكت والعيون ج 61/6 - 62.
(5)الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ج 171/19 - 172.
(6)الفيروزبادي: بصائر ذوي التمييز ج 568/2.

التعريف الاصطلاحي للخُلُق:

تعريف الخلق في اصطلاح الفنون والعلوم

يقول التهانوي في كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم : «الخُلُق بضمتين، وسكون الثاني أيضاً (خُلْق) في اللغة: العادة والطبيعة والدين والمروءة، والجمع: الأخلاق.

وفي عُرف العلماء: ملكة تصدر بها عن النفس الأفعال بسهولة من غير تقدّم فكر ورويّة وتكلّف. فغير الراسخ من الصفات كغضب الحالم (الحليم) لا يكون خُلُقاً.

ويقول الجرجاني : «الخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورويّة . فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً بسهولة سُمّيت الهيئة خُلُقاً حسنا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سُمّيت الهيئة التي هي المصدر خُلقاً سيئاً... وإنما قلنا إنه هيئة راسخة لأن من يصدر عنه بذل المال على الندور، بحالة عارضة، لا يقال خُلُقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه، وكذلك من تكلّف السكوت عند الغضب بجهد أو روّية لا يقال: خُلُقه الحُلم. وليس الخُلُق عبارة عن الفعل، فربَّ شخص خُلُقه السخاء ولا يبذل، إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل، وهو يبذل لباعث أو رياء»[1] .

ويقول الدكتور محمد عابد الجابري [2] : فكرتان يتحدّد بهما معنى الخُلق وجمعه أخلاق : الأولى: الرسوخ بمعنى الثبات والدوام، والثانية : التلقائية (هيئة راسخة .. من غير تكلُّف) . والملاحظ أن الخلق بهذا المعنى غير السلوك، فهو ملكة، أو هيئة في النفس تصدر عنها الأفعال فهي منبع السلوك، ذلك لأن السلوك في اللغة من سلك طريقاً وسلك الخيط في الإبرة ، ومعناه الدخول والإدخال. ثم نُقل مع المتصوفة خاصة إلى معنى «السعي إلى الله »، وقوام هذا السعي «تهذيب الأخلاق».

«ويفيد اللفظ (أي الخُلق) الصفات التي تكون عليها النفس، حسنة كانت كالكرم، أو قبيحة كالبخل، كما يفيد معنى الدين والعادة»..

ويلاحظ الجابري أن كلمة خُلُق تأتي في الأحاديث النبوية بمعنى خاص فقد أخرج البخاري في صحيحه : أن إحدى الصحابيات قَلَتْ [3] زوجها وأرادت فراقه، فذهبت إلى رسول الله وقالت عنه : «ما أعتبُ عليه في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام » فقال لها الرسول «تردّين عليه حديقته» وكان قد أعطاها حديقة مهرا فقالت : أردّها، فأمره الرسول الكريم بمفارقتها وتطليقها. والشاهد أنها قالت: «ما أعتبُ عليه في خُلُق ولا دين» وواضح أن كلامها يفيد أن الخلق شيء والدين شيء آخر . والدين أعمّ من الخلق في هذا الباب والخلق الحسن جزء منه وفي الحديث : «إن لكل دين خُلُقا، وخُلُق الإسلام الحياء » فالدين أعمّ من

---

(1) نقلاً عن د . محمد عابد الجابري : العقل الأخلاقي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ص 33 ط 2، 2006.

(2) المصدر السابق.

(3) قَلَتْ: أي كرِهَتْ وأبغضت.

الخلق. والحياء جزء هام من الخُلُق الحسن . وفي حديث ثالث : «كرم الرجل دينه، ومرؤته عقله، وحَسَبهُ خلقه ». وفي رابع : «لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكفّ، ولا حسب كحسن الخلق» . وقد سئل رسول الله عن أكثر ما يدخل الناس الجنّة فقال: «تقوى الله وحسن الخلق » . وقال : «خُصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخُلق» . فالبخل من الأخلاق السيئة، وسوء الخلق بمعنى سوء المعاشرة والكلام أيضاً من الأخلاق السيئة . وهناك عموم وخصوص . وقد ورد أن حُسن الخلق : «هو بسط الوجه، وبذل المعروف وكَفّ الأذى » . وورد قوله : «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق» . وروي قوله : «ما أُعطي أحد أفضل من حسن خلق» .

وهذا هو العموم والخصوص والتركيز على معنىً معيّن لأهميته .. والخطاب الديني هو خطاب بياني هدفه جعل المعنى مفهوماً لدى عامة الناس باستعمال أنواع البيان واستعمال العطف والعام والخاص.. إلخ.

يقول الراغب الاصفهاني[1] : «فجُعل الخُلُق مرَّة للهيئة الموجودة في النفس التي يصدر عنها الفعل بلا فكر، وجُعل مرّة اسما للفعل الصادر عنه باسمه . وعلى ذلك أسماء أنواعها نحو العفّة والعدالة والشجاعة، فإن ذلك يقال للهيئة والفعل جميعاً. وربما تسمّى الهيئة التي عليها الإنسان والجود اسم للفعل الصادر عنها، وإن كان قد سمّى كل واحد باسم الآخر من فضله» .

وينتهي الدكتور محمد عابد الجابري إلى أن هناك أربع استعمالات للفظ الخُلُق :

(1) ـ معنى القوى الغريزية الموجودة في النفس التي يصدر عنها الفعل بلا فكر وهذا قريب من معنى الطبع والسجية (بالانكليزية Character بالفرنسية (Caractère .

(2) ـ الحالة المكتسبة التي يصير بها الإنسان خليقاً أن يفعل شيئاً دون شيء، كمن هو خليق بالغضب لحدة مزاجه[2] ، (ويعرف باللغات الأوروبية باسم Temperament) [وفي اللغات الأوربية صاحب المزاج الدموي Sanguinous Temperament وهو عنيف ومشاكس (سن الشباب)، وصاحب المزاج الصفراوي Bilious وهو حاد مع عدم تروي مع

---

(1)الراغب الأصفهاني: الذريعة إلى مكارم الشريعة، دار الوفاء، مصر 1987 ص 114.

(2) اهتم الأطباء القدامى مثل أبقراط وجالينوس بالأمزجة: Temperament وهي تمثّل الطبائع الأربع وهي:

1) الدم : وهو سكن الرطوبة والحرارة ومكانه العروق . ويلحق النفس من أعراضه قوة الشهوة للنساء ... وصاحب الطبع الدموي قوي الشكيمة، كثير الحركة، سريع الغضب، وسلطانه في مراحل العمر : الطفولة والشباب، وفيه يكون الاندفاع وعدم التروي .

2) المرّة الصفراء : حارة نارية يابسة تفرز من الحويصلة الصفراوية Gall Bladder .. ويلحق النفس من أعراضها الذكاء والنباهة والحدّة والطيش وعدم التروّي . وتظهر غلبتها في سن الشباب والرجولة.

3) المرة السوداء : ومسكنها الطحال .. وبها يكون الصمت والتفكير والتروّي والثقل والإبطاء ومنها المزاج السوداوي وفيه الحزن والارتقاض وسلطانها في سن الكهولة .

4) البلغم : وهو سكن البرودة والرطوبة ومزاجها العجز والفتور والحلم واللين وسلطانها في سن الشيخوخة . وأول من شرح هذه النظرية من المسلمين الفقية الأندلسي عبد الملك بن حبيب المتوفى سنة 238هـ ثم شرحها أبو بكر الرازي وغيره بعد أكثر من قرن..

ذكاء ونباهة . وأحياناً شعور بالغثيان . وصاحب المزاج السوداوي Melancholous وهو حزين صامت. أما المزاج البلغمي Phlegmatic فهو بارد به فتور وعجز ولين وتسامح].

وقد انتهى موضوع هذه الأمزجة في الطب الحديث، وإن كانت لا تزال تستعمل في أوصاف الحالات النفسية في اللغة والأدب وعلم النفس.. وصار الأمر أكثر تعقيداً حيث تدخل الهرمونات والجهاز العصبي ومئات بل الآف التفاعلات مع البيئة الخارجية (خارج الجسم) وداخله (أي داخل الجسم).

(3) ـ ويستعمل لفظ الخُلُق اسما للهيئة والفعل معاً، مثل العدالة والعفّة والشجاعة ، فإن ذلك يقال للهيئة والفعل جميعاً ـ كما يقول الراغب الاصفهاني والذي يضيف «وربما تسمى الهيئة باسم والفعل الصادر عنها باسم (آخر) كالسخاء والجود، فإن السخاء اسم للهيئة التي عليها الإنسان، والجود اسم للفعل الصادر عنها.

(4) ـ ويستعمل لفظ الخلق أيضاً اسماً للفعل الصادر عن تلك الهيئة . وهذا توحيد بين السلوك ودافعه الغريزي .

وينتهي الراغب الأصفهاني إلى القول بأن هناك من يرى أن الخُلُق من جنس الخِلقة ولا يستطيع أحد تغيير ما جُبل عليه ، وهؤلاء يستشهدون بقول الشاعر:

وما هذه الأخلاق إلا غرائز فمنهن محمود ومنها مذمّمُ

ولن يستطيع الدهر تغيير خِلْقةٍ بنصحٍ ولا يستطيعه متكرّمُ

ويروون عن النبي أنه قال : «من آتاه الله وجهاً حسناً وخلقاً حسناً فليشكر الله » وقوله : «فرغ الله من الخَلْق والخُلُق» . ولا دليل لهم في ذلك.

أما الصنف الثاني فيرون أنه يمكن تغيير الأخلاق . واستشهدوا بقوله «حسّنوا أخلاقكم » . ولو لم يكن من الممكن تغيير الأخلاق لما أمر به . وقال تعالى : {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا *} [الشمس: 9، 10] . ولو لم يكن كذلك لبطلت فائدة الأمر والنهي والوعد والوعيد والمواعظ والوصايا .. ولما جوّز العقل أن يقال للإنسان لم فعلت هذا؟ ولم تركت ذاك؟ وكيف يكون هذا ممتنعاً وقد وجدناه في البهائم وقد ينتقل الوحشي منها بالعادة إلى التأنس والجامح إلى السلاسة، بل هذا كله موضوع التربية بالنسبة للإنسان والحيوان . والتربية في الطفولة أسهل قبل أن ترسخ الطباع بالعادة والممارسة .. ولكن التربية ممكنة حتى بعد تقدم العمر.. وقد استطاع رسولنا الكريم محمد أن ينقل العرب بعنجهيتهم وعُنفهم، وحرصهم وجشعهم وسفكهم للدماء إلى عكس ذلك من الأخلاق الحميدة، ولولا التربية وأن الأخلاق تتغير، لما قام بذلك نبي ولا رسول ولا مصلح ولا قائد أمة .

وقد ذكر الفارابي في كتابه (الجمع بين الحكيمين)[1] (يقصد أرسطو وأفلاطون) أن أرسطو قال: من البيّن أن كل خلق إذا نُظر إليه مطلقاً، عُلم أنه ينتقل ويتغيّر ولو بعسر. وليس شيء من الأخلاق ممتنعاً عن التغير والتنقل. فإن الطفل الذي نفسه تُعدُّ بالقوّة (أي الاستعداد)

(1)أبو نصر الفارابي: الجمع بين الحكيمين، دار المشرق، بيروت 1986 ص 95.

ليس فيه شيء من الأخلاق بالفعل ولا من الصفات النفسانية . وبالجملة فإن كان فيه بالقوة، ففيه تهيوء لقبول الشيء وضده ... ويقول الفارابي : إن أرسطو يصرّح، في كتاب نيقوماخيا (رسالة أرسطو إلى نيقوماخوس) أن الأخلاق كلها عادات تتغيّر، وأنه ليس شيء منها بالطبع، وإن الإنسان يمكنه أن ينتقل من كل واحد منها إلى غيره بالاعتياد» .

ولا شك أن قوله هذا فيه حق وباطل. فالحقُّ هو إمكان تهذيب الأخلاق والنفوس، والباطل قوله أنه ليس شيء منها بالطبع . فالطبع موجود وذو الطبع الجاسي الجافي موجود كما أن الرقيق الرحيم موجود . وكما تختلف الشجرة من النوع الواحد في فصائلها فكذلك البشر {...وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ} [الرعد: 4] وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ *تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ *} [إبراهيم: 24، 25] ، {وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ *يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ *} [إبراهيم: 26، 27] .

وقد شبّه رسول الله المؤمن بالخامة (الشجرة التي تميل مع الريح) ومثَّل المنافق والكافر بالأرزة (وهي شجرة ضخمة) تقتلعها وتكسرها الرياح . إلى غير ذلك . كما شبّه المؤمن بالأرض الطيّبة التي تمسك الماء وتنبت العشب والكلأ فينتفع به الناس ومثل الكافر والمنافق كالقيعان التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ.

ولا شك في وجود الأرض الطيبة التي ينفع فيها قليل الماء والعمل، والأرض الخبيثة التي لا تنبت شيئاً إلا بعد جهد جهيد. وقد لا تنبت رغم كل تلك الجهود.

تغيير الأخلاق وكلام جالينوس ومسكويه:

ولكن كلام جالينوس أقرب إلى الحقيقة كما ينقله مسكويه (وأحياناً يقال ابن مسكويه) في كتابه «تهذيب الأخلاق»[1] حيث يقول: الخلق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روّية. وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعياً ومن أصل المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو الغضب ويهيج من أقل سبب ... ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدرب، وربما كان مبدأه بالروية والفكر ثم يستمر عليه حتى يصير ملكة وخُلقاً .

الماوردي والأخلاق[2] :

ويميز الماوردي في كتابه «تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك » بين أخلاق تَحدثُ عنها (أي النفس) بالطبع وأفعال تصدر عنها بالإرادة . أما أخلاق الذات فهي عائدة إلى الفطرة، وسميت أخلاقاً لأنها تصير كالخِلقة، منها ما هو محمود ومنها ما هو مذموم وهذا راجع إلى اختلاف ما امتزج من غرائزه (وهي متباينة) ولذلك صار من غير الممكن وجود فاضل باطلاق (ما عدا الأنبياء والرسل الكرام) أو دنيء باطلاق، وإنما

(1)أحمد بن محمد مسكويه: تهذيب الأخلاق ص 31، 32.

(2)علي بن محمد الماوردي: تسهيل النظر وتعجيل الظفر، دار العلوم العربية 1987، ص 101 - 106 نقلاً عن محمد عابد الجابري: العقل الأخلاقي العربي (مركز دراسات الوحدة العربية)، ص 39.

الفاضل من غلبت فضائله رذائله، فمكّنه ذلك من قهر رذائله . ومن هنا تصير الأخلاق نوعين: غريزية طبع عليها الإنسان، ومكتسبة تطبّع عليها . وإنما يُحمد على المكتسبة لأنها راجعة إلى فعله. أما المطبوعة فليست محلاً لاستحقاق الحمد، حتى وإن حمدت، لأنها ليست من فعله .

ويفرّق الماوردي بين السجايا والأخلاق . فالسجايا ما لم تظهره الطبائع، والأخلاق ما أظهرته فكانت قبل ظهورها سجايا، وصارت بعد ظهورها أخلاقاً.. وهذه أخلاق الذات وهي راجعة إلى الفطرة. أما أفعال الإرادة فتصدر عن أسباب باعثة عليها، داعية إليها وهي العقل والرأي والهوى. وأفعال الإرادة إذا صدرت عن العقل كانت فضيلة .. ومن هنا فإن شريف الأفعال لا يتصرف فيه إلا شريف الأخلاق.. ولما كانت النبوة أشرف المنازل والرتب انتدب الله لها من قد أكمل فضائل الأخلاق فوصفه تعالى بأنه على خلق عظيم، فأفعال النبي قائمة على أسمى الأخلاق.. وكذلك الإمامة والإمارة يجب أن ينتهض لها من أنهضته الفضائل حتى تهذّب ليسوس الرعايا بآلته، ويباشر التدبير بصناعته، فكذلك كان الخلفاء الراشدون، رضوان الله عليهم، أحقّ من تكاملت فيهم فضائل الأخلاق طبعاً وتطبعاً، وأولى من صدرت عنهم محاسن الأفعال سجيّة وتصنّعاً، لأنهم رعاة مطاعون ودعاة إلى الحقّ مجابون .... وأكثر الرعايا أتباع لامرائهم وملوكهم في الخير والشر والجهل والجدّ والهزل .. [وفي المثل المشهور «الناس على دين ملوكهم»].

وقد نقل الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب(1) كتاب جالينوس: «الأخلاق» وفيه عَرَّف علم الأخلاق بأنه بحث في قواعد السلوك، أو محاولة يراد بها وضع مبادىء نظرية عامة تستخدم أساساً لكل القواعد العلمية التي يتطلّبها سلوكنا الشخصي، وتقتضيها سيرتنا العملية، وتصرفاتنا إنما تسير بمقتضى القواعد العامة التي يضعها فلاسفة الأخلاق» .

وهذا الكلام من الدكتور بدوي غير دقيق والأخلاق لا يضعها فلاسفة الأخلاق، بل هي موجودة لدى كل البشر بالفطرة التي فطرهم الله عليها . وهي تحتاج إلى تهذيب وإصلاح، وهذه هي مهمة الأنبياء والمرسلين، والمصلحين. وأما دور الفلاسفة فهو لبعض الخاصة وللمهتمين بالدراسات الفلسفية والأخلاقية. وأما العامة، بل وأكثر الخاصة فلا يصلحهم ولا يضع لهم الأسس الحقيقية سوى الدين. و قد عرف أحمد أمين علم الأخلاق بقوله : «هو علم يوضح معنى الخير والشر، ويبيّن ما ينبغي عليه معاملة الناس بعضهم بعضاً.. ويشرح الغاية التي ينبغي أن يقصدها الناس في أعمالهم وينير السبيل لعمل ما ينبغي»(2) .

وعرَّفه حاجي خليفة بقوله : «هو علم بالفضائل وكيفية اقتنائها لتتحلى النفس بها، وبالرذائل وكيفية توقّيها لتتخلّى عنها» (3).

---

(1)د. عبد الرحمن بدوي : كتاب الأخلاق ضمن كتاب : دراسات ونصوص في الفلسفة دار العلوم عند العرب المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص 190 .
(2)أحمد أمين: الأخلاق، دار الكتاب العربي، بيروت ص 12.
(3) حاجي خليفة: لكشف الظنون: ج 191/1.

ويعقب الدكتور جمال نصار[1] على هذه التعريفات:

بأن تعريفات جالينوس (وقيل أنها لأرسطو في رسالته إلى نيقوماخوس) قد جعلت الخلق بأنه ينتج عن النفس مباشرة دون اختيار منها. وقد تأثر بذلك مسكويه (المتوفى سنة 421هـ)، في كتابه «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » كما تأثر بذلك الفارابي (329هـ) وابن سينا (428هـ). بل تأثر بذلك التعريف الراغب الأصفهاني (502هـ) في كتابه «الذريعة إلى مكارم الشريعة » والغزالي (505هـ) في كتابه «إحياء علوم الدين » حيث يقول الغزالي : «الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروّية. فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سُمّيت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سُمّيت الهيئة التي هي المصدر خُلقاً سيئاً [2].

ويعتبر تعريف حاجي خليفة مختصراً ومبيّناً لاكتساب الفضائل واجتناب الرذائل . وه و ما قد ذكره أرسطو في رسالته إلى نيقوماخوس حيث قال : «في الشؤون العملية ليس الغرض الحقيقي هو العلم نظرياً بالقواعد، بل هو تطبيقها . فيما يتعلق بالفضيلة لا يكفي أن يعلم ما هي؟ بل يلزم على ذلك رياضة النفس على حيازتها واستعمالها، ولو كانت الخطب والكتب وحدها قادرة على أن تجعلنا أخياراً لاستحقت كما يقول نتيوجينس أن يطلبها كل الناس وأن تشترى بأغلى الأثمان، ولكن لسوء الحظ كل ما تستطيع المبادىء [أن تفعله] في هذا الصدد، أن تشدّ عزم بعض فتيان كرام على الثبات في الخير وتجعل القلب الشريف بالفطرة صديقاً للفضيلة وفيّاً بعهدها»[3] .

وكلام أرسطو وغيره في هذا الجانب مهم جداً، لأن الأخلاق لا تكتسب سوى بالمران ومجاهدة النفس والتربية. وهذه تبدأ في المنزل من الأبوين وخاصة الأم فهي المدرسة الأولى وعنها يتلقى الطفل كثيراً من نوازعه وأخلاقه وآدابه، وكما قال حافظ إبراهيم:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

ثم بعد ذلك يأتي دور الأب . ثم دور المربّي .. ولهذا اهتم علماء الإسلام اهتماماً عظيماً بالتربية، وخاصة الصوفية منهم، فعليها مدار التوجيه في اكتساب الأخلاق الحسنة وصرف الأخلاق السيئة، ووجود القدوة والمثل المحتذى، ودور الشي خ هو دور المربّي لتلاميذه ومريديه، ويستخدم في ذلك وسائله المتعددة التي تناسب كل فرد من الأفراد الملتقّين حوله والمتلقّين عنه. وهو في ذلك مثلهم وقدوتهم.. وكلهم عن رسول الله ملتمس فهو الإمام الأعظم والقدوة الأولى قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ } [الأحزاب : 24] ، وقال تعالى : {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } [آل عمران: 31] .

---

(1) د. جمال نصار: مكانة الأخلاق في الفكر الإسلامي، دار الوفاء، المنصورة 1425هـ/ 2004، ص 10 وما بعدها.

(2)الغزالي: إحياء علوم الدين ج 96/3 - 97.

(3)نقلاً عن جمال نصار المصدر السابق: (مكانة الأخلاق في الفكر الإسلامي) .

موضوع علم الأخلاق:

«هو العلم الذي يتناول دراسة أفعال الناس بالقياس إلى مثل أعلى، حتى يتسنّى له وضع قواعد لسلوكهم وتصرّفاتهم، تعينهم على فعل الخير والابتعاد عن الشر، ومعنى ذلك أن يتصل موضوعه أولاً بأفعال الناس، فلا تعنيه الظواهر الطبيعية، بل تعنيه الإنسانية فقط، ... من حيث أنها تقترب أو تبتعد عن غاية عليا هي المثل الأعلى»[1] .

ويمتاز علم الأخلاق عن الفلسفة النظرية بأنه فلسفة عملية تبحث عما ينبغي أن يكون في مجال السلوك الإنساني. وبالتالي تدرس الأفعال الصادرة عن الإنسان الحرّ الواعي، وهذا يقتضي النيّة والقدرة (على فعل الشيء)، والمعرفة، رغم أن تعريف جالينوس ومن تابعه عرّف الخلق بأنه حال للنفس داعية للإنسان أن يفعل الأفعال بلا رويّة ولا اختيار ولا تدبّر . ومقصوده الأفعال الصادرة من الإنسان بالجبلة والطبع، وهو في الواقع تعريف قاصر.

وعلم الأخلاق أوسع من ذلك بكثير، وينقسم إلى قسمين:

[1] - علم الأخلاق النظري:

ويبحث في المبادىء الكلية التي تستنبط منها الواجبات الفرعية . ويبحث هذا العلم حقيقة الخير وفكرة الفضيلة من حيث هي، وعن مصدر الإيجاب ومنعه، وعن مقاصد هذا العمل وأهدافه البعيدة. ويطلق على هذا العلم فلسفة الأخلاق ودراسات النظريات الأخلاقية المختلفة وما يوجه إلى هذه النظريات من نقد ومحاولة إيجاد حلول للاتجاهات والفلسفات المختلفة.

[2] - علم الأخلاق العملي:

ويبحث في أنواع القيم الفاضلة التي على الإنسان أن يتحلّى بها ويمارسها في حياته اليومية، مثل الصدق والإخلاص والأمانة والوفاء والعفّة والشجاعة والعدل والرحمة، وأن يتجنب أضدادها مثل الكذب والغشّ وعدم الوفاء والشره والجبن والخسّة والظلم والقسوة.

وعلم الأخلاق العملي يهدي إلى محاسن كل دين أو عمل أو منفعة كما يكشف عن مآخذه ومساويه. وقد عرفت كل الأمم والشعوب في القديم والحديث هذا النوع من الأخلاق العملية، واتفقت على مبادئها في الجملة، وإن اختلفت التفاصيل حسب البيئة والمجتمع وتطور الزمان. وقد جاءت الأديان السماوية كلها تحثّ على مكارم الأخلاق وتنهى عن مفاسدها . وكان الرسل صلوات الله عليهم هم القُدوة للبشر في هذا المجال منذ آدم إلى خاتم الأنبياء وإمام المرسلين محمد الذي قال عنه ربه: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ *} [القلم: 4] وقال عنه : {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ *} [الأنبياء : 107] ، وقال عنه : {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: 159] ، وقال عنه : {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [التوبة: 128] .

(1) يحيى هويدي : مقدمة في الفلسفة العامة ص206 .

وقال عن نفسه : «إنما بعثت لاتمم مكارم الأخلاق » أخرجه البخاري في الأدب المفرد ومالك في الموطأ والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً. وكتب الشمائل وكتب الحديث والسيرة عامرة بوصف أخلاقه . ثم إن الكتب في أخلاق آل بيته وصحبه الكرام والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين تملأ مكتبات زاخرة.

وسنستعرض باختصار شديد الأخلاق عند مختلف الأمم والأديان .. ثم نركز القول على الأخلاق وعلومها عند المسلمين ثم ننتقل إلى العصور الحديثة وبالذات على فلسفة المصلحة (الفلسفة النفعية). ونقارن بينها وبين ما ورد في الشرع الحنيف. وذلك لأهمية هذه الفلسفة في العصر الحديث حيث صارت هي الفلسفة المسيطرة منذ القرن التاسع عشر الميلادي إلى اليوم ، وما هو الفرق بينها وبين ما ذكره علماء أصول الفقه والقواعد الفقهية في باب المصلحة.

الدين المصدر الأول للأخلاق:

ولا شك أن المصدر الأول للأخلاق هو الدين . وكانت الأديان كلها حريصة على تثبيت الأساس الأخلاقي لمعتنقيها وأتباعها . وبما أن الله سبحانه وتعالى لم يت رك أمة من الأمم إلا وقد بعث لها رسولاً منهم يدلّهم على الخير وينهاهم عن الشر ويأمرهم بعبادة الله الواحد الأحد، فإننا نرى في هذه الأديان رغم انحرافها وزيغها آثار التوحيد الأولى مغطّاة بركام الشرك، كما نرى أخلاق الدين الأصيلة لدى هذه الأمم وقد تغطّت أحياناً بقاذورات الفلسفات والعادات ونظام الطبقات الجائر . واستبداد القوي بالضعيف واعتبار الحقّ هو القوة والقوة هي الحق، ويالتالي استعباد الأمم والشعوب بمن يملك القوة . وهو مبدأ قديم خوّل لهذه الأمم أن تستعبد غيرها .. واستمرَّ ذلك إلى يومنا هذا وإن تغطّى بكلمات براقة من الديمقراطية والعولمة ومحاربة الإرهاب .

وكما عانت الأمم من هذا الظلم (القوي يأكل الضعيف)، عانت الطبقات المختلفة في الأمة الواحدة، وعانى الأفراد كذلك في المجتمع الواحد .

وقد صاغ الفلاسفة والمنظّرون منذ عهد اليونان فلسفاتهم ونظرياتهم الأخلاقية والاجتماعية بعيداً عن الدين فأدّى ذلك إلى مزيد من الانحدار في الأخلاق وانهيار في القيم .. وفي العصور الحديثة أزيح الدين جانباً واعتمد العقل ثم جاءت الحداثة وما بعد الحداثة فتزلزلت مكانة العقل واختلّت الموازين وسنناقش ذلك في فصول خاصة لأهمية هذا الموضوع الأخلاقي.

مفاهيم أخلاقية في العصور الحديثة:

يقول ليفي بريل(1) في تعريفه للأخلاق أنها تطلق على ثلاثة معان:

الأول : تطلق كلمة الأخلاق على مجموعة من الأفكار والأحكام والعواطف والعادات التي تتصل بحقوق الناس، وواجبات بعضهم تجاه بعض، والتي يعترف بها ويقبلها الأفراد بصفة عامة في عصر معيّن أو في حضارة معينة.

---

(1)ليفي بريل: الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية، ترجمة الدكتور محمود قاسم، البابي الحلبي القاهرة (د.ت.) ص 169.

الثاني : أنها تطلق على العلم الذي يدرس هذه الظواهر .. وعلم الأخلاق يدل على العلم وموضوعه في آن واحد.

الثالث : «يطلق علم الأخلاق أو الأخلاق على تطبيقات هذا العلم (Applied Ethics) وعلى هذا يفهم من تقدم الأخلاق تقدّم الحياة الإجتم اعية مثل زيادة العدالة والتعاون والأمن والطمأنينة وما إلى ذلك».

أما دور كاريم [1]فيرى أن أهم خصائص الأخلاق أنها تضع نظاماً وقاعدة للسلوك الإجتماعي. وتضع للسلوك الإنساني غاية خيّرة تجذب الناس إلى فعل الخيرات . وهذا النظام موضوع على شكل واجبات يلتزم بها المجتمع لتحقيق الخير لنفسه . «وبناء على ذلك تكون الأخلاق في نظر الاتجاه الاجتماعي علماً وضعياً واقعياً يدرس سلوك الإنسان مرتبطاً بزمانه ومكانه. وليس علماً معيارياً مثالياً يدرس السلوك من حيث ما ينبغي أن يكون عليه وفقاً للمثل العليا التي يؤمن بها المجتمع على أنها فوق موضوعاته».

ولعل أبرز من تحدث عن فلسفة الأخلاق في العصور الحديثة ولا زالت آراؤه وفلسفته تؤثر في علم الأخلاق هو الفيلسوف الألماني عمانويل كانت (1724 - 1804م)، وهو مفهوم تأثر إلى حد ما بفلاسفة اليونان من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو، وزاده عمقاً وهو المفهوم العقلاني المثالي، كما أنه جعل الأخلاق هدفاً في ذاتها [2] ، على اعتبار أنها تمثل فلسفة الواجب الذي ينبغي أو يجب أن يعمل دون انتظار لأي جزاء لا في الدنيا ولا في الآخرة. (رغم أن كانت يؤمن بالآخرة). ولكنه يرى أن الواجب الأخلاقي يفرض نفسه على الإنسان السوي، و لذلك يسمي الأخلاق علم الواجبات Deontology ، بينما كان فلاسفة اليونان (أرسطو، أفلاطون) يؤكدون على أن غاية الأخلاق هي الخير والكمال الإنساني والسعادة.

ووفقاً لمفاهيم كانت فإن الأخلاق هي مثل عليا يتعرف عليها العقل الإنساني ويصبح واجباً عليه أن يتعرّف عليها ويطبقها في حياته، باعتبارها واجباً لا محيص عنه وهو بذلك يختلف عن علماء الأخلاق الوضعيين الاجتماعيين الذين يرون الأخلاق علماً وضعياً ناتجاً عن فلسفة واتجاه المجتمع المعين، وهو عند كانت علم معياري[3] .

وهناك اتجاه آخر يسمّى الاتجاه النفعي (Utilitarianism) أو العملي (Pragmatism) . وهذا الاتجاه موجود منذ القدم لدى اليونان ويمثله أرستبوس تلميذ سقراط الذي فسّر السعادة باللذة . وقال : إن على المرء أن يستعجلها لأن تأخيرها يثير في النفس البؤس والشقاء

---

(1)أ.دوركاريم: التربية الأخلاقية، ترجمة السيد محمد بدوي، مكتبة مصر، القاهرة (د.ت) ص 117.

(2)مقداد يالجن: علم الأخلاق الإسلامية، دار عالم الكتب، الرياض 2، ص 36 ، وانظر الفصل الأخير من هذا الكتاب فقد خصصته لمناقشة فلسفة (كانت) الأخلاقية.

(3)عمانوئيل كانت (1724 - 1804م) : فيلسوف ألماني مثالي، ورفض الاعتماد على الحس لأن الأحاسيس تخطىء . وجعل الاعتماد على العقل. وإذا كانت خبرة الحواس تأتينا بالمادة الخام للمعرفة، فالعقل هو الذي يصوغها في مكان وزمان. ونحن نعرف ظواهر الأشياء أما حقائقها المطلقة فلا سبيل إلى معرفتها إلا بوسائل أخرى . والأخلاق تنبني على أسس الإيمان وحرية الإرادة ووجود الله. وهكذا يكون للعلم مجال الظواهر بينما تبقى الأ خلاق «الشيء في ذاته ». وأشهر كتبه «نقد العقل الخالص، و«نقد العقل العملي» و«نقد الحكم». وكلمة نقد هنا معناها التحليل الذي يوضح معالمها.

والحرمان. والسلوك الذي يحقق هذه السعادة القائمة على تلك اللذات، أخلاقي ، والمبادىء السلوكية التي تحققها مبادىء أخلاقية. وهذا المذهب هو الذي أخذ به أبيقور (Epicure) [(1)] واشتهر بمذهب اللذة، بل بمذهب الانغماس في الشهوات (Hedonism) ، مع أن مذهبه الحقيقي لم يكن كذلك، بل كان يدعو إلى الاعتدال في تحقيق شهوات النفس، وكان هو نفسه يتمتع بمقدار من الزهد. ولكن من جاء بعده وسَّعَ الدائرة حتى ارتبط اسمه باتباع الشهوات.

وفي العصور الحديثة ظهر (هوبز) [(2)] الذي يرى أن الأخلاق توضع وسيلة لتحقيق المنفعة. وليست طبيعة في الإنسان . ولذا فإن الإنسان يبحث في الواقع عما ينفعه وبالتالي يضع لذلك الفلسفة الأخلاقية المناسبة لذلك.

ثم ظهر بينثام[(3)] وجون ستيورات مِل[(4)] وغيرهما . وقالوا: أن على الإنسان أن ينشد منفعة البشر عامة أو أكبر مجموعة من البشر. وهم بذلك وسّعوا مفهوم المنفعة التي قال بها هوبز من نطاقها الضيّق إلى نطاقها الأوسع . وهذه الفلسفة العملية لها ما يبررها، وفي الشرع الإسلامي تقرر أن المصلحة أحد ركائز الشريعة. «وأينما كانت المصلحة فثمّ شرع الله » كما يقول ابن تيميه، ولكن الفرق بين الاتجاه الإسلامي في اعتبار المصلحة هو أنها محدّدة بالشرع الإسلامي، فهناك مصالح مهدرة، وإن كانت تحقق في ظاهرها خيراً عاماً . ومثال ذلك صناعة الخمور وترويجها وبيعها، وشربها باعتدال فأنها تحقق للمجتمع بعض المنافع، مثل العمالة والتجارة والمكاسب، والضرائب التي يتم جمعها للدولة، وشعور شارب الخمر بالسرور (الوقتي) والسعادة الظاهرية، ففي فرنسا على سبيل المثال يعمل أكثر من مليون شخص في صناعة الخمور وترويجها وبيعها.. وتشكل دخلاً كبيراً للدولة من تصديرها ومن الضرائب عليها . ولكن أضرارها في النهاية تفوق تلك المنافع بأضعاف مضاعفة . ولو افترضنا جدلاً أن منافعها تفوق مضارها (وهو أمر غير صحيح) فإنها تعتبر منافع ومصالح مهدرة. وكذلك يعتبر الشرع الإس لامي بيع التبغ (الدخان بكافة أشكاله) محرّماً ومصلحة مهدرة، رغم أن الشركات تكسب مليارات الدولارات من وراء صناعته وتجارته، ويعمل في زراعته وصناعته وتسويقه ملايين الأفراد. كما أن دخل كثير من الدول يعتمد على الضرائب المفروضة عليه.. وهكذا قل في تجارة الفن الهابط، بل إن الإسلام يحرّم بيع ما لا نفع فيه، فضلاً عما فيه ضرر محقق. بينما ترى الفلسفات الغربية أن هناك مصلحة عامة تبرّر هذه الأشياء وتسمح بها.

---

(1)أبيقور : (241 - 270 قبل الميلاد) فيلسوف يوناني، عرّف الفلسفة بأنها إسعاد الذات بالمتعة العقلية وهي الخير الأوحد . وأساس فلسفته لذة التأمل التي لا يعقبها ألم. وقد أسيء فهم مذهبه فقيل أنه يدعو إلى التمتع بالملاذ الحسيّة الدنيوية، وهو يريد الابتعاد عن الألم وليس الانغماس في الملاذ والشهوات.

(2)هوبز: (1588 - 1679) فيلسوف إنجليزي. دافع عن الحكم الملكي المطلق وتفضيله على الأرستقر اطية والديمقراطية، والأخلاق تتبع المنفعة.

(3)بينثام (جرمي): (1748 - 1832) فيلسوف إنجليزي أقام مذهب المنفعة في الأخلاق. والخير هو السعادة . والسعادة هي اللذة وسعادة الفرد مرتبطة بسعادة المجتمع وتحقيق الخير لغالبية الناس.

(4)جون ستيوارت مل: (1806 - 1873) فيلسوف إنجليزي، مذهبه في الأخلاق هو النفع الأعظم لأكبر عدد من الناس، وهو نصير الحرية السياسية والإصلاح الإجتماعي.

واشتهر جون ديوي [1] بتوسيع هذه الفلسفة البراجماتيه Pragmatism ويرجع المذهب البراجماتي الأخلاق إلى نتائج الأعمال (Consequencialism) دون بواعثها . وبالتالي ينظر في هذه النيتجة لهذه الأعمال وما تحققه من نفع، فإذا حققت نفعاً عاماً أكبر من الضرر، فهي مقبوله أخلاقياً، دون النظر إلى البواعث أو الواجب (كما كان يقول به كانت). وما يحقق نفعاً فإنه يعتبر عملاً أخلاقياً جيداً . فالاستعمار مثلاً، عندهم، يحقق مكاسب كبيرة لأوروبا والدول المتقدمة صناعياً، ويقوم بتمدين الدول المتخلفة والمتوحشة وإدخالها إلى دائرة المدنية والحضارة، ولذا يعتبر عملاً أخلاقياً، رغم ما يصحبه من قتل وظلم ومآسي، فهو في المحصلة عمل أخلاقي لأنه يفيد البشرية حسب زعمهم الكاذب والفاسد . وكذلك نشر الفن (الهابط) يحقق مكاسب كبيرة مادية لمجموعة كبيرة في البشر، ويسعد الملايين، ولا شك أنه في حسبانهم عمل أخلاقي . وكذلك كل عمل من الأعمال فإن حقق خيراً لأكبر عدد من المجتمع (والمقصود الإنسان الأوروبي الأبيض) فهو خير، وإن لم يحقق هذا الخير لأكبر عدد من هؤلاء البيض الأسياد فهو شر ولذا يهتم البراجماتي بالنجاح العملي .. وقد قامت الولايات المتحدة موطن جون ديوي بتحقيق نجاح مذهل في تطبيقات النجاح العملي والإداري والعملي. وبالتالي حققت الولايات المتحدة الامريكية منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى قرب نهاية القرن العشرين نمواً متتالياً .. وقوة ضخمة جعلتها الدولة الأقوى في العالم، ووريثة الامبراطوريات البريطانية والفرنسية والألمانية ثم السوفياتية .. وبنت أمريكا قوتها المادية على فلسفة جون ديوي النفعية (Utilitarianism) والعملية (Pragmatism) البراجماتية . وحقّقت في ذلك الاتجاه المادي قفزات كبيرة، وأخذت فلسفتها تغزو العالم بأجمعه.. الربح، المال، التقدم المادي السريع، وبالنهاية الخواء الروحي والأخلاقي والذي أدّى أيضاً إلى الانهيار المالي المريع الذي ظهر في 2008 والذي ستمتد آثاره إلى أجيال مقبلة.

وقد عرف جون ديوي الأخلاق بأنها كل ما ينطوي عليه العمل من عمليات الإمعان، أي الموازنة والتروي والرغبة أو الدوافع سواء كانت هذه العمليات قريبة أو بعيدة، ومعيار الأخلاق هو تحقيق المنفعة العملية. وبناء على ذلك اعتبر كل فكرة أو اعتقاد يؤدي إلى العمل الناجح أمراً أخلاقياً قيمياً، بصرف النظر عن قيمتها العلمية أو المنطقية أو العقلية . وبالتالي فكل عمل أو فكرة تؤدي إلى عمل ناجح ومكسب مادي فهي عملية أخلاقية . لأن ذلك العمل ينفع عدداً كبيراً من البشر. وطالما أن المنافع أكبر من المضار (المصالح أكثر من المفاسد بالتعبير الإسلامي الفقهي مع اختلاف تام في المنهج والتفاصيل)، فإن ذلك العمل يعتبر عملاً أخلاقياً[2][3] .

(1)جون ديوي: (1859 - 1952) فيلسوف أمريكي، اشتهر بمجموعة من الكتب مثل كيف تفكر؟ الديمقراطية والتربية، التجديد في الفلسفة. فلسفته منبثقة من الاتجاه التجريبي البراجماتي العملي. والتربية عنده نمو مستمر وتدريب مستمر .
(2)جون ديوي: تجديد في الفلسفة ترجمة أمين مرسي، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة (د.ت) ص 273 .
(3)د. توفيق الطويل: الفلسفة الخلقية، دار النهضة العربية، القاهرة 1967، ص 269 - 276.

وهناك اتجاهات فلسفية أخلاقية عديدة في العصر الحديث ولكنا سنرجىء الحديث إلى موضعها في آخر الكتاب. وقد استعرضنا هاتين الفلسفتين الهامتين باختصار هاهنا لأنهما لا تزالان العمدة في فلسفة الأخلاق وهما:

(1) فلسفة الواجب Deontology ورائدها عمانوئيل كانت.

(2) الفلسفة النفعية (Utilitarianism) أو فلسفة نتائج الأعمال (Consequentiatism) وتعرف أيضاً باسم البراجماتية Pragmatism وروادها الكبار ثلاثة بنتام وجون ستيوارت مِل وجون ديوي.

الفصل الثاني
الأخلاق في الأديان والأمم الغابرة

الأخلاق والدين فيالحضارة المصرية القديمة

لا شك أن مصر هي إحدى الحضارات العريقة في التاريخ الإنساني. وقد بدأت منذ حوالى ثلاثة الآف سنة قبل الميلاد . واستطاع ملك الوجه القبلي واسمه مينا أن يهزم ملك الوجه البحري وأن يوحد مصر لأول مرة في التاريخ. واستطاع مينا (مينوس) أن يقيم قانوناً عاماً للمملكتين السابقتين وديناً عاماً لمصر تحت رعاية الإله (تحوت)، وعاصمة تدعى ممفيس بالقرب من موقع القاهرة الحالي.

وهناك ثلاث مجموعات من الممالك حكمت مصر عبر عشرين أسرة حاكمة هي:

(1) المملكة القديمة:

وبدأت بالأسرة الثالثة حوالي عام 2686 ق.م. وعرفت الخمسمائة سنة التالية ببناء الأهرامات ابتداء بهرم سقارة المدرج (عام 2650) وانتهاء بالأهرامات الثلاثة في الجيزة خوفو وخفرع ومنقرع.

(2) المملكة الوسطى:

(الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة) واستمرت حتى عام 1786 ق.م عندما استولى عليها الهكسوس (الرعاة) وهم كما يقال من اليمن هاجروا إلى شمال الجزيرة العربية ومنها إلى مصر. وتميّزوا باختراع حربي هو العربات السريعة التي تجرّها الأحصنة ودقة الرمي رغم هذه السرعة.

وفي عهد الهكسوس ظهر نبي الله يوسف الذي جاءت قصته في القرآن الكريم بسورة كاملة وتدلنا هذه القصة على مستوى حضاري لهؤلاء الملوك (ولم يسمه القرآن الكريم فرعوناً بل ملكاً) ، وعلى تحكّم المرأة في القصور وجرأتها في المجتمع وفي ابداء عواطفها . وبوصول يوسف إلى منصب العزيز استدعى والده يعقوب وأخوته فدخلوا مصر وعاشوا بها إلى زمن موسى . وكانوا في رغد من العيش حتى تم طرد الهكسوس فاضطهدهم المصريون، وبالذات فرعون موسى مما قصّه الله علينا في القرآن الكريم في العديد من السور والآيات المعجزات.

(3) المملكة الحديثة وأخناتون:

وتبدأ منذ حوالي 1554 بالأسرة الثامنة عشرة ومؤسسها أحمس الذي طرد الهكسوس . وعاصمتها طيبة وأكبر آلهتها آمون ـ رع (وكلاهما اسم للشمس) وامتدت هذه الامبراطورية إلى سوريا الكبرى والسودان في عهد تحتمس الثالث. وفي عام 1367 تولى امنحوتب الرابع العرش وقام بتغيير اسمه إلى أخناتون ـ وعبد الشمس باسم آتون وحطّم المعابد القديمة ونظامها القديم مما أدى إلى محاربة الكهنة له ثم بعد ذلك الشعب، فمات كمداً بعد أن تقلصت الامبراطورية العظيمة إلى دولة ضعيفة . واشتهر أخناتون بشعره الرقيق في الإله الواحد (آتون) حتى أن المصريين وبعض الغربيين اعتبروه أول موحد في التاريخ . وهو أم ر غير صحيح، فأول موحد هو آدم . وبقي أولاده لعشرة أجيال موحدين ثم اجتالتهم الشياطين فأشركوا بالله، ثم جاء نوح .. وهكذا في سلسلة طويلة من الأنبياء والمرسلين قبل أخناتون. ثم

إن أخناتون عبد الشمس واعتبر نفسه ابن الإله. وتزوج اخته الجميلة نفرتيتي. ويزعم برستيد وغيره من المؤلفين الغربيين (ويطرب لذلك المصريون المحدثون) أن مزامير داود ليست إلا تحريفاً لأناشيد أخناتون. وهو قول مرفوض لكل مسلم فداود نبي من الأنبياء الكرام أنزل الله عليه الزبور (وهو نفسه المزامير)، ولكنَّ الزبور الأصلي قد ضاع كما ضاعت التوراة بأكملها.. وأن اليهود عندما أعادوا صياغة المزامير أخذوا من أناشيد أخناتون واقتبسوا منها . والمزامير الحالية بها 150 مزموراً منها 73 منسوبة إلى داود والباقية إلى موسى وسليمان وآساف وقورح وغيرهم . ويقولون أن المزمور 104 مأخوذ بنصه من نشيد أخناتون [1]
ويقول أخناتون في إحدى قصائده [2] وهو يخاطب آتون إله الكون متمثلاً في قرص الشمس:

ما أجمل مطلعك في أفق السماء
أي أتون الحي، مبدأ الحياة
فإذا ما أشرقت في الأفق الشرقي
ملأت الأرض كلها بجمالك
اشعتك تحيط بالأرض، بل بكل ما صنعت
وإنك لتربطها جميعاً برباط حبك
ومهما علوت فإن آثار قدميك هي النهار
وإذا ما غربت في أفق السماء الغربي
خيّم على الأرض ظلام كالموت
ونام الناس في حجراتهم......
ما أبهى الأرض حين تشرق في الأفق
حين تضيء يا أتون بالنهار
تدفع أمامك الظلام
وإذا ما أرسلت أشعتك
أضحت الأرض في أعياد يوميه
واستيقظ كل من عليها ووقفوا حين رفعتهم
ورفعوا أيديهم يمجدّون طلوعك
وازدهر الشجر والنبات

(1)ناقشت هذا الموضوع بالتفصيل في كتابي الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم : (د. محمد علي البار)، دار القلم ص 403 - 407.
(2)ول ديورانت: قصة الحضارة ج 169/2 - 175.

ورفرفت الطير في مناقعها
واجنحتها تسبح بحمدك......
يا خالق الجرثومة في المرأة
ويا صانع النطفة في الرجل
ويا واهب الحياة للابن في جسم أمه
يا من يغذيه وهو في الرحم
يا من يهدئه فلا يبكي
يا واهب الأنفاس.. وحين يخرج من الجسم في يوم مولده
تفتح أنت فاه لينطق وتمدّه بحاجاته
***
أيها الإله الأوحد الذي ليس لغيره سلطان كسلطانه
يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك
***
أنت موجد النيل في العالم السفلي
وأنت تأتي به كما تحب لتحفظ حياة الناس
الا ما أعظم تدبيرك يا رب الأبدية
إن أشعّتك تغذّي كل الحدائق
فإذا ما أشرقت سرت فيها الحياة
أنت الذي تنمّيها وأنت موجد الفصول...
***
إنك في قلبي
وما من أحد يعرفك إلا ابنك خاتون
لقد جعلته حكيماً بتدبيرك وقوتك
إن العالم في يدك
بالصورة التي خلقته عليها
فإذا أشرقتَ دبّت فيه الحياة
وإذا غربت مات

لأنك أنت نفسك طول الحياة
والناس يستمدّون الحياة منك
ما دامت أعينهم تتطلع إلى سناك
حتى تغيب، فتقف كل الأعمال
حين تتوارى في المغرب
***
أنت أوجدت العالم
وأقمت كل ما فيه لابنك
أخناتون ذي العمر المديد
ولزوجته الملكية الكبرى محبوبته
سيدة القطرين نفرتيتي
الباقية المزدهرة أبد الآبدين.
***

من هذه القصيدة وأمثالها يتبين أن ما يعتبره المصريون وبعض الغربيين أول موحد في الكون ليس إلا عابداً للإله الشمس. ويعتبر نفسه ابن هذا الإله كما زعم الفراعنة من قبله ومن بعده. وميزته أنه نفى الألوهية عن الآلهة الكثيرة المتعدّدة التي كانت تُعبد من دون الله في مصر. وأضفى على الشمس كل صفات الألوهية الحقّة. وهو في ذلك قد أخطأ الطريق وضلّ السبيل رغم دعاوى أخوتنا المصريين (الأستاذ محمود عباس العقاد، والدكتور مصطفى محمود، والدكتور أحمد فخري، والدكتور بدران محمد)، وبعض علماء الآثار والتاريخ من الغربيين من أمثال جيمس هنري برستد والأستاذ جرسمان والبحاثة ول ديورانت.

وقد عبد المصريون القدماء العديد من الآلهة من بينها الشمس باسم آمون ورع ثم آتون والعجل أبيس، والعديد من الحيوانات والآلهة المثلثة : إيزيس وزوجته أوزيريس وابنه حورس (وقد أخذ النصارى منهم عقيدة التثليث هذه).. والآلهة بتاح، وتحوت آلهة الحكمة وآلهة الموت. ويؤمن المصريون القدماء بأن الملوك الفراعنة هم من نسل الإله آمون رع . ولذا تجب طاعتهم.

ويؤمن المصريون بالحياة بعد الموت ولهذا شيّدوا الأهرامات لملوكهم وجعلوا في قبورهم كل ما يحتاجه الإنسان عند بعثه حيث كانوا يتصورون أن الروح تعود إلى الجسد بواسطة صلوات ورقى يجعلها الكهنة، وتعيدها الآلهة أوزيريس إلى الحياة . ولهم كتاب يُسمى كتاب

الموتى. ويعتقدون بالحساب. وقد جاء في كتاب الموتى دفاع أحد الموتى عن نفسه في محكمة رئيس الآلهة أوزريس[1]:

«إنني لم أقترف إثماً، ولم أعتد على أحد، ولم أسرق، ولم أتسبّب في قتل أحد غيلة، وغدرا. ولم أبخل بشيء من القرابين للآلهة، ولم أجعل أحداً يبكي، ولم أكن دنسا، ولم أقتل الحيوانات المقدّسة، ولم أتلف أرضاً مزروعة، ولم أشِ بأحد، ولم أغضب مطلقاً، ولم أزن، ولم أرفض سماع الحقيقة.. ولم ألوّث الماء، ولم أجعل سيّداً يسيء معاملة عبده، ولم أحنث في يميني، ولم أغشّ في الميزان، ولم أحرمْ رضيعاً مرضعته.. ولم أقطع فتاة عن مجراها، ولم اطفـىء ناراً حين الحاجة إليها. ولم استخفّ بصوت الله في قلبي. إني طاهر إني طاهر!!».

وهو كلام في منتهى الأهمية حيث يد لنّا على مستوى الأخلاق الرفيعة المطلوبة في يوم الحساب والدينونة.

وعرفت مصر نظام الطبقات وهي ثلاث:

(1) العليا : من العائلة المالكة وكبار موظفي الدولة والأثرياء والكهنة وعلى قمة الهرم فرعون ابن الإله. وكان الأطباء من الكهنة.

(2) الطبقة الوسطى: وهي تمثّل التجار والصناع والحرفيين.

(3) الطبقة الدنيا : من العمال غير المهرة والفلاحين، ويليهم أسرى الحروب ومرتكبي الجرائم حيث يصبحون عبيداً.

ومع هذا فإن نظام الطبقات في مصر كان مفتوحاً بحيث يصعد شخص بذكائه ونشاطه من طبقة سفلى إلى طبقة علياء، على عكس ما كان في الهند التي لا تزال تتمسك بشكلٍ ما بنظام الطبقات الصارم.

وفي عهد الهكسوك (الرعاة) الذين حكموا مصر أحسنوا معاملة العبيد لدرجة لا يمكن تصوّرها. وقد قصّ علينا القرآن الكريم كيف باع التجار يوسف ، وهو طفل إلى عزيز مصر فأوصى زوجته به خيراً، وأحسن تربيته وتعليمه قال تعالى : {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *} [يوسف: 21] .

ولما قامت امرأة العزيز بمراودة يوسف عن نفسه قال : {مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [يوسف: 23] .

وهو مستوى في المعاملة لم نره في أي أمة من الأمم لعبيدها ما عدا ما جاء في الإسلام . وأما قبل الإسلام فكانت جميع الأمم تعامل العبيد معاملة قاسية ونادراً ما تحسن المعاملة . ولا يصل إحسان المعاملة أن يتولّى العبد مقاليد البلاد. ولكن ذلك حدث طوال العهود الإسلامية، وتولى العبيد شؤون الدولة بعد أن يعتقوا ويكفي في ذلك ذكر د ولة المماليك (البحرية والبرجية) في مصر والشام.

(1)د.راجي التكريتي: السلوك المهني للأطباء، دار الأندلس، بيروت ص.

وعندما طرد الهكسوك من مصر عادت المعاملة للعبيد إلى القسوة والشدَّة وخاصة في عهد موسى ، حتى قال له قومه : [الاعراف: 129] ، وقد شدَّد فرعون العذاب على بني إسرائيل، وخاصة بعد أن قال له الملأ ذلك: {وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ *} [الأعراف: 127] .

الحياة الأسرية في مصر القديمة:

ترأس الأب الأسرة في مصر القديمة، وكان الابن الأكبر يحلّ محلّه . وكان للنساء حقوق كثيرة وبإمكانهن امتلاك الثروة وتوريثها، وبيع وشراء البضائع، وكتابة الوصية والحصول على الطلاق وإن كان الطلاق نادراً (ما عدا في حالات الزنا). وكان المصريون يسمحون بتزوج الأخت وفي بعض الأحيان البنت!! أما الملوك الفراعنة فقد كانت الأخت هي الزوجة الأولى والأساسية، وما عداها من النساء أقلّ منهن درجة بكثير، وقد تولت المرأة الملك مثل حتشبسوت وكليوباتره.

وبرع المصريون في الصناعات والطب واستخدام ورق البردي، وكان الكاهن هو الطبيب. وأشهر أطباء مصر هو أمحوتب (2800 ق.م) وكان مهندساً وطبيباً وحكيماً ووضع لهم كتاباً في الطب فرفعوا مكانته وعبدوه وجعلوا له معبداً وكهنة.

وبما أنهم كانوا يحنّطون الموتى فقد اطلعوا على كثير من أسرار التشريح والتحنيط. وكان الختان يُجرى للذكور والإناث، وعرف المصريون القدماء كثيراً من الأمراض وعقاقيرها وعمليات التربنة وتجبير الكسور . ويعتبر المصريون أول من أدخل نظام الاختصاص في الطب فهناك المجبّر (طبيب العظام) والكحّال (طبيب العيون) والجرّاح والطبائعي (الأمراض الباطنية)، وهكذا، واستخدموا العديد من النباتات مثل الشيكران Hyocyamus وبصل العنصل Squill (استخرج منه فيما بعد دواء القلب الديجوكسين) ، والافيون والحبة والسوداء.

وقد تم التعرّف على مجموعة من البرديات (لفائف من الورق المصنوع من شجر البردي) بها وصفات طبيّة مثل بردية كون كتبت سنة 1970 ق.م وفيها 17 وصفة لأمراض الجراحة والنساء وتدبير الحو امل. وبردية لندن وبها 63 وصفة لمعالجة أمراض النساء والعيون والحروق وبردية ايبرس (1550 ق.م) وتضم معلومات تشريحية، والأمراض، واستعمال الأدوية، وأسماء 700 عقّار و 811 وصفة طبيّة . وبرديه هيرست (1950 ق.م) وبها 260 وصفة طبية، وبردية ادوين سميث وتقتصر على الطب الج راحي ومعالجة الكسور والتربنة وبطبيعة الحال كان الطبيب هو الكاهن وهو أيضاً الساحر ويستخدم الرقي والسحر في علاجاته.

(هذه البرديات على أسماء مكتشفيها من الأوروبيين).

مراجع هذا الفصل

(1) ول ديورانت قصة الحضارة ترجمة د . زكي نجيب محمود (دار الجيل) ج 2/ 46 - 186.

(2) الموسوعة العربية ط 3 الرياض ج 351/23 - 362.

(3) د. محمد علي البار: الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم دار القلم دمشق.

(4) د. محمد علي البار: المسؤولية الطبية وأخلاقيات الطبيب، دار المنارة جدة.

(5) د. راجي التكريتي: السلوك المهني للأطباء، دار الاندلس بيروت.

(6) محمد أبو زهرة: مقارنات الأديان القديمة، دار الفكر العربي، القاهرة 1974.

الأخلاق والدين فيالحضارة السومرية

تعتبر الحضارة السومرية (في جنوب العراق على المجرى المشترك لنهري دجلة والفرات من مصبه إلى أن ينفصل المجريان ويتجه نهر الفرات غرباً ث م شمالاً) أقدم الحضارات الإنسانية المعروفة. وهي التي علّمت البشرية الكتابة وسجلتها في سجلات خالدة على ألواح من الطين الطري ثم يشوى الطين فتبقى الكتابة خالدة لآلاف السنين . وقد أنشأ السومريون حضارتهم قبل عام 4500 قبل الميلاد. ويبدو أنها قد بدأت في الألف السادس قبل الميلاد . وهم يصفون حضارة أقدم منها غمرها طوفان عظيم لم تعرف له البشرية م ثيلاً بسبب طغيان أحد ملوكهم وملئ ه من علية القوم وأتباعهم، (وهو في الواقع الطوفان الذي حدث من عهد نوح . وقد أثبت الباحثون وجود خرائب على عمق عظيم من سطح الأرض ترسبت تحت طبقة كثيفةمن الغرين (سمكها 8 أقدام) بسبب فيضان عظيم لنهر الفرات . وقد وجدت تحت هذه الطبقة بقايا حضارة أقدم من حضارة السومريين).

ومن مدنهم الهامة: أور (المقيّر الحديثة) وأروك (الوركاء) ولارسا (سنكرة) ونبور (نفر) ولكش وقد أصدر أحد ملوكهم وهو (أوروكا كاجينا) مراسيم تحرّم استغلال الأغنياء للفقراء، واستغلال الكهنة لكافة الناس. ويمنع الكاهن الأكبر من دخول حديقة الأم الفقيرة ويأخذ منها الخشب أو يستولي على ضريبة الفاكهة . وخفّض الملك رسوم دفن الموتى إلى الخمس، وحرّم على الكهنة وكبار الموظفين أن يستولوا على القرابين المقدمة للآلهة، وأن توزع على الفقراء. وكان مما يباهي به الملك أنه وهب شعبه الحرّية.

وقام الملك (جوديا) (من القرن السادس والعشرين قبل الميلاد) بنهضة جديدة لبلاده بعد عدة نكبات أصابتها وأفصحت النقوش التي عثر عليها في عهده أنه كان ملكاً عادلاً، حدَّ من سلطان الأقوياء رحمة بالضعفاء .. «وفي خلال سبع سنين كانت الخادمة ندًّا لمخدومتها، وكان العبد يمشي بجوار سيّده، واستراح الضعيف في بلدي بجوار القوي » كما يقول أحد نقوشه.

وقد سبقه الملك (أور أنجور) الذي أخضع جميع بلاد آسيا الغربية ونشر السلام والعدالة في جميع أرجاء الدولة السومرية ووضع قانوناً شاملاً جاء فيه «لقد أقمت إلى الأبد صرح العدالة المستندة إلى قوانين شمش الصالحة العادلة» وشمش هو الشمس الممثل لكبير الآلهة الذي عبدته كثير من الأمم القديمة . ثم حكم بعده ابنه (دنجي) لمدة 58 عاماً، وكان حكمه عادلاً حكيماً مما جعل رعاياه يتخذ ونه بعد موته إلهاً . ويصفونه بأنه الإله الذي أعاد إليهم جنّتهم القديمة.

وانتشر في عهد السومريين استخدام نظام للري أدى إلى زراعة مساحات واسعة من مملكتهم الواسعة منذ ستة آلاف سنة من العصر الحالي. وظهر عندهم المحراث وكان يتصل به أنبوبة مثقوبة لبذر البذور . وكانوا يدوسون المحاصيل بعربات كبيرة من الخشب ركبت فيها أسنان تفتّت القش ليكون علفاً للماشية، وتفصل منه الحبّ ليكون طعاماً للناس . وكانت لديهم تجارة واسعة وصناعات متعددة . واستخدموا الذهب والفضة في الحلي والزخارف والتبادل التجاري. وقد علا شأن الطب عندهم مع اختلاط ه بالكهانة والرقى .. وكان نظامهم

الإجتماعي إقطاعياً ولكن سلطة الملك هي الأعلى وهو الذي يفرض العدالة بين رعاياه .. أما أسرى الحروب فأما أن يقتلوا أو يسترقّوا.

وتوضح القصيدة التالية للملك جوديا والتي قدمها للآلهة (بو) مدى تديّن هذا الملك. والآلهة (بو) هي راعية لمدينة لكش ونصيرتها، يقول الملك:

أي ملكتي، أيتها الأم التي شيّدت لكش

إن الذين تلحظينهم بعينيك ينالون العزّة والسلطان

والعابد الذي تنظرين إليه تطول حياته

أنا ليس لي أم ـ فأنتِ أمي

وليس لي أب فأنتِ أبي

أي آلهتي بو؟ إن عندك علم الخير

وأنت التي وهبتني أنفاس الحياة

وسأقيم في كنفك أعظّمك وأمجّدك

وأحتمي بحماك يا أمّاه

وواضح أن هذه هي عبادة الأم، وتعاليمهم تؤكد الاهتمام بها وبرها وطاعتها.

مراجع هذا الفصل

(1) ول ديورانت: قصة الحضارة ترجمة زكي نجيب محمود طبعة دار الجيل ج 2/ 13 - 41.

الأخلاق والدين فيالحضارة البابلية والآشورية

قامت الحضارة البابلية بعد الحضارة السومرية وامتزج الآكاديون والسومريون وكانت الغلبة للآكاديين الساميين. وتأسست مدينة بابل (لا تزال موجودة على نهر الفرات) (جنوب غرب بغداد) وقد ظهر حمورابي (2123 - 2081 قبل الميلاد) كأعظم حاكم لهذه الدولة البلاذخة البنيان وذات الحضارة المجيدة. وهو أول من وضع قانوناً كاملاً من 285 مادة. وهو مقسم إلى قوانين خاصة بالأملاك المنقولة، وبالأملاك العقارية، وبالتجارة والصناعة وبالأسرة، وبالاضرار الجسمية وبالعمل.

وقد وجد على أسطوانة كتبت في عهده أنه يتلقى القوانين من شمش (أي الشمس) كبير الآلهة ذاته ويقول حمورابي أن الإله (أنو) والإله (بل) عهدا حكم بني الإنسان إلى الإله (مردوخ) وأقاما مملكة بابل . ويقول أن (أنو) و(بل) نادوه لكي ينشر العدالة في العالم ويقضي على الأشرار والآثمين وأن يمنع الأقوياء من أن يظلموا الضعفاء وأن يرعى مصالح الخلق.. ويتحدث عن نفسه بأنه هو الذي اختاره الإله بل حاكماً، وأنه جاء بالخير والوفرة وأمدَّ السكان بالماء الكثير، وخزن الحَبَّ والطعام للشعب .. وهو الذي أعان شعبه في وقت المحنة وأمَّنَ الناس على أملاكهم، في بابل حاكم الشعب، والخادم الذي تسرُّ أعماله الآلهة أنونيت .

ويختتم كاتب حمورابي شريعته بقوله: «إن الشرائع العادلة التي رفع منارها الملك الحكيم حمورابي والتي أقام بها في الأرض دعائم ثابتة، وحكومة صالحة طاهرة .. ويتحدث حمورابي فيقول : أنا الحاكم الحفيظ عليها، في قلبي حملت أهل أرض سومر وأكاد .. وبحكمتي قيّدتهم حتى لا يظلم الأقوياء الضعفاء، وحتى ينال العدالة اليتيم والأرملة .. فليأت أي إنسان مظلوم له قضية أمام صورتي أنا ملك العدالة، وليقرأ النقش على أثري (على اسطوانة)، وليلقِ باله إلى كلماتي الخطيرة. ولعلّ أثري هذا يكون هادياً له في قضيته، ولعلّه يفهم منه حالته ولعله يريح قلبه فينادي: حقاً أن حمورابي حاكم كالوالد الحقّ لشعبه .. لقد جاء بالرخاء إلى شعبه مدى الدهر وأقام في الأرض حكومة صالحة. ولعل الملك الذي يكون في الأرض فيما بعد وفي المستقبل يرعى ألفاظ العدالة التي نقشتها على أثري» .

وقد قام حمورابي بشقِّ قناة كبيرة بين كش والخليج العربي وروى مساحات كبيرة من الأراضي، وبرع في إقامة المدن والمعابد والحدائق المعلّقة.. وقد وصف هيرودوت المؤرخ اليوناني بابل بعد أن زارها بقوله أنها مقامه في سهل فسيح يحيط بها سور طوله ستة وخمسون ميلاً ويبلغ عرضه حداً تستطيع معه عربة تجرّها أربعة أجياد أن تجري في أعلاه، ويضم مساحة تقرب من مائتي ميل مربع. وكان يجري في وسط المدينة نهر الفرات ويحفّ بشاطئيه النخيل وتنتقل فيه البضائع رائحة غادية بلا انقطاع ويصل شطريها جسر جميل .... وكان أول ما يشاهده القادم إلى المدينة صرح شامخ كالجبل يعلوه برج عظيم مدرّج من سبع طبقات، جدرانه من القرميد المنقوش البرّاق، ويبلغ ارتفاعه 650 قدماً، فوقه ضريح يحتوي

على مائدة كبيرة من الذهب المصمت، وعلى سرير مزخرف .. ووصف الهياكل والطريق الواسع الذي تبرز فيه تماثيل لمائة وعشرين أسداً مطلية بالألوان الزاهية .. وكان في أح د طرفيه مدخل فخم هو باب استير (هي النجمة عشتروت = الزهرة = فينوس) ذو فتحتين من القرميد الزاهي المتألق، تزيّنه النقوش التي تمثل أزهاراً وحيوانات جميلة الشكل زاهية الألوان.

وقد اهتم البابليون بالطب المختلط بالكهانة والسحر. وكانوا يعتقدون أن المرض، إنما هو بسبب غضب الآلهة، أو من صنع الأرواح الشريرة ولذا فإن الكهانة والسحر والعرافة كان لها دور بارز في التطبيب . وكانوا يعتقدون أن السرقة والقتل والبصق في ماء النهر الذي يرتوي منه الناس وتناول الطعام من ماعون وسخ، والكذب، وعدم احترام الآلهة أو الكهنة كلها تؤدي إلى الأمراض، كما كانوا يعتقدون في العين والسحر والجن وتأثيرهما في بدن الإنسان وعقله.

ولا شك أن البصق في ماء النهر وتناول الطعام من ماعون قذر تؤدي إلى بعض الأمراض، ووضع العقوبات على من يفعل ذلك، من أسباب توقي المرض.

وقد عرفوا أهمية النظافة والاغتسال في الحفاظ عل ى الصحة، وعرفوا مخاطر مجاري المياه القذرة فجعلوا لها مجارٍ خاصة ومخازن لتجميعها، ونبّهوا على عدم الشرب منها أو الاغتسال فيها.. وعرفوا مخاطر القمل والذباب وأنها تنقل الأمراض. وعرفوا العدوى بالجذام فقد ورد في شريعة حمورابي المادة (278) أن عقد بيع العبد يصبح باطلاً إذا ما ظهر على العبد مرض الجذام خلال شهر من شرائه. أما الآشوريون فقد جعلوا هذه المدة مائة يوم (أي أنهم عرفوا فترة الحضانة للمرض المعدي قبل أن يظهر على جسم الإنسان).

وكانوا ينظرون إلى بول المريض ونبضه لمعرفة المرض وتشخيص دائه . وكانت لهم فارماكوبيا طبية مكونة من 250 عقّار نباتي و 180 عقّار من مصدر حيواني و 120 عقّار من مصدر معدني . وقد عرفوا فوائد المعالجة بالتبخير واللطوخات والذرور والأشربة والحمامات الساخنة والتمسيد.
وكان لديهم علم بالتشريح وجعلوا الكبد مصدراً للدم، والدم أساس الحياة وفيه كل أسرارها . ووصفوا القناة الصفراوية والمرارة، وجعلوا لها قيمة من الناحية العلاجية بالسحر والعرافة . واعتبروا الكبد مصدر العاطفة، والقلب مصدر الذكاء، والمعدة مصدر المكر والبراعة . ووظيفة العينين والأذنين اليقظة والانتباه والحراسة، ومصدر الحنان والرحمة الرحم.

ومارس البابليو ن معالجة الرضوض بالتضميد، وعالجوا كسور العظام بالجبائر كما عالجوا خلع المفاصل. وعرفوا تكوّن الحصى بالمثانة . ومارسوا الختان كما مارسوا بعض العمليات الجراحية.

ثم جاء الآشوريون بعدهم. وكانوا يكتبون وصفات طبية في ورقة واحدة وعلى المريض أن يستعملها بالتسلسل الذي حدّده الطبيب.

أخلاقيات الطبيب وضمانه عند البابليين والآشوريين:

كان على الطبيب أن يغتسل ويتنظف ويلبس ثياباً نظيفة وجميلة .. ومع هذا فقد كان المريض أحياناً يضطجع على قارعة الطريق، إذا كان من الفقراء، ويسأل المارّة عَمّن يداويه. فإذا مرّ به شخص قد عانى من مر ض مماثل وشفي منه قام بوصف الأدوية التي استخدمها من قبل . وقد يمر الطبيب الكاهن فيتعطّف على هذا المريض الفقير فيصف له الدواء. ولم تكن ممارسة الطب مقصورة على الكهان، بل كان كل من له إلمام بالطب يقوم بمداواة المرضى ولهذا كان قانون حمورابي حريصاً على إيجاد عقوب ات رادعة لمدّعي الطب.

وقد جاء في قانون حمورابي ما يلي:

المادة 218 : إذا أجرى الطبيب عملية لسيّد (حُرّ) بآلة برونزية وسبَّبَ وفاته أو إذا فتح محجر عين إنسان (حُرّ) وسبب فقد بصره، فإن عقاب ذلك الطبيب هو قطع يده.

المادة 219 : إذا أجرى الطبيب عملية لعبد بآلة برونزية وسبَّبَ وفاته، فعليه أن يعوض المالك بعبد مثله.

المادة 220 : إذا شقَّ الطبيب الورم بمبضع برونزي، وعطَّل عين المريض، يدفع الطبيب نصف قيمة العين فضة.

المادة 221 : إذا جبرّ الطبيب عظماً مكسوراً لإنسان حُرّ أو شفاه من مرض فعليه أن يدفع للطبيب خمسة شياقل فضة.

المادة 222 : إذا كان المريض مملوكاً وعالجه الطبيب وشفي من مرضه، فعلى مالك العبد أن يدفع للطبيب شيقلين فضة.

وقد ذكر الدكتور محمد نزار خوام وزملاؤه في كتابهم : «تاريخ العلاج والدواء في العصور القديمة هذه المقادير. وأن من يتقاضى من الأطباء أجراً أكثر مما هو مقرّر يعاقب بالحبس. وذكروا أن بيع الأدوية يتم في شارع معين في مدينة سيبار في عهد حمورابي».

وأما الدكتور راجي عباس التكريتي فقد ذكر في كتابه القيم «السلوك المهني للأطباء »، هذه المقادير باختلاف عما سبق حيث جعل أجرة علاج الحر عشرة شيقلات وأجرة علاج العبد خمسة شيقلات.

وكان الآشوريون يعاقبون المرأة التي تسبب ضرراً لخصية رجل بقطع أصبع من أصابعها، وإذا أتلفت الخصيتين تقطع منها اصبعين!!

أما من يسقط حمل امرأة فإن عليه أن يدفع غرامة مالية ويجلد خمسين جلدة . وتعاقب المرأة التي تجهض حملها بعقوبة شديدة جداً حيث تقتل بخازوق ينفذ في جسمها، وتترك في العراء لتنهش لحمها الطيور الجارحة.

مراجع هذا الفصل

(1) د. راجي عباس التكريتي: السلوك المهني للأطباء، دار الأندلس بيروت.
(2) ول ديورانت: قصة الحضارة ترجمة د. زكي نجيب محمود ج 187/2 - 199.
(3) د. محمد نزار خوام وزملاؤه: تاريخ العلاج والدواء في العصور القديمة.
(4) د. محمد علي البار: المسؤولية الطبية وضمان الطبيب، دار المنارة جدة.

الأخلاق والدين في البوذية[1]

(بوذا 560 - 480 ق. م)

التعريف:

ظهرت البوذية في الهند بعد البرهمية في القرن الخامس قبل الميلاد وكانت متجهة إلى العناية بالإنسان لتخليص نفسه من منازلها، ونارها هو الكره والنزوة والوهم . وعندما تنطفيء تلك النيران سيكون هناك متسع من الوقت لمناقشة طبيعة الكليات . ولذا فقد دعت البوذية إلى التقشف ونبذ الترف والمناداة بالمحبة والتسامح وفعل الخير.

التأسيس:

أسس البوذية شخص يدعى سدهار تا جوتاما ولقبه بوذا أي العالم، كما لقب أيضاً بسكيا موني أي المعتكف. وقد ولد بوذا على حدود نيبال في شمال الهند سنة 560 ق.م وكان أميراً فشبَّ على النعيم وتزوج في سن التاسعة عشرة من عمره ولما بلغ السادسة والعشرين هجر زوجته وابنه وإمارته منصرفاً إلى الزهد والتقشف والخشونة في المعيشة والتأمل في الكون.

الأفكار والعقائد:

إن البوذية تختلف حسب مدارسها، واختلافاتها شديدة. وبوذا لم يكن إلهاً ولم يدَّع ذلك قط وإن كان بعض أتباعه يعتقدون أن بوذا هو ابن الله، وهو من ذات الله، تجسد بواسطة حلول روح القدس على العذراء مايا (وهي نفس العقيدة النصرانية التي قال بها بولس فيما بعد . وهي أساس المسيحية التي نقلت التثليث البوذي وغيره نقلاً تاماً بعد خمسمائة عام أو أكثر من عهد بوذا).

وسنجد الصفات التي ألصقها النصارى بعيسى موجودة لدى البوذيين . وقد دلَّ على ولادة بوذا نجم ظهر في السماء و عند مولده رتلت الملائكة أناشيد المحبة وتكلم بوذا في المهد .

---

(1) مرجع هذه المادة: موقع Islampedia. com وكتاب: البحث في البوذية Exploring Buddhism تأليف كريماس همفري وترجمة د. إبراهيم ياسين في كتابه مدخل إلى الفلسفة العامة، دار الإسراء طنطا (مصر) 2008 (ص 59 - 90) وكتاب الشيخ محمد أبو زهرة مقارنات الأديان: الديانات القديمة، دار الفكر العربي، القاهرة 1974 .

وحاول الشيطان إغراءه ففشل (وهي قصص تظهر في الأناجيل عن عيسى . وكذلك قالوا أن بوذا صعد بجسده إلى السماء بعد أن أكمل مهمته على الأرض (وهو كلام النصارى في عيسى إلا أنهم قالوا أنه صلب وعذب من أجل أن يفدي البشر من خطيئة آدم).

والواقع أن بوذا دعا إلى وحدة الوجود وأن الكون كله هو الله وأن الكون أيضاً في تغيّر مستمر وكذلك الإنسان، وآمن بتناسخ الأرواح وأن الموت ليس النهاية، بل تنطلق الروح مرة أخرى لتحل في جسد آخر حسب عملها السابق. فإن كان عملها خيراً دخلت جس داً طيباً وإن كان عملها رديئاً دخلت جسداً حقيراً مثل الكلب والخنزير أو الإنسان الحقير .. ولا تزال تمتحن وتعذب حتى تصفو وتتطهر في دورات متتالية.. ولا تصل إلى مرحلة الزفانا إلا بعد دهور ودهور وهي مرحلة الصفاء المطلق والاتحاد بروح الكون والسعادة التامة.

ويجب على البوذي التقيد بثمانية أمور حتى يتمكن من الانتصار على نفسه وشهواته:

(1) ـ الاتجاه الصحيح المستقيم الخالي من سلطان الشهوة واللذة وذلك عند الإقدام على أي عمل.

(2) ـ التفكير الصحيح المستقيم الذي لا يتأثر بالأهواء.

(3) ـ الاشراف الصحيح المستقيم.

(4) ـ الاعتقاد المستقيم الذي يصحبه ارتياح واطمئنان إلى ما يقوم به.

(5) ـ مطابقة اللسان لما في القلب.

(6) ـ مطابقة السلوك للقلب واللسان.

(7) ـ الحياة الصحيحة التي يكون قوامها هجر الذات.

(8) ـ الجهد الصحيح المتجه نحو استقامة الحياة على العلم والحق وترك الملاذ.

وفي تعاليم بوذا أن الرذائل ترجع إلى ثلاثة:

(1) ـ الاستسلام للملاذ والشهوات.

(2) ـ سوء النية في طلب الأشياء.

(3) ـ الغباء وعدم إدراك الأمور على وجهها الصحيح.

واهتم بوذا بالأخلاق. ونادى بالمحبة والتسامح ومن وصاياه:

(1) ـ لا تقضي على حياة حي (تحريم قتل الإنسان والحيوان).

(2) ـ لا تسرق ولا تغتصب.

(3) ـ لا تكذب.

(4) ـ لا تتناول مسكراً.

(5) ـ لا تزن.

(6) ـ لا تأكل طعاماً نضج في غير أوانه.

(7) ـ لا ترقص ولا تحضر مرقصاً ولا حفل غناء.

(8) ـ لا تتخذ طيباً.

(9) ـ لا تقتنِ فراشاً وثيراً.

(10) ـ لا تأخذ ذهباً ولا فضة.

للبوذية مذهبان كبيران:

[1] ـ المذهب الشمالي : وأتباعه في التبت ونيبال والصين واليابان (مع تحوير) وسومطرة وكتبهم باللغة السنسكريتية في شمال الهند واتخذت اللغة الصينية في الصين واليابانية في اليابان وهكذا.

[2] ـ المذهب الجنوبي : وأتباعه في جنوب الهند وسيلان (سيرلانكا) وتايلند (سيام) وبورما وكتبهم المقدسة باللغة البالية..

وهناك تحورات في البوذية حسب المناطق التي انتشرت فيها . والشماليون يعتقدون بألوهية بوذا (ابن الله من ذات الله) بينما الجنوبيون لا يعتقدون ذلك . وهناك من ينكر القول بألوهية بوذا لأن الله والكون شيء واحد وه م مؤمنون بوحدة الوجود أساساً، ولله تجليات كثيرة في هذا الوجود.

والناس في نظر بوذا سواسية ولا فضل لأحد على آخر إلا بالمعرفة والسيطرة على الشهوات. وهم ينكرون على الهندوسية نظام الطبقات الصارم. ويدعون إلى المحبة والتسامح وحسن الخلق والزهد في الدنيا. ويعتنون بلإنسان من الناحية الخلقية ويرتقون بها وأما الجسد فلا قيمة له عندهم، ولا بد من المعاناة لكل إنسان حتى يتطهّر.

ويقول بوذا : «عيشوا مُخفين أعمالكم الطيبة، معلنين أخطاءكم . أحبّوا الناس جميعاً والكائنات كلها. ليست الولادة من طبقه معينة هي التي تخلق البراهمي الح ق، فهذا لا يتعلق بالأم»[1] .

ويقول : «إذا كان الحقد يرد على الحقد بالمثل فكيف ينتهي إذاً ... من يسامح شاتميه ولاعنيه فهو مشرّف في السماء. ومن يحمل لمن يسيء إليه حقداً فهو من أهل الجحيم»[2] .

(1) تاريخ الأخلاق للدكتور محمد يوسف ص25 وراجي التكريتي : السلوك المهني للأطباءص19 ، 20 .
(2) المرجعان السابقان .

الأخلاق والدين في الهندوسية [1]

تعتبر الهندوسية من أقدم الأديان في العالم والتي لها أتباع عديدون إلى اليوم . فقد بدأت الهندوسية منذ حوالي ثلاثة الآف سنة قبل الميلاد في الهند القديمة حيث كان سكانها الأصليين مثل سكان أستراليا الأصليين سودا . ثم جاء الآريون من منطقه القوقاس ونزلوا إلى إيران ومنها إلى الهند واختلطوا بالسكان الاصليين وعدّلوا في الديانة الأصلية لهؤلاء الأقوام حتى ظهرت الهندوسية وهي خليط من العقائد.

وقد بلغ عدد الهندوس في العالم حسب إحصاء 2008 أكثر من 930 مليوناً. ولذا فإن الهندوسية تعتبر من الأديان العالمية، وهي تأتي في كثرة اتباعها بعد الإسلام والمسيحية والبوذية (بمختلف تحوراتها).

التأسيس:

لا يوجد للديانة الهندوسية مؤسس معين ولا يعرف لمعظم كتاباتها مؤلفون معينون وهناك شخصيات مؤثرة مثل كريشنا، ولكنها ليست شخصيات مؤسسة.

المعتقدات:

الهندوسية خليط عجيب من المعتقدات ومئات بل آلاف الآلهة وهم يعبدون الظواهر الكونية، ولكنهم بصورة خاصة يعبدون الأبقار، ولها في قلوبهم أسمى مكانة من بين الحيوانات لكثرة فوائدها . ومن الغريب أنهم يعبدون أيضاً الأفاعي وخاصة السامة منها، ويقرّبون لها القرابين خوف شرّها، كما أنهم يعبدون الفئران وقد عرض برنامج تليفزيوني للهنود الذين يعبدون الفئران، ولها معابد ويقربون لها الألبان بكميات وافرة جداً وبعض الأطعمة، ولا يوجد حيوان أو ظاهرة كونية لا يعبدها الهندوس . ورغم ذلك فإن علماءَهم وبراهمتهم الكبار يؤكدون أنهم موحّدون على طريقتهم . وأن هذه الآلهة المتعددة ليست إلا مظهراً للإله الواحد الأحد. ويجعلون لهثلاث صور (أقانيم عند النصارى فيما بعد) كالتالي:

براهما: من حيث أنه خالق الكون وموجده من العدم.

فشنو: الحافظ.

سيفا: المهلك.

وهذه الثلاثة واحد ولكنها صور متعددة للواحد الفرد الصمد. ومن عبد واحداً منها فقد عبد الله الواحد الأحد الخالق والحافظ والمهلك . بل إن من عبد أي صورة من الصور العديدة المتمثلة في الظواهر الكونية أو الحيوانات فقد عبد الله.

---

(1) مصدر هذه المادة: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة بإشراف د . مانع بن حماد الجهني، الندوة العالمية للطباعة والنشر، الرياض ط 3 (1418هـ) ص 734 - 741. و«تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة» لأبي الريحان البيروني، عرض د . أحمد محمود الساداتي : كتاب تراث الإنسانية ج 126/5 - 139. ومجموعة مواقع على الانترنت مثل الوكيبيديا وال Religioh Facts. Com, و b.b.C وكتاب الشيخ محمد أبو زهرة : مقارنات الأديان، الديانات القديمة دار الفكر العربي، القاهرة 1974.

ويُعتبر أبو الريحان البيروني والهند أول من درس عقائد الهنود ولغتهم السنسكريتية بعد أن زارها مراراً مع السلطان محمود الغزنوي (من غزنة في جنوب أفغانستان) الذي فتح معظم شمال القارة الهندية . وقد غزاها سبعة عشرة مرة، وكان معه العلماء من أمثال البيروني ليناظروا علماء الهنود ويدعونهم إلى الإسلام.

وقد قام البيروني (362 - 440هـ/ 973 - 1048م) بوضع كتابه الفذ: «ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » الذي أصبح مرجعاً لمن أراد معرفة جغرافية الهند وعقائدها وسكانها وعاداتها ولغاتها. ودرس البيروني اللغة السنسكريتية دراسة متعمقة كما درس عقائد الهنود وناظر علماءهم وعرف أوضاع البلاد وجال فيها شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً فكان كتابه دليلاً ناصعاً على الحضارة الإسلامية الزاهية.

وقد قسم البيروني كتابه إلى 80 باباً أولها «في ذكر أحوال الهند » وثانيها «في ذكر أصولهم » ثم ذكر نظام الطبقات عندهم وعلم الفلك والحساب لديهم واعتقادات الهنود ومذاهبهم، وأن قتل الحيوانات عندهم محرّمة أشد التحريم وخاصة الأبقار . ويقسم الهنادكة الخلائق إلى أجناس ثلاثة:

(1) الروحانيون في الأعلى، (2) الناس في الوسط، (3) الحيوانات في الأسفل . والهنود أنفسهم أربع طبقات أولها وأعلاها البراهمة وهم الذين خلقهم الإله براهما من فمه، يليهم الكاشتر وهم الذين خلقهم الله من ذراعيه، وهم الجند، ثم الويش وهم التجار والمزارعون، وقد خلقهم الإله من فخذه . وأما الشودر فهم مع الزنوج الأصليين يشكلون أسفل الطبقات ووظيفتهم خدمة الطبقات الأعلى. ونظام الطبقات صارم لديهم إلا أن العصور الحديثة شهدت محاولات جادة لإزالة الظلم الشديد الواقع على طبقة المنبوذين الشودر.

ولا يفرق بين الزوجين إلا الموت فإذا مات الرجل فليس للمرأة أن تتزوج والأفضل لها أن تُحرق مع زوجها (وقد أبطلت الحكومة البريطانية المستعمرة للهند هذا الإحراق ومنعته بالقانون).. والأصل في المواريث عندهم سقوط النساء منها ما خلا الإبنة فإن لها ربع ما للابن. والمرأة هي التي تدفع المهر للرجل لا العكس.

ويتحدث البيروني عن عقائد الهنود فيقرر أن الهنود يعتقدون في وحدانية الله وينقل عن أحد علمائهم الذين جادلهم : «أن الله هو الذي لا أول له ولا آخر، ولم يتولد عن شيء، ولم يولد شيئاً» ونقل عن كتاب پاتنجل هذا الحوار: «من هذا المعبود الذي ينال التوفيق بعبادته؟ قال المجيب: هو المستغني بأزليته ووحدانيته عن فعل لمكافأة عليه، براحة تؤمل أو ترتجى، أو شدّة تُخاف وتُتقى، والبريء عن الأفكار لتعاليه عن الأضداد المكروهة والأنداد المحبوبة . والعالم بذاته سرمدا .. ويقول عنه: له العلوّ التام في القدر لا المكان فإنه يجلّ عن التم كن، وهو الخير المحض التام الذي يشتاقه كل موجود، وهو العلم الخالص عن دنس السهو والجهل» ، ويقول البيروني: «واعتقاد الهند في الله سبحانه أنه الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء، المختار في فعله، القادر الحكيم الحي المحيي المدبّر، المبُقي، الفرد في ملكوته، المنزّه عن الأضداد والانداد، لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء» .

ويعترف البيروني بأن هذه العقائد التوحيدية إنما هي لعلية القوم من البراهمة والعلماء والنساك. أما عامة الناس فيجعلون لله صوراً لا حصر لها ويعبدونها . يقول البيروني : «إن تجاوزنا طبقة الخواص من الهند إلى عوامهم اختلفت الأقاويل عندهم، وربما سمجت كما في سائر الملل» .

ويذكر البيروني عقائدهم في تناسخ الأرواح ، وأن الأرواح خالدة والذي يفنى هو الجسد وتنتقل الروح الطيبة إلى بارئها في الملأ الأعلى وأما الروح الخبيثة فترد إلى جسد خبيث في دورات متتالية حتى تتطهر، والروح المخلّطة بالخير والشر تنتقل إلى جسد إنساني في دورات حتى تتأهل للوصول إلى الملأ الأعلى.. ويحرق الميت في طقوس معينة حتى تنطلق روحه بأسرع ما يمكن.

ويهتمون بالنظافة والاغتسال (أي البراهمة). ويأمرون بالصدق والأمانة والعفة وينهون عن الزنا وشرب الخمور.

كتب الهندوس : للهندوس كتب كثيرة أهمها:

(1) كتب الفيدا Veda وهي كلمة سنسكريتيه معناها الحكمة والمعرفة .. وفيها فلسفة وتوحيد ووحدة الوجود وهي تتألف من أربعة كتب هي راج، أوراجا فيدا، وساما فيدا وآثارثا فيدا . وكل واحد من هذه الأربعة يشتمل على أربعة أجزاء وهي : سمتها (مذهب الفطرة) والبراهمن (القرابين) وآرانياك (الصلوات والأدعية) وأبانشيد وهي الأسرار والمشاهدات والتجليات للصوفية.

(2) مهابهارتا : وهي ملحمة هندية تشبه الالياذة والأوديسه لدى اليونان.

(3) كيتا : وتصف حرباً بين أمراء من أسرة ملكية واحدة . وتنسب إلى كريشنا . وفيها نظرات فلسفية واجتماعية عميقة . وقد لقيت اهتماماً في القرن العشرين لدى الغربيين .. وظهرت فلسفتهم وأتباعهم وخاصة فرقة هاري كريشنا.

(4) يوجا : وهي ملحمة شعرية تهتم بأمور لاهوتية وفلسفية ووحدة الوجود ورياضات بدنية وروحية حتى تصفو النفس، وهذه أيضاً لها رواج عند الأوروبيين.

(5) رامايانا: وهو كتاب فيه خطب ومواعظ للملك راما. ويعتني الكتاب بالأفكار السياسية والدستورية.

وقد خرج من الهنود مجموعات مختلفة من أشهرهم السيخ وقد حاولوا مزج بعض تعاليم الإسلام بالهندوسية، وأنكروا عبادة الأوثان وأخرجوها من معابدهم، وأقرّو ا بالتوحيد، ومع ذلك فهم مؤمنون بتناسخ الأرواح ويحرقون موتاهم، ويمنعون الزواج من غير ملتهم . ولا يحلقون شعر رأسهم. وهم متعصبون وقد قتلوا رئيسة الورزاء أنديرا غاندي . ولكن رئيس الوزراء الحالي (مهماهندسند) منهم. وللهنود عامة اهتمام بالأخلاق والصدق في المعاملة والأمانة، والابتعاد عن الزنا وشرب الخمور.

والهنود المعاصرون كأسلافهم يحرّمون قتل الحيوانات وأكل اللحوم . ويرفضون عقوبة الإعدام ويميلون إلى عدم العنف بصورة عامة رغم المذابح التي أقاموها للمسلمين عند

الاستقلال وما بعده لأن المسلمين يذبحون الأبقار ويأكلونها وهي عندهم مقدّسة، ولكنهم بصورة عامة غير متعصبين (ما عدا مجموعات منهم).

ويسمحون بوسائل منع الحمل والإجهاض ـ ويرون أن الإجهاض مسموح به بشرط عدم الإضرار قدر الإمكان بالأم والأب والجنين (وأي إضرار بالجنين أكثر من قتله) [1] .

وأكثرهم يعارض القتل الرحيم (euthanasia) . ولكن غالبيتهم يسمحون بزرع الأعضاء من الحي والميت.

وهم عموماً ضد الحرب. ولكن أدبياتهم تحمل أيضاً الاهتمام بالحرب، والدفاع عن الوطن. والهند دولة قوية ونووية، وقد قامت بينها وبين باكستان ثلاثة حروب، وتسعى لابتلاع بنجلاديش وباكستان وتوحيد القارة الهندية.

الأخلاق عند الهنود:

يعترف المؤرخ «دبوا» كما ينقله عنه ول ديورانت في قصة الحضارة [2]«بأن آداب السلوك واحترام المعاملة الاجتماعية أوضح في قواعدها وأكثر إتباعاً لدى طبقات الهنود كلها، حتى أدنى هذه الطبقات منزلة، منها عند أي شعب أوروبي».

وقد جاء في تعاليم الفيدا: «الذي يعفو عن المسيء يكون أثيراً مكرّماً في السماء والذي يحمل الحقد يذهب للجحيم» [3].

وفي تعاليم الفيدا : «الأطفال والمسنون والفقراء والمرضى [4] ، يجب أن نعتبرهم سادة العالم الذي نعيش فيه. والمرأة يجب أن تكون موضع احترام خاص . حينما لا تكرم النساء يكون لا جدوى من أفعالنا الخيّرة ولا يجوز مطلقاً أن نضرب امرأة ولو بزهرة».

---

(1) http: /www. bbc. Co. Uk/ Religions/ hinduism/ hinduethics .

(2) قصة الحضارة ـ ول ديورانت ج 1/3 دار الاندلس، بيروت 1981 ص 18 .

(3) د. محمد يوسف موسى: تاريخ الأخلاق ص 23 .

(4) راجي التكريتي: السلوك المهني للأطباء.

الكونفوشيوسية والأخلاق[1]

Confecius

الكونفوشيوسيه هي ديانة أهل الصين وترجع إلى كونفوشيوس الذي ظهر في القرن السادس والخامس قبل الميلاد (ولد سنة 551 ق.م. وتوفى سنة 479 ق.م). وكان للصين حضارة قديمة قبل كونفوشيوس (القرن العشرين قبل الميلاد)، ثم انحدرت تلك الحضارة بسبب الخلافات في الحكم والحروب بحلول القرن العاشر . وقام كونفشيوس بدراسة الكتب القديمة التي لم يعد إلا القليل ممن يعرفها ويستطيع قراءاتها، فجمعها ونظّمها في خمسة كتب هي:

(1) كتاب الأغاني أو الشعر : ويحتوي 305 من التواشيح والأغنيات الدينية والأخلاقية.

(2) كتاب التاريخ : ويحتوي على تاريخ الصين القديمة ولا سيما الأوامر والمراسيم الملكية.

(3) كتاب التغيّرات : وهو يبيّن فلسفة تطور الحوادث، وحوَّلَ كونفشيوس التنجيم القديم إلى دراسة علمية للسوك الإنساني وكيف يتأثر بالظروف الطبيعية والاجتماعية التي تكتنفه . ومن ثمَّ يمكن عن طريق هذه الدراسة التنبؤ علمياً بسلوك الفرد في المستقبل.

(4) الربيع والخريف : وهو تاريخ كامل للصين فيما بين عامي 841 و722 قبل الميلاد.

(5) كتاب الطقوس أو التقاليد : وهو يعالج النظام السياسي لأسرة تشو الملكية القديمة كما يعالج العادات والتقاليد الدينية والسياسية الهامة في تاريخ الصين.

وقد قام تلاميذ كونفشيوس وبالذات منسيوس (Mencius) بجمع تعاليم أستاذهم وشرحها في أربع مجموعات هي :

(1) ـ فصول من كتاب الطقوس «الأخلاق والسياسة» .

(2) ـ فصول من كتاب الطقوس «الانسجام المركزي» .

(3) ـ المنتخبات : وبه ملخص لأقوال كونفشيوس في المناسبات والأحداث المختلفة كما سجلها تلاميذه.

(4) ـ مجموعة منسيوس : وهي تحتوي على سبعة كتب تعالج مذهب كونفشيوس كما سجله تلميذه منسيوس وغيره.

ويعتبر كتاب المنتخبات (Analects) أهم هذه المجموعات حتى عرف بعد ذلك باسم انجيل الكونفشيوسية (Confecious Bible) أو كتابها المقدس.

وكتب كونفشيوس عبارة عن حكم وأمثلة ومواعظ وهي غير مبوبه ولا مصنّفة في موضوعات. وإنما هي أقوال قيلت حسب المناسبات ثم جُمعت، ومثالها ما يأتي:

---

(1)مصدر هذه المادة بحث الدكتور حسن شحاته سعفان : الكتب الخمسة لكنفشيوس، تراث الإنسانية ج 780/4 - 791، وموقع اسلامبيديا على الشبكة العنكبوتية موسوعة الأديان والعقائد وكتاب راجي التكريتي: السلوك المهني للأطباء.

ـ الرجل الذي يخطىء ولا يصلح خطأه يرتكب خطأً جديداً.

ـ الرجل الذي يعشق الحقّ، أفضل من الرجل الذي يعرف الحقّ، وذلك الذي يجد سعادته في الوصول إلى الحقّ أفضل ممن يعشق الحق.

ـ إذا وجدت شخصاً يستحق أن تتحدث معه ولم تخاطبه، فأنك تكون قد افتقدته. وإذا وجدت شخصاً لا يستحق أن تتح دث معه وخاطبته فأنك تكون قد أضعت كلامك سدى . والرجل العاقل هو من لا يفتقد الرجال ولا يضيّع كلامه سدى.

ـ سئل الحكيم مرة عن شخص يحبّه كل أفراد القرية فقال : «ليس ذلك بكاف للحكم عليه » ثم سئل عن شخص يكرهه كل أفراد القرية فأجاب: «ليس ذلك بكاف للحكم عليه» ثم أضاف : «إن الشخص الفاضل هو الذي يحبّه الصالحون من أفراد القرية، ويكرهه منهم الطالحون».

ـ إن الإنسان هو الذي يجعل الصدق عظيماً، وليس الصدق هو الذي يجعل الإنسان عظيماً.

ـ إن الرجل ذا الأخلاق الكريمة لا يقول إلا كلاماً جيداً، ولكن الرجل ذا الكلام الجيد لا يكون دائماً ذا أخلاق كريمةً (أي يكون منافقاً).

ـ إن الرجل العاقل لا يمدح الناس على أساس أقوالهم (بل على أساس أفعالهم). ولا ينكر الحقيقة إذا كانت صادرة عن شخص لا يرتاح إليه، إذ الحقيقة جميلة أيّاً كان مصدرها.

ـ سئل مرة عن صفات الحكم المثالي فأجاب بأنه الحكم الذي يجد الناس تحت ظلِّه غذاء كافياً، وجيشاً جرّاراً يحميهم، وثقة عظيمة في حكامهم . فسئل عما يمكن الاستغناء عنه من هذه الثلاثة فقال: الاستغناء أولاً عن الجيش والقوة.

ـ حبُّ الإنسانية بدون حُب للدراسة يولد الجهل، وحب العلم بدون حب للدراسة يؤدي إلى الضلال وعدم التثبت . وحبّ الاخلاص بدون حب للدراسة يؤدي بصاحبه إلى أن يكون ضحية الخداع، وحب الاستقامة بلا دراسة يؤدي إلى الرعونة التي لا حدود لها، وحب الشجاعة بلا دراسة يؤدي إلى التمرد، وحب العزم والمثابرة بلا دراسة ينتهي بصاحبه إلى الخبل أو التعلق بفكرة متسلطة.

ـ إذا ساد التواضع والاحترام والقناعة في عادات الأفراد فإن هذا يدلّ على سيادة تعاليم الله. ويعتبر كونفشيوس أول من استخدم منهج القياس المنطقي المتتابع (قبل أرسطو)، ومثاله الأقوال التالية:

ـ إن الحق المطلق غير قابل للتحطيم، ولما كان غير قابل للتحطيم فهو خالد، ولما كان خالداً فإنه موجود بذاته. ولما كان موجوداً بذاته فهو لا نهائي . ولما كان لا نهائياً فهو واسع عميق ولما كان واسعاً وعميقاً فهو متعالٍ وروحي.

ـ إذا فهم الإنسان طبيعة هذه الصفات الأخلاقية فإنه سيفهم كيف ينظّم سلوكه الفردي والأخلاقي. وإذا فهم كيف ينظم سلوكه الفردي فإنه سيفهم كيف يحكم الناس، وإذا فهم كيف يحكم الناس فإنه سيفهم كيف يحكم الأمم والامبراطوريات.

ـ لا مناص للرجل الذي ينتمي إلى طبقة الحكام من أن يكون ذا سلوك منظم فاضل، ولكن لكي يكون ذا سلوك منظم فاضل عليه أن يؤدي واجباته نحو ذوي القربى، ولكي يؤدي واجباته نحو ذوي القربى عليه أن يفهم طبيعة المجتمع الإنساني والقواعد التي يقوم عليها التنظيم الإجتماعي، ولكي يفهم طبيعة المجتمع الإنساني عليه أن يفهم القوانين الإلهية.

ـ يقول في وصف الأمير الصالح: إن الأمير النبيل العظيم يتسم بكل معاني العدل في جميع تصرفاته، فروح الحكمة تسيطر على أفراد شعبه، كبيرهم وصغيرهم، أشرافهم وسوقتهم.

ـ سئل كونفشيوس: ما أعظم شيء في حياة الناس؟ فقال: إن الحكومة هي أعظم شيء في حياة الناس، لأن الحكومة معناها الحكم الصحيح، فإذا سلك الحاكم الطريق الصحيح السليم فإن الأفراد سيقتفون أثره ويصبحون حسني الس لوك. فسألوه كيف يكون الحاكم سليماً؟ فأجاب: التمييز بين الزوج والزوجة، والمودة بين الأب والابن والثقة بين الحاكم والمحكوم، فسألوه: كيف يتم تحقيق ذلك فقال: إن الحب أعظم أداة للربط بين الناس وإيجاد الصلة بينهم . وأوضح أن الملك في العهود القديمة كان يذهب بنفسه لعقد القرآن بين الزوجين ويربط بين العشائر بأربطة المودة والمحبة. والزواج القائم على الود بين عشيرتين أعظم أداة لإصلاح الجماعة.. وطقوس الزواج ميراث يجب أن تتداوله الأجيال لأن من شأنها تأكيد الاحترام والمحبة بين الناس.

الأخلاق والسياسة:

يرى كونفشيوس أن الأخلا ق هي المبدأ الرئيسي الذي يجب أن يكون أساساً لأي نظام إجتماعي وسياسي مستقر فلا يتحقق نظام سليم إلا إذا كان الأفراد الخاضعون له متحلّين بالأخلاق الكريمة. ولا يستطيع حاكم أن يقيم نظاماً إجتماعياً كاملاً إلا إذا عمل على تكميل أخلاق الأفراد أنفسهم.

وإذا شعر كل إنسان بالانسجام الداخلي والراحة النفسية تسيطر على ذاته عمل على تثقيف نفسه وتجميلها بالمعارف التي تجعل منه مواطناً يفهم العادات والتقاليد والقوانين التي تخضع لها الطبيعة، ومن ثمَّ يعامل مواطنيه وفق هذه القوانين ويسود الانسجام بين الناس.

ولا تتم الأخلاق اللكويمة للفرد إلا بالتعليم والتربية التي تخلق منه مواطناً صالحاً والتي يكون عليها الاعتماد في تهذيب الأخلاق.. ولا بد أن يكون الحاكم نفسه ذا أخلاق سليمة لأنه مثال لمواطنيه، فإذا وصلت أخلاق الأفراد إلى الكمال قامت الأخلاق مقام القانون.

يرى كونفشيوس وأتباعه أن تهذيب أخلاق الناس عن طريق التعليم يجعلنا نستغني عن القوة والقانون والقضاء، ويقول: «إنك إذا قدت الناس وفق قوانين إجبارية وهدّدتهم بالعقاب، فقد يحاولون إتقاء العقاب، ولكن لن يكون لديهم الشعور بالشرف، ولكنك إذا قدتهم بالفضيلة ونظّمت شؤونهم بالتربية فإن علاقاتهم ستقوم على أساس من الشرف والاحترام».

واستخدم كونفشيوس الموسيقى والفنون في علاج نفسيات الأفراد وفي تقريب مشاعرهم بعضهم من بعض، كما اهتم بالطقوس الدينية والتقاليد الاجتماعية لأنها تقرّب بين الأفراد وتؤلف بينهم.. وكل ذلك يؤدي إلى الحبّ والانسجام بين المواطنين ويكتفي بالقانون الأخلاقي

بدلاً من القوانين العقابية الصارمة. والقانون الأخلاقي يقتضي السلوك السليم القويم ومصدره هو الله فهو الذي شرعه ونظمه .. وقد منح الله كلا منا طبيعته العقلية التي تجعلنا أحياء مفكرين. والقاعدة الأخلاقية ليست شيئاً آخر إلا توجيه أفعال نا الإنسانية بما يتفق وطبيعتنا العقلية الإلهية (أي التي وهبنا الله إياها). ومجموع القواعد الأخلاقية التي تنظم سلوكنا، وهي ما نسميها الواجبات، موجودة فينا، ونشعر بها عندما نريد فعلاً من الأفعال إذ نشعر أنه أخلاقي أو غير أخلاقي . والإنسان السوي إذا رجع إلى نفسه عرف القانون الأخلاقي بكل جلاء ولكن الجاهل قد لا يستطيع التفريق بين ما هو خير وما هو شر. ولذا لزم التعليم لجميع الأفراد حتى يميّزوا بين الخير والشر . والقواعد الأخلاقية عند كونفوشيوس هي وسط بين الإفراط والتفريط، لأن الطبيعة الإنسانية تقوم على عنصرين:

(1) الذات الإنسانية الحقّه أو الموجود الأخلاقي.

(2) الانفعالات التي إذا نمت وزادت بلغت إلى حد الرذيلة . والقانون الأخلاقي وسط بين المغالاة والتهاون.

وهكذا نجد كونفشيوس يسبق أرسطو في تعريفه للفضيلة بأنها وسط بين رذيلتين وهو ما أخذ به بعد ذلك فلاسفة المسلمين من أمثال مسكويه والفارابي والغزالي مما سبق الإشارة إليه في باب التعريفات.

والأسرة عند كونفشيوس هي المحضن الأول لتعلّم الأخلاق وتشرّبها حتى تصبح أسلوب حياة وطبيعة ثانية. وعندما تسود الألفة بين الزوج وزوجته وأولاده فما أشبه المنزل بربابة وعود تآلفت أنغامهما. وعندما يعيش الأخوة في تآلف وسلام فحينئذ يظل المنزل في وحدة وانسجام.

وإذا حسنت أخلاق الأسرة حسنت أخلاق المجتمع لأن المجتمع ليس إلا امتداداً للأسرة . وإذا علّمنا الأسرة كيف تتخلّق فإن المجتمع كله يتعلم كيف يتخلّق وإذا تعوّدت كل أسرة على الشفقة والعطف تعوّد المجتمع كله على ذلك . وإذا عملت كل أمة على إصلاح حالها فإن الانسجام والوئام سيسودان المجتمع الإنساني بأسره.

ويحدد كونفشيوس الفضائل التي ينبغي أن تعمّ بين الناس وهي: عطف الوالد على أولاده، واحترام الابن أباه، ومعامله الأخ الأكبر أخاه الأصغر باللين، وخضوع الأخ الأصغر للأكبر واحترامه. وطاعة الزوجة لزوجها وتحلّي زوجها بحسن الخلق معها، وحسن معاملة الكبار للصغار، وطاعة الصغار للكبار، وحسن معاملة الحاكم لرعاياه وعطفه عليهم وإخلاص الوزراء والولاة في أداء مهامهم.

وعلى الحاكم أن يتحلّى بالأخلاق وواجباته تسع:

(1) أن يتحلى بكل ما سبق بيانه من أخلاق الأفراد والأسرة.

(2) أن يحترم الأفراد الجديرين باحترامه.

(3) أن يتودّد إلى من تربطه بهم صلات القربى.

(4) أن يجلّ وزراء ولايته.

(5) أن يعامل موظفي دولته بالحسنى.

(6) أن يجعل من الصالح العام صالحه الشخصي وأن يجعل من نفسه أباً للشعب.

(7) أن يعمل على تشجيع الحرف والصناعات والفنون والنهوض بها.

(8) أن يعطف على رعايا الدول الأخرى المقيمين في دولته.

(9) أن يهتم برفاهية أمراء الامبراطورية.

ويجب أن لا ينسى الامبراطور أو الحاكم أن يستمع إلى نصيحة الشعب لأن ما تراه السماء وتسمعه ليس شيئاً آخر غير ما يراه الشعب ويسمعه. وما يعتبره الشعب جديراً بالثواب والعقاب هو ما تعتبره السماء جديراً بالثواب والعقاب. فهناك اتصال وثيق مستمر بين السماء والشعب. وعلى من يدبرون شؤون الشعب أن يراعوا ذلك ويتدبروه. وهذا كلام ينم عن فهم حقيقي للديمقراطية لأن صوت الشعب هو من صوت الله، (ولا تجتمع أمتي على ضلالة).

ويقول كونفشيوس: «إن توكيل السماء للحاكم ليس أبدياً. وهذا يعني أن الحاكم يظل متمتعاً بهذا التوكيل الإلهي طالما استخدم هذا التوكيل فيما يعود على شعبه بالخير، ويفقد الحاكم هذا التوكيل عندما يتّبع سياسة الظلم... إن بقاء الحاكم أو الأمير يتوقف على إرادة الله، وإرادة الله هي إرادة الشعب، فإذا نال الحاكم عطف الشعب وحبَّه فإن الله العليّ السامي ينظر إليه بعين الرضا ويوطد عرشه، أما إذا فقد حبَّ الشعب وعطفه فإن العلي السامي يصبُّ غضبه عليه ومن ثمَّ يفقد دولته».

ويقتضي العدل كما يراه كونفشيوس أن نضع كل إنسان في مكانته ووفق صفاته وكفائته وأخلاقه.. وطبقات كونفشيوس ليست طبقات مقفلة، كما هو عند الهندوس (البراهمة) بل هي طبقات مفتوحة.. يستطيع كل إنسان أن يصل إليها ما دامت أخلاقه ومواهبه وعمله تؤهله لذلك.

والإنسان عند كونفشيوس هو نقطة تلاقي القوى الأرضية والقوى السماوية ففيه من السماء الروح وفيه من الأرض عناصر الجسد.. وعلى الإنسان أن يتمتع بما وهبه له الله في حدود القانون الأخلاقي. وكونفشيوس ضد نزعة التقشف والحرمان بل يرى الاعتدال في استخدام نعم الله عليه.

والطبيعة الإنسانية تشتمل على سبعة إنفعالات هي الفرح والحزن والغضب والحبّ والكره والخوف والرغبة. وتتمثل الرغبة في ميل الإنسان للأكل والشرب والجنس، كما يتمثل الخوف في الخشية من الفقر والألم والموت. وعلى ذلك فالرغبة والخوف يلخصان القوى الدافعة للعقل أو القلب الإنساني. ولا شك أن هذه القوى هي التي تعمل، إما على تقريب الإنسان من القانون الأخلاقي، أو على إبعاده منه بحسب ظروف الإنسان، فالرجل الفاضل هو الذي يصل إلى القانون الأخلاقي بدون أن يتعالى عليه، أو ينخفض عن مستواه بسبب ما ينتابه من عوارض نفسيّة. والقانون الأخلاقي ذاته مؤسس على قوانين الطبيعة الإنسانية. إن

كل نظام للقوانين الأخلاقية لا بد أن يتخذ أساسه من ضمير الإنسان وظروفه، وهو الضمير الذي تؤيده التجارب الإنسانية للأجيال المتعاقبة كما تؤيده تجارب عامة الناس . وكل نظام إجتماعي ناجح يجب أن يقوم على الدين. فالدين وطقوسه تؤدي إلى تأكيد الروابط الإجتماعية وإشاعة المحبة والمودة بين الناس، وبالتالي إيجاد الثقة والإخلاص بين أفراد المجتمع . فالله هو صانع هذا العالم بما فيه، وفق قوانين منتظمة لا تقبل التخلف، إذ الشمس والقمر مثلاً يسيران في تتابع منتظم، والأشياء توجد وتعيش وتغنى بانتظام، ودون أي تدخل من جانبنا . وتلك الظواهر كلها تمثّل القانون الإلهي . والرجل العاقل هو الذي يسير وفق هذا القانون الأخلاقي. وعندما يطيع الابن أباه فإنه يتّبع نفس القانون الإلهي، فهو عندما يخدم أباه إنما يخدم في الآن نفسه الله. فالحياة الفاضلة ليست إلا تأكيداً للقانون الإلهي الذي هو في الآن نفسه تأكيد للطبيعة الإنسانية ولقانون الطبيعة العام.

وكلام كونفشيوس هذا يتفق تماماً مع ما جاء به الرسل الكرام. ولسنا ندري إن كان نبيّاً أو أنه مجرد حكيم ألهمه الله بما قال . ويشكل على ذلك حديثه عن الآلهة المتعددة، وإن كان يعترف بالله الخالق ال متسامي الذي لا نظير له ولا مثيل ولا تدركه الأبصار وهو العليم الخبير. فهل هذه إضافات من الأتباع كما حدث لأتباع الرسل في التاريخ الإنساني؟ أم أن هذه المقولات الشركية مما تبع فيه كونفشيوس أسلافه الذين كان يقدّسهم؟؟ يبدو، والله أعلم، أن كونفشيوس كان موحداً وإن الشركيات أضيفت إلى كلامه الجميل النوراني، كما أضاف أتباع الرسل في الأمم الغابرة شركياتهم إلى الأقوال النورانية.

من أقوال كونفشيوس في الأخلاق [1]:

ـ إن من حاسب نفسه ولم يجد عليها خطيئة فماذا يحزنه أو يخيفه؟

ـ يولد الإنسان مستقيماً فمن فقد الاستقامة، وما ز ال في الحياة فنجاته من الموت إنما هو حسن طالعه.

ـ كلما سرتُ بين رجلين وجدت لنفسي أستاذين: من له فضائل فهو قدوتي، ومن له رذائل فهو عبرتي.

ـ إن رأس الفضائل هو حبّ الغير بكل ما للإنسان من قوة وعاطفة . وإن الناس جميعاً أخوة.

ـ من العار ألا تهتم إلا بالرواتب، والدولة تحت سياسة حكيمة، ومن العار أيضاً ألا تهتم إلا بالرواتب، والدولة تحت سياسة غاشمة.

ـ إن قاعدة الحياة هي التكافؤ والمبادلة بالمثل.

ـ يجب على الإنسان أن يحب جميع الناس على السواء بكل ما في حبّه من سعة وقدرة.

(1)د. راجي التكريتي: السلوك المهني للأطباء ص 20، 21.

الفصل الثالث
الدين والأخلاق عند اليهود

الدين والأخلاق عند اليهود

التوراة:

قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَ لَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِ رُونَ *} [المائدة: 44] .

وقال تعالى: {وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ *} [الأحقاف: 12] .

وقال عزّ من قائل: {قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا} [الأنعام: 91] .

وقد أنزل الله سبحانه وتعالى على موسى التوراة وبها الهدى والنور والحكم وآيات النبوة، ولكن بني إسرائيل أضاعوا هذه التوراة في أثناء ردتهم الطويلة في عهد القضاة (بعد عهد يوشع بن نون)، وقد ارتدّوا عن دين الله وعبدوا الأوثان في سبعة عهود من أيام القضاة . ثم ارتدّوا بصورة أشدُّ في عهد الملكية بعد عهد سليمان واستمرت ردتهم أكثر من أربعمائة عام حتى جاءهم نبوخذ نصر البابلي سنة 586 قبل الميلاد فحطّم دولتهم في القدس (أورشليم) وهدّم الهيكل وأخذهم سبايا وأسارى إلى العراق . ثم جاءهم عزرا الكاتب وكتب لهم توراة جديدة فيها بعض آيات من التوراة القديمة الحقة وفيها إضافات كثيرة . ثم إن هذه أيضاً ضاعت . وكتبوا توراتهم وأسفار العهد القديم على فترات متطاولة تزيد عن الألف عام وامتلأت بالأكاذيب وسبّ الله سبحانه وتعالى والافتراء عليه. وسبّ أنبياء الله ابتداء من نوح إلى آخر أنبيائهم عيسى الذي اتهموه بالسحر والكذب والافتراء على الله واتهموا أمه مريم بالزنا إلى آخر الاتهامات الحقيرة والظالمة والكاذبة.

وقد بحثت في أسفار التوراة والعهد القديم عن آيات أخلاقية، فوجدت شيئاً منها مطموساً في ركام القاذورات. وكنت قد شبهتها بجواهر وألماس ملقاة في مزبلة [1] ، وأما التلمود وهو أقوال أحبار اليهود وأحكامهم فهو مزبلة حقيقية منتنة . وسنستعرض أولاً الأقوال النورانية الموجودة في التوراة والعهد القديم ثم نشير إلى بعض الركام والقاذورات التي وضعها أحبار اليهود في هذا الكتاب المنزل من عند الله فأبوا إلا أن يجعلوه مجمعاً لكل القاذورات والأخلاق التي تنم عن ما عندهم من حقد وغل ضد البشرية جمعاء.

بعض الآيات النورانية في التوراة والعهد القديم:

في سفر اللاويين (الإصحاح 19 - 1 - 19): «وكلّم الرب موسى قائلاً : كلم جماعة بني إسرائيل وقل لهم تكونون قدّيسين لأني قدوّس الرب إلهكم . تهابون كل إنسان، أمَّهُ وأباه، وتحفظون سبّوتي. أنا الرب إلهكم. لا تلتفتوا إلى الأوثان، وآلهة مسبوكة لا تصنعوا لأنفسكم .

---

(1)انظر كتبي التالية: المدخل لدراسة والعهد القديم، الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم إصدار دار القلم دمشق والدار الشامية بيروت، لمزيد من التفصيل.

أنا الربُّ إلهكم.... لا تغصب قريبك ولا تسلُبْ. ولا تُبتْ أُجرة أجير عندك إلى الغد . لا تشتم الأصم، وقدّام الأعمى لا تجعل معثرة . بل اخشَ إلهك . أنا الربَّ . لا ترتكبوا جوراً في القضاء . لا تأخذوا بوجه مسكين ولا تحترم وجه كبير . بالعدل تحكم لقريبك . لا تسعَ في الوشاية بين شعبك. لا تقف على دم قريبك، أنا الرب . لا تبغض أخاك في قلبك . انذاراً تنذر صاحبك ولا تح مل من أجله خطيئة . لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك بل تحب قريبك كنفسك».. وواضح أن الوصايا تحولت إلى المحافظة على اليهودي وعلى ماله ونفسه ولا ذكر لغيرهم، وهو من تحريفات يهود.

وفي سفر اللاويين أيضاً (الإصحاح 19 - 26 - 37): «لا تأكلوا بالدم .. لا تتفاءلوا ولا تعيّفوا (وهي العيافة والتشائم والتطير بإطلاق الطير فإن ذهبت يميناً تفاءل وإن ذهبت شمالاً تشاءم).. لا تقصّروا رؤوسكم مستديراً (وهو القزع) ولا تفسد عارضيك (أي اللحية) ولا تجرحوا أجسادكم لميّت . وكتابه (أي كتابة سحر) وسمّ لا تجعلوا فيكم . أنا الربُّ . لا تُدنّس ابنتك بتعريضها للزنى لئلا تزني الأرض وتمتلأ الأرض رذيلة ... لا تلتفتوا إلى الجان ولا تطلبوا التوابع فتتنجسوا بهم . أنا الربُّ إلهكم ... وإذا نزل عندك غريب في أرضكم فلا تظلموه. كالوطني منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم، وتحبّه كنفسك لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر. أنا الرب إلهكم. لا ترتكبوا جوراً في القضاء، لا في القياس ولا في الوزن ولا في الكيل. ميزان حق ووزنات حقّ، وايفة حقّ، وهين حقّ حتى تكون لكم، أنا الربُّ إلهكم» .

وفي الإصحاح العشرين من سفر اللاويين : عقوبات شديدة بالقتل لكل من يعبد الأوثان (مثل مولك) وعبادة الجان والتوابع. وسبّ الأب أو الأم وإذا زنى رجل بامرأة أبيه أو قريبه فإنهما يقتلان الزاني والزانية. وإذا اضطجع رجل مع ذكر فقد فعلا رجسا، إنهما يقتلان . وإذا اتخذ رجل امرأة وأمها، بالنار يحرقونه وإياهما . وكذلك من فعل الفاحشة بالبهيمة كلاهما يقتلان. ومجموعة طويلة من عقوبات الإعدام والقتل والحرق والرجم «وإذا كان في رجل أو امرأة أو تابعة فإنه يقتل بالحجارة يرجمونه . دمه عليه » وهي عقوبة شديدة جداً لشخص لم يرتكب ذنباً بل أصابه الجن والتوابع.

والأحكام الموجودة في التوراة متناقضة وشديدة جداً، بينما تسمح بها للأنبياء و أسرهم وأبناءهم وتجعلهم في أحقر صورة!!.

وفي سفر اللاويين (الإصحاح 24): كل من جدّف على اسم الربِّ فإنه يقتل .. الغريب كالوطني عندما يجدّف على الاسم يقتل . وإذا أمات أحدٌ إنساناً فإنه يقتل .. وإذا أحدث إنسان في قريبه عيباً فكما فعل يفعل به. كسر بكسر وعين بعين وس نٌ بسنّ.. ومن قتل إنسان يقتل حكم واحد يكون لكم. الغريب يكون كالوطني. إني أنا الرب إلهكم».

وفي نفس السفر (الإصحاح 26): «لا تصنعوا لكم أوثاناً. ولا تقيموا لكم تمثالاً منحوتاً أو نصباً ولا تجعلوا في أرضكم حجراً مصوراً لتسجدوا له لأني أنا الربُّ إلهكم . سبّوتي تحفظون ومقدّسي تهابون أنا الرب إلهكم.

وفي سفر التثنية (الإصحاح 4): تحذير شديد من عبادة الأوثان وأشكالها وأنواعها المختلفة.

وفي الإصحاح الخامس من سفر التثنية : «لا يكن لك آلهة أخرى أمامي . لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، صورة مما في السماء من فوق، وما في الأرض من أسفل، وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهُنَّ ولا تعبدهنّ لأني الرب إلهك إله غيور . أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء وفي الجيل الثالث والرابع من الذين يبغضونني، واضع إحساناً إلى ألوف من محبي وحافظي وصاياي. لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً. (مؤاخذة الأبناء بذنب الآباء مرفوض في الإسلام. ولا تزر وازرة وزر أخرى. وذلك هو العدل الإلهي الحق). «اكرم أباك وأمك كما أوصاك الربّ.. لا تقتل ولا تزن ولا تسرق ولا تشهد على قريبك شهادة زور. ولا تشته امرأة قريبك، ولا تشته بيت قريبك، ولا حقله، ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره، ولا كل ما لقريبك». (التثنية الإصحاح الخامس 9 - 22): والملاحظ هنا قصر ذلك على القريب فقط، وهو خطأ.

وفي سفر التثنية (الإصحاح السادس 4 - 19): «اسمع يا إسرائيل، الربُّ الهنا واحد فتحبُّ الربَّ إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك، ومن كل قوتك. ولتكن هذه الكلمات التي أنا أوصيك بها اليوم على قلبك. وقصّها على أولادك وتكلَّم، بها حين تجلس في بيتك وحين تمشي في الطريق، وحين تنام، واربطها علامة على يدك، ولتكن عصائب بين عينيك، واكتبها على قوائم بيتك وعلى أبوابك.... الرب إلهك تتّقي، وإيّاه تعبد، وباسمه تحلف. لا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التي حولكم لأن الربَّ إله غيور... احفظوا وصايا الرب إلهكم وشهاداته وفرائضه التي أوصاكم بها . واعمل الصالح والحسن في عيني الرب، لكي يكون لك خير وتدخل وتمتلك الأرض الجيّدة التي حلف الربُّ لآبائك أن ينفي جميع أعدائك من أمامك كما تكلم الرب».

ورغم أن هذا الكلام جيد إلا أنه ينتهي بالأمر بأخذ أراضي الغير وقتلهم ونهبهم كما سيأتي معنا. وليس في هذه التوراة الموجودة حالياً أي ذكر للآخرة ولا للجنّة والنار . النعيم هنا في الدنيا : من أطاع تعاليم الربّ يعطيه النصر على الأعداء واستلاب أموالهم وأراضيهم ويجعلهم عبيداً له، وتمتلأ بيوته بالأموال والنعيم.. ويطول عمره في صحة.. والعذاب هنا في الدنيا لمن يعصي الربّ ويعبد الأوثان.. فالهزيمة والذلة وانتصار الأعداء وتحولهم إلى عبيد بيد أعدائهم.. وتجتاحهم الأمراض والطواعين. العذاب هنا، والنعيم هنا، في الدنيا، ولا ذكر مطلقاً في التوراة للآخرة، (طبعاً توراة موسى مليئة بذكر اليوم الآخر والجنّة والنار).

تعاليم الإبادة والقتل في التوراة المحرّفة

سفر التثنية (الإصحاح 7 - 1 - 24): «متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها، وطرَدَ شعوباً كثيرة من أمامك : الحثيين والجرجاشيّين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويّين واليبوسيين سبع شعوب أكثر وأعظم منك، ودفعهم الربُّ إلهك أمامك . وضربتهم فأنك تحرّمهم (أي تبيدهم)، لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم ... ولكن هكذا تفعلون بهم تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواري هم وتحرقون تماثيلهم بالنار. لأنك أنت شعب مقدّس للرب إلهك. إياك قد اختار الربُّ لتكون له شعباً أخصّ من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض .... وتأكل كل الشعوب الذين، الربُّ إلهك يدفع إليك. لا تشفق عليهم.... ولكن الرب إلهك يطرد هؤلاء الشعوب من أمامك قليلاً قليلاً لئلا

تكثر عليك وحوش البريّة . ويدفعهم الرب أمامك ويوقع بهم اضطراباً عظيماً حتى يفنوا . ويدفع ملوكهم إلى يدك فتمحو اسمهم من تحت السماء . لا يقف إنسان في وجهك حتى تفنيهم».

وفي سفر العدد (الإصحاح 31 - 7 - 19): «فتجَّندوا على مديان كما أمر الربُّ، وقتلوا كل ذكر، وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم.. وأحرقوا مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار، وأخذوا كل النهب والغنيمة من السلب والبهائم وأتوا إلى موسى.. فقال لهم موسى : هل أبقيتم كل أنثى حيّة؟ فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة .» وهي صورة في منتهى البشاعة، فأهل مديان هم الذين أكرموا موسى عند فراره من مصر، وزوجهم كاهنهم يثرون ابنته، ولم يفعلوا شيئاً ضد موسى ولا قومه .. ومع ذلك هجم عليهم حسب كلام كاتب التوراة وقتل رجالهم وأحرق مساكنهم وأخذ كل ما لهم ومتاعهم، ثم لم يكتفِ بذلك، بل أمر بقتل النساء والأطفال الذكور، أما الأطفال الإناث فتركهن للاستمتاع بهن.. فأي صورة أشد بشاعة من هذه الصورة. وأي كذب وافتراء على كليم الله موسى أشدُّ من هذا الافتراء . وأي قسوة وحقارة أشدُّ من هذه القسوة التي تقتل الأسرى من النساء والأطفال.

وفي سفر التثنية (الإصحاح 20): «وأما مد ن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الربُّ إلهك نصيباً فلا تستبقِ منها نسمة، بل تحرّمها تحريما (أي تقتل كل نفس من الطفل الرضيع إلى الشيخ الفاني) الحثيين والآموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين، كما أمرك الربُّ إلهك».

نعم هكذا حرب إبادة (جينوسايد) ومحارق (هولوكسوت) تتصاغر أمامها ما يقال أن هتلر فعله بيهود.

وجاء في سفر صموئيل (الإصحاح 1 - 15): «وقال صموئيل (النبي) لشاول (وهو طالوت الذي جاء ذكره في القرآن) إياي أرسل الربُّ لمسحك ملكاً على شعبه إسرائيل (يدعى الممسوح بالزيت مسيحاً) والآن فاسمع صوت كلام الربّ . هكذا يقول ربّ الجنود : إني افتقدت ما عمل عماليق بإسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر . فالآن فاذهب واضرب عماليق وحرّموا (أي اقتلوا كل نفس) كل ما لَهُ ولا تعفُ عنهم، بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، حملا وحماراً» .

نعم إن قتل النساء والأطفال أمر يتكرر عشرات المرات في هذه التوراة المحرّفة الحقيرة التي كتبها أحبار يهود، أشدُّ الناس بعداً عن الأخلاق والرحمة .. وهم الذين امتلأت قلوبهم حقداً وغلاّ على البشرية جمعاء.. فإذا كان الأنبياء هكذا، كما يزعمون، فإن كل جرائم بيجن[1]

---

(1)تنطق الجيم بدون تعطيش لدى الأوس والخزرج أنصار رسول الله ولدى كثير من قبائل اليمن. وكذلك ينطقها أهل مصر (تأثير القبائل اليمنية). أما لغة قريش وتميم وهذيل فهي تعطّش الجيم تعطيشاً خفيفا، ويزداد التعطيش في الشام، ويصل إلى أشدّه في المغرب حيث تصبح الجيم شينا.. وتنطق بعض القبائل العربية الجيم ياء ولا يزال ذلك منتشرا في دولة الإمارات العربية والكويت وبعض مدن حضرموت. وكلها لهجات (لغات) عربية.

وشارون وأولمرت وبن جوريون ونتينياهو وجرائم دير ياسين والحولة وغزة، والقتل المتعمد للأطفال والنساء، هي أمور مبرّرة، لأن الربُّ قد أمر بها، حسب زعمهم.

وفي سفر التكوين (الإصحاح 34 - 11 - 13): «قال الرب: احفظ ما أنا موصيك اليوم. ها أنا طارد من قدامك الآموريين والكنعانيين والحثّيين والفرزيين والحويين واليبوسيين ـ احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض التي أنت آتٍ إليها لئلا يصيروا فخّاً في وسطك .. احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض».

وفي سفر العدد (الإصحاح 33 - 50 - 55): «وكلّم الربُّ موسى في عربات مؤآب على أردن أريحا قائلاً : كلّم بني إسرائيل وقل لهم : إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم .. تملكون الأرض وتسكنون فيها . قد أعطيتكم الأرض لكي تملكوها وتقتسمون الأرض بالقرعة حسب عشائركم .. وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكاً في أعينكم ومناخس في جوانبكم ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها» .

فهل يمكن أن يعقد سلام مع هؤلاء اليهود وكتابهم المقدس (المكدّس بالأكاذيب والافتراءات على الله ورسله) يقول لهم : لا تعقد سلاماً مع سكان الأرض التي أنت ذاهب إليها.. لا تعقد سلاماً مع سكان الأرض التي يعطيك الرب إياها .. تحرّمهم (أي تبيدهم) من الطفل الرضيع إلى الشيخ الفاني .. أو على الأقل تطردهم من أرضك أرض إسرائيل التي تفيض لبناً وعسلاً .. الأرض التي وعدها الله إبراهيم، ثم إسحاق، ثم يعقوب، ثم أنبياء بني إسرائيل صموئيل وموسى وهارون ويوشع بن نون. وقد قاموا هم بتنفيذ هذه الأوامر الربانيّة حسب زعمهم، وقتلوا النساء والأطفال فلا سلام مع سكان الأرض أي أرض فلسطين .. وأين حدود إسرائيل هذه؟ يقول الربُّ حسب زعمهم في سفر التثنية (الإصحاح 11 - 23 - 26): «يطرد الرب جميع هؤلاء الشعوب من أمامكم فترثون شعوباً أكب ر منكم وأعظم منكم . كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم.. من البريّة ولبنان.. من النهر، نهر الفرات إلى البحر الغربي (هل هو نهر النيل كما ورد في مواضع أخرى أو البحر الأبيض المتوسط كما دلت عليه عبارات أخرى من التوراة. وفي عَلَم إسرائيل يحدُّ نجمة داود خطّان أزرقان يمثلان نهر الفرات ونهر النيل.. وهذه هي حدود إسرائيل الكبرى التي تسعى إليها). يكون تخومكم . لا يقف إنسان في وجهكم. الربُّ إلهكم يجعل خشيتكم ورعبكم على كل الأرض التي تدوسونها بأقدامكم» .

جاء في سفر التثنية (الإصحاح 20 - 16 - 18): «وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الربُّ إلهك نصيباً فلا تستبق فيها نسمة، بل تحرّمها تحريماً» أي حرب إبادة كاملة.

وفي سفر التثنية أيضاً (الإصحاح 12 - 1 - 2) «قال الرب : هذه هي الفرائض والأحكام التي تحفظون لتعملوها في الأرض التي أعطاك الربُّ إله آبائك لتمتلكها كل الأيام، تخربون جميع الأماكن» .

نعم هذه هي وظيفتهم حسب أوامر الرب إلههم كما يزعمون : تخربون جميع الأماكن وتقتلون سكان الأرض من الطفل الرضيع إلى الشيخ الفاني .. تطردونهم من جميع

الأراضي.. تملأون قلوبهم رعباً حتى يفرّ من بقي منهم من أرض إسرائيل التي أعطاكم الرب إياها .

سفر يشوع سفر المجازر:

يشوع هو يوشع بن نون، تلميذ موسى وفتاه، ووصيه من بعده، وهو نبي، وقد فتح الله على يديه أرض كنعان . وهو أول من دخل فلسطين من بني اسرائيل فاتحا . ولكن سفر يشوع يصوره بصورة بشعة ومجرم حرب وقاتل للنساء والأطفال . وجاء في سفر يشوع (5/ 3 - 9) في حصار أريحا (Gericho) وفتحها: «وحرّموا (أي أبادوا) كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحدّ السيف... وأحرقوا المدينة مع كل ما بها. إنما الفضة والذهب وأنية النحاس جعلوها في خزانة الرب » . فأي صورة وضيعة وحقيرة لنبي الله يوشع بن نون ترسمها له هذه التوراة المحرّفة التي كتبها أحبار اليهود المجرمون.

وبعد أن قام يشوع، حسب زعمهم بمجزرته الكبرى في أريحا، قام بمجزرة مماثلة في مدينة عاي «ويكون عند أخذكم المدينة أنكم تضرمون المدينة بالنار» وقام يشوع بقتل جميع سكان عاي في الحقل والبرّية حيث لحقوهم، وسقطوا بحدّ السيف. ثم دخلوا المدينة وضربوها بحدِّ السيف، ولم يبقوا طفلاً ولا رضيعاً ولا شيخاً ولا رجلاً ولا امرأة . وكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ اثنى عشر ألفاً، هم جميع سكان مدينة عاي . «وحرَّم يشوع سكان عاي، ولك ن البهائم والأموال والذهب نهبها إسرائيل لأنفسهم حسب قول الرب . وأحرق يشوع عاي وجعلها تلاً أبدياً خراباً إلى هذا اليوم » (أي يوم كتابة السفر). [سفر يشوع الإصحاح 9 - 1 - 30]

سفر يشوع (الإصحاح 10 - 12 - 14): ورد فيه قصة وقوف الشمس ليشوع يوم الجمعة حتى يفتحها قبل دخول ليلة السبت. ومحرم في يوم السبت القتال. وذلك في فتح مدينة جعبون . وقد وردت قصة وقوف الشمس في صحيح مسلم دون ذكر اسمه بل قال «غزا نبي من الأنبياء» وأخرجه أيضاً الإمام البخاري في صحيحه بقوله «غزا نبي من الأنبياء » وجاء اسمه صريحاً في المستدرك للحاكم ال نيسابوري ومسند أحمد . وقام يشوع بإبادة سكانها، حسب زعمهم، كما فعل بأريحا وعاي. ثم إن يشوع أيضاً فتح مدينة لبنة وفعل بها ما فعل بسابقتها من المدن أريحا وعاي وجبعون وكذلك فعل بمقيدة وقتل الرضع والأطفال والشيوخ والعجزة وجميع البهائم، وانتقل إلى عجلون وفعل بها الأفاعيل كما فعل بأريحا وعاي وجبعون ومقيدة ولبنة، حرّمها تحريماً وأباد كل نفس حيّة فيها . ومنها انتقل إلى حبرون (Hebron) أي مدينة الخليل، وضربها بحدّ السيف.. لم يبق فيها نسمة.. وجاء في سفر يشوع «الإصحاح 9 و10 و11» «فضرب يشوع كل أرض الجبل والجنوب والسهل والس فوح، وكل ملوكها. لم يبق شارداً، بل حرَّم كل نسمة كما أمر الربُّ إله إسرائيل فضربهم يشوع من قادش برينغ إلى غزة، وجميع أرض جوشن إلى جعبون.. وأخذ جميع أولئك الملوك وأرضهم دفعة واحدة، لأن الرب إله إسرائيل حارب عن إسرائيل ... وضرب يشوع حاصور .. وضربوا كل نفس بها بحدِّ السيف، حرَّموهم، ولم تبق نسمة، وأحرق حاصور بالنار .. فأخذ يشوع كل مدن أولئك الملوك، وجميع ملوكها ضربهم بحد السيف .. حرَّمهم كما أمر موسى

عبد الرب، وكل غنيمة تلك المدن والبهائم نهبها بنو إسرائيل لأنفسهم .. لم يبقوا نسمة من الطفل الرضيع إلى الشيخ الفاني.. كما أمر الرب.. وأخذ يشوع كل تلك الأرض : الجبل وكل الجنوب، وكل أرض جوشن، والسهل، والعربة، وجبل إسرائيل وسهله من الجبل الأقرع الصاعد إلى سعير إلى بعل جاد في بقعة لبنان تحت جبل حرمون.. وحرّم كل نسمة في جميع تلك البلدان وأحرقها وجعلها رماداً. وقرض يشوع العناقيين من الجبل، من حبرون ومن دبير ومن عناب ومن جميع جبل يهوذا، ومن كل جبل إسرائيل، حرَّمهم فلم يتبقَّ عناقيون في أرض بني إسرائيل. فأخذ يشوع كل الأرض حسب كلما كلَّم به الربُّ موسى، وأعطاها يشوع ملكاً لإسرائيل حسب فرقهم وأسباطهم» .

وعندما شاخ يشوع قسَّم الأراضي التي لم يحتلها بعد على أسباط بني إسرائيل .. كل الأرض الباقية.. كل أرض فلسطين ولبنان والأردن وسوريا.. وأرض الجبلين وكل لبنان في شروق الشمس من بعل جاد تحت جبل حرمون إلى مدخل حماة. جميع سكان الجبل من لبنان إلى مسرفوت مايم. جميع الصيدونيين قال الرب: أنا أطردهم من أمام إسرائيل . وقسَّم يشوع الأرض بالقرعة لأسباط إسرائيل. (سفر يشوع الإصحاح 23).

وفي سفر صموئيل الأول الإصحاح الأول: «أقتل أبيمالك (لقب لملك الفلسطينيين). أقتلْ الكل: الرجال والنساء والأطفال والرضع والأبقار والخراف والجمال والحمير» .

وفي سفر صموئيل الثاني (الإصحاح 12 - 26 - 30) «يزعمون أن داود ذهب إلى ربّة عمون (عمان) وأخرج غنيمة المدينة كثيرة جداً، وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد، وأمرّهم في أتون الآجر (وأشعل فيهم النار).. وهكذا صنع بجميع مدن بني عمّون» .. خطة قيام إسرائيل وحدودها:

لقد تعمَّق لدى اليهود، وخاصة في العصور الحديثة، أحقيتهم في استلاب أرض الغير، وإبادتهم دون رحمة أو شفقة لأن تلك هي تعاليم الرب، إله إسرائيل، ربّ الجنود وتجدهم يتلذّذون بقتل النساء والأطفال وفي حرب غزة الأخيرة (2008) افتخر أحد الجنود بأنه قتل امرأة حامل وجنينها برصاصة واحدة، وصوَّر ذلك وقُتِلَ محمد الدرّة أمام أجهزة الاعلام، ووالده يحاول أن يحميه، بدم بارد، وقتلوا رجل الإسعاف الذي حاول أن يحميه.. أنهم يتلذّذون بقتل النساء والأطفال والشيوخ والعجزة، وبهدم المنازل على ساكنيها.

وهم يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن الله قد أعطاهم أرض فلسطين كلها، وأقل ما يمكن أن يقبلوا به هو من نهر الأردن (شرقاً) إلى البحر الأبيض المتوسط غرباً. كتب بيرسون دينور أول وزير للتعليم في إسرائيل: «ليس في بلادنا مكان إلا لليهود وسنقول للعرب ارحلوا، فإن لم يرضوا بذلك وعمدوا إلى المقاومة، فسنرحِّلهم بالقوة» .

وكتب جوزيف فايتز مدير الاستيطان غداة حرب يونيه 1967 «من الواضح أنه لا مكان في هذه البلاد لشعبين، والحل الوحيد هو إسرائيل اليهودية التي تضم على الأقل إسرائيل الغربية (أي الضفة الغربية) بلا عرب، ولا مخرج إلا بنقل العرب إلى مكان آخر في البلدان المجاورة» .

وقد صرح موشى ديان في الجيروزاليم بوست في 10 أغسطس 1967: «إذا كنا نملك الكتاب المقدس، وإذا كنا نعتبر أنفسنا شعب التوراة، فينبغي أيضاً أن نمتلك بلاد التوراة وبلاد القضاة، أرض أورشليم وحبرون وأريحا وأماكن أخرى كثيرة» .

وكل ساسة وقادة إسرائيل صرّحوا مئات المرات بأن لا بد من الاعتراف بإسرائيل يهودية، ولليهود فقط. وأما حدودها فأقلّ ما يمكن أن يُقْبَلْ هو من النهر (أي نهر الأردن) إلى البحر (أي البحر الأبيض المتوسط)، وعلى العرب أن يرحلوا، وإلا فسيرحّلون بالقوة وستستمر لهم المذابح، ولا سلام هناك.

ولعبة السلام أخذت وقتها لتنويم العرب، وابتلاع المزيد من الأراضي ببناء المستوطنات في الضفة الغربية وما حول غزة، وتهويد أورشليم تهويدا كاملاً ـ وهو مخطط مرسوم بدقة وتتم خطوات تنفيذه بدقة بالغة.

وقد وضع هرتزل خارطة مقترحة لدولة إسرائيل وقدمت في مؤتمر السلام في باريس عام 1919 وكانت الحدود المقترحة للدولة الصهيونية تمتد من صيدا وصور شمالاً على البحر الأبيض المتوسط إلى العريش جنوباً مروراً بالناقورة وعكا وحيفا وتل أبيب ويافا وغزة وخان يونس. ومن العريش تمتد إلى الجنوب الشرقي إلى العقبة التي جعلتها الخريطة تابعة لإسرائيل. أما من الناحية الشرقية فقد تعدَّت الحدود نهر الأردن وأخذت كل الأراضي المحاذية للنهر شرقاً وغرباً ولم تترك للأردن إلا الصحراء وأخذت بحيرة طبرية بكاملها والجولان وجنوب سوريا وجنوب لبنان.

وعندما قُدمت هذه الخريطة لتشرشل وزير المستعمرات آنذاك قال: نحن لا نعترف إلا بحدود إسرائيل الممتدة من البحر (الأبيض المتوسط) إلى النهر (أي نهر الأردن) ولن نسمح لكم بتعدي نهر الأردن. أما جنوب لبنان وجنوب سوريا والجولان فأمره إلى فرنسا وتفاوضوا معها .

وقد تم بالفعل منذ عام 1967 الوصول إلى هذه الحدود بالنسبة إلى نهر الأردن والاستيلاء على بحيرة طبرية والجولان. وتم الوصول إلى جنوب لبنان عام 1982، ولكن المقاومة الباسلة اضطرت اليهود إلى الانسحاب منها مكرهين .

هنا خريطة إسرائيل

وافقت بريطانيا العظمى آنذاك على هذه الخريطة بعد تعديلها بحيث يبقى نهر الأردن هو الحدُّ الفاصل، ووافقت في فرنسا على ابتلاع طبرية والجولان وجنوب لبنان على أن يتم ذلك في المستقبل وهو ما تم بالفعل عام 1967، وعام 1982. واضطرت إسرائيل من الانسحاب من جنوب لبنان بسبب المقاومة الباسلة.

وقد استمر الخداع حول الحكومتين واحدة لإسرائيل والأخرى موعودة للفلسطينين على ما بقي من الضفة الغربية وغزة، وتتالت التنازلات في أوسلو وخارطة الطريق ومؤتمرات لا عدّ لها ولا حصر. وأخيراً جاء نتنياهو (2009) مع ليبرمان وأعلنا بكل صراحة : «لا نقبل بأي حكومة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة. وأما القدس (أورشليم) فهي عاصمة إسرائيل الأبدية، ولا مكان للعرب فيها.. والمسجد الأقصى لا بد أن يهدم ويبنى مكانه الهيكل.. والأمر كله مسألة وقت..» ولا يزال العرب متشبثون بأحلام السلام الوردية والحكومتين.. إلخ. وهي أحلام يقظة يرفضون أن يخرجوا منها رغم التصريحات العلنيّة لنتنياهو وليبرمان و قادة إسرائيل، حيث لا يرى اليهود الآن أي حاجة لاستمرار الخداع . وإذا أصرّ أوباما (رئيس الولايات المتحدة) على إجراء المفاوضات فلا مانع من إجراء مفاوضات عبثية، وبشرط أن يعترف الفلسطينيون والعرب بإسرائيل كدولة يهودية (أي لليهود فقط وبالتالي طرد العرب منها)، وأن يبدأ التطبيع مع الدول العربية التي لم تطبّع بعد مع إسرائيل!!.

ومسألة طرد الفلسطينين من القدس سايرة على قدم وساق.. والمسجد الأقصى محاط الآن بأكثر من ثلاثين كنيس يهودي، كما إن الحفريات مستمرة . وهدم المسجد الأقصى ضمن مخطط واضح المعالم وإقامة الهيكل مكانه.

وتعترف الولايات المتحدة والدول الغربية ومعظم دول العالم الآن بأورشليم عاصمة أبدية لإسرائيل بعد أن تخاذل العرب، كما أن المخططات معروضة علناً لهدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل ويشارك في ذلك اليمين الأمريكي المتصهين وهم ما يعرفون بالأصولية المسيحية المتصهينة ويجم عون التبرعات لهدم الأقصى وبناء الهيكل لأنهم يعتقدون أن المسيح المنتظر لن يأتي إلا بعد تحقق ثلاث نبؤات جاءت في سفر حزقيال وهي :

(1) عودة بني إسرائيل إلى فلسطين كما تعود الطير إلى أوكارها. وقد تم ذلك عام 1948.

(2) عودة اليهود إلى أورشليم واستيلائهم عليها، وقد تم ذلك عام 1967.

(3) بناء الهيكل من جديد.. وهم يعملون جاهدين لتحقيق ذلك.

وهذه النبؤات في سفر حزقيال قد تحققت لأن حزقيال (وهو أحد أنبياء بني إسرائيل) قالها بعد أن حطَّم نبوخذ نصر البابلي الهيكل عام 586 قبل الميلاد. وحطم أورشليم وطرد اليهود من أورشليم وفلسطين. وقد تمت العودة على يد الامبراطور الفارسي قورش عام 538 قبل الميلاد، وتحققت النبوءة كاملة. وتم بناء الهيكل . ثم قام اليونان السلوقيون، خلفاء الإسكندر المقدوني بهدمه، وأعيد بناؤه للمرة الثالثة ثم تمَّ تحطيمه على يد هادريان الروماني، ولم تقم له قائمة منذ ذلك العهد، بل ولم يسمح لليهود بدخول القدس والإقامة بها. وطلب صفرونيوس بطريرك القدس من الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ألا يسمح لليهود بالإقامة في القدس، فيما عرف بالعهد العمري . وتمَّ ذلك بالفعل .. وقد سمح صلاح الدين الأيوبي لبضعة عائلات يهودية محدودة بالإقامة في القدس بعد أن قام الصليبيون بأعمالهم الإجرامية البشعة واعتبر العهد العمري ملغياً بسبب ذلك.

ولم يدخل اليهود القدس بأعداد كبيرة إلا بعد أن دخلها اللنبي القائد البريطاني عام 1918، وبسبب وقوف العرب معه وهزيمتهم للدولة العثمانية في معركة العقبة .. فللّه في خلق ه شؤون . وكان نصيب العرب الذين صدّقوا وعود بريطانيا وأكاذيبها أن أعطيت أرضهم لليهود في وعد بلفور المشؤوم (نوفمبر 1917).. وتعاونت بريطانيا والولايات المتحدة في فتح باب الهجرة لليهود على مصراعيه إلى فلسطين مع تسليحهم وتدريبهم، وتكونت في الأول من تموز 1920 أول حكومة انتداب (حسب قرار عصبة الأمم)، وجعلت بريطانيا رئيس هذه الحكومة البريطاني اليهودي المتعصب هربرت صموئيل . وكان من المنادين بإقامة وطن قومي لليهود على كل أرض فلسطين التوراتية، أي التي تمتد عبر نهر الأردن وإلى جنوب لبنان، وجنوب سوريا، شاملة بذلك الجولان، وبحيرة طبرية ونهر الأردن والبحر الميت إلى العقبة (حسبما جاء في خريطة هرتزل).

التبرير التوراتي للقتل وسفك الدماء وقتل النساء والأطفال:

إن هذا التبرير التوراتي للقتل وسفك الدماء وقتل النساء والأطفال هو الذي يشكلّ سياسة إسرائيل منذ تكوينها الأول، وتكوين عصابا ت الهجاناة وشتيرن وغيرها من العصابات الإجرامية التي قامت بمئات الجرائم البشعة مثل دير ياسين وقبيه وقانا إلى يومنا هذا ومذابح غزة . وستستمر هذه السياسة حتى يأذن الله سبحانه وتعالى بزوال هذه الدولة المتجبرة الطاغية الحقيرة.

يقول روجيه جارودي في كتابه القيم «إسرائيل الصهيونية السياسية » : «هذا التبرير التوراتي للقتل والإبادة وضم أرض الغير من جانب الدولة الصهيونية الحالية التي يقدمونها على أنها الوريث الشرعي والامتداد الطبيعي لإسرائيل التوراتية يجعل اليهود يرضون ويقبلون ما لا يمكن قبوله عقلاً. ويجعل كثيراً من الم سيحيين يعتقدون بصحة بعض الأقوال الكاثوليكية، وبصحة «مدارس الأحد» البروتستانتية. وهم يسيرون من غير وعي منهم على سنن الأسطورة الصهيونية (الموجودة في التوراة المحرّفة والتي أوردنا نصوصاً كافية منها) .

«ودلت الأسطورة (التوراتية) هنا على قوّتها في تعبئة الصهيون يين (وهم غالبية اليهود) فترى الحاخام العازر والدمان يكتب في جريدة «نكوده» في مقال عنوانه : «قوة الانجاز » فيأتي بالسند الديني لسياسة شارون وبيجن [1] مبدياً أشد المشروعات الإمبريالية جنوناً، وموضحاً أن إسرائيل قد أثبتت باحتلالها لبنان أنها قادرة على إحلال عهد جديد في الشرق الأوسط، بل تجاوز ذلك إلى القول بأن هذا بداية خلاص العالم [2] ، (مشيراً بذلك إلى قرب ظهور مسيحهم الدجال الأعور).

---

(1) الجيم غير المعطشة هي لغة الاوس والخزرج أنصار رسول الله . وهم من اليمن . وتنطق بغير تعطيش في مصر ومعظم أرجاء اليمن . وأما المعطشة فهي لغة قريش وتميم، ويزداد التعطيش في سوريا (الكبوى) وينقلب إلى شين في المغرب.

(2)روجيه جارودي: إسرائيل الصهيونية السياسية، دار الشروق، ص 90 .

وقد صرَّح أحد الحاخامات في جيش إسرائيل أثناء غزو لبنان لصحيفة هاآرتس في 5 - 7 - 1982 بقوله: «علينا ألا ننسى أجزاء التوراة التي تبرّ ر هذه الحرب، فنحن نؤدي واجبنا الديني هنا (أي في أرض لبنان) فالنصّ المكتوب يفرض علينا واجباً دينياً هو أن نغزوا أرض العدو» .

ويعلّق جارودي على ذلك بقوله : «لهذا يظهر الحاخامات في إسرائيل حماساً جنونياً لتوسيع حدود إسرائيل باستمرار، ويبرّرون كل المغامرات العسكرية الدموية ومجازر صبرا وشاتيلا» .

وقد اعتبر الحاخامات أن تدمير مدينتي صور وصيدا ودكّ بيروت بالقنابل ومجازر صبرا وشاتيلا هي عمل ديني يباركه الرب إله إسرائيل الذي يقول لهم حسب زعمهم : «اقتل ابيمالك .. اقتل الكل !! الرجال والنساء والأطفال والرضع والخراف والأبق ار والجمال والحمير».

ولقد قرَّر بن جوريون تدريس النصوص التوراتية التي تؤكد حقّ إسرائيل في أرض فلسطين والأردن وجنوب لبنان وأجزاء من سوريا حتى حماه في المدارس الإسرائيلية وقرَّر سفر يشوع في المرحلة الابتدائية . وقد قام العالم السيكولوجي تاماران من جامعة تل أب يب بوضع استفتاء للطلبة في المرحلة الابتدائية (من السنة الرابعة إلى الثامنة) عما إذا كانوا يوافقون على أن يقوم الجيش الإسرائيلي بما قام به يشوع من حرب إبادة ضد أريحا وما حولها من مدن الفلسطينيين . وقد تراوحت الإجابة ما بين 66 و95 بالمئة حسب المدرسة والمستعمرة (الكيبوتز) والمدينة بالموافقة على ذلك[1] .

ومن المؤسف حقاً أن نجد كثيراً من رجال الكنيسة في الغرب وخاصة من التدبيريين الأصوليين المسيحيين المتصهينين من البروتستانت يتعصبون لإسرائيل بأكثر مما يفعله بعض اليهود، كما أن بعض رجال الكنيسة الكاثوليكية الذين كانوا معادين لليهود في الماضي قد تحولوا إلى دعم إسرائيل دعماً لا حدود له . يقول الكاتب الكاثوليكي المتعصب جاك ماريتان: «فلسطين هي الأرض الوحيدة التي ثبت ثبوتاً مطلقاً، وثبوتاً إلهياً أن لشعب معيّن هم اليهود، حقٌ لا ينازع فيها» [2].

اللَّه جلّ جلاله في التوراة وفي عقائد اليهود التلمودية:

إن التوراة المحرّفة والتلمود اللذين كتبهما أحبار يهود تصور أن الله سبحانه وتعالى بأنه إله شعب إسرائيل فقط. وأنه لا يهتم بالشعوب الأخرى ولا يريدهم أن يعبدوه ويوحدوه، بل هو مهتم فقط بابنه البكر إسرائيل . ويغار عليه غيرة شديدة، ويغ ضب غضباً شديداً عندما يذهب أبناؤه إلى البعليم وعشتروت وملكوم من رجاسات وأوثان الأمم الأخرى . وقد وضع الربُّ عهده معهم ليكون لهم ربّاً وليكونوا له أبناء. وعبادته تتمثل في تقديم اللحم المشوي له (القرابين)، فإذا شمّ رائحة الشواء تنسَّم نسيم الرضا وأعطاهم أراضي الغير، أرضاً تفيض

---

(1)روجيه جارودي: إسرائيل الصهيونية السياسية ص 90 وما بعدها.
(2)انظر كتابي القدس والمسجد الأقصى عبر التاريخ، الدار السعودية 187 - 197 - 197 و202 - 216.

لبنا وعسلاً، ونصرهم على أعدائهم، وقاتل معهم، وأعطاهم المال الوفير والصحة وطول العمر ولا شيء آخر بعد الدنيا .. النعيم هنا والعذاب هنا، إذا خالفوا أوامره وعبدوا الأوثان والرجاسات التي كانت في الأمم الأخرى فيسلّطْ عليهم أعداءهم فيقتلونهم ويس تعبدونهم ويذلّونهم .. كما يسلط عليهم أحياناً الأمراض والطواعين حتى يعودوا فإذا عادوا تلقّاهم بالأحضان، وأمدَّهم بكل ما يريدون.

ومن الصور العجيبة والغريبة أن الربَّ طلب من النبي هوشع أن يذهب ويتزوج جومر بنت دوبلايم الزانية لأن الأرض زنت وإسرائيل ذهبت وراء الآ لهة الأخرى وتركت الربّ . جاء في سفر هوشع (الإصحاح 1 - 2 - 9): «أول ما كلم الرب هوشع قال الرب لهوشع : اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى . فذهب وأخذ جومر بنت دبلائم فحبلت وولدت له ابنا. فقال له الربّ : ادع اسمه يزرعيل لأنني بعد قليل أعاقب بيت ياهو على دم يزرعي ل، وأبيد مملكة إسرائيل.. لأنكم لستم شعبي ولا أكون معكم»، وفي سفر هوشع (الإصحاح 2 - 2 - 21): يقول الرب: «حاكموا أمكم (أي إسرائيل) لأنها ليست امرأتي وأنا لست رجلها، لكي تعزل زناها عن وجهها وفسقها بين ثدييها، ليلاً أجرّدها عريانة وأوقفها كيوم ولادتها وأجعلها كقفر.. ولا أرحم أولادها لأنهم أولاد زنى، لأن أمهم زنت، التي حبلت بهم صنعت خزياً لأنها قالت: أذهب وراء محبيّ الذين يعطون خبزي ومائي وصوفي وكتّاني وزيتي وأشربتي ... لكن هانذا أتملّقها وأذهب إلى البرّية وألاطفها وأعطيها كرومها من هناك ... وهي تغنّي كأيام صباها وكيوم صعودها من أرض مصر .. ويكون في ذلك اليوم يقول الرب : إنك تدعينني رجلي ولا تدعينني بعلي » (لأن الرب ينفر من كلمة البعل لأن إسرائيل عبدت البعل (أحد الآلهة الموجودة في فلسطين ولبنان ومنها بعلبك وبعل شمس.. الخ).

والصورة بذيئة وحقيرة حقّاً، فالربُّ حسب زعمهم لا يريد فتاته إسرائيل أن تذهب وتزني وراء آلهة أخرى، فهو متيّم بها إلى حدّ الجنون.. ويريدها أن تقول له أنت رجلي ولا يريدها أن تقول أنت بعلي!!.

«وقال الرب لهوشع: اذهب أيضاً احببْ امرأة حبيبة صاحب وزانية، كمحبّة الرب لبني إسرائيل وهم ملتفتون إلى آلهة أخرى ومح بّون لأقراص الزبيب »، سفر هوشع (الإصحاح 3).

النبي أرميا يصف الله سبحانه وتعالى بالخداع:

جاء في سفر أرميا (الإصحاح 4 - 10)، «فقلت آه يا سيدي الربّ. حقّاً أنك خدّاع، خدعت هذا الشعب (أي شعب إسرائيل) قائلاً: يكون لكم سلام.. وقد بلغ السيف النفس» .

والربُّ لا يهتم إلا بابنه البكر إسرائيل:

جاء في سفر التثنية (الإصحاح 7): «أنتم أولاد الربّ إلهكم » وفي سفر صموئيل الثاني : «أنا أكون له أبا وهو يكون لي إبنا» .

وجاء في المزمور الثاني أن الربَّ قال لداود (وهو يمثل إسرائيل): «أنت ابني وأنا اليوم ولدتك. اسألني فأعطيك الأمم ميراثاً وأقاصي الأرض ملكاً» .

ويعتقد اليهود اعتقاداً جازماً بأنهم أبناء الله وأحباؤه على الحقيقة والمجاز. وأن الله خلق آدم على صورة الله، (على صورة الله خلقه) وأن الله قد جعل في آدم جزءاً من ذاته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ثم زعموا أن آدم كانت له عشيقة من الجنّ اسمها ليليت، كما أن حواء كان لها عُشّاقاً من الجن . وقد أنجب كل واحدٍ منهما أطفالاً من الاتصال بالجنّ . وهؤلاء يسمّون أبناء الناس. أما أبناء آدم وحواء فيسمّون أبناء الله . ثم إن أبناء الله رأوا بنات الناس حسنات فتزوجوا منهن فولد لهم الجبابرة الذين هم منذ الدهر ذوو اسم . فغضب الرب لاختلاط نسبه بنسب أبناء الناس (خليط من الجنّ وآدم وحواء) وقال: «لا يدين روحي في الإنسان» فأمر بإغراق الأرض وأهلك جميع البشر ما عدا نوح لأنه كان من أبناء الله (سفر التكوين الإصحاح السادس). وسكر نوح حسب زعمهم وتعرّى فدخل عليه حام فخرج وهو يضحك وقد رأى والده عرياناً. فلما عرف ذلك سام غضب ودخل وغطى والده دون أن ينظر إلى عورته. فلما أفاق نوح وعرف القصة قال مبارك الرب إله سام .. وسكن الربُّ في خيام سام. وتحول حام إلى اللون الأسود ومنه جميع السود الأفارقة كما غضب الرب على كنعان ابن حام لأن اليهود يريدون الاستيلاء على أرض كنعان فصار كنعان ووالده حام ملعونين مطرودين من رحمة الله، وخرجت منهما روح الله وسكن الربُّ في خيام سام . ثم تسلسل من سام إبراهيم وحلّتْ روح الله في إبراهيم ومنه إلى إسحاق (لأنه بإسحاق فقط يُدعى لك نسل). وهكذا دخلت روح الله وذاته إلى إسحاق ومن إسحاق إلى يعقوب الذي استطاع أن يحصل على روح الله بحيلة قذرة من أخيه عيسو. وذلك أن إسحاق عندما شاخ وعمي، طلب من ابنه عيسو أن يصطاد له صيداً لكي يأكل منه وتباركه نفسه، فذهب عيسو ليصطاد، ولكن رفقة زوجة إسحاق كانت تحبُّ ابنها يعقوب أكثر من ابنها عيسو، فذبحت جديين وألبست يعقوب ألبسة عيسو فادّعى يعقوب أنه عيسو.. وبعد تردد قبل ذلك إسحاق وأكل الجديين وشرب كمية هائلة من الخمر.. آنذاك رضيت نفسه فأعطى يعقوب البركة وانتقلت روح الله إلى يعقوب، وسكن الربُّ في خيام يعقوب، وحلَّ الله فيه، فلما جاء عيسو غضب إسحاق ولكنه قال : «ما أفعل لك يا بني لقد جاء أخوك وأخذ بركتك بمكر فلما كرر عيسو الطلب بأن يعطيه أبوه أي بركة غضب إسحاق وصبَّ لعناته عليه وقال له: عبد العبيد تكون لأخيك يعقوب لأنه قد أخذ بركتك بمكر وخداع .

وهكذا حلّ الله حسب زعمهم في يعقوب .. ولهذا عندما عاد من البرية وجد الله في الليل فعرفه فصارعه يعقوب حتى كاد الفجر يطلع، فقال له الربُّ، حسب زعمهم، أطلقني . قال لا أطلقك حتى تعطيني هذه الأرض (أرض فلسطين لي ولنسلي) فأعطاه الربُّ حسب زعمهم هذه الأرض له ولنسله إلى أبد الآبدين وأن يكون نسله مثل عدد نجوم ا لسماء، ومثل عدد رمل البحر، وأن لا يقدر أحد على نسله إلى أبد الآبدين . ثم قال له الربُّ : ما اسمك؟ قال : يعقوب فقال له الرب: لا يدعى بعد اليوم اسمك يعقوب بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الربّ وقدرت (انظر تفاصيل هذه انحرافات والخزعبلات وكلام السكارى ومدمني المخدرات ف ي سفر التكوين من التوراة المحرّفة) .

ولهذا فإن اليهود يفتخرون باسم إسرائيل، وأسرا معناها القوي وائيل باتفاق معناه الله . والمعنى عندهم لأنك كنت قوياً وصارعت الله طوال الليل وقدرت، فإنك أخذت العهد من

الرب باستلاب أرض كنعان بالقوة. وهو أمر يدلُّ على جنون، وفقدان عقل، وفقدان خلق.. بل هم أحقر مخلوقات الله .

ويعتقدون أن أرواح اليهود تتميز عن بقية البشر بأنها جزء من ذات الله كما إن الابن جزء من أبيه ، (وقد أوردنا نصوصاً من التوراة بهذا المعنى، كما أن نصوص التلمود أشدّ صراحة ووقاحة في ذلك). ولو لم يخلق اليهود لانعدمت البركة من الأرض . والفرق بين اليهودي وباقي الشعوب كالفرق بين الإنسان والحيوان . وليس من العدل أن يشفق الإنسان على أعدائه ويرحمهم . ويحق بل يجب على اليهودي أن يسرق مال الغير، ولا يعتبر ذلك سرقة بل استرداداً لمال اليهودي، إذ أن الله لم يخلق العالم إلا من أجل اليهود . ومصرّح لليهودي أن يخدع ويغشّ غير اليهود، ومحرّم عليه أن ينصح له . وحياة غير اليهودي ملك لليهودي فكيف بماله؟ (وهذا يفسر كل الأزمات المالية العالمية التي حدثت وسرقة الجوييم أي غير اليهود، بما في ذلك الأزمة العالمية الكبرى الأخيرة والتي خسر العالم فيها عشرات التريلونات، والتي كسبها اليهود، وحولوها إلى ذهب يتم تخزينه في إسرائيل وفي أقبية ودهاليز محروسة حراسة شديدة . وسيستغرب القارىء إذا عرف أن بنك حكومة بريطانيا Bank of England الذي يصدر العملات والذي كان يحكم العالم في زمن الامبراطورية البريطانية ليس إلا بنكاً خاصاً لليهود من عائلة روتشيلد وغيرهم .. كما أن البنك الفيدرالي الاحتياطي الأمريكي Federal Reserve الذي يصدر العملات ويتحكم في العالم ويقرض حكومة الولايات المتحدة ليس إلا بنكاً يهودياً خاصاً .. إنها حقائق مرعبة، وهؤلاء اليهود قد استولوا على ثروات العالم كلها بالخداع والسرقة والغش وهذا كله مسموح به، بل مأمور به في التوراة والعهد القديم والتلمود . «لليهودي لا تقرض بربا، لغير اليهودي لا تقرض إلا بالربا» يقول الرب في التوراة حسب زعمهم فأي دين هذا؟ وأي أخلاق هذه.

كانت يقول عن العهد القديم أنها أرذل الوصايا وبيڤن يقول أن العهد القديم أشدّ الكتب بعدا عن الأخلاق.

لهذا نجد الفيلسوف الألماني عمانيئويل كانت (1724 - 1804) يقول عن تعاليم الكتاب المقدس وبالذات العهد القديم: «إنها أرذل الوصايا وأشدّها ضرراً ». كما نجد ارنست بيفن، أول وزير خارجية لأول حكومة عمالية تتولى الحكم في بريطانيا (حكومة أتلي التي تولت الحكم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية) يقول: «إن العهد القديم هو أشد الكتب بعداً عن الأخلاق» ويقول عن اليهود: «ماذا تتوقع من شعب تربّى منذ المهد على أقوال التوراة» [1].

اللَّه في التوراة والعهد القديم والتلمود:

والصورة التي ترسمها أسفار العهد القديم، وبالذات التوراة لرب العالمين، صورة مضحكة ومخزية في آن معاً . والله عندهم لم يعلم بآدم عندما أكل من الشجرة المحرّمة ، (شجرة المعرفة) إلا عندما اختبأ آدم منه عند هبوب ريح النهار. فلما لم يجده ناداه: أين أنت؟ فقال آدم سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت » (سفر التكوين (الإصحاح 3) . وغضب الربُّ لذلك وقال: «ملعونة الأرض بسببك» «وقال الرب الإله : هوذا الإنسان

---

(1)مذكرات كويستوفر ماهيو: الشرق الأوسط في 1987/3/9.

قد صار كواحدٍ منّا عارفٍ الخير والشرّ، والآن لعله يمدّ يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيى إلى الأبد . فأخرجه الربُّ الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها . فطرد الإنسان وأقام الرب، شرقي جنة عدن، الكروبيين (فرقة من الملائكة الشداد) ولهيب سيف متقلّب لحراسة طريق الحياة» (سفر التكوين الإصحاح 3).

والرب يتعب من عمله الذي عمل. جاء في سفر التكوين الإصحاح الثاني : «وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل . وبارك الله اليوم السابع وقدَّسه، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً.

الرب يستيقظ وينام:

جاء في سفر زكريا (الإصحاح 2: 10 - 13) : «ترنمي وافرحي يا بنت صهيون لأني هانذا آتي وأسكن في وسطك يقول الرب... اسكتوا يأكل البشر قدّام الرب لأنه قد استيقظ من مسكن قدسه».

وفي التلمود الذي يعتبره أحبار اليهود أهم من التوراة ينام الله طوال الليل اثنى عشر ساعة ينام فيها ويرتاح. ويقسّم النهار إلى اثني عشر ساعة كالتالي :

في الثلاث ساعات الأولى يدرس الله التوراة مع أحبار يهود، في الثلاث الثانية يحكم العالم ويدبّر شؤونه، وفي الثلاث الثالثة يطعم العالم، وفي الثلاث الأخيرة يلعب مع الحوت ملك الأسماك، ولكن بعد أن أذن الله بتحطيم الهيكل وتشريد أبناءه اليهود من فلسطين على يد نبوخذ نصر سنة 586 قبل الميلاد غيّر البرنامج كالآتي: في الثلاث الأولى يدرس التوراة مع الأحبار. وفي الثانية يحكم العالم وفي الثالثة يطعم العالم، أما الثلاث ساعات الأخيرة فبدلاً من أن يلعب مع الحوت ملك الأسماك فإنه يبكي ويزأر : تُبّاً لي لأني صرّحتُ بخراب بيتي وإحراق هيكلي ونهب أولادي. وتسقط كل يوم منه دمعتان في البحر فيُسمع دويّهما من بدء العالم إلى أقصاه، وتضطرب المياه، وترتجف الأرض في أغلب الأحيان فتحدث الزلازل» .

الله يدعو على نفسه بالويل والثبور لأنه شرّد ابناءه .

«جاء في التلمود أن الله حينما يسمع أبناءه يمجدّونه ، رغم ما فعل بهم من نكبات، يندم ويلطم وجهه ويصرخ قائلاً: طوبى لمن يمجدّه الناس، وهو مستحق لذلك . وويل للأب الذي يمجدّه ابناؤه (اليهود) مع عدم استحقاقه لذلك، لأنه قضى عليهم بالتشريد والشقاء» .

وتصور التوراة المحرفة وأسفار العهد القديم وتعاليم التلمود الله سبحانه وتعالى بأنه ربّ شعب إسرائيل وليس رباً للعالمين، ولا يهمه إلا شعبه وأبناءه الذين جعلهم فوق جميع الشعوب، ويأكلون جميع الشعوب . وقد جاء في التلمود : تتميز أرواح اليهود عن باقي الأرواح بأنها جزء من الله، كما إن الابن جزء من والده . وأرواح اليهود عزيزة عند الله لأن أرواح غير اليهود هي أرواح شيطانية . والإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة . وإذا ضرب أممي (جوييم من غير اليهود) إسرائيلياً فكأنما ضرب العزّة الإلهية ويستحق الموت .. ولو لم يخلق اليهود لانعمدت البركة من الأرض، ولما خلقت الأمطار والشمس.. والفرق بين درجة الإنسان والحيوان كالفرق بين اليهودي وباقي الشعوب .. والأجانب كالكلاب والأعياد

المقدّسة لم تخلق للأجانب ولا للكلاب. والكلب أفضل من الأجنبي لأنه مصرح لليهودي في الأعياد أن يطعم الكلب، وليس له أن يطعم الأجنبي أو أن يعطيه لحماً، بل يعطيه للكلب لأنه أفضل منه . والخارجون عن دين اليهود خنازير نجسة . وقد خلق الله الأجنبي ليكون لائقاً لخدمة اليهود ويسوع الناصري موجود في لجات الجحيم بين الزفت والقطران . وأمه مريم أتت به من زناها بالعسكري باندرا . والكنائس المسيحية بمقام القاذورات، والواعظون فيها كلاب نابحة .. وغير اليهود حمير وبيوتهم زرائب للحيوانات . وليس من العدل أن يشفق الإنسان على أعدائه ويرحمهم» .

أهمية التلمود:

وقد جاء في التلمود ما يلي:

(1) ـ اعلم أن أقوال الحاخامات هي أفضل من أقوال الأنبياء.

(2) ـ إن من يقرأ التوراة بدون المشنا والجمارة (التلمود) فليس له إله.

(3) ـ إن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها ولا تغييرها ولو بأمر الله.

(4) ـ جاء في التلمود أن خلافاً نشأ بين الله وبعض الحاخامات حول إحدى المسائل العويصة. وأخيراً تقرر إحالة الخلاف إلى السنهدرين (المحكمة العليا) وكبير الحاخامات . وقد حكم رئيس الحاخامات والسنهدرين بخطأ الله مما اضطره إلى الاعتراف بخطئه علانية وتقديم اعتذار أمام السنهدرين (ألا لعنة الله على يهود).

(5) ـ «إن مخافة الحاخامات هي مخافة الله».

(6) ـ عندنا مناسبتان دمويتان ترضيان إلهنا يهوه . إحداهما عيد الفطير الممزوج بالدماء البشرية، والأخرى مراسيم ختان أطفالنا.

وجاء في كتاب إريك بسكوف Erich Bischoff «الطقوس اليهودية الآمرة بالقتل »[1] : إن من حكمة الدين وتوصياته قتل الأجانب الذين لا فرق بينهم وبين الحيوانات، والذين لا يؤمنون بتعاليم الدين اليهودي، وفي شريعة اليهود يجب تقديمهم قرابين إلى إلهنا الأعظم » وتقول دائرة المعارف اليهودية (Jewish Encylopedia) [2]: «إن كان هناك من أساس أُقرَّ من قبل الحكماء اليهود فهو حقيقة القرابين البشرية التي تقدم للإله يهوه ملك اليهود والتي بوشر في تقديمها في أواخر عهد الملكية».

وتقول دائرة المعارف اليهودية: «سلطة التلمود، كمستودع للقانون الشفهي، تعتبر سماوية عند اليهود الأرثوذكس . ومن هنا تعتبر تعاليم التلمود إلزامية وثابتة . ويعترف الآخرون بالدور العظيم الذي لعبه التلمود في تحديد وحسم عقائد اليهود ونظرياتها» [3].

(1)أريك بسكوف Erick Bisckuff » الطقوس اليهودية الآمرة بالقتل 1938، Jewish Ritual Murder.
(2)الانكلوبيديا اليهودية عام 1904: نقلاً عن إبراهيم خليل أحمد في كتابه «إسرائيل والتلمود» ص 103.
(3)نقلاً عن ظفر الإسلام خان في كتابه: «التلمود تاريخه وتعاليمه» ص 29.

ويقول إسرائيل ابراهامز: «لقد بقي اليهودي بسبب التلمود بينما بقي التلمود في اليهودي » [1].

وتقول دائرة المعارف اليهودية : «إن أهمية التلمود كانت تتزايد على مر العصور . وأثناء انحطاط العقلية اليهودية (القرن السادس عشر وما بعده) كان التلمود يعتبر السلطة العليا عند أكثرية اليهود وخصوصاً في بولندا التي أصبحت مركز دراسة التلمود (وهي التي أخرجت معظم قادة إسرائيل). وأخذت التوراة مكاناً ثانوياً بالنسبة للتلمود حتى أن كلمة دراسة أصبحت مرادفة لكلمة دراسة التلمود»[2] .

وتقول دائرة المعارف البريطانية إن إسرائيل تشهد حالياً عودة شديدة للتمسك بالتلمود والأصولية [3].

تصوير الله في التوراة بصورة بشرية مقزّزة:

تصور التوراة الله (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) بصورة بشرية فآدم صورة مصغّرة من الله. وفي كنيسة السيستين التابعة لأكبر كنائس روما (سانت بيتر) رسم مايكل أنجلو الله على سقف الكنيسة في صورة رجل قوي كثّ الشعر، يمسك بيده آدم، وهو صورة طبق الأصل منه إلا أنه أصغر حجماً . وقد زرت السيستين هذه مرتين. ويدخلها ملايين السياح سنوياً. وقد قام مايكل أنجلو برسم سقفها وهو معلّق على سقالة لمدة أربع سنوات كما قام روفائيل برسم جوانبها.. وكل هذه الرسوم من سفر التكوين من التوراة المحرّفة.

وفي التوراة أن الله (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) يحب اللحم المشوي حُبَّاً شديداً . ولا يفعل الأنبياء ولا الكهنة شيئاً سوى تقديم المحارق، فإذا قدّموا للرب اللحم المشوي الكثير وشم رائحة الشواء تنسَّم نسيم الرضا، وأعطاهم مقابل ذلك أرضاً تفيض عسلاً ولبناً .. وقاتل معهم أعدائهم ووهبهم النصر والقوة وإبادة الأعداء من الطفل الرضيع إلى الشيخ الفاني .. كما يعطيهم الصحة والأموال وطول العمر.. أما إذا لم يقدّموا له اللحم المشوي فإنه يغضب عليهم ويسلّط عليهم أعداءهم ويجعلهم عبيداً لهم .. كما يصيبهم بالآفات والأمراض والطواعين، وخاصة عند قيامهم بعبادة الأوثان، وقد فعلوا ذلك معظم تاريخهم (ارتدوا في عهد موسى، وفي عهد يشوع، وفي عهد القضاة سبع مرات، وفي عهد الملكية عشرات المرات حتى اتهموا سليمان بأنه عبد الأوثان مع زوجاته، كما اتهموا هارون بأنه هو الذي صنع لهم العجل الذهبي وأمرهم بعبادته. وقام هو ومن معه من بني إسرائيل بالذبح له والرقص حوله عرايا . ولما وبّخه موسى على ذلك بعد عودته، عمل على تعرية موسى والضحك عليه وتآمر في ذلك مع أخته مريم.

وزعموا أن الرب غضب على موسى لأنه رفض أن يذهب إلى فرعون ليخلّص شعب الربّ من العبودية فنزل الرب في حواري مصر، وقد أقسم ليقتلّن ابن موسى، فوجد الطفل

(1)نقلاً عن ظفر الإسلام خان: «التلمود تاريخه وتعاليمه» ص 34.

(2)المصدر السابق: ص 54.

(3)دائرة المعارف البريطانية: الطبعة 15 لعام 1982، ج 1006/17 - 1014.

وأمسك به ليقتله، ولكن صفّورة، زوجة موسى وأم الطفل، أسرعت وخطفت الطفل من بين يدي الربّ، وأخذت سكينة، وقطعت غرلة الغلام (لم يكن قد اختتن بعد)، ثم أخذت الدم ومسحت ساق الرب بهذا الدم، وقالت «صفّورة»: إنك عريس دم لي !! عريس دم من أجل الختان!! فانفكَّ الربُّ عنه حسب زعمهم (سفر الخروج الإصحاح الرابع 22 - 26) .

وقد قام موسى ( ) حسب زعمهم بتهديد الربّ ومخاصمته لأنه لم ينقذ شعب الربّ من يد فرعون، بل تركهم ليفعل بهم فرعون الأفاعيل (انظر سفر الخروج الإصحاح 5 - 22 - 23) وهذا كثير في هذه التوراة المحرفة .

وكان الرب معهم في أثناء التيه، ليدلّهم على الطريق في البريّة. وظهر لهم في النهار على هيئة عمود من سحاب، وفي الليل على هيئة عمود من نار، وظل كذلك لمدة أربعين سنة لم يستطع فيها أن يدلّهم على الطريق (انظر سفر الخروج الإصحاح 13 - 20 - 21) .

وكان الربُّ ينزل إليهم إلى خيمة الاجتماع (قبة الزمان كما كان يسميها ابن القيم وغيره حسب الترجمات القديمة) ويجتمع مع رؤسائهم ويكلّمهم، ويسمعون صوته وكلامه مباشرة، ثم إن السبعين الذين اختارهم موسى لمقابلة الربّ، قابلوه ورأوه رأي العين وسمعوا كلامه، وأكلوا وشربوا عنده . (سفر الخروج الإصحاح 24) وقد كتب لهم الربّ اللوحين بإصبعه حسب زعمهم جاء في سفر الخروج (الإصحاح 31 - 18)، «ثم اعطى (الله) موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سينا لوحا الشهادة.. لوحي حجر مكتوبين بإصبع الله». وعندما غضب موسى وكسّر اللوحين بسبب ع بادتهم للعجل قام الرب وقال لموسى : «انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين . واصعد إلى الجبل فأكتبُ على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الذين كسرتهما» (سفر التثنية الإصحاح 10 - 1، 2) .

وأمر الرب أشعيا أن يحلّ حقويه ويمشي عارياً لمدة ثلاث سنوات آية وأعجوبة »!! (سفر أشعيا 20 - 2 - 3) .

ويقوم جدعون بامتحان الرب بأن يجعل الحقل كله عليه الطلّ ما عدا الجزّة، ثم عكس جدعون الطلب، وأن يكون الطلّ فقط على الجزّة بينما يكون الحقل يابساً. وذلك كله ليتأكد أن الرب سيقاتل معهم الأعداء.

الربّ يأسره الفلسطينيون، حسب زعمهم:

وكان الربّ يقاتل معهم ويحضر المعارك معهم ويهبهم النصر على الأعداء. والغريب حقاً أن تزعم التوراة أن ربّ الجنود الجالس على الكروبيم وداخل التابوت ليهب لهم النصر، انهزم وأخذه الفلسطينيون أسيراً لديهم. جاء في سفر صموئيل الأول (الإصحاح 4) أن شيوخ إسرائيل قالوا لماذا كسرنا الربُّ أمام الفلسطينيين فأخذوا التابوت وفيه ربّ الجنود الجالس على الكروبيم ليقاتل معهم ويهبهم النصر.. وعلم الفلسطينيون فقالوا : قد جاء الله إلى المحلّة ليقاتل مع بني إسرائيل.. ويل لنا من ينقذنا من يد هؤلاء الآلهة القادرين.. وتشدَّد الفلسطينيون، وانكسر إسرائيل وهرب كل واحد إلى خيمته . وكانت الضربة عظيمة جداً وقتل من بني إسرائيل في ذلك اليوم ثلاثين ألف رجل. وأخذ الفلسطينيون تابوت الله معهم إلى اشدود. ولكن الله ضربهم بالبواسير والفئران والأمراض. وبقي الله عندهم مأسوراً لمدة سبعة أشهر (تعالى

الله عن ذلك علواً كبيراً) كما جاء في سفر صموئيل الأول الإصحاح الخامس . فلما كثرت الفئران والبواسير خاف الفلسطينيون وأرجعوا تابوت الله إلى بني إسرائيل مع قربان الإثم وهو خمسة بواسير من ذهب وخمسة فئران من ذهب.

وانظر سفر صموئيل الأول (الإصحاح 6 - 1 - 5) . «وأصعدوا التابوت على عجلة، وجعلوا بقرتين تشدّه إلى أهل بيت شمس (قرية إسرائيلية) وفرح أهل القرية، ونظروا الله وجهاً لوجه فمات منهم في ذلك اليوم خمسين ألفاً لأنهم نظروا الله وجهاً لوجه وقال لهم نبيهم صموئيل: انزعوا الآلهة الغريبة من وسطكم، والعشتاروت من وسطكم واعدّوا قلوبكم للرب واعبدوه وحده فينقذكم من الفلسطينين » (صموئيل الأول، الإصحاح 7 - 3 - 4) وقدَّم صموئيل اللحم المشوي للرب فرضي على بني إسرائيل بعد أن شم رائحة الشواء الذي يحبه جداً جداً.

وفي سفر صموئيل الثاني (الإصحاح 6 - 12 - 16) : «جاء أن داود وجميع الشعب أخذوا تابوت الله الذي يسمّى رب الجنود الجالس على الكروبيم، وجرّوا التابوت على عجلة. والربُّ جالس في التابوت يتفرّج على بني إسرائيل وهم يلعبون ويرقصون . وكان داود وكل الشعب يرقص ويغني ويلعب بالرباب، وينفخ بالمزمار، ويضرب بالدفوف والجنوك ابتهاجاً بعودة الرب الجالس على الكروبيم من الأسر من عند الفلسطينين . «وأشرفت ميكال بنت شاول وزوجة داود من الكوّة ورأت الملك داود يطفر ويرقص أمام الرب فاحتقرته في قلبها وقالت له: ما كان أكرم ملك إسرائيل اليوم حيث تكشَّفَ اليوم في أعين إمائه وعبيده كما يتكشّف أحد السفهاء» (سفر صموئيل الثاني الإصحاح السادس).

والربُّ عندهم حقود، سريع الغضب، كثير الندم فلا تكاد تمر صفحة من صفحات التوراة والعهد القديم إلا وفيها أن الربَّ قد غضب، وبعد أسطر قليلة يندم الربّ على غضبه وعلى أنه فعل الشرَّ بشعبه.

وفي سفر صموئيل الثاني الإصحاح السابع قرر الملك داود أن يريح الرب من التجوال في الخيام مع بني إسرائيل وأن يبني له بيتاً ليرتاح «وقال الرب لداود: «أأنت تبني بيتاً لسكناي؟ لأني لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدت بني إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم، بل كنت أسير في خيمة وفي مسكن. في كل ما سرت مع جميع بني إسرائيل هل تكلمت بكل مة واحدة إلى قضاة إسرائيل قائلاً لماذا لم تبنوا لي بيتاً من الأرز» لذا قال الرب عن داود : «هو يبني بيتاً لاسمي وأنا أثبت كرسي مملكته إلى الأبد. أنا أكون له أباً وهو يكون لي ابناً . إن تعوّج أؤدبه بقضيب الناس وبضربات بني آدم. ولكن رحمتي لا تنزع كما نزعتها من شاول الذي أزلته من أمامك. ويأمن بيتك ومملكتك إلى الأبد أمامك، كرسيك يكون ثابتاً للأبد».

ورغم هذا فإن هذا الكرسي قد اهتزّ حسب زعمهم بوصول سليمان لأنه حسب قولهم الكاذب عبد الأوثان. فلما مات سليمان ثار الناس على ابنه وطردوه وقتلوه وانقسمت مملكة داود إلى مملكتين صغيرتين متناحرتين أحدهما إسرائيل وفيها عشرة من الأسباط وعاصمتها شكيم (السامرة نابلس) وهي أشد فجوراً وعتوّا من أختها الثانية يهوذا، وهي مملكة أورشليم، وفيها سبطي يهوذا وبنيامين. وكلاهما كفر بالله وعبد الأوثان إلا أن مملكة إسرائيل كانت أشدَّ

كفرا وعتوا فأزالها الله بواسطة الآشوريين إزالة تامة سنة 721 قبل الميلاد . وبقيت مملكة يهوذا في أورشليم إلى أن حطّمها نبوخذ نصر البابلي تحطيماً تاماً سنة 586 قبل الميلاد . ومنذ ذلك الزمن لم تقم لبني إسرائيل دولة مستقلة بل بقوا أولاً تحت الفرس، ثم بعد ذلك تحت اليونان السلوقيين (قادة الإسكندر المقدوني في سوريا) ثم تحت الرومان، الذين هدّموا الهيكل للمرة الثالثة تهديماً نهائياً على يد تيطس سنة 70 بعد الميلاد ثم هادريان وتفرق اليهود في البلاد.. ولم يشكّلوا إلا أقلية ضئيلة في فلسطين منذ ذلك الزمن . ومنعهم الرومان من دخول القدس (أورشليم ومن اسمائها إليا كابيتيولينا).. وكان صفرونيوس بطريرك القدس عندما سلَّم مفاتيح أورشليم لعمر بن الخطاب قد اشترط أن لا يساكنهم في المدينة المقدسة اليهود فوفّى لهم عمر والمسلمون بذلك العهد، إلى أن نقض الصليبيون كل العهود واستعاد صلاح الدين القدس من براثنهم، وسمح تحت تأثير طبيبه موسى ابن ميمون اليهودي لبضع عائلات يهودية بسكنى القدس. ولهذا يحتفل اليهود بيوم حطّين بأكثر مما يفعل العرب لأن انتصار صلاح الدين في حطّين سمح لهم لأول مرة منذ أكثر من ألف عام بالعودة إلى القدس، ولو كانت ممثلة ببضعة أشخاص فقط.

تطاولهم وسبّهم للأنبياء والرسل الكرام:

إذا كان اليهود وأحبارهم، عليهم لعائن الله المتتابعة قد سبّوا الله ووصفوه بأقذع الصفات، فإنهم دون ريب لن يتورعوا عن سب أنبياء الله ورسله الأطهار والكذب والافتراء عليهم . ولا يرد في التوراة أن أحداً من الأنبياء دعا إلى الله و عبادته والإيمان بالله واليوم الآخر وإنما يقوم الأنبياء، حسب زعمهم بتقديم اللحم المشوي اللذيذ للرب، فيسر الرب بعد أن يشم رائحة الشواء فيعطيهم أرضاً وعسلاً ولبناً وخيرات كثيرة ويعطيهم أراضي الغير ويجعل الآخرين عبيداً لهم ولا نجد في هذه التوراة المحرفة أحداً يدعو إلى الله وعبادته والإيمان به وباليوم الآخر وبرسله ولا نجد أي ذكر لعمل الخير بين الناس إلا فيما ندر.

نوح :

جاء في سفر التكوين (الإصحاح 5): «أن أبناء الله (وهم أبناء آدم وحواء وفيهم روح الله) رأوا بنات الناس أنهن حسنات، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اخت اروا» وبنات الناس هؤلاء هن من زنا آدم بعشيقته ليليت، ومن زنا حواء بعشاقها من الجن (حسب تفسير التلمود) وغضب الرب لذلك، قال: لا يديم روحي في الإنسان إلى الأبد . لزيغانه هو بشر ... «فخرٌ الربُّ أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه، فقال الرب : أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته . الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء . لأني حزنت أني عملتهم، وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب (لأنه من أبناء الله) (سفر التكوين الإصحاح 5 - 5 - 8) .

وبعد أن أغرق الله الأرض ونجّا نوحا وزوجته وأبناءه، الثلاثة كلَّم الله نوحا قائلاً : أخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك وكل الحيوانات التي معك ... وبنى نوح مذبحاً للربّ. وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح فتنسم الربُّ رائحة الرضا. وقال الربُّ في قلبه: «لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل

الإنسان، لأن تصور قلب الإنسان شرّير منذ حداثته، ولا أعود أيضاً أميت كل حي كما فعلت» (سفر التكوين الإصحاح 8 - 20 - 22).

نوح يسكر حسب زعمهم:

«وابتدأ نوح العمل على الأرض وغرس كرماً . وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خبائه. فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه، وأخبر أخويه خارجاً (أي خارج الخباء) فأخذ سام ويافت الرداء وغطّا عورة أبيهما فلما استيقظ نوح من خمره، علم ما فعل به ابنه الصغير حام فقال: ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لإخوته، وقال: مبارك الربُّ إله سام. وليكن كنعان عبداً لهم. ليفتح الله ليافث فسكن في مساكن سام . وليكن عبداً لهم». (سفر التكوين الإصحاح 9 - 20 - 27)

وهو أمر غريب جداً، وكنعان لا علاقة له بالقصّة أصلاً، إلا أن مؤلف السفر أراد أن يعطي اليهود أرض كنعان فألّف هذه القصة الحقيرة. وكذب على نبي الله نوح . وتحوّلت كما أسلفنا روح الله الموجودة في نوح إلى سام وسكن الربُّ في خ يام سام !! وأما حام الذي كان أبيض اللون فتحول بعد هذه الحادثة إلى أسود اللون . ولذا جاء نسله بعد هذه الحادثة كلهم سود .. ولذا ينبغي أن يكونوا عبيداً للرجل الأبيض لأبناء سام ويافث حسب زعمهم . وهي نظرة حقيرة عنصرية لا أخلاق فيها البتّة.

قصة إبراهيم :

وانتقلت روح الله إلى إبراهيم . ولا يرد في التوراة مطلقاً أن إبراهيم دعا أباه وقومه إلى عبادة الواحد الأحد وترك عبادة الأوثان والنجوم والشمس والقمر . وإنما جاء أن إبراهيم قدَّم لحماً مشوياً للرب فرضي الرب عنه بعد أن شمَّ رائحة الشواء الذي يحبه جداً فوعده بأرض تفيض لبناً وعسلاً وهي أرض فلسطين . «وقال الرب لابرام اذهب من أرضك وعشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك . فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظّم اسمك وتكون بركة، وأبارك مباركيك، ولاعنك ألعنه وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض ». (سفر التكوين الإصحاح 12).

وذهب معه ابن أخيه لوط ب ن هاران .. وظهر الرب لابرام وقال : لنسلك أعطي هذه الأرض. فبنى مذبحاً للرب الذي ظهر له، وسُرَّ الربُّ جداً برائحة الشواء.

وتقول التوراة المحرفة أن إبراهيم تزوج أخته من أبيه سارة، وأنه لما حدث جوع في الأرض ذهب إلى أرض مصر، ورغم أن سارة كانت قد جاوزت السبعين إلا أنها كانت جميلة جداً، وطلب منها إبراهيم أن تقول أنها أخته، فأخذها المصريون إلى الفرعون فصنع إلى ابرام خيراً بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال . (سفر التكوين الإصحاح 12 - 10 - 16).

وكذلك فعل إبراهيم مرة أخرى عند ملك الفلسطينيين وقدَّم له زوجته سارة ليأخذ منه الأموال والأغنام والأبقار.. وفي كل ذلك يقول أنها أخته . ويبرر ذلك بأنها أخته بنت أبيه، وليست بنت أمه. (سفر التكوين الإصحاح 20 - 1 - 16).

ويذكر الإصحاح 14 من سفر التكوين أن ملوك فلسطين وما حولها جميعهم أكرموا إبراهيم وأحسنوا وفادته. وخاصة ملك اليبوسيين، ملك أورشليم وكاهنها فقد بارك إبراهيم ووقف معه وقاتل. «وكان ملكي صادق كاهناً لله العلي وباركه (أي بارك إبراهيم، وقال: مبارك ابرام من الله العلي مالك السموات والأرض». (سفر التكوين الإصحاح 14).

وعاتب ابرام الرب حسب زعمهم لأنه لم يعطه نسلا.. ووعده بأن نسله سيكون مثل عدد نجوم السماء وعدد رمال البحر. ولما رأت سارة أنها لا تلد وقد بلغت من العمر أرذله قدمت له جاريتها هاجر التي أعطاها إياها فرعون مصر. فحبلت هاجر وولدت إسماعيل وغارت سارة من هاجر وأذلتها وقالت لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها فقبح ا لكلام في عيني إبراهيم ولكن الرب قال له: لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها لأنه بإسحاق (الذي سيأتي) يُدعى لك نسل. (سفر التكوين الإصحاح 21 - 9 - 12).

الختان:

وأمر الرب إبراهيم بأن يختتن وأن يختن ابنه إسماعيل وأن يختن عبيده ففعل ذلك لأن الله لا يعرف شعبه إلا عن طريق الختان. ومن لم يكن مختوناً فلا يعرفه الرب، بل أمر الرب بقتله، وتكرر ذلك في التوراة عشرات المرات. ويقول الرب لابرام: «وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك (من إسحاق فقط) من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً لأكو ن إلهاً لك ولنسلك من بعدك. وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً». (التكوين الإصحاح 17).

«وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك. يُختن منكم كل ذكر. فتختتنون في لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بيني وبينكم. ابن ثمانية أيام يختن كل ذكر في أجيالكم ... فيكون عهدي في لحمكم عهداً أبدياً. وأما الذكر الأغلف الذي لا يختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها. إنه قد نكث عهدي» التكوين (الإصحاح 17- 9 - 14)، أي يحكم عليه بالإعدام من أجل الختان.

إسحاق:

اتهموه أيضاً بأنه ديوث وأنه قدَّم امرأته إلى أبيمالك ملك الفلسطينيين ليأخذ منه أموالاً وأغناماً وأبقاراً وقال عنها أنها أخته. ولكن ملك الفلسطينين أشرف من الكوة فوجد إسحاق يداعب رفقة (زوجته) فعرف أنها ليست أخته بل زوجته فاستدعاه وقال له: إنما هي امرأتك فكيف قلت إنها أختي؟ فقال له إسحاق: لأني قلت لعلّي أموت بسببها فقال أبيمالك: ما هذا الذي صنعت بنا؟ لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنبا. فأوصى أبيمالك جميع الشعب قائلاً: الذي يمسُّ هذا الرجل أو امرأته موتاً يموت. (سفر التكوين الإصحاح 26).

فانظر إلى نبل أخلاق أبيمالك هذا وانظر إلى الصورة المزرية التي صوروا بها إسحاق بأنه جبان ومستعد أن يعطي امرأته للملك أو لمن شاء الملك، خوفاً على حياته، ورغبة في المال، وهي نفس التهمة التي ألصقوها بإبراهيم.

لوط :

وهي من أفظع القصص وأخبثها وأشدّها نكراً فقد زعموا أن لوطاً بعد أن نجاه الله من قومه وأمطر عليهم حجارة من سجيل وقلب عليهم الأرض بسبب فحشهم وشذوذهم الذي لم يسبقهم إليه أحد من العالمين .. زعموا أن لوطاً وابنتيه ذهبا إلى مغارة فقالت الكبرى للصغرى: لا يدخل علينا رجل ها هنا.. هلم نقيم لأبينا نسلا فسقتاه خمرا فنام مع الكبرى تلك الليلة. وفي الليلة التاليه فعلا الشيء ذاته ونام مع الصغرى فحملتا منه وأنجبت الأولى ابن عمون والآخر موآب، ولم يشعر لوط حسب زعمهم لا باضطجاعهما معه ولا قيامهما من عنده. (سفر التكوين الإصحاح 19 - 30 - 38).

يعقوب وبنوه:

رغم أن بني إسرائيل يدّعون أنهم من نسل يعقوب وأن كل اليهود من نسله، وهو أمر غير صحيح لأن كثيراً من اليهود من الأمم التي دخلت في الدين اليهودي، ومنهم يهود الخزر الذي تهود ملكهم في القرن الثامن الميلادي، وتهود معه مجموعة من قومه . وهم يشكلون يهود روسيا وبولندا وأوروبا الشرقية، ومنهم معظم قادة إسرائيل الحالية وسكانها . رغم ذلك كله فإن التوراة قد وصفت يعقوب وبنيه بأقذر الصفات.

وقد وصفته أسفار التوراة (سفر التكوين) بأنه جبان وكذاب ومخادع وحقير ومفتري، وحاشا يعقوب من هذه الأوصاف القذرة، ومع ذلك وصفوه بأنه قوي يصارع رب العالمين ويأخذ منه العهد بالقوة ويعطيه أرض كنعان له ولنسله لأبد الآبدين.

وقد ولدت رفقه توأماً هما عيسو ثم نزل يعقوب ماسكاً بعقبه فسمّي يعقوب ـ ثم زعموا أن عيسو شب قوياً يذهب إلى الحقل وإلى الصيد؛ بينما كان يعقوب مثل الفتاة المدللة يجلس مع أمه رفقه، ويتعلم منها الطبخ، وذات يوم عاد عيس و الشاب القوي متعباً ومنهكاً من العمل ووجد مع أخيه إداما (أدوم بالعبرية) فطلب منه أن يعطيه منه، فرفض يعقوب إلا بشرط أن يتنازل عيسو عن البكورية (وهي مهمة جداً عندهم) فتنازل عنها من أجل الخبز وطبيخ عدس وإدام أحمر (سفر التكوين 25 - 27 - 34).

ثم لما كبر إسحاق وشاخ وعمي أراد أن يعطي البركة لعيسو كما تقدم معنا، فجاء يعقوب بمعاونة أمه رفقه وخدعا إسحاق وقدّما له جديين مشويين وقنينة خمر فأكل الجديين وشرب الخمر، فأعطى البركة ليعقوب وهو يظن أنه عيسو.. وهكذا بمكر وخداع احتال يعقوب على أبيه وأخذ منه العهد والبركة وأن تك ون روح الله فيه وتنزع من أخيه وأن يكون أخاه عبداً له!! (سفر التكوين الإصحاح 27).

واستمع لهذه البركة المزعومة: «فليعطك الله من ندى السماء، ومن دسم الأرض، وكثرة حنطة وخمر. ليستعبد لك شعوب، وتسجد لك قبائل. كن سيّداً لأخوتك. وليسجد لك بنو أمك، ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين» .

وهي بركة غريبة في كل أمرها .. وهي لم تأت إلا بعد أن أكل الشيخ العجوز جديين كاملين وشرب قنينة خمر (أعوذ بالله)، ثم أطلق هذه البركة المحتوية على المال والأرض وأن تسجد لك شعوب وتستعبد لك أمم ويكون أخوتك عبيداً لك.. أي بركة هذه!!.

ورغم أن عيسو المسكين حاول أن يأخذ من أبيه أي بركة فلم يجد سوى اللعنة، فلما مات إسحاق، أمرت رفقة يعقوب بأن يذهب إلى خاله لابان في العراق ويتزوج ابنته لأنها لا تريده أن يفعل كما فعل عيسو الذي تزوج من الفلسطينيين المحتقرين في نظرها !! كما أنها تريده أن يبتعد عن أخيه عيسو القوي والبطل . فذهب يعقوب إلى أرض العراق وذهب إلى خاله لابان الذي وعده بأن يزوجه ابنته راحيل الجميلة بشرط أن يخدمه سبع سنوات، فلما انتهت المدة أدخل عليه خاله ابنته الكبرى ليّه السمينة القبيحة وكان الظلام شديداً فلم يرها يعقوب . ودخل عليها من غير عقد وبقي معها طوال عمره بدون عقد وأنجب منها بدون عقد!!.

وكلم يعقوب خاله فقال له أننا لا نزوج إلا الكبرى أولاً فامكث أسبوعاً نزوجك الصغرى فمكث أسبوعاً وزوجه راحيل الصغرى بشرط أن يخدمه سبع سنين أخرى فخدمه .. ثم قام يعقوب بالعودة بزوجتيه وجاريتيه منهما وأطفاله إلى فلسطين. وسرق أموال خاله وأغنامه، كما أن زوجته راحيل سرقت إله أبيها من الذهب. وعرف ذلك يعقوب وقبل منها ذلك. وحلف لخاله لابان بآلهة ناحور والآلهة كلها بأنه لم يسرق إله خاله (لأن الذي سرق زوجته وليس هو).. وهكذا خرج يعقوب بأموال كثيرة سرقها من خاله بالخداع والك ذب (سفر التكوين الإصحاح 30 و31).

ولما وصل يعقوب إلى أرض كنعان كان أخوه عيسو قد جمع أموالاً بكدّه وعمله، وكان يعقوب من الجبن والخوف والنفاق بدرجة كبيرة فذهب إلى أخيه وسجد له سبع مرات، وأمر زوجاته وعبيده وأولاده أن يسجدوا جميعاً لعيسو سبع مرات . وقدّم له الهد ايا مائتي عنزة، ومائتي نعجة، وثلاثين ناقة، وأربعين بقرة، وعشرة ثيران، وعشرين أتانا وعشرين كبشاً وعشرين تيساً (وكلها من التي سرقها من خاله لابان).. واستغرب البطل عيسو من هذا السلوك وحاول أن يمنع أخاه من السجود فأصرّ يعقوب على ذلك وقال : «إنني عندما رأيتك رأيت الله!! فاقبل هديتي المتواضعة !! وألحّ يعقوب على عيسو حتى أخذ الهدايا . (سفر التكوين الإصحاح 33 - 1 - 12).

وهكذا تزعم التوراة أن إسحاق جعل يعقوب سيداً على أخيه عيسو، وأن يكون عيسو وجميع أخوته كلهم عبيداً ليعقوب . ولكننا نرى هنا صورة مغايرة جداً لذلك ونرى يعق وب يتذلل ويهين نفسه، ويسجد لأخيه عيسو سبع مرات هو وأسرته وأولاده وعبيده . ثم لا يكتفي بذلك بل يصرّ على أن يأخذ منه هذه الهدايا الكثيرة من المال المسروق ويقول له : «خذ هذه الهدايا من عبدك، لأجد نعمة في عيني سيدي . إن وجدت نعمة في عينيك تأخذ هديتي من يدي. لأني رأيت وجهك كما يُرى وجه الله فرضيت علي (يا للنفاق)!! خذ بركتي التي آتي بها إليك ». وألحّ على عيسو حتى أخذ الهدايا . وهكذا يصفون يعقوب بالكذب والخداع والسرقة، والعيش مع ليّا بدون عقد زواج، وأن يكون مخادعاً وذليلاً ومهاناً أمام أخيه النبيل عيسو.. وأن يكون منافقاً حتى يجعل وجه أخيه كأنما هو وجه الله !! ويحلف بالأوثان والآلهة

الكثيرة لينفي عن نفسه تهمة سرقة إله خاله لابان المصنوع من الذهب والذي سرقته راحيل زوجته من أبيها!!.

سكن يعقوب في أرض شكيم (نابلس) واقترافه مع بنيه جريمة قتل بشعة:

سكن يعقوب في أرض شكيم وخرجت دينه ابنة يعقوب وليته لتنظران بنات الأرض فرآها شكيم بن حمور الحوي رئيس الأرض . وأخذها واضطجع معها وتعلقت نفسه بدينه وأحب الفتاة ولاطفها وقال لأبيه: «خذ لي هذه الصبية زوجة» فذهب حمور إلى يعقوب وخطب دينه لابنه شكيم وقال : «تسكنون معنا ونصاهركم وتصاهرونا » فقالوا لحمور: «لا نستطيع أن نزوجك دينه حتى تختتنوا لأنه محرّم علينا أن نقبل غير المختونين » فوافق حمور رئيس الأرض وأمر جميع الرجال بأن يختتنوا حسب الاتفاق مع يعقوب وبنيه . فلما اختتنوا وكانوا متوجعين جداً هجم عليهم أبناء يعقوب وعبيدهم وقتلوهم جيمعاً !! ونهبوا المدينة وأخذوا غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما في الحقل أخذوه ونهبوا كل ثروتهم، وكل أطفالهم ونساءهم أخذوهم عبيداً لهم (سفر التكوين 34).

فأي جريمة أحقر وأشد من هذه الجريمة.. وهي جريمة لا تليق إلا بيهود عليهم لعائن الله، ويعقوب وبنوه منها براء.

وهكذا تزعم التوراة أن دينه زنت مع شكيم بن حمور برضاها فلما أرادها زوجة احتالوا على شكيم وحمور وجميع أهل الأرض ووافقوهم على الزواج بشرط أن يختتن جميع الذكور فاختتنوا. فلما كانوا متوجعين هجموا عليهم وقتلوهم شرَّ قتله وأخذوا نساءهم وأطفالهم عبيداً وإماء كما أخذوا جميع مالهم وأغنامه م وأبقارهم.. وهي صورة لا تليق إلا بهؤلاء اليهود الفجرة القتلة الجبناء، ثم قام يعقوب بعد هذه الجريمة النكراء، حسب زعمهم، باسترضاء الرب بمحرقة من الأغنام والأبقار التي نهبها فشم الرب رائحة الشواء، ورضي عن يعقوب وأدخل رعبه في جميع تلك الأرض بحيث لا ينتقم منه أحد !! ووضع يعقوب نُصباً في ذلك المكان وصبَّ عليه الزيت، وقام حسب زعمهم بعبادته هو وأولاده!!

مصائب أبناء يعقوب حسب كلام التوراة المحرفة:

راؤبين ابن يعقوب الأكبر يزني ببلهة سرية أبيه (سفر التكوين 35 - 21 - 22) وقال له يعقوب: «أنت بكري وقوتي وأول قدرتي، فضل الرفعة وفضل العزّ، فائرا كالماء. لا تتفضّل لأنك صعدت على مضجع أبيك. حينئذ دنّسته، على فراشي صعد».

يهوذا أفضل أبناء يعقوب والمسمى أسد يهوذا يزني بكنته ثامار:

قام يهوذا بالدخول على ابنة رجل كنعاني اسمه شوع فحبلت وولدت ولداً اسمه عير (بدون زواج)، ثم حبلت وولدت ابنا اسمه أونان ثم ولدت ثالثاً اسمه شيله.

وأخذ يهوذا زوجة لعير اسمها ثامار . وكان عير شريراً فأماته الربّ . فقال يهوذا ليونان ادخل على امرأة أخيك وتزوج بها وأقم نسلاً لأخيك (النسل عندهم للميت إذا لم يكن له أولاد)، فغضب لذلك يونان وعزل ماءه حتى لا ينجب طفلاً لأخيه فغضب الربُّ وأماته أيضاً. وانتظرت ثامار أن يعطيها شيله زوجاً ولكن يهوذا لم يفعل . فلما رأت إصراره على

ذلك تغطّت ببرقع ووقفت في طريق حمّوها يهوذا وهو ذاهب ليجزّ غنمه، فنظرها يهوذا وحسبها زانية وقال لها: هاتي أدخل عليك فقالت ماذا تعطيني لكي تدخل عليَّ ؟ وطلبت منه رهناً خاتمه وعصابته وعصاه فدخل عليها فحملت منه . فأخبروه أن ثامار حامل فقال أخرجوها لتحرق. فقالت لهم انظروا هذه العصابة والخاتم والعصى لمن هي؟ فعرف أنها له فقال: هي أبرٌ مني!!. (التكوين الإصحاح 38).

وولدت توأم فارص وزارح ومنهما خرج الأنبياء ومنهم داود!! يا للهول كلهم أولاد زنى وسفاح.

رأي يعقوب في أبنائه:

ولنستمع لبعض ما قاله يعقوب عند موته عن بنيه : راؤبين أنت بكرى وأول قدرتي .. لا تتفضل لأنك صعدت على مضجع أبيك حينئذ دنّسته، على فراشي صعد.

شمعون ولاوي أخوان، الآت ظلم سيوفهما.. لأنهما في غضبهما قتلا إنساناً وفي رضاهما عقرباً ثوراً، ملعون غضبهما فإنه شديد وسخطهما فإنه قاس، يهوذا إياك يحمد أخوتك . يدك على قفا أعدائك. يسجد لك بنو أبيك .. ويهوذاجرو أسد . لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون (المسيح المنتظر) (ويهوذا هو الذي زنى بكنته ثامار).

زبولون عند ساحل البحر يسكن.. يساكر حمار جسيم رابض بين الحظائر .. صار للجزية عبداً.. دان يدين شعبه كأحد أسباط إسرائيل. دان حيّة على الطريق، افعوانا على السبيل.. جاد يزحمه جيش ولكنه يزحم مؤخره. أشير خبزه سمين.. نفتالي أيله مسيّبه يعطى أقوالاً حسنة . يوسف غصن شجرة مثمرة.. ودعا له بالبركة. بنيامين ذئب يفترس، في الصباح يأكل غنيمه وفي المساء يقسم نهباً. (التكوين الإصحاح 49).

موسى وهارون : (القرن الرابع عشر قبل الميلاد)

يعتبر موسى أعظم أنبياء بني إسرائيل وأكثرهم تأثيراً في تاريخهم وحياتهم، وهو الذي أنزل الله عليه التوراة، وكلّمه تكليماً، فصلوات ربي عليه وعلى أخيه هارون وعلى جميع الأنبياء والمرسلين الذين اصطفاهم الله لرسالته ولكلامه.

ولكن التوراة المحرّفة للأسف تعرض صورة غريبة، بل وقميئة لموسى وهارون وتتهمهما ظلماً وعدواناً بكثير من الموبقات.

تزعم التوراة أن عمرام (أي عمران) تزوج عمّته يوكابيد فولدت هارون أولاً . وفي تلك السنة لم يكن فرعون يأمر بقتل الأطفال من بني إسرائيل. وبعد ثلاث سنوات ولد موسى في وقت عصيب حيث أمر فرعون بقتل كل ذكر من بني إسرائيل.

وينتسب عمران وزوجته إلى بيت لاوي بن يعقوب (Levi) . وتتشابه قصة المولد وما بعدها في القرآن الكريم والتوراة إلى حد كبير. وترجح دائرة المعارف البريطانية أن موسى ولد في أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد وعاش في القرن الثالث عشر . وتذكر أن كثيراً من الباحثين المشهورين ومنهم مارتن نورث يزعمون أن شخصية موسى المذكورة في

التوراة هي من صنع مؤلفي التوراة الذين كتبوها بعد مئات السنين من وفاة موسى المزعوم[1] . وأما فرويد العالم النفسي اليهودي المشهور فيزعم أن موسى رجل مصري وليس من بني إسرائيل، وكان يتبع عقيدة أخناتون الموحد (فرعون مصري عبد الشمس ونفى الآلهة الأخرى، وكان قبل زمن موسى مباشرة) وتبعه بعد ذلك بقايا المؤمنين بعقيدة أخناتون من المصريين والعابيرو، وهم من الأمم الذين استعبدهم المصريون وجلبوهم إلى مصر كأسرى حرب، وأصبحوا عبيداً لهم يعملون في أعمال السخرة. فثار هؤلاء كلهم وخرجوا من مصر فراراً من ظلم فرعون. ولكن لا علاقة لهم ببني إسرائيل ـ وفي مراحل التيه والخروج تكونت من هذه العشائر أمة جديدة، بفضل تنظيم موسى !! وهذا كله باطل . فموسى هو من بني إسرائيل من بيت لاوي، وقد عاش في زمن فرعون الطاغية (رمسيس الثاني وخليفته منبتاح) ولا يذكر القرآن الكريم ولا التوراة اسمه، وهو أمر غير مهم فصفلته وأعماله تكفي.

وقد يرجع السبب إلى نكران كثير من الباحثين لشخصيات التوراة بسبب ما ورد فيها من خرافات وأكاذيب . كما أن معظم الباحثين بما في ذلك مجمع الكنائس العالمي والفاتيكان ومعظم الباحثين من اليهود يقرّون أن التوراة لم يكتبها موسى، ولم تنزل من السماء، بل كتبها مئات بل آلاف الكتاب على مدى ألف عام أو تزيد [2] ولن نتعرّض ها هنا لقصة موسى وهارون في القرآن الكريم فقد تعرضت لها وقارنتها بما ورد في التوراة في كتابي «الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم»[3] .

قصة موسى في التوراة:

ترد قصة موسى في التوراة في سفر الخروج منذ ولادته (الإصحاح الثاني) إلى قتله المصري وهربه من مصر إلى مدين، وزواجه من صفورة ابنة يثرون كاهن مديان، ثم ظهر الربُّ بلهيب من نار وسط شجرة العليق ونادى موسى وأمره أن يذهب إلى فرعون لينقذ بني إسرائيل ويطلقهم ليخرجوا من مصر إلى الأرض التي وعدهم الله إياها، فرفض موسى حسب زعمهم، وقال: للربّ: استمع أيها السيد . أرسل بيد من ترسل . «فحمي غضب الرب على موسى» سفر الخروج (الإصحاح الثالث ـ 10 ـ 17) . وزعموا كذباً أن الرب غضب على موسى لأنه رفض أن يذهب إلى فرعون بسبب جبنه ورعبه من فرعون، وأن الربَّ قرَّر أن يقتل ابن موسى البكر لأن موسى رفض أن ينقذ ابن الله البكر !! (سفر الخروج الإصحاح 4 ـ 22 ـ 23) .

فنزل الرب من عليائه ليقتل ابن موسى البكر وأمسك بالطفل ولكن صفّورة، امرأة موسى وأم الطفل خطفت الطفل من بين يدي الرب، وأخذت سكيناً وختنت الغلام وأزالت الغرلة ومسحت ساق الرب بدم الغلام وقالت للرب : إنك عريس دم لي، فانفك الربُّ عنه أي عن الغلام فقالت: عريس دم من أجل الختان» (سفر الخروج الإصحاح 4 ـ 24 ـ 26) .

---

(1)الميكروبيديا: ج 45/2، والماكروبيديا ج487/12، الطبعة 15 لعام 1982.

(2)انظر تفاصيل ذلك في كتابي : المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، إصدار دار القلم دمشق، الدار الشامية بيروت 1990.

(3)الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم، دار القلم دمشق والدار الشامية بيروت 1990، ص 190 ـ 273.

وقد سبق الإشارة إلى هذه القصة البشعة والحقيرة عندما تحدثنا عن صفات الله في هذه التوراة القذرة المحرّفة التي كتبها أحبا ر يهود بعد أن أضاعوا التوراة الحقيقية في أثناء رداتهم المتكررة والطويلة، وأثناء الحروب والسبي التي مرُّوا بها.

موسى يعاتب الربّ حسب زعمهم ويقرّعه : جاء في سفر الخروج (الإصحاح 5 - 22 - 23) : «يا سيد لماذا أسأت إلى هذا الشعب؟ لماذا أرسلتني؟ فإنه منذ دخلت إلى فرعون لأتكلم باسمك أساء إلى هذا الشعب وأنت لم تخلّص شعبك ». فيرد الربّ أنه قد سمع أنين بني إسرائيل وتذكر عهده الذي قطعه لإبراهيم وإسحاق ويعقوب.. العهد الذي نسيه (حاشا لله وما كان ربك نسيا). لذلك سيقوم بإنقاذهم من يد فرعون الطاغية (سفر الخروج الإصحاح 6 - 3 - 8) .

موسى إله هارون وهارون فم لموسى:

جاء في سفر الخروج، (الإصحاح 4 - 16 - 17) : «وهو (أي هارون) يكون لك فماً وأنت تكون له إلهاً وتأخذ العصا التي تصنع بها الآيات».

موسى إله فرعون وهارون نبي لموسى:

سفر الخروج (7 - 1 - 2) : فقال الربَّ لموسى: انظر. أنا جعلتك إلهاً لفرعون . وهارون أخوك يكون نبيك. أنت تتكلم بكل ما آمرك. وهارون أخوك يكلم فرعون ليطلق بني إسرائيل.

العصا لهارون وليست لموسى:

جاء في سفر الخروج (الإصحاح 7 - 9 - 10) : وكلّم الرب موسى وهارون قائلاً : إذا كلمكما فرعون قائلاً: هاتيا عجيبة. تقول لهارون: خذ عصاك واطرحها أمام فرعون فتصير ثعباناً.

فرعون يقول لموسى وهارون صليا من أجلي:

بعد ظهور الآيات تباعاً، العصا، الدم، الضفادع، البعوض «فقال فرعون : «أنا أطلقكم لتذبحوا للربِّ إلهاكم في البريّة، ولكن لا تذهبوا بعيداً. صلّياً لأجلي. فقال موسى: ها أنا أخرج من لدنك وأصلّي للربّ». (الخروج 8 - 25 - 30).

الربّ يأمر بني إسرائيل أن يحتالوا على المصريين ويسرقوا حُليّهم:

جاء في سفر الخروج (الإصحاح 11 - 1 - 3) أن الربَّ أمر موسى أن يكلم بني إسرائيل بأن يحتالوا ويسرقوا حليّ المصريين وآنيتهم بزعم أنهم ذاهبون في البرية ليحتفلوا بعيد الرب وسيرجعونها لهم «وأعطى الربُّ نعمة للشعب في عيون المصريين » فأعطوهم الذهب والأواني الفاخرة عارية، فسرقوها وهربوا من مصر.

وقد أخبر الرب موسى أنه سينزل بالليل إلى أرض مصر ويميت كل بكر ذكر في أرض مصر من فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التي خلف الرحى، وكل بكر بهيمة ويكون صراخ عظيم في مصر، وحتى لا يهلك الرب أيضاً أبناء شعبه فعليهم أن يجعلوا على

أبواب بيوتهم علامة الدم حتى يميّزها ولا يهلكها كما يفعل مع المصريين لأنه لا يستطيع معرفة البيوت!!. (سفر الخروج 11 - 4 - 8).

وزعموا أن عدد الرجال القادرين على حمل السلاح الذين خرجوا مع موسى كانوا ستمائة ألف. هذا غير النساء والأطفال. وهو عدد خرافي. وقد ورد الإحصاء في سفر العدد (1 - 1 - 4) بأن الرجال الذين هم فوق العشرين (ولم يعدّوا معهم بيت لاوي لأنهم معدّون للكهانة) فكانوا 603.550 من الرجال. ومعنى ذلك أن العدد الإجمالي لا يقل عن ثلاثة ملايين . وقد سخر من ذلك العدد الخرافي جميع الباحثين من اليهود والنصارى[1] .

هارون يصنع العجل حسب زعمهم ويأمرهم بعبادته:

جاء في سفر الخروج (الإصحاح 1 - 30) أن الشعب عندما رأى موسى قد أبطأ في العودة من الجبل كلموا هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهه تسير أمامنا لأن هذا موسى، الرجل الذي أخرجنا من أرض مصر، لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم : انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم (والتي سرقوها من المصريين) فأخذها منهم، وصنع من ذلك الذهب عجلاً مسبوكاً، فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر . فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمام العجل ونادى هارون: غداً عيد الربّ. فبكروا في الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح للعجل. وجلس الشعب للأكل والشرب. ثم قاموا للّعب والرقص عرايا أمام الربّ العجل!!

فأخبر الرب موسى بما فعل الشعب وقال له: «فالآن اتركني ليحمي غضبي عليهم وأفنيهم وأصيّرك شعباً عظيماً. فتضرّع موسى أمام الرب إلهه وقال: لماذا يا ربّ يحمي غضبك على شعبك الذي أخرجته من مصر بقوة عظيمة ويد شديدة .. ارجع عن حمو غضبك واندمْ على الشر بشعبك. اذكر إبراهيم وإسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك وقلت لهم : أكثّر نسلكم كنجوم السماء، فندم الرب على الشرّ الذي قال أنه يفعله بشعبه . فانصرف موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده » وطرح اللوحين وكسرهما من غضبه عندما أبصر الشعب يرقص حول العجل ويقدم له القرابين فأخذ العجل وأحرقه. (سفر الخروج 32 - 15 - 20) .

وقرَّع موسى هارون على فعلته الشنعاء حسب زعمهم (سفر الخروج 32 - 21 - 26) فقام هارون وعرّى موسى من ملابسه حتى يهزأ الشعب بموسى ويضحك عليه ويسخر منه .

واختار موسى بعد ذلك سبعين من شيوخ إسرائيل وذهب بهم إلى الرب . جاء في سفر الخروج، (الإصحاح 24 - 9 - 11) «ثم صعد موسى وهارون وناداب وابيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل . ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف، وكذات السماء في النقاوة، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا» ألا لعنة الله على أحبار يهود الذين كتبوا هذا الهراء والزيف والكفر والبهتان.

قتال عماليق في التوراة والأمر بدخول الأرض المقدسة:

(1)انظر دائرة المعارف البريطانية : ج 879/2 - 901 الطبعة الخامسة عشرة لعام 1982، والدكتور موريس بوكاي في كتابه «القرآن والتوراة والإنجيل والعلم. ورحمة الله العثماني الكيرانوي في كتابه إظهار الحق ج 112/1 - 114 ونقل أقوال كثير من الباحثين الغربيين أنفسهم في إنكار ذلك. وللأسف فإن هناك من المسلمين من يصدّق هذه الأكاذيب.

جاء في سفر العدد الإصحاح 12 : أن موسى بعث جواسيس لأرض العماليق ليعرفوا قوتهم فخاف الجواسيس عندما رأوا العماليق طوال الأجسام أقوياء أشدّاء . ورفض بنو إسرائيل قتال عماليق . جاء في سفر العدد (14 - 1 - 14) ما يلي : «فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت وبكى الشعب تلك الليلة. وتذمَّرَ على موسى وهارون جميع بني إسرائيل . وقال لهما كل الجماعة: ليتنا متنا في أرض مصر أو ليتنا متنا في هذا القفر . ولماذا أتى بنا الربُّ إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف وتصير نساؤنا وأطفالنا غني مة. أليس خيراً أن نرجع إلى مصر؟ فقال بعضهم لبعض: نقيم رئيساً ونرجع إلى مصر» .

وتكلَّم يشوع بن نون (تلميذ موسى) وكالب بن يفنّه وقالا لقومهما: «لا تتمردوا على الربّ ولا تخافوا ... والربُّ معنا ولا تخافوهم » فحصبوهم بالحجارة .. وغضب الربُّ وأراد أن يبيدهم فقام موسى وبكى ورجاه أن يرجع عن حموّ غضبه وأن يندم على الشرّ الذي يريد أن يوقعه بشعبه فندم الرب حسب زعمهم الحقير والكاذب على ذلك .

الربّ يغضب على هارون وموسى حسب زعمهم:

وزعموا أن الرب قد غضب على هارون فأماته في الجبل ولم يعرف أحد قبره . ثم غضب بعد ذلك على موسى و أماته في الجبل (جبل نبّو في الأردن المطل على سهل أريحا) ولم يعرف أحد قبره .

وقال موسى لبني إسرائيل: «وغضب الرب عليّ بسببكم وأقسم أني لا أعبر الأردن . ولا أدخل الأرض الجيّدة التي الرب إلهك يعطيك نصيباً فأموت أنا في هذه الأرض . لا أعبر الأردن. أما أنتم فتعبرون وتمتلكون تلك الأرض الجيدة» (سفر التثنية 4 - 30 - 33) .

وقد أوضحت التوراة المعاناة الشديدة التي قاساها موسى منهم قبل الخروج من مصر وبعد الخروج من مصر. وتمرّدهم عليه وعلى الربّ وعبادتهم للعجل، وصراخهم وبكاءهم عندما لم يجدوا الماء في الصحراء فأمره الله أن يض رب الصخرة فنبع منها الماء في اثني عشر موضعاً حتى يشرب كل سبط من أسباط بني إسرائيل، ويعلمون موضعهم .. ثم طالبوه بالثوم والبصل والكرات لأنهم ملّوا من المنّ (وهو إفراز شجرة مثل العسل) والسلوى (وهو طائر السماني يأتيهم بأعداد غفيرة فيأخذونه . وقد أمرهم أن لا يدّخ روا فأخذوا وادّخروا وأنتن اللحم). والخلاصة أنهم آذوا موسى وحاولوا أن يعرّوه . وزعموا أن هارون فعل ذلك بأخيه موسى وكذبوا على موسى وهارون. وأدخلوا في القصة حكاية مريم التي زعموا أنها أخت موسى وأنها نبيّة، وأنها أيضاً آذت موسى.

وزعموا أن الربّ أحرق ابني هارون لأنهما قدّما ناراً غريبة على المذبح (سفر اللاويين الإصحاح العاشر) . ثم زعموا أن الرب عزل هارون من الكهانة وجعل حفيده فنحاص بدلاً منه لأن هارون عبد العجل وصنعه لهم!! .

والخلاصة أن هذه التوراة التي كتبها الأحبار مليئة بالأكاذيب والافتراءات على الله وعلى رسله وأنبيائه وخيرته من خلقه، حتى يتسنّى لهم فعل جميع الموبقات والجرائم . فعبادة الأوثان قد فعلها الأنبياء مثل هارون، وسرقة أموال الآخرين فعلها الأنبياء وبالذات يعقوب حسب زعمهم . ثم أمرهم الرب حسب زعمهم بسرقة أموال المصريين . والذلُّ والحقارة

والخداع فعلها الأنبياء كما تقدم حسب زعمهم بل عرضوا زوجاتهم للملوك حتى يكسبوا المال ويأمنوا على أنفسهم.. كما اتهموا لوط بالزنا بابنتيه وأبناء يعقوب وبناته زناة مجرمون سفلة أوغاد حقراء!!.

عهد القضاة: (القرن الثالث عشر إلى الحادي عشر قبل الميلاد) وردتهم عن عبادة الله تعالى:

في عهد يوشع: (يوشع بن نون Joshua) تمّت الفتوحات، ولكنهم زعموا أن يوشع قام بالمذابح المريعة وقتل النساء والأطفال . وقام بالزواج من راحاب الزانية لأنها خبأت الجاسوسين اللذين أرسلهما يشوع. وهم يفترون على رسل الله بأنهم قتلة سفاكون مجرمون، وفي أحيان كثيرة يتهمونهم بالحقارة والنذالة والدياثة (عرض زوجاتهم للملوك خوفاً منهم ورغبة في كسب المال)، كما يتهمونهم بالغش والخداع والسرقة والزنا والتزوج من العاهرات وشرب الخمور.

وبعد وفاة يوشع حكم لبني إسرائيل مجموعة من القضاة، ولكن بني إسرائيل ارتدّوا وعبدوا الأوثان. «وفعل بنو إسرائيل الشرّ في عينيّ الرب وعبدوا البعليم (البعل) وتركوا الربّ إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر. وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها وأغاظوا الربّ . وعبدوا البعل وعشتروت، فحمي غضب الرب على إسرائيل فدفعهم بأيدي ناهبين نهبوهم، وباعهم بيد أعدائهم، ولم يقدروا بعد على الوقوف أمام أعدائهم. حيثما خرجوا كانت يدُ الربُّ عليهم للشرّ». (سفر القضاة 2 - 11 - 15).

«وأقام الربُّ قضاة فخلّصوهم من يد ناهبيهم. ولقضاتهم أيضاً لم يسمعوا، بل زنوا وراء آلهة أخرى وسجدوا لها» (سفر القضاة 2 - 16).

وتكررت عبادة بني إسرائيل للأوثان وردّتهم سبع مرات .. ويعودون بعد أن يظهر فوقهم من يسومهم سوء العذاب. وفي كل مرّة يختار لهم الربُّ قاضياً وقائداً . والغريب أن الربّ اختار يفتاح ابن الزانية لينقذ بني إسرائيل. وقد قام هذا بحرق ابنته تقرّباً للرب حسب زعمه!! ثم جاء شمسون وكان زانياً وقضى لبني إسرائيل وحقّق لهم انتصارات ثم استطاعت دليلة التي زنى بها، وعرفت سرَّ قوتّه، فحلقت شعر رأسه، فأخذوه أسيراً.. إلى آخر تلك الخرافات التي جعلوها أفلاماً عالمية!!.

وتجعل هذه الأسفار زمن القضاة 348 سنة بينما تذكر المصادر التاريخية أن فترة حكم القضاة بعد يوشع بن نون كانت 140 سنة فقط.

ثم قامت الحرب المدمّرة بين بيت بنيامين وبقية الأسباط، حيث اقترف بنيامين الجرائم والزنا واللواط وعبادة الأوثان أكثر من غيرهم فانهزموا.

ثم ظهر النبي صموئيل بعد أن قتل الربُّ أبناء عالي الكاهن الذين تولّوا بعد أبيه م الكهانة، وكانوا يزنون داخل خيمة الرب واستهانوا بتقدمة الذبائح والمحارق للرب، وسرقوا الأموال . فغضب عليهم الرب وأماتهم . ثم ظهر صموئيل وقادهم صموئيل ومعهم تابوت الربّ،

الجالس على الكروبيم، فضربهم الفلسطينيون وهزموهم، وأخذوا معهم الربّ الجالس على الكروبيم أسيراً، كما أسلفنا .

ولما شاخ صموئيل تولى أبناؤه الكهانة ففسدوا مثلما فسد أولاد الكاهن عالي ، فطلب منه الشعب أن يولي عليهم ملكاً، فناح صموئيل كالنساء . وقام صموئيل بتنصيب شاول (طالوت عند المسلمين) ملكاً على إسرائيل ومسحه بالزيت . وخرج للحرب فحقّق بعض الانتصارات وقال له الرب : «الآن اذهب واضرب عماليق، وحرّموا كل ماله ولا تعفُ عنهم، بل اقتلْ رجلاً وامرأة طفلاً ورضيعاً. بقراً وغنماً، حملاً وحماراً» (سفر صموئيل الأول 15 - 1 - 4) ولكن الربُّ غضب من شاول لأنه لم يقم بالمحارق والمجازر كما يجب، فقال الربُّ لصموئيل «ندمتُ على أني قد جعلت شاول ملكاً لأنه رجع من ورائي، ولم يقم كلامي » (صموئيل الأول: (الإصحاح 15 - 10) .

خوف اليهود من جليات ورعبهم:

وجمع الفلسطينيون جيوشهم لمحاربة بني إسرائيل. وخرج جليات (جالوت) طالباً المبارزة فارتعب شاول وجميع بني إسرائيل . «وكان الفلسطيني يتقدّم ويقف صباحاً ومساءً أربعين يوماً متحدّياً طالباً المبارزة... وجميع رجال إسرائيل لما رأوا الرجل هربوا منه وخافوا جداً » (صموئيل الأول 17 - 16 - 24) .

داود يقتل جالوت وحكم داود 1010 - 961 قبل الميلاد

ثم تقدم شاب صغير راعي غنم بمقلاعه، وضرب جالوت بالحجر بمقلاعه، فخرّ جالوت (جليات) صريعاً، وتقدم داود وأخذ سيف جالوت وحزّ رأسه.. وارتعب الفلسطينيون فهزمهم بنو إسرائيل (هذا ملخص القصة المليئة أيضاً بالتناقضات الكثيرة).

ورغم ذلك فقد حقد الملك شاول على داود لأن الشعب أحبّ داود وقام بمؤامرات لقتله . ورغم ذلك زوَّجه ابنته ميكال التي كان قد عقد بها لشخص آخر . وكان مهر ميكال أغرب مهر عرفه التاريخ: مائة غلفة ذكر من الفلسطينيين !! (أي على داود أن يقتل مائة شخص من الفلسطينيين غير المختونين، ويجبُّ مذاكيرهم، ويعطيها لميكال مهراً لزواجها !!!). وتستمر المؤامرات القذرة بين شاول وداود.. ويضطر داود حسب زعمهم أن يذهب لملك الفلسطينيين أخيش بن معوك ملك جت فأكرمه هذا الملك وجعله أحد قواده . ولكن داود كان يذهب سراً بالليل ليغتال الفلسطينيين سواء كانوا نساءاً أو رجالاً، أطفالاً أم شيوخاً .. ولم يستطع أحد أن يعرف ما يفعله داود ومجموعته من بني إسرائيل . (سفر صموئيل الأول الإصحاح 27).

ويقول النص: «وضرب داود الأرض ولم يُبقِ رجلاً ولا امرأة، وأخذ غنماً وبقراً وحميراً وجمالاً وثياباً» . ومع هذا فإن داود استطاع أن يقنع الملك أخيش، أنه يقوم بهذه العلميات ضد بني إسرائيل وأنه غزا أراضي شاول عدوه وجاء بهذه الغنائم للملك والملك يصدّقه . «وهكذا عادته كل أيام إقامته في فلسطين . فصدَّق أخيش داود قائلاً : قد صار مكروهاً لدى شعبه إسرائيل فيكون لي عبداً إلى الأبد» (سفر صموئيل الأول، الإصحاح 27) .

خداع داود للملك الفلسطيني وسجوده له:

ويقوم داود حسب زعمهم بتملّق ا لملك وخداعه والسجود له، والتظاهر بمحبّته ومودته ومودّة الفلسطينيين، بينما يقوم هو بالليل بتلك الغارات ضد الفلسطينيين، وهو موقف حقير من مؤلف هذه الأسفار . واتهام لداود بما هو منه براء . ولكنه الحرص على اثبات الخداع والكذب والذلة والحقارة، وقتل الأبرياء . وأن ه ذه الصفات هي صفات الأبطال من بني إسرائيل، وصفات أنبيائهم، فعليهم أن يقتدوا بهم، وهم بالفعل كذلك، ولكنهم أسقطوا هذه الصفات الحقيرة على أنبيائهم.

ثم أن داود رجع إلى شاول وسجد له وخدعه وكذب عليه. وانتهت حياة شاول بالانتحار أو بمؤامرة دبّرها داود حسب زعمهم . ولكن داود أظهر براءته، وناح على شاول ملك إسرائيل، وحثا على رأسه التراب حُزناً.. وذلك كله ليخدع شعب إسرائيل ويستغلّ عواطفهم . وهكذا تظهر هذه الأسفار الحقيرة شاول (طالوت) وداود في أبشع الصور وأحقرها .. فهما كاذبان حقيران، يدبّران المكايد لبعضهما البعض.. وداود في ذلك أشدُّ مكراً وخداعاً وحقارة حسب زعمهم الكاذب . ثم يتولى داود الحكم بعد وفاة شاول، وبعد معارك دامية ومؤامرات بينه وبين أبناء شاول، وخاصة أيشبوشت بن شاول الذي عينوه ملكاً . ولكن داود استطاع أن يُغري قائد الجيش أبنير لينضم إليه، وبالتالي استطاع أن يقضي ع لى الملك ايشبوشت بن شاول بعد معارك طاحنة ومؤامرات قذرة لا يصنعها إلا اليهود وداود منها براء.

وأخذ أشبوشت بعد أن انهزم أخته ميكال وأعادها إلى داود بعد أن زوجها فلطيل بن لايش.

وبعد مؤامرات قذرة تخلص داود من اشبوشت، ومع ذلك ناح عليه ووضع التراب على رأسه حزناً على موته، وذلك لاستدرار عواطف الشعب، كما تخلّص أيضاً من قائد الجيش أبنير. وهكذا خلت الساحة لداود فاختاره الشعب ملكاً .

وسأل داود الربُّ أأصعد إلى الفلسطينيين؟ أتدفعهم ليدي؟ فقال الرب لداود : اصعد فصعد ففعل بهم الأفاعيل ولم يترك نسمة (سفر صموئيل الثاني الإص حاح 5) قتل الكل : النساء والأطفال والشيوخ والرجال والبقر والغنم والإبل والأتن والحمير ... الخ.

وعندما أعاد الفلسطينيون الربّ الجالس على الكروبيم لأنه ضربهم بالبواسير والفئران، جمع داود الشعب (ثلاثين ألفاً) ليقابلوا الربّ الجالس على الكروبيم داخل التابوت فغنّ وا ورقصوا أمام الرب. (سفر صموئيل الثاني الإصحاح 6).

وقد أشرنا إلى الجرائم التي زعموا أن داود فعلها في عمّون (عمان) وكيف قتل النساء والأطفال، ثم أخذ من بقي وفرمهم في نوارج من حديد، وأحرق الباقين.

الفرية الكبرى زنا داود بحليلة جاره وتدبيره مؤامرة لقتله:

وجاؤوا بفرية كبرى وزعموا أن داود زنى بحليلة جاره وقائد جيشه أوريا الحثي ثم دبر مؤامرة لقتل أوريا، وذلك كله كذب وبهتان .

جاء في سفر صموئيل الثاني (الإصحاح 11) : «وكان في وقت المساء أن داود قام يتمشى على سطح بيته فرأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة جداً، فأرسل

داود وسأل عن المرأة فقال واحد: أليست هذه بتشبع امرأة أوريا الحثي.. فأرسل داود وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها . ثم رجعت إلى بيتها وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت دواد وقالت أني حبلى » فأرسل داود إلى القائد الأعلى للجيش أن يرسل أوريا الحثي زوج بتشبع إلى داود. فجاء أوريا وكان داود يسأله عن الحرب . وطلب منه أن يذهب إلى بيته فرفض أوريا لأن جنده في العراء يبيتون ويقاتلون الأعداء فكيف يذهب إلى منزله؟ ولما أصرّ على ذلك بعثه داود ومعه رسالة إلى القائد العام أن تقوم مفرزة من الجند وفيها أوريا الحثي الشجاع فإذا التحموا بالعدو تنسحب المفرزة ليقتلوا أوريا . وتمت المؤامرة القذرة. وقتل أوريا. وأخذ داود بتشبع بعد المناحة وضمها إلى بيته وولدت له ابناً (صموئيل الثاني: 11 - 26) .

وقال بعضهم أنها أسقطت هذا الحمل ثم حملت بسليمان بعد ذلك، والصورة فظيعة فظيعة في جميع الأحوال. قال تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ *} [المائدة: 78] .

الرب ينتقم من داود:

وزعموا أن الربَّ غضب على داود لفعلته الشنعاء تلك.

جاء في سفر صموئيل الثاني (12 - 8 - 12) «هكذا قال الرب إله إسرائيل لداود . أنا مسحتك ملكاً على إسرائيل وأنقذتك من يد شاول، وأعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك في حضنك، وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا... لماذا احتقرت كلام الربّ لتعمل الشرّ في عينيه؟ قد قتلت أوريا الحثي بالسيف وأخذت امرأته لك امرأة، وإيّاه قتلت بسيف بني عمّون. والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد لأنك احتقرتني وأخذت امرأة أوريا الحثّي لتكون لك امرأة. هكذا قال الربُّ: هاأنذا أقيم الشرّ من بيتك وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك فيضطجع مع نسائك في عين هذه الشمس. لأنك فعلت بالسرِّ، وأنا أفعل هذا قدّام جميع إسرائيل وقدّام الشمس» .

وهكذا تزعم هذه الأسفار الحقيرة أن داود ارتكب هذه الجرائم الحقيرة وأن الربّ عاقبه بأن يزني أمنون بن داود البكر بأخته ثمار (حسب نصيحة حكيم بني إسرائيل) . وقالوا أن أمنون أحبَّ أخته البكر ثامار حتى مرض فطلب من أبيه أن تخدمه ثامار ففعلت، وطلب منها أن تنام معه في المخدع فقالت له : كلّم أباك فإنه لن يمنعني منك !! (يا للهول).. واضطجع أمنون معها ثم أبغضها أمنون بغضة شديدة فطردها فقالت له : لأي سبب تطردني؟ . وهذا الشرّ بطردك إيّاي هو أعظم من الآخر الذي عملته بي.. وغضبت ثامار وذهبت إلى شقيقها أبشالوم وأقامت عنده. وسمع داود بجميع هذا الأمر ولكنه لم يكلم أمنون بكلمة واحدة (انظر سفر صموئيل الثاني الإصحاح الثاني عشر) .

وقام أيشالوم بمؤامرة فقتل أخاه أمنون انتقاماً لما فعل بأخته ثامار . فغضب داود وهرب أبشالوم من وجه الملك داود لمدة سنتين. وفي تلك الفترة استطاع أبشالوم أن يستلب قلوب بني إسرائيل، كما فعل أبوه من قبل .

واستعمل داود الحيل والتجسس على ابنه أبشالوم. وقام أبشالوم بنصب خيمة على السطح ودخل أبشالوم نهاراً جهاراً على سراري أبيه وفعل بهن الفاحشة أ مام جميع بني إسرائيل (سفر صموئيل الثاني 16 - 20 - 23) .

وقامت الحرب بين أبشالوم وأبيه. وقُتل أبشالوم في المعركة وناح عليه داود قائلاً يا ليتني متُّ عوضاً عنك يا أبشالوم.. وكل ذلك خداعاً حسبما تقول هذه الأسفار حتى يكسب قلوب شعب إسرائيل وشيوخهم فرجعوا إليه و اعترفوا به ملكاً عليهم (صموئيل الثاني الإصحاح 19) . ولكن شبع بن بكري من بني بنيامين استطاع ان يُعْزي قومه، وأعلن نفسه ملكاً، فأرسل داود أحد أصدقائه الذين تظاهروا بنصرة شبع بن بكرى ثم قام باغتياله . كما قام داود بتسليم أبناء شاول الملك السابق إلى أعدائهم الجبعونيين ليقتلونهم، وانتهت حياة داود بسلسلة من المؤامرات القذرة حسب زعمهم الكاذب.

سليمان (961 - 922 قبل الميلاد) وافتراءآتهم عليه:

لقد تولى سليمان العرش بعد أبيه داود واستمر في الحكم لمدة أربعين سنة . ورغم أن حكم داود وسليمان هما أبهى فترة في تاريخ إسرائيل إ لا أننا نجد أن أسفار العهد القديم قد لوثت سيرتهما أيما تلويث.. وقد حكم داود ما يقرب من خمسين عاماً قضاها في مؤامرات حقيرة وجرائم قتل عديدة تتصاغر معها جرائم جنكيزخان وهولاكو وبيجن وشارون ونتنياهو وكل قادة إسرائيل المعاصرة . وهذا كله كذب وافتراء على داود . وجعلوا بيته وأولاده كلهم مجرمون يقتل بعضهم بعضاً ويزني كل واحد بأخته، كما يقوم أبشالوم بمحاربة أبيه والزنا بسراري أبيه علناً جهاراً نهاراً أمام بني إسرائيل..

واتهموا سليمان بأنه ابن الزانية بتشبع .. وأن أباه قد زنى بها وقتل زوجها أوريا الحثي بمؤامرة قذرة.

عندما شاخ داود قام ابنه أدونيا بتنصيب نفسه ملكاً ولكن انقلابه فشل وتولى سليمان الحكم ورغم أنه حلف أنه يعفو عن أدونيا إلا أنه لم يف بوعده وقتله . وقام سليمان حسب زعمهم بمجموعة من التصفيات البدنية دون مبرر.

وقام سليمان حسب زعمهم بالتزوج من الأجنبيات وتزوج سبعما ئة امرأة من كل جنس ولون ودين وتسرّى بثلاثمائة أخرى . «وأحبّ الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع ابنة فرعون، موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثّيات من الأمم الذين قال الرب عنهم لبني إسرائيل: لا تدخلون إليهم ولا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم . فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة، وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السراري وأمالت نساؤه قلبه» .

«وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى . ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داوود . فذهب سليمان وراء عشتروت آلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين. وعمل سليمان الشرَّ في عيني الربّ، ولم يتبع الربّ تماماً كداوود أبيه . حينئذ بنى سليمان مرتفعة (معبداً) لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولمولك رجس بني عمّون . وهكذا فعل لجيمع نسائه الغريبات اللواتي كُنَّ يوقدن ويذبحن

لآلهتهن. فغضب الربُّ على سليمان.. ولم يحفظ ما أوصى به الربُّ. وقال الربُّ لسليمان: من أجل أن ذلك عندي ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها فإني أمزّق المملكة عنك تمزيقاً وأعطيها لعبدك» (سفر الملوك الأول 11 - 1 - 12) .

وكثرت الثورات على سليمان بعد أن عبد الأ وثان حسب زعمهم الكاذب . وانتهت مملكة داود، حكم خمسين عاماً (ثلاثين عاماً منها لكل إسرائيل) ثم حكم سليمان ستين عاماً منها أربعين عاماً دانت له إسرائيل جميعها ثم بدأت الثورات والقلاقل. ولما مات سليمان تولى ابنه رحبعام الحكم لبضعة أيام ثم ثاروا عليه . وانتهت دولة الشمال (دولة إسرائيل) على يد الآشوريين سنة 720 ق.م ودولة الجنوب (أورشليم) على يد نبوخذ نصر البابلي سنة 586 قبل الميلاد ولم تقم لهم دولة منذ ذلك الحين إلى العصر الحديث عندما ظهرت دولة إسرائيل عام 1948.. وكما انتهت دولتهم السابقة ستنتهي بإذن الله تعالى دولتهم الحالية التي قامت مثل سالفتها على البغي والعدوان والشرّ، وقتل الأبرياء والخداع والكذب . وهو يوم آت لا شك فيه، عجّل الله بمقدمه وفرّج عن المؤمنين المجاهدين.

وجميع بني إسرائيل واليهود متفقون على أن داود وسليمان لم يكونا من الأنبياء قط، بل كانوا ملوكاً. والقرآن الكريم قد مدحهما وأشاد بهما وجعلهما من رسل الله الكرام . واتهموا سليمان بالإضافة إلى عبادة الأوثان بالسحر واتباع الشياطين . قال تعالى : {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَ فَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ } [البقرة: 102] .

الأسفار المنسوبة لسليمان:

يزعم اليهود أن سفر الأمثال منسوب لسليمان وفيه حق وباطل وغثاء كثير وأن لا حياة أخرى وعلى المرء أن يتمتع بحياته في الدنيا باعتدال ليدوم هناءه وسعادته وفيه هجوم شديد على المرأة: «خنزيرة هي المرأة الجميلة العديمة العقل».. «وامرأة فاضلة من يجدها».

«والصيت أفضل من الغنى ».. «لانقاذك من المرأة الأجنبية، من الغريبة المتملقة بكلامها.. كل من دخل إليها لا يؤوب ولا يبلغون سبل النجاة» (وهم يزعمون أن سليمان نفسه دخل إلى الأجنبيات وعبد معهن الأوثان وذهب إلى الهاوية). وتتحدث الأمثال عن المرأة الفاضلة أنها نادرة الوجود جداً جداً. ويقول لابنه «لحفظك من المرأة الشرّيرة، من ملق لسان الأجنبية، لا تشتهينّ جمالها بقلبك ولا تأخذك بهدبها. لأنه بسبب امرأة زانية يفتقر المرء إلى رغيف خبز، وامرأة رجل آخر تقتنص النفس الكريمة». ويحذّر من الزنا ومن المرأة الزانية.

خنزيرة هي المرأة الجميلة العديمة العقل.

المرأة الجاهلة صخابة حمقاء ولا تدري شيئاً.

المرأة الفاضلة تاج لبعلها. أما المخْزية فكنخر عظامه.

امرأة فاضلة من يجدها!!

أمرّ من الموت المرأة التي هي شباك وقلبها أشراك ويداها قيود.

رجلاً واحداً من ألف وجدت. أما امرأة فبين كل أولئك لم أجد.

(سفر الجامعة الإصحاح 7)

وسفر الجامعة المنسوب لسليمان مليء بالأمثال والحكم وفيه حق وباطل .. وليس فيه ذكر مطلقاً لليوم الآخر ويبتدىء السفر هكذا «باطل الأباطيل، الكل باطل . ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس . دور يمضي ودور يجيء والأرض قائمة إلى الأبد ... ... ليس ذكر للأولين، والآخرون أيضاً الذين سيكونون لا يكون لهم ذكر .... رأيت كل الأعمال التي عملت تحت الشمس فإذا الكل باطل وقبض الريح ».. ويتحدث عن نفسه وأنه امتلأ حكمة وعلماً وملكاً عظيماً ومع ذلك فهذا كله قبض الريح لأن في كثرة الحكمة كثرة الغم والذي يزيد علماً يزيد حزناً.. ومع ذلك حاول أن يفرح ويشرب الخمر ويلتذ بالنساء وكل ما أعطاه الله من النعم، فوجد أن ذلك كله باطل لأنه سيصير إلى الحفرة والموت ولا شيء بعد ذلك والكل باطل وقبض الريح.. الحكيم والجاهل والملك والصعلوك والخيّر والشرير كلهم ينتهون تحت التراب .. ونهايتهم واحدة ولا أحد يذكرهم .. ولا عقاب ولا ثواب ولا جنّة ولا نار.. وإنما هو الفناء فأي فائدة في هذه الحياة إذن ومتاعها قصير. وليس للإنسان عنده مزيّة عن البهيمة لأن كليهما باطل . «كلاهما من التراب وإلى التراب يعودون .. وكل الذي فوق التراب تراب . والموت متربص بالجميع.. بل إن الأشرار يكرّمون حتى عند موتهم ويذهبون بهم إلى الهيكل وقدس الأقداس بينما الأخيار يموتون شرّ ميتة، ولا أحد يذكرهم .. فأي كون هذا وأي عدالة في الكون هذه، إ لا أن الموت يشملهم جميعاً وبعد فترة كلاهما يُنسى، الذي فعل الشرّ والذي فعل الخير التراب مصيرهما . الإنسان يولد ويموت، في الباطل يجيء وفي الظلام يذهب.. كل تعب الإنسان لغمّه ومع ذلك فالنفس لا تمتلأ .. ماذا يبقى للحكيم أكثر من الجاهل؟ إذن الكل باطل وقبض الريح. ويوم الممات خير من يوم الولادة، والذهاب إلى بيت النوح خير من الذهاب إلى بيت الوليمة (وليمة الزواج).. لا تكن بارّاً كثيراً ولا تكن حكيماً بزيادة. لماذا تخرّب نفسك؟ لا تكن شريراً كثيراً ولا تكن جاهلاً؟ لماذا تموت في غير وقتك . وهذا من أعجب العجب لا تكن شريراً كثيراً، بل كن شريراً باعتدال !!.

سفر نشيد الإنشاد:

هذا هو السفر الثالث المنسوب لسليمان . وهو أشد وقاحة وكفراً من سابقيه ونشيد الإنشاد هو نشيد يتغنى به اليهود في أعيادهم وبيعهم وكنائسهم .. وهو شعر جنسي غليظ من نوع الأدب المكشوف الحقير .. والزنا منتشر في تا ريخ بني إسرائيل لدرجة أنهم اتهموا جميع الأنبياء وأبناءهم بالزنا والدياثة والحقارة، حتى يبرّروا لأنفسهم ما هم فيه من زنا ودياثة.

يبدأ السفر هكذا: «ليقبّلني بقبلات فمه لأن حبك أطيب من الخمر .. أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم، كخيام قيدار، كشقق سليمان .. بين ثديي يبيت .. طاقة فاغية حبيبي لي في كروم.. تحت ظله اشتهيت أن أجلس وثمرته حلوة لحلقي .. أدخلني إلى بيت الخمر، وعَلَمُهُ فوقي محبّة . اسندوني بأقراص الزبيب، انعشوني بالتفاح، فإني مريضة حُبّاً، شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني .

«في الليل على فراشي طلبت من تحبّه نفسي فما وجدته .. إني أقوم وأطوف في المدينة وفي الأسواق وفي الشوارع أطلب من تحبّه نفسي.. وجدت من تحبّه نفسي فأمسكته ولم أرخه حتى أدخلته بيت أمي وحجرة من حبلت بي .. (ونامت معه وقامت في الصباح وعشيقها لا يزال نائماً) أحلفكنّ يا بنات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقل الا تُيقظن ولا تُنبّهن الحبيب حتى يشاء ».

وينتقل الغزل من المرأة إلى الرجل فيقول : «ها أنت جميلة يا حبيبتي ها أنت جميلة .. شفتاك كسلسلة من القرمز وفمك حلو، خدك كفلقة رمانة تحت نقابك .. عنقك كبرج داود .. ثدياك كخشفتي ظبية، توأميين يرعيان بين السوسن... شفتاك يا عروس تقطران شهداً . تحت لسانك عسل ولبن . ورائحة ثيابك كرائحة لبنان ... دوائر فخذيك مثل الحلي صنعة يدي صنّاع.. سُرَّتُك كأس مدوّرة لا يعوزها شراب ممزوج. بطنك صُبرة حنطة مسيّجة بالسوسن (يصف شعر العانة) .

وينتهي السفر بالعشيقة وهي تدعو عشيقها ليدخل بيتها وتسقيه من الخمر السلاف وأن تنام معه الليل كله فإذا أصبح الصباح طلبت من بنات إسرائيل ألا يوقظن حبيبها وتتمدّح بثدييها ولكن المشكلة معها أن أختها الصغيرة تعاني من صغر الثديين فكيف تفعل لأختها حتى يأتيها العشاق!! هذه هي مشكلتها .

ومن الظريف أن نذكر أن الداعية أحمد ديدات عندما كان يعيش في جنوب أفريقيا تحت الحكم العنصري والمتعصب، قام بكتابه نشيد الإنشاد، وقدّمه للإعلام على أساس أنه عمل أدبي فكتبت الرقابة: إن هذا أدب جنسي فاضح ويجب أن يمنع . فأخذ ديدات ما كتبته الرقابة ونشره على أوسع نطاق، وأن ما يسمى الكتاب المقدس يحتوي على أدب جنسي فاضح تمنعه الرقابة في جنوب أفريقيا لأنه كلام وقح وفاضح ويحث على الرذيلة !!.

هذه هي الكتب المزعومة المنسوبة إلى سليمان . وهي كتب إلحادية لا تؤمن باليوم الآخر، وكتابٌ يدعو إلى الزنا والرذيلة بكل وقاحة، وهو أدب مكشوف وأدب مواخير.

إستخدام اليهود للنساء في مآربهم كما يذكرها العهد القديم وتشجيع الزنا:

لقد استخدم اليهود النساء والرشوة وجميع وسائل الإفساد لتحقيق مآربهم . ولم يتورعوا أن يجعلوا ذلك دينا وزعموا أن الله أنزل كتباً من السماء تمجد دور النساء الزانيات اللآئي خدمن قومهن اليهود وحقّقوا لهم أهدافهم.

وقد مرّ معنا أنهم قالوا في سفر يشوع أن راحاب الزانية خبأت الجاسوسين اللذين أرسلهما يشوع ليتجسس على الفلسطينيين في أريحا، وبذلك أنقذتهما من الموت المحقق، ومن فشل مخطط يشوع في احتلال الأرض.. ولهذا جازاها يشوع بأن حافظ عليها وعلى أسرتها من القتل والدمار الذي أحلّه بقومها، ثم قام تكريماً لها بالزواج منها.

ثم زعموا أن الله أمر النبي هوشع بأن يتزوج من الزانية جومر بنت دوبلايم لأن الأرض زنت . «قال الرب لهوشع ! اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنا، لأن الأرض قد زنت

تاركة الرب. فذهب النبي هوشع وأخذ الزانية جومر بنت دوبلايم زوجة له فحبلت وولدت له ابناً» (سفر هوشع 1 - 2 - 5).

كما زعموا أن النبي عاموس تزوج عاهرة من معبد وثني حسب أوامر الربّ، ومارس معها الطقوس الوثنية أيضاً .

وقد زنى راؤبين بن يعقوب بسرية أبيه بلهة وزنى يهوذا بن يعقوب بكنّته (زوجة ابنيه على التوالي) ثامار وأنجب منها. وزعموا أيضاً كذباً وبهتاناً أن داود زنى بحليلة جاره بتشبع ودبّر مؤامرة لقتل زوجها أوريا الحثي. وقالوا أن دينة بنت يعقوب زنت مع شكيم بن حمور الفلسطيني .

وما هو أفظع من ذلك وأشدّ كذبا وبهتاناً قولهم أن إبراهيم تزوج أخته سارة وأنه قدّمها لفرعون عندما ذهب إلى مصر وقال أنها أخته (وهو بالتالي صادق في ذلك).. وقام إسحاق أيضاً بتقديم زوجته رفقة لملك الفلسطينيين، كما فعل أبوه حسب زعمهم الكاذب، الذي قدّم سارة لملك مصر وفرعونها ثم لملك الفلسطينيين أبيمالك. وذلك ليأمنا على نفسيهما، وليأخذا أموالاً وعبيداً وأغناماً وأبقاراً من هذين الملكين !!.

وقد تحدثنا عن زنا أمنون بن داود بأخته ثامار وزنا أبشالوم بن داود بنساء أبيه علناً جهاراً أمام جميع بني إسرائيل، حسب زعمهم.

ولا غرابة إذن أن يكثر الزنا في بني إسرائيل بشكل لا يتصوره عقل .. وأن يستخدم الأحبار النساء لتحقيق أغراضهم . وكان الكهنة أبناء عالي يزنون في خيمة الاجتماع (قبة الزمان التي ينزل فيها الرب حسب زعمهم ليكلمهم)، كما زنى أبناء صموئيل أيضاً في خيمة الاجتماع.. وبعد أن تمّ بناء الهيكل، كان الأحبار يؤجرون البغايا داخل الهيكل ولهن غرف معروفة محددّة. وكل من يدخل عليهن يدفع لهن المبالغ التي تذهب إلى كبار الأحبار . ولم يكتفوا بذلك حسب ما ذكرته الأسفار، بل كان في الهيكل أيضاً مأبونون من الذكور، يفعل بهم الفاحشة لحساب الأحبار .. فأي قوم هؤلاء وأي وقاحة وصلت بهم إلى أن يجعلوا الهيكل (المعبد المقدس لديهم) ماخورا ومغارة لصوص كما وصفهم بذلك عيسى ابن مريم وقبله النبي أرميا والنبي أشعيا!!.

وهناك سفر كامل يسمى سفر يهوديت[1] .

ويهوديت : أرملة يهودية يحكي قصتها سفر من أسفار التوراة (العهد القديم) المحرّفة. حيث أن هذه الأرملة الجميلة صممت على الانتقام من كبير قوّاد نبوخذ نصر الذي هزم اليهود وشرَّدهم وأخذهم أسرى إلى بابل بعد أن حطّم الهيكل وأورشليم سنة 587 قبل الميلاد.

(1) . نقلت هذه المادة من كتابي : «لمحات من سيطرة اليهود ومكايدهم من يعقوب بن كلس وابن النغريلة إلى مونيكا لوينسكي، الدار السعودية جدة، سنة 2000م/ 1420هـ

تقرَّبت هذه الأرملة الجميلة إلى القائد، وارتمت تحت قدميه حتى يجعلها من ضمن جواريه، وأُعجب بها القائد.. وكانت تسقيه من فنون الحب والغزل ألواناً حتى رفع مقامها وصارت أقرب محظياته لديه. فلما تمكّنت منه سقته الخمر وذبحته ذبح النعاج .

لهذا كله قام الرب حسب زعمهم على لسان أحد كُهّانهم وأحبارهم بكتابة قصتها وتخليدها أبد الدهر لأنها انتقمت من كبير قواد نبوخذ نصر الذي حطم أورشليم وشرَّد أبناء الرب!!.

أما أستير (Aster) (1)**:**

فدورها أعظم لديهم. وأستير هذه كانت بارعة الجمال وكانت مع عمها مردخاي الداهية الذي قدَّمها لملك فارس احشويرش لتكون ضمن محظياته وجواريه هدية منه للملك العظيم.

واستطاعت أستير الجميلة واللعوب أن تسلب لُبَّ الملك رويداً رويداً، ولما رفضت الملكة ذات يوم أن تجيب دعوة الملك غضب عليها وطردها، وجعل أستير ملكة بدلاً عنها.

والغريب حقاً أن أحداً لم يعرف هويتها ولا هوية عمها، فقد كان وزير الملك احشويرش شديد العداء لليهود. وتسميه أسفار التوراة هامان!!.

ولا شك أنه يختلف عن هامان فرعون الذي لا نجد له ذكراً في أسفار التوراة . وإنما انحصر ذكر هامان فرعون في القرآن الكريم حيث يقول المولى تعالى: {إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ} [القصص: 8] ، وفي قوله تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ *} [القصص: 38] ، ومثلها في صورة غافر : {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ *أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ *} [غافر: 36، 37] .

على أية حال كان هامان الفارسي هذا شديد العداء لليهود ولم يكن يعلم أن أستير غانية الملك ومحظيته يهودية، كذلك لم يكن يعرف شيئاً عن عمها مردخاي الذي استطاع أن يخفي هويته ويغير اسمه، بحيث لم يخطر على بال هامان أنه من اليهود.

وكان هامان يدبِّر مكيدة لليهود يستأصلهم فيها بناء على ما لديه من إثباتات تتهمهم بخيانة الملك والدولة. وكان هامان قد قرر إبادة اليهود بعد محاكمتهم على جرائمهم يوم الثالث عشر آذار (مارس) (القرن الخامس قبل الميلاد).

ولكن أستير الغانية اللعوب عرفت السر، وتقدمت إلى الملك بعد أن لعبت بعواطفه وسقته الخمر، وقدّمت له الأدلة المزوَّرة التي دبَّوها عمّها المخاتل المخادع الداهية، على أن الوزير هامان يدبِّر انقلاباً ضد الملك. واستطاعت أن تجعل الملك يختم بخاتمه على أمر القبض على هامان وأعوانه وإعدامهم، وهو لا يزال سكراناً.

---

(1)انظر سفر يهوديت من العهد القديم.

وفي اليوم المقرر لإبادة اليهود كان الأمر قد صدر من الملك بالقبض على هامان وأعوانه.. وفي نفس اليوم الذي كان اليهود ينتظرون فيه المقصلة وحبل المشنقة عُلِّق رأس هامان وأعوانه.

لذا كان هذا اليوم أكبر وأهم أعياد اليهود ويسمونه عيد الفوريم أو عيد البوريم .. وترجع كلمة بوريم أو فوريم إلى كلمة بور أو فور الفارسية، وتعني القرعة. وكان الوزير هامان قد أجرى القرعة لتحديد اليوم الذي سيتم فيه إعدام جمهرة اليهود وأحبارهم وقادتهم، ورست القرعة على اليوم الثالث عشر من آذار (مارس). ولكن أستير وعمها كانا له بالمرصاد، وفي ذات اليوم الذي دبَّر فيه هامان مكيدته، أوقعته أستير في المصيدة، وتم التخلص منه بسرع ة فائقة.

لهذا يحتفل اليهود منذ ذلك اليوم بيوم الخلاص هذا.. ويزيدون فيه من صخبهم وخلاعتهم حتى سمّوه عيد المساخر . وعرفه المؤرخون المسلمون بعيد المساخر أو عيد المسخرة .. ولهذا ترى العالم يحتفل مع اليهود وخاصةً في أوروبا والغرب عامة بهذا العيد حيث يلبسون الملابس التنكرية على طريقة الكرنفال !! ويكثرون في ذلك اليوم من شُرب الخمور والفواحش والزنا والفجور على طريقة يهود في شكر النعم التي ينعم الله بها عليهم !! ويتم الاحتفال في اليوم الثالث عشر والرابع عشر من آذار (مارس) كل عام عند اليهود في كافة أصقاع الأرض وعند الأوروبيين المتأثرين باليهود كذلك.. وترى كثيراً من الفنادق في البلاد العربية فضلاً عن الغربية تُسمَّى أستير وتقوم باحتفالات الكرنفال!!.

وقد قام أحبار اليهود بكتابة سفر كامل من أسفار العهد القديم، بإلهام من الله حسب زعمهم، فيه قصة هذه الغانية اللعوب التي قامت با لوصول إلى قلب الملك احشويرش رويداً رويداً حتى تمكنت من التحكم فيه.

وبمجرد أن سمح الملك الفارسي احشويرش لأستير أن تقضي على هامان استغلَّت الفرصة مع عمها مردخاي ووسَّعت الأمر، وأمرت بقتل هامان وبنيه العشرة وخمسمائة من رجاله. وفي اليوم التالي علّقوا هامان وبنيه على خشبات المدينة، وقتلوا ثلاثمائة رجل في شوشان من أنصار هامان.. وسارع اليهود في كل مكان باهتبال الفرصة والانتقام من أعدائهم على اعتبار أنهم يقتلون أعداء الملك وأنصار هامان عدو الملك الأكبر والخائن الأعظم.. فقتل اليهود في تلك الفترة خمسة وسبعين ألفاً من أعدائهم في أقاليم المملكة الفارسية الضخمة، حسب زعم سفر أستير من التوراة المحرّفة.

ويتميز سفر أستير بأن الله لم يُذكر فيه ولا مرة واحدة. ويُقرأ بصورة خاصة في أيام عيد الفوريم وبالذات ليلة العيد.

ويقول الآباء اليسوعيون في المدخل لدراسة الكتاب المقدس وفي مقدمة سفر أستير : «لقد حُفظ هذا السفر في التوراة العبرية، وهو يُقرأ كل سنة في عيد الفوريم الصاخب الذي يُعتبر بمثابة ذكرى لهذه الحوادث، وقد يشرح طابع هذا العيد، هذا الحدث الفريد .. الذي مفاده أن نَص السفر كما جاء في التوراة العبرية لا يذكر اسم الله مطلقاً».

ويصف القس المصري زكي شنودة في كتابه «المجتمع اليهودي» الاحتفال بهذا العيد فيذكر أن اليهود يصومون يوم الثالث عشر من آذار كما صامت أستير، وفي مساء ذلك اليوم يقرأون سفر أستير في المعابد، فإذا وصلوا إلى اسم هامان صرخوا جميعاً «الهلاك له» ويتلون أسماء أبناء هامان العشرة بسرعة شديدة للدلالة على أنهم صُلبوا في وقت واحد، ثم يقضون يومي العيد (13 و14) غارقين في الشراب والغناء والرقص».

ودور النساء في تنفيذ مؤامرات اليهود دور مشهود، وتعتبر يهوديت التي قتلت أكبر قواد نبوخذ نصر بعد أن تملقته وأثارت شهواته وسقته الخمر (القرن السادس قبل الميلاد)، وأستير التي لعبت بلب الملك الفارسي احشويرش وانتقمت من وزيره هامان عدو اليهود، تعتبران في مصاف القديسين والأنبياء لديهم لأنهما أنقذتا شعب إسرائيل.. ولذا ألهم الله حسب زعمهم الأحبار كتابة سفر خاص من التوراة المحرّفة لكل واحدة منهما.

ومنذ ذلك الحين واليهوديات الفاتنات يلعبن أدواراً خطيرة في تنفيذ مخططات اليهود ويوجههن في ذلك دهاقنة اليهود وكبار أحبارهم ودهاتهم .. ويستخدمون الرشوة والجنس والإغراء والخمور والمخدرات وكل ما يمكن أن يحقق أغراض يهود.

وها هي مونيكا لوينسكي تعيد دور أستير حتى أن نت نياهو أطلق لقب الملكة أستير على مونيكا!! (أنظر الحياة في 8 أغسطس 1998م ص 15 مقال سليم نصار بعنوان : لماذا لقّب نتنياهو مونيكا بالملكة أستير)؟.

ولا يُستغرب ذلك فقد جاء في بروتوكولات حكماء صهيون بأنه لا بد من استخدام اليهوديات الجميلات لتحقيق أغراض اليهود. وجاء فيها: «يجب أن لا نتردد لحظة في أعمال الرشوة والخديعة والخيانة إذا كانت تخدم أغراضنا .. ويجب أن تكون الصحافة وأجهزة الإعلام تافهة كاذبة بعيدة عن الحق. إنها تعمل لتحريض وإثارة المشاعر التي نحن في حاجة إليها من أجل أهدافنا.. إن الغاية تبرّر الوسيلة، وعلينا ونحن نضع خططنا ألاّ نلتفت إلى ما هو خير وأخلاقي بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضروري ومفيد لأهدافنا وغاياتنا».

وقد ذكر الأستاذ محمد حسنين هيكل في حلقاته في تليفزيون الجزيرة عام 2009 عن حرب 1967 أن المخابرات الإسرائيلية قدمت للرئيس جونسون فتاة جميلة هي أميلدا كريم استطاعت أن تأخذ بلبّه وأن تجعله ينفذ جميع المخططات الإسرائيلية لحرب 1967.. وهو في الأصل لم يكن معارضاً لذلك، لكنه كان يريد إعطاء إسرائيل بقدر محدود، فلما استولت عليه وسقته من فنون الغرام ألواناً حتى عدُّوها سيدة البيت الأبيض الحقيقية، جعلته يبادر في تنفيذ كل ما تطلبه إسرائيل من سلاح وإمدادات وغيرها، وكان زوج اميلدا اليهودي يحضر كثيراً من تلك الحفلات في البيت الأبيض!!.

وقد استخدم اليهود مونيكا لوينسكي للضغط على كلينتون الذي أراد أن يحقق بعض ما وعد به للرئيس المغدور به ياسر عرفات (والذي مات مسموماً) من إقامة دولة فلسطينية وذلك في يناير 1998، فجعلوا من قضية مونيكا وسيلة للضغط والابتزاز حتى صرّحت زوجته هيلاري أن زوجها يتعرض لمؤامرة بشعة مدبّرة باتقان.

وكما دفع موردخاي ابن أخيه استير إلى أحضان الملك الفارسي احشويرش كذلك دفع دهاقنة اليهود المتدربة في البيت الأبيض إلى أحضان كلينتون الذي اشتهر بتهتكه ومغامراته الجنسية.

وقد تعمّد الإعلام أن يعيد لقطات عناق مونيكا بكلينتون في أثناء حملات جمع التبرعات للحزب الديمقراطي.. كما تمّ تسجيل جميع المكالمات العاطفية مع كلينتون. وأهم من ذلك كله الاحتفاظ بالفستان الأزرق الذي فيه بُقع من مني كلينتون..

ومن أين لفتاة لعوب أن تدبّر كل هذا التدبير، وأن تخفي الفستان دون أن تغسله، وتبقى البقعة الملوثة بمني كلينتون دون أن يمسها أو يعبث بها أحد.. وتكفي هذه النقطة لفحصها في المختبر لإثبات أن هذا المني هو للرئيس كلينتون عبر فحص الـ DNA (الحامض النووي).. إن هذا تدبير دهاقنة اليهود الذين يستخدمون بناتهم الجميلات لتحقيق مآربهم، والدليل على ذلك أن نتنياهو في ذلك الحين مدح مونيكا وأطلق عليها لقب استير (Aster)[1]. واستير عندهم مقدسة كما أسلفنا ولها سفر كامل.. ويحتفلون باليوم الذي تمّ فيه التخلص من هامان الوزير الفارسي هو وجميع أسرته وأنصاره وخمسة وسبعين ألفاً ممن كانوا يعادون اليهود. وكل ذلك بزعم أنهم أنقذوا الملك من مؤامرة دبرها هامان وأنصاره. ولا مؤامرة هناك سوى مؤامرة موردخاي واستير.

واستخدام اليهود للغانيات الجميلات من اليهوديات أمر معروف ومقرّر على مدى التاريخ. ولا ينكره اليهود أنفسهم. بل يفتخرون به، وإذا كان الله حسب زعمهم قد جعل لهم كتابين مقدسين للإشادة بهؤلاء الغانيات هما سفر يهوديت وسفر استير، فإن مدح اليهود ونتنياهو لهؤلاء الغانيات أمر مؤكد. ولا حاجة لضرب المزيد من الأمثلة، وذلك يملأ أس فاراً ضخاماً خارجة عن غرضنا هاهنا.

كلام عيسى في الإنجيل عن اليهود:

استمر اليهود في عهد يسوع في تدنيس الهيكل بالبيع والشراء فيه، وأكل الربا وتوثيقه في أرجائه. ففي إنجيل متى 21: 12 - 43 «ودخل يسوع إلى هيكل الله وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل. وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام (الذي يقدم للذبائح). وقال لهم مكتوب بيتي بيت الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص... وقال لهم يسوع: الحق أقول لكم أن العشّارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله. لأن يوحنا جاءكم في طريق الحق فلم تؤمنوا به. وأما العشّارون والزواني فآمنوا به ... وقال لهم يسوع: أما قرأتم قط في الكتب الحجر الذي رفضه البنّاؤون هو قد صار رأس الزاوية .. لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويُعطي لأمة تعمل أثماره. ومن سقط على هذا الحجر يترضض، ومن سقط هو عليه بسحقه».

وهذا بشارة بالنبي محمد وأمته، وأخبار منه بأن النبوة ستنتزع من بني إسرائيل وتذهب إلى بني إسماعيل، وقد صار الرسول محمد حجر الزاوية كما أشار إليه النبي محمد بأنه

(1)استير Aster : هي نفسها عشتروت وعشتر أوفيروس أو نجمة الزهرة وهي من الآلهة التي عُبدت لدى عدد كبير من الأمم وهي آلهة الجمال عند اليونان وعند الرومان، كما أنها اشتهرت بفسقها وجمالها.

الحجر الذي يكمل به بناء الأنبياء العظيم فكان خاتمة الرسالات السماوية ونافياً عنها كل زيف وتحريف.

المسيح يوبّخ الفريسيين والكتبة ويدعوهم بالأفاعي والحيّات

ووبّخ المسيح عيسى بن مريم الفريسيين والكتّاب وأحبار اليهود قائلاً لهم : «ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تغلقون ملكوت السموات قدّام الناس فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيو ن المراؤون لأنكم تأكلون بيوت الأرامل. ولعلّة تطيلون صلاتكم. لذلك تأخذون دينونة أعظم. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلاً واحداً. ومتى حصل تصنعونه ابناً لجهنم أكثر منكم مضاعفاً ..... ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تعشرون النعنع والشبت والكمون (أي أشياء تافهة) وتركتم أثقل الناموس الحق والرحمة والإيمان.. أيها القادة العميان الذين يُصَفُّون عن البعوضة ويبلعون الجمل (وهم كما قال عبدالله بن عمر فيما بعد في أهل العراق يسألون عن دم البعوضة ويسفكون دم الحسين). ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تنقّون خارج الكأس والصحفة وهما من داخل مملوءان اختطافاً ودعارة. أيها الفريسيّ الأعمى نقِّ أولاً داخل الكأس والصحفة لكي يكون خارجها أيضاً نقياً . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تشبهون قبوراً مبي ضة تظهر من خارج جميلة وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة . هكذا أنتم تظهرون للناس أبراراً ولكنكم من داخل مشحونون رياء وإثماً... أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم. لذلك ها أنا أرسل لكم أنبياء وحكماء وكتبة فمنهم تقتلون وتصلبون، ومنهم تج لدون في مجامعكم، وتطردون من مدينة إلى مدينة . لكي يأتي عليكم كل دم زكي سفك على الأرض من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح .. يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين ... كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا. هوذا بيتكم يترك لكم خراباً لأني أقول لكم إنه لا يترك حجر على حجرها هاهنا لا ينقض». (إنجيل متى 23: 12 - 38 وإنجيل متى 24: 2).

لمحات عن اليهود في القرآن الكريم:

تحدَّث القرآن الكريم عن اليهود وعن أخلاقهم وأفعالهم وأنبيائه م، كما تحدث عن التوراة التي جعلها الله هدى ونور فقام بنو إسرائيل بطمسها وتحريفها.

قال تعالى : {يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ *سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ *وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِ كَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ *إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَ دَاءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِ رُونَ *} [المائدة: 41 - 44] .

وقال تعالى: {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ *} [البقرة: 75] . وقال تعالى : {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ *فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ *} [البقرة: 78، 79] .

وقال تعالى: {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} [المائدة: 13] .

وقد أوردنا فيما سبق ما يكفي من نصوص التوراة المحرّفة والعهد القديم وافتراءِهم وكذبهم على الله وعلى رسله وأنبيائه لدرجة تقشعر من هولها الأبدان.

وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه قد فضّل بني إسرائيل على أهل زمانهم وأنزل لهم التوراة وتكرر فيهم الأنبياء ومع ذلك أبوا إلا الكفر والعدوان. قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ *} [الأنعام: 91] .

وقال تعالى : {وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ *وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ *} [الجاثية: 16، 17] .

وقد حفل القرآن الكريم من أوله لآخره بذكر بني إسرائيل وأنبيائهم الكرام الذين كذبوا عليهم ولوثوا سيرتهم. ونجد في سورة الفاتحة ذكراً وتعريضاً بهم قال تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ *صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ *} [الفاتحة: 6، 7] ، والمسلم يطلب من الله الهداية في كل آن، وفي الصلاة في كل ركعة . والذين أنعم الله عليهم هم أولئك الرهط الذين آمنوا بالرسل الكرام وصدّقوهم وناصروهم من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليهم أجمعين . وأما المغضوب عليهم، فهم أولئك الذين عاندوا الأنبياء والتووا عليهم وكفروا بهم، وعلى رأس هؤلاء اليهود . وأما الضالين فهم الذين أخطأوا الطريق وضلوا السبيل، وعلى رأس هؤلاء النصارى.

وفي سورة البقرة بعد أن استعرض الله سبحانه وتعالى صفات المؤمنين ثم صفات الكافرين ثم صفات المنافقين الذين يذهبون إلى شياطينهم من أحبار يهود فيزيدونهم عمى على عمى وضلالاً على ضلال. وهم الذين كانوا يهدّدون الأوس والخزرج في المدينة بأنه قد أظلَّ زمان نبيّ، فلما جاء النبي محمد من العرب (من قريش من بني هاشم) حسدوه ونكروه وهم يعرفون صدقه، لأنهم كانوا يزعمون أن النبوة والرسالة مقصورة عليهم.

قال تعالى: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا [1]وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ[2] قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ *اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ *أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا

(1)وهؤلاء هم المنافقون.
(2)هؤلاء هم اليهود .

الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ *مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ *صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ *} [البقرة: 14 - 18] .

واليهود هم الذين كانوا ينتظرون النبي فلما جاء من العرب شرقت بذلك نفوسهم وحقدوا عليه وأنكروا بعثته، فذهب ما كانوا ينتظرون من النور وتركهم الله في ظلمات لا يبصرون . صمٌ بكمٌ عُمي فهم لا يرجعون.

ثم وصف المولى سبحانه وتعالى بعد أن دعاهم إلى الإيمان ونصرة محمد ، قال تعالى : {يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ *وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ *وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ *} [البقرة: 40 - 42] ، ومضت السورة تذكِّرهم بأفضال الله عليهم وكيف جعلهم خير الناس في زمنهم، وكيف أنجاهم من فرعون بعد أن سامهم سوء العذاب، وذكّرهم كيف فرق بهم البحر وخروجهم من أرض مصر ثم كيف قاموا بدل أن يشكروا الله بعبادة العجل، ثم كيف عفا الله عنهم ـ ومع ذلك تعنتوا: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ *ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ *} [البقرة: 55 - 57] .

ولمّا شحّ عليهم الماء استسقى موسى لقومه فقال الله له : {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ *} [البقرة : 60] ، وأبوا إلا أن يطلبوا الذلّة والمهانة والثوم والبقل والبصل والعدس قال تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ *} [البقرة: 61] .

وأخذ القرآن الكريم يستعرض عليهم منن الله عليهم، وإصرارهم على المعاصي والكفر وكيف أخذ الله عليهم الميثاق بعد أن رفع جبل الطور وجع له على رؤوسهم آمراً لهم بأن يأخذوا ما في التوراة بقوة. ومع ذلك تولوا وكفروا. ثم اعتدوا في السبت واصطادوا بالحيلة ووضعوا الشباك يوم الجمعة، ثم أخذوها مليئة بالأسماك يوم الأحد. {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ *فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ *} [البقرة: 65، 66] ، وهي حاضرة البحر مدينة إيلات (أيلة) على البحر الأحمر والتي أخذتها إسرائيل واستولت عليها يفسقون فيها أشد الفسق، كما فسق آباؤهم من قبل. ثم جاءت قصة البقرة. وقد قام أحدهم بقتل عمه ليرثه حيث لم يكن له وارث غيره . ومع ذلك ادعى على آخرين أنهم هم الذين قتلوه، فذهبوا إلى موسى فأمرهم موسى أن يذبحوا بقرة : {قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } واستمروا في تعنّتهم وتشدّدهم على موسى حتى شدّد الله عليهم واضطروا أن يشتروا هذه البقرة التي كانت لدى

يتيم بار بأمه بثمن غال جداً فذبحوها وما كادوا يفعلون. وأمرهم أن يضربوا الميت ببعضها، فقام الميت، وقال: فلان قتلني، فأخذوا القاتل المخادع وقتلوه..

وكلما زادوا في التعنت ازدادت قلوبهم قسوة قال تعالى: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّ قَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ *وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ *أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ *وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ *فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيدِيهِمْ وَوَيلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ *} [البقرة: 74 - 79] ، واستمر القرآن الكريم في تقريعهم وتوضيح زيف ما ادعوه من أنهم لن يدخلوا النار إلا أياماً معدودات. وأنهم خالدون في النار بسبب كفرهم وعناده م وفسوقهم وتجبّرهم وقتلهم الأنبياء وسبّهم لهم.. بل سبّهم لله تعالى مجده وقدسه وكيف أنهم يتظاهرون بالإيمان بالكتاب كله (التوراة) والواقع أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ *} [البقرة: 86] .

وقال تعالى مقرّعاً وموبّخاً لهم: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّ مَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ *وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ *وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ *بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ *وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *} [البقرة: 87 - 91] .

والواقع أنهم أشربوا في قلوبهم حبّ العجل والذهب: {وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِ مْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [البقرة: 93] .

ومن صفاتهم المرذولة حبّهم للحياة الدنيا وكراهيتهم القصوى للموت لأنهم لا يعملون ولا يؤمنون إلا بالحياة الدنيا كما أسلفنا في وصف كتبهم المحرّفة التي كتبها الأحبار . قال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ *وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ (1)

(1)هم حريصون على الحياة: أي حياة ولو كانت حياة الذل، وهم أجبن خلق الله وأكثرهم هلعاً وأشدهم ذلّة، فإذا تمكنوا كانوا أشد الناس عتّواً وجبروتاً وسفكاً للدماء وخاصة للنساء والأطفال .

وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ *} [البقرة: 94 - 96] .

وهم ناكثون لجميع العهود قال تعالى: {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ *وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ *وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *} [البقرة: 100 - 102] .

فهم ناكثون للعهود، ضالون مضلّون، في جميع العهود والأزمنة، كافرون بجميع الأ نبياء والرسل.. محرّفون لكتب الله التي لديهم، عاملون بالسحر والطلسمات والكابالا وذلك منذ عهد سليمان عندما ظهر الشياطين الذين يعلّمون الناس السحر، فاتّبعوهم وتعلّموا منهم السحر والكبالا.. ولما ذهبوا إلى بابل في الأسر، ازداد عتوّهم وتعلمهم السحر من أهل بابل الذين اشتهروا بالسحر، وهم في كل الأزمنة والعهود فاسدون مفسدون.

والعجيب حقاً أن نجد السور الطوال والقصار تكثر من ذكر بني إسرائيل وكفرهم وعنادهم وعتوهم وجبروتهم وقتلهم الأنبياء. وحقارتهم وذلّهم وجبنهم في مواجهة الأعداء .. وقد حفلت سورة البقرة بالقسط الوافر من ذلك كله.. وكيف أن يهود نفوا على المؤمنين رسالة محمد قال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [البقرة : 109] ، وهو أمر عجيب وخلق عال رفيع أن يأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بأن يعفو عن هؤلاء اليهود الذين يريدون أن يردّوا المسلمين كفّاراً، حسداً من عند أنفسهم من بعدما تبيّن لهم أنه الحق . فسبحان الحليم الكريم العفو الغفور . ثم إن الله سبحانه وتعالى في جميع هذه الآيات لا يعمّم القول بكفرهم جميعاً وعتوّهم جميعاً، بل أكثرهم فاسقون مجرمون قتلة جبناء حقراء، ولكنهم ليسوا جميعاً كذلك . فمنهم المؤمنون ومنهم ذوي الخلق العالي في كل زمان ومكان وإن كانوا قلة بالنسبة لجموعهم الباغية الكافرة الظالمة الفاسقة، وهو أمر مشاهد إلى اليوم.

وكانت دعوة القرآن الكريم لهم واضحة جلية هم والنصارى، قال تعالى : {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ *يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ *هَاأَنْتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ *مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ *وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ *يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ

*يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ *وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ *وَلاَ تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ *يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ *} [آل عمران: 64 - 74] .

وقال تعالى موضحاً لأهل الكتاب عقائد المسلمين وداعياً لهم إليها: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ *فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ *} [البقرة: 135 - 138] .

وقد أوضح الله سبحانه وتعالى خصائص يهود وسرقتهم لأموال الآخرين، الجوييم أي الأميين ومع ذلك فقد أوضح المولى سبحانه وتعالى أنهم ليسوا سواء فمنهم (من إن تأمنه بقنطار) (مبلغ كبير جداً من المال) يؤده إليك، ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً. ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون. {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ *} [آل عمران: 76] .

ولم يكتفوا بذلك بل باعوا كتاب الله وغيّروه ليشتروا به ثمناً قليلاً . قال تعالى : {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ *} [آل عمران : 77، 78] ، وتوجه إليهم سبحانه وتعالى بالدعوة والإيمان بدل الكفر والعدوان، قال تعالى : {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ *قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *} [آل عمران: 98، 99] .

وقال عن اليهود أنهم قد ضُربت عليهم الذلة قال تعالى: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ *} [آل عمران: 112] ، ومع ذلك فهم ليسوا سواء قال تعالى : {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ *يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ *} [آل عمران: 113، 114] .

وفي سورة النساء عاد لفضح يهود وكيدهم ومحاولتهم إضلال المسلمين قال تعالى : {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ *وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا *مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ

وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً *يَاأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً *} [النساء: 44 - 47] .

وطبيعة اليهود أن يزكّوا أنفسهم، بل يرون أنفسهم أنهم أبناء الله على الحقيقة و المجاز كما أسلفنا في فصول سابقة، ويفترون على الله الكذب ويؤمنون بالجبت والطاغوت وسبب ذلك كله حسدهم للنبي وللمؤمنين، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً *انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِيناً *أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً *أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا *} [النساء: 49 - 52] .

وهم أمر عجيب أن يقول أحبار يهود لقريش أنتم أهدى من محمد وأنتم على الحق . وأن عبادة الأصنام والجبت والطاغوت التي عليها قريش، أفضل مما يدعو إليه محمد من التوحيد وعبادة الله وحده. ولكنه الحسد والبغضاء تجعلهم يكذبون ويفترون على الله الكذب . وهو أمر قد أصبح لديهم عادة وجبلّة، وطبعاً طبعوا عليه بسبب كثرة تمرّدهم على أنبيائهم وافترائهم عليهم كما قد مرّ معنا، بل وقتلهم وسفك دمائهم البريئة.

ورغم ما فعله هؤلاء اليهود من كيد ومحاربة للمسلمين ومحاولة لسمِّ النبي وسحره وقتله إلا أن القرآن الكريم يدعوهم مرة بعد مرة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله دون تفريق بينهم. ويحذّرهم من تعنّتهم وتجبّرهم حين سألوا الرسول محمد أن ينزل عليهم كتاباً من السماء قال تعالى: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً *وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا *فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً *وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيمًا *وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً *بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *} [النساء: 153 - 158] .

وقال تعالى: {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا *وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا *} [النساء: 160 - 161] .

وهم الذين نشروا النظام الربوي في العالم وهم دهاقنته وسادته. وقد بلغت بهم الوقاحة أ ن حرّفوا تعاليم التوراة الواضحة في تحريم الربا حيث قالوا: «لأخيك لا تقرض بالربا، للأجنبي لا تقرض إلا بالربا».

وكل تعاليم التوراة بعدم السرقة أو الغش حولوها «لا تسرق قريبك.. لا تغش قريبك ». أما الأجنبي أي غير اليهودي فتجوز سرقته وغشّه، بل يحرم عليهم عدم غشّ ه وسرقته إلا إذا كان لهم في ذلك مصلحة، أو سيحصل عليهم بذلك ضرر ما.

وفي سورة المائدة قال تعالى عن هؤلاء اليهود: {وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُ مُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَناً لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ *فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *} [المائدة: 12 - 13] .

(ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم) فهم دائماً يدبرون المكائد والخيانات ونقض العهود إلا قليلاً منهم كما قال تعالى : وانظر إلى هذا المستوى السامق من ا لخلق الرفيع كيف يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه وحبيبه المصطفى ذا الخلق العظيم أن يعفو ويصفح عنهم.. وهم هم ذوي القلوب القاسية وذوي المكر والخداع ونقض العهود، وأصحاب الربا والزنا والخنا، وفحش القول، والجبن والمذلة والهوان حين الضعف، والتجبّر والعتو والطغيان، و قتل النساء والأطفال، والفساد في الأرض عند القوة وظهورهم على أعدائهم بحبل من الناس.

وقد آذوا موسى وجبنوا أن يدخلوا أرض فلسطين قال لهم موسى بعد أن ذكّرهم بنعم الله العديدة عليهم : {يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ *قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ *قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ (1)أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ *} [المائدة: 21 - 24] .

وقد وردت هذه القصة ذاتها من سفر العدد (الإصحاح 14 - 1 - 14) وقد سبق ذكرها بنصها فلا داعي لإعادتها.

وفي سورة المائدة ورد قوله تعالى عنهم: {يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِ عُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْ كَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِ ينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ

---

(1)هما يوشع بن نون فتى موسى وتلميذ وكالب بن يفنه، أنعم الله عليهما بخوف الله وعدم خوف الجبارين وقد أبقاهما الله ليقودا عملية الفتح بعد وفاة موسى وانتهاء مرحلة التيه أربعين سنة ففتح الله على أيديهما كل أرض فلسطين.

يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَ ابٌ عَظِيمٌ *} [المائدة: 41] ، وقد تقدم ذكر هذه الآيات في أول المبحث فلا حاجة لإعادتها.

وقال تعالى: {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ *قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ ا لسَّبِيلِ *وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ *وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ *وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ا لأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ *} [المائدة: 59 - 64] .

وقال عنهم عزّ من قائل: {لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ *} [المائدة: 70] .

وقال تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ *كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ *تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ *وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِ لَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ *لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّ ةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ *وَإِذَا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّ نَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ *} [المائدة: 78 - 83] .

وقد استعرضت الآيات الكريمات كيف ولماذا لعن داود وعيسى اليهود، وذلك لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، بل كانوا يتواصون به. وقد رأينا عند دراستنا لما يسمى «الكتاب المقدس» في العهد القديم كيف كذبوا على داود واتهموه بالزنا من حليلة جاره وتدبير مؤامرة دنيئة لقتل زوجها. ثم وصفوه بالخداع والكذب والتذلل لملك الفلسطينيين جت والسجود له .. كما وصفوه كذباً وبهتاناً بقتل النساء والأطفال والشيوخ والبهائم.. وألصقوا به كل خلق ذميم . وأما عيسى فقد أوردنا ما جاء عنه في الإنجيل في وصف أحبارهم الفريسيين، وهم أخبث فرق اليهود، وأشدهم تظاهراً بالدين وفي واقع الأمر أبعد الناس عنه . وهم خبثاء متكبّرون متظاهرون بالتقى والصلاح، وداخلهم مليء بكل نجاسة كما قال يسوع .

وأما النصارى الذين مدحهم القرآن الكريم فهم وفد نصارى الحبشة الذين أرسلهم أصحمة النجاشي الذي آمن وصدّق بما أنزل على محمد . وقد سمعوا ما نزل من الحق فاغرورقت عيونهم واخضلّت لحاهم فآمنوا وصدّقوا .. ولا علاقة لهؤلاء بنصارى الصليب، وما فعلوه بالمسلمين.. ومع ذلك فإن فيهم من يرقّ قلبه ويدخل إلى دين الله متى عرف الحق . وهم في

ذلك على عكس يهود الذين يع   رفون الحق ويعرفون الرسول كما يعرفون أبناءهم ولكن كبرهم وحسدهم يدفعهم لمحاربته. وشتّان ما بين الفريقين والله الهادي إلى سواء السبيل.

ونكتفي بهذا القدر مما جاء في القرآن عن أخلاق يهود ففيه غُنيه وإلا فالمجلدات لا تفِ بذلك.

الفصل الرابع
الدين والأخلاق في الأناجيل وعند النصارى

التعاليم الحقَّة في الأناجيل[1]

ليس كل ما في الأناجيل باطلاً بل الحقّ فيها كثير، والكلام النوراني فيها يسطع مثل الشمس التي تنير الظلام، أو القمر المنير في الليلة الظلماء، أو الجواهر والألماس في وسط ركام كثيف من قطع الزجاج والجواهر المزيفة.

ولا شك أن الروايات الشفوية التي نقلت كلام عبر كُتّاب الأناجيل أبقت شيئاً كثيراً مما قاله عيسى . كما أن النقل قد أدّى إلى تشويه كثير منها بإضافةٍ، وحذف، أو تغيير كامل كما أوضح ذلك علماء المسيحية أنفسهم فيما سبق أن نقلناه عنهم.

وعيسى من الخمسة الكر ام، أولي العزم من الرسل، وهم : نوح،وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات ربي وسلامه عليهم، أوضح القرآن الكريم والسنّة المطهرة مكانتهم العالية بين الأنبياء.

وعيسى معجزة في مولده من غير أب، مثل آدم خلقه الله من غير أب ولا أم، وحواء خلقها من ضلع من أضلاع آدم كما جاء في سِفْرِ التكوين، وذكرتْه الأحاديث الصحيحة أنها خُلقت من ضِلَعٍ أعوج (قالوا: كنايةً عن عِوَجِ طبعها)، وحديثه في المهد معجزة أخرى لم تتحدث عنها الأناجيل مطلقاً، بل ادّعت الأناجيل أن يوسف النجّار تزوج مريم حتى لا يتهمها قومها بالزنا، ثم إنه أتاها بعد أن ولدت يسوع، فأنجبت منه مجموعة من البنين والبنات منهم يعقوب ويحيى ويهوذا وسمعان، وله أيضاً أخوات من البنات حسب زعمهم لم تذكر الأناجيل أسماءهن.

وفيما يلي ذكرٌ لبعض التعاليم الحقّة التي جاء بها عيسى وأوردتها الأناجيل لمطابقتها لما في القرآن الكريم والتوحيد الخالص فيها.

من كلام يسوع الحق في الأناجيل ودعوته للتوحيد:

فقد جاء في سفر متَّى (17/5): «لا تظنّوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئتُ لأنقض بل لأكمل. فإني الحقَّ أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض ولا يزول حرف من الناموس حتى يكون الكُلّ».

وأول الوصايا التي أكّد عليها الناموس وأكّد عليها يسوع أيضاً عبادة الله وحده لا شريك له.. وأن تحبَّ الله من كل قلبك، تماماً كما جاء في أسفار العهد القديم قبله:

ففي سفر الخروج (20 - 1 - 6): «أنا الرب إلهك ... لا يكن لك آلهة أخرى أمامي . لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما .. لا تسجد لهن ولا تعبدهن .. لأني أنا الربُّ إلهك إله غيور».

وفي سفر أشعيا: «أنا الربُّ وليس غيري مخلّص.. أنا الأول وأنا الآخر لا إله غيري، أنا الربُّ وليس آخر إله سواي».

«أنا الرب وليس آخر، مصوّر النور وخالق الظلمة، صانع السلام، وخالق البشر».

---

(1)نقلاً عن كتابي دراسة معاصرة في العهد الجديد والعقائد النصرانية دار القلم دمشق، 2006م/1427هـ.

«أنا الرب ولا إله غيري، إله بارٌّ ومخلّص، ليس سواي».

«بمن تشبهون الله وأي شيء تعادلون به.. بمن تشبهونني وتُسوُّونني وتمثلونني لنتشابه».

«لأنني أنا الله وليس آخر. أنا الإله، وليس مثلي..».

«أنا إله الدهر، الربُّ خالق أطراف الأرض لا يكلّ ولا يعيا».

ونجد صدى هذه التعاليم في إنجيل متّى عندما سأل واحد من الكهنوت يسوع : «أي وصية هي أول الكل؟» فأجابه يسوع: «إن أول كل الوصايا هي اسمع يا إسرائيل: الربُّ إلهنا واحد، وتحبُّ الربّ إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك ومن فكرك ومن قدرتك . هذه هي الوصية الأولى. وثانية مثلها: تحبُّ قريبك كنفسك ليس وصية أخرى أعظم من هاتين » (متّى 35/22 - 40 ومرقس 28/12 - 34).

وقال يسوع : «إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا : لا تقتل. لا تزن، لا تسرق، لا تشهد بالزور، أكرم أباك وأمك، أَحِبَّ قريبك كنفسك» (متّى 18/19 و19).

وقال لهم يسوع : «الحق أقول لكم : إنه ليس عبد أعظم من سيده، ولا رسول أعظم من مرسله» (يوحنا 16/13).

وقال لهم يسوع: «تعليمي ليس لي، بل للذي أرسلني» (يوحنا 16/7).

ويقول لهم عن علمه بالساعة يوم القيامة: «أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد ولا الملائكة الذين في السماء إلا الأب» (مرقس 32/13).

ويقول لهم: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يوحنا 3/17).

ويقول يسوع: الرب إلهنا ربٌّ واحد ويقول: «إلهي وإلهكم واحد» .

وتقول دائرة المعارف الأمريكية:

«لقد بدأت عقيدة التوحيد، كحركة لاهوتيه، بداية مبكرة جداً في التاريخ. وفي حقيقة الأمر فإنها تسبق عقيدة التثليث بالكثير، من عشرات السنين».

فالأصل هو التوحيد الحق الذي جاء به الأنبياء من لدن آدم إلى محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ومروراً بنوح وأخنوخ (إدريس) وإبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى وداود وسليمان .. وكل أنبياء الله الكرام، ولكن هؤلاء القوم حرّفوا رسالة نبيهم، ورغم هذه التحريفات والزيادات والطمس لمعالم الدين الحق بقيت في الإنجيل كما في التوراة آيات كثيرة تشعُّ بنور الحق كما تشعُّ الشمس فتنير الظلام .. وكما تلمع قطع الجواهر والألماس في وسط ركام كثيف من المواد المزيفة، ومنها هذه الآيات التي تتحدث عن التوحيد الحق.

يسوع لا يعلم متى الساعة؟:

«وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السموات إلا أبي وحده » (متّى 36/24). وكلمة (أبي) هنا بالمعنى المجازي حيث قال عدة مرات : أبي وأبيكم، أي الذي يرعاني ويرعاكم كما يرعى الأب ابنه «اسهروا إذاً لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم، واعلموا هذه: أنه لو عرف ربُّ البيت في أي هَزيع من الليل يأتي السارق لَسَهِرَ ولم يدعْ بيته ينقب. لذلك كونوا أنتم أيضاً مستعدين» (متّى 24 - 42 - 44).

وفي إنجيل مرقس (13 - 33 - 37): «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحدٌ ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الأب . انظروا واسهروا لأنكم لا تعلمون متى يكون الوقت. كأنما إنسان مسافر ترك بيته وأعطى عبيده السلطان ولكل واحد علمه، وأوصى البواب أن يسهر. اسهروا إذاً لأنكم لا تعلمون متى يأتي ربُّ البيت أمساء، أم نصف الليل أم صياح الديك أم صباحاً؟ لئلا يأتي بغتة فيجدكم نياماً . وما أقوله لكم أقوله للجميع : اسهروا» أي في عبادة الله وطاعته.

وفي إنجيل لوقا (24/21 - 26): «فاحترزوا لأنفسكم لئلا تثقل قلوبكم في خمار وسُكر وهموم الحياة فيصادفكم ذلك اليوم بغتة (المقصود يوم القيامة وقيام الساعة)، لأنه كالفخ يأتي على جميع الجالسين على وجه كل الأرض. اسهروا إذاً وتضرّعوا في كل حين لكي تحسبوا أهلاً للنجاة من جميع هذا المزمع أن يكون».

وتذكرنا هذه الكلمات النورانية بما جاء في القرآن الكريم والسنّة المطهرة من أن علم الساعة محجوب عن كل الخلائق، قال تعالى: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ *} [الأنعام: 31] .

وقال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *} [الأعراف: 187] .

وقال تعالى : {أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ *} [يوسف: 107].

وقال تعالى: {بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ *} [الأنبياء: 40] .

وقال تعالى: {وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ *} [الحج: 55] .

وقال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا *فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا *إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا *إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا *كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا *} [النازعات: 42 - 46] .

والآيات في الكتاب العزيز كثيرة جداً عن الساعة وأنه لا يعلم أحد موعدها . وفي حديث جبريل المشهور الذي أخرجه البخاري والذي رواه عمر بن الخطاب قال : (أي جبريل وهو

السائل في صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يعرفه أحد): «متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل! فقال: أخبرني عن أماراتها؟ قال: أن تلد الأمة ربّتها وأن ترى الحفاة العراة العالة يتطاولون في البنيان».

يسوع والشيطان:

وفي إنجيل متّى عندما امتحن الله يسوع بالشيطان وأراه الشيطان جميع ممالك الأمم ومجدها وقال له: «أعطيك هذه جميعها إن خَرَرْتَ وسجدت لي . حينئذٍ قال له يسوع : اذهب يا شيطان لأنه مكتوب: للربّ إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد» (إنجيل متّى 8/4 - 10).

وبما أن عيسى جاء لبني إسرائيل خاصة، وكان بنو إسرائيل قد فسدوا و خاصة علماؤهم وأحبارهم فإنه وجّه كلامه إلى المساكين والضعفاء وبشّرهم بملكوت الله وشدَّد النكير على أولئك الفسقة من الأحبار والكَتَبة الذين يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً.

طوبى للمساكين:

ففي موعظة الجبل (متّى 1/5 - 12) «ولما رأى الجموع صعد الجبل .. قائلاً: طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات . طوبى للحزانى لأنهم يتعزّون . طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض. طوبى للجياع والعِطاش إلى البرّ لأنهم يشبعون . طوبى للرحماء لأنهم يرحمون . طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله . طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون. طوبى للمطرودين من أجل البرّ لأن لهم ملكوت السموات . طوبى لكم إذا عَيَّروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين . إفِرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السموات فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم».

وقوله: (لأنهم أبناء الله يُدْعَون) يوضح أنه يقصد المعنى المجازي وأن كل ما ورد من قوله: أبي وأباكم إنما يقصد هذا المعنى. وهذا ينفي ما يزعمونه من بنوة يسوع لله، تعالى الله عنه ذلك علواً كبيراً. وإنما المعنى مثل قوله : «الخلق عيال الله، وأحبّهم إليه أنفعهم لعياله » فالخلق جميعاً عالة عليه وحده، وهو يرزقهم ويحييهم ويميتهم، فسبحانه مِنْ إله قدير حليم كريم!.

وتستمر موعظة الجبل وهي أول مواعظ يسوع المسيح كما أوردها متّى (تختلف في كثير من التفاصيل عن الأناجيل الأخرى) ويؤكد لهم أنه ما جاء لينقض الناموس والشريعة ولا يغيّر في أحكامها، ولكنه ييسر بعض الأحكام ويشدّد في بعضها، قال يسوع : «لا تظنّوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء (أي أسفار الأنبياء وتعاليميهم). ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل» (متّى 18/5، 17).

تشديد بعض الأحكام:

ثم يشدد يسوع بعض الأحكام عليهم بسبب غِلْظة قلوب بني إسرائيل فيقول: «قد سمعتم أنه قيل للقدماء: لا تقتل. ومن قتل يكون مستوجب الحكم (وهو القصاص). وأما أنا فأقول لكم: إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجباً الحكم، ومن قال لأخيه : رقا يكون مستوجباً

المجمع، ومن قال: يا أحمق يكون مستوجباً نار جهنم. فإن قدَّمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً فاترك هناك قربانك قدام المذبح واذهب أولاً تصطلح مع أخيك (يركز اليهود على أهمية القربان ويرونه أهم العبادات، ولكن يسوع يوضح لهم أهمية المودة والمحبة وأنها تفوق بكثير تقدمة القربان عند الله) وحينئذٍ تَعالَ وقدّمْ قربانك . كن مراضياً لخصمك سريعاً ما دمت معه في الطريق» (متّى 21/5 - 25).

تعاليم يسوع عن الزنا وتعاليم الكنيسة اليوم (فسق رجال الكنيسة):

يقول لهم يسوع: «قد سمعتم أنه قيل للقدماء: لا تزن. أما أنا فـأقول لكم: إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه، فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك؛ لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم . وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك؛ لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك كله في جهنم» (متّى 27/5 - 30). وقد جاء في الوصايا العشر : «لا تَزْنِ.. لا تَشْتَهِ امرأة قريبك » (سفر الخروج 14/20 - 17).

ولكن انظر إلى مجلس الكنائس البريطاني الذي أصدر تقريراً عن الجنس ونشرته مجلة التايم الأمريكية في عددها الصادر 28 أكتوبر 1966م (ص 38)، وقد جاء في هذا التقرير : «إن مجلس الكنائس البريطاني ضد الاستغلال الجنسي، ويبارك الصلة الجنسية في الزواج، ولكنه يرفض رأي الإنجيل الداعي إلى العفة قبل الزواج أو الالتزام به بعده . ويدعو إلى التراخي في إجراءات الإجهاض (سمح به البرلمان البريطاني بعد هذه الدعوة عام 1967م) وإلى استخدام وسائل منع الحمل للفتيات الصغيرات ولو بدون إذن أهلهن».

وهو أمر فظيع فظيع، فكيف يقرر مجلس الكنائس البريطاني أنه يرفض رأي الإنجيل في العفّة، وتبلغ به الوقاحة أن يردَّ كلام الله على لسان يسوع الذي يعتبرونه ابن الله، الأقنوم الثاني في الثالوث الإلهي المقدس !!. وكيف يبلغ بهم التحدّي لأوامر دينهم فيسمحون بالزنا قبل الزواج، وبعده وأثناءه . كما يطالبون بالسماح بالإجهاض وقتل الأجِنَّة البريئة بسبب انتشار الزنا، والمفروض أنهم أشدّ الناس معارضة للإجهاض، ولكنهم سبقوا حتى ما يُسمَّى الليبراليين، وكانت دعوتهم للإجهاض المقدمة لإباحته من البرلمان البريطاني عام 1967م. وتبلغ بهم الصفاقة إلى السماح باستخدام وسائل منع الحمل للفتيات الصغيرات، ولو بدون إذن أهلهن مساهمة منهم في نشر الفاحشة على أوسع نطاق.

ثم إنهم لم يكتفوا بذلك كله، بل سمحوا بالزنا بين الرهبان والراهبات، وأضافوا إليه إباحة الشذوذ الجنسي بين رجال الكنيسة، والمساحقة بين نسائها [1] . ولم يتركوا رذيلة من الرذائل إلا فعلوها.. ولا شكَّ أنهم فاسقون كما أخبرنا المولى سبحانه وتعالى عنهم: {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّ ا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ *} [المائدة: 59] .

---

(1)اختارت الكنيسة الانجليكانية في الولايات المتحدة: شخصاً أقرّ لهم بشذوذه الجنسي وأنه سيستمر في ذلك، انتخبوه رئيساً للكنيسة في الولايات المتحدة بأكملها!!.

وقوله تعالى: {وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *} [المائدة: 47] ، وقوله تعالى : {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا واتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ *وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ *} [المائدة: 65، 66] .

والقرآن الكريم العظيم الجليل لم يقل : إنهم كلهم فاسقون، بل إن كثيراً منهم فاسقون . ولا يزال كثيرٌ من النصارى وخاصة في المشرق يبتعدون عن الزنا والخنا ولا يوافقون نصارى الغرب في إباحيتهم وتحدّيهم لأقوال التوراة والإنجيل .. وفسقُ رجال الكنيسة يملأ المجلدات ويزكم الأنوف . وقد ثارت قضايا كبيرة من اعتداءات البابوات أنفسهم، وإذا علمنا أن الكاردينال روتشيلو (1585م - 1642م) حاكم فرنسا القوي كان مصاباً بمرض الزهري فإننا لا نستغرب أن تنشر مجلة نيوزويك الأمريكية في عددها الصادر 1974/7/1م أن أحد كبار كرادلة فرنسا مات وهو في أحضان إحدى العاهرات.

وقد نشرت مذكرات إحدى العاهرات في فرنسا فجاء فيها : أن من عشّاقها أسماء ثلاثة بابوات وأحد عشر كاردينالاً. ونشرت صحيفة الديلي ميل البريطانية عام 1970م تحقيقات عن زنا الرهبان والراهبات، وجاء فيها : أن 80 بالمئة من الرهبان والراهبات ورجال الكنيسة يمارسون الزنا، وأن 40 بالمئة منهم أيضاً يمارسون الشذوذ الجنسي (اللواطة والمساحقة). وكانت عائلة بورجيا التي تولى منها البابوية اثنان مغرقة في الزنا ونكاح المحارم، وقد جاء ما يلي عن عائلة بورجيا في دائرة المعارف البريطانية[1] .

«تمثل عائلة بورجيا البابوات الفسقة الذين ظهروا في القرون الوسطى أصدق تمثيل، ومنهم البابا الإسكندر السادس، حكم في البابوية من عام 1492م إلى عام 1503م. اسمه رودريجو بورجيا، ولد في إسبانيا من عائلة غنية عام 1431م وكان عمه ألونسودي بورجيا رئيس أساقفة فالنسيا في إسبانيا ثم صار كاردينالاً.

«وهو الذي أشرف على تربيته وتعليمه وأهلّة للدخول في سلك الكهنوت والإكليروس . وأقطعه عمه دخل ا لرتبة الكنسية الهامة، ولمّا يزل في سن المراهقة وعندما تسنّم عمه ألونسودي بورجيا عرش البابوية في روما قام بتعيين ابن أخيه الشاب (25 عاماً) في منصب كاردينال (وهو منصب رفيع جداً في الكنيسة الكاثوليكية. ويحق لمجلس الكاردينالات اختيار البابا عند فراغ المنصب . ولا يعيّن البابا إلا من هؤلاء الكاردينالات). وأصبح رودريجو نائب رئيس الكنيسة في العالم الغربي (Vice Chancellor) (لم تكن البروتستانتية قد ظهرت) وبالتالي استطاع جمع ثروة ضخمة، وكان يعيش عيشة البذخ والفجور . وكان له العديد من العشيقات، والعديد من الأولاد غير الش رعيين الذي يعدّون بالعشرات » (لم تكن هناك وسائل لمنع الحمل في ذلك الزمن).

«وكانت عشيقته المفضلة الإسبانية النبيلة فانوزا كاتاني (Vanoza Catanei) التي أنجبت له أربعة أطفال، اعترف بهم فيما بعد . وهم جوان وقيصر (سيزر) وجوفري

(1)دائرة المعارف البريطانية: الطبعة 15، لعام 1982م، المجلد 467/6، مادة: البابا الإسكندر السادس.

ولوكريزا الفاتنة . (رغم أن الكنيسة الكاثوليكية تحرّم على القسس والرهبان والراهبات الزواج) وكان هذا الكاردينال الفاسق الداهية يبيع المناصب الكهنوتية العالية لمن يدفع الثمن، واستطاع بالرشوة أيضاً أن يحصل على عرش البابوية في 10 أغسطس 1492م في الفاتيكان». وعند توليه عرش البابوية حارب الدولة العثمانية وساند الحملات الصليبية، وبارك ما تفعله إيزابيلا وزوجها فرديناند في إسبانيا من حرب إبادة للمسلمين، وتنكر لكل المعاهدات والاتفاقيات. ودخل بعد ذلك في منافسات وحروب مع ملك فرنسا شارلز الثامن، وحروب ظاهرة وخفية مع كاردينال من أسرة ديلا روفر التي حاولت عزله والإطاحة بعرشه. ولمواجهة المخاطر اتصل البابا بعدوه اللدود بايزيد الثاني، السلطان العثماني ليواجه مكايد ملك فرنسا واستطاع هذا الداهية أن يضطر ملك فرنسا للانسحاب كلياً من إيطاليا.

ثم نصّب البابا ابنه المراهق سيزار كاردينالاً كما فعل عمه من قبل وعيّن شقيق عشيقته المفضلة جوليا بيلا كاردينالاً الذي صار فيما بعد البابا بولس الثالث وعين 47 كاردينالاً من أنصاره وممن دفعوا الثمن (عشيقة، أموال، خدمات معينة).

ووزع المناصب على أولاده، وزوجهم من أميرات ذوات نفوذ وكذلك فعل مع ابنته اللعوب لوكيرزا التي زوجها لجيوفاني سفورزا حاكم ميلانو، وعندما وجده غير ذي نفع ألغى هذا الزواج بقانون كنسي، ثم زوجها إلى الأمير الفونسو حاكم مقاطعة أرجون في أسبانيا. ثم تزوجت بعد ذلك دوق مقاطعة فيرارا . والمشكلة والفضيحة الكبرى أن لوكيرزا كانت على علاقة محرّمة مع كلٍّ من أبيها البابا المهيب، وأخيها سيزار الكاردينال، وقد أنجبت لوكيرزا من أبيها طفلاً..!!.

واشتعلت النيران في بيت الفسق والفجور فقتل سيزار أخاه الأكبر جوان في 14 يونيه 1497م. وصُدم البابا فأوقف بيع المناصب الكهنوتية، ومنع اتخاذ العشيقات والمحظيات لرجال الكهنوت مما أدى إلى مواجهات مستعرّة ضد رجال الكهنوت الفسقة الذين جاء بهم وأعطاهم المناصب. وكان هو بفسقه وفجوره مثلهم الأعلى، ودخل في حرب مع الراهب الدومينكاني (الفريري) جيرولامو سافونا رولا الذي اغتصب السلطة في فلورنسا، إحدى أهم المدن الإيطالية سنة 1494م. والذي قام بحملات متتالية تنعي فساد البابا وعائلته وكرادلته . ولكن البابا بدهائه استطاع بمؤامرة دنيئة أن يغتال عدوه اللدود الراهب الدومينكاني جيرولامو سافونا رولا عام 1498م.

وقام سيزار في نفس العام بالزواج من شارلوت ألبرت الفرنسية ليوطد العلاقة مع ملك فرنسا لويس الثاني عشر، وذلك بعد أن ألغى البابا زواجه السابق (لا تسمح الكنيسة بإلغاء الزواج إلا بثبوت الزنا). واستطاع سيزار الذي تفوق على أبيه في الفجور والمؤامرات والرشاوى والاغتيالات أن يحكم شمال إيطاليا لدرجة أن ميكافيلي المؤلف المشهور وضع كتابه (الأمير) مستوحياً إياه من حياة سيزار ومؤامراته.

وفي نفس الوقت قام والده البابا بالتحالف مع فرديناند وإيزابيلا ملكَي إسبانيا وقشتالة وأعطاهما لقب ملكين كاثوليكيين. وقسّم ممتلكات العالم الجديد (أمريكا الجنوبية والوسطى) بين الإسبان والبرتغال، وأعطاهما سلطات واسعة في تلك الأصقاع باعتبارهم ممثلين للبابا

نفسه. وحاولت البابوية في العصور الحديثة تلميع صورة البابا الإسكندر السادس إلا أن كل تلك المحاولات باءت بالفشل، وظلت صورة البابا الإسكندر السادس تمثل مجموعة البابوات الفسقة الفسدة القتلة في أبشع صورها.

ومن الغريب حقاً أن نجد في هذا العصر شخصاً متديّناً ومتمسكاً بتعاليم يسوع وينفّذها حرفياً على نفسه وذلك في الولايات المتحدة . فقد جاء في الكتاب المرجع (أساسيات الأخلاقيات الطبية الحيوية) [1]: قصة شاب في السابعة والعشرين من عمره قام أول مرة بقلع عينه عام 1969م، لأنه يطبق تعاليم يسوع التي جاءت في إنجيل متّى فأُدخل مست شفى المجانين وبقي فترة طويلة، وكان سلوكه مثالياً، ثم سمح المستشفى بإخراجه، ولكنه قام في يونيه 1971م بقطع يده اليمنى بناء على أوامر يسوع الذي تراءى له، لأنه سرق من أحد المتاجر ولم ينتبه له أحد . فقام بتطبيق تعاليم يسوع، فأُدخل مستشفى المجانين مرة أخرى، وبقي فيه فترة طويلة. وهو يصرُّ على أنه سليم عقلياً وأنه يقوم فقط بتنفيذ ما أمره به يسوع . والمستشفى يقر بأن سلوكه مثالي، وفي منتهى العقل، ولكنه يقرُّ أيضاً بأن الرجل لا يزال يشكل خطراً على نفسه، وربما على غيره عندما يعتقد أنه ينفّذ أوامر يسوع.. وطالت المشكلة بين الأهل الذين يطلبون إبقاءه في المستشفى وبين الأطباء الذين يرون أنه لا يعاني من أي جنون. ثم ظهرت مشكلة من يدفع تكاليف المستشفى وتكاليف العلاج؟ وقد أعلن الأهل أنهم لا يستطيعون الاستمرار في دفع الفواتير الباهظة... إلخ.

والمقصود من هذه القصة وإيرادها ها هنا ه و أن من يقوم بتنفيذ تعاليم يسوع يعتبره المجتمع الحديث مجنوناً، ولا بد من إدخاله مستشفى الأمراض العقلية!! وأن من يقوم برفض تعاليم يسوع يعتبر إنساناً عاقلاً، بل إن الكنائس المسيحية التي تدّعي أنها تعبد اليسوع، وتتبعه تقوم علناً برفض تعاليم اليسوع، وتنكرها وت سخر منها . ولم يكتفِ هؤلاء القُسُس والأحبار بالزنا واللواطة والمساحقة ولكنهم أضافوا إلى ذلك الاعتداء الجنسي على الأطفال، وقد ازداد الاعتداء الجنسي على الأطفال في الكنائس لدرجة أثارت الرعب، وأدت إلى حملات ضخمة ضد الكنيسة في الولايات المتحدة وأستراليا وإيرلند ة. وقد جمعت من الإنترنت أكثر من 200 صفحة عن اعتداء رجال الكنيسة على الأطفال جنسياً، وأن يقوموا رسمياً بتزويج الرجال على الرجال والنساء على النساء في كنائس خاصة تسمح بذلك العفن.. وفي 7 أغسطس 2003م تم تعيين شخص (يدعى جين روبنسون) يعلن شذوذه الجنسي ويدخل الكنيسة مع عشيقه، تم تعيينه مطراناً وأسقفاً في الكنيسة الأسقفية في الولايات المتحدة . وهي إحدى الكنائس الإنجليكانية التي يرأسها رئيس الأساقفة في كانتربري في بريطانيا وقد تم انتخابه بأغلبية 62 صوتاً ضد 45 من المعارضين وذلك في الكنيسة الأسقفية (Episcopal Church) ليصبح الأسقف والمطران لولاية نيوهامبشير الأمريكية [2].

---

(1) T.Beauchamp, J.Childress: Principles Of Biomedical Ethics 2nd edition, Oxford University Press, New York, Oxford, 1983, PP295-296 .

(2)وقد ورد في (تخجيل من حرّف التوراة والإنجيل) للقاضي أبي للبقاء صالح بن الحسين الجعفري : أن النصارى أرادوا تنصيب رئيس لهم (بطريركاً)، فجاء أحد كبار القساوسة واعترف بأنه كان مع هذا البطرك يلوطان ببعض ويفعلان الفاحشة، أي أن الأمر قديم جداً فيهم. تحقيق د. محمود عبد الفتاح قدح، مكتبة العبيكان، الرياض، 1998م، 595/2.

وقد نشرت صحيفة نيوستريت تايمز الماليزية في عددها الصادر 2 أكتوبر 2003م صفحة (22) نقلاً عن وكالة الأنباء أن الحكومة الإيرلندية تواجه معضلة دفع تعويضات تبلغ بليون يورو كتعويضات لضحايا الاعتداء الجنسي الذي يقوم به رجال الكنيسة الكاثوليكية في إيرلندا ضد الأطفال هناك منذ فترة الثلاثينات من القرن العشرين . وقد وافقت الكنيسة الكاثوليكية على دفع 128 مليون يورو كتعويض للمتضررين من اعتداءات رجال الكنيسة الجنسية على الأطفال. وستواجه الكنيسة أكثر من 10800 دعوى جديدة بالتعويضات نتيجة اعتداءات رجال الكنيسة على الأطفال في ذلك البلد، وهو ما يرفع مبالغ التعويض إلى بليون يورو لا تستطيع الكنيسة دفعها، ومطلوب من الحكومة أن تتولى هي الدفع نيابة عنها!!.

وهناك حملة ضخمة عام 2010 على البابا والكنيسة الكاثوليكية في الإعلام الغربي بسبب انتشار اعتداء القسس والرهبان على الأطفال جنسيا .

الحلف بالله:

يقول يسوع في موعظة الجبل: «سمعتم أنه قيل للقدماء : لا تحْنَثْ بل أَوْفِ لربك إقسامك . وأما أنا فأقول لكم : لا تحلفوا البتة لا بالسماء لأنها كرسي الله، ولا بالأرض لأنها موطىء قدميه، ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك ال عظيم. ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء ولا سوداء بل ليكن كلامكم نعم نعم، لا لا . وما زاد على ذلك فهو من الشرير». [متّى33/5 - 37] .

التسامح ومن لطمك على خدك الأيمن فأعطه الأيسر وموقف الكنيسة المغاير:

يقول يسوع: «سمعتم أنه قيل: عين بعين وسنّ بسنّ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوِّلْ له الآخر أيضاً . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً. ومن سخّرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين . من سألك فأعطه . ومن أراد أن يقترض منك فلا تَرُدَّه». [متّى 38/5 - 42] .

وهذا لا شك أقسى وأصعب التوصيات والأوامر التي لم تنفَّذ قط عند أتباع عيسى على مدى ألفي عام. بل كانوا في منتهى الظلم، والهمجية، والبربرية، وسفك الدماء البَرِيَّة . فمن ذا الذي يستطيع أن ينفذ تعاليم يسوع: «أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات». [متّى 43/5 - 45] .

وعندما تمكّن النصارى واستطاعوا أن يقنعوا قسطنطين الإمبراطور بالانضمام إليهم وصاروا رجال دولته فإنهم ما انفكّوا يعذّبون مخالفيهم، ومن أجل ذلك أضافوا إلى تعاليم يسوع المنادية بالبرِّ وبالمحبة وبالتسامح تعاليمَ أخرى نسبوها إليه تنادي بإبادة الأعداء (أما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فأتوا بهم إلى هنا، واذبحوهم قدّامي) . [لوقا 27/19] .

ويزعمون أنه قال: «جئت لألقي ناراً على الأرض، فماذا أريد لو اضطرمت؟ ولي صبغة أصبغها وكيف أنحصر حتى تكمل؟ أتظنون أني جئت لأعطي سلاماً على الأرض؟ كلا أقول لكم: بل انقساماً» . [لوقا 29/12 - 51] .

وقد بدأت الكنيسة هذه الحرب أو الأمر ضد من خالفوها وكانت لهم أناجيل تختلف عن الأناجيل الأربعة، وتجعل يسوع بشراً رسولاً فكفّروهم وطردوهم وسمُّوهم هراطقة. واستمرت موجات قتل الهراطقة في أوروبا إلى القرن الرابع عشر، فقد قُتل أكثر من عشرة آلاف شخص بتهمة الهرطقة في فرانكفورت ونورمبرج وغيرها من مدن ألمانيا بسبب ظهور بقع دموية على القربان الموجود في بعض كنائس ألمانيا، واعتبر ذلك دليلاً على وجود السحرة والمهرطقين الذين لا يحترمون تعاليم دينهم، فتمَّ في عام 1329م قَتْلُ أكثر من عشرة آلاف بريء بهذه التهمة.

وكانت محاكم التفتيش البابوية قد قتلت في إسبانيا وبقية أوروبا مئات الآلاف خلال قرون الظلام بتهمة قتل الهراطقة. وعندما استولى الإسبان على الأندلس الإسلامية قتلوا مئات الآلاف وشردوا الملايين ... واضطر جميع من بقي لدخول المسيحية، ورغم ذلك لحقتهم محاكم التفتيش، فقتلت الآلاف منهم إذا وجدت أن أحداً لم يأكل الخنزير، أو اختتن أحدٌ في بيته، أو قام بأي سلوك ينمّ عن انتمائه للحضارة الإسلامية، ولو كانت مجرد نوع من الطبخ أو أغنية من الأغنيات التي كانت موجودة في الأندلس.

وفي الحروب الصليبية قامت أوروبا في القرن العاشر والحادي عشر بذبح النصارى الموجودين في القسطنطينية لأنهم مخالفون لنصارى أوروبا الغربية، ثم كانت مذابحهم في المشرق مروعة، ويكفي أن نعرف أنهم قتلوا سبعين ألفاً من المصلين والملتجئين إلى المسجد الأقصى عند دخولهم إليه حتى وصلت الدماء عنان الخيل.

وعند وصول الأوروبيين إلى الأمريكيتين(الشمالية والجنوبية) كان فيهما ما يقرب من مئة مليون ممن يُسمُّون الهنود الحمر، وقام الرجل الأوروبي بقتل غالبية السكان، وفرض الدين المسيحي على من بقي منهم. ونحيل القارىء إلى كتاب هام في هذا الموضوع هو (المسيحية والسيف) بقلم المطران برثولومي دي لاس كازاس ترجمة سميرة عزمي الزين، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية (بيروت 1991م). وفيه تحدّث المؤلف عن مشاهداته للمذابح التي أقامها الإسبان ورجال الكنيسة للهنود الحمر في أمريكا الجنوبية، فكان هو أول كاهن يعيّن في البحر الكاريبي عام 1513م، ولم يقبل ضميره هذه المجازر الرهيبة للهنود الحمر فكتب كتابه إلى ملك أسبانيا يوضح له الحقائق ويطلب منه التدخل لإيقاف المذبحة الرهيبة، ولكن ملك أسبانيا لم يُعِر الأمر اهتماماً.

كما نحيل القارىء لكتاب صدر حديثاً في الولايات المتحدة بعنوان (الجانب المظلم من التاريخ المسيحي) للباحثة هيلين أليربي [1] التي أوضحت فيه جرائم القتل وسفك الدماء التي قام بها النصارى منذ أن انضم الإمبراطور قسطنطين إلى المسيحية، وتكوّن التحالف بين الإمبراطور ورجال الكنيسة، وتحوّلت الأعياد الوثنية إلى أعياد مسيحية، كما تحولت معظم الطقوس الوثنية إلى طقوس مسيحية، وتم إعدام المخالفين. واستمر الاضطهاد بين المسيحيين أنفسهم حتى إن الكنائس الشرقية عانت معاناة شديدة من الكنائس الإمبراطورية (المذهب

---

(1) Hellen Ellerbe: The dark side of christian History, 1995, Morning star and Lark, Orlando, U.S.A.

الملكاني).. وكان أتباع نسطور واليعاقبة في الشام والعراق ومصر يعانون الاضطهاد والتعذيب على يد رجال المذهب الملكاني، وكان ذلك من أسباب مناصرة المسلمين وتأييدهم عندما جاءت جيوش الفتح في عهد عمر بن الخطاب . ويكفي أن نعرف أن جيش عمرو بن العاص الذي غزا به مصر كان مكوَّناً من أربعة الآف مقاتل فقط وكان في مصر من الرومان أكثر من مئة ألف مقاتل، وسكان مصر آنذاك من القبط عشرون مليوناً.. ورغم العدد الضئيل لجيش عمرو بن العاص (زاده عمر إلى اثني عشر ألفاً) إلا أنه استطاع أن يهزم الروم شرَّ هزيمة وذلك بسبب تعاون الأقباط معه وترحيبهم به، وتقديمهم كل معاونة ممكنة حتى إن بعضهم قاتل معه فعلياً، وأمدّه الآخرون بالمِيرة، كما دلوه على مكان العدو ومواقع الغرّة منه.

وتاريخ النصرانية في أوروبا تاريخ دماء، فكم من الحروب قامت بين الفرق المسيحية المختلفة، وكم من الحروب قامت بين ملوك أوروبا والبابوات.. .. ثم كم من الحروب المدمرة قامت بين البروتستانت والكاثوليك (حرب المئة عام، حرب الثلاثين عاماً، حرب الروزيس .. إلخ).. وآخر هذه الحروب حرب الكاثوليك ضد البروتستانت في إيرلندة الشمالية والتي لا تزال تستعر من حين لآخر حتى اليوم. وتاريخ البابوية والكنيسة في أوروبا تاريخ مظلم شديد الظلام، فاسد شديد الفساد، ولم تقلّ عنه الحركة البروتستانتية دموية.. وهتلر وموسوليني كانا مسيحيين متعصبين، وكذلك كان الحلفاء، وقد قُتل في الحرب العالمية الثانية أكثر من خمسين مليون شخص. والقائمون بهذه الحرب على كلا الجانبين كانوا من المسيحيين وكلاهما يرفع الصليب وإن كان أحدهما معقوفاً والآخر غير معقوف. وكان رجال الثورة الفرنسية يقولون : اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس.

تنديد يسوع بالمرائين ودعوته إلى الزهد:

كان في زمن يسوع مجموعة من الفرق اليهودية، نَدَّدَ يسوع منها بفرقة الفريسيين والكتبة الذين اشتُهروا بالتظاهر بالدين والتشدد فيه وكثرة الرياء والتظاهر فيه. كما ندَّد يسوع بفرقة الصادوقيين الذين ينكرون القيامة والبعث، فمنهم رئيس الهيكل حنانيا وقريبه قيافا، وكانوا موالين للرومان، ومن قبل لليونان وثقافتهم إلى حد كبير هيلينستية (يونانية) وعلاقتهم بالدولة قوية، ويعلنون لها الولاء، على عكس الفريسيين الذين كانوا يكرهون الرومان ومنهم ظهر المتعصبون أو القناؤون أو السفاكون الذين ثاروا عدة مرات على الدولة، وأثاروها حرب عصابات ضد الدولة الرومانية الوثنية التي أمرت بتقديم القرابين إلى الإمبراطور والآلهة. ومن الفرق اليهودية في زمن يسوع فرقة السامرة الذين اعتزلوا في السامرة (نابلس)، وكان لهم هيكلهم الخاص في جبل جرزيم، وينكرون هيكل القدس ولا يؤمنون من العهد القديم إلا بالأسفار الخمسة الأولى (أي أسفار موسى الخمسة المعروفة باسم التوراة). والسامريون هم خليط من اليهود الذين بقُوا في فلسطين بعد النفي إلى بابل واختلطوا بالآشوريين وغيرهم وتزاوجوا منهم فاحتقرهم اليهود لذلك.

يقول يسوع لأتباعه أن يحذروا الرياء : «احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدّام الناس لكي ينظروكم، وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السموات . فمتى صنعت صدقة فلا تصوّت قدامك بالبوق كما يفعل المراؤون في المجامع والأزِقَّة لكي يمجّدوا من الناس . الحق

أقول لكم: إنهم قد استوفوا أجرهم. وأما أنت فمتى صنعت صدقة فلا تُعرّف شمالك بما تفعل يمينك؛ لكي تكون صدقتك في الخفاء، فأبوك الذي يراك في الخفاء هو الذي يجازيك في العلانية.

«متى صلّيت فلا تكن كالمرائين فإنهم يحبون أن يصلّوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس. الحق أقول لكم: إنهم قد استوفوا أجرهم. وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك، وصلِّ إلى أبيك الذي في الخفاء؛ فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك في العلانية...».

«ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين؛ فإنهم يغيّرون وجوههم لكي يظهروا للناس صائمين، الحق أقول لهم: إنهم قد استوفوا أجرهم. وأما أنت فمتى صمت فادهَنْ رأسك واغسل وجهك لكي لا تظهر للناس صائماً، بل لأبيك الذي في الخفاء، فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية».

«لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يُفسِدُ السوس والصدأ، وحيث ينقِّبُ السارقون ويسرقون. بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد السوس ولا صدأ وحيث لا ينقب السارقون... فإن كان النور الذي فيك ظلاماً فالظلام كم يكون»!!.

«لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ؛ لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال؛ لذلك أقول لكم: لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون. أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس؟ انظروا إلى طيور السماء، إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، وأبوكم السماوي يقوتها. ألستم أنتم بالحري أفضل منها؟ ولماذا تهتمون باللباس؟ تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو لا تتعب ولا تغزل. ولكن أقول لكم: إنه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها. فإن كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم ويطرح غداً في التنور يلبسه الله هكذا أفليس بالحري جداً يلبسكم أنتم يا قليلي الإيمان؟ فلا تهتموا قائلين : ماذا نأكل؟ أو ماذا نشرب؟ أو ماذا نلبس؟ لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه وهذه كلها تزاد لكم . فلا تهتموا للغد لأن الغد يهتم بما لنفسه، يكفي اليوم شرّه» (متّى: الإصحاح السادس).

وهذه دعوة للزهد وعدم الرياء في قوم من اليهود اشتُهروا بالرياء وحبِّ المال حتى عبدوا العجل الذهبي . وقليل من المسيحيين على مدى التاريخ التزموا بهذه التعاليم وكان منهم قسيسون ورهباناً لا يستكبرون .. وأما غالبيتهم بما فيهم البابوات فاكتنزوا المال وعبدوه، وجعلوه إلههم الأول، واستعبدوا العالم من أجله واجترحوا جميع الموبقات في سبيله، وقتلوا وسفكوا الدماء، ونشروا الفساد في الأرض، واستعبدوا الأمم ولا يزالون . وهم يدّعون أنهم أتباع يسوع المسيح؛ فما أبعدهم عن يسوع وعن تعاليمه!.

قال تعالى يصف ما يفعلون : {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ *يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ *} [التوبة: 34، 35] .

لا تدينوا الناس:

وجّه يسوع إلى تلاميذه وأتباعه الدعوة إلى أن لا يدينوا الناس حتى لا يُدانوا قائلاً : «لا تدينوا لكي لا تدانوا؛ لأنكم بالدينونة التي تدينون بها تُدانون، وبالكيل الذي به تكيلون يُكال لكم. لماذا تنظر القذى في عين أخيك وأما الخشبة التي في عينك فلا تفطن لها؟ يامراءٍ أخرج الخشبة أولاً من عينك، وحينئذٍ تبصر جيداً أن تخرج القذى من عين أخيك . لا تعطوا القدس للكلاب.. ولا تطرحوا درركم قُدّام الخنازير».

الجدُّ والاجتهاد في الطلب من الله:

«اسألوا تُعْطَوا، اطلبوا تجدوا. اقرعوا يُفتَحْ لكم لأن كل من يسأل يأخذ، ومن يطلب يجد، ومن يقرع يفتح له». [متّى 1/7 - 8] .

ويشرح لهم أن يطلبوا من الله وأن يجتهدوا في قرع الباب فإن الله كريم لا يرد من سأله . ثم ينبههم يسوع من الأنبياء الكذبة قائلاً : «احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحِملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة. فمن ثمارهم تعرفونهم، هل يجنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً؟... فكل من يسمع أقوالي هذه ويعمل بها أشبّهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر، فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبّت الرياح، ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط، لأنه كان مؤسَّساً على الصخر، وكل من يسمع أقوالي ولم يعمل بها يُشبّه برجل جاهل بنى بيته على الرمل، فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبّت الرياح، وصدمت البيت فسقط، وكان سقوطه عظيماً». [متّى 15/7 - 37] .

وقال يسوع للتلاميذ: «مجّاناً أخذتم مجّاناً أعطوا . لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم. ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصياً؛ لأن الفاعل مستحق طعامه . وأية مدينة أو قرية دخلتموها فافحصوا من فيها مستحق، وأقيموا هناك حتى تخرجوا، وحين تدخلون البيت تسلِّمون عليه» . [11/10 - 12] .

بشارات بالنبي محمد :

جاءت بشارات بالنبي محمد في أسفار العهد القديم، ولكن كُتَّاب العهد الجديد جعلوها في عيسى . ومن ذلك ما في (متّى 14/12 - 22): «فلما خرج الفريسيون تشاوروا عليه لكي يهلكوه، وانصرف من هناك، وتبعته جموع كثيرة فشفاهم جميعاً وأوصاهم أن لا يظهروا . لكي يتم ما قيل بأشعياء النبي القائل: هوذا فتاي الذي اخترته . حبيبي الذي سُرَّ ت به نفسي . أضع روحي عليه فيخبر بين الأمم بالحق، لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحد في الشوارع صوته. قصبة مرضوضة وفتيلة مُدخّنة لا يطفيء، حتى يخرج الحق على النصرة وعلى اسمه يكون رجاء الأمم».

فقد جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص وإنه لموصوف في التوراة بمثل ما ه و موصوف به في القرآن .فقد أخرج البخاري في صحيحه أن عبد الله بن عمرو بن العاص عندما سئل عن وصف النبي في التوراة (وكان عبد الله يقرأ التوراة والكتب القديمة) فقال: «أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَا كَ

شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا *} [الأحزاب: 45] ، وحرزاً للأميين، فأنت عبدي ورسولي، سمّيتك المتوكل. ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق . ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله، فيفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صُمّاً وقلوباً غُلْفاً» [1].

وجاء في إنجيل متّى (42/21 - 44): «قال لهم يسوع: «أما قرأتم قط في الكتب : الحجر الذي رفضه البنّاؤون هو قد صار رأس الزاوية، من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا. لذلك أقول لكم: إن ملكوت الله يُنزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره . ومن سقط على هذا الحجر يترضض، ومن سقط هو عليه يسحقه ». فالحجر الذي رفضه البناؤون (بنو إسرائيل) هو إسماعيل وأولاده، ومنه يخرج محمد فيصبح هو رأس الزاوية في بناء الأنبياء العجيب. وتنزع النبوة من بني إسرائيل وتُعطى لبني إسماعيل فيق ومون بالدين خير قيام . ويصبح هذا الدين مثل الصخرة من سقط عليه يترضض. وأما من وقعت عليه الصخرة فهو يُسْحَق.

جاء في إنجيل متّى (24/21): «إن ملكوت الله يُنزع منكم (أي اليهود) ويعطى لأمة تعمل أثماره». وهم المسلمون الذي حملوا دين الله إلى كافة أصقاع الأرض.

وجاء في إنجيل يوحنا (5/6 - 14): «وأما الآن فأنا ماضٍ إلى الذي أرسلني، ليس أحد منكم يسألني: أين تمضي؟ لكن لأني قلت لكم هذا قد ملأ الحزنُ قلوبكم، لكني أقول لكم الحقّ : إنه خير لكم أن أنطلق؛ لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزّي (باليونانية البارقليط أو الفارقليط . قالوا: إن ترجمتها الأكثر حمداً أو أحمد)».

«ولكن إن ذهبت أرسله إليكم . ومتى جاء ذاك يبكّت العالم على خطيّة وعلى برٍّ وعلى دينونة. أما على خطيّة فلأنهم لا يؤمنون بي . وأما على برٍّ فلأني ذاهب إلى أبي (بالمعنى المجازي) ولا ترونني أيضاً. وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين».

«إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحقّ؛ لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية. ذاك يمجدّني لأنه يأخذ ممّا لي ويخبركم».

وتدلُّ لكلمات يسوع على أنه قد بُشر بالرسول محمد وسمّاه الفارقليط (البارقليط) أي الأكثر حمداً أو أحمد، وهو مطابق لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَم يابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ *} [الصف: 6] .

ورسول الله لا يتكلم من عند نفسه بل بكل ما يسمع من الوحي يقول كما جاء عن عيسى . قال تعالى: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى *مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى *وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى *إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى *عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى *} [النجم: 1 - 5] . فهو لا ينطق عن الهوى، بل كل ما

(1)أخرجه البخاري : في صحيحه في كتاب البيوع (باب كراهية السخب في الأسواق)، وكتاب التفسير (وسورة الفتح الحديث رقم 2125 و4838).

يقوله له جبريل من الوحي يقوله ويعلنه . والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة جداً . والأحاديث النبوية في البخاري وغيره تشرح كيف كان يأتيه الوحي في أشكال متعددة مثل صَلْصَلَة الجرَس فَيَفْصمُ عنه وهو يتفصّد عرقاً في الجو البارد، أو يأتيه على هيئة رجل وبالذات على صورة دحية الكلبي، أو يأتيه في مثل النوم. ورأى جبريل على هيئته التي خلقه الله عليها مرتين، في أول البعثة وعندما أُسري به وعرج إلى السموات.

لهم أعين لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها:

وكان يسوع يكلِّمهم بالأمثال فقال له التلاميذ: «لماذا تكلمهم بأمثال؟ فأجاب وقال : لأنه قد أعطي لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت السموات، وأما لأولئك فلم يُعْطَ .. ومن أجل هذا أكلِّمهم بأمثال لأنهم مبصرون لا يبصرون، وسامعون لا يسمعون ولا يفهمون . فقد تمت فيهم نبوءة أشعيا القائلة: تسمعون سمعاً ولا تفهمون، ومبصرون تبصرون ولا تنظرون؛ لأن قلب هذا الشعب قد غَلُظ، وآذانهم قد ثَقُل سماعها وغمضوا عيونهم لئلا يبصروا بعيونهم، ويسمعوا بآذانهم، ويفهموا بقلوبهم ويرجعوا فأشفيهم. ولكن طوبى لعيونكم لأنها تبصر ولآذانكم لأنها تسمع». [متّى 10/13 - 16] .

وفي أعمال الرُسل (27/28، 26): «ستسمعون سمعاً ولا تفهمون، وستنظرون نظراً لا تبصرون . ولأن قلب هذا الشعب قد غلظ . بآذانهم سمعوا ثقيلاً، وأع ينهم أغمضوها؛ لئلا يبصروا بأعينهم، ويسمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم». وهذه الكلمات تشبه في معانيها ما ورد في القرآن الكريم عن هؤلاء الذين لهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، ولهم قلوب لا يفقهون بها، قال تعالى : {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ *} [الأعراف: 179] .

وقال تعالى: {وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ *} [الأعراف: 198] .

وقال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ *وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لاَ يُبْصِرُونَ *} [يونس: 42، 43] .

وقال يسوع عن الفريسيين الذين يعترضون عليه ويشدّدون في المظاهر ويتركون الجوهر: «اتركوهم. هم عميان، قادة عميان. وإن كان أعمى يقود أعمى يسقطان كلاهما في الحفرة». [متّى 14/15] .

وقد أكد يسوع أنه لم يرسل إلا لبني إسرائيل في أكثر من موضع في الأناجيل فعندما خرج يسوع إلى نواحي صور وصيدا (في جنوب لبنان) وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة: ارحمني يا سيد يا ابن داود، ابنتي مجنونة جداً . فلم يجبها بكلمة . فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا . فأجاب وقال : لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة . فأتتْ وسجدت له قائلة: يا سيّد أعنّي. فأجاب وقال : ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب . (كلام شديد لعلّه من وضع اليهود الذين تبعوا يسوع وليس من قول يسوع) فقالت : نعم يا سيد، والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من

مائدة أربابها. حينئذٍ أجاب يسوع وقال لها : يا امرأة، عظيم إيمانك، ليكن لك كما تريدين . فشُفيت ابنتها من تلك الساعة».

ويستخدم المسيحيون البروتستانت المعاصرون المتصهينون هذا الكلام من أجل دعم إسرائيل، وأن على المسيحيين أن يعملوا خدماً لدى اليهود ويأكلوا من فتات موائدهم.

ولم يعتبروا أن كفر اليهود ومحاولتهم قتل يسوع (وهم يعتقدون أنهم فعلاً صلبوه وقتلوه) قد أخرجهم من الامتيازات والخيرية التي كانت لهم بين الأمم، فأصبحوا بموقفهم الشائن ذلك أعداءً لله وللمسيح والبشرية قاطبة.

من تعاليم يسوع الحقّة حفظ الوصايا وثقل الغنى:

جاء في إنجيل (متّى 16/19 - 29): «وإذا واحد تقدم وقال له : أيها المعلم الصالح، أيّ صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية؟ فقال له : لماذا تدعوني صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد هو الله (المقصود أن كل البشر خطّاؤون وأن الصلاح المطلق الكامل هو الله وحده)، ولكن إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا، قال له: أية الوصايا؟ فقال يسوع : لا تقتل. لا تزن، لا تسرق، ولا تشهد بالزور، أكرم أباك وأمك، وأحب قريبك كنفسك . قال له الشاب : هذه كلها حفظتها منذ حدا ثتي، وماذا يعوزني بعد؟ قال له يسوع : إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبعْ أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني. فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة. فقال يسوع لتلاميذه: الحقّ أقول لكم : إنه يعسر أن يدخل غنيٌّ إلى ملكوت السموات. وأقول لكم أيضاً: إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله . فلما سمع تلاميذه بهتوا جداً قائلين : إذاً من يستطيع أن يخلّص؟ فنظر لهم يسوع وقال لهم : هذا عند الناس غير مستطاع، ولكن عند الله كل شيء مستطاعٌ».

وقد طلب يسوع من تلاميذه عندم ا تبعوه أن يتركوا أموالهم وأهليهم ويكونوا لله في كل شيء فتبعوه. وهم الحواريون الاثنا عشر، وأما الآخرون فلم يصلوا إلى هذه المرتبة . وكان الحواريون في أغلبيتهم من الفقراء والصيادين، ومنهم متّى العشّار فتاب، وتبع يسوع المسيح ولكن النصارى في كل زمان وفي كل مكان نبذوا تعاليم يسوع وسعوا وراء الأموال وخاصة الأحبار والرهبان، إلا من عصم ربك وهم قليل على مدى التاريخ.. فهل أمريكا وأوروبا التي تعبد المال مسيحية؟.

يسوع يندّد بالباعة والصيارفة في داخل الهيكل:

جاء في إنجيل (متّى 12/21 - 13): «ودخل يسوع إلى هيكل الله وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل، وقلب موائد الصيارفة، وكراسي باعة الحمام وقال لهم : مكتوب بيتي بيت الصلاة يُدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص».

ولم يكتف الأحبار من اليهود بتحويل الهيكل إلى مكان للباعة والصيارفة حيث كانوا يؤجِّرونه لهم ويأخذون منهم الأموال، بل بلغت بهم الوقاحة في بعض الفترات أن جعلوا في

الهيكل بغايا ومخنثين ليفعلوا بهم الفاحشة ويؤجرونهم ويأخذون منهم الأموال السحْت الحرام، حتى ندد بها أرميا وأشعيا.

لهذا كله كان يسوع شديداً على هؤلاء الأحبار الذين حولوا الهيكل إلى نجاسة، وبيت الله إلى دار نخاسة. فقال لهم: «الحقّ أقول لكم: إن العشّارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله لأن يوحنا جاءكم في طريق الحقّ فلم تؤمنوا به . وأما العشارون والزواني فآمنوا (وتابوا على يديه كما تاب كثير على يدي يسوع). وأنتم إذ رأيتم لم تندموا أخيراً لتؤمنوا به ». [متّى 31/21 - 32] .

إطعام الفقير والمسكين وكسوته وزيارة المريض وأجرها العظيم عند الله:

في يوم القيامة يتحدث الملك للذين عن يمينه قائلاً: «تعالوا يا مبارَكي أبي، رِثُوا الملكوت المُعَدَّ لكم منذ تأسيس العالم، لأني جعت فأطعمتموني، عطشت فسقيتموني . كنتُ غريباً فآويتموني ، عرياناً فكسوتموني، مريضاً فزرتموني، محبوساً فأتيتم إليّ . فيجيبه الأبرار قائلين : يا ربّ (بمعنى يا سيد) متى رأيناك جائعاً فأطعمناك، أو عطشاناً فسقيناك؟ ومتى رأيناك غريباً فآويناك أو عرياناً فكسوناك؟ ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك؟ فيجيب الملك ويقول لهم: الحقُّ أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد أخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم».

«ثم يقول للذين عن اليسار: اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدّة لإبليس وجنده؛ لأني جعت فلم تطعموني، عطشت فلم تسقوني، كنت غريباً فلم تأووني، عرياناً فلم تكسوني، مريضاً ومحبوساً فلم تزوروني. حينئذٍ يجيبونه هم أيضاً قائلين: يا رب متى رأيناك جائعاً، أو عطشاناً، أو غريباً، أو عرياناً، أو مريضاً، أو محبوساً فلم نخدمك؟ فيجيبهم قائلاً : الحقّ أقول لكم: بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر فبي لم تفعلوا فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي والأبرار إلى حياة أبدية». [متّى 31/25 - 46] .

وكلام يسوع هذا يذكرنا بما جاء في الحديث القدسي الذي رواه أبو هريرة وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه (4661) (كتاب البر / باب فضل عيادة المريض) قال: قال رسول الله : «إن الله يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، مرضتُ فلم تَعُدْني، قال: يا ربِّ كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تَعُدْه، أما علمت أنّك لو عُدْته لوجدتني عنده. يا ابن آدم استطعمتُك فلم تطعمني، قال: يا ربِّ وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمتَ أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه. أما علمت أن لو أطعمته لوجدت ذلك عندي . يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني، قال: يا رب كيف أسقيك وأنت ربّ العالمين؟ قال : استسقاك عبدي فلان فلم تَسقه. أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي».

قال الإمام النووي في شرحه لحديث مسلم: قال العلماء: إنما أضاف المرض إليه سبحانه وتعالى، والمراد العبد تشريفاً للعبد، وتقريباً له، قالوا : ومعنى (وجدتني عنده) أي وجدت ثوابي وكرامتي، ويدل عليه قوله تعالى في تمام الحديث: لو أطعمته لوجدت ذلك عندي، لو أسقيته لوجدت ذلك عندي، أي ثوابه، والله أعلم.

ونجد صدى قول يسوع: «لماذا تنظر القذى في عين أخيك وأما الخشبة التي في عينك فلا تفطن لها»؟! (متّى 3/7)، في قوله : «يبصر أحدكم القذى في عين أخيه وينسى الجذع في عينه» . أخرجه أحمد في مسنده عن أبي هريرة . وروى الديلمي عن أنس بن مالك قوله : «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس» . وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الم ماراة قوله : «إذا رأيتم الرجل موكَّلاً بذنوب الناس، ناسياً ذنبه، فاعلموا أنه قد مُكرِ به » ، رواه بكر بن عبد الله المزني.

محبة يسوع للأطفال ومحبة الرسول محمد لهم:

بينما كان يسوع يعظ الجموع قدّموا إليه أطفالاً لكي يلمسهم ويباركهم فمنعهم التلاميذ لكي لا يشغلوا يسوع عن موعظته فلما رأى يسوع ذلك اغتاظ وقال لهم: «دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم، لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله . الحقّ أقول لكم : لا يقبل الله مثل ولد فلن يدخله . فاحتضنهم ووضع يده عليهم وباركهم». [إنجيل مرقس 13/10 - 16] .

وهذا يذكرنا بصفات النبي ومحبته للأطفال وتقبيله لهم، وإنكار الأقرع بن حابس التميمي عندما رآه يقبّل الأطفال فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت أحداً منهم قط، يظن أن ذلك رجولة وقوة، فقال له الرسول الكريم البرّ الرحيم : «ما أصنع لك إن نزع الله الرحمة من قلبك» ، وفي رواية: «من لا يَرْحَم لا يُرْحَم» .

وكان يتجّوز (أي يسرع) في صلاته إذا سمع بكاء طفل وراءه، حتى لا يطول بكاؤه فتأخذه أمه. وكان يتألم عندما يرى طفلاً تُساء معاملته ويغضب عندما كانوا يدغرون أطفالهم عند التهاب اللوزتين. وكان يقول للأمهات : «علام تدغرن أطفالكن؟ (وكان الدغر يتم بآلة حادة تفتح بها مكان الصديد من اللوز الملتهبة فيسيل الدم والقيح من فم الطفل)، عليكن بالكست». [الكست الهندي] .

وكان يلعب مع أحد الأطفال ويسأله عن طير صغير كان يلعب به فيقول له : «يا أبا عمير ما فعل النغير؟» .

وكان يكسو الأطفال فإذا جاءته ألبسة حسنة كسا منها الأطفال .. وكان صلوات ربي عليه يسمح لهم حتى أن يعبثوا بخاتم النبوة بين كتفيه ويتركهم ويمنع أهلهم من نهرهم.

وهذه الصورة المشرفة الجميلة نراها في عيسى ، كذلك فالأنبياء أبناء علاّت أبوهم واحد وأمهاتهم مختلفات صلّى الله عليهم جميعاً.

قصة زكريا في الإنجيل مماثلة إلى حد كبير قصته في القرآن الكريم:

جاء في إنجيل (لوقا 7/1 - 22): «ولم يكن لهما ولد إذ كانت إليصابات (زوجة زكريا) عاقراً، وكان كلاهما متقدمين في أيامهما. فبينما هو يكهن في نوبة فرقته أمام الله حسب عادة الكهنوت، أصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الرب ويبخّر. وكان كل جمهور الشعب يصلّون خارجاً وقت البخور، فظهر له ملك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور، فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف. فقال له الملك: لا تخف يا زكريا لأن طلبتك قد سُمعت، وامرأتك إليصابات ستلد لك ابناً وتسميه يوحنا. ويكون ذلك فرح وابتهاج، وكثيرون سيفرحون بولادته

لأنه يكون عظيماً أمام الرب، وخمراً ومسكراً لا يشرب . ومن بطن أمه يمتلىء من الروح القدس. ويردّ كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم، ويتقدم أمامهم بروح إيليا وقوّته ليردّ قلوب الآباء إلى الأبناء، والعصاة إلى فكر الأبرار، لكي يهيىء للرب شعباً مستعداً . فقال زكريا للملك: كيف أعلم هذا لأني شيخ وامرأتي متقدمة في أيامها؟ فأجاب الملك وقال له : أنا جبرائيل الواقف قدام الله وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا . وها أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذي يكون فيه هذا، لأنك لم تصدّق كلامي الذي سيتم في وقته . وكان الشعب منتظرين زكريا ومتعجبين من إبطائه في الهيكل، فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم، ففهموا أنه قد رأى رؤيا في الهيكل فكان يومىء إليهم وبقي صامتاً».

وفي القرآن الكريم جاءت قصة زكريا في سورة آل عمران وفي سورة مريم؛ قال تعالى : {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ *فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ *قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ *قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ *} [آل عمران: 38 - 41] .

وقال تعالى في سورة مريم: {ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا *إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا *قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا *وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا *يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا *يَازَكَرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا *قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا *قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا *قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيًّا *فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا *} [مريم: 2 - 11] .

وهناك تشابه بين ما ورد في الإنجيل وبين ما ورد في القرآن الكريم مع اختلاف في التفاصيل لا يؤثر في جوهر القصة.

قصة مولد عيسى في الإنجيل والقرآن:

وكذلك قصة مولد عيسى فيها تشابه بين ما ورد في القرآن الكريم وفي الإنجيل مع اختلاف كبير في كثير من التفاصيل.

جاء في إنجيل (لوقا 26/1 - 38): «وفي الشهر السادس من (حمل إليصابات زوجة زكريا) أرسل جبرائيل الملك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة إلى عذراء مخطوبة لرجل من بني داود اسمه يوسف، واسم العذراء مريم، فدخل إليها الملك وقال: سلام لك أيتها المنعَمُ عليها، الرب معك. مباركة أنت في السماء. فلما رأته اضطربت من كلامه وفكّرت ما عسى أن تكون هذه التحية. فقال لها الملك : لا تخافي مريم لأنك وجدت نعمة عند الله . وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع. هذا يكون عظيماً، وابن العلّي يدعى، ويعطيه الربّ الإله كرسي داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية . فقالت مريم

للملك: كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً؟! فأجاب الملك وقال لها : الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك فذلك أيضاً القدّوس المولود منك يدعى ابن الله (أعوذ بالله من الكفر). وهوذا إليصابات حبلى بابن في شيخوختها. وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقراً لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله. فقالت مريم: هوذا أنا أمة الربّ، ليكن لي كقولك فمضى من عندها الملك».

وفي سورة آل عمران ترد قصة حمل مريم بعيسى بصورة مشابهة إلى حد ما بدون الكفر والتجديف وإضفاء صفة ابن الله وابن العلي على عيسى .

قال تعالى : {إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ *وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ *قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ *وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ *وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ *إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ *} [آل عمران: 45 - 51] .

وقصة الحمل متشابهة ما بين القرآن الكريم وما ورد في إنجيل لوقا إلى حد ما، وبحذف الأوصاف التي تؤلّه عيسى وتجعله ابن الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ثم إن جميع الآيات والمعجزات التي قام بها عيسى من إبراء الأكمه والأبرص وشفاء المرضى وإحياء الموتى قد جاءت في الأناجيل بتفاصيل كثيرة . ولكن لم يرد فيها قط أن عيسى يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله. ولو وردت هذه لديهم لازدادوا في غيّهم، وتسميته بابن الله العلي . وفي سورة مريم ترد قصة مريم وميلاد عيسى بعد قصة زكريا ومولد يحيى . قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيًّا *فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا *قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَانِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا *قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَمًا زَكِيًّا *قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا *قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا *فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيًّا *فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا *فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا *وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا *فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا *فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا *يَاأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا *فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا *قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا *وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا *وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا *وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا *ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ

مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ *مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ *} [مريم: 16 - 35] .

ولا ترد في الأناجيل ولا غيرها من كتب النصارى أن عيسى تكلَّم في المهد، ولو كان ذلك لديهم لازدادوا عُتوًّاً، ولاعتبروا ذلك دليلاً على ألوهيته وبنوته لله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وما ورد في الأناجيل هو أن يوسف النجار خطيب مريم أراد أن يتركها عندما علم بحملها ولكن الملك تراءى له وأخبره أنها طاهرة وأن الحمل من الروح القدس فأبقاها وأتم مراسيم زواجها، ولكنه لم يعرفها ـ أي لم يجامعها ـ حتى ولدت يسوع . ولما أراد هيرودوس الملك قتل يسوع بعد نبوءة المجوس الذين أعلنوا مولد ملك اليهود، أخذ يوسف النجار زوجته وابنه ـ حسب زعمهم ـ إلى مصر وبقي فيها إلى سن العاشرة ثم عاد به إلى فلسطين بعد مَمات الملك. وكان يسوع يذهب مع أبيه وأمه إلى أورشليم وإلى الهيكل في عيد الفصح وفي سن الثانية عشرة ترك أمه وأباه حسب زعمهم وبقي يناقش ويحاور الأحبار، وأمه وأبوه يبحثون عنه وكان حسب زعمهم وقحاً معهم عندما طلب منهم أن لا يبحثوا عنه. وهو كله افتراء على عيسى .

يحيى (يوحنا المعمدان) يبشر بعيسى ويدعو إلى التوبة:

جاء في إنجيل (لوقا 2/6 ـ 16) في أيام رئيس الكهنة حنان وقيافا كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا فجاء إلى جميع الكورة المحيطة بالأردن (أي بنهر الأردن) يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا. كما هو مكتوب في سفر أقوال أشعيا النبي القائل : صوت صارخ في البرّيّة : أعدّوا طريق الربّ . اصنعوا سبلاً مستقيمة . كل وادٍ يمتلىء، وكل جبل وأكمة ينخفض، وتصير المعوجات مستقيمة، والشعاب طرقاً سهلة، ويبصر كل بشر خلاص الله.

«وكان يقول للجموع الذين خرجوا ليعتمدوا منه : يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا للغضب الآتي. فاصنعوا ثماراً تليق بالتوبة . ولا تبتدئوا تقولون في أنفسكم : لنا إبراهيم أباً . لأني أقول لكم: إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم والآن قد وضعت الفأس على أصل الشجر. وكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار، وسأله الجموع : ماذا نفعل؟ فأجاب وقال لهم : من له ثوبان فليعط من ليس له، ومن له طعام فليفعل هكذا . وجاء عشّارون أيضاً ليعتمدوا فقالوا له : يا معلم ماذا نفعل؟ فقال لهم : لا تستوفوا أكثر مما فرض لكم. وسأله جنديون أيضاً قائلين: وماذا نفعل نحن؟ فقال لهم: لا تظلموا أحداً ولا تشوا بأحد واكتفوا بعلائفكم».. ثم بشر بمجيء يسوع قائلاً: «أنا أعمدكم بماء، ولكن يأتي من هو أقوى مني الذي لست أهلاً أن أحلّ سيور حذائه . هو سيعمدكم بالروح القدس ونار ». ثم قام يحيى بتعميد يسوع في نهر الأردن حسب طلب يسوع . ومنذ تلك اللحظة حلّت على يسوع الروح القدس وبدأ في مهمته ودعوته.

وفي سفر متّى (1/3 ـ 12) وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان في بريّة اليهودية قائلاً : «توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات... يوحنا هذا كان لباسه من وبر الإبل وعلى حقويه منطقة من جلد. وكان طعامه جراداً وعسلاً بريّاً . حينئذٍ خرج إليه أورشليم وكل الي هودية،

وجمع الكورة المحيطة بالأردن واعتمدوا منه في الأردن معترفين بخطاياهم . فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون إلى معموديته قال لهم : يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي فاصنعوا ثماراً تليق بالتوبة..». ثم كرر نفس الكلام الموجود في لوقا.

إن يوماً واحداً عند الربّ كألف سنة:

جاء في رسالة بطرس الثانية (8/3 ـ 10): «إن يوماً واحداً عند الرب كألف سنة وألف سنة كيوم واحد. لا يتباطأ الرب عن وعده كما يحسب قوم التباطؤ، لكنه يتأنّى علينا، وهو لا يشاء أن يهلك أناس بل أن يقبل الجميع إلى التوبة. ولكن سيأتي كلصٍ في الليل يوم الرب (أي يأتي فجأة وبغتة) الذي فيه تزول السموات بضجيج وتنحلّ العناصرُ محترقة وتحترق الأرض والمصنوعات».

وفي القرآن الكريم نجد قوله تعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ *وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ *} [الحج: 47، 48] . وقال تعالى: {يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ *ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ *} [السجدة: 5، 6] .

يسوع يقول: إنه رسول من عند الله:

يقول عيسى : «الحقّ الحقّ أقول لكم: الذي يقبل من أرسله يقبلني، والذي يقبلني يقبل الذي أرسلني» يوحنا (20/13). ويقول لهم: «لكن الذي أرسلني هو حقّ. وأنا ما سمعته منه فهذا أقوله للعالم» (يوحنا 26/8) فهو رسول الله يبلغ رسالته كما سمعها من الله بواسطة الروح القدس جبريل ، كما هو شأن رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

ويستخدم الإنجيل لفظ (أبي وأبيكم) على المعنى المجازي : فالله هو أبو الخلائق جميعاً، بمعنى عائلهم، فآمن به مجموعة من اليهود فهو يدعوهم ويعظهم فقال لهم: «إنكم إن ثبتّم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي وتعرفون الحق، والحقّ يحرّركم، أجابوه: إننا ذرية إبراهيم ولم نُستعبد لأحد قط، كيف تقول: إنكم تصيرون أحراراً، أجابهم يسوع: الحقّ الحقّ أقول لكم: إن كل من يعمل الخطيئة هو عبد للخطيئة ... أنا عالم أنكم ذرية إبراهيم لكنكم تطلبون أن تقتلوني لأن كلامي لا موضع له فيكم. أتكلم بما رأيت عند أبي وأنتم تعلمون ما رأيتم عند أبيكم، أجابوا: أبونا هو إبراهيم، قال لهم يسوع : لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم، ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان أكلِّمكم بالحق الذي سمعته من الله. هذا لم يعمله إبراهيم. أنتم تعملون أعمال أبيكم (يقصد إبليس) فقالوا له: إننا لم نولد من زنا (يتهمونه أنه ابن زنا) لنا أب واحد وهو الله (أي إن أبانا الذي يرزقنا وعليه نتكل هو الله وليس إبليس كما زعمت)، قال لهم يسوع: لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأني خرجت من قبل الله وأتيت . لأني لم آت من نفسي بل ذاك أرسلني . لماذا لا تفهمون كلامي؟ لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي. أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم (إبليس) تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتّالاً للناس

منذ البدء، ولم يثبت في الحق لأنه ليس فيه حق . متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم مما له لأنه كذّاب وأبو الكذب. وأما أنا فلأني أقول الحق لستم تؤمنون بي» (يوحنا 30/8 - 45).

ويقول يسوع: «ومن قبلني فليس يقبلني أنا بل الذي أرسلني » (مرقس 37/19)، ويقول: «تعليمي ليس لي بل الذي أرسلني . إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم هل هو من الله؟ أم أتكلم أنا من نفسي؟ من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه . وأما من يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم » (يوحنا 16/7 - 18)، ويقول: «أنا معكم زماناً يسيراً ثم أمضي إلى الذي أرسلني » (يوحنا 33/17) ويقول : «إن كنت أنا أدين فدينونتي حق لأني لست وحدي، بل أنا والأب (الله) الذي أرسلني » (يوحنا 16/8). وعندما كان يصنع المعجزات يطلب من الله ذلك ويشكر الله على أنه حقق له هذه المعجزات حتى يؤمنوا، يقول يسوع: «فأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي (وتجيب دعوتي)، ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت: ليؤمنوا أنك أرسلتني » (يوحنا 42/11)، فنادى يسوع وقال : «الذي يؤمن بي ليس يؤمن بي، بل الذي أرسلني، والذي يراني يرى الذي أرسلني » (يوحنا 44/12)، ويقول يسوع : «وهذه هي الحياة الأبدية : أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي الوحيد، والذي أرسلته يسوع المسيح» .

فما أصدق هذا الرسول الكريم الذي يعلن لهم أنه رسول من عند الله يدعو إلى الله وإلى عبادته وحده لا شريك له. ويخلّص بني إسرائيل مما هم فيه من باطل وزيف وكذب ورياء وخيانة وحب للدنيا وجمع لحطامها بكل وسيلة، مع الكبر والعجب وجميع أخلاق إبليس الذي يتخلّقون بأخلاقه ويتّبعون أوامره ونسوا أباهم إبراهيم واتخذوا إبليس لهم أباً.

الفصل الخامس
الأخلاق والدين في الحضارة الفارسية

الأخلاق والدين في الحضارة الفارسية

لمحة عن تاريخ الدولة الفارسية:

قامت عدة دول في ما يعرف اليوم بإيران وشرق العراق. وكانت أول تلك الدول هي الدولة الميدية. وهم أقوام من الجنس الهند أوروبي جاؤوا من شواطىء بحر الخزر (Caspian Sea) (بحر قزوين) إلى غربي آسيا قبل المسيح بأكثر من ألف عام. وقد استطاعوا أن يهزموا الآشوريين. ويقيموا دولة لم تدم طويلاً. وقد أخذ الفرس عنهم لغتهم الآرية وحروفهم الهجائية والكتابة المسمارية على ألواح من الطين (مثل بابل وآشور). وعنهم أخذوا قانونهم الأخلاقي الذي يوصيهم بالاقتصاد وحُسن التدبير في السلم، والشجاعة في وقت الحرب، ودين زرادشت، وإلهي النور (أهورا - مزدا) والظلام (أهرمان)، ونظام الأسرة الأبوي، وتعدّد الزوجات، وطائفة من القوانين التي عرفت باسم شريعة ميدي وفارس التي لا تنسخ.

قورش وابنه قمبيز:

وسرعان ما قامت الحضارة والترف بالقضاء على هذه الدولة واستطاع قورش الفارسي أن يقيم دولة باذخة. وهو من أعظم ملوك الأرض وأكثرهم عدالة وحسن معاملة لأعدائه. وقد وصلت دولته إلى أواسط آسيا (ما يعرف اليوم بأوزبكستان وطاجكستان) وأفغانستان وشمال الهند وما يعرف بآسيا الصغرى (تركيا حالياً) والعراق وسوريا الكبرى. وأصبحت امبراطوريته من أوسع الامبراطوريات في العالم القديم قبل الدولة الرومانية، ومن أحسنها حكماً في جميع عصور التاريخ كما يقول ول ديورانت [1]. وقد أقام دولته على قواعد النبل وكريم السجايا حتى أنه كان أحبّ الفاتحين إلى النفوس.

ويقال، والله أعلم، أنه هو نفسه ذو القرنين الذي ذكره القرآن الكريم في سورة الكهف [2] ويبدو من صفاته التاريخية أنه أقرب الناس إلى وصف القرآن الكريم له. وأن الإسكندر المقدوني الذي كانت امبراطوريته أكبر من امبراطورية ذي القرنين له صفات بعيدة كل البعد عن صفات ذي القرنين. ولم يكن الاسكندر موحّداً عابداً لله سبحانه وتعالى كما كان قورش. وقد أعاد قورش اليهود إلى فلسطين بعد السبي البابلي وأعانهم على بناء أورشليم وبناء الهيكل وفرض على رعاياه إعانتهم لإعادة بيت الله الذي بناه سليمان وخرَّبه نبوخذ نصر البابلي سنة 586 ق.م. وتمت العودة سنة 538 ق.م.

وقد أشادت به أسفار العهد القديم وبعدله وبسماحتهوإيمانه.

وكان بعض الملوك في ذلك الزمان يلبسون قرنين على رؤوسهم، ومن هؤلاء قورش، ومن هاهنا جاءت التسمية بذي القرنين. وقد وصفه الله تعالى بأجمل الصفات قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا *إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ

---

(1)ول ديورانت: قصة الحضارة ج404/2.

(2)يقول بعض أهل التفسير أنَّ تُبَّع الأقرن أي ذو القرنين هو من أعظم حكام اليمن التبابعة الذي حكموا مساحات واسعة. ويدّعون أنهم وصلوا إلى كابل(أفغانستان) والصين وشمال الهند. انظر كتاب د. محمد علي البار: «إضاءات قرآنية ونبوية في تاريخ اليمن، العصر الحديث، بيروت، 2007م ص 151 - 177..

شَيْءٍ سَبَبًا *فَأَتْبَعَ سَبَبًا *حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ (1) وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا ياذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً *قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا *وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا *ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا *حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (2)*كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا *ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا *حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ(3) وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً *قَالُوا ياذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا *قَالَ مَا مَكَّنْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا *آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ(4) قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (5) *فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا *قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا *} [الكهف: 83 - 98] .

وقد وصف يوسف علي صاحب ترجمة القرآن إلى اللغة الإنجليزية سداً جنوب شرق مدينة بخارى على بعد 150 ميلاً منها، فيه الصفات التي وصفها الله سبحانه وتعالى للسدّ الذي بناه ذو القرنين وأن هذا السد قد تخرب قبيل ظهور جنكيزخان ودولة المغول ولكن بقاياه لا تزال موجودة. وقال آخرون أنه سد موجود إلى اليوم في منطقة القوقاس بالقرب من مدينة دربند في الداغستان (تابعة لروسيا اليوم).

وقد قُتل قورش كما يقول ول ديورانت في قصة الحضارة، وهو يقاتل القبائل الموجودة على السواحل الجنوبية لبحر الخزر (بحر قزوين)، وهي منطقة في شمال إيران حالياً.

ثم جاء بعده ابنه قمبيز الذي استولى على مصر، ولم يكن مثل والده عادلاً ومتسامحاً، بل كان شديد القسوة وخاصة في مصر التي هدَّم معابدها وأوثانها، وحرَّق أصنامها. وقتل قمبيز أخته وزوجته روكسانا كما قتل ابنه بركسيس .. ولهذا اندلعت ضده ثورة فقيل أنه انتحر واختفى من التاريخ.. ثم ظهر بعذ ذلك دارا الذي أعاد بناء الامبراطورية من جديد بعد فترة اضطراب . واشتهر دارا مثل قورش بالحكمة والتسامح والعدل، ولكنه اضطر للحروب وتوسيع رقعة مملكته إلى آسيا الوسطى، وإلى البسفور والفولجا ونهر الدانوب في أوروبا، وإلى أفغانستان وشمال الهند، ولكنه انهزم في حربه مع اليونان.

وكانت للفرس حضارة ونظام حكم دقيق وكانت لغتهم مرتبطة با للغة السنسكريتية ولكنها ابتعدت عنها فيما بعد. واستخدموا الحروف الآرامية لكتابة وثائقهم. وكانت الطرق وهندستها

(1)أي وجدها كما يراها الإنسان تغرب في عين حمئة. والحمئة من الحمأ وهو الطين الآسن . أي أن العين المائية كان بها طين آسن.

(2)أي أنها تطلع عليهم دون ستر من جبل أو تل أو وادي.

(3)السدّين أي جبلين.

(4)الصدفين: حرفا الجبلين، والصدف حرف الجبل.

(5)قطرا : النحاس المذاب . وقال بعضهم (يوسف علي) الرصاص المذاب، وهذا الوصف يدل على المقدرة الهندسية والصناعية العجيبة حيث استخدم في بناء السد زبر الحديد، ثم نفخ عليه بالنار ثم وضع عليه النحاس المذاب . فكان أعجوبة بين السدود في العالم أجمع .

من أبدع انتاجاتهم بحيث ربطوا الامبراطورية الواسعة بسلسلة من الطرق، ونظام للبريد يصل إلى الملك في حدود أسبوع بينما يقطعها المسافر العادي على البغال في أشهر عديدة . وأقاموا قناطر عديدة على الأنهار، وسكّوا النقود الذهبية والفضية التي بقيت حتى ظهور الإسلام واستعملها المسلمون مع النقود الرومانية . واستمرّ التنافس بين الدولتين الرومانية والفارسية كأكبر قوتين في العالم إلى أن ظهر الإسلام، وقضى على دولة الفرس ودخلت في دولة الخلافة وأسهمت فيها إسهامات رائعة، بينما خضعت الامبراطورية الرومانية البيزنطية في كثير من مناطقها لسيادة المسلمين، وفقدت سوريا الكبرى ومصر وشمال أفريقيا لصالح المسلمين منذ فترة مبكرة.. ثم وصلت قوات المسلمين إلى آسيا الصغرى (تركيا حالياً) وتم تصفية الدولة البيزنطية بسقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح السلطان العثماني الشاب سنة 1452 ميلادية.

زرادشت:

وقد ظهر لدى الفرس زرادشت ويقال أنه نبي. وجعلوا له أقاصيص تشبه تماماً تلك التي وضعها النصارى فيما بعد عن مولد عيسى . وحاول الشيطان أن يفتنه عن دينه الحقّ كما فعل مع المسيح كما يزعم إنجيل متّى فيما بعد، ولكنه ثبت على دينه وإيمانه بالإله الحق إله النور (أهورا ـ مزدا) الذي أوحى إليه كتاب العلم والحكمة وأمره أن يعظ الناس به . وظل مُحارباً وطريداً إلى أن آواه وآمن به أمير إيراني يدعى قشتيا فانتشرت دعوته وآمن به الناس، وصدّقوا دعوته.

وقد أعلن زرادشت كما يقول ول ديورانت في قصة الحضارة (ج 424/2 - 430) أن ليس هناك إلا إله واحد وأن الشيطان عدو لله (وجعل فيما بعد إلهاً للظلام وعرفت هذه الديانة بالمثنوية لأنها تقول بإلهين: إله النور والخير أهورا ـ مزدا ضد إله الشر والظلام أهرمن)، وتستمر المعركة بين إله النور وإله الظلام لمدة اثني عشر ألف عام ينتصر فيها إله النور ويوضع فيها إله الظلام في أسفل الجحيم في ظلمات مطبقة، وينتصر الخير وينعم الناس بالخلود في جنات عدن.

كُتب زرادشت وما فيها من عقائد وأخلاق:

وتُدعى الكتب التي بقيت منذ عهد زرادشت «الأبستا» (الأبستاق). وقد ضاع الكثير منها وأعيدت كتابتها في القرن الثالث بعد الميلاد عندما أمر الملك فلجيس الخامس جمع ما بقي من الكتاب مفرّقاً، وما هو محفوظ في الصدور، وجعلها في كتاب واحد وفيه طقوس دينية، وفقه الزرادشتيين وأخلاقهم (ولا تزال موجودة عند طائفة البارسي في الهند)، وأناشيد دينية وصلوات تُتلى في مناسبات الحياة المختلفة.

وفيه قصة خلق الدنيا على ست مراحل (السموات، الماء، الأرض، النبات، الحيوان وآخرها الإنسان)، وتسلسل البشر من أبوين أولين (آدم وحواء)[1] وخلق الله جنة على الأرض، وغضب الربُّ على خلقه بسبب كفرهم فأرسل عليهم الطوفان (قصة نوح

(1)يسمون آدم: الكيمورت أو أدمون (أي الإنسان الكامل) وهو خليفة الله على الأرض. وهو أصل البشر ثم ظهر من نسله زرادشت وهو الإنسان الكامل الحقيقي.

والطوفان).. وأن المعركة بين إله الخير والنور ضد الشيطان إله الظلام تستمر اثنا عشر ألف عام ينتصر فيها بعد ذلك إله الخير (ولعل هذه من الإضافات التي جاء بها أتباع زرادشت)، وأن أفضل الفضائل هما الطهر والأمانة ..

وفي كتابهم الأستاق: «من ذا الذي رسم مسار الشموس والنجوم؟ من ذا الذي يجعل القمر يتزايد ويتضاءل؟ ومن ذا الذي رفع الأرض وأمسك السماء أن تقع على الأرض؟ من ذا الذي حفظ المياه والنباتات؟ ومن ذا الذي سخر للرياح والسحب سرعتها؟ ومن ذا الذي أخرج العقل والخير؟ من غير الله أهورا مزدا»[1] .

وكان لاهورا مزدا كما وصفه زرادشت سبع صفات أو مظاهر هي النور والعقل الطيب، والحق والسلطان، والتقوى والخير والخلود.

ويقول ول ديورانت: «وحدث في هذا الدين ما حدث في المسيحية فانقلبت من الوجدانية الرائعة التي جاء بها مؤسسها، شر كاً لدى عامة الشعب ». وهكذا دخلت الوثنية والآلهة المتعددة بالاضافة إلى إلهي النور والظلام إلى دين زرادشت الذي كان في أصله ديناً توحيدياً كباقي الرسالات والنبوات. وقد حُرِّفت هذه الأديان كلها، ولم يسلم منها إلا الدين الخاتم الذي جاء به محمد فأضاء به الله ديا جير الشرك والظلم . وهو الدين المحفوظ من لدى رب العالمين: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ *} [الحجر : 9] ، وأما ما عداه من الأديان فقد دخلها التحريف والتبديل وأنواع من الشرك والضلال. ومع ذلك فقد بقيت في هذه الأديان بقايا من أقوال الأنبياء والرسل الكرام تضيء كما تضيء الألماسة في كومة من الركام.

وقد ذكرتْ عقيدة زرادشت وجود الملائكة والأرواح الطاهرة التي تفعل الخير وتساعد الناس على فعله كما أن هناك جنود إبليس .. وأن الشيطان أهرمن هو الذي خلق الظلمة والشرّ، والجريمة والخطيئة، واللواط والحيض، والأفاعي والحشرات المؤذية، وكل أنواع الشرور. وأن الشيطان هو الذي أخرج الجدّين الأولين للبشر (آدم وحواء) من الجنة بعد أن أغواهما بأكل الشجرة المحرّمة.

وقال زرادشت أن آلهة الشرّ هذه آلهة زائفة . وأن الإله الحق هو وحده إله النور والخير أهورا مازدا.. ولكن أتباعه وجدوا أن فكرة إلهين تُفَسِّر لهم وجود الخير ووجود الشر، ولا يمكن للإله الحق حسب زعمهم أن يخلق الشر والظلام والخطيئة . بل ذلك كله من فعل إله الشر الخبيث، إله الظلام أهرمن. ومع ذلك فهم قد آمنوا بأن نهاية العالم (بعد اثنى عشر ألف عام) ستشهد انتصار إل ه الخير وأن قوى الظلام والظلم وأتباعهم ستُلقى في الظلمة، ويطعمون إلى أبد الدهر سُمَّاً زعاقاً بينما ينعم الصالحون وأهل الفضل والخير بالنعيم الدائم السرمدي الأبدي في الجنّة.

وهكذا نجد في هذه العقيدة الإيمان بالله (مع إدخال عنصر جديد هو إله الشر)، والإيمان بقصة الخلق، وخلق آدم وزوجته وخروجهما من الجنة بسبب إله الظلام الخبيث . ثم ينتهي

(1)ول ديورانت: قصة الحضارة ج424/2 - 460.

هذا العالم ليجازي كل واحد بما عمل قدّم، فأهل الخير يدخلون الجنة وأهل الشر يسقطون في هوة الظلمة إلى أبد الآبدين.

ويرى زرادشت أن البشر يستطيعون أن يفعلوا الخير والشر، وأن ينظّموا ب إرادتهم إلى معسكر إله الخير أو معسكر إله الشر والظلام . ولكنهم في النهاية سيجازون بالعدل على أعمالهم في الدنيا: إن خيراً فخير ولهم الجنة، وإن شرًّا فشرّ ولهم هوة الظلمة العميقة إلى أبد الدهر [1].

وعلى الإنسان أن يحبَّ لأخيه الإنسان ما يحبُّ لنفسه، وأن يجعل من العدو صديقاً، وأن يجعل الخبيث طيباً، وأن يجعل الجاهل عالماً. وأعظم الفضائل لديهم هي التقوى، ويأتي بعدها الشرف والأمانة عملاً وقولاً. ويَحرْمُ أخذ الربا، ويجعل الوفاء بالدين واجباً مقدّساً. ورأس كل الخطايا الكفر بالله. وكان المرتدّون يعاقبون بالإعدام. ويرى أتباع زرادشت أنهم خير الناس من جميع الوجوه، وأن غيرهم من الأمم تدنو من الكمال بقدر ما يقربون من أهل فارس (اتباع زرادشت)، وأن شرَّ الناس أبعدهم عنها .

ولما كانت التقوى أعظم الفضائل على الإطلاق فإن أول ما يجب على الإنسان في هذه الحياة أن يعبد الله بالطهر والتضحية والصلاة. ولم تك فارس الزرادشتية تسمح بإقامة الهياكل والأصنام.. وكانوا يوقدون النار فوق الجبال تكريماً لإله الخير والنور أهورا مزدا ثم تطور ذلك إلى تقديس النار التي لا تنطفىء.. لأنها نار مشتعلة أبداً بسبب وجود النفط أسفل منها. ثم عبدوا الشمس باعتبلوها المظهر الأكبر لإله النور .

وكان اهورا مزدا (إله الخير) يحبُّ من عبيده وخلقه أن يعبدوه ويصلّوا له ويثنوا عليه .. ولهم في ذلك أدعية وصلوات[2] .

وإذا ما وهب الفارسي حياته للخير والتُقى والصدق فإن بوسعه أن يلقى الموت من غير خوف ولا وجل، لأن روحه ستجتاز الأعراف والجحيم وتصل إلى دار النعيم والجنة . وأما الروح الخبيثة فلا تستطيع أن تجتاز القنطرة (الصراط عند المسلمين) فتتردّى في درك من دركات الجحيم يتناسب مع ما اقترفت من الذنوب والآثام . وهي هاوية مُظلمة تُعذَّبُ فيها الأرواح الكافرة إلى أبد الآبدين . أما إذا كانت له حسنات ورجحت مع ذلك سيئاته فيعذَّب عذاباً حسب سيئاته، ولكنه لا يخلّد في جهنم بل يخرجه الله منها ولو بعد الآف السنين[3] .

ولا شك أن عقائد زرادشت الأصلية لا تفترق عمّا جاء به الأنبياء والرسل مما قصّه علينا القرآن الكريم. ولكن التحريف دخل عليهم فيما بعد . ومع ذلك بقيت أنوار الحق تتلألأ رغم الشركيات. ومن ذلك إيمانهم بالله خالقاً للكون وللخير (ولكنه لم يخلق الشر) [4]. وأن إله الشر زائف. وأتباعه سيحاسبون على ذلك يوم الدينونة بعد فناء هذا العالم، ويخلّدون في عذاب جهنم، بينما المؤمنون بالله والصالحون سيخلّدون في الجنة. أما الذين خلطوا عملاً سيئاً وآخر

---

(1)ول ديورانت: قصة الحضارة ج 424/2 - 460.
(2)المصدر السابق.
(3)المصدر السابق.
(4)هذا القول خطأ فالله خالق كل شيء والخير والشر بمشيئة الله.

صالحاً فسيعذّبون بقدر ذنوبهم ثم يتطهرون ويدخلون الجنة . ويؤمنون بالملائكة كما يؤمنون بوجود الجن أتباع أهرمن إله الشر . وقد أضاف الكهنة عبادة الشمس وتقديس النار وإيجاد الطلاسم والسحر . ورغم ذلك اشتهروا بزهدهم وتقشفهم وا قتصارهم على زوجة واحدة، وامتناعهم عن أكل اللحوم، وملبسهم البسيط، وحياتهم المتواضعة، وحكمتهم حتى أصبح كثير من ملوك الفرس من تلاميذهم.

وينهي ول ديورانت هذا الفصل عن زرادشت وأتباعه بأنهم ذو أخلاق سامية وآداب رفيعة. وهم شاهد حيّ على فضل الدين الزرادشتي (في أصله الأول) وما له من أثر عظيم في تهذيب بني الإنسان وتمدّنهم.

وكان للفرس دور عظيم في الطب واشتهرت لديهم مدرسة جنديسابور عندما فرَّ كثير من نصارى الشرق من الرومان الذين اضطهدوهم وأرادوا تحويلهم إلى نحلتهم ومذهبهم الملكاني (أي دين الملك منذ أيام قسطنطين الأول). وفيهم عدد كبير من النساطرة الأطباء والفلاسفة والحكماء. فنقلوا ذلك إلى فارس التي استقبلتهم واحتفت بهم.

وكانت مدرسة جنديسابور هي المرجع الأول في الطب قبل ظهور الإسلام مباشرة وبعده واستمرت إلى عهد الرشيد والمأمون العباسي . وهم الذين ترجموا بعد ذلك كتب الطب اليونانية إلى العربية.. وقد كان لها الفضل في التقدّم الطبي الذي شهدته ديار الإسلام وخاصة في العصر العباسي الأول.

وظهرت بعد ذلك عقيدة ماني وهو حكيم ظهر في زمن عيسى أو بعده بقليل وأخذ ديناً بين المجوسية والنصرانية. وكان يقول بنبوة عيسى وينكر ألوهيته. ويقول ماني أن العالم مركّب من أصلين قديمين هما النور والظلمة، وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا وأن أحدهما هو إله الخير والنور وأن الثاني هو إله الشرّ والفساد . وتحدثوا عن العناصر وجعلوها خمسة (عند اليونان أربعة)، وهي النار والنور والريح والماء والخامسة هي النسيم وهذ ه للخير، وخمسة للشر: وهي الحريق والظلمة والسَموم (الريح الحارة) والضباب، والخامسة وهي روحها، الدخان.

والصفات الزكية تابعة للنور والصفات الشرّيرة تابعة للظلام . واعترف ماني بالأنبياء ابتداء من آدم ثم نوح ثم إبراهيم ولكنه أنكر نبوءة موسى وأنبياء بني إسرائيل وا عترف بنبوة عيسى ، وأنكر إدعاء الألوهية.

وظهر بعد ذلك مزدك في أيام قباذ والد أنوشروان . ومزدك يقول بإله النور وإله الظلام . ولكنه زعم أن المباغضة والقتال بين البشر إنما تكون بسبب النساء والأموال فأحلَّ النساء لجميع الرجال، وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيها ك اشتراكهم في الماء والهواء والنار والكلأ. وهو بذلك أول من طبَّق الشيوعية. وأفسد فارس فساداً عظيماً، فلمّا تولى أنوشروان ابن قباذ قضى عليه وقتله وشرّد أتباعه وانتهت بذلك المزدكية، أول دعوة شيوعية تمَّ تطبيقها في العالم.

مصادر هذا الفصل: القرآن الكريم

(1) ول ديورانت: قصة الحضارة ترجمة د. زكي نجيب محمود، ج 399/2 - 460.

(2) د. إبراهيم إبراهيم ياسين: مدخل إلى الفلسفة، ص 27 - 38.

(3) د. راجي عباس التكريتي: السلوك المهني للأطباء، ص 21 - 22.

(4) د. محمد علي البار : إضاءات قرآنية ونبوية في تاريخ اليمن، العصر الحديث، بيروت، 2007، ص 151 - 177.

(5) الشيخ حسنين مخلوف: كلمات القرآن تفسير وبيان.

التأثير الفارسي

أردشير وأنوشروان وتأثيرهما على

الأخلاقيات السلطانية عند المسلمين

التأثير الفارسي:

ظهرت في فارس الدولة الساسانية، ومؤسسها هو أردشير (Arta khsharr) سنة 226 بعد الميلا د. وكانت فارس، منذ غزو الاسكندر المقدوني تحكم بقواده من بعده، ثم انتهت دولتهم، وقامت دويلات صغيرة منقسمة يحكمها أمراء من الفرس يتصارعون فيما بينهم، وعرفوا باسم ملوك الطوائف (مثل ملوك الطوائف في الأندلس الإسلامية بعد قرون طويلة).

واستطاع أردشير الأول أن يو حّد بلاد فارس ويعلن بناء دولة جديدة قوية عام 226 ميلادية، فُلقِّبَ «بالملك الجامع» أو «الملك الموحد»، لأنه جمع الفرس وأعاد إليهم وحدتهم عسكرياً ودينياً. وكان أبوه من رجال الدين الزرادشتي، فأعاد إيران كلها إلى هذا الدين الذي أوضحناه فيما سبق. ورغم أن ولايته العامة لم تدم سوى خمسة عشرة عاماً إلا أن تأثيره كان عظيماً جداً في فارس. (توفى سنة 240م)، فقد قام بتوحيد الإمارات الممزّقة وأوجد نظاماً عادلاً للحكم، وارتبط مع رجال الدين الزرادشتي إرتباطاً تاماً، وأوجد جيشاً قوياً وإدارة حازمة عادلة واستولى على العديد من الأراضي، وحكمها بالعدل.

واشتهر أردشير في كتب الأدب العربي بوصيته السياسية والأخلاقية إلى الملوك من بعده . وقد تُرجم هذا العهد في أواخر العهد الأموي ـ وكان يُدّرس لأبناء الخلفاء العباسيين كما يستفاد من رواية أوردها المبرّد في كتاب «الفاضل»[1] ، وجاء فيها : «أن المأمون أمر معلّم الواثق بالله، أن يعلّمه كتاب الله جلّ اسمه، وأن يقرئه عهد أردشير، ويحفّظه كتاب كليلة ودمنة».

ويلخص هذا العهد الدكتور محمد عابد الجابري في كتابه «العقل الأخلاقي العربي »[2]، وفيه يقول «إن أول ما يبدأ به العهد هو تحذير خلفائه من الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى ضياع المملكة ومنها سكر السلطان الذي هو أشدّ من سكر الخمر ». والمقصود أن السلطة تسكر الإنسان ولها تأثير أشد من تأثير الخمر.

وحذّر أردشير خلفاؤه الذين سيرثون الحكم، وقد تأسست وقامت الدولة بأكنافها، فيجدون الأمور مذلّلة فينغمسون في الترف والشهوات والملاهي واللعب .. وهذا من الأبواب التي يكثر فيها فنون البلاء .. ومن العوامل الهامة فساد الأسرة والحاشية وهم يسعون لاكتناز الثروات والاستمتاع بها، ولا يهتمّون بمصلحة الدولة والأمة.

---

(1)د. إحسان عباس: في مقدمته لكتاب«عهد أردشير»، دار صادر، بيروت 1967 ص 34.

(2)د. محمد عابد الجابري : «العقل الأخلاقي العربي »، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط 2، سنة 2006، ص 155 - 159.

ثم يقول أردشير: «واعلموا أن المُلك والدين أخوان توأمان، لا قوام لأح دهما إلا بصاحبه، لأن الدين أُسَّ المُلك وعماده، ثم صار الملك بعدُ حارس الدين فلا بدّ للمُلك من أُسِّهِ، ولا بدِّ للدين من حارسه، لأن ما لا حارس له ضائع، وما لا أُسَّ له مهدوم» .

وهو كلام واضح ولكن الجابري عكس هذا المفهوم وسخر من جميع المؤلفين المسلمين الذين أوردوا هذا النص ومدحوه، وقال أنهم فهموه على غير حقيقته ومقصد أردشير حسب زعمه «هو التنبيه إلى أهمية توظيف الدين في مرحلة تأسيس الدولة وضرورة الحذر منه .. وأردشير قد أسَّس ملكه بواسطة التحالف مع رجال الدين الذين قاموا بتعبئة العامة من حوله . ولكن ما إن استتبَّ له الأمر حتى نصَّب نفسه حارساً على الدين، كي لا ينقلب عليه».

والواقع أن الجابري يضع تصورات مُسبَّقة لكي يدين النظام الإسلامي إدانة تامة باعتباره نظاماً كسروياً مستبدّاً . وإن استخدامه للدين استخدام لإثبات سلطة الخليفة أو الملك أو السلطان (سمِّه ما شئت). وإن هذا النظام بدأ في أواخر العهد الأموي واستمرّ طوال العهد العباسي وما بعده.

واعتبر العهد الأموي منذ عهد معاوية، ملكاً عضوضاً جبرياً طاغوتياً، ولكنه يرجع ذلك إلى التنافس القبلي بين بني هاشم وبني أميّة. وهو تنافس قديم يمتد إلى ما قبل الإسلام واشتدّ في زمن النبي محمد ، ثم هدأ قليلاً عند انتصار الرسول وعاد بالتدريج في أيام عثمان واستشرى في زمن معاوية.

وحاول أيضاً أن يلمز عهد عمر ، عندما أعطى قريشاً أكثر مما أعطى غيرها . وزعم كاذباً أن السابقين في الإسلام من أمثال عمّار بن ياسر وبلال بن رباح، وخباب بن الأرت وابن مسعود وغيرهم من السابقين، كانوا عند عمر في منزلة أقل من أبي سفيان ومسلمة الفتح (أي الذين أسلموا بعد فتح مكة). وهو كذب صريح وبهتان [1]. ويقول ما نصّه : «أما أولئك الذين لا قبائل لهم من الصحابة الذين كانوا في الأصل عبيداً أو موالي أو من قبائل هامشية كعمار بن ياسر وأمثاله من المستضعفين الذين امتحنوا زمن الدعوة، فقد كان نصيبهم من العطاء هزيلاً بالقياس إلى أشراف قريش، بمن فيهم الطلقاء الذين لم يلتحقوا بالإسلام إلا بعد أن عفا عنهم النبي عند فتح مكة.. هكذا حصل انقلاب في القيم التي عانى منها المسلمون زمن الدعوة والتي امتدت كثير من مظاهرها إلى زمن أبي بكر، ومن الشدّة التي تصرّف بها عمر بن الخطاب مع الأغنياء والأشراف حتى أنه وضعهم في شبه إقامة إجبارية داخل العاصمة (المدينة) لا يغادرونها، إلى فيضان الدنيا بالمال زمن عثمان وانشغال كثير من الصحابة بتنميته والتمتع به فعلاً. لم تمض إلا عشرون سنة على وفاة النبي حتى فاضت الدنيا بتراكم الثروات في أيدي فئة قليلة من رجال قريش خاصة، فحصل انقلاب في السلوك والمظاهر، في العمران والمساكن والملابس والمآكل .. وفي القيم كذلك .. وقدّرت ثروات

(1)محمد عابد الجابري: العقل الأخلاقي العربي، ص 62 .

بعض الصحابة الكبار بأرقام خيالية، إضافة إلى امت لاكهم العبيد، وسكنى المنازل الفخمة داخل المدينة واقتناء الدور للراحة خارجها»[1] .

ويقول: «لقد بقي هؤلاء المستضعفين حين الدعوة، شبه مستضعفين زمن الدولة. لقد ازداد الأغنياء غنى، والأقوياء قوة، ولكن المستضعفين لم تتحسّن أوضاعهم»[2] .

وهو يعرف أن عمر كان يقدّم السابقين من المهاجرين والأنصار على الطلقاء حتى ورمت أنف أبي سفيان وهو منتظر للدخول على عمر، وعمر يقدّم عمار وأصحابه، فلما غضب أبو سفيان على تقديم عمر لهؤلاء الضعفاء قال له زميله: لا تلم عمر، بل لم نفسك . سبقوك إلى الإسلام وإلى الجهاد وإلى نصرة رسول الله وت أخرت، بل عاديته وحاربته فكثير عليك أن يستقبلك عمر بعدما فعلت. وقد قام عمر بتولية كثير من هؤلاء المستضعفين من الصحابة الإمارة وولى أبو موسى الأشعري، وابن مسعود وعمار بن ياسر وأبو هريرة الولايات ومع ذلك كان يحاسبهم حساباً شديداً.

وقد نحى الجابري[3] منحى طه حسين في الفتنة الكبرى، (عثمان وعلي وبنوه) بل كان أشدّ منه لأن طه حسين مدح الشيخين أبا بكر وعمر وأثنى عليهما الخير كله في كتابه «الشيخان»، وانتقد عهد عثمان وعهد علي، ثم إن طه حسين في أواخر حياته أعاد كتابة «الفتنة الكبرى » وكانت الطبعة العشرون مختلفة تماماً عن الطبعات الأولى من الكتاب، وابتعد عن لمز الصحابة، وأوجد الأعذار لما حصل من الفتن.

ثم إن الجابري[4] أشاد إشادة كبيرة بغيلان الدمشقي (الذي اعتبره أئمة علماء الإسلام من المارقين) فقال عنه الجابري «وأما من يعتبر بحق أحد رواد الحركة التنويرية في العصر الأموي: غيلان الدمشقي !!» وغيلان الدمشقي هو أول من أنكر القدر وسميت تلك الفرقة بالقدرية.

وهو أمر مضحك جداً!! غيلان الدمشقي أحد رواد الحركة التنويرية في العصر الأموي !! ثم يكذب على أبي حنيفة النعمان ويزعم أنه قال : «لا ينفع مع الشرك حسنة ولا يضر مع التوحيد سيئة وأنه لا يدخل النار أبداً، وإن ركب العظائم وترك الفرائض وعمل الكبائر » وزعم أن الأشعري اتهم أبا حنيفة بأنه من المرجئة وأنه يقول بهذا القول !! وهذا كله كذب وبهتان. والجابري يكذب كذباً صريحاً لا لبس فيه ولا مداراة.

---

(1)لقد كان أثرياء الصحابة من أمثال عثمان بن عفّان، وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ، ينفقون أموالهم في سبيل الله، ويتصدّقون بأموال كبيرة في أيام النبي محمد وبعده. وكانوا رغم ثروتهم من الزاهدين القائمين الصائمين. وكلام الجابري مخالف للحقيقة وغرضه الطعن على الإسلام كله.

(2)هذا القول كذب وافتراء من شخص علماني يريد مهاجمة الإسلام، وهو يعلم ذلك يقيناً، ولكنه الحقد على الإسلام.

(3)الجابري: العقل الأخلاقي العربي ص 73 .

(4)الجابري: المصدر السابق ص 74.

ويعتقد الجابري[1] اعتقاداً جازماً أن الخلافة الإسلامية استخدمت الدين مطية، تماماً مثلما استخدم أردشير الدين مطيّة، وأن أردشير كرّر في وصيته أهمية توظيف الدين في مرحلة تأسيس الدولة، وضرورة الحذر من الدين ورجاله بعد ذلك . وقد صرّح أردشير حسب قوله بذلك: «ليس أقوى على الإطاحة بالملك من الدين..» واعلموا أنه لن يجتمع رئيس في الدين مُسِرٌّ (أي رئيس سري كما كان يفعل الشيعة فيما بعد) ورئيس في الملك مُعلن، في مملكة واحدة قط، إلا انتزع الرئيس في الدين ما في يد الرئيس في الملك لأن الدين أسّ، والملك عماد، وصاحب الأسّ أولى بجميع البنيان من صاحب العماد».

ويقول الجابري [2] نقلاً عن أردشير :

«والسبب في كون رئيس الدين أقوى من صاحب الملك هو أن سلطان المَلِك على أجساد الرعيّة، وأن لا سلطان للملوك على القلوب . واعلموا إن غلبتم الناس على ذات أيديهم فلن تغلبوهم على عقولهم.. واعلموا أن العاقل المحروم سَالٌّ عليكم لسانه، وهو أقطع سيفيه، وأن أشدَّ ما يضرّكم به من لسانه ما صرف الحيلة فيه إلى الدين، فكان بالدين يحتجُّ، وللدين فيما يُظهر، يغضبُ، فيكون للدين بكاؤه وإليه دعوته، ثم هو أوجدُ للتابعين والمصدّقين والمناصحين والمؤازرين منكم، لأن بَغْضَةُ الناس هي موكّلة بالملوك، ومحبَّتهم ورحمتهم موكلة بالضعفاء والمغلوبين»، ويصرّح أردشير بأنه لا بد من تقريب هؤلاء الطاعنين على الملوك بالدين وإعطائهم الوظائف وتخريبهم بالمال والمراكز، ثم يأخذهم الملك بجريرة فسادهم. فإذا فشل في استقطابهم فليسمّهم «المبتدعين في الدين » ، ويكون الدين هو الذي يقتلهم ويريح الملوك منهم.. ولا ينبغي للملك أن يعترف للعبّاد والنساك أن يكونوا أولى بالدين منه، ولا أحدب عليه ولا أغضب له منه، ولا بد أن يجعل النساك تحت الأمر والنهي، فإن خروج النساك وغير النساك من الأمر والنهي عيب على الملوك، وعيب على المملكة وثُلمة بيّنة الضرر للملك ولمن بعده».

وينتقل بعد ذلك إلى تأديب العامة وهذا ما يسمّيه «حسن الأدب والسياسة» .. وأهم بند في ذلك هو تعظيم الملوك وإجلالهم، لأن إعظام الملوك من إعظام الله وإجلالهم إجلال لله، فهم الذين ولاّهم الله الرعية، وجعلهم خلفاؤه في الأرض .. و«رأس السياسة أن يفتح الحاكم (الوالي) من قبَلَهُ للرعية بابين: أحدهما باب رقّة ورحمة ومواساة، والثاني باب غلظة وتشدّد وعقوبة تصل إلى القتل . واعلموا أن ذهاب الدول يبدأ من قبل إهمال الرعية بغير أشغال معروفة ولا أعمال معلومة، فإذا فشا الفراغ في الناس، تولّد منه النظر في الأمور والفكر في الأصول.. فإذا نظروا في ذلك نظروا فيه بطبائع مختلفة، فتختلف بهم المذاهب ..، وهم مع ذلك مجمعون في اختلافهم على بُغض الملوك ». ولذا يتخذون الدين سُلَّماً لمحاربة الملك، فيجمعون الجموع لذلك، فلذا تجب المبادرة بأخذهم وقتلهم، وتسفيه أحلامهم وآراءهم واعتبارهم مارقين من الدين مبتدعين فيه، خارجين عليه حتى يأخذهم الملك بسيف الدين» .

---

(1)الجابري: المصدر السابق ص 156

(2)الجابري: المصدر السابق .

«ولا بد من إقامة النظام الطبقي : أصحاب الدين وأصحاب الحرب وأصحاب التدبير وأصحاب الخدمة وهم أصحاب الوظائف والزراع والتجار وكافة المهن. ولا بد أن يبقى هذا النظام ولا ينتقل أحد من طبقة إلى أعلى منها إلا بما يمكن تبريره من عقل وخدمة للملك. وإذا ثارت العامة أو بعض العامة فينبغي قمعها بالقوة قبل أن تستفحل، والقضاء على رؤوس الفتنة، واستخدام الشدة في ذلك . فإن الفساد في الأمة أشد من العسف على هؤلاء وهم قد أوبقوا أنفسهم بتعرّضهم للسلطان».

«والفضائل المطلوبة في المَلِكِ بعد حذره ومعرفته أحوال الرعية بدقّة، أن لا يبخل ولا يكذب وأن لا يغضب وأن لا يلعب ويعبث، وأن لا يحسد، وأن لا يخاف، وأن يصلح بطانته ولا يُفشي أسراره إلا لمن يثق فيه من أهل دولته من أهل الحنكة والدربة والأمانة والإخلاص. وعليه أن يُبقِي هيبته أمام الخاصة والعامة. فإن اضطر لحفظ هيبته إلى العنف فلا بأس بذلك في موضعه. وأما المتظاهرين بالدين فإن استطاع أن يلوّثهم بالدنيا والوظائف والمال، فضحهم، ثم أخذهم بجريرتهم».

وينتهي الجابري إلى القول [(1)]: «لقد كان طبيعياً أن يحذّر أردشير خلفاءه من بعده من رجال الدين، فلقد كان ملكه يدين لتحالفهم معه، إذ لولا هذا التحالف لما استطاع القضاء على ملوك الطوائف وبناء دولة موحدة قوية . وكان يدرك أنه إذا لم ينصّب نفسه حارساً على الدين، وبالتالي متحكماً في رجال الدين، فإنه سيبقى تحت رحمتهم .. وهكذا اهتم خلفاؤه من بعده بتوظيف الدين بوصفه «أسَّ الملك» واشتغلوا بحراسته .. فنشأ عن ذلك تاريخ خرافي يرفع الملوك إلى درجة الآلهة.

ثم ظهر ماني (المولود سنة 215) وجمع بين المسيحية والزرادشتية وأعلن أنه الفارقليط (البارقليط) الذي بشَّر به المسيح عيسى بن مريم، وآمن بعيسى كنبي ورسول، ولكنه رفض الإيمان بالتثليث وأن يسوع ابن الله . وتبعه خلق كثير ودعا إلى الزهد والتنسك والعبادة والرهبنة وعدم الزواج، وخاصة بعد أن خافت الدولة من دعوته . وتحوَّل أهل الدين الجديد إلى السريّة لمواجهة القمع، وإلى الزهد والرهبنة، فتركتهم الدولة، لأنهم لم يعودوا ي شكلون خطراً.

وظهر مزدك في زمن قباذ والد كسرى أنوشروان وأباح الأموال والنساء وهو أول نظام شيوعي يتم تطبيقه كاملاً، وتحالف الملك قباذ معه (حكم من سنة 488 ميلادية) فأفسد في الأرض أي إفساد، فلما مات قباذ تولى أنوشروان فقتل مزدك وأنصاره، وأعاد للدولة هيبتها.

وتكثر الأدبيات في العصر الإسلامي (أواخر الأموي والعباسي) من الإشادة بكسرى أنوشروان وتتحدّث عن عدله وحكمته وحسن إدارته للدولة حتى بلغت شأواً بعيداً لم تبلغه منذ زمن أردشير موحد الدولة وبانيها.

---

(1)الجابري: المصدر السابق ص 160، 161.

وينسب أبو الحسن العامري في كتابه السعادة والإسعاد [1] لأنوشروان الأقوال التالية : «إن الله تبارك وتعالى إنما خلق الملوك لتنفيذ مشيئته في خلقه، ولإقامة مصالحهم وحراستهم ، فلذلك نقول بأنهم خلفاء الله في أرضه ، ولمعنى آخر، وهو أنه جعلهم عالين آمرين، غير مأمورين، وحاكمين غير محكوم عليهم، ومستغنين غير محتاجين، فإن حاجتهم إلى ا لرعيّة إنما هي لسبب الرعية ولصلاح شأنهم .. قال : وأن الله تعالى جعل الرعية محكوماً عليها خاضعة لملوكها، مكيّفة بملوكها لا بأنفسها . والملوك أمناء الله في أرضه وبرّيته . وأولى الأمور بالمؤتمن حفظ ما اؤتمن عليه.. وأول ما يجب على الملوك إقامة الدين وتحقيقه بالعمل بنفسه، وبأخذ الرعيّة بإقامته، فإن الخير كله إنما هو طاعة الله . وأن قوام المُلك إنما هو بالدين، فإذا ضعف الدين ضعف المُلك . ويجب عليهم أن يقوّوا أركان الدين وأن يبيّنوا أمر الفقه [2] ، فإن الفقه هو القائد إلى القول بالآخرة. ويجب عليهم أن يقيموا العدل الذي به صلاح الملك والمملكة، فإن العدل هو سبب عمارة المملكة، والجور سبب الخراب والبوار ».. وقال: «وواجب على الملوك الحماية والحراسة . والحماية إنما تكون من الأعداء المعاندين، والحراسة إنما تكون بكفّ المفسدين وترهيب المتمرّدين. وإن الملك هو الجامع وهو المفرّق، وهو المؤلف وهو المبدِّد، وهو المقوّي وهو المُضعف، وهو المُهين وهو المُكرم. ومن أعظم أعمال الملوك العمارة والحراسة. والحراسة إنما تكون بالعقل، والعمارة إنما تكون بالعدل» .

وقد أكد أردشير في خطبته يوم توليه العرش على المعاني التي سادت في الدولة الأموية والعباسية فيما بعد.. ولا شك أن هذه الخطبة قد صاغها الكتَّاب المسلمون من أمثال سالم بن عبد الرحمن وعبد الحميد الكاتب والعامري وابن عبد ربه والجاحظ، صياغة إسلامية . يقول أردشير : «الحمد لله الذي خصَّنا بنعمه، وشملنا بفوائده وقَسَمه (الأموال)، ومهَّد لنا البلاد، وقاد إلى طاعتنا العباد. ألا وإنا ساعون في إقامة منازل العدل، فليسكن طائركم أيها الناس، فإني أَعُمُّ بالعدل القوي والضعيف، والدنيء والشريف . وأجعل العدل سُنَّة محموده وشريعة مقصودة » وخاطب الوفود المهنئة : «قد أنزل الله الرحمة وجمع الكلمة وأتمّ النعمة، واستخلفني على عباده وبلاده لأتدارك أمر الدين والملك اللذين هما أخوان توأمان، وأقيم رسوم العدل والإحسان» .

وهو خطاب يمكن أن يقوله المنصور العباسي بعد أن أطاح بالدولة الأموية، أو أي خليفة آخر. بل إن هذا الخطاب المنسوب إلى أردشير أفضل بكثير من خطابات بعض الخلفاء حين توليتهم الملك، قائلين للأمة «أدعو الله أن يحنّن قلب أمير المؤمنين عليكم، فإنه لو قسَّاه عليكم بسبب ذنوبكم، لزادكم عنتاً، وذلك بسبب ذنوبكم».

---

(1)العامري: السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية، القاهرة 1991 ص 249، 250 نقلاً عن الجابري (المصدر السابق) ص 163.

(2)من الواضح أن كتابات العامري وعبد الحميد الكاتب وابن المقفع وغيرهم المنقولة عن هؤلاء الأكاسرة هي كتابات اعتمدت الثقافة الإسلامية والاتجاه الديني الإسلامي فغيرّت وبدّلت من أقوال هؤلاء الأكاسرة، وأدخلت كل التعبيرات الإسلامية المعروفة حتى تتلائم مع البيئة المسلمة، تماماً كما فعل فلاسفة المسلمين من بعد .

ويقول أردشير في وصيّته للملوك من بعده «يجب أن يكون المَلِكُ فائضَ العدل، فإن في العدل جماع الخير، وهو الحصن الحصين من زوال الملك وتخرّمه. وإن أول مخايل الأدبار في الملك ذهاب العدل عنه».

وهذه الوصايا والخطب التي تنسب إلى أردشير انتشرت في آخر العهد الأموي وبداية العهد العباسي، بعد أن انتشر الظلم في الدولة الأموية، وقامت الدولة العباسية على أثرها بنظام أشدُّ ظلماً وعتواً. فكان لا بد لهؤلاء الكتاب (كتاب الملوك) أن يخفّفوا من هذا الظلم الواقع بنصائح العدل على لسان أردشير .. وبما أن أردشير قد اشتهر بالعدل وتوحيد الدولة ونشر الأمان، فلا بد أن يصبح أردشير هو المثل الأعلى لهؤلاء الحكام، وذلك بعد صياغة هذه الخطابات صياغة إسلامية واضحة.

وبما أن الخلافة الراشدة قد انتهت بالملك العضوض بعد استيلاء معاوية على الحكم، ثم تحوّل على يد ابنه يزيد إلى حكم طاغوتي معادٍ لكل القيم الإسلامية، فحاول أن يمكّن لنفسه بقتل الحسين في كربلاء، تلك المأساة المروعة لآل بيت النبي محمد ، ثم قام بمذبحة الحرَّة في المدينة، حيث استباح جنده المدينة ثلاثة أيام، تمّ فيها اغتصاب المئات من بنات الأنصار، وقتل النساء والأطفال، ومُنعت الصلاة بل والآذان من المسجد النبوي. وتم الانتقام ليوم بدر، وأخذ يزيد الفاجر الداعر المخمور يتغنّى بأبيات الزبعري في رثاء صناديد قريش يوم بدر ويقول له: ها قد انتقمنا ليوم بدر . والغريب حقاً أن معاوية الثاني ابن يزيد رفض الخلافة وأعلن أنه لا يريد الحكم، ويكفي آل أبي سفيان ما فعله جدُّه معاوية في محاربة الإمام الحق علي بن أبي طالب، وهو عليه محزون ومن مصيره مشفق، ثم جاء أبوه يزيد فقتل الحسين وآل بيت النبي واستباح المدينة، وهو عليه محزون وعلى مصيره مشفق، فقالت له أمه : يا ليتك كنت حيضة (أي نزلت دما)، فقال لها والله يا أماه ليتني كنت حيضة ولم أشهد ما شهدت!! فنقم عليه بنو أمية وقتلوه مسموماً . فسبحان من أخرج الحي من الميت .. وسبحان من أخرج معاوية الثاني من صلب يزيد الفاجر الداعر المخمور الذي مات في سكرته فشقَّ ثوبه وارتطم رأسه بالرخام، فسال دماغه ومات من فوره، وهو سكران، كما يقول الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء.

ثم تولى عبد الملك بن مروان الحكم بعد معارك ضارية مع عبدالله ابن الزبير، وفي خطبة العرش (أي يوم توليته) قال: «لست بالخليفة الضعيف (يقصد عثمان)، ولا بالخليفة المداهن (يقصد معاوية)، ولا بالخليفة المأفون (يقصد يزيد)، ولكن من قال برأسه هكذا قلنا له بالسيف هكذا».

واستمر الحكم الأموي يحتكم إلى السيف، وكثرت الثورات وسالت الدماء .. وكل ثورة يتم القضاء عليها بمزيد من الحكم الاستبدادي الطاغوتي ومزيد من شراء الذمم، وكانت ثورة الإمام زيد ابن الإمام علي زين العابدين من آخر تلك الثورات في العهد الأموي (في عهد هشام بن عبد الملك)، لهذا كان موقف الإمام جعفر الصادق من ثورة عمه، موقف الناصح بعدم الثورة لأن أهل العراق يعدون بالثورة ضد الظلم، فإذا جاءت قوات الطغيان انهاروا، بل وانضموا إلى صفوف أعدائهم . ألم يقولوا للحسين أقدم علينا، فلما قدم عليهم قالوا «قلوبنا معه، وسيوفنا عليه ». وما فائدة قلوبهم إذا كانت سيوفهم مع سيوف الطغيان مع ابن زياد

ويزيد بن معاوية!! وقد حذّره الإمام جعفر من الثورة لأنهم ليسوا إلا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

ولم يكن جعفر الصادق وحده ضد الثورة على الحكم الطاغوتي الظالم، ولكن معظم التابعين كانوا كذلك. لأنهم رأوا أن الثورات لم تأت إلا بمزيد من الدماء، ومزيد من الظلم. ثم إن بني هاشم لما قاموا بثورتهم جعلوا الدعوة للرضا من آل بيت الرسول وكانت البيعة قد تمت لمحمد ابن الحسن المعروف بالنفس الزكية ووافق على ذلك المنصور والسفاح من بني العباس، فلما تمّ الانتصار بقوات أبي مسلم الخراساني تمت سرقة الثورة. ووقف الإمام مالك يؤيد محمد النفس الزكية في ثورته ضد المنصور، ومن قبله وقف الإمام أبو حنيفة مع الإمام زيد في ثورته، ثم رفض أن يتولى أي منصب (قاضي القضاة) لهذه الدولة الجديدة ومات في السجن، وهو يرفض أن يتولى لها أي عمل معلناً بذلك معارضته إياها . (انظر المقدمات للرسالة الذهبية للإمام علي الرضا د. محمد علي البار الدار السعودية ط 4).

فلا عجب إذن أن يتنادى العلماء وكثير من الصالحين بعدم الثورة على الإمام الظالم لأن الثورات كما شاهدوها وعرفوها (ثورات الخوارج، ثورات آل البيت وغيرهم)، لم تؤدِ إلا لمزيد من الدماء ومزيد من الظلم. فكان الأسلم لهذه الأمة، في ذلك الوقت، الاستسلام للحاكم، ووعظه، والحديث باستمرار عن نماذج الملوك العادلين . وربط العدل بالملك ربطاً أساسياً «العدل أساس الملك» «ولا عمارة إلا بعدل وإحسان » و«سعادة الرعية في طاعة الملوك، وسعادة الملوك في طاعة المالك، وهو الله سبحانه وتعالى ». والحديث عن أردشير الملك الفارسي العادل بصورة مستمرّة. وصياغة ما قيل أنه قاله أو كتبه، صياغة إسلامية أمرٌ مهم للوصول إلى هؤلاء الحكام، وجعل اهتمامهم ينصبُّ على إقامة العدل لأن العدل أساس الملك، وما لا أساس له ينهار. وكان هؤلاء الحكام يقبلون المواعظ وتسيل دموعهم إشفاقاً من اليوم الآخر، حين يقدم عليهم أحد العلماء الزهاد ويعظهم من حين لآخر.

وهناك كتاب «التاج» للملك العادل والحكيم أنوشروان . وهو يسير على نفس سنن سلفه أردشير. وقد استفاد منه الجاحظ في كتابه «أخلاق الملوك». وقد قال الجاحظ : «وعنهم (أي ملوك الفرس) أخذنا قوانين الملك والمملكة، وترتيب الخاصة والعامة وسياسة الرعية، وإلزام كل طبقة حظّها، والاقتصار على جديلتها»[1] .

ويقول أبو العلاء سالم بن عبد الرحمن الذي تولى ديوان الرسائل في أيام هشام بن عبد الملك (105 - 125هـ): «فبالخلافة أبقى الله من أبقى في الأرض من عباده، وإليها صيّره، وبطاعة من ولاّه (الله) إياها سعد من ألهمها ونصرها »... «ففي طاعة الأئمة في الإسلام، ومناصحتهم على أمورهم، والتسليم بما أمروا به، مهمٌّ كل نعمة فاضلة، وكرامة باقية، وعافية متخلّلة، وسلامة ظاهرة وباطنة» كما يقول عبد الحميد الكاتب (تولى ديوان الكتاب لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية) وقد كرّس هؤلاء الكتاب مفاهيم الطاعة المطلقة للحاكم، على عكس المفهوم الإسلامي الأصيل «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » و«إنما الطاعة في المعروف » . ورغم أن هؤلاء الكتاب لم ينقضوا هذه القاعدة، ولكنهم

(1)الجاحظ: كتاب «التاج في أخلاق الملوك» الشركة اللبنانية للكتاب ص 31 .

قصروها على إقامة الصلاة، فما دامت الصلاة تقام، فلا تجوز الثورة والخروج على الحاكم الظالم والفاسد والفاسق. وتمّ في ذلك إيجاد أجيال تتربّى على هذه المفاهيم، وصيغت أحاديث نبوية لتدعيم هذا الاتجاه، ورُفضت الأحاديث الأخرى التي تدعو إلى الإنكار على الظالم، والإنكار على مرتكب الكبيرة، وعلى المفاسد «وأفضل الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام ظالم فأمره ونهاه فقتله » (أي الإمام الظالم).. وثم تدعيم عدم الخروج على الإمام الظالم الفاسق «ما أقاموا فيكم الصلاة».. «وما لم تروا كفراً بواحا لديكم من الله فيه برهان».

ولا شك أن الخلافة الأموية تحولت من خلافة راشدة إلى ملك عضوض كما ذكر ذلك المصطفى حيث قال: «الخلافة بعدي ثلاثون، ثم تكون ملكاً عضوضاً » ، وقد تحولت إلى هرقلية وكسروية، ومع ذلك بقيت أحكام الإسلام ومعالم الإسلام، وحافظ عليها هؤلاء الحكام، طالما أنها لا تهدّد عروشهم . واستطاع العلماء بتأليفاته م ورسائلهم وكتبهم أن يدعموا مبدأ «العدل أساس الملك » فتحسّنت أوضاع الناس، وكان للقضاء دوره واستقلاله .. واتسعت الدولة من حدود الصين شرقاً إلى حدود الأطلسي في إسبانيا والبرتغال وموريتانيا (المغرب الأقصى) والمغرب، غرباً . ثم بانتهاء الدولة الأموية ظهرت الخلافة الأموية في إسبانيا، وظهرت حكومة الأدارسة في المغرب، ثم تعدَّدت الدول في الدولة العباسية التي تحولت إلى دولة فيدرالية أو كونفيدرالية ... ومع هذه الثورات والأنظمة المتعدّدة (الأموية، العباسية، الفاطمية، الأدارسة... إلخ) ارتقت الثقافة وازدهرت العلوم.. ولكن بقيت الدولة تحكم بواسطة الشخص القوي الذي يستطيع أن يصل إلى الحكم . فإذا نجحت ثورته وتقلّد الأمور وجبت طاعته!!.

أما إذا فشل ولم ينجح فدمه هدر، وهو قد أوبق نفسه . وكثير من الكتاب ساروا على هذا المبدأ. وكُتُبِ الأحكام السلطانية لم تخرج عن هذا المبدأ، وكذلك فعلت كتب الآداب السلطانية وأخلاق السلطان وما ينبغي له، وكيف يختار حاشيته ورجال دولته . وكيف يؤمّن الدولة خارجياً وداخلياً، وعليه دائماً أن يقيم العدل.

التأثير الفارسي على المسلمين

ابن المقفع[1] وتأثيره في

نظام الأخلاق السلطانية والعامة[2]

التأثير الفارسي على المسلمين:

يعتبر ابن المقفع عَلَماً في كتابة الأدب وا لأسلوب البليغ وهو زميل لعبد الح ميد الكاتب أشهر كتاب الرسائل في التاريخ الإسلامي . ولكنه ابتعد عن الدولة الأموية لأنه شاهد بداية الانهيار، وتيقّن من ذلك، فلم يقم كزميله عبد الحميد بالعمل في ظلّها، بل كان هواه مع الثورة التي يقودها أبو مسلم الخراساني للرضا من آل محمد.

وتنسب لابن المقفع مجموعة من الكتب التي نقلت النظام الكسروي الفارسي مع الإشادة به وبعدله. ومن هذه الكتب كتاب الملوك (خداي نامه) وهو في تاريخ ملوك فارس، وكتاب «التاج» في سيرة أنوشروان، وكتاب العادات والقوانين (أيين نامه)، ولكن أهم كتبه وأشهرها كليلة ودمنة، والأدب الكبير، والأدب الصغير، ورسالة الصحابة (أي صحابة الملك وليس المقصود صحابة رسول الله).

ويعتبر كتاب كليلة ودمنة أشهر كتبه. وهو كتاب هندي وضع باللغة السنسكريتية، ثم نقل إلى الفارسية، وأضيف إليه مفاهيم فارسية جديدة، ثم نقله ابن المقفع إلى اللغة العربية من الفارسية، وأبدع صياغته. ونُقل بعد ذلك من اللغة العربية إلى اللغات الأوروبية، وصار من أشهر كتب التراث العربي مع ألف ليلة وليلة.

والكتاب وضع على لسان الحيوانات . وقد استطاع الفيلسوف بيدبا أن يؤثر عل ى الملك الطاغية دبشليم وأن يحوُّله إلى ملك مستنير عادل عن طريق قصص الحيوانات المتعددة.

ويركز الجانب الهندي من الكتاب على الجوانب الأخلاقية والبعد عن السلطان ومصاحبته والتحذر منه، بينما يركز الجانب الفارسي من الكتاب على وجوب الطاعة للسلطان، وخاصة أن السلطان قد قام بالعدل، وردّ المظالم، وعمل بمشورة الحكيم بيدبا فأخذ للدنيء من الشريف، وللضعيف من القوي وردَّ المظالم ووضع سَنَن العدل.

---

(1)ولد ابن المقفع بالبصرة: سنة 106هـ من أب فارسي مجوسي وأسلم ابن المقفع واتخذ اسم عبد الله . وكان صديقاً حميماً لعبد الحميد الكاتب، ولكنه ابتعد عن خدمة الدولة الأموية، وعاش إلى انتصار الدولة العباسية، وكتب لأعمام الخليفة المنصور.

ولما خرج عبد الله بن علي العباسي على المنصور مدّعياً أنه أحقّ بالخلافة من المنصور انهزم عبد الله بن علي وهرب إلى عيسى بن علي. وكان ابن المقفع كاتباً له فكتب إلى المنصور ليؤمن الثائر، وشدّد ابن المقفع في كتابه صيغة الأمان «وإن غدر المنصور بالعهد تكون نساؤه طوالق ودوابه حبس (أي وقف على المسلمين)، وعبيده أحرار والمسلمون على حل من بيعته». وقد غضب المنصور لذلك فأوعز بقتل ابن المقفع فقُتل.

(2)هذا الفصل منقول بتصرف واختصار من كتاب الدكتور محمد عابد الجابري «العقل الأخلاقي العربي » مركز دراسات الوحدة العربية ط 2، سنة 2006 ص 171 - 196، والجابري رغم أنه علماني وضد نظام الحكم الإسلامي إلا أنه واسع الإطلاع والثقافة، ويستخدم معلوماته استخداماً مغرضاً وفي بعض الأحيان يكذب كذباً مباشراً.

وتقول خطبة الكتاب: «إن الملوك لها سورة كسورة الشراب (أي الخمر)، فالملوك لا تفيق من السورة إلا بمواعظ العلماء وأدب الحكماء . والواجب على الملوك أن يتّعظوا بمواعظ العلماء. والواجب على العلماء تقويم الملوك بألسنتها، وتأديبها بحكمتها، وإظهار الحجة البيّنة اللازمة لهم ليرتدعوا عمّا هم عليه من الاعوجاج والخروج عن العدل» .

وقد استطاع الفيلسوف بيدبا بحكمته وبقصص الحيوانات التي تقول الحكمة بد لاً عنه أن يحوّل الملك إلى حكيم يقرأ كتب الحكمة ويتمثلها، ويقيم العدل في أرجاء مملكته. ويقوم كتاب «كليلة ودمنة» بتأديب العامة وبذل طاعتها للملك، وبتوجيه الملوك وتوضيح أخلاقهم وما ينبغي عليهم نحو الرعية من العدل والانصاف، ورياضة عقول الخاصة، وهم صحبة السلطان وكتّابه، ثم سياسة الإنسان نفسه وأهله وخاصته.

ويقرر ابن المقفع في كتاب الأدب الكبير ما يلي : «الأصل في الدين الإيمان، وفي صحة الجسد اجتناب كثرة الأكل، وفي الشجاعة الإقدام، وفي الجود إعطاء ذي الحق ما يستحق وأكثر، وفي الكلام تجنّب الخطأ وبلوغ الصواب، وفي المعيشة طلب الحلال، وحسن التقدير في المال، دخله وخرجه »، وينصح السلطان بعدم الاغترار بما يكون فيه من سعة ووفرة مال، «فإن أعظم الناس خطراً أحوجهم إلى التقدير، والملوك أحوج إلى التقدير من السوقة، لأن السوقة قد تعيش بغير مال، والملوك لا قوام لها إلا بالمال ... ثم إن قدرت على الرفق واللطف في الطلب، والعلم بالمطالب فهو أفضل » ويقول للملك : «إن ابتليت بالسلطان (السلطة) فتعوّذ (أي الجأ وتحصّن) بالعلماء. واعلم أن من العجب أن يُبتلى الرجل بالسلطان فيريد أن ينقص من ساعات نصَبِه وعمله فيزيدها في ساعات دعته وشهوته» .

وهي دعوة قوية وجريئة حيث يعتبر أن السلطة من البلايا، وأن على من ابتلى بذلك أن يستعين بالعلماء وذوي الخبرة والصدق في تسيير أمور الدولة، ولا يركن إلى الراحة واللذة فإن المُلك يستدعي الانتباه، ومعرفة دخائل الأمور وبواطنها. ولا بد من اليقظة، ولا يتم ذلك بالانغماس في الشهوة، وترك الأمور الهامة للأعوان، فإنهم يفسدون إذا فسد أو تراخى في القيام عليهم».

ويقرر ابن المقفع «أن المُلك ثلاثة: مُلك دين، ومُلك حزم ومُلك هوى.. فأما مُلك الدين فإنه إذا أقيم لأهله دينهم، وكان دينهم هو الذي يعطيهم ما لهم، ويلحق بهم الذي عليهم، أرضاهم ذلك، ونزل الساخط منهم منزلة الراضي في الإقرار والتسليم. وأما مُلك الحزم فإنه يقوم به الأمر، ولا يسلم من الطعن والتسخّط، ولن يضرَّ طعن الذليل مع حزم القوي (أي استخدام القوة والبطش عند الحاجة لها)». أما ملك الهوى فسمّاه «لعب ساعة ودمار دهر» .

وهنا تتضح حكمة ابن المقفع فحكم الدين يجعل أتباع هذا الدين راضين بأحكامه، ولو وقع على بعضهم بعض ضرر، لأن الدين يقوم بالعدل ويضطر الساخط منهم إلى الإقرار والتسليم، فيكون بمنزلة الراضي.

فإذا لم تكن هناك دولة تقوم على الدين، فعليها أن تقوم بالحزم والعدل ..فإذا خرج عليها خارج بسبب ظلم أصابه أو ضرر ألمَّ به، فإن القوة كفيلة بردعه . وأخطر الأمور دولة تقوم على اللعب والهوى، فهذه لعب ساعة ودمار دهر، وقد صدق.

ويتحدث ابن المقفع عن كاتب السلطان وحاشيته في عدد من كتبه. ففي كليلة ودمنة يتحدث على لسان كليلة (ابن آوى) الذي ينصح أخاه (دمنة) الذي أراد أن يلتحق بالسلطان فيقول له : «أما إن كان هذا هو رأيك فإني أحذرك صحبة السلطان، فإن صحبة السلطان خطر عظيم، وقد قالت العلماء: إن أموراً ثلاثة لا يجتريء عليها إلا أهوج، ولا يسلم منهن إلا القليل: وهي صحبة السلطان، وائتمان النساء على الأسرار، وشرب السمّ للتجربة» . ومن ذلك قوله : «إن مصاحبة السلطان خطرة، وإن صوحب بالسلامة والثقة والمودة وحسن الصحبة » وقوله: «من ذا الذي صحب السلطان فدام له الأمن والإحسان» وقوله على لسان الطائر: «ويل لمن ابتلي بصحبة الملوك.. ولا يحبّون أحداً ولا يكرم عليهم إلا إذا طمعوا فيما عنده من غَنَاء .. فإذا ظفروا بحاجتهم منه فلا ودّ ولا إخاء ولا إحسان ولا مغفرة ذنب ولا معرفة حق» .

ويقول على لسان ابن آوى الذي أراد الملك (الأسد) أن يستخدمه، لما بلَغَهُ عنه من عفاف ونزاهة وزهد وأمانة وكفاءة فاعتذر فأصرّ الملك فقال ابن آوى : «إنما يستطيع خدمة السلطان رجلان : إما فاجر مصانع ينال حاجته بفجوره ويسلم بمصانعته، وإما مغفّل لا يحسده أحد. فمن أراد أن يخدم السلطان بالصدق والعفاف فلا يخلط ذلك بمصانعته، وحينئذ قلَّ أن يسلم على ذلك، لأنه يجتمع عليه عدو السلطان وصديقه بالعداوة والحسد .. فإذا اجتمع عليه هذان الصنفان هلك» . ثم أضاف: «إن كان الملك يريد الإحسان إليّ فليدعني في هذه البرّية أعيش آمناً قليل الهمّ ... فإني قد علمت أن صاحب السلطان يصل إليه من الأذى والخوف في ساعة واحدة ما لا يصل إلى غيره طوال عمره» .

وورد مثل هذا النقد لأخلاق السلطان وحاشيته في «الأدب الكبير» «والأدب الصغير»، ويقول ابن المقفع لكاتب السلطان أو من يستخدمه السلطان: «إن شغلت بصحبة الملوك فعليك بطول المرابطة في غير معاتبة، ولا يحدثنّ لك الاستئناس غفلة وتهاوناً » . ويقول: «إن ابتليت بصحبة والٍ لا يريد صلاح رعيته فاعلْم انك قد خُيّرت بين خُلتين ليس منهما خيار : إما ميلك مع الوالي على الرعية، وهذا هلاك الدين، وإما الميل مع الرعيّة، وهذا هلاك الدنيا . ولا حيلة لك إلا بالموت أو بالهرب .. واعلم أنه لا ينبغي لك، وإن كان الوالي غير مرضيّ السيرة، إذا علقت حبالك بحبله، إلا المحافظة عليه، إلا أن تجد إلى الفراق الجميل سبيلاً» .

وينصح من ابتُلي بذلك برياضة نفسه على طاعتهم فيما يكره «وموافقتهم فيما خالف هواك»، «حتى تستطيع أن تعتزل عن خدمتهم» .

وفي نصيحته للعامة والخاصة يقول ابن المقفع في الصداقة : «ابذل لصديقك دمك ومالك، ولمعرفتك رفدك ومحضرك، وللعامة بشرك وتحنّنك، ولعدوّك عدلك وانصافك، واضنن بدينك وعرضك عن كل أحد.... ومن تمام حسن الخلق أن تسخو نفسك لأخيك بما انتحل من كلامك ورأيك، وتنسب إليه رأيه وكلامه، وتزيّنه مع ذلك ما استطعت ... وتحفّظ في مجلسك وكلامك من التطاول على الأصحاب .. واستحي الحياء كله من أن تخبر صاحبك أنك عالم وأنه جاهل» .

وفي «أدب النفس» يقول ابن المقفع إن على الإنسان العاقل أن يتميّز بخصال إذا ضيعها خرج من زمرة العقلاء :

(1) إختيار ما يدوم من اللذات وتجنّب ما يدوم من الآلام، وبالتالي تفضيل الآخرة على الدنيا، والمروءة على الهوى، والرأي الجامع الذي تصلح به النفس والأعقاب (الذرية) على حاضر الرأي الذي يستمتع به قليلاً ثم يضمحل .

(2) وضع الرجاء والخوف في موضعهما .

(3) تنفيذ البصر (أي التثبّت والمعرفة) بالعزم . فعدم البصر تيه، وعدم العزم زمانه وضعف وخَوَر .

(4) محاسبة النفس ومخاصمتها ومعاقبتها .. يحاسبها كل ليلة، وكل شهر، وكل سنة، حتى لا تنساق وراء النفس الأمّارة بالسوء. والحزن على السيئة والفرح بالحسنة.

(5) ذكر الموت في كل يوم وليلة فإن في ذلك عصمة من الأشر (البطر) وأمانا من الهلع.

(6) إحصاء مساوىء النفس، ويكلّف نفسه إصلاح خُلَّة من مساويها كل يوم .

(7) أن لا يصاحب إلا ذا فضل في دين وخلق وعلم .

(8) أن لا يحزن على شيء فاته من الدنيا .

(9) أن يستعين بذوي الألباب على مداواة نفسه .

(10) أن يجعل وقته على أربع : ساعة يرفع فيها حاجته إلى ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه الذين يصدّونه عن عيوبه، وساعة يخلّي فيها بينه وبين لذّاتها فيما يحلّ ويجمل .

(11) أن لا يرغب إلا في إحدى ثلاث : تزوّد لمعاد، ومَرَمَّة لمعاش (ما يكفي لمعاشه) ولذة في غير محرّم .

(12) أن لا يستصغر شيئاً من الزلل .

(13) أن يعرف أن الرأي والهوى متعاديان فعليه أن لا يتّبع الهوى .

(14) وإذا اشتبه عليه أمران، فليترك أهواهما عنده .

(15) من نصب نفسه إماماً في الدين فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها حتى يكون قدوة . ويكون بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه .

(16) وأما ولاية الناس فبلاء عظيم وعلى الوالي أربع خصال وهي:

(أ) التخيرّ والاجتهاد في معرفة من يصلح للوظائف الهامة كالوزراء والعمال.

(ب) إسناد المهام وتحديدها إلى الأكفاء ثم محاسبتهم .

(ج) المراقبة والتعهد حتى يعرف ما يدور، ومعرفة أعمال الوزراء والعمال وتفقّد ما يفعلون.

(د) الجزاء الإحسان لمن أحسن ومعاقبة من أساء من هؤلاء المسؤولين.

وفي كتابه «الصحابة» (يقصد صحابة السلطان إلا أنه تعمّد هذا اللفظ ليوهم أن الخليفة في مقام النبي بالنسبة للأمة، وأن أصحابه في مقام صحابة رسول الله في المناصرة والتأييد والمشورة وبذل النفس له) يقول ابن المقفع: «وفي الذي قد عرفنا من طريقة أمير المؤمنين ما يشجّع ذا الرأي على مبادرته بالخبر فيما ظنَّ أنه لم يبلّغه إياه غيره بالتذكير بما قد انتهى إليه ... مع إن مما يزيد ذوي الألباب نشاطاً إلى إعمال الرأي فيما يصلح الله به الأمة في يومها أو غابر دهرها، الذين أصبحوا قد طمعوا فيه، ولعلّ ذلك أن يكون على يدي أمير المؤمنين، فإن مع الطمع الجدّ، ومع اليأس القعود». والمقصود بذلك أن يكون أصحاب الملك من ذوي الرأي والجدّ يطمعون ويطمحون إلى توجيه عملية بناء الدولة الجديدة لما فيه صلاح الأمة اليوم، وما كانت عليه من الصلاح في غابر زمنها.

وتنصح هذه الرسالة بالاهتمام بجند خراسان، «فإنهم جند لم يدرك الإسلام مثلهم، هم أهل بصر بالطاعة، وفضل عند الناس، وعفاف نفوس وفروج، وكفٍّ عن الفساد وذلّ للولاة، فهذه حال لا نعلمها عند أحد غيرهم» . ولا يستغرب أن يوصي عبد الله بن المقفّع الفارسي بجند خراسان. والواقع أن الدولة العباسية لم تقم إلا على أكتافهم.. ولم تظهر هذه الدولة إلا بجهود أمثال أبي مسلم الخراساني. وقد اعتمدت الدولة العباسية في تأسيسها عليهم . ثم إن المنصور لفرط دهائه بطش بقادتهم مثل أبي مسلم عندما شعر بقوتهم الطاغية، وأنهم سيكونون خطراً على دولته . ومع ذلك أبقى جند خراسان واستبدل قائداً بآخر، ولكن ه أدخل أيضاً العنصر العربي، واستمر المهدي والرشيد على ذلك من بعده فلما وقعت الفتنة بين الأمين والمأمون، اعتمد الأمين (ابن الرشيد وابن زبيدة ابنة عمه) على العرب، واعتمد المأمون على أخواله من أهل خراسان، فكانت له الغلبة، وتأكدت بذلك سيطرة العنصر الفارسي على الدولة، وصار طاهر بن الحسين مؤسساً للدولة الجديدة (الدولة الطاهرية) في ظل الدولة العباسية .. ثم جاء المعتصم وأدخل العنصر التركي (أخواله الأتراك) حتى سيطروا على الدولة سيطرة تامة.

ويؤكد ابن المقفع على وجوب الطاعة لأمير المؤمنين فيقول : «فإنا قد سمعنا فريقاً م ن الناس يقولون لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق» ، بنوا قولهم هذا بناء معوّجاً فقالوا : إن أمرنا الإمام بمعصية الله فهو أهل أن يُعصى، وأن أمرنا الإمام بطاعة الله فهو أهل أن يطاع، فإذا كان الإمام يُعصى في المعصية، وكان غير الإمام يطاع في الطاعة، فالإمام ومن س واه على حق الطاعة سواء.. وهذا قول معلوم يجده الشيطان ذريعة إلى خلع الطاعة، الذي فيه أمنيته لكي يكون الناس نظائر، ولا يقوم بأمرهم إمام.... «فأما إقرارنا بأنه لا يطاع الإمام في معصية الله، فإن ذلك في عزائم الفرائض والحدود التي لم يجعل الله لأحد عليها سلطاناً ، ولو أن الإمام نهى عن الصلاة والصيام والحج، أو منع الحدود وأباح ما حرَّم الله، لم يكن له في ذلك أمر».

وخلاصة كلامه أن الطاعة لأمير المؤمنين واجبة في كل حال إلا إذا أمر بأمر في أمور من أسس الإسلام مثل الصلاة فنهى عنها، أو الصيام فأمر بالإفطار في نهار رمضان ، أو منع الحج، أو منع الحدود، أو أباح ما حرّم الله، فذلك كله لا طاعة له. أما في الأمور الأخرى التي تحتاج إلى الرأي والتدبير فطاعته واجبة.. و«ليس لأحد من الناس حقٌ فيها إلا الإمام،

ومن عصى الإمام فيها أو خذله فقد أوتغ (أهلك) نفسه، فطاعة الله لا تتعدّى ما شر عه الله في الدين، وهو قليل محصور.. ثم جعل ما سوى ذلك من الأمر والتدبير إلى الرأي، وجعل الرأي إلى ولاة الأمور، ليس للناس في ذلك الأمر شيء إلا الإشارة عند المشورة، والإجابة عند الدعوة، والنصيحة بظهر الغيب».

وهو أمر قد سار عليه الملوك منذ عهد معاوية بن أبي سفيان الذي حوّل الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض، ثم ازداد الأمر سوءاً في عهد ابنه يزيد، واضطربت الدولة بوفاته مخموراً بعد أن انشقَّ دماغه، ثم ثبَّتها عبد الملك بن مروان بالسيف والبطش والدهاء . وبقيت في ذريته إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز فكان فلتة، أعادت العدل والحكم الراشدي فضاق بذلك بنو أمية فعاجلوه بالسمّ، وعادوا إلى سابق عهدهم، حتى اكتنفتهم الثورات من كل حدب وصوب فدمّرت الدولة، وقامت دولة بني العباس فسارت على سننها وطريقتها إلا أنها أوجدت مجموعة من الكتبة من أمثال ابن المقفع الذين برّروا لها سياستها وازداد الحكم الملكي طغياناً في عهد المنصور، وتمّ تبرير ذلك كله بأقوال ابن المقفع وأمثاله.

ومما نصح به ابن المقفع أبا جعفر المنصور استحداثُ نظامٍ مركزي للقضاء يكون القول الفصل فيه لأبي جعفر المنصور ففعل ذلك . (وكان أبو جعفر قد طلب من أبي حنيفة تولي القضاء فأبى عليه ذلك. وانتهى الموقف بأبي حنيفة إلى السجن، ومات فيه).

وعلى الخليفة أن يختار صحابته من ذوي الفضل والمروءة، فهم الذين يلازمون الخليفة، والناس تتّخذ من صلاحهم علامة على صلاح الحكم كله .. وأن يكون صحابة الخليفة، كل واحدٍ منهم في موضعه وموقعه، فلا يكون للكاتب أمر في رفع رزق أو وضعه، ولا للحاجب في تقديم إذن ولا تأخيره، بل يكون كل ذلك لأمير المؤمنين وحده أو لقرابته من فتيان أهل بيته. ونصح أمير المؤمنين بأن يوظف على الرساتيق والقرى والأرضين وظائف معلومة، أي أنه يحدّد عليهم ضرائب محدّدة يدفعونها سواء زرعوا أم لم يزرعوا. وذلك أدعى لهم لاستثمار الأرض. وعليه أي على الخليفة الاهتمام بالخاصة، فهي التي تضمن ولاء العامة . وحاجة الخاصة إلى الإمام الذي يصلحهم كحاجة العامة إلى خواصهم وأعظم، فبالإمام يصلح الله أمرهم، ويكبت أهل الطعن عليهم، ويجمع رأيهم وكلمتهم، ويبيّن لهم عند العامة منزلتهم».

وهكذا تدور كتابات ابن المقفع حول ثلاثة محاور: (1) السلطان (2) أخلاق السلطان (3) أخلاق الكاتب (كاتب السلطان) .

وكلام ابن المقفع مباشر ولا ينقل عن مصادر فارسية أو يشير إليها (وإن كان معتمداً عليها) كذلك لا يوشّي كلامه بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، كما كان يفعل الكتَّاب قبله وبعده . وهو صريح في أن ما عدا العبادات وأمور الدين القاطعة مثل الحدود والحلال والحرام، فهي كلها إلى الإمام يفعل فيها حسب ما يريه الله، وحسب ما تقتضيه المصلحة، ولا بد في ذلك من مشورة رجال دولته. ولكن الرأي الأول والأخير له هو وحده، ولا أحد سواه.

وكُتب الآداب والأحكام السلطانية من بعد ابن المقفع تسير على هذا النسق، ولكنها تشدّد في الالتزام بالعدل، والالتزام بالأحكام الشرعية.. والخلفاء في ذلك درجات، فمنهم من يقترب

اقتراباً شديداً في تنفيذه لأحكام الشرع وإقامة العدل، ومنهم من يشتطّ ويبعد النجعة في الظلم واتباع الهوى.

الفصل السادس
الفلسفة والدين والأخلاق في الحضارة اليونانية

الفلسفة والدّين والأخلاق في الحضارة اليونانية[1]

تعتبر الحضارة اليونانية من أعظم الحضارات. وهي كغيرها من الحضارات أخذت عمّن سبقها من الأمم. وهناك تأثيرات مصرية وبابلية قوية جداً في الحضارة اليونانية، كما أنها تأثرت ببعض عقائد الهندوس (تناسخ الأرواح)، (والبوذية وحدة الوجود)، وتأثرت أيضاً بعدوتها اللدودة الحضارة الفارسية الاخمينية.

وتتميز الحضارة اليونانية بالآتي:

(1) اعتماد العقل والفلسفة بشكل لم تسبق إليه في الحضارات السابقة، وظهور عدد كبير من الفلاسفة الذين أثّروا في تاريخ البشرية. ولا يزال تأثيرهم بشكل من الأشكال موجوداً إلى اليوم.

(2) اعتماد النظام الديمقراطي في نظام الحكم. بل إن الألفاظ اليونانية لأنظمة الحكم لا تزال تستعمل إلى اليوم. ورغم أن الديمقراطية كانت مقتصرة على الأحرار الذين يملكون عقاراً أو أراضي.. ولا يدخل فيها بطبيعة الحال العبيد ولا الفقراء ولا النساء إلا أنها كانت تعتمد على الحكم المباشر من الجموع الغفيرة نسبياً التي لها حق التصويت.

وكانت هذه الجموع هي التي تعيّن الحاكم. كما كانت هي التي تشكل الجمعية العامة أو البرلمان، وهي التي تشرّع وتقرّ القوانين. وكان عدد أفراد هذه الجمعية العامة ecclessia (البرلمان) كبيراً جداً. كما كانت الجماهير هي التي تعيّن القضاة والمحلّفين. ويكون عدد المحلّفين كبيراً جداً يفوق الألف.. وهو أمر يجعل سير القضاء متعثراً، وينبني على من يستطيع أن يحرك هذه الجموع ببلاغته وفصاحته. ولم يكن من السهل رشوة هذه الأعداد الغفيرة من المحلّفين. وكان لكل فرد يبلغ الواحدة والعشرين ويملك أرضاً أو منزلاً في أثينا من الذكور الحق في الترشيح للجمعية العامة (البرلمان): أو هيئة القضاء، بل كان من الواجب على كل مواطن بهذه الشروط المذكورة آنفاً أن يتولى منصباً في البرلمان أو القضاء أو الإدارة الحكومية أو الجيش لمدة لا تقلّ عن عام ولا تزيد عن ثلاثة أعوام.

وكان كثيرون يعارضون هذا النظام الديمقراطي باعتباره يأتي بغير الأكفّاء واقترح أفلاطون نظاماً مختلفاً مبنياً على المنافسة الحرّة (في نظام تعليمي صارم ينتهي بإيجاد العالم الفيلسوف الإداري الناجح الذي سيحكم أثينا مع مجموعة قليلة من هؤلاء الحكماء العلماء المدربين تدريباً عالياً، والذين يبتعدون عن المطامع الدنيوية، ولا يكون لهم إلا المرتب المقرّر لكل واحد منهم. وقد تخيّل أفلاطون أن نظام الأسرة والزواج والأولاد يؤدي إلى الأثرة وإلى اكتناز المال والفساد. فجعل هذه الطبقة المميّزة تعيش حياة الزهد والتقشف بدون أسر ولا زواج ولا أولاد. واعتبر أن المال القليل لهذه الطبقة يجب أن يكون مشاعاً وأن النساء أيضاً يجب أن يكُنَّ مشاعات. وهو أول نظام شيوعي مبني على فلسفة طوباوية خيالية. وقد جاء بعده مزدك في الدولة الفارسية، وطبَّق النظام الشيوعي بحذافيره فأدّى إلى إفساد البلاد والعباد، وذلك في أيام الملك الفارسي قباذ. ولم ينقذ البلاد من شرِّه إلا وفاة قباذ وتولّي

(1)هذا الفصل مقتبس من ول ديورانت: قصة الفلسفة، وول ديورانت قصة الحضارة الجزء السابع ومراجع أخرى.

ابنه أنوشروان الحكم الذي كان منكراً لهذا النظام المدمّر، فمنع الشيوعية وقتل مزدك وأعاد البلاد إلى نظامها القديم.

(3) اعتمدت الحضارة الأغريقية وخاصة في أثينا نظام الحكم الكونفدرالي أي أن هناك مجموعة من المدن.. وكل واحدة منها لها نظامها الخاص.. وقد يختلف من مدينة إلى أخرى اختلافاً بيّناً فبينما كانت أثينا تحرص على النظام الديمقراطي الذي شرحناه آنفاً نجد أسبارطة تعتمد أساساً على النظام الأوليجاركي Oligarchy أي حكم النخبة، وأحياناً على النظام الديكتاتوري. وأدّى هذا الاختلاف إلى كثير من الحروب وإزهاق الأرواح والحروب بين هذه الأنظمة المختلفة اختلافاً رهيباً.. ولم يكن يخفّف من هذه الحروب إلا إيجاد نظام حكم محلي قوي يسمح لكل مدينة بنظامها الخاص.

(4) ظهرت في أثينا خاصة وفي اليونان عامة حركة فنيّة قوية، وكان للموسيقى والمسرح والنحت والأدب والشعر دوراً هاماً جداً في الحضارة الاغريقية .

وقد تأثرت أوروبا وخاصة منذ عصر النهضة بالفلسفة اليونانية والآداب اليونانية والفن اليوناني تأثراً كبيراً جداً بحيث تجد الكلمات اليونانية لا تزال تستعمل إلى اليوم في كل هذه المجالات الأدبية والسياسية والفنية والعلمية والاقتصادية.

(5) رغم أن اليونانيين كانوا يعبدون عشرات الآلهة، بل مئات الآلهة، وكان لكل جماعة منهم إله، ولكل مناسبة مثل عيد الحصاد أو الزواج إله، إلا أن زيوس كبير الآلهة كان يحكم هذه الآلهة من عرشه في جبل الأولمب . وكان هؤلاء الآلهة قريبين من البشر ولهم طبائع تشبه طبائع البشر، ويتعاركون فيما بينهم، كما أن كثيراً منهم تزوجوا من نساء البشر . ونتج عن هؤلاء ما يسمونهم جيل المردة Titanic وهم قطعاً أقوى من البشر لأنهم أنصاف آلهة وأنصاف بشر ومنهم بروميثوس سارق النار المقدسة (نار المعرفة) والتي أعطاها للإنسان فغضب عليه كبير الآلهة زيوس وعذبه عذاباً أبدياً لم ينقذه منه الا هرقليوس (هرقل) القوي وهو أيضاً من نسل تزاوج الآلهة مع الإنسان وهو ابن زيوس نفسه.

(6) ظهر في اليونان مجموعة من الفلاسفة الذين أنكروا وجود هذه الآلهة واعتبروها أساطير وخرافات . والمجموعة الأولى كانت تضم فيثاغورس (وقد اشتهر با لرياضيات والتوحيد) وزينون (وقد اشتهر بأسلوبه الصارم والصادق في الحياة . وإليه تنتمي مجموعة الرواقيين لأنهم كانوا يتناقشون في رواق المدرسة الفلسفية . (Stoics) . وكانوا على عكس أبيقور ومدرسته الذين ينادون بمبدأ اللذة).

وكان ديمقريطس هو القائل بالنظرية الذريّة (Atom) الجوهر الفرد الذي لا ينقسم . وأنه لا وجود في الكون إلا للجوهر الفرد (Atom) والفراغ. والحواس لا تمدّنا إلا بالمعلومات الظاهرية. أما المعرفة الحقّة فلا سبيل إليها. والحقُّ مدفون على بعد عظيم .. وكل الأحاسيس ناشئة من الجواهر الفردية التي يقذف بها الجسم الخارجي فتقع على أعضاء الحواس. وليست الحواس كلها إلا أشكالاً من اللمس . وهو مذهب مغرق في المادية . ولا يفترق عن مادية أوروبا في القرن التاسع عشر والعشرين في شيء.

وأما أبيقور ومجموعته فيرون السعادة في البعد عن الآلام واقتناص اللذة . وإن كان أبيقور في حياته زاهداً إلا أنه يرى اللذة في الاعتدال في كل شيء.. والآلام تأتي نتيجة الإسراف في أي شيء. ولكن أتباعه حولوا المذهب إلى اقتناص اللذة حتى أصبح اسمه مرادفاً للبحث عن اللذة بأي شكل وأي ثمن، ومنها كلمة Hedonism أي اقتناص اللذة.

وأما الكلبيون Cynics فهم شاكّون في كل شيء. وكذلك السفسطائيون .. وقد أثاروا بحواراتهم التي لا تنتهي كثيراً من الأسئلة الصعبة . ولكن سمعتهم ساءت في اليونان وفي التاريخ.

وأمباذوقليس هو الذي جاء بالمقولة إن المادة لا تفنى ولا تخلق من العدم وكل الذي يحدث هو تغير في اتحاد الجواهر الفردية، لكن صور لأشياء لا حصر لها .. وهي تنشأ وتزول في موكب لا نهاية له. وقد نشأت الكائنات العضوية في مبدأ أمرها من التراب المبلل ثم تطورت في مسار طويل من التطور والارتقاء حتى وصلت إلى الإنسان .. وهي نفس النظرية التي ادّعاها دارون لنفسه بعد ذلك بأكثر من ألفي عام مع بعض التحويرات . ولا تزال مقولات أمباذوقليس تدرس في جميع المدارس والجامعات في العالم على أنها حقائق؟!!.

وأما الناحية الأخلاقية فيقول فيها : والأعمال الحسيّة يجب أن تصدر عن عقيدة لا عن قسر، ويجب أن يفعلها الإنسان للرغبة فيها لا أملا فيما يناله عليها من جزاء ... ومن واجب الإنسان أن يشعر بالعار أمام نفسه إذا فعل الشرّ أكثر مما يشعر به أمام العالم كله».

وهو كلام يتردّد صداه في القرن العشرين عند الفلاسفة الأخلاقيين الملحدين من أمثال برتراند رسل كما نراه بصورة قوية عند الفيلسوف الألماني كانت صاحب فلسفة الواجب Deontology .

ويبدو أن امباذوقليس كان يؤمن بوحدة الوجود وأن الله هو ضمن هذا الكون.. ومع ذلك فله كلام مهم في تنزيه الله : «لن نستطيع أن نقرّب الله منّا قُرباً يمكننا أن ندركه بأعيننا[1] ونمسكه بأيدينا... ذلك أنه ليس له رأس بشري ملتصق بأعضاء جسمه وليس له ذراعان متفرعّتان تتدليان من كتفيه، وليس له قدمان ولا ركبتان... إنه كله عقل لا غير، عقل مقدّس لا ينطبق عليه وصف يومض[2] في طيات العالم كله وميض الفكر الخاطف».

ويرى أن البشر مغرورون وأن الموت يهدم كل ما بنوه من آمال . وفي آخر عمره أخذ يتوسل إلى بني جنسه أن يتطـّهروا من الخطيئة التي طردوا بسببها من السموات [3] ، ويدعو الجنس البشري إلى أن يمتنع عن الزواج[4] ، وهي دعوة أشبه بدعوة أبي العلاء المعري بعد أكثر من 1300 عام ولا يبدو من كلامه أنه يؤمن بالبعث والنشور والحساب.

---

(1)وهو ما جاء في القرآن الكريم: {لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ *}. .
(2) {...لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}..
(3)لعله عرف ذلك من سفر التكوين وقصة آدم في التوراة.
(4)نقلاً عن ول ديورانت: في قصة الحضارة ج 206/7 - 210 .

الفلاسفة الآلهيون[1] : سقراط (469 ـ 399 قبل الميلاد).

لقد كان الفلاسفـة قبل سقراط فلاسفة طبيعيون لأنهم بحثوا عن قوانين وأصول العالم المادي. وقال سقراط: «إنها فلسفة حسنة، ولكن هناك فلسفة أجدر بالفلاسفة أن يدرسوها أكثر من جميع هذه الأشجار والحجارة التي تملأ الطبيعة، وحتى أهم من جميع هذه النجوم والكواكب، ألا وهي عقل الإنسان ».. وهكذا اتجه إلى سبر غور الروح الإنسانية [2] ويعتبر سقراط (القرن الخامس والرابع قبل الميلاد) أشهر هؤلاء الفلاسفة الذين اتخذوا الحوار سبيلاً لهم للوصول إلى المعرفة وبالذات معرفة الإنسان وأخلاقه.

وكان سقراط يسخر من النظام الديمقراطي الذي وضعته أثينا حيث يختارون الحاكم بالقرعة على حين أن أحداً لا يفكر قط في أن يختار بالقرعة مرشد السفن أو البنّاء أو حتى النافخ في الناي، أو أي صانع على الإطلاق، مع أن عيوب هؤلاء أقلُّ ضرراً من عيوب أولئك الذين يفسدون حكوماتنا[3] . ويعيب على الأثينيين حبّهم للتقاضي، وتحاسدهم الصاخب، ومرارة أحقادهم السياسية. ويقول في ذلك : «ولهذه الأسباب تراني على الدوام أخشى أشدَّ خشية أن يحلّ بالدولة شرٌّ تنوء به وتعجز عن حمله ». وكان يظن أن لا شيء ينجي أثينا إلا حكم أصحاب المعرفة والكفاية، وليست السبيل إلى هذا الحكم هي الاقتراع . ويجب أن لا يختار موظفوا الدولة على أساس جاههم أو ثرائهم. وذلك أن الاستبداد وسلطان المال لا يقلُّ شرَّهما عن شرِّ الديمقراطية[4] . ويجب أن تقصر المناصب على الذين تؤهلهم عقولهم والذين يدرَّبون على القيام بما تتطلبه من واجبات.

وقد ثار أهل أثينا على طريقة سقراط الجدلية والتي تشكك في نظام حكمهم الديمقراطي الذين يفخرون به .. وتشكك في آلهتهم التي يؤمنون بها، رغم أنه تجنّب الهجوم عليها والسخرية منها. وقد أدّى موقف سقراط من نظام الحكم الأثيني الديمقراطي إلى الحكم عليه بالإعدام وشرب عصير نبات الشوكران (Hyoscyamous) ليموت تلك الميتة البطولية بعد أن رفض التراجع عن آرائه. (هذا هو ما يقوله ول ديورانت وينكر أنهم أعدموه بسبب إنكاره لآلهتهم المتعددة).

وكان سقراط مثالاً للاعتدال والزهد .. وقد حارب في شبابه عدة مرات دفاعاً عن أثينا (عام 432، 424، 422 قبل الميلاد) وأبدى ضروباً من الشجاعة والصبر، وأنقذ حياة الشاب ألقيباذاس وسلاحه، ومع ذلك نزل عن جائزة الشجاعة لهذا الشاب المسكين . وكان يشتغل بقطع الأحجار ونحت التماثيل (مهنة والده)، وأما أمه فكانت قابلة. وكان يقول عن نفسه أنه يعمل بمهنة والدته ليخرج الأفكار إلى الوجود .. ومع ذلك كان يقبل حضور ولائم أصدقائه وتلاميذه، ولكنه يرفض بإباء ولائم الأغنياء وعطاياهم . ويشرب الخمر باعتدال في

(1)ول ديورانت: قصة الفلسفة ترجمة د. فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت 1988 ص 12.
(2)ول ديورانت: قصة الحضارة ج 236/7.
(3)المصدر السابق.
(4)هذا الكلام يرد على الدكتور محمد عابد الجابري : المغرم باليونان وفلسفتهم وديمقراطيتهم . بل إن فلسفة أفلاطون في جمهوريته تردّ عليه وعلى أمثاله الواهمين والمغرمين بديمقراطية اليونان. انظر كتاب الجابري العقل الأخلاقي العربي وما سبقها من كتب في تكوين العقل العربي، إصدار مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

المناسبات، ويحبُّ زوجته التي لم يلبِّ لها طلباتها الكثيرة. وكان يقول: «الخير كل الخير في حديثي كل يوم عن الفضيلة، وفحصي عن نفسي وعن غيري، لأن الحياة التي لا يفحص عنها غير خليقة بالرجال»[1] .. وكان شديد التواضع، ويحبُّ أن يضع الاسئلة باستمرار، ولكنه لا يجيب عن أي سؤال وكان يقول : «أن اللوم الذي يوجّه إليّ كثيراً، وهو أني أسأل الناس أسئلة، وأن ليس لديَّ من العقل ما أستطيع أن أجيب عنها، لوم عادل لا اعتراض لي عليه. وسببه أن الله أرغمني على أن أكون قابلة ونهاني عن أن ألد»[2] .

ولم يكن يدّعي أنه يعلِّم أكثر من فن بحث الأفكار، وكان يأبى أن يأخذ أجراً على تعليمه، وكان يرغب في تقوية الأخلاق، ويكره البلاغة والشقشقة . ويعلّم في الطرقات والأسواق . وكان ينادي بفلسفة: «أعرف نفسك بنفسك» المكتوبة على معبد دلفي.

ومع هذا فقد أُتهم سقراط كما أُتهم غيره من فلاسفة اليونان بأنهم كانوا شاذين جنسياً ويحبون الغلمان[3] .

وكان يشك تماماً في وجود اليوم الآخر والبعث والنشور كما كان يشك في آلهة اليونان ويقرّ بوجود إله للكون بدون أن يدخل في التفاصيل.

(2) أفلاطون [4]: (427 - 347 قبل الميلاد).

لقد كان اجتماع أفلاطون بسقراط نقطة تحول في حياته، فقد نشأ ثريّاً ووسيماً، ونال جائزة الألعاب، واشترك في الحرب، وكان جندياً شجاعاً وبارزاً. وعندما التقى هذا الشاب المراهق بسقراط غيّر مجرى حياته وتحوّل إلى الفكر والفلسفة.

وكما كان سقراط أستاذه ضد الديمقراطية اليونانية الأثينية، كذلك كان أفلاطون، ووضع نظريات مفصَّلة في كيفية الوصول إلى الأعقل والأحكم من الرجال الذين ينبغي أن يحكموا أثينا واليونان. وقد باءت محاولته في إنقاذ أستاذه سقراط من الموت بالفشل وأدّت إلى اتهامه من قبل الزعماء الديمقراطيين مما دفعه إلى السفر، فذهب إلى مصر وتأثر بما سمع من طبقة الكهنة الذين كانوا يحكمون مصر، ثم ذهب إلى صقليّة وإيطاليا، والتحق بمدرسة فيثاغورس، ويقال أنه ذهب إلى فلسطين ومنها إلى فارس والهند . واستغرقت رحلته تلك اثنا عشر عاماً (من سنة 399 إلى سنة 387 قبل الميلاد). وعندما عاد كان قد بلغ الأربعين ونضج . وتميز أفلاطون من بين الفلاسفة بأسلوبه الأدبي ومزاجه الشعري ووضع كتابه الهام (الجمهورية) بهذا الأسلوب الفريد . واعتبر أفلاطون أن الحقائق الظاهرة متغيّرة، ولكن وراءها الحقائق الثابتة الدائمة وهي ما أطلق عليه اسم (المُثل) وهي عالم المفاهيم المجرّدة . والعالم عالمان : عالم المحسوسات الجزئية، وعالم المعقولات أو المُثل. ويرى أفلاطون أن الأقوياء يفرضون ما يريدون ويدّعون أن ذلك هو العدالة . وكما قال باركليز حاكم أثينا : «إن امبراطوريتكم تقوم على قوتكم لا على نيّة رعاياكم الطيبة.. وأن الحق ليس سوى مسألة بين دول متساوية

(1)ول ديورانت: «قصة الحضارة» ج 227/7 ويبدو أن هناك مبالغة في وصف هجوم زوجته عليه وشتمها له..
(2)المصدر السابق: ص 230 .
(3)ول ديورانت: قصة الحضارة ج226/7.
(4)ول ديورانت: قصة الفلسفة 19 - 66 .

في القوة. والقوي يفعل ما يقدر على فعله، والضعيف يعاني ويقاسي بسبب ضعفه» .. وفلسفة أوروبا منذ العهد اليوناني إلى الروماني إلى العهد الحديث وإلى اليوم تتبع فلسفة القوة التي نادى نيتشه بها فيما بعد.

ولذا فقد بنى أفلاطون جمهوريته على أسس أخلاقية، وحارب شراهة الإنسان والترف التي تؤدي إلى اعتداء جماعة على جماعة أخرى لتستلب مالها وأرضها . وفي كل مدينة هناك مجموعة الأثرياء والبورجوازيين ومجموعة الفقراء والمساكين .. ولا عدالة في توزيع الثروة مما يؤدي إلى الظلم على مستوى الأمة، وعلى المستوى الفردي، وعلى مستوى المجتمع الإنساني بين الأمم.

ويرى أفلاطون أن الحكومة الأرستقراطية تدمّر نفسها بسبب التهافت على جمع الثروة والسلطة . أما الديمقراطية فتدمّر نفسها بالإفراط في الديمقراطية، وتولية غير الأكفاء لمناصب الدولة الهامة دون إعدا د. ويتم اختيار هؤلاء إما بالقرعة أو بالانتخاب .. وكلاهما يؤدي في معظم الأحيان إلى وصول الأقل كفاءة والأكثر ضجيجاً وأنصاراً وبلاغة[1] .

لهذا كله يرى أن الحكماء والفلاسفة يجب أن يحكموا . وكي نصل إلى هؤلاء الحكماء المهرة في إدارة شؤون الدولة يحتاجون إلى إعداد ط ويل وتدريب قاسي . ويقترح أفلاطون نظاماً للتربية والتعليم كالآتي لكل الأطفال:

المرحلة الأولى : عشر سنوات حيث ينبغي أن تكون التربية معنيّة بجسد الطفل أساساً، وينبغي أن يقام في كل مدرسة ملعب وساحة رياضية ونقوّي بها صحة الأطفال الجسدية والنفسية. ونعلمهم الذوق والأخلاق الحسنة عن طريق الموسيقى. ذلك لأن التناغم والانسجام الموسيقي يجدان طريقهما إلى خفايا الروح ويجعلان الروح رشيقة ولطيفة .. وقد قال دانيال أوكنيل: «دعني أكتب أغاني الشعب ولا أبالي بمن يضع قوانينه ». والموسيقى تحدث صفاء في الشعور والخلق وتحفظ وتسترد الصحة أيضاً. والإفراط في الموسيقى ضارّ كالإفراط في الرياضة البدنية، لأن الموسيقى تؤدي إلى الميوعة والرخاوة إذا أدمنت، أما الرياضة المفرطة والمصارعة فتؤدي إلى الخشونة والتوحش . ولذا يجب مزجهما معاً وأن تنمو الأجسام والأنفس والعقول في الهواء الطلق والمتنزّهات والأم اكن الخلوية .. ويتم تدريب هؤلاء الطلبة الصغار على الحياة الجماعية والتضامن والاتحاد، وأنهم كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضاً، وأنهم مدينون لبعضم بالتزامات متعدّدة متبادلة (نفس مبادىء التربية الحديثة).

ويعتقد أفلاطون أن الشعب لا يمكن أن يكون قوياً ما لم يؤمن بالله، وهو إله يستطيع أن يحرك القلوب نحوه بالخوف والرجاء [2]... وإذا أضيف إلى ذلك الإيمان بوجود حياة أبدية في

---

(1)وهذا ما يحدث للأسف في النظام الديمقراطي إلى اليوم، وتستطيع القوى الخفيّة (رجال المال والنفوذ من اليهود ورجال البنتاجون والصناعات الحربية) أن يوصلوا من يريدون إلى سِدَّة الحكم فهم يتحكمون في أجهزة الإعلام، وصناعة الرؤساء صناعة دقيقة، وتستطيع أن تكسب الأصوات في الانتخابات.

(2)يعتقد أفلاطون: أن الله هو الخير الأسمى وهو أكمل موجود، ونتعرف عليه بواسطة قوانا العقلية والروحية فعالم المُثل كله خارج نطاق المحسوسات، ولكنه موجود ومغروس في أنفسنا وعقولنا (وهو الفطرة التي فطر الله الناس ع ليها) في التعبير الإسلامي .

الآخرة وحساب وعقاب فإن ذلك كفيل بتثبيت مبدأ العدالة والمساواة بين الناس . ويقرر ذلك رغم صعوبة إثبات الإيمان بالله وباليوم الآخر عن طريق الفلسفة.

وعندما ينتهي هؤلاء الأطفال من هذه الدراسة من سن العاشرة إلى سن العشرين يتعرّضون لامتحانات قاسية وعملية تصفية وغربلة، وسيكون الامتحان عملياً وعلمياً بحيث يتعرضون إلى عناء وتعب وآلآم وصراع. ولكن الفرصة ستقدّم لأصحاب المقدرة والكفاءة ليدخلوا في مرحلة ثانية من التدريب. أما الذين فشلوا في هذا الامتحان فيوجهون ليكونوا مزارعين وعمالاً في المصانع وكتبة في دوائر الدولة ويتّجه بعضهم إلى التجارة.. وينبغي أن تكون الامتحانات عادلة تماماً بدون محاباة . ويوجه كل واحد من هؤلاء حسب مقدرته وكفاءته وميوله.

المرحلة الثانية : هي عشر سنوات أخرى من التدريب الجسدي والنفسي والعلمي (من سن العشرين إلى سن الثلاثين). وفي هذه المرحلة يتدرَّبون على السلاح وحماية الدولة والنظام، كما يدرّبون على أنظمة الدولة. وبعد ذلك يُجرى امتحان عسير كسابقه . والذين يفشلون في الامتحان الثاني يصبحون مدراء ومساعدين تنفيذيين، أو ضباطاً عسكريين في الدولة.

المرحلة الثالثة : من سن الثلاثين، وتبدأ بتعليمهم الفلسفة، ومهمتها أن نفكّر بوضوح وصفاء (البحث عن الحقيقة النهائية الأساسية) وأن نحكم بحكمة، وهي السياسة . ومن ثم ندخل إلى عالم المثُل (الصورة الذهنية، أو القانون والمثل الأعلى الذي نصل إليه عبر التفكير العميق وراء سطح الظواهر والخصائص التي تواجه حواسّنا، والتي لا تُدرك إلا بالعقل والفكر. وهذه الأفكار والقوانين العقلية هي الحقيقة لما وراء الأشياء الظاهرة، التي نصل إليها بالحواس فقط).

والرياضيات بالنسبة لأفلاطون كما هي لبرتراند رسل (الفيلسوف البريطاني) فاتحة ضرورية ولازمة للفلسفة . وقد وضع أفلاطون فوق أكاديميته شعاراً يقول : (لا ندع رجلاً جاهلاً بالرياضيات يدخل إلى هنا).

وبعد خمس سنوات من التدريب على تطبيق مبدأ المُثل على سلوك الإنسان وسير الدول يتم إنزال هؤلاء الفلاسفة إلى العالم الواقعي ليتنافسوا مع رجال الأعمال والدهاة وغيرهم وسيقومون بكسب رزقهم بعرق جباههم، ويستمر هذا الامتحان العسير لمدة خمسة عشر عاماً أخرى، وسينهار بعض إنتاجنا . أما الذين نجحوا في هذه التصفية، وقد بلغوا سن الخمسين وقد تسلحوا بالحكمة والخبرة والممارسة الطويلة فيصلحون ليكونوا حكام الدولة.

وقد اقترح أفلاطون نظاماً غريباً لهذه الطبقة من الحكام فمنعهم من الزواج والإنجاب وأن تكون لهم أسر. وجعلهم يعيشون في نظام الكميون (Commune) الشيوعي ويعيشون حياة التقشّف،مع مراعاة حاجاتهم الأساسية من الدولة، دون أي نوع م ن الترف المفسد للنفوس والعقول. وسيتناولون الطعام في وجبات مشتركة، وأن الذهب الموجود في نفوسهم هو أغلى من كل كنوز الدنيا . وهم وحدهم من بين جميع المواطنين ينبغي أن لا يتعاملوا بالذهب والفضة بأي شكل من الأشكال .. وبما أنهم بدون زوجات ولا أسر فلن تكون لهم طلبات مستمرة تنغّص عليهم حياتهم، وتدفع أي واحدٍ فيهم لاكتناز الثروة . وهكذا لن تكون حياة

هؤلاء الحكام الفلاسفة لزوجاتهم وأسرهم، ولكنها ستكون للأمة والشعب . وفي هذه الطبقة وحدها تصبح المرأة مشاعة والأطفال كذلك مشاعين وتربيهم الدولة .. وستُعنى هؤلاء الأمهات بجميع الأطفال، ويصبح كل طفل أخاً للآخر وكل امرأة أُما للجميع!!.

وهذا الجانب الأخير هو أسخف ما قاله أفلاطون، وقد أثار عليه نقد النقاد في الماضي وفي الحاضر. وهذه الشيوعية التي أرادها لطبقة الحكام لنزع شهوتهم للمال والاكتناز، وبالتالي الفساد، ستؤدي إلى فساد أكبر، وإلى إيجاد جيل أشدُّ ضياعاً من أجيال الحكام الفسادين . إذ أن الطفل لا يتعلم الأخلاق ولا الدين إلا في حضن الأسرة . فإذا انهار نظام الأسرة فقد انهار المجتمع بأكمله.

وكل فلسفة أفلاطون ومثله وكلامه عن العدالة والحقّ ستنهار انهياراً تاماً إذا ما انهار نظام الأسرة الذي عرفته البشرية منذ عهد آدم إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

وحتى الشيوعية التي طُبِّقَتْ في الاتحاد السوفياتي والصين وغيرها من البلاد الشيوعية لم تحاول قط إلغاء الأسرة على مستوى الأمة، ولا على مستوى الحزب وكوادره، ولا على مستوى القيادة وحكام الأقاليم وحكام الدولة بأكملها .. لأنه نظام مضادّ للفطرة الإنسانية ومضادّ لكل الأسس الأخلاقية.

وقد أدت هذه الفلسفة الأفلاطونية العقيمة إلى عدم تطبيقها وتحدثوا عنها كحلم وأنها يوتوبيا (البلاد السعيدة) وغيرها من الألفاظ البراقة، وهي لا تزيد عن كابوس مرعب وقى الله البشرية منها.

النفس عند أفلاطون:

النفس هي مبدأ الحركة . والنفس متحركة بذاتها، والجماد لا يتحرك إلا إذا حرَّكته قوى خارجية، والجسم البشري جماد (لحم وعظام ودم) وهو لا يتحرك حركة ذاتية، فجسم الميت جثة هامدة. فما الذي يحرك الجسم البشري إذن؟ إنه النفس، وهناك ثلاثة أنواع من النفوس:

(1) النفس النباتية Vegetative Life وفيها النمو والاغتذاء.

(2) النفس الحيوانية Animated Life وفيها الحركة.

(3) النفس الإنسانية Human Life وفيها الفكر والروية.

وهذه التقسيمات نراها بوضوح عند ابن سينا في كتابه (الشفاء) وهو مما أخذه من اليونان وبالذات فلسفة أفلاطون.

وللنفس ثلاث قوى:

(1) القوة (النفس) الشهوانية.

(2) القوة (النفس) الغضبية.

(3) القوة (النفس) العاقلة.

والناس يختلفون في أخلاقهم وأنواع سلوكهم باختلاف درجة سيطرة هذه القوى في نفوسهم. فإذا سيطرت القوة الشهوانية يصبح الإنسان أنانياً حسيّاً ماد ياً، وإذا سيطرت القوة الغضبية يكون عدوانياً ظالماً لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً، أما إذا سيطرت القوّة العاقلة فإنه يستطيع السيطرة على تلك القوى، وبالتالي يكون مصدراً للخير.

والقوة الشهوانية جعلها الله فينا لبقاء الإنسان (شهوة الطعام والشراب) ولبقاء الجنس (شهوة الجماع ولذة الجنس)، ولعمارة الأرض، وذلك بحبّ المال. وهو ما جاء في القرآن الكريم: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ *} [آل عمران: 14] ، وقال تعالى: {إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ *وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ *وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ *} [العاديات: 6 - 8] ، والخير هنا معناه المال.

فحبّ المال واكتنازه وحبّ السيطرة وامتلاك الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث وحب النساء .. والتأنق في المأكل والملبس كل ذلك من الشهوات المركوزة في الإنسان وعلى الإنسان أن يفطم هذه الرغبات ويجعلها في حدّ الاعتدال.

والنفس الشهوانية هي مصدر الرذيلة في تطرّفها . وكما قال أرسطو تلميذ أفلاطون أن الفضيلة هي وسط بين رذيلتين: فالشجاعة وسط بين التهور والجبن، والعفّة هي وسط بين الشره وخمود الشهوة، والعدالة هي وسط بين الظلم والاستهزاء والمهانة، والحكمة هي وسط بين السفه والبلاهة، والذكاء هو وسط بين المكر (الخبيث) والبلادة إلخ، والقوة الغضبية موجودة للحفاظ على بقاء الإنسان وكرامته، فإذا زادت صارت تهوراً وهلكة وإذا نقصت كانت جبناً وخذلاناً.

أما القوة العاقلة فبها يكون التمييز والروّية، واستخلاص الدروس من التجارب والتفكير في العواقب. فإذا تغلّبت هذه القوة في الإنسان، ساد لديه العلم على الجهل، وصار يميّز بين النافع والضارّ، وبين الخبيث والطيب .. وبها يستطيع الإنسان أن يتحكّم في القوّة الشهوانية فيردّها إلى الاعتدال المحمود، وكذلك يستطيع أن يتحكم في القوة الغضبية ويبقيها في الوسط المحمود.

والعلم هو ثمرة استخدام القوة العاقلة وهو محمود في كل حال. والسعادة لا تكون إلا بتوفر العلم وتوفر اللذة التي نحصل عليها من القوى الشهوانية والغضبية باعتدال . والعلم في ذاته لذة، ولكنه يحتاج إلى مكابدة في أول الأمر، وذلك أمر يعرفه العلماء فكم يضحّون بأوقاتهم وشهواتهم في سبيل العلم، وهو درجات، ومن هذه الدرجات الاكتشافات العلمية، وكم عانى العلماء من أجل الوصول إليها. ولكن لذة العلم تذلّل الصعاب وتستسهل الصعب.. وأعظم من ذلك كله لذة الاتصال بالله والعلم بصفاته وأسمائه، وهي لذة لا يقدرها قدرها إلا من وصل إليها. ولذا كان الأنبيا ء والرسل بالمقام الأعلى في معرفتهم بالله سبحانه وتعالى . وسيدنا وحبيبنا محمد هو بالمقام الأعلى وهو أشدهم معرفةً بالله وأعظمهم حُبَّاً له وخوفاً منه. والناس بعد ذلك درجات ومقامات. وأشدهم بُعداً عن الله الذين عبدوا شهواتهم {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ} [الجاثية: 23] .

والهوى هو اتباع الشهوات..

والسعادة المطلقة هي الخير المطلق الذي يسعى إليه الإنسان .. وهي لا تكون في الدنيا على كمالها، بل تكون مشوبة بما ينغّصها . ولذا جعل الله الآخرة، ففيها السعادة المطلقة والكبرى لمن كتب الله لهم السعادة وفازوا برضوان الله ودخلوا الجنة . والدنيا هي مزرعة الآخرة. ولا بد من عمل ومثابرة وجهد ومجاهدة للوصول إلى رضوان الله تعالى وهذا المفهوم الإسلامي والديني الذي جاء به الأنبياء غير موجود عند أفلاطون ولا عند فلاسفة اليونان قاطبة.

والسعادة عند أفلاطون هي في الدنيا، ولذا لا بد من سياسة النفس وتدبيرها، وتحقيق الوسطية (العدالة) بين قوى النفس الثلاث . وهذه هي المرحلة الأولى وفيها سلام النفس، والمرحلة الثانية هي العدالة في المجتمع لأن الإنسان مدني بطبعه.. ولا يستطيع العيش وحده وأنه لا يقوم بمطالبه إلا في مجتمع يتعاون فيه كل فرد على أداء ما عليه. وهو أيضاً ما اتفقت عليه جيمع الفلسفات والنظم مع اختلافها في كيفية تحقيق ذلك.

وقُوى المدينة عند أفلاطون ثلاث وهي : الرئيس (وعند غيره الأمير أو الملك) والجند، وأصحاب المهن من الزّراع والتجار والصناع.. الخ.

ويضع في كتابه «الجمهورية» كيفية تربية كل طبقة من هذه الطبقات الثلاث وكيفية تدريبها وتعليمها كما سبق أن ذكرنا.

وعنده أن أصحاب المهن يمثّلون القوة الشهوانية الموجودة في الفرد، وهؤلاء في المجتمع، لأنهم يحقّقون للمجتمع الغذاء، ونظام الزواج للنسل، والمال بواسطة التجار والصناعات. أما الجند فهم يمثلون القوّة الغضبيّة، وينبغي أن تكون فيهم الشجاعة والقدرة على حماية الوطن والدفاع عنه ضد الأعداء. أما الرئيس أو الأمير أو الملك فهو يمثل العقل الذي ينظّم المجتمع لكي لا تطغى جماعة على أخرى، ولا يستبدّ قوي بضعيف، ويسهر على تحقيق الرفاه لشعبه وعلى أقل تقدير يحقّق له الغذاء والمسكن والملبس والأمن الذي لا بدّ منه. كما يسهر على حماية شعبه من العدوان الخارجي بإيجاد جيش قوي، لا يتعدّى حدوده ولا يظلم الناس ويستبدّ بهم داخلياً أو خارجياً.

وهو نظام نجد صداه عند الملك أردشير الفارسي وعند كونفشيوس الصيني وغيرهم ممن لا علاقة لهم بأفلاطون ولا بالفلسفة اليونانية بأكملها.

(3) أرسطو طاليس (أرسطو) (384 - 322 قبل الميلاد)

يعتبر أرسطو أشهر فلاسفة اليونان وأعظمهم تأيراً . ولم يتأثر به فحسب اليونانيون في عصره وبعد عصره، ولكن تأثر به المسلمون وخاصة الفلاسفة منهم، وسمّوه المعلم الأول . وقام الفارابي بإعادة نشر أفكاره بأسلوبه الجميل مع مزجه ببعض التعاليم الإسلامية وتأثيرات مدرسة أفلوطين السكندري الذي عاش في القرن الرابع بعد الميلاد، أي بعد أرسطو بقرابة ثمانية قرون . كما أن فلاسفة المسيحية، وخاصة توما الأ كويني، تأثروا بأرسطو، وبنت الكنيسة فلسفاتها وعلومها على كتب أرسطو لدرجة أنهم كفّروا وأحرقوا كل

من خالف آراء أرسطو العلميّة، وأدى ذلك إلى اضطهاد العلماء وحرقْ برونو وكوبرنيكس، وكاد جاليلو أن يلقى نفس المصير إلا أنه أنقذ حياته بالتراجع عن آراءه والرجوع إلى أقوال الكنيسة. وفي العصور الحديثة بدأت المعاول تهدم فلسفة أرسطو، بل ومنطق أرسطو حتى لم يبق لأرسطو سوى مكانته التاريخية بعد أن استمر يحكم عقول الأوروبيين وغيرهم ما يقارب ألفي عام . وكانت سيطرته على فلاسفة المسلمين قوية وخاصة عند الفارابي وابن رشد. وعن طريق ابن رشد عرفت أوروبا أرسطو وفلسفته. ثم إن الصليبيين في ذهابهم إلى المشرق نحو القدس دخلوا القسطنطينية ودمروها وأخذوا كثيراً مما وجدوه فيها من كنوزها المادية والمعرفية، ومنها كتب أرسطو.

وقد قام نصارى الشرق من أتباع المذهب النسطوري بترجمة أرسطو إلى اللغة السريانية في القرن الخامس بعد الميلاد، كما قاموا هم بترجمتها في عهد المأمون في القرن العاشر بعد الميلاد. وكانت أول ترجمة لأعمال أرسطو باللاتينية عام 1225 وفي عام 1260 بدأ تدريس أرسطو في كل مدرسة مسيحية، كما فرضت الكنيسة عقوبة الضلال والحرمان من الكنيسة على كل المنحرفين عن آرائه.

ولا شك أن فلاسفة المسلمين عدّلوا في آراء أرسطو حتى تتوائم إلى حدٍّ مّا مع العقائد الإسلامية، ومع ذلك فقد تعرَّض هؤلاء الفلاسفة للنقد الشديد إلى حدّ التكفير.

حياته ونشأته:

ولد أرسطو في مقدونية على بعد 200 ميل شمال أثينا عام 384 ق.م وكان والده صديقاً وطبيباً للملك مينتاس ملك مقدونية جد الإسكندر الأكبر . وتعلم أرسطو الطب واشتغل به فترة، ثم ذهب إلى أثينا في سن الثلاثين ليدرس الفلسفة تحت إشراف أفلاطون . ويقال أنه ذهب إلى أثينا وعمره 18 عاماً وبقي عند أفلاطون عشرين عاماً، وانتهى بالخلاف مع أستاذه ومعلمه. فالعباقرة عادة ما يختلفون . وجمع أرسطو مكتبة كبيرة ووضع الأساس لتصنيف وتبويب الكتب. وأنشأ مدرسة لتدريس الحكمة والخطابة، وكان من تلاميذه هيرمياس الذي أصبح حاكماً لولاية فدعا أرسطو إلى مدينته عام 344 ق.م. ثم دعاه ملك مقدونيا فيليب إلى بلاطه وعهد إليه بتربية ابنه الاسكندر المقدوني، أعظم الفاتحين وأكثرهم شهرة . وكان الاسكندر آنذاك في الثالثة عشرة من عمره شاباً جموحاً، ولكن أرسطو استطاع إلى حدٍّ ما ترويضه مع إسباغ محبته عليه حتى أن الاسكندر كان يُحبّه مثل أبيه . ولما قُتل فيليب غيلة قام الاسكندر بحكم اليونان وهو في سن السابعة عشر (وقيل أقلّ من ذلك). وعندما خرج الاسكندر لغزو آسيا وأفريقيا، ترك وراءه في المدن اليونانية حكومات موالية له. وعندما عاد أرسطو إلى أثينا عام 334 ق.م كان من الطبيعي أن ينضمّ إلى معسكر الاسكندر وجماعة مقدونية.. وفي أكاديميته كان يساعده مئات الطلبة . كما أن الاسكندر المقدوني أمر رجال صيده وبساتينه وصيادي الأسماك أن يمدّوا أرسطو بكل المواد الحيوانية والنباتية التي يرغب فيها، وكان تحت تصرّفه ألف رجل انتشروا في آسيا واليونان يجمعون له النماذج والعيّنات الحيوانية والنباتية. وقيل أن الاسكندر أعطاه نحو 800 وزنه من الذهب وهو ما يعادل أربعة ملايين دولار كما يقول ول ديورانت (وذلك قبل نصف قرن من الآن).

كُتب أرسطو:

يبلغ عدد كتبه المئات (أربعمائة كتاب) ساعده فيها عدد كبير من الطلبة والموظفين. وحرّر من جاء بعده كثيراً من كتبه، وخاصة كتب المنطق والطبيعيات والتطور والانحلال، و«علم الظواهر الجوية» و«التاريخ الطبيعي» و«النفس» و«أجزاء الحيوان» وكتب فن الذوق والبلاغة وعلم العروض وكتب الأخلاق والسياسة والميتافيزيقا والعلم الإلهي..

طبعاً هذه موسوعة في جميع ألوان المعرفة. وكانت الفلسفة في ذلك الزمان أم العلوم وعنها نشأت. ولهذا لا يزال إلى اليوم تعطى دكتوراه في الفلسفة PH.D في الكيمياء أو الطبيعة أو الفلك أو علم الحيوان أو النبات... إلخ. ولذا لا يستغرب أن تكون المعلومات التي جمعها أرسطو مضطربة وناقصة، بل وخاطئة تماماً في كل المجالات التي تعرَّض لها. ونحن نعلم أن اليونان كانوا يكرهون التجارب والعمل باليد، ويمجدّون الفكر والوصول إلى الحلول بمجرد الاختبارات العقلية الصرفة. ورغم ذلك فإن أرسطو قد وضع اصطلاحات مختلف العلوم، وكما يقول ول ديورانت في قصة الفلسفة (ص 76) «من العسير أن نتحدث اليوم عن أي علم بغير استخدام عبارات ابتدعها أرسطو».

أصل المنطق:

يعتبر أرسطو أول من وضع علم المنطق كعلم بعد أن كان بديهيات يستخدمها المتناظرون. والمنطق هو الفن والاسلوب الذي يساعدنا على تصحيح تفكيرنا ويشدّد أرسطو، كما شدَّد على ذلك من قبل سقراط، على تحديد الموضوع والعبارة والتعريف وكل تعريف جيد يعيّن الموضوع الذي يتناوله. فمثلاً الإنسان ينتمي إلى فئة من المخلوقات تشترك معه في خصائص كثيرة. وهي مجموعة الحيوانات، ولكن الإنسان يختلف عن هذه الحيوانات كلها بأنه عاقل (أو ناطق)، لذا يقال الإنسان حيوان (ناطق أو عاقل) (وهذه تسمى المقدمة الكبرى). وفلان (علي) إنسان (وهذه تُسمى المقدمة الصغرى) وتكون النتيجة: علي حيوان عاقل.

ومثالها الرياضي أ = ب.

س = أ.

إذن س = ب.

وفي الحالتين، وصلنا إلى النتيجة بإلغاء الحد المشترك (أ) من المقدمتين. وهكذا نصل إلى النتيجة بإلغاء الحدّ المشترك وهو الإنسان.

وقد اهتم المسلمون بالمنطق الأرسطي اهتماماً شديداً، ورغم ذلك انتقده الغزالي وابن تيميه وغيرهم، واعترفوا بأن البديهيات متَّفق عليها، وأما تفاصيل منطقه فلا حاجة لها، وبها بعض الخلل.

ومع التقدم العلمي بدأ منطق أرسطو الذي يُفاخر به ينهار، وظهر منطق الديالكتيك وأن النقيض قد يولد النقيض. واستطاع هيجل أن يقضي إلى حدٍّ ما على منطق أرسطو.

وفي المنطق الأرسطي إذا أتيت بمادة مشتعلة ومادة تساعد على الاشتعال فإن النتيجة الحتمية هي النار المحرقة. لكن علم الكيمياء الحديث يقول عكس ذلك فالأوكسجين وهو غاز يساعد على الاشتعال، والهيدروجين غاز مشتعل أو سريع الاشتعال وإذا جمعتهما معاً تكوّن لديك الماء، وهو يطفىء النار، والنتيجة عكسية تماماً لكل التوقعات.

ومثال آخر: إذا وضعت مادة كاوية مثل الصوديوم مع غاز سام مثل الكلور فإن المنطق الأرسطي يؤكد أن الناتج سيكون مادة سامة وكاوية، ولكن علم الكيمياء يقول إذ ا وضعت الصوديوم مع الكلور وجعلتهما يتّحدان فإنك ستحصل على مادة هامة ومفيدة هي ملح الطعام.

وهكذا يتضح أن المنطق الأرسطي لا يمكن تطبيقه على جميع الحالات، وإذا قال الله سبحانه وتعالى أن شجرة الزقوم تنبت في أصل الجحيم، وضحك من ذلك كفّار قريش قائلين: كيف تكون ش جرة في أصل النار؟ فذلك مخالف للمنطق والعقل؟ ولا بد أن تحترق . فإن الأمثلة السابقة وغيرها كثيرة جداً تدلّنا على أن القدرة الإلهية لا يحدّها شيء وأن ذلك ممكن.

الأخلاق:

وأما الأخلاق عند أرسطو فتحتاج أيضاً إلى إعادة النظر فيها. فهو يقول بصراحة أن هدف الحياة ليس الخير في ذاته، بل السعادة، ونحن نختار الشرف والسرور والإدراك لأننا نعتقد أنها توصلنا إلى السعادة، ويعتقد أن تطور المقدرة الفكرية هو الذي سيحقّق السعادة[1] .

ويعرّف الفضيلة بأنها أمر وسط بين طرفين فالشجاعة هي وسط بين التهور والجبن، والكرم هو فضيلة بين البخل والإسراف، والاعتدال فضيلة بين الخضوع والعتو إلى آخر ما ذكره من أمثلة. وهو موقف اتخذه مسكويه والغزالي والفارابي وابن سينا، وعدد كبير ممن كتب في الأخلاق من المسلمين. وهذه الصفات قد تحتاج إلى بعض التعديل نتيجة للظروف . وهكذا فإن العقل الناضج المجرّب يستطيع أن يميّز بين هذه الظروف وما هو حد الوسط؟.

ولا خلاف أن الإسلام شجع على الوسطية : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: 143] .

وسن الشباب يدعو عادة إلى التطرف، وإلى الع كس من ذلك الشيخوخة تدعو لمزيد من الأناة. ويعتقد أرسطو أن الوسط الذي تحدّث عنه ليس كل السعادة، ولذا يجب أن يتوفر لدينا حدٌّ معين من متاع الدنيا . والصداقة الحقَّة عنده هي أحد أهم الأسباب الموصلة للسعادة . وكذلك أعمال الخير والبرِّ ضرورية للوصول للسعادة . ولكن السعادة يبقى جوهرها في داخلنا. والإنسان المثالي في رأي أرسطو لا يعرّض نفسه للمخاطر بدون ضرورة، ولكنه في ظروف معيّنة مستعدٌّ للتضحية بحياته. ولا ينبغي للإنسان أن يسعى لكسب حمد الآخرين لأن ذلك يدفعه إلى التظاهر والنفاق، وينبغي أن لا يهزّه الإعجاب، ولا يحزنه إدبار الناس عنه أو تكلمهم عليه إذا كان يعتقد أنه على الحق والصواب . وعليه أن لا يتكلم بسوء عن الآخرين، وأن يقلّل من الكلام عموماً، وأن لا تأخذه الحدّة والغضب وأن يتحمّل نوائب الدهر بكرامة وعزّة نفس.

---

(1)ول ديورانت: قصة الفلسفة ص 86 - 91.

وهذا كله يتفق مع جاء به الإسلام من أخلاق ولا يتعارض معه في شيء سوى في الهدف والغاية. فهي عند أرسطو السعادة، وعند المسلمين رضا الله، ورضا الله لا شك يؤدي إلى السعادة الحقّة..

الميتافيزيقيا (ما وراء الطبيعة) والله عند أرسطو:

إن الله عند أرسطو هو العلة الأولى وهو أزلي، ولكن الكون (أو مادة الكون) هي أيضاً أزلية. ونتيجة شوق هذه المادة الأولية للإله الذي هو العقل المحض تشكّلت في مخلوقات عدة. والله عند أرسطو مثل الفخّاري الذي يشكّل الطين إلى قوالب وأشكال متباينة وإن كان بطريقة مختلفة تماماً عن الفخار. (وهو كلام نراه فيما بعد عند ابن عربي الفيلسوف الصوفي فيما نسب إليه)، والله عند أرسطو هو العقل المحض وهو كائن معنوي لا مادي، غير مرئي، ولا مكان له ولا زمان، لأنه خارج المكان والزمان . وهو بدون شك خارج نطاق التذكير والتأنيث أو أي شبه لأي من مخلوقاته.

إن الله لا يخلق العالم بل يحرّكه، ولا يحرّك العالم كقوة ميكانيكية، ولكنه يحرّك العالم كما يحرّك المحبوب المحبّ. إنه السبب النهائي للطبيعة، وهو القوة الدافعة للأشياء وهدفها لأنها تسير إليه مدفوعة بالحبّ والشوق. إنه صورة العالم ومبدأ حياته . وهو القوة الغامضة .. ولا وظيفة له سوى أن يتفكّر في ذاته، وليست له رغبات ولا أهداف . إنه حيوية خالصة لدرجة أنه لا يعمل أبداً، فهو كامل كمالاً مطلقاً، وعمله الوحيد هو التفكير في جوهر ذاته، وجوهر ذاته هو النهاية القصوى للكائنات.

ويعلّق ول ديورانت في كتابه قصة الفلسفة على إله أرسطو: «يا له من إله فقير هذا الإله الذي يعتقد به أرسطو، أنه ملك لا يفعل شيئاً، ملك بالاسم لا بالفعل، ولا غرابة في أن يحبَّ البريطانيون أرسطو لأن إلهه صورة طبق الأصل من ملكهم، أو صورة عن أرسطو نفسه (ملك بريطانيا يملك ولا يحكم أبداً).. إن إلهه من نوع لا خيال فيه، وهو منعزل في برجه العاجي بعيداً عن صراع الأشياء» وقد صدق ديورانت [1].

وقد تحوّل إله أرسطو إلى نظرية الفيض التي جاء بها أفلوطين السكندري (القرن الرابع بعد الميلاد) وفرح بها فلاسفة المسلمين فرحاً شديداً، وأخرجتهم عن الإحراج الشديد الذي يسببه لهم وصف أرسطو لإلهه.

والله هو العقل المحض أو العقل الأول ويفيض عنه العقل الثاني، وهو جوهر غير متجسم وليس في مادة، والعقل الثاني يفكر في الله فينتج عنه العقل الثالث . والثالث يعقل الله ويعقل ذاته فينتج عنه العقل الرابع والسماء .. والرابع يفعل الشيء ذاته وينتج عنه العقل الخامس وهكذا وينتج عن ذلك زحل والمشتري والمريخ والشمس وعطارد والزُهرة، وآخرها القمر الذي هو العقل الفعّال وعنده تنتهي سلسلة الموجودات السماوية وتبدأ الموجودات الأرضية في سلسلة أخرى[2] .

---

(1)ول ديورانت: قصة الفلسفة ص 114..

(2)مقدمة د. علي بو ملحم: لكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة لأبي نصر الفارابي مكتبة الهلال، بيروت ص 6 - 18.

وهي نظرية أشدُّ سخفاً من نظرية أرسطو، ولكن للأسف تمسّك بها فلاسفة المسلمين وخاصة أبو نصر الفارابي وابن سينا وأخوان الصفا وغيرهم .. وهي فلسفة لا سند لها من علم ولا دين ولا عقل.

جالينوس (Galen) : الفيلسوف الطبيب

ولد جالينوس سنة 131 بعد الميلاد في مدينة برجامي Pergame في آسيا الوسطى وانتقل إلى قبرص وفلسطين ثم الاسكندرية التي أقام فيها أعواماً للدراسة ليعود بعدها إلى مدينته ليمارس الطب، ثم انتقل إلى روما ليكون طبيب البلاط بعد أن طبّقت شهرته الآفاق . وهو أشهر أطباء اليونان بعد أبقراط (Hippocrates) . وألّف العديد من الكتب في الطب والأخلاق. وقد اهتم العرب بترجمة كتبه الطبيّة على نطاق واسع. وكانت مع الكتب المنسوبة إلى أبقراط أساس النهضة الطبية عند المسلمين.

وآراء جالينوس في الأخلاق أقرب إلى أفلاطون منه إلى أرسطو . وقام جالينوس بتشييد نظريته الطبية على موضوع الأخلاط (Humors) ، واعتدالها هو الصحة واختلالها هو المرض، ووظيفة الطبيب هو إعادة هذه الأخلاط إلى الاعتدال بنظام الأكل، ونظام الدواء، ومراعاة الفصول الجوية، وسن المريض وبيئته، وكلها مؤثرة في هذه الأخلاق.

أبو بكر الرازي يلخص نظرية الأخلاط الجالينوسية والأخلاقية:

وقد لخص الطبيب أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (250 - 313هـ) هذه النظرية تلخيصاً جيداً في كتابه «المدخل الصغير إلى علم الطب»[1] بعد أن أسلمها.

وخلاصة هذه النظرية أن الله سبحانه وتعالى خلق الأنوار وهي نوعان بسيط لا تدركه الحواس وتختص بالعالم العلوي والملائكة ومركب وهو المحسوس والموجود في أسفل العالم.

وخلق الباري سبحانه وتعالى من النور الأولي البسيط العقل، ومن العقل خلق الله سبحانه وتعالى النفس الناطقة، ومنها النفس الحيوانية، ومنها النفس الطبيعية الخامدة ومن هذه خلق الله الطبائع البسيطة الأربع وهي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة كما خلق العناصر الأربع وهي الماء والنار والهواء والتراب.

يقول الرازي : «فأول ما أبدع البارىء ، الأنوار المضيئة وهي الجواهر البسيطة، والأنوار الروحانية التي هي أول الحركات، وعنصر الكائنات.

«والنور ينقسم قسمين مخصوص ومحسوس، أعني بسيطاً ومركباً . فالمحسوس هو المركب الموجود في أسفل العالم . والبسيط هو الذي لا تدركه الحواس، وهو المخصوص بأعلى العالم. وهو مادة الأنفس الروحانية التي نتج عنها العقول البشرية، وهي الواقع عليها رسم العقل، فالعقل من أنوار الله .

(1)المدخل الصغير إلى علم الطب لأبي بكر الرازي، تقديم وتحقيق د. عبد اللطيف محمد العبد، دار النهضة العربية القاهرة 1977م/ 1397هـ.

«فلما خُلق هذا النور البسيط صار له بهاء فأبدع منه النفس الناطقة، فلما قامت النفس الناطقة صار لها بهاء فأبدع (الله) منها النفس الحيوانية ». وهكذا خرج من الحيوانية النفس الطبيعية الخامدة التي أبدع الله منها الطبائع الأربع وهي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة . وهي عنصر الأشياء الجسمانية .. والحر والبرد فاعلان، والرطوبة واليبوسة منفعلتان . ثم أبدع البارىء من هذه الطبائع البسيطة . الطبائع المركبة، ومنها أبدع جميع الأجرام السماوية والأرضية. وازدوجت البرودة مع الرطوبة فصارت ماء . ولذا كان الماء أول المخلوقات الجسمانية والعناصر الأرضية. وركّب الباريء الحرارة مع اليبوسة فكانت ناراً . وجعل بين الماء والنار تضاداً فارتفعت النار لخفّتها علواً، ورسب الماء لثقله سفلاً فصار بينهما هواء بفعل التضاد والتباعد، (وهو العنصر الثالث من عناصر العالم).

وحرّك الباري، عزّ ذكره ـ الهواء بقدرته فصار ريحا. وحركت الريح الماء تحريكاً شديداً حتى تلاطمت أمواجه وأرغى زبده، وصار الزبد طبقات بعضها فوق بعض، فجمد بالقدرة الإلهية فصارت تراباً وجعلها قراراً للنبات والحيوان.

وهكذا العناصر الأربعة: التراب وطبعه بارد يابس ثقيل والنار وطبعها حارة يابسة خفيفة، والهواء وطبعه حار رطب لطيف، و الماء بارد رطب ثقيل سيال.

والعالم نوعان : كبير (major Cosmos) وصغير (minor Cosmos) فالكبير للدنيا والصغير للإنسان لأنه مشتق منها.

وخلق الله الإنسان وركبه من أربع طبائع متضادة في طبعها وهي : الدم والبلغم والمِرَّة الصفراء والمِرَّة السوداء.

والدم ينبوعه الكبد . وخلق الله اللحم والدم والعصب والعروق والكلى والأنثيين (الخصيتين) والصدر والقلب واللهاة والعضلة واللوزتين واللسان والكبد من جوهر الدم . والذي يلحق النفس من أعراضه (أي الدم) قوة الشهوة للنساء مع غزارة الجماع، وغزارة الشعر ونعومته. وخاصية طبعه في المعدة سرعة الهضم وسهولته ونفوذ الغذاء، وإحالته إلى جوهر الدم، وسلطانه في الصغار وبداية الشباب.

والمرّة السوداء مكونة من الأرض ومسكنها الطحال وسلطانها البصر، وبها يكون الصمت والتفكير والحزن والثقل والإبطاء والتثبت والنظر في العواقب، ولها في المعدة خاصية الدفع وإمساك الطعام وانتباه الشهوة. وسلطانها في زمن الكهولة أما المرّة الصفراء التي هي حارة يابسة فمسكنها بيت المرّة الصفراء (الحويصلة المرارية) وجعلها لاصقة بالكبد لتعين الكبد على طبخ الطعام. ولها من الأعضاء كل ما هو حار ويابس . وهي تجري في الدم. لازدواجها معه ومشاكلتها له. وخاصة طبعها في المعدة سرعة الهضم. والذي يلحق النفس من أعراضها : الحدّة والطيش والذكاء والنباهة والشجاعة والإقدام وشهوة النساء، والحيطة وسرعة الجواب وكثرة الكلام والحركة، وسلطانها في الشباب والرجولة.

أما البلغم فهو بارد يابس وخلق الله منه الدماغ والرئة، وكل ما في البدن من الأعضاء الباردة . ويلحق النفس من أعراضه : العجز والكسل والثقل والنسيان والسبات والحُلم

والطراوة وقلة الحركة . ويلحق الجسم من أعراضه : السعال و الارتعاش والفالج والبرودة وقلة الشهوة للنساء وسلطانه في زمن الشيخوخة.

وقد شرح هذه النظرية أيضاً الفقيه المالكي الأندلسي عبد الملك الالبيري المتوفى سنة 236 (أي قبل الرازي بنحو قرن) في كتابه الطب النبوي.

ولا شك أن الرازي قد أسلَمَ نظرية جالينوس في الأخلاق، ك ما استخدم الأفلاطونية الحديثة، ونظرية الفيض (بطريقة مختلفة عما فعله أبو النصر الفارابي).. ولكن رغم ذلك فإن الاتجاه المادي الذي اتخذه جالينوس كمصدر للأخلاق وهي الأخلاط (Humors) والأمزجة (Temperaments) قد تأسلم لدى الرازي، لأن الخالق لذلك كله هو البارىء سبحا نه وتعالى.

قوى النفس:

وهكذا نجد أولاً قوى النفس الثلاثة لها مكان مادي :

فالناطقة (العاقلة) موطنها الدماغ، والغضبية القلب، والشهوانية الكبد . والأخلاق مصدرها الأمزجة والأخلاط .

الدم المزاج الدموي : وسلطانه في الصغار وبداية الش بلب وفيه الرعونة والشجاعة والتهور والإقدام. ويعرف عند الغربيين بالمزاج الدموي Sanguinous.

الصفراء المزاج الصفراوي وسلطانه الشباب والرجولة وفيه الحدّة والطيش والذكاء والنباهة وشهوة النساء وسرعة الجواب. وعند الغربيين المزاج الصفراوي Bilious يتميز أيضاً بنوع من الغثيان والضيق.

السوداء المزاج السوداوي : وسلطانه في الكهولة. وفيه التثبت والثقل والنظر في العواقب والحزن، وعند الغربيين المزاج السوداوي Melancholous يدل على الحزن والكآبة والضيق.

البلغم المزاج البلغمي : وسلطانه في الشيخوخة : وفيه البرودة والثقل والسبات والحلم والطراوة وقلة الحركة وهو يعرف عند الغربيين بالمزاج البلغمي Phlegmatic . والدم من القلب، والصفراء من الحويصلة المرارية والسوداء من الطحال والبلغم من الدماغ والرئتين .

إذن نحن أمام أسباب مادية لهذه الأخلاق . واعتدال هذه الأمزجة هو الصحة البدنية والنفسية والأخلاقية، وعدم اعتدالها هو المرض النفسي والجسدي .

باختصار تقوم نظرية جالينوس في الأخلاق على أساس الأمزجة . وذلك مشاهد في الأطفال، فمنهم من نجده جريئاً، ومنهم من نجده شرهاً، ومنم من نجده وقحاً وآخر حيياً وهذا يعني أن قوى النفس الثلاث (الشهوانية والغضبية والعاقلة) ليست كلها واحدة، بل تختلف من شخص لآخر حسب الأمزجة التي تؤثر فيه.

وإذا كانت النفس تابعة للمزاج، والمزاج هو نتيجة الأخلاط، والأخلاط ترجع إلى البدن فهل معنى هذا أن النفس تفنى بفناء الجسد؟ أما أفلاطون فإنه يقول ببقاء النفس الفكرية، وأما

جالينوس فيقول بموت هذه النفوس الثلاثة وهي الشهوانية (الكبد) والغضبية (القلب) والفكرية (الدماغ). ويضع ملاحظاته القوية في تأثير بعض المواد على القوى الفكرية كالخمر التي تخرج الإنسان عن حدّه وتفقده عقله ورشده، وخاصة إذا أسرف المرء في شربها.

ورغم أنه لا يجزم بفناء النفس الفكرية إلا أنه يميل إلى ذلك ويض ع الأدلة. وينتهي إلى القول بأن من يقول أن النفس العاقلة جوهر خالد لا بد له أن يعترف بأن أفعالها تابعة لمزاج الجسم.

ويستشهد جالينوس بعلم الفراسة (Phrenology) وهو علم يستدل على أخلاق الشخص من قسماته وأجزاء جسمه (وقد اهتم المسلمون بهذا الفن، فهو ليس بعلم، إهتماماً كبيراً وكان للشافعي من الغرائب والعجائب التي تروى في ذلك).

ويقول جالينوس: «وكتب الفراسة تدل على أن أخلاق النفس تابعة لمزاج البدن »[1] لأن شكل الأعضاء تابع لمزاج البدن. ويؤثر على هذا المزاج وبالتالي الأخلاق البلاد، والفصول، والصناعات والأغذية وعمر الإن سان فالصغير غير الكبير، والرجل غير المرأة، بل إن مرض الجسم يؤثر دون ريب على مزاج الإنسان وبالتالي على أخلاقه.

ومع هذا يقرر جالينوس أن ليس المزاج وحده مع مؤثراته هو الذي يحدّد الأخلاق بل إن في طباع بني البشر معرفة ومحبة تلقائية للخير، وبُغضاً تلقائياً للشرّ ، ولكن الحالة المزاجية البدنية وتفاعل الأخلاط في البدن هي التي تحدّد مسار الأخلاق رغم أن في طبع البشر ميل وحبٌّ طبيعي للخير، ونفور طبيعي من الشرّ.

وقد وضع جالينوس كتابه في الأخلاق وترجمه إلى العربية حيش تلميذ حنين بن إسحاق . ويتألف كتاب جالينوس من أربع مقا لات. ويبدأ بتعريف الخُ لُق الذي لقي رواجاً كبيراً في الثقافة العربية الإسلامية حتى إن تعريفه هذا دخل المعاجم اللغوية[2] وهو قوله : «الخلق حال للنفس داعية الإنسان إلى أن يفعل أفعال النفس بلا روية ولا اختيار»، ومعنى ذلك أنه يصدر عن النفس الشهوانية أو الغضبية. ولكن النفس الناطقة العاقلة وهي محط الفكر والرويّة تقوّم هذا الخلق وتردّه إلى التوسط . وهو في هذا يوافق أرسطو على أن الفضيلة هي وسط بين رذيلتين فالشجاعة وسط بين الجبن والتهور والكرم وسط بين التبذير والبخل وهكذا . وما يرّد الإنسان إلى التوسط هو النفس العاقلة ونرى في الحيوانات طباعاً مختلفة حتى اشتهر الأرنب بالجبن والأسد بالشجاعة والثعلب بالمكر والخداع وهكذا .. والحيوانات لا تتحكم فيها سوى النفس الشهوانية والنفس الغضبية ولذا نرى في الأطفال من بني البشر هذه الطباع، ولكن التربية وتنمية النفس العاقلة تجعلها تعود إلى الاعتدال. وتحتاج النفس العاقلة إلى مساعدة النفس الغضبية في رد النفس الشهوانية إلى الاعتدال. والنفس الغضبية مردّها إلى القلب الذي فيه الحركة الغريزية، وفيه بالتالي القوة والصبر والثبات في الأعمال والشجاعة والإقدام.

---

(1)د. محمد عابد الجابري: العقل الأخلاقي العربي ص 282..
(2)انظر الفصل الأول تعريفات علم الأخلاق.

وهكذا يصل جالينوس إلى أن «الخُلُق» يصدر عن النفس الشهوانية والنفس الغضبية وأن النفس العاقلة تردّها إلى الاعتدال، وذلك بالتربية والترويض . وهو أمر يمكن مشاهدته لدى مربّي الحيوانات فيتحول الحيوان الجموح إلى سلس والحيوان غير المستأنس إلى مستأنس، وكذلك البشر وخاصة في الصغر. وتغيير أخلاق البشر إذا كبروا واعتادوا على تلك الأخلاق أصعب بكثير من تغيير أخلاق الصغار ولكن ذلك ممكن إذا كان هناك داعٍ قوي من إيمان ديني أو عاطفي أو قدوة ينبهر بها الشخص.

ومحبّة الجميل موجودة في بعض الناس طبعاً . «والجمال والقُبح يحلان من النفس محل الجمال والقبح من البدن. وأما الخير والشرّ فإنهما عند النفس بمنزلة الصحة والمرض عند البدن. وكما أن القبح مكروه للبدن كذلك هو للنفس، وقبح النفس هو الجور لأن الجور قبح للأنفس الثلاث. وأما فساد سائر الفضائل سوى العدالة فإنها قبح بعض الأنفس الثلاث دون بعض. ومن اختار أن تكون غايته اللذة لا الجميل فقد اختار أن يكون كالخنزير لا الملك»[1] .

ومع وجود هؤلاء الذين يتركون لشهواتهم العنان، هناك من يلجم لجام شهوته، ويزمَّها بزمام العقل ويبقيها في الوسط المحمود . والناس كلها حتى فاسقهم يحبّون أو يتشوفون إلى صاحب الخُلُق العظيم والجميل.

وهو أمر يقرّه القرآن الكريم قال تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا *فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا *قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا *} [الشمس: 7 - 10] ، وقال تعالى: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى *فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى *وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى *فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى *وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى *وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى *فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى *} [الليل: 4 - 10] .

ويقول جالينوس : «وليس بعجب أن يكون بُعدُ ما بين الناس من الخلاف في الأخلاق والسير.. أن يكون بعضهم شبيهاً بالملائكة وبعضهم شبيهاً بالخنازير والدود.... ذلك لأن القوة الشهوانية لا روّية لها ولا تمييز فلا تعرف الأفعال الجميلة ولا السيرة الملكية لأنها تتعبّد للذّة فقط وإنما تهرب من الأذى».

وقد قال تعالى في محكم التنزيل : {لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ *ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ *إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ *} [التين: 4 - 6] ، وعند جالينوس أن النفس الناطقة العاقلة إذا قويت تحكمت في القوى الشهوانية حتى أن المرء ليفضل الجوع على أن يأكل مالاً ح راماً. والنفس الناطقة تقوى بالعلوم البرهانية وجمال النفس بالمعرفة وقبحها بالجهل.

ويكرر فلاسفة اليونان هذا القول. ولكن معرفة الحق أو الخير لا تكفي لردع نوازع النفس وخاصة ذات الكبر والحسد. فكفار قريش وكفار اليهود كانوا يعرفون أن محمداً يقول الحق ولكن الكبر وغمط الناس والحسد أدّى بهم إلى معاداته وتكذيبه {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ} [البقرة: 146، والأنعام: 20] ، {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُالْمُفْسِدِينَ *} [النمل: 14] .

---

(1)كتاب الأخلاق لجالينوس: ترجمة حبيش تلميذ حنين بن إسحاق / عبد الرحمن بدوي في كتابه دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب كما ينقلها د. محمد عابد الجابري في كتابه العقل الأخلاقي العربي ص 288 .

والآيات في ذلك كثيرة . وأول المستكبرين إبليس اللعين استكبر أن يسجد لآدم قال : {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [ص: 76] ، ولم ينظر إلى النفخة الآلهية والتكريم الرباني فتكبَّر عن أن يسجد لآدم. وكذلك عليَّة القوم في كل زمان يأبى أكثرهم أن ينقاد للنبي والرسول الذي أرسله الله إليهم مع معرفتهم التامة بصدقه، وكل ذلك حسداً منهم.

وقد روت صفية بنت حيي بن أخطب زعيم يهود والتي تزوجها النبي بعد مقتل أبيها وزوجها في خيبر قالت : سمعت أبي وعمي بعد مقدم رس ول الله إلى المدينة يقول أحدهما للآخر: أهو هو النبي قال الثاني: والله إنه لهو هو النبي قال: ما تنوي أن تعمل؟ قال : معاداته أبد الدهر» فوقر من ذلك الحين محبة الرسول في قلبها وتصديقها له.

ولكن فلاسفة اليونان لم ينتبهوا إلى هذا الكبر وهو أخبث الأخلاق وعنه تتفر ع معظم الرذائل. وليس صحيحاً أن معرفة الحق لوحدها كافية لاتباعه . ولهذا ورد في دعاء الرسول الله : «اللهمَّ أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه » . وإلا فكم هم الذين عرفوا الحق وحاربوه وعرفوا الباطل واتبعوه لمرض في قلوبهم واتباعاً لشهواتهم. فالمعرفة وحدها لا تكفي إن لم يصحبها توفيق من الله وهداية منه، وتواضع وبعد عن خُلق الكبر الذي تتجمع فيه الرذائل.

تأثيرات الفلسفة اليونانية عند المسلمين

الأطباء والفلاسفة من المسلمين وعلم الأخلاق

اهتم الفلاسفة من المسلمين بعلم الأخلاق اهتماماً كبيراً. وكانوا في ذلك متأثرين بصورة واضحة بأفلاطون وأرسطو ثم الأفلاطونية الحديثة (العهد الروماني بعد ظهور المسيح، وخاصة فلسفة أفلوطين السكندري، في القرن الرابع بعد الميلاد، وهي فلسفة الفيض التي أخذ بها الفارابي وغيره)، وكما تأثروا بصورة خاصة بآراء جالينوس في الأخلاق. وقد كان تأثير جالينوس على الأطباء من ناحيتين: الناحية الطبية والناحية الأخلاقية. وهناك بطبيعة الحال تأثيرات إسلامية واضحة عند بعضهم، بل شديدة الوضوح، بينما هي باهتة عند آخرين.

ونرى التأثيرات الإسلامية عند يعقوب بن إسحاق الكندي (أبو يوسف) المتوفى سنة 260هـ كما نراها عند أبي بكر الرازي المتوفى سنة 313هـ. وبصورة أقوى وأوضح عند الحكيم الترمذي المتوفى سنة 320هـ. وكان عالماً بالحديث وأصول الفقه، كما كان حكيماً فيلسوفاً مطلعاً على أنواع الفلسفة. ونراها بصورة مضطربة ومشوشة تماماً عند أبي نصر محمد ابن محمد الفارابي المتوفى سنة 339هـ ولكنها قوية وجيّدة عند أحمد بن محمد مسكويه المتوفى سنة 421هـ. وقد حاول ابن سينا المتوفى سنة 428هـ أن يأتي بفلسفة جديدة جمع فيها فلسفة أرسطو وأفلاطون والأفلاطونية الحديثة والهرمسية الغنوصية مع اتجاهات صوفية إسلامية. وقد ساعده اطلاعه الواسع على العلوم العربية والإسلامية. قال عنه الشيخ ابن تيميه: «تكلم في أشياء من الآلهيات والنبوّات والميعاد والشرائع لم يتكلم بها سلفه، ولا وصلت إليها عقولهم، ولا بلغتها علومهم، وأنه استفادها من المسلمين (ولا شك أن ابن سينا نفسه من المسلمين على ما في بعض آراءه وكلامه من زيغ مثل قوله بعدم عذاب القبر وعدم بعث الأجساد وأن العذاب والنعيم في الآخرة للنفوس.. وهي آراء قال بها الفلاسفة، كما حاول أن يفسّر أقوال الفلاسفة بقدم العالم بأن ذلك العالم موجود في علم الله قبل أن يوجد العالم، وبالتالي فإن الله سابق للعالم).

وقد كان الصراع بين الفقهاء وعلماء الدين من جهة والفلاسفة من جهة أخرى شديداً حتى بلغ إلى درجة التكفير. وقد كفّرهم الإمام الغزالي في مسائل منها قدم العالم، والقول بعدم عذاب القبر وعدم بعث الأجساد. وقول بعضهم أن الخاصة لا تحتاج إلى هداية النبوة، بل العامة هم الذين يحتاجون لذلك. ورغم إيجاد تأويلات لهؤلاء الفلاسفة إلا أن هذه المقولات تضعهم في حرج شديد قد يصل إلى التكفير في بعض الحالات، وإلى التبديع في أغلبها.

والغريب أن فلاسفة المغرب العربي والأندلس كانوا على حظ وافر من العلوم الشرعية وخاصة عند ابن رشد الحفيد (أبي الوليد) المتوفى سنة 595هـ فهو فقيه وقاضي القضاة وله في الفقه كتابه البديع «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» وهو مرجع فقهي هام إلى يومنا هذا، وهو في الفقه المقارن. وله في الطب كتاب «الكليات» وفيه تعرّض للتشريح وعلم وظائف الأعضاء وعلم الأمراض (الباثولوجيا). كما أن له في الطب أيضاً كتاب الترياق، وشرح لأرجوزه ابن سينا في الطب، وهي أرجوزه في أكثر من ألف بيت وشرحها كثيرون. وله في الفلسفة والأخلاق: «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال» حاول فيه الجمع

بين الشريعة والفلسفة بصورة لم يسبق إليها. وأما كتبه في شرح فلسفة أرسطو فقد ضاعت وفقدت ولا تزال الترجمة اللآتينية والعبرية موجودة[1] .

كما أن هناك ابن باجه المتوفى سنة 523هـ وابن الطفيل صاحب كتاب «حي بن يقظان » وهي رسالة فلسفية كما أن له «رسالة في النفس». وقد توفى سنة 575هـ والغريب أن قصة حي بن يقظان كانت كتاباً لابن سينا، ثم ابن الطفيل، ثم السهروردي ، ثم ابن النفيس بعنوان «فاضل بن ناطق» ولكل واحد من هؤلاء الأربعة اتجاه يخالف الآخرين .

أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي: (185 - 252هـ)

قال عنه ابن أبي أصيبعة [2]«فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها ». ويتصل نسبه بالأشعث بن قيس الكندي. وكان أبوه إسحاق بن الصباح أميراً على الكوفة للمهدي والرشيد. وكان جده الأعلى الأشعث بن قيس ملكاً على كنده وقد وفد على رسول الله مسلماً في وفود كنده واليمن.

وقد ولد يعقوب بن إسحاق في البصرة وانتقل منها إلى بغداد حيث تأدّب وتعلّم حتى برع في الطب والفلسفة والحساب والمنطق والهندسة وعلم النجوم والموسيقى . وقد احتذى في تواليفه حذو أرسطو. وكان حذّاق التراجمة في الإسلام أربعة: حنين بن إسحاق، ويعقوب بن إسحاق الكندي، وثابت بن قرّة الحرّاني، وعمر بن فرخان الطبري.

وكان من تلامذة الكندي حسنويه، ونفطويه وسلمويه.. الخ (على هذا الوزن). ومن وصية الكندي للأطباء : «وليتقِّ الله تعالى المتطبّب ولا يخاطر، فليس في الأنفس عوض .. وكما يحبُّ أن يقال له أنه كان سبب عافية العليل وبرئه، كذلك فليحذر أن يقال أنه كان سبب تلفه وموته. وقال: العاقل يظن أن فوق علمه علماً، فهو أبداً يتواضع، والجاهل يظنُّ أنه قد تناهى، فتمقته النفوس لذلك».

وقد كانت للكندي مكانة أيام المأمون والمعتصم ثم دسّوا عليه عند المتوكل حتى ضربه، وأخذ كتبه بأسرها وأفردها في خزانة سميت الكندية.

وذكر ابن أبي أصيبعة له أكثر من مئة رسالة في مختلف فنون المعرفة وأهمها في الطب رسالة في الطب البقراطي، رسالة في الغذاء والدواء المهلك، رسالة في الأبخرة المصلحة

---

(1)فقد النص العربي: لكتاب ابن رشد وهو كتاب أرسطو في الأخلاق (أي رسالته إلى نيقوماخوس) وقد بقيت الترجمة اللاتينية التي قام بها الألماني هرمن سنة 1240 ثم طبعت في البندقية سنة 1560 ضمن مجموع مؤلفات أرسطو وشرح ابن رشد عليها. ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوي (عن الترجمة اللاتينية) أن ابن رشد تعب في الحصول على نيقوماخيا (أي رسالة أرسطو إلى نيقوماخوس)، والتي ترجمها حنين بن إسحاق (المتوفى سنة 298) الذي قام بترجمة العديد من الكتب اليونانية الطبية والفلسفية وكان رئيساً لدار الترجمة التي أنشأها المأمون العباسي. وأما الترجمة العبرية فقد قام بها صمويا بن يهودا من مرسيليا الذي أتمها سنة 1321م. وقد أثرت كتب ابن رشد في فلاسفة أوروبا ومنهم ألبير الكبير وروجرر بيكون وخاصة في كتابه التأليف الكبير Mains opus ، الذي وضعه سنة 1267م وقد نشر الدكتور عبد الرحمن بدوي كتاب الأخلاق المعروف بنيقوماخيا وقام بوضع مقدمة ضافية له وتعليقات هامة. وقد قام الدكتور الفرد عبري بنشر كتاب ابن رشد : تلخيص كتاب النفس لابن رشد . وقد وجد مخطوطتين عربيتين كتبتا بالحرف العبري (باريس عبري 1009 ومودنيا 41) ومخطوطين مترجمين إلى العبرية (ضمن مجموعة ابن رشد) ولكل ترجمة خمس نسخ وقد استعان ابن رشد بترجمة عربية لكتاب أرسطو، والمترجم مجهول كما يقول الفرد عبري.

(2)أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي (ابن أبي أصيبعة): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق د . نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965، ص 285 - 293 .

للجو من الوباء، رسالة في علة نفث الدم، رسالة في تدبير الأصحاء، رسالة في علة الجذام، رسالة في أشفية السموم، رسالة في عضة الكلب الكِلبْ، رسالة في علاج الطحال الجاسي من الأمراض السوداوية، ورسالة في الفرق بين الجنون العارض من مسّ الشياطين وبين ما يكون من فساد الأخلاط، ورسالة في الحيلة لدفع الأحزان... الخ.

وله عدد من الرسائل في الهندسة والرياضيات والموسيقى والنجوم والفراسة والمنطق وله في الفلسفة : كتاب الفلسفة الأول ى فيما دون الطبيعيات والتوحيد، ورسالة في أنه لا تنال الفلسفة إلا بالرياضيات، كتاب الحث على تعلم الفلسفة، رسالة في كمية كتب أرسطوطاليس وما يحتاج إليها في تحصيل علم الفلسفة، كتاب في قصد أرسطوطاليس في المقولات ورسالته الكبرى في مقياسه العملي له كتاب في أن أفع ال الباريء كلها عدل لا جور فيها ورسالة في الإبانه أنه لا يمكن أن يكون العالم بلا نهاية (وهو رد على فلاسفة اليونان الذين يقولون بذلك)، رسالة في ماهية الفعل والإبانه عنه ورسالة إلى المأمون في العلة والمعلول، رسالة في الاحتراس من خدع السوفسطائية ورسالة في الم قولات العشر وغيرها كثير في الفلك والرياضيات والهندسة والرياضيات (وكلها من فروع الفلسفة آنذاك).

وله رسالة في نقض مسائل الملحدين ورسالة في الرد على الثنويه (الذين يقولون بإله النور وإله الظلمة)، ورسالة في التوحيد بتفسيرات، ورسالة في افتراق الملل في التوحيد، وأنهم مجمعون على التوحيد، وكلٌّ قد خالف صاحبه، رسالة في تثبيت الرسل عليهم السلام، رسالة في الاستطاعة وزمان كونها، ورسالة في البرهان.

وله رسائل في الكيمياء والعطر والطيور وأنواع النخل ونعت الحجارة والجواهر ومعادنها وجيدها ورديها وأثمانها.. ورسالة إلى أحمد بن المعتصم فيما يطرح على الحديد والسيوف حتى لا تنثلم وتكل.

وله رسالة في الرئاسة ورسالة في سياسة العامة، وكتاب تسهيل الفضائل، ورسالة في التنبيه على الفضائل، ورسالة في الأخلاق، ورسالة في الطب الروحاني وكتاب دفع الأحزان.

وقد نشر الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة رسائل الكندي الفلسفية[1] .

ورسائله الفلسفية أرسطية المذهب والهوى غير أن رسائله في النفس كما يقول الجابري تبتعد به عن أرسطو وتربطه بأفلاطون [2] . ورسالته «القول في النفس المختصر من كتاب أرسطو وأفلاطون وسائر الفلاسفة » تميل بوضوح إلى أفلاطون وجالينوس . ورسالته في الطب الروحاني (وهو عنوان لرسالة للرازي وابن الجوزي وغيرهما) مصدرها ومرجعها :

---

(1)د. محمد عبد الهادي أبو ريدة : رسائل الكندي الفلسفية، دار الفكر العربي القاهرة 1950، ولجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة في جزأين.

(2)د. محمد عابد الجابري: العقل الأخلاقي العربي ص 291 ـ 294. والواقع أن معظم فلاسفة المسلمين (ما عدا ابن رشد) يتجهون إلى أفلاطون وأفلوطين (الأفلاطونية الحديثة) عند الحديث عن النفس . وقد يخلطون كلام أرسطو وأفلاطون وأفلوطين، وهو أمر كثير الحدوث عندهم، دون تمييز بين قول هذا وذاك في أغلب الأحوال. ويبدو أن ذلك بسبب الترجمات والمترجمين .

جالينوس، ورسالته في دفع الأحزان شبيهة برسالة جالينوس «مقالة في صرف الاغتمام ». والأحزان هنا تعامل مثل الأمراض الأخرى ونجد ذلك أيضاً في رسالته «علاج الطحال الجاسي من الأمراض السوداوية» باعتبار الطحال عضو المرة السوداء ومنه تخرج . كما نرى اهتمام الكندي بالتفريق بين الجنون العارض من مسّ الشياطين، وبين ما يكون من فساد الأخلاق . وهو أمر يحتاج لبحثه الأطباء النفسيون المسلمون اليوم وخاصة بعد انتشار أمراض المسّ أو إدعاء انتشارها!!.

وفي الطب الروحاني للكندي يبدأ الكندي بتعريف الحزن بأنه ألم نفساني سببه فُقد محبوب وفوتُ مطلوب. وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يحزن الناس، والحال أنه لا يمكن لأحد أن ينال جميع مطلوباته ويسلم من فقد محبوب له؟ ! إن الثبات والدوام للأمور العقلية وحدها . أما الأمور الحسّية فكلّها إلى زوال. أما إذا أردنا أن نحتفظ على الدوام بما نملكه فيجب أن نشتغل بالأمور العقلية فهي وحدها تدوم.... ولكي نكون سعداء ونتجنب الشقاء نوجه إرادتنا وحبنا إلى ما هو في مكنتنا، ولا نحزن على ما فاتنا . وهكذا فإذا لم يكن ما تريد يجب أن تريد ما يكون، وأن لا نختار الحزن على دوام مكروه.

هذا على سبيل اتقاء الحزن والوقاية منه. أما الحيلة في التخلص منه عندما نصاب به فهي نفس الحيلة أو الطريقة في دفع أمراض البدن وذلك أن نتحمل من الألم ما نتحمل عند استعمال الدواء المر أو الكي أو القطع، على أن أدوية الحزن ليست كلها مؤلمة بل هناك أدوية سهلة ومنها كما يقول تذكر أحزاننا الماضية وكيف ذهبت، وأحزان الآخرين وكيف مضت وهم الآن فرحون. وينبغي أن نعلم أننا إذا أردنا أن لا نصاب بمصيبة فقد أردنا أن لا نكون موجودين البتّة، لأن المصائب من «الفساد» والزوال، ونحن في عالم الكون والفساد . عالم كل شيء فيه مصيره إلى زوال إن آجلاً أو عاجلاً.

ويقول الجابري: أما رسائل الكندي الأخرى في ميدان الأخلاق والسياسة فلا نستطيع أن نقطع بشيء بصددها لأنها جميعاً مفقودة أو في حكم المفقود..

ويخلص الجابري إلى القول: إن أول ما انتقل إلى الثقافة العربية من الموروث اليوناني في مجال القيم والأخلاق هي تلك النزعة الطبيّة الفيزيولوجية التي كرّسها جالينوس في هذا المجال من خلال قراءة أخلاق أفلاطون قراءة طبيب لا قراءة فيلسوف، معتقداً أنه بفعله ذلك إنما يرجع الأمور إلى أصلها، إلى أبقراط الذي أخذ عنه أفلاطون.

أبو بكر الرازي [1]: (250 - 313هـ/ 864 - 925م) والأخلاق

هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (نسبة إلى الري مدينة مشهورة من مدن إيران وهي في ضواحي طهران اليوم ولا تزال بقاياها موجودة). وسافر إلى بغداد وأقام بها مدة . وقد تعلم صناعة الطب على يد علي بن ابن الطبري، حتى صار جالينوس العرب وأمهر أطبائهم.

---

(1)ترجمة الرازي: من كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة.

وكان الرازي قد نصح عضد الدولة عندما أراد أن يبني البيمارستان العضدي في بغداد بأن يضع الغلمان في كل ناحية من نواحي بغداد قطعة لحم، فأيها لم تفسد وتتغير بسرعة تكون هي موضع البيمارستان. وكان الرازي ساعورا (مديرا) لهذا المستشفى المشهور.

وكان الرازي على سعة علمه وفضله رؤوفاً بالمرضى، مجتهداً في علاجهم، وفي برئهم بكل وجه يقدر عليه، مواظباً للنظر في غوامض صناعة الطب والكشف عن حقائقها وأسرارها هذا رغم تبحره في علوم الكيمياء والصيدلة والفلسفة.

وله إسهامات كثيرة جداً في الطب وله مئات الكتب، ومن أهم كتبه في الطب كتاب المنصوري ألّفه للأمير منصور بن إسحاق بن إسماعيل الساماني حاكم خراسان (بخارى وما حولها إلى إيران وأفغانستان وما يعرف اليوم بالتركستان) وتحرّى فيه الاختصار والإيجاز وهو في عشر مقالات. وكتابه الموسوعي الحاوي في الطب وجمع فيه أقوال الأطباء منذ أقدم الأزمنة في كل مسألة باختصار واقتدار، ويذكر فيها رأيه إن كان له رأي مخالف . وقد حُرّر الكتاب بعد وفاته لأن المنيّة عاجلته عن تحريره . وله مقاله في الجدري والحصبة وهو أول من فرّق بينهما . وله كتاب الشكوك والمناقضات التي في كتب جالينوس (رد فيه على جالينوس). وله كتاب في أن الأبصار ليس بشعاع يخرج من العين كما زعم اقليدس وفلاسفة اليونان وأطباؤهم، بل هو انعكاس الضوء على العين وانطباعه فيها. وله المدخل الصغير في الطب وقد استعرضناه عند الكلام عن جالينوس وله كتاب في علل المفاصل والنقرس ، وكتاب من لا يحضره الطبيب ، و مقاله في الحصى في الكلى والمثانة وكتاب في الرد على الجاحظ في نقض صناعة الطب . وله عشرات الكتب في فروع الطب كلها.

كتبه في الأخلاق:

وله في الأخلاق الطب الروحاني وكتاب في اللذة ومقاله في العادة وكتاب في أن النفس ليست بجسم، وكتاب في النفس المغترّة ، وكتاب في النفس الكبيرة، ورسالة في محنة (أي امتحان) الطبيب وكيف ينبغي أن يكون حاله في نفسه وبدنه وسيرته وأدبه. وكتاب في أخلاق الطب بعنوان «أدب الطبيب» ومثله للرهاوي، وهو بعد زمن الرازي بأكثر من قرن .

وله مئات الرسائل والكتب في الفلك والكيمياء والموسيقى والأوزان والمكاييل وعلوم الهندسة والنبات والطبيعة والرياضيات ... الخ .. والانتقاد على أهل الاعتزال وكتب في الفلسفة مثل كتابه في نقض كتاب البلخي لكتاب العلم الآلهي والردّ عليه. وله كتاب في السيرة الفاضلة ، وسيرة أهل المدنية الفاضلة. وكتاب في وجوب الدعاء . وكتاب الحاصل وهو في العلم الإلهي من طريق البرهان، ورسالة لطيفة في العلم الإلهي . وكتاب إلى علي بن شهيد البلخي في تثبيت المعاد، غرضه فيه النقد على من أبطل المعاد (القيامة واليوم الآخر) وكتاب في الأوهام والحركات النفسانية، وكتاب فيما أغفلته الفلاسفة، وكتاب السرّ في الحكمة .

والخلاصة أن كتب الرازي مكتبة كاملة وقد لقيت كتبه الطبية عناية وطبع كتابه الحاوي الموسوعي مرات، وكذلك كتابه المنصوري، والعديد من كتبه الطبية مثل من لا يحضره الطبيب (طب الفقراء).

كما طبعت بعض كتبه في الفلسفة والأخلاق مثل الطب الروحاني وأدب الطبيب . ويخالف الرازي الفلاسفة في إيمانه بالمعاد واليوم الآخر وتأليفه كتاباً في ذلك . وتتضح اتجاهاته الإسلامية في كثير من كتبه الطبية والفلسفية والأخلاقية، وليس هو بمعصوم ويُنتقد في أشياء عدة منها كتاب الأشربة الذي أسرف فيه في ذكر فوائد الخمر وأنواعها، إذا شربت بـلعتدال ، وعنه أخذ العديد من الأطباء والكتاب وغيرهم، وهو أيضاً يعتقد بقدم العالم وهو ما سمّاه الهيولي الأولى واعتبره جوهراً قديماً (وأهل الإسلام والأديان السماوية يقولون بأن القديم هو الله وحده وما عداه فحادث مخلوق) ومع ذلك فقد قرر الرازي كما قرر بعض فلاسفة اليونان أن الله هو الخالق . وكما قال أرسطو فإن الله خلق الأكوان لا من عدم بل من مادة أولية بسيطة، وكما يقوم الفخّاري بصنع مختلف الأواني من الطين البسيط، فكذلك الله خلق هذه الموجودات من الهيولى الأولي. وذلك بشوقها إليه واستمدادها منه!!.

وأنكر الرازي أن تكون الطبيعة خالقة لذاتها ولهذا الكون وقال : «إن الذين يقولون بذلك تتناقض أقوالهم وتضطرب» .

ومما يؤخذ عليه قوله بأن المكان مطلق والزمان مطلق وهو قديم . والمكان الجزئي هو المضاف إلى المتمكّن، والزمان المحصور هو المقدّر بحركات الأفلاك وجري الشمس والكواكب . وأهل ا لملّة يقولون أن الزمان والمكان خلقهما الله تعالى، وبالتالي ليسا هما مطلقين ولا قديمين.

وقد اتهم الرازي بانكار النبوة والأنبياء، وهو أمر غير صحيح، فكتابه الطب الروحاني واضح في الإقرار بالنبوة والأنبياء. وردّ على من قال أن من مناقب الأنبياء العشق . والعشق لا يليق بذوي الأنفس العالية عند الرازي لأنه بليّة ويجلب التذلل والاستكانة وطريقه وعر، وحبُّ الشيء يُعمي . ولكن عبارته في ذكر عشق الأنبياء غير سليمة بل فيها تنقّص من الأنبياء قال: «إنه ليس من أحد يستجيز أن يعدّ العشق منقبه من مناقب الأنبياء ، ولا فضيلة من فضائ لهم، ولا أنه شيء آثروه واستحسنوه، بل إنما يعد هفوة وزلة من هفواتهم وزلاتهم»[1] .

وفي كتاب الطب الروحاني يكرّر الرازي ما ذكره في كتاب «المدخل الصغير إلى علم الطب »[2] في كيفية خلق الله للعالم واستخدامه لنظرية الفيض (الأفلاطونية المحدثة ومن أشهر رجالها أفلوطين السكندري)، وقد سبق ذكرها بتفصيل عند الحديث عن جالينوس الذي أيّدها، وجعل لها أدلة فسيولوجية من بدن الإنسان واستخدم فكرة العناصر الأولية وارتباطها بالأخلاط، وبالتالي الأمزجة التي عليها المدار في تكوين أخلاق الإنسان، وهي كلها مادية.

فالدم ومصدره القلب يتحكم في القوة الغضبية، ومنه الاندفاع والشجاعة وشهوة النساء والمرّة الصفراء ومصدرها الحويصلة المرارية وهي تتحكم في الذكاء والحدة والطيش وشهوة النساء، والمرة السوداء ومنها المزاج السوداوي، وموطنها الطحال وبها يكون

(1)الطب الروحاني لأبي بكر الرازي: تقديم وتحقيق د . عبد اللطيف العبد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1978، ص 63 .

(2)المدخل الصغير إلى علم الطب لأبي بكر الرازي تحقيق د. عبد اللطيف العبد، دار النهضة العربية، القاهرة 1977.

الصمت والتفكر في العواقب، والثقل والإبطاء والحزن، وسلطانها في زمن الكهولة . والبلغم وموطنه الدماغ والرئتين ومن أعراضه العجز والكسل والثقل والنسيان والحلم والطراوة وقلة الحركة وسلطانه في زمن الشيخوخة. ويكرر قول أفلاطون «شيخ الفلاسفة وعظيمها » وقوى النفس (أو النفوس) ثلاث :

(1) النفس الشهوانية ومصدرها الكبد ، ومنها شهوة الطعام (البطن) والجماع (الفرج) وهي تحافظ على بقاء الإنسان وبقاء النوع. والاعتدال فيها هو المحمود والزيادة والنقص هو المذموم. والفضيلة وسط بين طرفين مذمومين كما قال أرسطو.

(2) النفس الغضبية : ومصدرها القلب . وبها تكون الشجاعة والإقدام والمحافظة على النفس والوطن والدين. وهي أيضاً فضيلة وسط بين مذمومين وهما التهور والجبن.

(3) النفس العاقلة : ومصدرها الدماغ ، وفيها الفكر والرويّة والتفكر والعلم . وهي التي توجه النفس الشهوانية وتزمّها بزمامها بمساعدة القوة الغضبية . والنفس الشهوانية والنفس الغضبية يفنيان، بينما النفس العاقلة خالدة كما يقول أفلاطون، وأما جالينوس فلا يقول بذلك، بل يتشكك فيه. ومهما كان الأمر عنده من خلودها أو عدم خلودها فدورها وأهميتها بالمكان الأعلى وهي التي بها يستحق الإنسان أن يكون إنساناً ويخرج بذلك عن طور الحيوان والبهيمة.

واللذّة والألم عند الرازي متأثرة بما قاله جالينوس فاللذّة تعقبُ خروج المؤذي من الجسد . فالجوع يسبب ألماً وكذلك العطش، والشرب والأكل يذهبان هذا الألم وبالتالي يسببان لذّة وقتية. والرغبة الجنسية إذا زادت تسبب ألماً لاحتباس المني فإذا أفرغت سببت راحة ولذّة .. وكذلك إخراج البول والبراز يسبب لذة لأن الاحتباس يسبب ألماً.

ومع ذلك فإن الألم واللذّة نسبيان ويختلفان تماماً من شخص لآخر . وإن الادمان على الشهوات يقطع التلذذ بها فمدمن الخمر (ومدمن النيكوتين أيضاً) يتألم عند عدم شرب الخمر (أو النيكوتين) فيشربها ليذهب عنه الألم، (وهو أمر صحيح)، وكذلك المخدّرات.

وفي كلام الرازي حق وباطل.

فالإحساس بالألم موجود وله جهاز عصبي ومسارات كاملة، كما أن الأحاسيس الأخرى موجودة ولها مساراتها . وكل ذلك يذهب إلى المناطق المخيّة العليا فتعرف الألم واللذة . وهناك مواد كيماوية عديدة يفرزها الدماغ وغيره مثل الايندورفين (المورفينات الدماغية) والسيروتونين وغيرها تسبب الإحساس بالراحة واللذة، وغيابها أو نقصها يسبب الإحساس بالألم أو الضيق.. إلخ.

ومع ذلك يقول الرازي أن اللذات لا توجد للإنسان فضلاً . وعلى الإنسان أن يؤثر اللذات العقلية ولذات عمل الخير لأنها باقية، و عليها المدار في حصول لذّات الآخرة الباقية، أما لذّات الدنيا فهي فانية.

وينهى الرازي عن الشَرَه والسُكر والباه (الإكثار من الجماع) ، وخير الأمور الوسط . كما ينهى عن الحسد والبخل والغمّ والعُجب والكبر، والولع والعشق، وحبّ الرئاسة والاستبداد .

كما ينهى عن الغضب المذموم وأن يتحكم الإنسان في الغضب . فإذا كملت صفات الإنسان وآثر الاعتدال في كل أموره ومقاصده عاش سعيداً ومات سعيداً . ولم يكن من الموت خائفاً ولا مرعوباً . ومن أحبّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه . وحذّر الرازي من الكذب ونهى عنه أشد النهي .

ولا شك أن الرازي قد تأثر في فلسفته الأخلاقية بفلاسفة اليونان وخاصة جالينوس، وأفلاطون، والأفلاطونية الحديثة (العهد الروماني المسيحي) مع تأثره الواضح بتعاليم الإسلام، ومبادئه العامة وأهدافه النبيلة . وأهم ما يميّزه عن كثير من الفلاسفة الذين سبقوه أو جاؤوا بعده إيمانه بالمعاد و اليوم الآخر، بعثاً للنفوس والأجساد . فكثير منهم يؤمن ببقاء الروح وخلودها وسعادتها وشقاوتها، وعذابها ونعيمها، ولكنه للأسف لا يؤمن ببعث الأجساد يوم الميعاد، وخلودها وعذابها ونعيمها. وهو أمر مخالف لما جاء به الدين الإسلامي الحنيف وكل دين جاء به الرسل الكرام من الربّ الكريم.

وقد وضع الرازي رسالة في إصلاح الأخلاق ثم وضع كتابه «الطب الروحاني » وجعله في عشرين فصلاً:

الأول : في فضل العقل ومدحه.

الثاني : في قمع الهوى وردعه وجملة من رأي أفلاطون الحكيم.

الثالث : جملة قُدِّمت قبل ذكر عوارض النفس الرديئة على انفرادها.

الرابع : في تعرّف الرجل عيوبه.

الخامس : في دفع العشق والإلف وجملة من الكلام في اللذة.

السادس : في دفع العُجب.

السابع : في دفع الحسد.

الثامن : في دفع المفرط الضارّ من الغضب.

التاسع : في إطِّراح الكذب.

العاشر : في إطِّراح البخل.

الحادي عشر : في دفع الفضل (أي الزائد) من الفكر والهمّ.

الثاني عشر : في صرف الغمّ.

الثالث عشر : في دفع الشَرَه (شهوة البطن).

الرابع عشر : في دفع الانهماك في الشراب (المقصود المسكر).

الخامس عشر : في دفع الاستهتار بالجماع (أي الإكثار منه).

السادس عشر : في دفع الولع والعبث والمذهب (وبالذات العشق).

السابع عشر : في مقدار الاكتساب والاقتناء والإنفاق (وأن على الإنسان أن لا يجعل المال كل همه، وإنما ينال منه ما يبعده عن ذلّ السؤال وما يحقق حاجاته دون إسراف).

الثامن عشر : في دفع المجاهدة والمكادحة إلى طلب الرتب والمراتب الدنيوية.

التاسع عشر : في السيرة الفاضلة (وكيف يصل الإنسان إلى ذلك).

العشرون : في الخوف من الموت.

وقد وضع الرازي كتابه «الطب الروحاني » بناء على طلب الأمير منصور ابن إسحاق الساماني الذي كان شغوفاً بالرازي، وقد كان الرازي أهدى له كتاباً مجملاً في الطب هو كتاب «المنصوري»، نسبة إلى الأمير منصور.

ويقول الدكتور محمد عابد الجابري [1] : «الطب الروحاني » يبدو هنا فعلاً قرين الطب الجسماني ليس على صعيد العنوان وحسب بل على صعيد النموذج الايبستيمولجي (المعرفي): يتجلّى هذا على صعيد الوظيفة أولاً : الطب الجسماني يعالج الجسم العليل، والأخلاق هنا موجهة لمعالجة النفس المريضة».

وكما أوضحنا فإن الرازي متأثر في كتابه هذا بجالينوس وأفلاطون والأفلاطونية الحديثة.. ومهمة النفس العاقلة هي قمع أو دفع أو التخفيف من جنوح النفس الشهوانية، أي الهوى، وكذلك التخفيف من جموح النفس الغضبيّة التي يجب أن تبقى مع ذلك قوية حتى تُبقي الأخلاق على طريق الاعتدال دون إفراط ولا تفريط.

ويبدو الرازي كطبيب أكثر منه فيلسوفاً . وهو يعالج الصفات الخُلُقية الرديئة، ويعتبرها عوارض للمرض . ومن هنا كما يقول الجابري : «كان الخطاب الأخلاقي لدى أبي بكر الرازي تطبيقياً وليس خطاباً نظرياً»[2] .

وهناك كتاب آخر بعنوان الطب الروحاني لأبي الفرج[3] عبد الرحمن ابن الجوزي المتوفى سنة 597هـ .

وقد ابتدأ ابن الجوزي رسالته بفصل عن فضل العقل وماهيته ومسكنه ولم يطل فيه الكلام لأنه قد ذكره في كتابه «ذم الهوى». وثمرة العقل معرفة الخالق سبحانه وتعالى، والاستدلال عليه، ومعرفة صدق الأنبياء . كما أن العقل يحث الإنسان على الطاعة والبعد عن المعصية وبه تأهل الآدمي لخطاب الله سبحانه وتعالى وتكليفه، وبه تميز الإنسان عن سائر الحيوانات والبهائم. ثم استطرد إلى ذم الهوى والفرق في ما بين ما يرى العقل وما يرى الهوى . وتحدث عن العشق و ضرره على النفس وعلاجه بالزواج ثم تحدث عن الشره (المأكل والمشرب والملبس والمنكح)، وتحدث عن البخل ثم النهي عن التبذير، ثم في بيان مقدار الاكتساب والانفاق وأفاض في الحديث عن الكذب وأضراره والحسد والحقد وكيف يتم التغلب عليهما . وكيفية دفع الغضب. ودفع العجب والكبر وعلاج الرياء وحب الرئاسة، ودفع فضول الفكر

(1)د. محمد عابد الجابري: العقل الأخلاقي العربي ص 294.
(2)المصدر السابق: ص 297.
(3)أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي: الطب الروحاني.

ودفع الحزن والهم والغم والحذر والخوف من الموت إلى حد ينغّص على المرء حياته، وإن كان العاقل يذكر الموت والبلى ليتّعظ، وليهذّب نفسه ويجعلها على طريق الخير والحقّ والصواب. وعليه أن يجانب الكسل والهمّة الدنيّة وأن ي عرف الإنسان عيوب نفسه، وكيف يروض نفسه على الحقّ والاعتدال في الصفات . ثم كيف يروض الأطفال والزوجة والأهل والمماليك. وكيف يعاشر الناس ويداريهم. ويكف يصل إلى السيرة الكاملة التي تتمحّض لفعل الخير وتهدي إليه، وتجتنب الشر وتحذّر منه بقدر الطاقة البشرية غير المع صومة، فالعصمة للأنبياء وحدهم. والحفظ من الله للسالكين في مرضاته.

وقد ذكر ابن الجوزي أنه كتب قبل ذلك كتاباً في الطب الجسماني وسمّاه «لقط المنافع » وآثر أن يشفعه بكتاب في طب النفوس بعنوان «الطب الروحاني » وطب الأبدان يسعى لإصلاح الأبدان والصور بينما يعالج طب ا لنفوس، إصلاح النفوس والمعاني وهي أشرف عند الله وعند خلقه.

والفرق بينه وبين الرازي كبير فاتجاه الرازي طبي فلسفي، بينما اتجاه ابن الجوزي وعظي ديني. ولا شك أن أسلوب ابن الجوزي أجمل، وعبارته أفضل، وتأثيره في النفوس أبلغ، وهو يوشّي كلامه بآيات القرآن الكريم، وأ حاديث الرسول العظيم وبأبيات من الشعر، وشيء من كلام الزهّاد والصوفية مثل الحسن البصري وإبراهيم بن أدهم، وأفانين اللغة والفرق بين البشم (الامتلاء من الطعام)، والبغر (الامتلاء من الشراب). وابن الجوزي من أشهر الوعاظ وأبلغهم، فلا غرو إذا سار كتابه على هذا المنو ال.. وهو أقرب إلى قلوب العامة، بل والخاصة من كلام الرازي الفيلسوف الطبيب ذي العبارة الجافة العقلانية الصرفة التي تستخدم اصطلاحات الفلسفة والطب الجالينوسي.

وانتفاع الناس والقرَّاء بأمثال ابن الجوزي في هذا الباب أكثر بكثير من انتفاعهم بأمثال الرازي الفيلسوف الطبيب. وللرازي مجاله وإبداعه في الطب والمعالجات، وله فيها إبداعات لم يسبق إليها فذاك فنّه، وأما إصلاح النفوس فالوعاظ على ذلك أقدر وابن الجوزي في ذلك أنفع وأصلح.

الفارابي وتأثره بالفلسفة اليونانية:

أبو نصر محمد بن محمد بن اوزلغ بن طرخان الفارابي التركي (260 - 339هـ/879 - 950م) .

ولد الفارابي في فاراب (في جمهورية قازاخستان حالياً) وانتقل إلى بغداد ثم انتقل إلى دمشق وبقي فيها إلى وفاته سنة 339هـ/879م، وكان يجيد العديد من اللغات الشرقية مثل العربية والفارسية والتركية ولغة الهند (السنسكريتية) كما كان يجيد لغة ا ليونان. ورغم أنه تأثر بأرسطو ونقل العديد من كتبه حتى لقب بالمعلم الثاني إلا أنه تأثر بأفلاطون أيضاً في كتاب المدينة الفاضلة . وكتاب الفارابي آراء أهل المدينة الفاضلة يوضح هذه التأثيرات المختلفة.

وكان الفارابي متأثراً بأفلاطون في اهتمامه بالموسيقى، وله كتاب «في أغراض فلسفة أفلاطون وأرسطوطاليس» قال عنه ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء، «يشهد له بالبراعة

في صناعة الفلسفة والتحقيق بفنون الحكمة وهو أكبر عون على تعلم «طريق النظر»[1] أي الفلسفة.

وقد استفاد ابن سينا من كتب الفارابي واعتمد عليها في فهم الإلهيات . وقد كان الفارابي يجمع بين آراء أفلاطون وأرسطو وأفلوطين ويخلطها بالعقائد الإسلامية.. وهو خليط عجيب ومزج غريب. ومثاله هذا الدعاء الذي يوجهه الفارابي إلى الله:

«اللهمَّ إني أسألك يا واجب الوجود (وهو تعبير فلسفي شاع عند المسلمين بعد أن أدخله الفارابي) ويا علَّة العلل، قديماً لم يزل، أن تعصمني من الزلل، وأن تجعل لي من الأمل ما ترضاه لي من عمل . اللهمَّ امنحني ما اجتمع من المناقب، وارزقني في أموري حسن العواقب، نجّح مقاصدي والمطالب يا إله المشارق والمغارب، ربِّ الجوار الكُنَّس التي انبجست عن الكون انبجاس الأبهر، هُنَّ الفواعل عن مشيئته، التي عمّت فضلها جميع الجواهر (وهو اعتقاد جاء به أفلوطين أن الكواكب السبعة، وآخرها القمر خُلقت عن العقل الفعّال وهي التي تدبّر هذا الكون. وهو اعتقاد باطل ديناً وعلماً). أصبحتُ أرجو الخير منك وأمتري زحلاً ونفس عطارد والمشتري، (وهو عود لتقد يس هذه الكواكب التي لا يقرّها الإسلام) «اللهمَّ ألبسني حلل البهاء وكرامات الأنبياء وسعادة الأغنياء وعلوم الحكماء وخشوع الأتقياء..، امنحني فيضاً من العقل الفعّال (وهي فلسفة افلوطين وأفلاطون التي تقول بأن الله خرج منه العقل الفعال . ومن العقل الفعال ظهرت الكو اكب السبعة السيّارة، ومن الأجرام السبعة ظهرت بقية الأجرام السماوية وآخرها القمر وهو أقرب هذه الأجرام إلى الأرض. وعن هذه الأجرام السبعة ظهرت الأرض ثم العناصر الأربعة ثم المخلوقات في سلسلة عبر عشر مراحل وهي نظرية الفيض التي جاء بها أفلوطين السكندري).

هذِّبْ نفسي من طينة الهيولى (تعبيرات أرسطو) إنك أنت العلة الأولى ... . اللهم ربِّ الأشخاص العلوية، والأجرام الفلكية، والأرواح السماوية غلبت على عبدك الشهوة البشرية، وحبِّ الشهوات والدنيا الدنيّة فاجعل عصمتك مجنّى من التخليط وتقواك حصني من التفريط... اللهم إنك قد سجنت نفسي في سجن من العناصر الأربعة (النظرية اليونانية: الماء والهواء والنار والتراب) ووكلت بافتراسها سباعاً من الشهوات . اللهمَّ جُدْ لها بالعصمة وتعطَّفْ عليها بالرحمة.... واطلع على ظلمائها شمساً من العقل الفعّال (تعبيرات أرسطو) وامط عنها ظلمات الجهل والضلال.. وأخرجها من ظلمات الجهل إلى نور الحكمة وضياء العقل».

نظرية الفيض:

ويعتمد الفارابي كثيراً على نظرية الفيض التي جاء بها أفلوطين السكندري (القرن الرابع بعد الميلاد) ويقول: أن وجود الموجودات لازم بالضرورة عن وجود الله . وأن ذلك الوجود يتم بالفيض، والله لا يبتغي أية غاية من إيجاد العالم.

---

(1)ابن أبي أصيبعة: عيون الأنبياء في طبقات الأطباء ص 603 - 609 .

يفيض عن الله أو العقل الأول، العقل الثاني، وهو جوهر غير متجسم وليس في مادة، يعقل الله فيلزم عنه عقل ثالث مثله، ويعقل ذاته فيلزم عنه وجود السماء الأولى والعقل الثالث يعقل الله ويعقل ذاته، فيلزم عن ذلك وجود العقل الرابع والسماء وتمضي العملية هكذا في تسلسل حتى ينتهي إلى العقل الحادي عشر وهو العقل الفعّال وإلى كوكب القمر (حسب تعبيره)، وهو الكوكب التاسع بعد السماء الأولى، والكواكب الثابتة السبعة وهي زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد.

وعند العقل الحادي عشر أو العقل الفعّال والكوكب التاسع، أو القمر الذي يقابله تنتهي سلسلة الموجودات السماوية عقولاً وأجساماً وتبدأ الموجودات الأرضية[1] .

وهذه النظرية لا دليل عليها من علم كوني أو علم ديني (آية أو حديث)، وهي كلها تخرّصات. وللأسف يقول الفارابي كما قال مثله الأعلى أرسطو أن الله لا يعلم سوى ذاته، وهو لا يعلم ما يجري في العالم، وهو كفر محض . ولهذا كفَّر علماء المسلمين الفلاسفة في عدة مسائل . ورغم أن فلاسفة المسلمين كانوا يتحاشون العبارات الكفرية الواضحة ويدمجونها بكلام جميل يقرّه الإسلام، ويقولون أنه لا يعلم الجزئيات ويعلم الكليّات، وهو كفر.

وقد وضع الفارابي كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» ليصل إلى السعادة الحقّة.

والسعادة هي الخير المطلوب لذاته وهي الغاية . ونحصّلها باستكمال المعرفة التي بواسطتها تغدو النفس بريئة من المادة.

والفضائل ليست سوى خيرات جزئيّة تمهّدْ لبلوغ الخير الأعلى والسعادة. أما الشرُّ فهو كل عمل يعوق عن السعادة، إنه الفعل القبيح.

والإنسان مدني اجتماعي بطبعه والإنسان لا يستطيع أن يوفّر لنفسه بمفرده حاجاته العديدة من الملبس والمأكل والمسكن والأمن... الخ فيضطر إلى التعاون مع جماعة من بني جلدته لتأمين ذلك فينشأ المجتمع.

والمجتمعات الكاملة: سكان الأرض كلها من البشر، وبعدها الأمة، وبعدها المدينة . وأما القرية والناحية والسكة والمنزل فهي مجتمعات ناقصة.

والمدينة هي أصغر اجتماع يمكن أن يوفر السعادة لأفراده بالتعاون . وكذلك الأمر في الأمة، وفي المعمورة سكان العالم.

ويتكلّم الفارابي بإسهاب على رئيس المدينة الفاضلة، وهو كالقلب بالنسبة لسائر البدن، وتليه في الشرف طبقة من أهل المدينة تساعده في الحكم، وأدنى منها طبقة تخدم الأولى، وهكذا حتى ينتهي إلى طبقة تخدم ولا تخدم (نوع من الطبقية الهندوسية المرفوضة).

---

(1)مقدمة د. علي بو ملحم لكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة لأبي نصر الفارابي ـ مكتبة الهلال بيروت 1995، ص 6 ـ 18. وقد أثبت العلم الحديث أن كل ما قاله اليونان وتبعهم فيه الفارابي وأضرابه ليس إلا من الخرافات والأوهام، ولا علاقة لها بالعلم الحق أبداً، وهي أيضاً مخالفة للدين.

أما مؤهلات الرئيس فملكات فطرية وإرادية، وهو إنسان استكمل عقله الذي حصل على جميع المعقولات وهو العقل المستفاد الذي يستطيع أن يتصل بالعقل الفعّال . وهي درجة الفيلسوف. أما النبي فهو الذي استكمل المخيلة التي تخلّصت من سيطرة الحاسّة والناطقة، والتي تستطيع أن تتّصل بالعقل الفعّال في اليقظة.

ورئيس المدينة الفاضلة ينبغي أن يكون فيلسوفاً أو نبيّاً، وكلاهما يصلح لرئاسة المدينة الفاضلة.

وينبغي أن يتوفر في الرئيس أيضاً تمام الأعضاء وجودة الفهم وجودة الحفظ، والذكاء، والبلاغة، وحبّ العلم، والعفة، والصدق، والإباء، والكرم، والشجاعة والعدالة. أما من يخلفه فينبغي عليه على الأقل أن تتوافر فيه ست خصال : وهي الحكمة وحفظ الشرائع التي سنَّها سلفه، والقدرة على احتذاء من سبقه في سنِّ الشرائع والقدرة على استنباط شرائع جديدة تدعو إليها الحاجة، وإرشاد الناس إلى الشرائع، والقدرة على الحرب.

وإذا لم تجتمع هذه الخصال الست في واحد وتفرَّقت في أكثر من واحد كانوا هم الرؤساء والأفاضل مجتمعين.

وإذا كانت السعادة تقوم بالمعرفة فإن المعرفة التي ينبغي أن يحصّلها أهل المدينة الفاضلة هي التي انطوى عليها كتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة » بدءاً بالله وصفاته وانتهاء بآراء أهل المدينة الضارّة.

وهم يدركون هذه المعلومات بطريقتين هما البرهان وهو طريق الحكماء والفلاسفة، والمحاكاة وهي طريق العامة. ومصير أهل المدينة الفاضلة بعد الموت الخلاص والسعادة . إن أبدانهم تبلى وتنقرض، ولكن نفوسهم تخلص وتسعد وتتّصل فيما بينها وتلتذُّ على جهة اتصال معقول لمعقول، وبذلك تزداد سعادتها[1] .

وما يضاد المدينة الفاضلة أربع:

(1) المدينة الجاهلة : وهي التي لم يعرف أهلها السعادة ولا خطرت لهم .. وهي التي تسعى إلى حاجات البدن واقتناص الثروة واللذّة واللهو، والشهرة والغلبة وقهر سائر المدن وآخرها المدينة الجاهلة التي هام أهلها بالحرية واعتبروها منتهى خيرهم [2].

(2) المدينة الفاسقة : وهم يعرفون ما يعرفه أهل المدينة الفاضلة لكن أفعالهم أفعال المدينة الجاهلة.

(3) المدينة المبدّلة : وهي قد عرفت ما عرفه أهل المدينة الفاضلة وعملوا به ثم بدَّلوه وارتكسوا إلى أعمال المدينة الجاهلة.

---

(1)ينكر الفارابي وكثير من فلاسفة المسلمين عذاب القبر، بل وينكرون البعث والنشور . والخلود هو للروح (النفس) فإن كانت فاضلة سعدت، وإن كانت شقيّة ومارقة تعذّبت.

(2)وهذا هو وضع الدول الغربية الليبرالية، وهو وصف دقيق لما هم عليه.

(4) المدينة الضالّة : التي تعتقد في الله والسعادة اعتقادات باطلة، ويتوهم رئيسها أنه أوحي إليه، ويلجأ إلى التمويه والخداع.

ومصير أهل المدن المضادة للفاضلة ينتهي إلى الشقاء وتذهب نفوسهم إلى العدم أو تشقى بالآلآم. وتقوم مجتمعات المدن الجاهلة والضالّة والفاسقة والم بدّلة على الظلم والصراع والغلبة، وسيادة طبيعة الغاب، والقوي يأكل الضعيف على مستوى الفرد والمدينة والأمة والأرض بأجمعها.

والغريب أن الدكتور محمد عابد الجابري لم يعلّق على موضوع المدينة الفاضلة عند الفارابي، وقد أعطى الفارابي رئيس المدينة الفاضلة سلطات واسعة مشابهة تماماً لما فعله الملك أردشير الفارسي الذي انتقده الجابري نقداً لاذعاً متكرّراً . كما أن الفارابي أكثر طبقيّة من الملك الفارسي أردشير الذي حمل عليه الجابري حملات شعواء . ولا شكَّ أن الفارابي كان مماثلاً للهندوس في أبشع صور طبقيتهم، فالرئيس هو كالقلب م ن البدن، وتليه في الشرف طبقة تساعده في الحكم، ثم تليهم طبقة الجند، وأدنى منهم طبقة تخدم ما فوقها (التجار والصناع.. الخ) حتى ينتهي إلى طبقة تخدم ولا تُخدم (طبقة المنبوذين في الهند).. ولا يوجد أي أثر للنظام الديمقراطي الأثيني (اليوناني)، ولا حتى للنظام الأولیجاركي (حكم النخبة)، بل هو حكم طبقي هندوسي أشدُّ عتوّاً وفساداً مما ذكره أردشير . ومع ذلك فقد حظي هذا النظام برضا الجابري، ولله في خلقه شؤون .!!

وأخطاء الفارابي الدينية هي:

(1) اعتقاد الكواكب وأنها فاعلة (أفلوطين والأفلاطونية الحديثة).

(2) أن العالم قديم كما يقول الفلاسفة. والله (تعالى الله عن ذلك) مثل الفخاري الذي يصنع من الطين مجموعة من الأوعية الفخّارية. ويرى أرسطو أنها سعت إليه بشوقها، ولم يصنعها هو.

(3) عدم البعث الجسدي، والنعيم والعذاب روحيّان فقط.

(4) أن الله سبحانه وتعالى، كما يزعم أرسطو، يتفكّر في ذ اته ولا يعلم الجزئيات . وفي هذه النقطة يختلف الفارابي مع أرسطو، ويدعو الله دعاءاً حارّاً . كما تقدّم، وأرسطو لا يرى ذلك.

ثابت بن سنان بن ثابت بن قُرَّة (295 - 363هـ) وكتابه «تهذيب الأخلاق»

هناك عدد كبير من الكتب في التراث العربي الإسلامي صدرت باسم «تهذيب الأخلاق» من أشهرهم مسكويه الذي سنستعرض كتابه لأهميته، وكتاب تهذيب الأخلاق للحسن بن الهيثم الذي نسب للجاحظ، وإلى يحيى ابن عدي (المترجم والمنطقي)، وإلى محي الدين بن عربي الفيلسوف الصوفي المشهور، ومنها كتاب ثابت بن سنان هذا الذي عثر عليه مخطوطاً

الدكتور محمد عاب د الجابري،واختصره، وعلَّق عليه في كتابه الهام «العقل الأخلاقي العربي»[1] .

وأما ما كتب في «الأخلاق» فأمر يفوق الحصر في كل زمان ومكان والتراث العربي الإسلامي غنيّ بمثل هذه الكتب، وقد كتب فيها الأطباء والفلاسفة والمصلحون، وعلماء الإسلام.

وأول رجل ظهر في هذه الأسرة الحرانيّة هو ثابت بن قرة الصابي المتوفى سنة 288هـ واشتهر بالطب والفلسفة والفلك والرياضيات والهندسة والمنطق .. الخ وله كتاب «في الأخلاق» وآخر بعنوان «مختصر في أصول الأخلاق ». وكتابان «في السياسة »، ورسالة في حلّ رموز كتاب «السياسة لأفلاطن» «أفلاطون».. ثم ظهر ابنه سنان بن ثابت بن قرة وكان ساعورا (مديرا) بمارستان بغداد، والمسؤول الأول عن الأطباء. وقام بامتحان الأطباء بحسب أمر الخليفة لحدوث وفاة مريض بسبب خطأ طبيب . وكان مهتماً بالسجون وإرسال الأطباء إليها، وكذلك إلى النجوع والقرى البعيدة . واهتم بطب الأخلاق . وكتب رسالة لأحد الأمراء الذي طلب منه أن يداوي أمراضه النفسية من سرعة الغضب فكتب له رسالة في كيفية معالجة الغضب والغيظ وما يصدر عنهما من بطش وظلم حتى استبدلهما بالعفو والصفح، حتى اعتاد الأمير ذلك وعُرف بعدها بالأناة والحلم، واستعمال العدل والإنصاف، ورفع الظلم والجور[2] .

وكتاب «تهذيب الأخلاق » لثابت بن سنان بن قرة الذي لحق بأبيه وجده بالطب وعلوم الفلسفة والأخلاق، غير منشور كما يقول الدكتور محمد عابد الجابري، ولم يذكر مكان المخطوط ولا أي معلومة عنه وإنما استعرضه استعراضاً جيداً.

وقال إن ثابت بن سنان ذهب في كتابه مذهباً طبيّاً بحتاً وكأنه كتاب في الطب النفسي في عصرنا مع فارق الزمن والثقافة والعلم، وينقسم الكتاب إلى سبعة أبواب:

الأول : يشرح فيه موقع علم الأخلاق ضمن العلوم الفلسفية المختلفة.

الثاني : في أصول الأخلاق وموضوعها قوى النفس الثلاث، مستعيداً تعريف جالين وس للأخلاق بنصه«الخلق حال للنفس داعية للإنسان إلى أن يفعل أفعال النفس بلا روية ويتفق مع جالينوس وغيره بأن النفس الشهوانية مسكنها الكبد، والغضبية القلب والعقلية أو الناطقة الدماغ. ولكنه يرى أن القوة الناطقة تختص بالعلم وليس بالخلق ولا بالعمل وهي أداة للفهم . وإنما الأصل الثالث للأخلاق هو قياس الأنفس الثلاثة إلى بعضها.

وكما أن حال البدن ثلاثة: هي حال الصحة، وحال المرض وحال ليست بصحة ولا مرض فكذلك الشأن في أخلاق الناس، فمنهم محمودون، ومنهم مذمومون، وآخرون يكونون تارة هكذا وتارة هكذا.

(1)د. محمد عابد الجابري: العقل الأخلاقي العربي ص 305 - 314 .

(2)ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار مكتبة الحياة، بيروت ص 295 - 303.

والمرض هو خروج عن الحال الطبيعي سواء تعلّق الأمر بالبدن أو بالنفس فأمراض النفس هي أحوال فيها، خارجة عن المجرى الطبيعي، مضرّة بأفعالها بلا توسط.

والأمراض تعتري النفس من ثلاث جهات:

(1) من قبل الأعضاء التي هي مسكن الأخلاط وعنها يصدر المزاج كالكبد والقلب والدماغ. وقد قال جالينوس: «إن أخلاق النفس تابعة لمزاج البدن» .

(2) من قبل الأحوال النفسيّة كالعادات والاعتقادات .

(3) من قبل اجتماع الأمرين (الأمزجة والأحوال).

والعادات تغيّر الأخلاق تغييراً عظيماً ، رغم أن المزاج لم يتغير وكذلك الاعتقاد والدين . والأخلاق تُعدي بالمعاشرة «وكما يُعدي المريضُ السليم في أمراض البدن فكذلك في أمراض الأخلاق والنفوس . وإذ رأى الإنسان شخصاً يتثاءب تثاءب، والضحك مُعدي والحزن كذلك، وسائر الأخلاق تسري من القرين إلى القرين .. بل إن السماع يؤثر فالموسيقى والأناشيد والأصوات الحسنة لها تأثير في النفس حسن يؤدي إلى النشاط، وعكسها الموسيقى والأغاني الماجنة تؤدي إلى المجون والخلاعة، والمنظر الطبيعي الجميل ينعش النفس «كالخضرة والماء والوجه الحسن».

ويرى أن الأخبار الحسنة لها مفعولها في النفس وعكسها السيئة . وإذا تكررت الأخبار السيئة تحدث في النفس إحباطاً وقنوطاً وسوداوية حتى أ ن بعضهم يزداد لديهم إفراز المرّة السوداء فيصاب بالسوداوية Melancholy من الحزن والانقباض والغمّ والهمّ . وقد يزيد ذلك لدرجة تفسد الفكر والفهم والتمييز، وقد ينتهي ذلك بالإنسان إلى التلف، ومنها ما لا يؤثر في البدن مثل القوى التي يكتسبها الإنسان بتحصيل العلوم والارتياض فيها ومن الأشياء التي تؤثر في الأخلاق: الأمراض التي تكون من جهة البدن والنفس معاً وذلك بسبب التدبير في المطعم والمشرب وغير ذلك.

ثم ينتقل إلى الاستدلال على ما خفي وكمُنَ من الأخلاق ، تماماً كما يفعل الطبيب ليتعرَّف على الأعراض ليعرف ما خفي من أمراض البدن. وهكذا يبحث عن كوامن الأخلاق الرديئة من جهة الأسباب الفاعلة لها: البدنيّة والنفسيّة والممتزجة منهما معاً. ويحصل إخفاء الأخلاق الرديئة إما بسبب استقباح صاحبها لها، وإما بسبب الدهاء والحيلة.

وطبُّ الأخلاق لا يهتم بالمرض وتشخيصه ومعالجته فقط، بل يهتم أ ساساً بحفظ صحة الأخلاق، كما يعنى طب الابدان بحفظ صحة الأبدان .. والطريق إلى ذلك هو حفظ الأسباب التي أوجبتها، وتلافي ما يحدث من مرض في القلب أو الكبد أو الدماغ (وهي مصدر الأمزجة التي هي مصدر للأخلاق) واستدامة صحة تلك الأعضاء على وجه الخصوص وبقية الجسم على وج ه العموم . وكما يضعف البدن ترك الرياضة البدنية فكذلك يضعف النفس والأخلاق ترك مداومة النظر في العلوم على ترتيبها وخاصة ما فيه القياس والحجة . ورياضة النفس الغضبية بالمواعظ والألحان الشجيّة . وأما النفس الشهوانية فإنها عسيرة

التأديب، والهدف من ترويضها إضعافها ح تى لا تنازع النفس الناطقة (العاقلة) ولا النفس الغضبية.

وعلاج أمراض النفس الثلاث على الجملة تجمعه قضية واحدة وحكم واحد، وهو كما قيل في الطب: علاج الشيء بضده (Allopathy) .

ويختم ثابت بن سنان كتابه بتوجيه نداء إلى الحكام والموسرين بإنشاء بيمارستان خاص لطب الأخلاق، وليتباروا في إقامتها كما تباروا في إقامة بيمارستانات طب الأبدان ورعاية الأخلاق والنفوس أجدر بالاهتمام من الأبدان. وعلى الحاكم أو الأمير أو السلطان «أن يرسم بطب الأنفس قوماً من فلاسفة الأخلاق خاصة، ويرسم لهم الأجرة ويتّخذ لهم البيمارستانات يعلم فيها صنوف العلوم النافعة مع تواصل المواعظ ومعالجة أنفس الأشرار طوعاً وكرهاً !!» (كما تعالج الأمراض العقلية طوعاً وكرهاً لخطرها على المجتمع وأمراض الأخلاق أشد خطورة على المجتمعات من أضرار أمراض البدن أو العقل).

أشهر فلاسفة الأخلاق عند المسلمين

مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد مسكويه)

320م - 431هـ

يعتبر مسكويه من أعظم فلاسفة الأخلاق عند المسلمين . وله كتب عدة في الأخلاق لعل أشهرها كتاب «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » وكتاب «الحكمة الخالدة » [جاويدان خرد] والأول (تهذيب الأخلاق) فلسفي منهجي جمع فيه بين فلسفة أرسطو وأفلاطون وما نسب إليهما من أقوال وشروح، وليست لهما، وفلسفة جالينوس التي اعتمدها كثير من الأطباء الفلاسفة كالرازي وثابت بن سنان، بالإضافة إلى ما جاءت به الشريعة الإسلامية الغرَّاء، ومحاولة أسلمة هذه الفلسفات، وطبعها إلى حدّ ما بالطابع الإسلامي، مع تأثيرات فارسيّة تظلُّ من أقوال أردشير الملك الفارسي الحكيم.

أما الكتاب الثاني «الحكمة الخالدة» فقد سلك فيه مسلك كتب الأدب، وغرضه فيه «إيراد جزئيات الآداب بمواعظ الحكماء من كل أمة ونحلة». ويشتمل على وصية للملك الفارسي أو شهنج لولده وللملوك بعده، نقلها عن مترجمها الحسن بن سه ل، ثم ذكر مجموعة من حِكَمْ الفرس، ثم حِكَمْ الهند، ثم حِكَمْ العرب، ثم حكم الروم، ثم حكم الإسلاميين المعاصرين له . ثم خاتمه من أقوال لأفلاطون، ومن وصايا أبي الحسن العامري، وكلمات للجاحظ . وقد لاحظ الدكتور محمد عابد الجابري [1] أن ما أورده من «حكم العرب » أكبر حجماً مما أورده من حكم الفرس والروم. ولا شك أن ذلك أمر طبيعي في بيئة يغلب فيها الطابع العربي الإسلامي.

وكتابه الثالث : «تجارب الأمم » ينقل فيه عن الطبري وغيره ويوشّي ذلك بتجاربه الشخصيّة ومعلوماته الواسعة. وهو كتاب يوضح أخلاق الأمم وأنظمتها.. وهو كتاب تاريخ ي وأخلاقي أيضاً؛ وله كتب «الفوز الأكبر» و«الفوز الأصغر» و«ترتيب السعادات» وكلها في الأخلاق كما إنّ له كتباً في الطب مثل «كتاب الأدوية المفردة » وكتاب «تركيب الأطعمة » وكتاب «الأشربة» إلخ..

ولا شك أن مسكويه فيلسوف اهتم بالأخلاق اهتماماً كبيراً.

كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق:

يقول زكي مبارك : عن مسكويه «إن مسكويه ينقل عن الفلسفة اليونانية بطريقة صريحة لا لفَّ فيها ولا مداورة، فهو من مجدّدي فلسفة اليونان، مع الحرص بقدر ما يمكن على موافقة الشريعة الإسلامية» [2].

ويقول الدكتور محمد عابد الجابري [3] : «هنا سنجد «تأليف» بين آراء أفلاطون وأرسطو وجالينوس وغيرهم: يعتمد نظرية أفلاطون في ما يخصّ النفس وطبيعتها وقواها والفضائل المقابلة لهذه القوى إلخ، إضافة إلى أقوال ينسبها لأرسطو وهي لأفلاطون . والغالب أنه ينقل

---

(1)د. محمد عابد الجابري: العقل الأخلاقي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت (ط 2) 2006 ص 406.

(2)زكي مبارك: الأخلاق عند الغزالي ص 80.

(3)د. محمد عابد الجابري: العقل الأخلاقي العربي ص 407.

عن مراجع تنتمي إلى العصر الهيلينستي (العصر اليوناني الروم اني)، فهو لا يذكر أي مرجع لأفلاطون. وآراء هذا الأخير ليست منظّمة بنفس الصورة التي يوردها بها . أما ما ينقله عن أرسطو، وهو كثير، فإن جميع الدلائل تشير إلى أنه لم يتعامل معه مباشرة، بل اعتمد تفسير فرفوريس لكتاب الأخلاق النيقوماخيه (أي رسالة أرسطو لنيقوماخوس)، وهو يشير بذلك إلى بعض الأماكن، كما اعتمد تفسير ثامسطيوس لنفس الكتاب . وإلى جانب أرسطو وأفلاطون اعتمد مسكويه كثيراً على كتب جالينوس في الأخلاق، كما نقل عن برويسون Broyson ، وهو من رجال الأفلاطونية الجديدة (القرن الأول للميلاد)، وعن كتاب فضائل النفس الذي يقول عنه أنه لأرسطو وترجمة أبي عثمان الدمشقي، والغالب أنه لبعض الأفلاطونيين المحدثين. أضف إلى ذلك عناصر من الموروث الفارسي، خاصة عهد أردشير، وأقوال من كليلة ودمنة.

«أما مصادره العربية فقليلة نسبياً: نقل عن الكندي، واستشهد مراراً بكلام لعلي بن أبي طالب وبخطبة لأبي بكر (الصديق)، واستعرض آيات من القرآن وأحاديث نبوية . وإلى جانب ذلك يلمس القارىء حضور الروح الإسلامية بقوة في كتابه. ونسب إلى أرسطو كلاماً ينسجم مع ما تقرّره الديانات السماوية، وهو من تأويلات الأفلاطونية المحدثة التي استغلت تلك العبارات التي تساءل فيها أرسطو عمّا إذا كانت السعادة مقصورة على هذه الحياة، أم أن لها امتداداً ما بعد الموت.

«هذا الخليط من الآراء والمرجعيات صاغه مسكويه صياغة فريدة : مظهر «علمي أرسطي»، ومضمون متنوع يتناقض كثير منه مع الروح الأرسطية».

يشتمل الكتاب على ست مقالات، يقول مسكويه في مقدمتها: «غرضنا في هذا الكتاب أن نحصّل لأنفسنا خلقاً تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقّة، ويكون ذلك بصناعة، وعلى ترتيب صناعي» (أي على منهج علمي) ويقول: «لما كانت الأخلاق تتعلق بالنفس فيجب أولاً أن نعرف نفوسنا : ما هي ؟ وأي شيء هي؟ ولأي شيء أوجدت فينا؟ أعني كمالها وغايتها؟ وما قواها وملكاتها التي إذا استعملناها على ما ينبغي بلغنا بها هذه الرتبة العليّة؟ وما الأشياء العائقة لنا عنها؟ وما الذي يزكّيها فتفلح؟ وما الذي يدسّيها فتخيب»؟». والكتاب بجملته يجيب عن هذه الأسئلة بك لام الأفلاطونية الحديثة (التي ظهرت بعد ظهور المسيحية وبالتالي تم تعديلها لتوافق المفهوم الديني والتي يتقبلها المفهوم الإسلامي، وبالتالي يمكن أن تندرج في بعض مفاهيمه . ويقرر مسكويه أن النفس ليست جسماً ولا جزءاً من جسم ولا عَرَضاً من الأعراض، وأنها تتميز عن الجسم وأرفع منه مرتبه، وهي مفارقة للجسم بجوهرها وأحكامها وخواصها وأفعالها » وهو كلام يتردد صداه عند ابن سينا وعند الغزالي وكثير من فلاسفة المسلمين وعلمائهم ـ لهذا يقول مسكويه: «ومن ثم كانت فضيلتها هي شوقها إلى أفعالها الخاصة بها، أعني العلوم والمعارف، مع هروبها من أفعال الجسم الخاصة به، التي هي الشهوة والغضب . وبحسب طلب الإنسان لهذه الفضيلة وحرصه عليها يكون فضله».

وهكذا يتحدد عند مسكويه أن الأفعال والقوى التي يختصُّ بها الإنسان من حيث هو إنسان، ليست هي الأفعال التي تصدر عن جسمه، والتي يشترك معه فيها الحيوان، ب ل هي الأمور الإرادية التي تتعلق بها قوة الفكر والتمييز .

ومهمّة الأخلاق أن تعرّف الإنسان كيف يحمل نفسه على أن تصدر أفعاله عن رويّة وتمييز (وهي أفعال الخير) وكيف يصدّها عن أن تصدر أفعاله كما تصدر عن الحيوان من غير رويّة ولا تمييز (وهي أفعال الشرّ والقوى الغ ضبية والشهوانية) وللنفس على هذا التصنيف ثلاث قوى هي :

(1) القوة الناطقة والمفكّرة : (الرويّة والتمييز) فإذا وجدت كان العلم وإذا فقدت كان الجهل.

(2) القوة الغضبية : وأهم مظهر لها هو الشجاعة ، وعن طريقها تكون فضائل كبر النفس وعظم الهمه والنجدة والشهامة فإذا زادت عن حدّها كانت تهوّراً واندفاعاً. أما إذا نقصت عن حدّها فإنها تكون جبناً وضعفاً وضعة وهوانا.

(3) القوة الشهوانيّة : وفي اعتدالها تكون العفّة فإذا زادت عن حدّها كانت شَرَها وميلاً لشهوة البطن والفرج دون حدود، وإذا نقصت كانت خموداً للشهوة وانعزالاً عن الدنيا بالبتّة.

وهو يقرر بكل وضوح ما قرّره أرسطو من أن الفضيلة هي وسط بين رذيلتين فالحكمة هي وسط بين السفه والبله، والذكاء والفطنة هو وسط بين الخبث والمكر والبلادة . والعدالة هي وسط بين الظلم والمهانة وتقبل الظلم. والشجاعة كما أسلفنا هي وسط بين التهور وبين الجبن والضِعة .

ويعرّف مسكويه الخلق بتعريف جالينوس (دون أن يذكره): «الخُلق حال للنفس داعية إليها من غير فكر ولارويّة» وهو قول يتردّد صداه عند كل من كتب في الأخلاق، وقد ذكرنا أمثلة كافية في فصل تعريفات علم الأخلاق في أول الكتاب فليرجع إليه القارىء الفاضل.

وقد أكّد مسكويه أن هذا الخلق (من غير فكر ولاروية) يكون طبيعياً من أصل المزاج في تركيب البدن كالذي يغضب لأدنى سبب، ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والترتيب والتدريب حتى يصبح ملكة للنفس وخلقاً لها . (إنما الأخلاق بالتخلّق).

ولا بدّ للإنسان أن يسلك في تهذيب نفسه الطريق الطبيعي حتى يسهل عليه ذلك يقول مسكويه : «إن للإنسان في ترتيب هذه الآداب وسياقها إلى الكمال الأخير، طريق طبيعي يتشبّه فيه بفعل الطبيعة ، وهو أن ينظر إلى هذه القوى التي تحدث فينا أيها أسبق إلينا وجوداً فيبدأ بتقويمها ثم بما يليها على النظام الطبيعي .... فلذلك يجب أن نبدأ بالشوق الذي يحصل فينا للغذاء فنقوّمه[1] ، ثم بالشوق الذي يحصل فينا للغضب ومحبّة الكرامة الشرف والمجد فنقوّمه، ثم بآخره بالشوق الذي يحصل فينا إلى العلوم والمعارف فنقوّمه !!.

(1)ما أشد حاجة مجتمعاتنا وخاصة في منطقة الخليج اليوم إلى هذه النصيحة وتطبيقها حيث انتشرت السمنة بدرجة مخيفة، ومعها البول السكري وكافة أمراض السمنة . وذلك بالإقلال من الطعام وخاصة ال طعام المليء بالدسم والحلويات

وهناك كمال نظري : وهو أن يصير في العلم بحيث يصدق نظره وتصحُّ ب صيرته، وتستقيم رويّته، فلا يغلط في اعتقاد، ولا يشك في حقيقه، وينتهي إلى العلم بأمور الموجودات على الترتيب إلى العلم الإلهي .. فيطمئن قلبه وتذهب حسرته، ويتجلّى له المطلوب الأخير حتى يتَّحد به (ليس المقصود الاتحاد بالذات الإلهية وإنما المقصود بمرادات الله من العبد، فلا يريد العبد إلا ما يريده الربُّ سبحانه وتعالى، وهو ما قد جاء في حديث الولي .. (لا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته صرت يده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها... الحديث). وقد بيّنه مسكويه في كتب أخرى.

الكمال الخُلُقي:

«وهو الذي قصدناه في كتابنا هذا، ومبدؤه من ترتيب قواه وأفعاله الخاصة بها حتى لا تتغالب، وحتى تتسالم هذه القوى فيه، وتصدر أفعاله بحسب قوّته المميّزة منتظمة مرتّبة كما ينبغي، وينتهي إلى التدبير المدني الذي ترتب فيه الأفعال والقوى بين الناس حتى تنتظم ذلك الانتظام ويسعدوا سعادة مشتركة، كما كان ذلك في الشخص الواحد».

وهكذا يصل إلى السعادة الشخصية وإلى سعادة المجتمع ككل.

ويتحدث عن الإنسان باعتباره العالم الصغير Minor Cosmos الذي هو جزء من هذا العالم الكبير Major Cosmos . وفي الواقع أن الإنسان رغم صغره ينطوي فيه العالم الأكبر.

وتحسب أنك جسم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وهو بيت شعر نُسب للإمام علي كرّم الله وجهه، وهو عكس نظرية اليونان التي تقول أن الإنسان هو العالم الأصغر والكون هو العالم الأكبر. أما في البيت المذكور فالإنسان هو العالم الأكبر.

يقول مسكويه بعد أن يوصلك إلى ال كمال عن طريق الجزئيات والقوى والملكات «فإذا انتهيت إلى هذه الرتبة، فقد صرت عالماً وحدك، واستحققت أن تسمّى عالماً صغيراً لأن صور الموجودات كلها قد حصلت في ذاتك ... ثم نظمتها بأفعالك على نحو استطاعتك، فصرت فيها خليفة لمولاك خالق الكل. فلم تخطء فيها ولم تخرج ع ن نظامه الأول الحكمي فتصير حينئذ عالماً تاماً... لأنك بهذا الكمال مستعدٌّ لقبول الفيض من المولى دائماً وأبداً، وقد قربت منه القرب الذي لا يجوز أن يحول بينك وبينه حجاب، وهذه هي الرتبة العليا والسعادة القصوى» .

ثم يقول: «وليعلم الناظر في هذا الكتاب أنني خاصة قد تدرجت إلى فطام نفسي بعد الكبر (لأنه كان قد نشأ على رواية الشعر الفاحش كما يوجد عند امرىء القيس) واستحكام العادة وجاهدتها جهاداً عظيماً ثم يقول: «فالله في نفوسكم معاشر الأخوان والأولاد، استسلموا للحقّ وتأدبوا بالأدب الحقيقي لا المزوّر . وخذوا الحكمة البالغة وانتهجوا الصراط المستقيم

والسكريات. والاكتفاء بما يقيم البدن (بحسب ابن آدم لقيمات يُقمن صلبه، فإن كان لا بد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه، وثلث لنفسه). وأن لا يأكل إلا عن إحساس بالجوع وإذا أكل لا يصل لحد الامتلاء والشبع.

وتصوروا حالات أنفسكم وتذكّروا قواها . واعلموا أن أصحَّ مثل ضُرب لكم من نفوسكم الثلاث التي مرّ ذكرها في المقالة الأولى مثل ثلاثة حيوانات مختلفة جمعت في رباط واحد : مَلِكٌ (النفس العاقلة) وسَبُع (الغضبية) وخنزير (البهيمة) فأيها غلب بقوته قوة الباقين كان الحكم له» داعياً لهم بقوة أن تتحكم النفس العاقلة (الملك) في القوة الغضبية السبعية والقوة البهيمية الشهوانية .

وما أجمل ما قال.

النفس والأخلاق عند ابن سينا (الشيخ الرئيس) (370 - 5432/980 - 1036)

هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، أشهر أطباء المسلمين على مدار العصور، وكان كتابه «القانون في الطب » المرجع الطبي الأول للأطباء في العالم أجمع لمدة سبعة قرون منقضية، وهو مشهور لدى الأوروبيين باسم (Avicena) ، وترجموا كتبه الطبية والفلسفية منذ وقت مبكر. وكان القانون عمدتهم في الطب، وعليه يعوّ لون. وقد طبع باللاتينية خمسة عشرة مرة، ومرة بالعبرية في القرن الخامس عشر الميلادي، وكان مقرّراً في بعض كليات الطب في أوروبا حتى بداية القرن الثامن عشر الميلادي.

ولد في بخارى (إحدى قراها) عام 370هـ 980 ميلادية. وبخارى الآن في جمهورية أوزبكستان في التركستان في آسيا الوسطى والتي استقلت بعد انتهاء الاتحاد السوفياتي عام 1991. وأبوه من بلخ (في شمال أفغانستان) وأمه من بخارى . وهو من أرومة فارسية طاجيكية. وأسرته من الإسماعيلية الباطنية . وقال عنه ابن القيم : «إنه هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم (المقصود الحاكم بأمر الله الفاطمي) من القرامطة الباطنيين». وقال ابن تيميه : «تكلم ابن سينا في أشياء من الإلهيات والنبويات والمعاد والشرائع لم يتكلم بها سلفه (المقصود من الفلاسفة)، ولا وصلت إليها عقولهم ولا بلغتها علومهم، فإنه استفادها من المسلمين، وإن كان إنما يأخذ عن الملاحدة المنتسبين إلى المسلمين، كالإسماعيلية، وكان أهل بيته من أهل دعوتهم، من أتباع الحاكم العبيدي الذي كان هو وأهل بيته معروفين عند المسلمين بالإلحاد» [1] .

وقد ذكر ابن أبي أصيبعة أن ابن سينا قال أن أباه كان ممن سمع داعي الباطنية من الإسماعيليين الذين حكموا مصر باسم الفاطميين، ووافقوا دعوتهم، وكذلك كان أخوه الأكبر . أما ابن سينا فيقول : «وكانوا ربما تذاكروا بينهم وأنا أسمع وأدرك ما يقولون ولا تقبله نفسي». وتدلُّ كتب ابن سينا وحياته السياسية المضطربة وحياته العلمية الزاخرة أنه لم يكن إسماعيلياً، بل كان مفكراً وفيلسوفاً ولا تقبل نفسه تحديدات المذهب، وهو متأثر أشد التأثر بأفلاطون والأفلاطونية الحديثة والهرمسية الغنوصية . وأما الطب فهو عمدته ومنارته والمرجع فيه. وقد اعترف له القاصي والداني بتبحّره فيه بما في ذلك ابن القيم وابن تيمية اللذان اتهماه بالمروق من الدين واتّباع ال مذهب الإسماعيلي الباطني، بل اتهماه بأنه من القرامطة، وهم أشدُّ غلّواً من الإسماعيلية .

---

(1)نقلاً عن ابن أبي أصيبعة في كتاب طبقات الأطباء : والمقصود بالإلحاد هو الزيغ كقوله تعالى : {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} . ص .

ودرس ابن سينا الفقه الإسلامي دراسة واسعة في صغره على يد إسماعيل الزاهد، وحفظ القرآن، ثم تعلَّم الحساب والفلسفة وقرأ كتب الهندسة والرياضيات والفلك والهيئة (وكلها كانت جزءاً من الفلسفة وتعرف باسم الطبيعيات) ودرسها دون أستاذ لأن أستاذه عبد الله النائلي لم يشفِ غليله، ولم يستطع أن يجيب على أسئلته الكثيرة . ولم يعسر عليه من كتب الفلسفة شيء سوى الإلهيات حتى وجد كتاباً للفارابي يشرحها فحلَّ له غموضها وأبان له عويصها. وكان ابن سينا كما يقول عن نفسه إذا تحيّر في مسألة «تردّدت إلى الجامع وصلّيتُ وابتهلتُ إلى مبدع الكلّ حتى فُتِحَ لي المستغلق ويسّر المتعسّر» .

ولما مرض سلطان بخارى عجز عن مداواته الأطباء فتقدّم ابن سينا وكان ابن ستة عشرة سنة فداواه فبرئ الأمير، فعرض على هذا الشاب العبقوي ما يريد، فطلب أن تفتح له خزائن المكتبة السلطانية العامرة ليقرأ منها ويستعير ما يشاء. وذكر ابن سينا أنه وجد من الكتب ما لم يكن يحلم به، وما لم يره من بعد قط قال : «فلما بلغت ثماني عشرة سنة فرغتُ من هذه العلوم كلها. وكنتُ، إذ ذاك، للعلم أحفظ، ولكنه اليوم معي أنضج» .

ثم قام هذا الشاب العبقري بتلخيص هذه العلوم الزاخرة ووضع دائرة معارف (Encyclopedia) وانتهى منها في سن الواحدة والعشرين، ألّفها في عشرين مجلداً، وسمّاها «الحاصل والمحصول » . فللّه درّ هذا الشاب العبقري الطموح يضع وحده دائرة معارف في عشرين مجلداً، خلال ثلاث سنوات فقط (من سن 18 إلى سن 21 سنة).

وصنف في هذه السن ـ أيضاً ـ كتاباً في الأخلاق، أسماه (كتاب البرّ والإثم) .

ثم انتقل (ابن سينا) إلى (كركانج) عاصمة (خوارزم) ومنها تنقل في مدن (خراسان) وتولى الوزارة، فثار عليه الجنود، حتى نهبوا بيته، وطالبوا بقتله، فحماه السلطان وعزله من الوزارة، وتفرغ للتأليف وللطب، فألف مئات الكتب في مختلف فروع المعرفة، بحيث لم يترك باباً من أبواب العلوم إلا ولجه، حتى حدث ذات مرة أن اجتمع بأبي منصور الجبائي اللغوي، وتكلم (ابن سينا) في مسألة من مسائل اللغة، فقال له الجبائي : إنك حكيم فيلسوف، ولكنك لم تقرأ في اللغة، فامتعض (ابن سينا) وتفرَّغ ثلاث سنوات لدراسة اللغة، حتى ألف فيها ثلاثة كتب، وجعلها في جلد قديم، وأوعز إلى الأمير أن يقدمها إلى (الجبائي) على أنها كتب وجدت في الصحراء، أثناء صيد الأمير، وطلب منه أن يبدي رأيه فيها، فنظر فيه ا (أبو منصور) وأشكل عليه كثير مما فيها فكان (ابن سينا) يحلُّ له هذه الإشكالات، فعلم (الجبائي) لفرط ذكائه أن (ابن سينا) هو الذي ألّفها، فاعتذر له، واعترف له بمكانته العالية في اللغة، ثم ألّف (ابن سينا) كتابه الضخم (لسان العرب) في عشرة مجلدات في علوم اللغة العربية.

وأهم كتب ابن سينا في الطب «القانون في الطب» و«الألفية» وهي منظومه في أكثر من ألف بيت شرح فيها الطب بأكمله، وقد شرحها العديد من الأطباء وغيرهم ومن أشهرهم ابن رشد وابن النفيس، وله «الأدوية القلبية »، و«دفع المضار الكليّة عن الأبدان الإنسانية » وغيرها لكثير.

النفس عند ابن سينا:

وأشهر وأهم كتبه الفلسفية كتاب «الشفاء» وهو موسوعة ضخمة في فروع الفلسفة فيما يسمى الطبيعيات (النبات، الحيوان، الفيزياء، الرياضيات، الفلك.. الخ) والإلهيات وفي كتاب (أي فصل) النفس من هذا الكتاب الضخم والمعقد والعسير العبارة يرى ابن س ينا أن القوى النفسانية منقسمة إلى ثلاثة أقسام [1]:

(1) النفس النباتية : وهي كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يتولّد وتغتذي . أي أن فيها القدرة على النمو والاغتذاء، والتكاثر (القوة الغاذية والقوة المنمّية والقوة المولّدة).

(2) النفس الحيوانية : وهي كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما تدرك الجزئيات (كما هو مشاهد في الحيوان) وتتحرك، أي لها القدرة على الحركة (قوة محركة وقوة مدركة).

(3) النفس الإنسانية : وهي كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما تفعل الأفاعيل الكائنة بالاختيار الفكري والاستنباط بالرأي، ومن جهة ما تدرك من الجزئيات الأمور الكلية . وهي التي جعلها الله مناط المسؤولية في الإنسان، وهي محطّ التكريم وبه كان الإنسان قادراً على التحكم في هذا العالم، وفي الحيوانات والنباتات، وفي اختراع الأشياء. وبها يتحمل المسؤولية الأخلاقية أمام الناس في الدنيا وأمام الله في الآخرة.

ويرى ابن سينا أن هذه النفس خالدة. وأن الموت إنما هو مفارقة هذه النفس للجسد.

تعليق :

قُلتُ: ويمرّ الجنين الإنساني بهذه المراحل الثلاث فيكون أولاً مثل النبات، ينمو ويغتذي وتتكاثر خلاياه (وهو الجنين الباكر) منذ أن يكون لقيحة أي زايجوت Zygote وذلك عند تلقيح الحيوان المنوي البييضة . ثم تنمو هذه اللقيحة التي سمّاها الله تعالى النطفة الأمشاج فتصير مثل التوته، ثم تصير مثل الكرة، ثم تعلق وتنشب بجدار الرحم، وتستمدّ منه الغذاء، وتعرف آنذاك بالعلقة .. ثم تتخصّص وتبدأ مرحلة تكوّن الأعضاء Organogenesis من الأسبوع الرابع إلى الثامن وتعرف بمرحلة المضغة وتبدأ الأطراف العلوية والسفلية بالظهور وتبدأ بالحركة البسيطة كما أن القلب ينبض وتبدأ الدورة الدموية . وهي مرحلة النفس الحيوانية التي لها القدرة على الحركة. كما تبدأ الأفعال الانعكاسية ويتكون جذع الدماغ (في اليوم الثاني والأربعين منذ التلقيح) وتستمر على ذلك حتى تنفخ فيها الروح وذلك في اليوم العشرين بعد المائة منذ التلقيح. وذلك يساوي 134 يوماً منذ آخر حيضة حاضتها المرأة وفي هذا الوقت (أي بداية الأسبوع العشرين) [2] تتحكم المناطق المخيّة العُليا فيما تحتها فتكون الحركة إرادية، ويكون الإحساس بالألم موجوداً لأن مناطق الإحساس والإرادة في الدماغ قد تكونت وتمت التشابكات Synapses بين المناطق العليا والمناطق السفلى من الدماغ . وبالتالي أصبح الدماغ بمناطقه العليا يتحكَّم في الإنسان.

(1)كتاب النفس من كتاب الشفاء: تحقيق د. جورج قنواتي وسعيد زايد، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ص 10 - 37.

(2)حسب ما يستعمله أطباء التوليد حيث يبدأ الحساب من بداية آخر حيضها حاضتها المرأة. وذلك قبل التلقيح بأربعة عشر يوماً (تقريباً)..

وقد اتفق مع ابن سينا في هذا الصدد عدد من علماء الإسلام منهم الفخر الرازي في كتابه «المباحث المشرقية » الذي قسَّم النفس إلى ثلاثة أقسام كما فعل ابن سينا (النفس النباتية، النفس الحيوانية والنفس الإنسانية) [1] .

وقد فرّق علماء الإسلام الأجلاّء بين نفخ الروح وحياة الجنين ونصَّ على ذلك ابن القيم في كتابه التبيان في أقسام القرآن[2] حيث قال : فإن قيل الجنين قبل نفخ الروح فيه هل كان فيه حركة وإحساس أم لا؟ قيل كان فيه حركة النمو والاغتذاء كالنبات [3] . ولم تكن حركة نموه واغتذائه بالإرادة . فلما نفخت فيه الروح انضمت إليه حركة حسيته وإرادته » . وهو أمر مذهل أن يربط ابن القيم نفخ الروح بوجود الحركة الإرادية والإحساس (Volition and Sentience) ، وفي ذلك يتفق مع ابن سينا من وجود النفس الإنسانية وهي أعلى تلك النفوس، وهي التي تحدث بعد وجود النفس النباتية الغاذية والمنمّية، والنفس الحيوانية (المحرّكة والمدركة للجزئيات) .

وهذه النفس الإنسانية أو الروح هي الخالدة. والموت هو مفارقة الروح للجسد وهي بهذا المعنى خالدة.

والخلاف بين ابن سينا وعلماء الإسلام أنه يقول بخلودها المطلق . وأهل الإسلام قاطبة على أنها مخلوقة مربوبة، ولكنها بعد ذلك لا تموت، والموت هو مفارقتها الجسد . وهي بعد ذلك إما مُنعَّمة أو معذَّبة، (في القبر وفي الآخرة في الجنة والنار)، والغريب أيضاً أن ابن حجر العسقلاني قد ذهب إلى ما ذهب إليه ابن القيم وابن سينا من قبل، فقال في فتح الباري : «ولا حاجة له (أي الجنين) حينئذ إلى حسّ ولا حركة إرادية لأنه حينئذ بمنزلة النبات . وإنما يكون له قوة الحسِّ والإرادة عند تعلق النفس (أي الروح) به»[4] .

وقد ناقشت هذا الموضوع في كتابي «الخلايا الجذعية والقضايا الأخلاقية والفقهية » كما ناقشتها في كتابي : «الحياة الإنسانية بدايتها ونهايتها » لأهمية هذا الموضوع في موضوع الإجهاض، وفي موضوع الموت وتعريفه، فليراجعهما من أراد المزيد.

وقد تحدث علماء الإسلام عن النفس واختلفوا فيها أشد الاختلاف وقد لخّص الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين[5] معاني النفس ومنها أنه يراد بها المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان، وهو الاستعمال الغالب على أهل التصوف، لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان، فيقولون لا بدَّ من مجاهدة النفس وكسرها . وإليه الإشارة بقوله «أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك»[6] .

---

(1)الفخر الرازي: المباحث المشرقية ج 227/2 - 238.

(2)ابن القيم: التبيان في أقسام القرآن ص 275 .

(3)وهو ما يسمّيه ابن سينا النفس النباتية Vegetative life.

(4)فتح الباري: شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني كتاب القدر ج 482/11.

(5)إحياء علوم الدين للغزالي: كتاب عجائب القلب ج 2/3.

(6)أخرجه البيهقي: من حديث ابن عباس.

والمعنى الثاني [1]: هو اللطيفةُ التي ذكرناها التي هي الإنسان بالحقيقة، وهي نفس الإنسان وذاته، ولكنَّها توصَفُ بأ وصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها، فإذا سكنتْ تحتَ الأمرِ وزايلَها الاضطرابُ بسبب معارضةِ الشهواتِ سُمِّيَت النفسَ المطمئنة .. قال تعالى في مثلها : {يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ *ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً *} [الفجر: 27 - 28] .

والنفس بالمعنى الأول لا يُتصوَّر رجوعها إلى الله تعالى، فإنَّها مبعدة عن الله، وهي من حزب الشيطان.

وإذا لم يتمّ سكونُها، ولكنّها صارت مدافعة للنفس الشهوانية، ومعترضة عليها سميت النفس اللَّوامة، لأنَّها تلومُ صاحبَها عند تقصيرِه في عبادةِ مولاه، قال تعالى : {وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ *} [القيامة: 2] .

وإن تركَتْ الاعتراض، وأذعنَتْ وأطاعَتْ لمقتضى الشهوات، ودواعي الشيطان، سُمِّيَت النفسُ الأمَّارة بالسوء، قال تعالى إخباراً عن يوسف أو امرأة العزيز : {وَمَا أُبَرِّيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ} [يوسف: 53] .

وقد يجوزُ أن يُقال: المرادُ بالأمَّارة بالسوء هي النفسُ بالمعنى الأول.

فإذن النفسُ بالمعنى الأول مذمومةٌ غايةَ الذمّ، وبالمعنى الثاني محمودةٌ، لأنَّها نفسُ الإنسان أي ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات...

وقد ذكر الإمام ابن القيم في كتابه (الروح) [2] تحت باب المسألة التاسعة عشرة ما هي حقيقة النفس؟ هل هي جزءٌ من أجزاءِ البدن أو عَرَضٌ من أعراضه؟ وهل هي الرّوحُ أو غيرها.. ذكر الإمام ابن القيّم العديدَ من الأقوال المختلفة في النفس والروح.

وخلاصة كلامه أنَّ العلماءَ اختلفوا إلى فِرَقٍ كثيرة في النفس، كما اختلفوا في الروح، فمنهم من قال: إنَّ النفسَ هي الروح، ومنهم من قال: إنَّ النفسَ غير الروح، وقال بعضُهم: إنَّ النفسَ هي الدم، واستدلَّ بكلامِ الفقهاءِ عن عدمِ نجاسةِ الماءِ إذا وقعتْ فيه حشرةٌ (ما لا نفسَ له سائلةٌ) [3] .

وقالت طائفةٌ: إنَّ النفسَ هي النسيمُ الداخلُ والخارجُ بالتنفّس، وهذا قول القاضي أبو بكر الباقلاني، ومَنْ تبعه من الأشعرية.

وقال ابنُ حزمٍ: النفسُ والروحُ مترادفان لمعنًى واحد، وقال: إنّ النفسَ جسمٌ طويلٌ عريضٌ عميقٌ ذاتُ مكانٍ، جثة متحيزة مصرّفة للجسد.. ورغمَ غرابةِ هذا الكلام وشذوذِهِ فقد زعمَ ابنُ حزمٍ أنَّ سائرَ أهلِ الإسلام، بل والملل المقرّة بالمعاد، لا ترى غيرَ قولِه هذا.

---

(1)من كتاب «الحياة الإنسانية بدايتها ونهايتها»: دار القلم دمشق كتب قيمة، للدكتور محمد علي البار.

(2)كتاب الروح، لابن القيم، ص 175.

(3)يرى جماعة شهود يهوه (Jehova Witnesses) أن الروح (النفس) موجودة في الدم . ولذا يمتنعون امتناعاً تاماً عن نقل الدم ويرفضونه، ولو أدى ذلك إلى موت أحدهم . وهم موجودون في الولايات المتحدة وفي أوروبا . وقد أصدرت الدول الغربية تشريعات تسمح بنقل الدم لأطفال هؤلاء القوم رغم أنف أوليائهم.

وقالت طائفة: ليست النفسُ جسماً ولا عرضاً، وليست النفسُ في مكانٍ، ولا لها طولٌ، ولا عرض، ولا عمق، ولا لون، ولا بعض، ولا هي في العالم، ولا خارجه، ولا مجانبة له، ولا مباينة، وهو قولُ أرسطو [1]، وبه قال أفلاطون [2] وفلاسفة المسلمين، ومنهم ابن سينا والفارابي[3] .

قصيدة ابن سينا في النفس:

وخيرُ مَنْ يمثّل هذا الرأيَ هو ابنُ سينا، الذي عبَّرَ عنه أجملَ تعبيرٍ في قصيدتِه العينيّة المشهورة، التي يقولُ فيها عن النفس، وفيها تتجلى الأفلاطونية الحديثة والهرمسية الغنوصية وكلام المتصوّفة:

هَبَطَتْ إِلَيْكَ مِنَ المَحَلِّ الأَرْفَعِ وَرْقاءُ ذاتُ تَعزُّزٍ وتَمَنُّعِ
محْجوبةً عَنْ كُلِّ مُقْلَةِ ناظرٍ وهي التي سفرَتْ ولمْ تَتَبرْقَعِ
وصَلَتْ على كُرْهٍ إليكَ وربَّما كَرِهَتْ فراقَكَ وهي ذاتُ تَفَجُّعِ
أنِفَتْ وما أَنِسَتْ فلمَّا واصَلَتْ أَلِفَتْ مُجَاوَرَةَ الخَرَابِ البَلْقَعِ
وأظنُّها نَسِيَتْ عُهوداً بالحِمَى ومَنَازلاً بِفِرَاقِهَا لَمْ تَقْنَعِ
حتّى إذا اتَّصَلَتْ بهاءِ هبُوطِهَا في مِيْمِ مَرْكَزِها بذاتِ الأَجْرَعِ
عَلِقَتْ بِهَا ثاءُ الثَّقيلِ فأَصْبَحَتْ بينَ المعالِمِ والطّلُوْلِ الخُضَّعِ
تَبْكِي إذا ذَكَرَتْ دِيَاراً بالحِمَى بِمَدَامِعٍ تَهْمِي ولمَّا تُقْطَعِ
وتظلُّ ساجعةً على الدِّمَنِ التي دَرَسَتْ بتكرارِ الرّياحِ الأَرْبَعِ
إذْ عَاقَها الشَّرَكُ الكَثِيْفُ وصَدَّها قَفَصٌ عن الأَوْجِ الفَسِيْحِ الأَرْيَعِ
حتّى إذا قربَ المَسِيْرُ إلى الحِمى ودَنَا الرَّحِيْلُ إلى الفَضَاءِ الأَوْسَعِ
سجَعَتْ وقَدْ كُشِفَ الغِطَاءُ فأبْصرَتْ ما لَيْسَ يُدْرَكُ بالعُيونِ الهُجَّعِ
وغَدَتْ مفارِقَةً لِكلِّ مُخلَّفٍ عَنْها حَلِيْفَ التُّرْبِ غَيْرَ مُشَيَّعِ
وبَدَتْ تُغَرِّدُ فَوْقَ ذِرْوَةِ شاهِقٍ سَامٍ إلى قَعْرِ الحَضِيْضِ الأَوْضَعِ
إنْ كانَ أَرْسَلَها الإلهُ لحكْمَةٍ طُوِيَتْ عَنِ الفَطِنِ اللَّبيبِ الأَرْوَعِ
فهُبُوطُها إنْ كانَ ضربةَ لازبٍ لِتكُونَ سامِعَةً بِمَا لمْ تَسْمَعِ
وتَعُوْدُ عَالِمَةً بِكُلِّ خَفِيَّةٍ في العَالَمِينَ فَخَرْقُهَا لَمْ يُرْقَعِ

---

(1) . أرسطو (Aristotle) (382 - 322 ق.م: من مشاهير فلاسفة اليونان وصاحب منطقهم، وهو تلميذ أفلاطون، وأستاذ الإسكندر المقدوني

(2)أفلاطون (Plato) (427 - 347 ق.م: من مشاهير فلاسفة اليونان وهو تلميذ سقراط.

(3)محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ أبو نصر الفارابي (260 - 339هـ = 784 - 950م) يُعرَف بالمعلم الثاني، وهو أكبر فلاسفة المسلمين.

وهيَ الَّتي قَطَعَ الزَّمَانُ طَرِيْقَهَا حَتَّى لَقَدْ غَرَبَتْ بغيرِ المَطْلَعِ
فكأنَّهُ بَرْقٌ تألَّقَ للحِمَى ثُمَّ انْطَوَى فكأنَّهُ لَمْ يَلْمَعِ[1]

وخلاصةُ معنى هذه القصيدة، أنَّ النفسَ كانت في الأماكن العلوية الشريفة، تجتلي من الذات الإلهية العليّة عن طريق الفَيْضِ، ثم هبَطَتْ وحُبِسَتْ في ذلك البَدَن الثقيل، حتى نسيت عهودَها ومرابِعَها المُنيفة الشريفة، وارتبطت بسجن ذلك البدن الثقيل الهابط، وألفت مراتعَ الدِّمَن والمستنقعات، رغم أنَّها دخلتْ إليه كارهةً، فألفت البدنَ، ثم نسيت العهودَ القديمة، وعزَّ عليها بعد ذلك أن تفارِقَ هذا البدن، ولكنَّها تفارقه مكرهةً كما دخلتْ إليه مُرغَمةً، فعندَ ذاك تُدرِكُ المعاني الرفيعة، وينقشِعُ عن العينِ غَبَشُها، وتتَّضِحُ لها الحقائق {فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق: 22] ، عند ذاك ترتاحُ النفس لاتصالها بالعالم العُلْوي، الذي كانت فيه.

ويتساءل ابن سينا عن الحكمةِ في هبوطِ النفس من عالمها العُلْوي إلى ذلك البدن السفلي، فيقرّرُ أنَّ هبوطَها كان أمراً لازماً، أوجبَه الخالق القادر القاهر الحكيم في صنعته، لكي تدركَ النفسُ من عظمتِه ما لم تكن تدركه، ولكي تشاهدَ عالم المُلْكِ كما شاهدت عالم المَلَكوت، وترى عالم الشهادة كما أبصرت من قبلُ عالم الغيب، فما رحلتُها في البدن وخروجُها منه إلا كبرقٍ خاطفٍ تألَّقَ في السماءِ ثم خبا.. ويتحدث ابن سينا في وصيته لأبي سعيد بن أبي الخير الصوفي عن الأخلاق والنفس بصورة ايمانية جميلة [2] فيقول : «وليكن الله تعالى أول فكره ولتكن عين نفسه مكحولة بالنظر إليه، وقدمها موقوفة على المثول بين يديه، مسافراً بعقله في الملكوت الأعلى وما فيه من آيات ربه الكبرى، وإذا انحط إلى قراره فلينزّه الله تعالى في آثاره، فإنه باطن ظاهر، تجلّى لكل شيء بكل شيء.

«ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد. فإذا صارت هذه الحال له ملكه ـ انطبع فيها نقش الملكوت، وتجلّى له قدس اللاهوت، فألف بالإنس الأعلى، وذاق اللذة القصوى، وأخذ عن نفسه من هو بها أولى، وفاضت عليه السكينة، وحقّت عليه الطمأنينة، وتطلع إلى العالم الأدنى تطلع راحم لأهله.. وليعلم أن أفضل الحركات الصلاة، وأمثل السكنات الصيام، وأنفع البرّ الصدقة، وأزكى السرّ الاحتمال، وأبطل السهى المراءاة، ولن تخلص النفس عن الدرن[3] ما التفتت إلى قيل وقال، ومناقشة وجدال، وانفعلت بحال من الأحوال، وخير العمل ما صدر عن خالص نيّة، وخير النيّة ما ينفرج عن جناب علم، والحكمة أم الفضائل، ومعرفة الله أول الأوائل، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه» .

---

(1)لهذه القصيدة رغم شهرتها عيوب شعرية: فهي مليئة بالفلسفة والكلمات غير الشعرية مثل قوله : علقت بهاء الثقيل فأصبحت بين المعالم والطلول الخضّع، وقد عارضها كثير من الشعراء . آخرهم الشاعر العدني اليمني علي محمد لقمان المتوفى سنة 1979م، في قصيدته (الروح) ومطلعها:

أفٍّ على الدُّنيا فلا تتوجَّعي
تحتَ الثَّرى ما فوقه بالممرعِ.

(2)ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، دار مكتبة الحياة، بيروت 1965، ص 437 ـ 458 .

(3)الدرن: الوسخ والقدر.

إلى آخر الوصية العجيبة، التي تدل على التزامه بالدين، وحثّه على أداء الشعائر وتمسكه بأعلى الفضائل، ودعوته إلى تصفية النفس وتجليتها من الكدورات، والبعد بها عن مراتع القاذورات، والارتفاع بها عن حضيض الشهوات(1) .

وكل ذلك دليل على أنه قد ترك ما كان يقول به أيام الفلسفة، وعاد إلى سبيل الشرع، وإقامته في السر والعلن، للخاصة قبل العامة.

وفي ذلك دليل على أن (ابن سينا) في أواخر أيامه قد تخلّى عن أفكاره الفلسفية، التي تأثرت بفلسفة الإغريق الإلهيين، الذين يؤمنون بالله على أنه إله لا يدبر الكون، ولا يرعى مخلوقاته، بل هو مشغول بال تفكر في ذاته .. وقد أخذ كثير من فلاسفة المسلمين فلسفة (أفلوطين) القائلة بالفيض وهو أن الله لم يخلق مخلوقاته، وإنما صدر عنه، نتيجة تفكره في ذاته العقل المحض، ثم تسلسلت المخلوقات، حتى وصلت إلى الجمادات .. وكل طبقة من المخلوقات تنتج عن الطبقة التي تعلوها، دون إرادة موجبة لذلك..

وكان (ابن سينا) مثل سابقه الفارابي يؤمن بأن الخاصة لا يصلحها إلا الفلسفة، أما العامة فلا يصلحها إلا الدين.. هذا على الرغم من أنهما يؤمنان ايماناً كاملاً بالله سبحانه وتعالى، ولكن إيمانهما بالبعث والنشور هو على طريقة فلاسفة المسلمين، الذين يقولون بالبعث الروحي والخلود النفسي، وإنه عذاب روحاني للنفس، أو نعيم لها، حسب عملها في الدنيا، وينكرون عذاب القبر والبعث الجسدي..

ويبدو أن (ابن سينا) في أواخر أيامه قد تخلّى عن هذه الأفكار، وعاد إلى التمسك بعقيدة الأمة من بعث ونشور جسدي وروحي، وإلى التمسك بشريعة الإسلام، والالتزام بالفروض والواجبات، وأداء الشعائر.

ونرى تأثر (ابن سينا) في أواخر حياته بالصوفية، واتصاله بهم، حتى إن وصيته التي ذكرنا طرفاً منها لتلميذه وصديقه (أبي سعيد بن أبي الخير الصوفي) تدلُّ على ذلك دلالة واضحة، فهو يأمره باستحضار الله، جل وعلا، في كل لحظة من لحظات حياته، وإلى التفكير في مخلوقاته، والتدبّر في آياته ويأمره بتنزيه الله تعالى، ولا يشغل سرّه إلا بذكره، ولا فكره إلا باجتلاء آياته، ولا يأنس إلا به، ولا يجعل لذته إلا فيه، ثم يأمره برحمة المخلوقات وبخاصة منهم المؤمنين، ويأمره بالصلا ة والصيام والبرّ والصدقة، واحتمال الأذى، والصبر على المكاره، والبعد عن الرياء والسمعة والعُجب، وإخلاص النية، مما نراه في كتب الصوفية والرقائق، مثل كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي، وكتاب (تنبيه الغافلين) للسمرقندي، و (عوارف المعارف) للسهروردي، و (الرسالة القشيرية)، وكتب الشيخ عبد القادر الجيلاني وكتاب مدارج السالكين لابن القيم.

وخلاصة القول في هذا العبقري، الذي كان أشهر وأعظم أطباء القرون الوسطى وأوسعهم علماً وفلسفة، أنه تحول في أواخر أيامه من الفلسفة إلى الشرع الحنيف، والالتزام به بل إلى نوع من الزهد والتصوف أيضاً..

---

(1)من كتاب المسلمون في الاتحاد السوفياتي: للدكتور محمد علي البار، دار الشروق جدة ج 436/2 - 449.

وفي أواخر أيام حياته أصيب (ابن سينا) بالقولنج (التهاب الأمعاء الغليظة) واشتد عليه المرض، لتنقله بين (همذان) و(أصبهان)، وهو مريض، وقد ضعفت صحته، وكان يعالج نفسه، فلما رأى أن العلة قد اشتدت به ـ ترك التداوي، وقال (إن المدبر الذي في بدني قد عجز عن تدبيره فما بي حاجة للمعالجة).

ويقال أنه اغتسل وتاب، وتصدق بماله على الفقراء، وردَّ المظالم إلى أهلها، وأعتق مماليكه، وعكف بقية حياته على قراءة القرآن الكريم، وكان يختمه مرة كل ثلاثة أيام واستمر على هذا الحال حتى توفي بهمذان، في شهر رمضان 432هـ (1036م) وذلك يؤكد ما ذهبنا إليه من أن (ابن سينا) كان في أول أيامه فيلسوفاً إلهياً (أي يؤمن بالله الواحد الأحد، على طريقة الفلاسفة الإغريق الإلهيين، مثل سقراط، وأرسطو، وأفلاطون (وأفلوطين) وكان إلتزامه بالشرع أول الأمر ضعيفاً، وله آراء جعلته يُتَّهم بالمروق والإلحاد، وهي ا لآراء التي راجت بين فلاسفة المسلمين، من إنكارهم لعذاب القبر، ولبعث الأجساد..

ولكننا نرى (ابن سينا) يعود في أواخر أيامه إلى القرآن الكريم، فيرتشف منه، وإلى الصلاة، فيجد فيها ملاذه، وإلى البرّ والصدقة، وإلى نوع من الزهد والتقشف والتصوف ويكون له العديد من الأ صدقاء من الورعين المتصوفين، حتى نراه في وصيته لصديقه وتلميذه (أبي سعيد الصوفي) وقد لبس مسوح الزهاد من الصوفية الأتقياء، وهو يدعوه إلى أن يجعل الله أمامه في سره وعلنه، وإلى التمسك بالصيام والصلاة، وإلى البرّ والصدقة، وإلى ترك الرياء والعجب وإلى نبذ المماراة والجدل، وإلى عدم الاهتمام بالحياة الدنيا إلا من حيث كونها مزرعة للآخرة إلى آخر ذلك الكلام العجيب الذي لا يتصور صدوره من شخص لا يؤمن ببعث الأجساد، وينكر الشرائع.

قصة حي بن يقظان عند ابن سينا:

وقد وضع ابن سينا كتاباً فلسفياً في صورة رواية اشتهرت باسم «حي ابن يقظان» وقد كتبها أيضاً ابن الطفيل وطارت شهرته بها، ثم كتبها بأسلوب وغرض آخر شهاب الدين السهروردي الفيلسوف الصوفي. وأعاد كتابتها العلاَّمة الفقيه الطبيب ابن النفيس (القرشي) مكتشف الدورة الدموية قبل وليم هارفي بأربعة قرون . وقد سمّاها فاضل بن ناطق . وهو يختلف عمّن سبقه في فلسفته وأهدافه.

يحكي ابن سينا في قصة حي بن يقظان رحلة العقل الإنساني إلى الملكوت الأعلى من خلال شخصية حيّ الذي يرمز به إلى النوع الإنساني، وهو ابن يقظان، أي العقل اليقظ في الإنسان كما يقول الدكتور يوسف زيدان في كتابه الفذّ : حي بن يقظان : النصوص الأربعة ومبدعوها[1] .

وحي بن يقظان هو ابن سينا ذاته في جانبه الفكري ويتحدث عمّن يحيط بالإنسان من رفقة السوء أي قوى الإنسان ذاته وفيه قوة الشره والنهم، وقوة الغضب (الأهوج الذي لا يقمعه عند هياجه نصح)، وقوة الخيال والوهم (المهذار الملفّق).. ولا بدّ للإنسان أن يغترب عن هذه

(1)د. يوسف زيدان: «حي بن يقظان: النصوص الأربعة ومبدعوها»، دار الأمين للنشر، القاهرة ط 1998/2 ص 47.

القوى المسيطرة، ويبتعد عنها ولا يجعلها تسيطر عليه . ولا خلاص إلا بالارتقاء إلى عالم الحضرة الإلهية حيث تتلاشى الرغبات والنوازع النفسية تحت سطوة النور الإلهي، وتبقى الروح معلّقة بالجانب الإلهي وحده.

ويؤكد ابن سينا على لسان حي بن يقظان على أ همية الغربة (بدأ الدين غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء).. ومع ذلك فإنه يقرّ أن هذه الغربة عسيرة على غالبية البشر، ولا يبقى أمام الإنسان ما دام موجوداً في هذه الدنيا إلا أن يسوس قواه الحسيّة بسياسة رشيدة فيملك زمام شهوته وغضبه وخياله، ولا يملّكهم زمامه، وإلا أوردوه موارد الهلكة.

ولا يستطيع الإنسان أن يقي نفسه من هذه الشرور والقوى النفسية إلا بتوفيق من الله وهو الذي سمّاه: اللطف الإلهي الخفي.. والإنسان هو العالم الصغير (minor Cosmos) والكون (major Cosmos) . وقد انطبع كل ما في العالم الكبير في الإنس ان (فلسفة الرواقيين من اليونان). ويشير ابن سينا على لسان حي بن يقظان رحلته في أقاليم العالم، وهو يقصد بذلك مختلف الأخلاق، مستخدماً الأدب الرمزي[1] .

ويتحدث حيّ بن يقظان عن العالم العلوي الذي يتربع على عرشه الملك الواحد القهّار ووصفه بقوله: «من عزاه إلى عرق (قوم أو جنس) فقد زلّ، ومن ضمن الوفاء بمدحه فقد هذى[2] .. حُسنه حجاب حسنه (حجابه النور)، وكان ظهوره سبب بطونه: {هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *} [الحديد : 3] ، وكان تجلّيه سبب خفائه .. وإنه لسمح فيّاض واسع البرِّ، عام العطاء (سبحانه سبحانه ما أعلى شأنه).

ثم يدخل حيّ بن يقظان في نظرية الفيض (الأفلاطونية الحديثة) وأن هناك عقولاً علوية صدرت عن الله الفياض، وآخرها عقل ما فوق فلك القمر وهو العقل الفعال [3] (وهي نظرية مرفوضة من علماء الإسلام ومن العلم الحديث اليوم).

واستخدم ابن سينا أسلوباً أدبياً رمزياً ولم يستخدم التعابير الفلسفية قط في عرض هذه الفلسفة العويصة على لسان حي بن يقظان فأجاد الوصف وأحسن التعبير.

ويصف ابن سينا على لسان حي بن يقظان القوة الغضبية وكأنها إقليم زاره فيقول : «هذا إقليم خراب، سُبخ (الأرض السبخة التي لا تصلح لزارعة)، مشحون بالفتن والهَيَجِ، والخصام والهرجِ، يستعير البهجة من مكان بعيد»[4] .

ويصف القوة الشهواينة في صورة إنسان: «قذرٍ شرهٍ قرم شبقٍ، لا يملأ بطنه إلا التراب [1] ، ولا يسدُّ غرثه إلا الرغام[2] ، لُعَقةُ لَحِسة [3]، طُعْمةٌ حَرِصة[4] .

---

(1)المصدر السابق: (يوسف زيدان: حي بن يقظان) ص 52 .

(2)وفي الحديث : «الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافيء مزيده » وفي آخر «سبحانك ما حمدناك حق حمدك يا الله وما شكرناك حق شكرك يا الله. أنت كما أثنيت على نفسك فلك الحمد حتى ترضى ». ولا أحد يستطيع أن يحمد الله حق حمده . وإذا وفقك للحمد فهو من فضله، وذلك يحتاج إلى حمد آخر.

(3)وقد شرحنا هذه النظرية عندما تكلمنا عن الفارابي فانظره هناك.

(4)د. يوسف زيدان: حي بن يقظان ص 53.

ويصف قوة الخيال في الإنسان بقوله: «رفيق باهت مهذار (كثير الكلام) مموه متخرّص» (يحسّن الأمور ويموهها تمويها ويتخرّص كذباً وخيالاً محضاً).

ويعود حي بن يقظان بعد رحلته الطويلة في عالم النفس وقواها حتى يبلغ إلى الأرواح العلوية، ثم يعود أدراجه من حيث أتى، إلى نقطة البدء بعد أن عرف شرور النفس الشهوانية والغضبية والخيالية وكيفية التوقّي من تلك الشرور، ومصاحبة تلك القوى طالما بقيت الحياة، دون أن نترك لها العنان لتوردنا موارد الهلكة.

ولابن سينا رسالة أخرى سمّاها «رسالة الطير»[5] استخدم فيها الرمز أيضاً والأسلوب الأدبي الإشاري الرمزي. ويخرج الراوي مع جماعة الطير فيقع معها في شباك، ثم يتخلص جزئياً من الشرَك، ولكن تبقى بعض الحبال معلقة برجليه، فيطير مع الطيور حتى يدخل قصر الملك فيحظى بالنظر إلى بهاء الملك . ويخبر رفاقه بعد عودته عن جماله الذي لا يمازجه قبح، وكماله الذي لا يشوبه نقص .. فلا بد من السير والطيران إلى تلك الرحاب والاستمداد من تلك الأنوار.

ويستخدم ابن سينا أيضاً هذه الرموز في «قصة أبسال»[6] المرأة الجميلة التي يتعلق بها ابن الملك سلامان حُبّاً شهوانياً (القوة الشهوانية) فلا يستط يع منها فكاكاً إلا عندما ألقيا نفسيهما في البحر فغرقت أبسال ونجا سلامان من هذه القوة الشهوانية.

المهندس أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم (354 - 430هـ/ 965 - 1039م) وكتاب (تهذيب الأخلاق)

جاء في كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة ترجمة وافية له وسماه أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم وأصله من البصرة [7] ، بينما نجد اسمه عند الدكتور محمد عابد الجابري [8] ، أبو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم توفى حوالى سنة 432هـ 965م. وسمّته الدكتوره عاطف العراقي [9] أبو علي الحسن بن الهيثم ويعرف عند الغربيين باسم الهازن Al Hazen . وأن اسم الهازن ليس تحريفاً للخازن (أبو جعفر الخازن) مؤلف كتاب زيج الصفائح وكتاب الرسائل العددية . وذكرت أن هناك من سماه أبو علي الحسن بن الهيثم بن الحسين بن الهيثم وبعضهم قال ابن الحسنين!!.

---

(1)يشير بذلك إلى الحديث النبوي: «لو كان لابن آدم وادياً من ذهب لطلب ثانياً ولو أعطي ثانياً لطلب ثالثاً وما يملأجوف ابن آدم إلا التراب» أو كما قال.

(2)لا يسد رغبته ونهمته إلا الرغام وهو التراب.

(3)يلعق كل شيء ويلحسه ولا يترك لأحد شيئاً.

(4)شديد الحبّ للطعام وشديد الحرص على المال.

(5)قصة «رسالة الطير» مختصرة في مقدمة د. يوسف زيدان في كتابه حي بن يقظان ص 55.

(6)قصة أبسال وسلامان: المصدر السابق.

(7)ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق د. نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت 1965، ص 550 - 560.

(8)د. محمد عابد الجابري: العقل الأخلاقي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ص 319.

(9)د. دولت عبد الرحيم إبراهيم: الاتجاه العلمي والفلسفي عند ابن الهيثم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995 ص 15.

ولد ونشأ بالبصرة وتولى بعض وظائف الدولة وضاق بها، وخرج منها إلى بغداد ومنها إلى الشام. وسمع به الحاكم بأمر الله الفاطمي وأنه يقول أنه لو كان بمصر لعمل في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالة من زيادة أو نقص. وكان يحدث نقص في فيضان النيل في بعض السنين فيتضرر أهل مصر من ذلك . وطلبه الحاكم إلى مصر وأكرم استقباله، حيث خرج بنفسه لاستقباله . وطالبه الحاكم بما قال وأرسل معه جماعة من الصناع المتولين للعمارة ليستعين بهم على هندسته التي حظرت . فلما وصل جنوب أسوان في الموضع المعروف بالجنادل، وهو موضع مرتفع ينحدر منه ماء النيل، فعاينه وباشره واختبره من جانبيه فوجد أمره لا يمشي على مراده، وتحقق الخطأ والغلبة عما وعد به كما يقول جمال الدين أبو الحسن القفطي، فعاد خجلاً منكسراً واعتذر للحاكم، فقبل منه على مضض وولاه بعض الدواوين. وأراد ابن الهيثم أن يتخلص من الوظيفة فادّعى الجنون وبقي على ذلك حتى مات الحاكم (أو قتل) فظهر وأخرج علومه الفلسفية والهندسية والرياضية والطبية والإلهية، وكان زاهداً شديد الزهد في المناصب والأموال، وعاش في قبة فوق المسجد الأزهر واكتفى بما يأتيه من مال من نسخ الكتب ورفض الأعطية والهبات.

وقد ذكر ابن أبي أصيبعة قوائم طويلة من مؤلفات ابن الهيثم منها 25 كتاباً في العلوم الرياضية والهندسة، وما تدعو إليه حاجة الأمور الشرعية من الأمور الهندسية والحساب الهندي، واستخراج سمت القبلة في جميع المسكونة بجداول وضعها.

ومنها 44 كتاباً في العلوم الطبيعية والإلهية (وكانت الفلسفة تشمل الرياضيات والطبيعيات والإلهيات). وله مقاله في العالم من جهة مبدئه وطبيعته وكم اله، لا يقول بقدم العالم مثل أرسطو، كما ردّ على أرسطو في قوله أن الله لم يزل غير فاعل وتحدث عن طبيعة الألم واللذّة في مقالة، وكتاب في إثبات النبوات والرد على منكريها.

ولخّص كتب جالينوس وهي ثلاثين كتاباً . وله رسالة في تأثيرات اللحون الموسيقية في النفوس الحيوانية. وقدم دليلاً على حدوث العالم بالبرهان (ضد أرسطو)، وردّ على المعتزلة في أكثر من رسالة حول صفات الله ورأيهم في الوعيد.

وأهم كتبه هي في «المناظر» Optics البصريات وأوضح أن الضوء يقع على العين وتنعكس المرئيات على العين وذكر القرنيه، والعدسة (الرطوبة الجليدية) ثم الرطوبة الزجاجية (Vitrous Humor) ثم الشبكية، وفيها تنطبع الصور. ثم ذكر العصب البصري وامتداده إلى الدماغ وتصالبه (التصالب البصري Optic Chiasma) وكان موفقاً في كل ذلك.

وله مقالة في الأخلاق وخمس مقالات في السياسة ومقالات في النفس وطبيعة اللذة والألم.

وذكر الدكتور محمد عابد الجابري في كتابه العقل الأخلاقي العربي أن كتاب تهذيب الأخلاق والذي طبع أكثر من عشرين مرة ونسب إلى الجاحظ ومرة إلى يحيى بن عدي النصراني، ومرة إلى محيى الدين بن عربي هو في الواقع لابن الهيثم وأخذ يجادل في ذلك جدالاً طويلاً ويرد على من خالفه.

وكتاب تهذيب الأخلاق، يسير على النسق الجالينوسي في تعريفه وفي اعتبار أن الأخلاق تمرض وتحتاج إلى علاج وهو يعاملها مثلما يعامل أمراض الجسد، تماماً كما فعل أبو بكر الرازي، وثابت بن سنان بن قرة وقبلهما الكندي. وقد عالجوا جميعهم قضية الأخلاق، تماماً كما يفعل الطبيب وبعالج الأمراض. والجانب الفلسفي النظري في كتاباتهم محدود، والاتجاه هو اتجاه عملي.

ويبدأ بتعريف الخلق بأنه «حال للنفس، بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار »، وهو تعريف جالينوس. والخلق الحسن قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً، وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد كالسخاء، فإنه يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ولا تعلم، وكالشجاعة والحلم والعفة والعدل وغير ذلك من الأخلاق المحمودة.

أما الأخلاق المذمومة فهي موجودة في أكثر الناس كالبخل والتجسس والخرق والفجور والظلم وقلما يخلو إنسان من خلق مذموم ويسلم من جيمع العيوب، ولكنهم يتفاضلون في ذلك. وطبيعة الشرّ في الإنسان نتيجة غلبه النفس الشهوانية، وهي أخلاق البهائم . وأغلب الناس مطبوعون عليها ومنقادون للشهوات، ولذلك وقع الافتقار إلى الشرائع والسنن والسياسيات المحموده .

وقوى النفس ثلاث: شهوانية وغضبية وعاقلة. والشهوانية هي للإنسان والحيوان وإذا لم تردعها القوة العاقلة في الدماغ انطلقت وكانت مصدر كل شر، ولذا يجب تهذيبها وتستعين القوة العاقلة في ذلك بالقوة الغضبية . والقوة الغضبية يشترك فيها أيضاً الإنسان والحيوان وبها تكون الشجاعة كما بها تكون محبة الغلب ة والغضب والعدوان والانتقام . وإذا ملكها الإنسان بقوة العقل كانت لها فضائل مثل الشجاعة والأنفة عن الأمور الدنيئة . وأما النفس الناطقة فبها يتميز الإنسان عن الحيوان. وفضائلها اكتساب العلوم والآداب وكفّ صاحبها عن الفواحش والرذائل. وأما رذائلها فالمكر والخديعة والرياء والعجب والحسد. وإذا كانت النفس العاقلة فاضلة فأنها تقهر النفس الشهوانية والنفس الغضبية ولا تجعلهما يسترسلان فيما يريدان.

وقد ذكر ابن الهيثم عشرين فضيلة ابتدأها بالعفّة والقناعة والتصوّن والحلم والوقار والودّ والرحمة والوفاء وأداء الأمانة وكتمان الس ر والتواضع والبشر (إظهار السرور بمن يلقاه والتبسم له)، والصدق، وسلامة النية والسخاء والشجاعة والصبر على الشدائد والمنافسة في الخير، وعظم الهمة، وانتهى بالعدل . وأما الرذائل فكذلك جعلها عشرين ابتداء من الفجور والشره والتبذّل والسفه (وهو ضد الحلم وسرعة الغضب) والخرق (وهو كثرة الكلام والحركة من غير ما حاجة)، والعشق (وهو إفراط الحب)، والقساوة، والغدر والخيانة، وإفشاء السر والتكبر والعبوس والكذب والخُبث والمقصود به المكر والخداع. والبخل والجبن والحسد والجزع وصغر الهمة وينتهي بالجور وهو ضد العدل.

ومن أراد أن يقمع نفسه الشهوانية عليه أن يكثر مجالسة النساك والزهاد وأهل الورع والواعظين. وهذا اتجاه يخالف جالينوس ومدرسته التي سبق ذكرها . والعلاج عندهم في الرجوع إلى النفس العاقلة وأن المعرفة وحدها هي التي تدلنا على الطريق، ولا شيء سواها.

أما طريق قمع النفس الغضبيّة فهو أن يتّعظ برؤية الذين يسرع إليهم الغضب وكيف يتصرّفون، ويفقدون عقلوهم، ثم يندمون على ما فعلوا، أو يقعون في جرائم قتل أو اعتداء (أو طلاق لزوجة وهو لا يريد طلاقها). وعليه أن يتجنب حمل السلاح لئلا يقتل به أحداً عند غضبه، ويتجنب الشراب المسكر (الخمر) فإنه يهيّج النفس الغضبيّة.

وابن الهيثم يختلف في ذلك عن الكندي والرازي وثابت بن سنان الذين لم يتحدثوا مطلقاً عن مجالسة النساك والزُهّاد، ولم يتحدثوا أبداً عن قمع النفس الغضبيّة من الناحية العملية، وعدم حمل السلاح وعدم شرب الخمر . صحيح أنهم ذكروا مضار السكر والإسراف في شرب الخمر في كتب أخرى، لكنهم لم يتعرّضوا لها في كتبهم الأخلاقية وطالبوا بالاعتدال في شربها حين يذكرونها.

وانتبه ابن الهيثم إلى أن بعض الأخلاق تكون أجدر بالملوك مثل الشجاعة والسخاء والصبر على الشدائد وعظم الهمة. ولا يستحق أن يكون ملكاً من لم تكن عنده هذه الصفات. أما الزهد والقناعة فلا تليق بالملوك لأنهم محتاجون للمال وللأنصار وللجند .. الخ. وهم من أشد الناس حاجة إلى العدل فهو بهم أليق، كما أنهم محتاجون أشد الحاجة إلى الحلم وكتم الغيظ، وأن لا يتركوا لنفوسهم الغضبية العنان، بل يجب عليهم أن يلجموها ويزمّوها بزمام الحلم والوقار.

وهو كتاب أفضل من كتب الكندي، والرازي وثابت بن سنان لوضوح الجوانب العملية والدينية عنده، مع اتفاقه معهم في الجانب الطبي والعلاجي وتعريف النفس، ولكنه يفوقهم في هذه الجوانب التي ذكرناها.

ابن باجه وابن الطفيل وابن النفيس (وقصة حي بن يقظان)

اشتهر من فلاسفة الأندلس ثلاثة أولهم ابن باجه أبو بكر محمد بن يحيى الصائغ المعروف بابن باجه والمتوفى سنة 533هـ، وثانيهم محمد بن طفيل المغربي المتوفى سنة 581هـ وثالثهم ابن رشد المتوفى سنة 595هـ والذي سنفرد له فصلاً لانتشار صيته وبُعد ذكره وشهرته واهتمام المستشرقين به بصورة خاصة لأن أوروبا في القرون الوسطى عرفت فلسفة أرسطو عن طريق شروحه .. ونتيجة لاهتمام المستشرقين بابن رشد، وإصدارهم الدراسات عنه، وتحقيق بعض كتبه الفلسفية، ونشرها، اهتم المعاصرون من العرب اهتماماً شديداً بابن رشد وأقاموا الندوات الهامة الخاصة به (ندوة أعمال ابن رشد، المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية 1415هـ 1995م وقد طبعت هذه الأعمال في ثلاثة أجزاء ابن رشد الطبيب وابن رشد الفقيه، وابن رشد الفيلسوف)، كما أصدر المجلس الأعلى للثقافة والاتحاد الدولي للأكاديميات طبعه محققة لكتاب الكليات 1989م (وقد سبقته المكتبة العثمانية في حيدر أباد الدكن بالهند).

وقد أصدرت الهيئة المصرية العامة للكتاب مجموعة رسائل ابن رشد في الطب وهي تلخيص لكتب جالينوس وأضافوا إليها رسالة ابن رشد في الترياق (دواء لمعالجة السموم) وهي من تأليفه بتحقيق جورج قنواتي وسعيد زايد 1987.

ورغم شهرة ابن رشد في الطب إلا أنه لم يكن يمارسه كما قال ذلك بنفسه، فهو فقيه وهو قاضي القضاة، كما تولى منصب ما يوازي وزير التعليم لدى المنصور يعقوب الموحدي، وهو مع ذلك فيلسوف واسع الإطلاع. وشهرته في الطب تأتي من ارتباطه بابن الطفيل الذي قدمه إلى ملك المغرب والأندلس السلطان المنصور يعقوب الموحدي ومن كتبه التي اعتمد فيها اعتماداً تاماً على كتب جالينوس المترجمة إلى العربية وكتب ابن سينا والرازي.

وابن باجه أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المتوفى سنة 533هـ . من أهل الأندلس وتولى الوزارة في غرناطة وذهب إلى فاس فاتهم بالإلحاد ب سبب كتبه الفلسفية وثار عليه الفقهاء، ومات ولم يصل سن الكهولة.

قال عنه ابن الطفيل (المتوفى سنة 581هـ): «لم يكن فيهم (أي في الخلف) أثقب ذهناً، ولا أصح نظراً، ولا أصدق رواية من أبي بكر بن الصائغ (ابن باجه) غير أنه شغلته الدنيا، حتى اخترمته المنيّة قبل ظهور خزائن علمه، وبثّ خفايا حكمته . وأكثر ما يوجد له من التأليف، فإنما هي أجزاء غير كاملة ومجزومة من أواخرها. ككتابه في النفس ، وتدبير المتوحّد ، وما كتبه في المنطق، وعلم الطبيعة. وأما كتبه الكاملة، فهي كتب وجيزة، ورسائل مختلسة، وقد صرَّح هو نفسه بذلك، وذكر أن الم عني المقصود برهانه في رسالة الاتصال ، ليس يعطيه ذلك القول عطاء بيّنا بعد عُسر واستكراه شديد، وأن ترتيب عبارته في بعض المواضع، على غير الطريق الأكمل، ولو اتّسع له الوقت، مال لتبديلها.. وهذا حال ما وصل إلينا من علم هذا الرجل ولم نلقه شخصياً.

ولابن باجه أيضاً كتبٌ هي شروح على فلسفة أرسطو، منها شرح كتاب السماع الطبيعي، شرح بعض كتاب الآثار العلوية، شرح بعض كتاب الكون والفساد، شرح بعض المقالات الأخيرة من كتاب الحيوان، وشرح بعض كتاب النبات . ومن الواضح أن كتب ابن باجه أغلبها لم يتم بسبب انشغاله بالوزارة وبالدنيا ك ما قال ابن الطفيل عنه . وأشهر كتبه كتاب تدبير المتوحد [1] .

وقد وصفه ابن أبي أصيبعة [2] بقوله: «كان متميزاً في العربية والأدب حافظاً للقرآن ويعدّ من الأفاضل في صناعة الطب. وكان في العلوم الحكمية علامة وقته وأوحد زمانه . وكان متقناً لصناعة الموسيقى .. وكان ذا ثقابة الذهن، ولطف الغوص على تلك المعاني الشريفة الدقيقة، أعجوبة دهره، ونادرة الفلك في زمانه» وكان مالك بن وهيب الأشبيلي معاصراً له، ومتقناً مثله لهذه العلوم الحكمية (أي علوم الفلسفة من رياضيات وفلك وحيوان ونبات الخ) وله تعاليق في الهندسة وعلم الهيئة تدل على بروعه في هذا الفن. وأما العلم الإلهي فلم يوجد في تعاليقه شيء مخصوص اختصاصاً تاماً إلا نزعات تُستقرأ من قوله في رسالة الوداع، واتصال الإنسان بالعقل الفعّال، واشارات مبدّدة (أي مفرّقه) في أثناء أقاويله، لكنها في غاية القوة.

---

(1)د. يوسف زيدان: «تراثنا: حي بن يقظان النصوص الأربعة ومبدعوها »، دار الأمين، القاهرة ط 2، 1998، ص 62، 63.

(2)ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، مكتبة الحياة بيروت 1965، ص 515 - 517.

وله فصل (قول) في الغاية الإنسانية، وهو من العلم الآلهي.. وحسن فهمه لأقاويل أرسطو. وكان من جملة تلاميذ ابن باجه أبو الحسن علي بن الإمام من المغرب جمع له أقواله في الحكمة (الفلسفة) وترجم له، ومنهم أبو الوليد بن رشد الحفيد، وتوفى ابن باجه شاباً في مدينة فاس ودفن بها.

ولابن باجه من الكتب غير ما سبق ذكره : رسالة الوداع، كتاب اتصال العقل بالإنسان، قول على القوة النزوعية، تعاليق على كتاب أبي نصر الفارابي في الصناعة الذهنية، فصول في السياسة المدنية، نبذ يسيرة في الهندسة والهيئة، وجواب عن هندسة ابن سيد المهندس، كلام على شيء من كتاب الأدوية لجالينوس وكتاب التجربتين على أدوية ابن وافد بالاشتراك مع أبي الحسن سفيان . كتاب اختصار كتاب الحاوي في الطب للرازي . كلام في الغاية الإنسانية، كلام في البرهان، كلام في العقل الفعال، كلام في الاسطقسات (المواد الأولية أو العناصر)، كلام في المزاج الطبي، كلام في الفحص عن النفس النزوعية (وهي النفس الشهوانية، والنفس الغضبية) وهو تحليل لحالاتها وكيفية التحكم فيها (أي أنه كتاب في الأخلاق).

ابن الطفيل وفاته (سنة 581هـ) وقصة حي بن يقظان:

جاء في معجم المؤلفين لكحالة:

أبو بكر محمد بن طفيل المغربي، حكيم، من آثاره أسرار الحكمة ورسالة حي بن يقظان ورسالة في الطبيعيات ورسالة في النفس.

وقد ترجم لابن الطفيل، عبد الواحد المراكشي في كتابه الهام: «المُعجب في تلخيص أخبار المغرب» كما ترجم له ابن العماد في شذرات الذهب، والقفطي في «إخبار العلماء بأخبار الحكماء وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، ملك الموحدين، حريصاً على جمع العلماء حوله وكذلك جمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب حتى اجتمع له ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب.

ويقول كتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب » «وكان ممن صحبه من العلماء المتفننين أبو بكر محمد بن طفيل، أحد فلاسفة المسلمين، كان متحققاً بجميع أجزاء الفلسفة ورأى لابن الطفيل رسالة حي ابن يقظان غرضه فيها مبدأ النوع الإنساني على مذهبهم، وهي رسالة لطيفة الجِرْم، كبيرة الفائدة في ذلك الفن، ومن تصانيفه في الإلهيات رسالة في النفس رأيتها بخطِّه .. وقد صرف عنايته في آخر عمره إلى العلم الإلهي، معظّماً لأمر النبوات، ظاهراً وباطناً. هذا مع اتساع في العلوم الإسلامية.. وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشغف به، والحبَّ له. بلغني أنه كان يقيم في القصر عنده أياماً، ليلاً ونهاراً.. وكان أبو بكر (محمد بن الطفيل) هذا أحد حسنات الدهر في ذاته وأدواته» .

وهو الذي قدَّم أبو الوليد بن رشد إلى أبي يعقوب يوسف الموحدي، ومدح ابن رشد عنده وأثنى عليه حتى شعر ابن رشد أنه لا يستطيع أن يكافئه. وهو الذي أوعز إلى أبي يعقوب أن يطلب من ابن رشد شرح كتب أرسطو وتلخيصها ففعل، وأدّى ذلك إلى نقمة الفقهاء على ابن رشد، ومع أسباب أخرى، أدت إلى غضب يعقوب بن يوسف الملقب بالمنصور على ابن رشد، وحرَّق كتبه الفلسفية، مع وجود نسخ منها متفرقة، وترجمات عبرية ثم لاتينية كما سيأتي معنا.

وقد كان لابن الطفيل شعر رائق يمزج فيه الغزل بالتصوف على طريقة القوم، وله قصائد في الزهد والحكمة نقلها عبد الواحد المراكشي في المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ونقلها الدكتور يوسف زيدان في كتابه «حي بن يقظان: النصوص الأربعة».

والأثر الباقي لابن الطفيل هو قصة «حي بن يقظان» وقد أخذها ابن الطفيل عن ابن سينا (كما أسلفنا في سيرة ابن سينا)، ولكنه غيّرها تغييراً كبيراً في مدلولاتها وقصتها . ويبدأ ابن الطفيل بذكر حي بن يقظان وكيف ولد وأن هناك قولان في ذلك : (الأول) أنه تخلّق ذاتياً داخل مغارة، في جزيرة هندية، تحت خطّ الاستواء و (الثاني) أنه كان لملك عظيم أخت يمنعها من الرجال فعشقت قريباً لها يُدعى يقظان ف حملت منه . فلما ولدت ألقت بطفلها في البحر بعد أن وضعته في تابوت فأخذه البحر إلى جزيرة حيث عطفت عليه غزالة فأرضعته وربّته، حتى شبَّ معها وكأنها أمّه.

وتبدأ الدراما بموت الظبية فحزن عليها حي بن يقظان حزناً شديداً، وأراد معرفة سبب موتها فشرّحها، ثم قام بفحص الحيوانات الأخرى حيّة وميّتة، كي يكتشف سِرَّ الحياة، وسبب الموت، فأدّى به ذلك إلى ولوج عالم الروح، وإلى الجولان ببصره في الموجودات من حوله ليكتشف أن الله هو موجدها وخالقها، مورداً الأدلة العقلية على وجوده تعالى واحداً أحداً فرداً صمدا.

يقول ابن الطفيل : «وما زال حي يطلب الفناء عن نفسه والإخلاص في مشاهدة الحقّ، حتى تأتّى له ذلك، وغابت عن ذكره وفكره السموات والأرض.. وتلاشى كل ذلك واضمحل وصار هباء منثورا، ولم يبق إلا الواحد الحقّ الموجود الثابت الوجود» (1).

وتعرض ابن الطفيل على لسان حي بن يقظان لقضية الصلة بين ال فلسفة والدين . وكانت هناك جزيرة بقرب الجزيرة التي كان يعيش فيها حي، وهي عامرة بالسكان، ومن أهلها رجلان الأول يُدعى أبسال وكان زاهداً، والثاني سلامان وكان فقيهاً في الدين ميالاً للاختلاط بالناس. وانتقل أبسال إلى الجزيرة الخالية التي فيها حي بن يقظان فتعارفا وائتلفا وتطابق ما وصل إليه حي بن يقظان بعقله مع ما ذكره أبسال من أمور الوحي.. وهو ما يعبّر عنه بقولهم (وافق المعقول المنقول).. ووصف أبسال الفرائض والعبادات فالتزم بها حي بن يقظان، ولكنه تعجّب من إباحة الشريعة لاتخاذ الأموال وإقرارها توسع الناس في المأكل وا لمسكن والملبس، وتشعب أمور الزكاة والربا والميراث .. ولما ذهب حي بن يقظان إلى الجزيرة الآهلة بالسكان مع أبسال ورأى أحوال الناس أدرك أن الشريعة إنما جاءت لتنظيم حياة

(1)د. يوسف زيدان: حي بن يقظان: النصوص الأربعة ومبدعوها، دار الأمين، القاهرة ط 2، ص 89، سنة 1998 .

الجماعة، وعلاج ما عليه عامة الخلق من تعلق دنيوي.. ووجد حي بن يقظان، أن أكثر الناس بمنزلة الحيوان غير الناطق، تتحكم فيهم الشهوات، ولذا جاءت الشريعة تردّهم إلى الاعتدال.

وأخيراً ودع حي بن يقظان أهل الجزيرة وبصحبته أبسال وذهبا إلى الجزيرة الأولى حيث السكينة وراحة البال. وبقي سلامان الفقيه يوجه الناس إلى أمور الشرع الذي يضبط حياتهم.

وتمثّل القصة حي بن يقظان رمزاً للفطرة السليمة التي تصل إلى الله بدون حاجة إلى واسطة أو حتى تعليم، وأبسال رمز للصفاء الروحي والتصوف، وسلامان رمز للفقه الشرعي الذي لا يستغني عنه العوام.

وهذا قول فيه خطورة أي أن الخاصة لا تحتاج إلى الشريعة وإنما يحتاجها العامة من الناس. أما من صفت نفوسهم أو بقيت نفوسهم على الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها دون أن يدخلها زيف أو دخن، فإنها تستطيع الوصول إلى الله دون الحاجة إلى الرسول وإلى الشريعة.

ابن النفيس يرد على الفلاسفة:

وهو قول رد عليه فيما بعد علي بن الحزم القرشي المشهور بابن النفيس (607 - 687هـ) في قصته المشهورة باسم فاضل بن ناطق . وخلاصتها أن الإنسان مهما بلغ من الذكاء والصفاء فإنه لا يستغني عن هدي السماء ورسالة الأنبياء . ولولا فضل الله سبحانه وتعالى وإرساله الرسل لضلَّ حتى أولئك الفلاسفة والعباقرة . وقد جعل رسالته في أربعة فنون : الأول: في بيان كيف تكون ناطق من الطين بأمر الله سبحانه وتعالى ثم كيف نما حتى خرج من المغارة وكيف تعرّف على العلوم والحكمة وقام بالتشريح .. والكتاب ملىء بالمعلومات الطبية الهامة. وتأكد ناطق أن لهذه الموجودات موجداً وبدأ يفكر كيف يعبد هذا الإله، فألقت الأمواج سفينة فيها خلق من التجار واتّصل بهم، فتعلم منهم اللغة .. وصنع الطعام واللباس .. وعلم أن جودة حياة الإنسان لا تكون إلا باجتماع جنسه، وإذا اجتمع فلا بد لهم من قانون يحكمهم وينظم أمورهم فلا بد إذن من وجود نبيّ ورسالة ووحي من الله سبحانه وتعالى ولا يستطيع البشر م هما أوتوا من ذكاء أن ينظموا حياتهم على الوجه السليم إلا بوجود النَّبي والرسالة والشريعة. ورأى أن النَّبي لا بد منه في تبليغ شرع الله للناس، ولا بد منه ليعرّف الناس بجلال الله وسائر صفاته، ولا بد منه لتعريفهم بحال المعاد وأحوال الآخرة. وهي أمور لا يستطيع العقل البشري أن يصل لها بذاته دون معونة هذا النبي المرسل من رب العالمين .. ومع مضي الزمان كان لا بد أن يأتي لهؤلاء الأنبياء خاتماً لهم، وأن تكون رسالته أفضل تلك الرسالات لاحتوائها على جميع الكمالات. فإذا كمل الدين بالنبي الخاتم فلا حاجة لنبي جديد برسالة جديدة، إذ أن رسالة النبي الخاتم كافية لجميع البشر إلى يوم الدين.

وواضح اتجاه ابن النفيس الديني . وكان ابن النفيس طبيباً بارعاً وهو مكتشف الدورة الدموية قبل هارفي بأربعة قرون، كما أنه فقيه شافعي وله كتب في الفقه وعلوم الدين، وعدّه السبكي في طبقات الشافعية.

وهكذا نرى اتجاه ابن سينا اتجاهاً فلسفياً محضاً، طوّره ابن الطفيل في قصة درامية متكاملة، ولكنها وصلت إلى أن الخاصة وأصحاب الفطر السليمة يصلون إلى الحقيقة دون الحاجة إلى رسالة السماء. وأما العامة فلا بد لهم من رسالات الأنبياء وأحكام الشريعة.

ونرى ابن النفيس على نق يض ذلك: يرى وجوب وجود الأنبياء للعامة والخاصة، وأنه مهما بلغ الإنسان من الصفاء الذاتي فإنه لا يستطيع أن يصل إلى ما جاءت به النبوّة من علوم وأحكام للدنيا والآخرة، وللشريعة والحقيقة . فلا طريق لسعادة الإنسان كفرد أو مجموع إلا باتباع الأنبياء وخاصة خاتمهم وأفضلهم محمد ، فرضي الله عن ابن النفيس القرشي الطبيب الفقيه المؤمن.

ابن رشد (520 - 595هـ) الطبيب الفقيه الفيلسوف

أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد القرطبي الفقيه الطبيب الفيلسوف، أحد أشهر أعلام العرب في الأندلس. كان أبوه وجده من العلماء وتوليا قضاء قرطبة. ومات الجد قبل أن يولد حفيده في نفس العام (520هـ). وكان فقيهاً مالكياً له مؤلفات كثيرة . وقد تولى ابن رشد الحفيد المعروف لدى الأوروبيين باسم (أفروس) (Averos) قضاء قرطبة، وقرّبه المنصور يعقوب الموحدي إليه، وطلب منه أن يلخّص وييسّر كتب أرسطو ففعل ذلك، فلما ظهرت هذه الكتب الفلسفية غضب الفقهاء، وأراد المنصور استرضاءهم فغضب على ابن رشد وحدَّد إقامته في حارة اليهود. وكان هناك سبب آخر وهو أن ابن رشد وصف الزرافة في كتاب الحيوان فقال: «وقد رأيت الزرافة» عند ملك البربر يعني المنصور، فلما بلغ ذلك المنصور صعب عليه، وكان أحد أسباب نقمته عليه [1] ، رغم أن ابن رشد قال : أن ذلك خطأ الناسخ، وقد كانت «ملك البرَّين أي الأندلس والمغرب». وكان ابن رشد عندما يباحث المنصور في المسائل العلمية يقول له: تسمع يا أخي!! ويرفع الكلفة [2].

ومن كلام ابن رشد: «من اشتغل بالتشريح ازداد إيماناً بالله» [3]، وقد وضع ابن رشد عدداً من الكتب في الطب والفقه والفلسفة أشهرها في الطب:

(1) كتاب الكليات [4]: وفيه اعتنى بكليات التعليم الطبي من التشريح وعلم وظائف الأعضاء، وما نسميه اليوم علم الأمراض، ولكنه لم يتحدث عن الأمراض مرضاً مرضاً، وترك ذلك لصديقه أبي مروان بن زهر الذي وضع كتاب التيسير. وبذلك يكون هذان الكتابان مرجعين متكاملين في الطب في ذلك الزمان. ولم يكن ابن رشد ممارساً للطب ولا مجيداً له.

(2) رسائل ابن رشد الطبية بتحيق د . جورج قنواتي والأستاذ سعيد زايد [5] وهي رسائل لجالينوس اختصرها ابن رشد وهي الاسطقسات والمزاج والقوى الطبيعية وحميات العفن،

---

(1)ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 532.
(2)المصدر السابق.
(3)المصدر السابق.
(4)طبع كتاب الكليات عدة مرات منها طبعة حيدر آباد الدكن بالهند، وطبعة أخرى بتحقيق د . عمار الطالبي، والدكتور سعيد شيبان، إصدار المجلس الأعلى للثقافة والاتحاد الدولي للأكاديميات، القاهرة 1989.
(5)تصدير د. إبراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1987.

والعلل والأعراض وأصناف المزاج وحفظ الصحة، وحيلة البرء . وأضافوا إليها كتاب الترياق وهو لابن رشد.

(3) كتاب الترياق : (والمقصود بذلك الأدوية التي تستخدم لمعالجة السموم).

(4) شرح أرجوزة ابن سينا في الطب : وهي في أكثر من ألف بيت وشرحها كثيرون، من أشهرهم ابن رشد. وقد انتقد بعض آراء ابن سينا.

وفي الفقه أشهر كتبه:

(1) بداية المجتهد ونهاية المقتصد وهو مرجع هام إلى اليوم، ويدرّس في الكليات الشرعية وموضوعه الفقه المقارن.

(2) كتاب التحصيل: جمع فيه اختلاف أهل العلم مع الصحابة والتابعين وتابعيهم.

(3) كتاب المقدمات في الفقه .

وفي الفلسفة وعلم الكلام:

(1) شرح كتب أرسطو في الطبيعيات والإلهيات والمنطق والحيوان والنفس والأخلاق، والبرهان، كما لخص بعض كتب جالينوس مثل كتاب القوى الطبيعية، وكتاب العلل والأعراض وكتاب الحميّات (والأخيرة في الطب).

وقد أثارت كتبه الفلسفية نقمة العلماء عليه، وكانت سبب نكبته، حتى أُحرقت كتبه الفلسفية، ولكن كتبه هذه انتقلت إلى أوروبا وعليها اعتمدت . فعلى سبيل المثال تمت ترجمة كتاب النفس إلى العبرية ومنها إلى اللاتينية، كما أن هناك نسخاً لا تزال محفوظة كتبت باللغة العربية، ولكن بالحرف العبري .. وقد تعرفت أوروبا على أرسطو عن طريق شروح وتلخيصات ابن رشد وأعجبت بها في القرون الوسطى، وكانت من الكتب المعتمدة لديهم[1] .

(2) تهافت التّهافت : وفيه ردّ على الغزالي الذي هاجم الفلاسفة وكفّرهم في ثلاثة من أقوالهم (قِدم العالم، وأن الله لا يعلم الجزئيات بل الكليات، والبعث للأنفس وهي الخالدة، ولا بعث للأجساد).

(3) الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة : وقد نقد فيه علم الكلام نقداً لاذعاً ممثلاً بالأشاعرة وقد قرر ابن رشد أن استخدام الاستدلال المنطقي البرهاني في مجال العقيدة هو الطريق الصواب. فالفقيه الذي يدرس نصوص الكتاب والسنة يستنبط منها الأحكام الشرعية العملية باستخدام الأقيسة وأنواعها وشروطها . والأمر لا يزيد على ذلك فيما يتصل بالنظر العقلي الذي أوجبه الشرع، ورسم طريق الاستدلال به على أمور العقيدة، إذ كيف ندعو إنساناً لاستخدام النظر العقلي ثم نحرِّمُ عليه دراسة الأساليب المنطقية التي تُعدُّ مقياساً يفرّق

---

(1)يقول الفرد عبري : الذي نشر كتاب ابن رشد في النفس (التلخيص) وهو ضمن مخطوط به ثلاث رسائل في النفس أحدها موسع، والثاني متوسط وهو التلخيص، والثالث أشبه بالتعريف والمقدمة . وهي ليست مجرد ترجمة لكتاب أرسطو، بل شرح لها وللفسلفة اليونانية. وقد اعتمد الفرد عبري على ترجمتين بالعبرية ، ووجد منها خمس نسخ كما وجد نسختين مكتوبتين بالحرف العبري والكلام باللغة العربية، أبو الوليد بن رشد: تلخيص كتاب النفس تحقيق الفرد عبري ، ومراجعة د. محسن مهدي إصدار المجلس الأعلى للثقافة (الإمارات) والمكتبة العربية، القاهرة، 1994.

بين صحة هذا التفكير النظري وفساده؟ وكيف يحقُّ للفقيه أن يبرِّر مشروعية القياس الفقهي بقوله تعالى: {...فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الأَبْصَارِ *} ولا يحقُّ للمفكر في شؤون العقيدة أن يستخدم الآية نفسها لاستخدام القياس العقلي في البرهنة على قضاياه[1] .

ويقول الدكتور حسن علي في بحثه «ابن رشد المتكلم» [2] المقدم للندوة التراثية الأولى عن ابن رشد الطبيب والفقيه والفيلسوف التي نظمتها المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية بالكويت، «ومن سمات هذا المنهج الرشدي نقده المدارس أو الفرق الكلامية التقليدية، وعلى رأسها الأشعرية السائدة في عصره، ومعها المعتزلة، وهم أصحاب المنهج العقلي، والحشوية وهم أصحاب المنهج النصّي، والباطنية وهم أصحاب المنهج الوجداني أو الحدسي، فهم جميعاً في نظره مُعرِضُون عن الطريق المستقيم الذي سنَّهُ الله في كتابه سبيلاً إلى معرفته، مستمسكون بتأويلات التزموها واتخذوها أصولاً وحكّموها في الدين»... واعتبر الحشوية لا عقول لهم أو ألغوا عقولهم، ويقول عنهم: «ولا يمتنع أن يوجد من الناس من تبلغ به فدامة العقل .. إلى أن لا يفهم من الأدلة الشرعية التي نصبها للجمهور، وهذا فهو أقل الوجود، فإذا وجد ففرضه الإيمان بالله من جهة السماع».

وهو يؤكد ما قال ابن تيمية من بعده «والشرع مسائل ودلائل، والحشوية يأخذون بمسائله ويهملون دلائله » [3]وهو ما قاله الغزالي قبل ابن رشد : أن الشرعيات عقليات، والعقليات شرعيات لدى العارفين» [4].

وهكذا نجد نقاط اتفاق بين ابن رشد والغزالي (وهو خصمه الفكري اللدود) وابن تيمية الذي جاء بعدهما، وخالفهما في أشياء كثيرة واتفق معهما في أشياء أخرى.

وقد ردّ على الصوفية بقوله [5]: «فطرقهم في النظر ليست طرقاً نظرية، أعني مركّبة من مقدمات وأقيسة، وإنما يزعمون أن المعرفة بالله وبغيره من الموجودات شيء يُلقي في النفس عند تجريدها من العوارض الشهوانية، وإقبالها بالفكرة على المطلوب »[6] ويعترف بأن هذه الطريقة قد تصلح لأفراد من الناس. وأن إماتة الشهوات شرط في صحة النظر مثلما تكون الصحة شرطاً في ذلك، لا أن تكون كافية بنفسها، بل إن كانت نافعة فعلى الوجه الذي قلنا، وهذا بيّنٌ عند من أنصف واعتبر الأمر بنفسه» [7].

وأما الأشاعرة فقد انتقدهم بشدّة، ومعهم المعتزلة ورماهم كما يقول الدكتور حسن الشافعي بالجدل المعقد أحياناً، وبالروح الخطابية أحياناً أخرى، وبعدم الفهم الدقيق للأدلة القرآنية

---

(1)د. حسن الشاذلي: ابن رشد المتكلم في كتاب ابن رشد الفيلسوف، المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، الكويت (ندوة أعمال ابن رشد 1415هـ/ 1995) ص 517.

(2)المصدر السابق عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، ص 136.

(3)ابن تيميه: «درء تعارض العقل والنقل» الرياض، تحقيق رشاد سالم.

(4)الغزالي: المنهج وبعض التطبيقات للدكتور حسن الشافعي، منشورات جامعة محمد الخامس الرباط، ندوات رقم 5 ص 118 .

(5)مناهج الأدلة ص 150.

(6)المصدر السابق .

(7)د. حسن الشاذلي: ابن رشد المتكلم، (ابن رشد الفيلسوف ـ ندوة ابن رشد) المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، ص 520.

وبخاصة استدلالهم على الوجود الإلهي بدليلي الجوهر الفرد، والإمكان، وعلى الوحدانية بدليل التمانع، مبيِّناً ما فيها جميعاً من نقاط الضعف، ومثارات الشك والبعد عن القرآن الكريم، وهو يلمح إلى ذلك أيضاً إلى ما كتبه في كتابه الآخر «فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال »، وفي الضميمة التي ضمّها إلى كتابه هذا بعنوان «العلم الإلهي».

وهو موقف يتفق فيه معه ابن تيمية الذي جاء بعد ابن رشد بقرون وذلك في كتابه «درء تعارض العقل والنقل ». وهو كتاب مشهور ومنشور (نشرته دار الرياض، تحقيق رش اد سالم).

(4) فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال:

وفيه قرّر وجوب النظر العقلي وحدود التأويل واعتماد البرهان الفلسفي . وقد تكلم في القسم الأول من هذه الرسالة عن أهمية النظر العقلي وقال ما نصه : من أراد أن يعلم الله تبارك وتعالى وسائر الموجو دات بالبرهان أن يتقدَّم أولاً فيعلم أنواع البراهين وشروطها، وبماذا يخالف القياس البرهاني القياس الجدلي، والقياس الخطابي، والقياس المغالطي ... ولا يمكن ذلك دون أن يتقدم فيعرف قبل ذلك ما هو القياس المطلق وكم أنواعه.. والخلاصة لا بد أن يعرف علم المنطق الأرسطي معرفة تامة.

ثم تكلم في الصلة بين الشريعة والحكمة (أي الفلسفة) وقال: «فعل الفلسفة ليس شيئاً أكثر من النظر في الموجودات واعتبارها».. والشرع قد ندب إلى اعتبار الموجودات وحثّ على ذلك كما في قوله: {...فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الأَبْصَارِ *} [الحشر: 2] ، وفي قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } [الأعراف: 184] ، وقد تكرَّر قوله تعالى : {أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}، واعتبر ذلك نصَّاً صريحاً في استخدام القياس العقلي.

وأنكر على من قال أن النظر في كتب القدماء (فلاسفة اليونان) بدعة، وقال إن ا لنظر في القياس الفقهي وأنواعه لم يكن في عهد الصحابة ولا التابعين، وإنما جاء بعد ذلك، فهو أيضاً بدعة، واستنباط الأحكام الفقهية وتقعيدها، إنما حدث بعد عصر الصحابة وعصر التابعين . وهكذا فاستنباط المجهول من المعلوم في الوجود هو أساس المعرفة العلمية الفلسفية، وه ذا مطلوب.

واعتبر أن المعرفة البشرية تتراكم وأن من سبق من الأمم قد أوردوا أشياء هامّة لا يمكن إغفالها، بل يجب دراستها والبناء عليها.

واشترط للنظر في كتب القدماء (أي الفلاسفة) يجب أن يكون من يفعل ذلك أهلاً بسبب معرفته لعلومهم ولعلوم المنطق خاصة، ولمعرفته أيض اً أمور الشرع مع ما يتميّز به من الفطنة. وأما العامة فلا يليق بهم النظر في هذه الكتب، ولا في كتب الخلاف الفقهية، ولا في علم الكلام ولا يلجوا باب التأويل لأنهم لا يستطيعون إدراك هذه المسائل، وتؤدي بهم إلى البلبلة وتشتت الفكر (وقد صدق والله).

وخلاصة نظر ابن رشد أنّ النظر في كتب القدماء لمن كان أهلاً لذلك يعتبر واجباً شرعياً، لأن هذا النظر يؤدي إلى معرفة الله سبحانه وتعالى بالبرهان ومعرفته المعرفة الحقة !! (هذا كلام فيه نظر، وقد تطورت العلوم إلى درجة رفض فلسفة أرسطو ومنطقه. ولا حاجة للناس اليوم إلى هذه الفلسفة الجوفاء. والعلوم الحديثة فيها دلائل أكثر).

ويقول ابن رشد: إن أدّى النظر البرهاني إلى نحوٍ مّا من المعرفة بموجودٍ مّا، سكت عنه الشرع فلا إشكال هناك لأنه بمنزلة ما سكت عنه من الأحكام فاستنبطها الفقيه بالقياس الشرعي، كما أنه لا إشكال فيما نطق به الشرع وجاء ظاهر النطق موافقاً لما أدّى إليه البرهان فيه. أما إذا جاء ما أدّى إليه البرهان مخالفاً لما يدلّ عليه الشرع فإن الحلّ هو التأويل: تأويل أهل البرهان لذلك الظاهر بصورة يتضح منها أنه في حقيقته لا يتعارض مع ما يؤدي إليه البرهان.

ويقول أن استخدام التأويل (المجاز) موجود في الشرع: ولهذا تؤول الأمور التي تختلف فيها الفلسفة مع ظاهر النصّ الديني. وبالتالي، لا مسوّغ لتكفير الغزالي والفقهاء الآخرون للفلاسفة في المسائل التي قرّروا تكفيرهم فيها وهي أن الله لا يعلم الجزئيات، وقدم العالم، وعدم بعث الأجساد. وأخذ ينافح عن الفلاسفة ويدافع عنهم دفاعاً مستميتاً، ولكنه لم يستطع بالفعل أن يخرجهم من الورطة التي وقعوا فيها باتّباع أقوال أرسطو وعدم الخروج عنها وتقليدها تقليداً أعمى، وهو موقف مستغرب من فقيه متضلع في الفقه، ومفكر حُرٌّ في تفكيره واتّباع أرسطو مع وضوح خطأه مستغرب من ابن رشد العلاَّمة الفيلسوف الفقيه.

(5) كتاب الأخلاق:

وهو كتاب أرسطو في الأخلاق (أي رسالته إلى نيقوماخوس) المعروف عندهم باسم نيقوماخيا. وقد فقد النصّ العربي لكتاب ابن رشد. وبقيت الترجمة اللاّتينية التي قام بها الألماني هرمن سنة 1240، ثم طبعت في البندقية سنة 1560 ضمن مجموع مؤلفات أرسطو بشرح وتعليق وتلخيص ابن رشد عليها. ويذكر ابن رشد نفسه أنه تعب في الحصول على كتاب الأخلاق لأرسطو (نيقوماخيا) والذي ترجمه حنين بن إسحاق المتوفى سنة 298هـ والذي قام بترجمة العديد من الكتب اليونانية في الطب والفلسفة والذي ولاّه المأمون دار الحكمة التي اشتهرت في العصر الذهبي للترجمة في عصر المأمون العباسي.

وأما الترجمة العبرية لكتاب ابن رشد إلى العبرية فقد قام بها صمويا ابن يهودا من مرسيليا والذي أتمّها سنة 1321 ميلادية.

وقد نشر الدكتور عبد الرحمن بدوي كتاب الأخلاق المعروف بنيقوماخيا وقام بوضع مقدمة ضافية له وتعليقات هامة.

وقد أثّرت كتب ابن رشد في فلاسفة أوروبا، وعن طريق كتبه عرفت أوروبا فلسفة أرسطو قبل أن تعرفها في مصادرها اليونانية الأصليّة. ثم أنها استفادت من شروحه وتعليقاته استفادة تامة بعد أن عثرت على النصوص اليونانية الأصلية.

وقد أثرت كتب ابن رشد خاصة في ألبير الكبير وفي الفيلسوف والعالم الإنجليزي روجر بيكون ويتجلّى ذلك في كتابه «التأليف الكبير » Mains Opus الذي وضعه سنة 1267، ونادى فيه بالمبدأ العلمي وأهمية التجربة . كما أثر ابن رشد على توما الاكويني أحد أكبر فلاسفة المسيحية في العصور الوسطى.

والخلاصة أن كتاب الأخلاق لابن رشد يتبع فلسفة أرسطو وهو أن الفضيلة وسط بين رذيلتين فالسخاء والكرم وسط بين التبذير والإسراف من جهة والبخل والتقتير من جهة أخرى، والشجاعة والإقدام وسط بين رذيلتي التهور والجبن وهكذا في كل الفضائل عموماً، يستثنى من ذلك فضيلة الصدق فهي ليست وسطاً بين الكذب والمبالغة بل هي قول الحق، كما هو.

وقسم النفس إلى ثلاث قوى: الشهوانية والغضبية والعقلية، وهو ما فصّله جالينوس ونقله عنه الأطباء والفلاسفة المسلمون كما سبق ذكره في الفصول السابقة[1] .

(1)فصل المقال : في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، مقدمة وشرح الدكتور محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيورت ط 2002/3، ص 63.

الجزء الثاني: الأخلاق في الإسلام

الفصل السابع
أهمية الأخلاق في الإسلام والتوحيد

أهمية الأخلاق في الإسلام

القرآن كله كتاب أخلاق، وسيرة الرسول المثل الأعلى في الأخلاق، وأحاديثه النبوية الشريفة توضح مكارم الأخلاق وتدعو إليها، وتبيّن مساوىء الأخلاق، وتنفّر منها.

قال تعالى : {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيْهِمْ} [البقرة/129] وهي دعوة أبونا إبراهيم ، فبعث الله محمداً بعد فترة من الرسل وانقطاع عن الهدى، هاديا وبشيراً وسراجاً منيراً. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا *وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا *وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا *} [الأحزاب /45، 46، 47] وقال تعالى {وَمَا أَرْسَ لْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ *} [الأنبياء/156] فهو الرحمة المهداة والنعمة المسداة لخلق الله أجمعين . وقد وصفه ربه بأنه على خُلُقٍ عظيم قال تعالى {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ *} [ن/ 4] وقال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَ ةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب/20] فهو المثل الأعلى لكل مسلم والقدوة الحسنة لكل مؤمن.

ورسول الله يقول : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » [1]. ومعنى هذا أن تعاليم الإسلام كلها تهدف إلى مكارم الأخلاق وتنهى عن سفسافها .. وقد دعى بقوله وفعله إلى محامد الأخلاق، ومحاسن الشيم. وقد قال «ألا أخبركم بأحبكِم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة؟ قالوا نعم يا رسول الله قال: أحسنكم خُلُقاً» [2].

وسئل أي المؤمنين أكمل إيماناً؟ قال : «أحسنهم خُلُقاً » [3]. وفي حديث أسامة بن شريك قال: «كنا جلوساً عند النبي كأنما على رؤوسنا الطير، ما يت كلّم منا متكلم، إذ جاءه أناس فقالوا: من أحبَّ عباد الله إلى الله تعالى؟ قال: أحسنهم أخلاقاً» [4].

وعن أنس: قال رسول الله : «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة، وأشرف المنازل، وإنه لضعيف العبادة. وإنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة في جهنم»[5] .

وعن عائشة قالت: «سمعت رسول الله يقول: إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم». وفي رواية عنها: «إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجات قائم الليل وصائم النهار » [6].

وروى أبو هريرة عن النبي أنه قال: «كرم المؤمن دينه، ومروءته عقله، وحسَبَهُ خُلُقَه » [7].

---

(1)أخرجه الإمام مالك في الموطأ (الحديث رقم 1723) (وأخرجه أحمد في مسنده بلفظ: إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق).
(2)أخرجه أحمد في مسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص .
(3)أخرجه الطبراني..
(4)أخرجه الطبراني.
(5)أخرجه الطبراني.
(6)أبو داود.
(7)الحاكم في المستدرك.

وروي عن أبي ذر قوله : «قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليماً، ولسانه صادقاً، ونفسه مطمئنة، وخليقته مستقيمة»[1] .

وفي مسند أحمد عن ابن عمر يرفعه إلى النبي قال : «إن المسلم المسدّد (أي الموفق) ليدرك درجة الصوّام، القوّام بآيات الله، بحسن خلقه وكرم طبيعته»[2] .

وسئل رسول الله : «أي المؤمنين أكمل إيماناً قال: أحسنهم خُلُقاً» [3]. وقال : «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُق حسن، إن الله يكره الفاحش البذيء . وإن صاحب حُسن الخُلُق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة»[4] .

وقال : «الخُلُق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الجليد الماء، والخُلُق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل»[5] وقال : «أقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم خُلُقاً»[6] .

وقد أخرج الإمام أحمد في مسنده أن رجلاً قال : «يا رسول الله : إن فلانة تذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنها تؤذي جيرا نها بلسانها فقال : هي في النار . ثم قال الرجل: يا رسول الله فلانة تذكر من قلة صلاتها وصيامها وأنها تتصدّق بالأتوار من الأقط (قطع من الجبن أو اللبن المجمد) ولا تؤذي جيرانها . قال: هي في الجنة »[7] . والتور وعاء كبير.

وقد قال رسول الله : «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن . قيل: من يا رسول الله؟ قال : الذي لا يأمن جارُهُ بوائقه»[8] .

وقال : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمتْ »[9] وقال : «أتدرون من المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصي ام، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار» [10].

وقال يحذّر من أخلاق المنافقين: «ثلاث من كُنَّ فيه فهو منافق، و إن صام وصلى وحجّ واعتمر وقال: إني مسلم: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان» [11]. وفي رواية

---

(1)أخرجه ابن حبان.
(2)مسند أحمد.
(3)أخرجه الطبراني.
(4)أخرجه أحمد في مسنده.
(5)أخرجه البيهقي.
(6)رواه ابن النجار عن علي كرَّم الله وجهه.
(7)مسند أحمد.
(8)صحيح البخاري.
(9)البخاري في صحيحه.
(10)صحيح مسلم.
(11)صحيح مسلم .

أخرى: «آية المنافق ثلاث إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر، وإن صلّى وصام وزعم أنه مسلم» .

وأخرج البخاري في صحيحه قوله : «أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[1] .

والأحاديث في الأمر بمحاسن الأخلاف والحثّ عليها والنهي عن مساوىء الأخلاق عنها كثيراً جداً. وربما نستعرض بعضها عند الحاجة لها فيما يأتي من فصول . ولكن يكفينا هاهنا هذه المجموعة المباركة من أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم.

ولا شك أن الأنبياء جميعاً قد أمروا بحسن الخُلُق ونهوا عن سؤ الخلق، ودعوا إلى مكارم الأخلاق. ولهذا قال : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (في رواية مالك في الموطأ) و «صالح الأخلاق» في رواية أحمد في المسند.

ومما يؤكد ذلك قوله : «مَثَلي ومَثَلُ الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمّها وأكملها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون لولا موضع اللبنة. فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء» [2] .

وهذا يؤكد ارتبط البشرية كلها بدين الله وبالأخلاق التي أمر بها. قال تعالى {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ *} [فاطر/ 24] وقال تعالى {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ *} [غافر/78] .

وعدد الأنبياء كبير جداً قيل مائة وأربعة وعشرين ألفاً، كما أن عدد المرسلين أكثر من ثلاثمائة. فلا تخلو أمة من الأمم إلا وقد جاءها رسول من رسل الله الكرام أو نبي من الأنبياء (لم يأت برسالة ولكنه يوحى إليه) فدلّهم على الدين القويم وعلى مكارم الأخلاق.

وقد استعرضنا في الفصول الأولى من الكتاب الأخلاق عند الأ مم السابقة من قدماء المصريين والبابليين والآشوريين والصينيين والهندوس والبوذيين والفرس واليونان وقد أكّدنا هناك على أن اتفاق البشر على أسس الأخلاق الحميدة ونهيهم عن الأخلاق الخبيثة، إنما يرجع إلى رسالات الرسل، وإلى وجود العقل الذي وهبه الله للإنسان وبه اهت دى إلى الرسالات وإلى مكارم الأخلاق وإلى الفطرة السليمة التي جعلها الله في الإنسان.

ولهذا فإن أول أساس للأخلاق في الإسلام هو العقيدة الإسلامية، وأساسها التوحيد، وثانيها الإيمان باليوم الآخر لأنه محطّ الجزاء، وثالثها تعاليم الإسلام كلها في مجال العبادات والمعاملات والأخلاق العامة.

التوحيد

---

(1)صحيح البخاري.
(2)أخرجه مسلم في صحيحه.

التوحيد: «وشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله» هي مبنى الإسلام وعليه يقوم. قال تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُ تَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ *} [محمد/19] وقال تعالى {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي *} [طه/14] وقال تعالى {اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَهُ مَا فِي ا لسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ *} [البقرة/255] . وهي أعظم آية في القرآن لأنها احتوت على معاني التوحيد وصفات البارىء سبحانه وتعالى. ومثلها سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ *اللَّهُ الصَّمَدُ *لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ *وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ *} [سورة الإخلاص] .. وهي سورة عظيمة جليلة عدلت ثلث القرآن بأكمله لما فيها من صفات البارىء سبحانه وتعالى وتوحيده.

التوحيد هو الأصل

وقد أمر الله سبحانه وتعالى جميع الرسل بأن يدعو إلى التوحيد . وكان آدم وبنوه موحّدين حتى مرَّت عشرة قرون فاجتالتهم الشياطين وأشركوا بالله سبحانه وتعالى، وهو أعظم الظلم والافتراء قال تعالى {...إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ *} [لقمان/13] وقال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ *} [الأنبياء/25] وقد استكبر أقوام أن ينصاعوا للحقّ، تماماً كما فعل إبليس من قبل فاستكبر أن يسجد لآدم عندما أمره الله تعالى بذلك قائلاً {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِ يناً *} [الإسراء/61] وقال تعالى {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ *فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ *فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ *إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ *قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ *قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ *قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ *وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ *} [ص/ 71 - 78] فأدّى هذا الكبر بإبليس أن يطرد من رحمة الله إلى أبد الآبدين وإلى أن يكيد للإنسان ما بقي الإنسان على هذا الأرض حتى ينتقم منه. قال إبليس بعد أن جاءه أمر الطرد من رب العالمين {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ *قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ *إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ *قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ *إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ *قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ *لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ *} [ص/ 79 - 85] .

الكِبْر رأس المعاصي

ولهذا فإن الكبر هو أكبر المعاصي وأسوأ الأخلاق وأردأها . قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } [غافر/60] وقال تعالى {وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا} [النساء/173] وقال تعالى {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ *بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ *} [البقرة/89، 90] وقال تعالى عن هؤلاء

اليهود الذين كانوا يهدّدون أهل المدينة بقرب مجيء نبي، وأنهم سيستأصلونهم به، فلما جاء من بني إسماعيل و كانوا يظنون أنه لا يأتي نبيّ إلا من بني إسرائيل (وهو يعقوب) بغوا وكفروا حسداً وقال تعالى للمؤمنين عنهم {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ *} [البقرة/75] . وقال عن هؤلاء اليهود ومثلهم النصارى {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [البقرة/109] وقال عنهم {يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ } [البقرة/146] وقال تعالى {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ *} [البقرة/ 105] . وقال تعالى {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [النمل/ 14] .

فهم كفروا بعد ما عرفوا الحق ولكن الكبر والحسد منعهم من ذلك. فالملأ وعلية القوم من كل فرقة وطائفة وجنسية هم أول من يكفر بالأنبياء والرسل إلا من رحم ربك، وذلك بسبب الكبر وغمط الحق . وكذلك فعلت قريش في مكة وزعماء يهود في المدينة وفي سورة الأعراف وحدها ذكر الله الملأ الكافرين من الأقوام المختلفة سبع مرات قال قوم نوح لنبيهم نوح : {قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ *} [الأعراف/60] وقال قوم عاد لنبيهم هود {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ *} [الأعراف/66] .

وقال قوم ثمود لنبيهم صالح : {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ *قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ *} [الأعراف/ 75، 76] .

وقال أهل مدين لنبيهم شعيب : {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ *قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ *وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ *} [الأعراف/88 - 90] . وفي قصة موسى وفرعون في سورة الأعراف م ل ك ق ف ث ج ة ت ء للهـ ! ! د ذ ح خ أ ؤ ء ء للهـ! ! آ ا ب إ ئ [گ ء -! ! ع غ _ . ء پـ! !ِ [الأعراف/109 - 112] .

وتكرّر ذكر هؤلاء الملأ الكفرة المستكبرين في سورة «هود» وفي سورة «يوسف» وفي سورة «المؤمنون» وفي سورة «الشعراء وسورة «النمل» وسورة «القصص» وفي سورة «ص». فالملأ من البشر في معظم أحوالهم وأمورهم مستكبرون عن الحق، رافضين له، محاربين إياه . وهم أتباع إبليس إذ سنَّ لهم سُنَّة الكبر فاتّبعوه، ورأوا أنهم أكبر من أن ينصاعوا للحقّ، وأن يتّبعوا الرسل وأتباعهم من المستضعفين حيث يقولون لنبيهم {وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ} [هود/27] كما قالوا لنوح {قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ *قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ *وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ *} [الشعراء/ 111 - 114] .

فالكبر دائماً مرتبط بالكفر، والتواضع أبداً مرتبط بالإيمان. وهذا خلق الكفار وخلق الملأ الذين استكبروا من أقوام الأنبياء والرسل . وذاك أي التواضع خلق الأنبياء وأتباعهم من الضعفاء والمساكين .. وأفراد قليلون من علية القوم أراد الله لهم الهدى كمؤمن آل فرعون وبعض الصحابة من صناديد قريش وملأهم آمنوا واتبعوا الأنبياء وتخلَّصوا من العُجب والكبر.

ومع التوحيد تأتي الطمأنينة والأمن والسكينة ومع ا لكفر يأتي الخوف والقلق والاضطراب. وفي قصة إبراهيم مع أبيه وقومه آيات بينات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ *وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ *فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ *فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ *فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ *إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّ ي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ *وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُو ا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ *} [الأنعام/ 74 - 82] .

ويبدأ المنظر بإبراهيم وهو يجادل أباه وينكر عليه اتخاذ الأصنام آلهة. ثم يتجه إلى مجادلة قومه بطريقة فذّة عجيبة. فهم كانوا يعبدون الكوكب (عشتروت وهو نفسه أشتر Aster أي كوكب الزُهرة). وهو أقرب الكواكب إلى الأرض وأشدّها تألقاً . ويسمى كوكب الصباح والمساء، إذ يظهر بعد غروب الشمس مباشرة وقبل طلوعها في الفجر. وقد عبد هذا الكوكب العديد من الأمم، في العراق مثل الكلدانيين، ومنهم قوم إبراهيم ، والبابليين والأشوريين، كما عبده أه ل اليمن القدماء، وعبده أيضاً أهل الشام، كما عبده اليونان والرومان، وسموها فينوس وهي عندهم آلهة الجمال. وعبدوا أيضاً القمر باسم (سين) وعبدوا الشمس (باسم الشمش). وهذه الثلاثة موجودة عند معظم الأمم في تثليث استقى منه النصارى فيما بعد تثليثهم . لهذا كله اتخذ إبراهيم معهم طريقة جدلية جديدة. تظاهر معهم وراقب كوكب الزهرة وهو يظهر في السماء {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ *}.. وفي الليلة ذاتها ظهر القمر وهو لا شك أكبر في رأي العين من الزُهرة وأشدُّ إضاءة منها (بينما الزهرة أكبر منه في الواقع). قال إبراهيم {...هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ *}.. وهذا أول كلام قوي لقومه . وبقي معهم حتى ظهرت الشمس بنورها الوضاء قال تعالى {فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ *}. وفي خلال أقل من 24 ساعة كان إبراهيم قد أقام الحجة على قومه بهذه الطريقة العملية الفذّة في المجادلة. وأعلن لهم براءته من الشرك كله ظاهر وباطنة، دقّه وجلّه، وكفره بهذه الكواكب والأقمار والشموس، وبهذه الأوثان التي تمثّلها على الأرض. وهذه الآلهة العديدة التي يتقرّبون إليها.

ورغم ظهور الحجّة إلا أن قومه استمروا في اللجاج {وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَآجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ *وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *} [الأنعام/ 80، 81] .

ويا لها من محاجّة، بعد أن أوضح لهم زيف ما يعبدون، لأنه لا بقاء له، وسرعان ما يأفل من جو السماء، استمروا في لجاجهم وخوّفوه آلهتهم، وأنها ستف عل به وتفعل، فكان ردّه الهادىء المطمئن كيف أخاف ما تشركون، وهي مخلوقات خلقها الله سبحانه وتعالى، وهي مسيّرة بأمره .. والسؤال ليس هو : كيف لا أخاف أنا من هذه الآلهة الزائفة؟ ولكن السؤال الحقيقي هو : كيف أنكم لا تخافون أنكم أشركتم بالله ربّ العالمين القادر على إهلاككم في طرفة عين؟ فأي الفريقين إذن أحقُّ بالأمن إن كنتم تعلمون؟ ويكون الجواب الصاعق لهم : {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ } أي بشرك {أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } [الأنعام/82] ثم قال تعالى معقباً على هذه الحادثة العجيبة التي سجّلها القرآن الكريم على مدى التاريخ والأزمنة من قبل حدوثها إلى قيام الساعة {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ *} {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِ يمَ عَلَى قَوْمِهِ... *} [الأنعام/83] .

قال بعض أهل التفسير أنه لما نزل قوله تعالى {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ *} بكى بعض صحابة رسول الله لرقّة قلوبهم وشدّة انتباههم وحساسيتهم وقا لوا: «أينّا لم يلبس إيمانه بظلم؟ » فطمأنهم رسول الله وقال : «إن الظلم المقصود هاهنا هو الشرك واستدلَّ على ذلك بقول {لُقْمَانُ لاِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } »[لقمان /13] كما جاء في القرآن الكريم . فاطمأنت نفوسهم وهدأت.

آدم أول الموحدين من البشر

والتوحيد دين الله الحق على مدى العصور السحيقة والأزمنة البعيدة .. وكل هذا الكون خاضع لله بالعبادة والتوحيد . والملائكة قد سبقوا البشر بتوحيدهم وعبادتهم وإخلاصهم لله سبحانه وتعالى . وهم ممحّضون للخير .. ثم جاء آدم وكرَّمه الله بنفخ الروح فيه .، وجعله خليفة في أرضه قال تعالى {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ... *} [البقرة/ 30 - 33] . وبهذا التشريف بالعلم والقدرة على اكتسابه جعل الله سبحانه لآدم الخلافة في الأرض، وأمر ملائكته بالسجود له. قال تعالى {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآِدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ *} [البقرة/ 34] . وطرد الله إبليس من الجنة مع أنه كان مع الملائكة معروفاً بشدّة عبادته واجتهاده، ولكن الغرور والعُجب والكِبر منعه من السجود، وقد رأى آدم وهو يُخلق من الطين فاستكبر، ولم ينظر إلى تكريم الله له بنفخ الروح من عنده وبأمره.

واحتال إبليس على آدم وأغراه بأكل الشجرة المحرّمة، {فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَ ا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى *ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى *} [طه/121، 122] .

وفي سورة الأعراف يقصّ علينا المولى سبحانه وتعالى كيف انخدع آدم وزوجته بإبليس اللعين، ولم يتصورا قط أن أحداً يحلف بالله كاذباً. وقد فعل ذلك إبليس ليصدّقاه حتى يأكلا من شجرة الخلد وملك لا يبلى، حسب زعمه الكاذب. قال تعالى {وَيَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ *فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ ا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ *وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ *فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ *قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ *قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ *قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ *} [الأعراف 19 - 25] .

وهنا يظهر فضل الله سبحانه وتعالى على آدم وزوجته حواء، فقد خلق الله آدم وأسجد له ملائكته، ولكنه خلقه ليكون في الأرض خليفة، ولم يخلقه ليبقى في السماء مع الملائكة فامتحنه الله وسلَّط عليه إبليس اللعين، وحذرّه من كذبه وألاعيبه، ولكن آدم بصفاء نفسه انغرَّ بكلام إبليس، وخاصة أنه أقسم بالله، ولم يكن آدم ولا زوجته حواء يتصوران أبداً أن أحداً يمكن أن يحلف بالله كاذباً، فانخدعا، وكانت لهما تجربة مريرة، وأخرجا من الجنة، وعانا من ذلّ المعصية، ولكن رحمة الله أدركتهما بالتوبة فتابا. {فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى *ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى *} [طه/121، 122] فكانت هذه التوبة له ولبنيه من بعده إلى أن تطلع الشمس من مغربها .. فحتى إبليس اللعين على رأسه التراب يبكي.. وكلما غوى ابن آدم وضل الطريق، لجأ إلى الله وتاب إليه فيقبله الله ويفرح بتوبته.. لهذا كانت التوبة أول الطريق إلى الله وأحبّها إليه {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة/222] .

ولا نريد أن نعلق هاهنا على قصة آدم في التوراة المحرّفة وما هو موجود عند اليهود من الأكاذيب والصفات الحقيرة التي ألصقوها (عليهم لعائن الله) برب العالمين، ولا بالنصارى الذين جعلوا خطيئة آدم أبدية في نسله. ولكن الله (نعوذ بالله من الكفر) حسب زعمهم تجسَّد ليدخل في بطن امرأة، ليخرج منها طفلاً صغيراً، يجهل كل شيء، ويتضمّخ بالقاذورات، ثم يكبر حتى إذا بلغ أشدّه أسلمه أو أسلم نفسه لأعدائه ليصلبوه ويبصقوا عليه ويصفعوه بالأحذية على وجهه، ويموت وهو يصيح (ألوي ألوي لم شبقتني) أي إلهي إلهي لم تركتني !! وهو كلام متناقض فكيف يكون ربّ العالمين؟! وكيف يدعو إلهه؟! ولا تزول هذه اللعنة التي على آدم وبنيه حتى يتحمّل عنا يسوع اللعنّة، كما قال بولس المحرّف الأكبر لدين النصرانية، فصار هو اللعنة لأنه مكتوب أن كل من عُلِّقَ علي خشبة فهو ملعون.. «فيسوع المسيح صلب وعُلِّق على خشبة وتحمل عنا اللعنة، وتحمّل عنا الخطيئة . ثم ذهب بعد أن مات في اليوم الثالث من قبره والتقى بالحواريين وصعد إلى السماء (هنا خلاف متى صعد إلى السماء هل

بعد أربعين يوماً أو أكثر أو أقل) ثم ذهب وأخرج آدم ونوح وإبراهيم وجميع الأنبياء من الجحيم، إذ كانوا جميعاً فيه بسبب خطيئة آدم.

وقد ناقشت ذلك كله من التّرهات وكلام المجانين المعتوهين في كتبي مثل: المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم والله والأنبياء في التوراة والعهد القديم ودراسات معاصرة في العهد الجديد والعقائد النصرانية (وكلها من إصدار دار القلم دمشق) فليرجع إليها القارىء إن أحبَّ.

والقضية الأخلاقية من قصة آدم هي في النقاط التالية:

(1) تكريم الله لآدم ونفخ الروح فيه وإسجاد الملائكة له وجعله خليفة في الأرض ليعمرها.

(2) عداوة إبليس له بسبب الكبر، فالكبر هو رأس الخطايا وأساس الكفر وأخبث الأخلاق . هو وما يصحبه من غرور وحقد وحسد واستعلاء على البشر ورؤية النفس.

(3) إن خطيئة آدم هي مسؤولية آدم ولا تتعدّاه إلى غيره . {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } [الأنعام/ 164] .

(4) إن التوبة باب مفتوح مباشر يصل إلى الله دون عائق، بل إن الله سبحانه وتعالى يفرح بعودة عبده بأشدّ مما يفرح إنسان كان في الصحراء وضاعت منه راحلته وعليها زاده . فلمّا يأس من العثور عليها، استلقى ليموت فنام ثم انتبه فإذا راحلته واقفة أمامه فقال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي. فأي فرحة لهذا الشخص جعلته يخطيء من شدة الفرح . والله سبحانه وتعالى أشدّ فرحاً بتوبة عبده من هذا الرجل.

عن أنس بن مالك قال رسول الله «لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضلّه في أرض فلاة» متفق عليه. وفي رواية لمسلم : «لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه و شرابه، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدّة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح».

قال تعالى {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَ طُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ *وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ *} {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا... *} [الزمر/ 53، 54] . وقال تعالى {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ *} [آل عمران/ 133 - 135] .

وموضوع التوبة ومغفرة الذنوب من أهم الأبواب الأخلاقية في الإسلام . ولا ييأس من رحمة الله إلا القوم الفاسقون وفي آية أخرى إلا القوم الكافرون . والله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب جميعاً بما فيها الشرك وقتل النفس إذا تاب العبد. وقد جاء في الصحيحين قصة الذي قتل تسعة وتسعين نفساً فذهب إلى راهب فسأله هل لي من توبة فاستعظم جريمته وقال : لا.

فقتله فكمل به المائة. ثم أراد التوبة فسأل عن أعلم أهل الأرض؟ فقصَّ عليه ما فعل، فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة . وأمره أن يخرج من أرضه فمات في الطريق فتنازعت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ثم أخذته ملائكة الرحمة رغم أنه لم يعمل خيراً قط . وإليك نص الحديث:

عن سعد بن مالك (أبي سعيد) الخدري قال رسول الله : «كان فيمن كان قبل كم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على راهب فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ فقال لا، فقتله، فكمل به المائة. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال : نعم. ومن يح ول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط . فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم (حكما). فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة «متفق عليه. وفي رواية في الصحيح » « فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها ». وفي رواية أخرى في الصحيح أيضاً : «فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقرّبي وقال: قيسوا بينهما فوجودوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له».

فهذا رجل قتل مائة نفس، ولم يعمل خيراً قط، ولكنه نوى فعل الخير، وسافر من بلد ه إلى بلاد أخرى ليفعل الخير فمات في الطريق .. وكان إلى الأرض التي هو ذاهب إليها أقرب بشبر، أو أن الله سبحانه وتعالى بفيض كرمه ورحمته أمر تلك الأرض التي هو ذاهب إليها أن تقترب. وتلك التي هو هارب منها أن تبتعد ثم أمر الملائكة فقاسوا فوجدوه إلى أرض الخير أقرب بشبر فأخذته ملائكة الرحمة.

والغريب حقاً أن يأتي جوته بعد 1200 عام من زمن النبي فيكتب قصة اشتهرت في الأدب الغربي هي قصة فاوست[1] . وخلاصتها أن الشيطان استطاع أن يغوي أستاذاً من أهل العلم في نظير أربعة وعشرين عاماً ينال فيها كل متع الدنيا . وتتفتَّق أمامه آفا ق واسعة من المعرفة الشيطانية مثل السحر والقبالة (الكابالا اليهودية) والتنجيم والقوى الخارقة . ويفعل فاوست الجرائم المتعدّدة ويغري فتاة طاهرة (مارجريت) حتى يزني بها، وثار شقيق الفتاة ضد فاوسات فقتله فاوست، ثم ذهبت المسكينة إلى الكنيسة وهي حامل فحُكم عليها با لإعدام، ويأتي فاوست ويعرض عليها الهرب من السجن. ولكنها ترفض، وتقبل أن تقتل لتطهّر نفسها من جريمة الزنا، وتموت راضية بعد أن رأت العذراء تأخذ بيدها . وينتقل فاوست بعد ذلك إلى قصر الملك ويصبح مستشاره وينقذ المملكة من الإفلاس، وذلك بإصدار نقود ورقية ليس لها غطاء مدّعياً أنها مضمونة بالكنز العظيم المدفون. فأُنقذت المملكة من الإفلاس إلى حين (نفس الوضع الحالي التي تعاني منه أمريكا والعالم). وبعد فترة تظهر الحقيقة ويثور الناس

(1)د. محمد علي البار: هل كان شاعر الألمان جوته مسلماً، مكتبة كنوز المعرفة، جدة سنة 2008م.

على الملك، ولكن فاوست يساعده على التغلب على الثورة بألاعيبه الشيطانية، واستخدام السحر والكبلا.

ويخطّط فاوست لإصلاح الأراضي البور وإعطائها للفقراء، ويستمرّ في عمله الدؤوب رغم معرفته بقرب نهايته . وكان الشيطان يستعدّ لأخذ فاوست إلى الجحيم . وعندما مات فاوست بعد انتهاء المدة (24 سنة) ظهرت مجموعة من ملائكة الرحمة واختطفت فاوست من براثن الشيطان لأنه أنهى حياته بالعزم على عمل الخير ومساعدة الناس، وإن لم يحقّق ذلك بالفعل. ثم ظهرت مرجريت التي كان فاوست قد أغواها وأشفقت عليه، ورجت الملائكة أن يرفعوا فاوست إلى الدرجة التي هي فيها، فيرفعونه ليلتقي بها في السماوات العلى.

وواضح التشابه في قصة الرجل الذي قتل مائة نفس ثم تاب فذهب إلى أرض الخير عازماً على فعل الخير والبعد عن الشر، وذلك في الحديث النبوي الشريف، وقصة فاوست التي وضعها جوته شاعر ألمانياً وأديبها وفيلسوفها في القرن التاسع عشر الميلادي (أي بعد 1200 عام من زمن النبي).. وقد أوضحت في كتابي «هل كان شاعر الألمان جوته مسلماً؟» الأدلة الكثيرة من شعر جوته ومسرحياته على حبّه للإسلام ولرسول الإسلام محمد .

وما يهمنا هاهنا الجانب الأخلاقي لهذه القصة . وهو أنه إذا تاب الإنسان ورجع إلى الله، وعزم على عمل الخير قَبَلَهُ الله، وإن لم يعمل خيراً قط، إذ تكفي النيّة الصادقة في ذلك، وتحرّك الإنسان للعمل ولو لم يتم هذا العمل . وكم من الشهداء في عهد المصطفى آمنوا وصدّقوا وخرجوا للقتال فاستشهدوا وهم لم يصلّوا لله ركعة واحدة، فقبلهم الله تعالى وجعلهم في مصاف الشهداء قال تعالى {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ *فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ *} [آل عمران/ 169 - 171] .

الحبيب عبد الله الحداد يستعرض قصة آدم نظما:

وقد أوجز الحبيب الإمام عبدالله الحداد (وفاته 1132هـ) قصة سيدنا آدم في قصيدته التائية وكيفية خلقه (وقد ورد في حديث أن الله خلقه على صورة الرحمن وهي إضافة مدرجة في حديث إن الله خلق آدم على صورته . وهو حديث صحيح ومعناه أن الله قد خلق آدم على صورته أي صورة آدم . ويؤكد ذلك الحديث الذي جاء فيه أتضربه وقد خلق الله آدم على صورته، للرجل الذي ضرب عبداً له). يتعرّض الإمام الحداد لهذه الأحاديث وينزّه الله سبحانه وتعالى عن الشبيه والمثيل وعن الصورة الحسيّة البشرية. قال الحداد:

وسرًّا خفيّا حار فيه أولى النُهى على صورة للصورة الآدميةِ

فنزّه إله العالمين وقدِّسنْ عن الصورة الحسيّة البشريةِ

وغُصْ في بحار السرّ إن كنت عارفاً بساحاته الدُّريَّة الجوهريةِ

وكن في أحاديث الصفات وآيها على مذهب الأسلاف حيثُ السلامةِ

وأشهدُ لطف الفضل في كون آدمٍ من الطين مخلوق اليدين النزيهةِ

فسوَّاه والنفخُ الكريم مُعقِّبٌ له ثم النفخ أمرٌ بسجدةِ

وإبليس لم يسجدْ فأسخط ربَّهُ وحلَّتْ من مقته شرُّ لعنةِ

لذلك فاحتال الصفّي وزوجهِ بحيلته في حين كانا بجنّةِ

وقال كُلا من شجرة النهي مُطمِعاً له ولها في الخُلدِ والملكيّةِ

فلمّا ألمّا بالخطيئة أُهبطا من الجنّة العليا إلى دار وحشةِ

وحلَّ بهم كرب عظيمٌ وحسرةٌ وحزنٌ مقيمٌ في انقطاع وغُربةِ

إلى أن تلقَّى آدم من إلهه من الكلمات الموجبات لتوبةِ

فتاب عليه واجتباه وخصَّهُ وأكرمه فضلاً بأمر الخلافةِ

ولله در الإمام الحداد فقد لخَّص قصة آدم كلها وما ورد فيها في هذه الأبيات القليلات الجميلات، فرَحِمَهُ الله رحمة الأبرار وأجزل مثوبته، ونفعنا بعلومه.

كلمة التوحيد ومعناها

وسننتقل فيما يأتي فصولاً مما جاء في كتاب سيدي وشيخي الحبيب العلامة الداعية إلى الله أحمد مشهور بن طه الحداد في كتابه الهام «مفتاح الجنّة»[1] .

«لا إله إلا الله»: جملة جليلة في معناها، مختصرة في مبناها، عظيمة في أثرها، مشرَّفة في قدرها، مشرقة في نورها، فريدة في فضلها. أربع كلمات بها قامت الملّة، وعليها وضعت القبلة، وبها جاء كل كتاب أنزله الله على كل رسول من رسله الكرام، وبها النجاة من النيران، والفوز بالنعيم الخالد في الجنان، قال تعالى : {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ }[2] {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي}[3] {اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ }[4] {اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى *}[5] {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ *}[6] .

وبصحة الاعتقاد واليقين بمعناها، والإذعان به، يتحقق الإيمان . وعلى أساس النطق بها صدقاً والعمل بمقتضاها حقاً، يقوم الإسلام.

وبالجمع بين صحة الاعتقاد والاستسلام لحكمها والانقياد، تشرق في القلوب حقيقة الإحسان.

---

(1)مفتاح الجنة للحبيب أحمد مشهور الحداد، إصدار دار الحاوي، سنة 1995م/ 1416هـ وتقديم الشيخ حسنين مخلوف المفتي الأسبق للديار المصرية وترجمة للمصنف مع تخريج الأحاديث للدكتور مصطفى بدوي.

(2)محمد ، آية: 19.

(3)طه، آية: 14.

(4)البقرة، آية: 255.

(5)طه، آية: 8.

(6)الأنبياء، آية: 25.

وكما تسمى كلمة التوح يد تسمى : «كلمةَ الشَّهادة » و«كلمةَ الإخْلاَص » و«كلمةَ الحقَّ » و«كلمةَ الصِّدق » و«كلمةَ العهدْ » و«كلمةَ الإيمان » و«كلمةَ التَّقْوَى » و«لكلمةَ الطيِّبة » و«الكلمةَ البَاقِية» و«كلمةَ الله العُلْيا» و«كلمةَ الشَّفاعِة» و«ثَمَنَ الجَّنة» و «مفْتَاحَ الجَنَّة».

وهي أول ما يدخل به العبدُ في دين الإسلام وآخرُ ما يخرجُ به من الدنيا إلى الجنة والنعيم المقيم، كما في حديث: «من كان آخر كلامه في الدنيا لا إله إلا الله، دخل الجنة »[1] فهي أول واجب وآخر واجب.

فمن قالها موقناً بها ومات مصرًّا عليها سعد بدخول الجنة كما في ال حديث، ومن استكبر عنها جحوداً أو إشراكاً دخل النار وبئس القرار {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ }[2] {وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا}[3] {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ}[4].

ومعنى (لا إله إلا الله) لا معبود بحق إلا الله، و «الله» علم على الذات الأقدس، الواجب الوجود، المتصف بجميع صفات الكمال والجلال، المنزّه عن جميع سمات الحدوث، وعن الشريك والنظير والمثال، وعما لا يليق بمجده وعظمته من الصفات والأحوال، فهو الإله الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، لا إله إلا هو سبحانه لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

العلم الباحث في معناها وأدلَّتها

ويندرج كل هذا الذي ذكرناه إجمالاً، وما ذكره أئمة علم التوحيد في كتبهم تفصيلاً في معنى هذه الكلمة المشرفة.

وقد تكفلتْ ببيان ذلك كله وإثباته بالبراهين القطعية آياتُ الذِّكر ا لحكيم وأحاديثُ النبيّ الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، ومنهما استمدَّ علماء فن التوحيد مباحثه في باب الإلهيات والنبوات والسمعيات، وأفاضوا في ذلك إفاضة تشفي الصدور وتملأ القلوب بالنور، وسموه (علم التوحيد) و(علم العقائد) و(علم أصول الدين).

ولهذا العلم الصدارة في ميدان العلوم وعليه المعوَّل، وبنوره اهتدى المؤمنون ومن معينه ارتوى العارفون. وهو وعلوم التفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والتصوف من العلوم الشرعية التي لا يستغني عنها طلاب العلم والعرفان . ومَنْ عَلِمَ القَدْرَ الواجبَ معرفته منها كان على بَيِّنةٍ من أمره، وبصيرةٍ في دينه، وكان من الفالحين.

ولا شك أن أساس ذلك كله معرفةُ الواحد الأحد جلَّ جلاله، واليقينُ بوحدانيته وسائر صفاته العليَّة وأسمائه الحُسْنَى، وبتنزُّهه عما لا يليق بجلاله . وهذه المعرفة هي الغاية القصوى والمنهل الأصفى ويُعَبّرُ عنها برسوخ الإيمان في القلب.

---

(1)رواه أبو داود والحاكم وأحمد، عن معاذ بن جبل.
(2)غافر، آية: 60.
(3)النساء، آية: 173.
(4)المائدة، آية: 72.

والإيمان نور يقذفه الله في قلب عبده، تشرق به زجاجته فيرى ما شاء الله أن يرى من مكنونات العلوم والأسرار، كأنه عَيانُ ومشاهدة، فينشأ ـ عن ذلك ـ التَّبَتُّلُ إلى الله تعالى، والإخلاص له، والطمأنينة بذِكْرِه، والخوفُ منه، والرجاء فيه، والتحلّي با لأخلاق الكريمة، والتخلّي عن الصفات الذميمة، والإقبال على الطاعات، والانكفاف عن المعاصي والسيئات، والفوز بقربه تعالى ورضاه، وتلك هي السعادة العظمى .

قلتُ: «ولا شك أن التوحيد هو أساس الإيمان الصحيح وهو أيضاً منبع كل خير وكل خلق رضي، والبعد عن كل شر وكل خلق رديء».

الإله الحقّ هو الله وحده

والإله الحق هو الله تعالى الواجب الوجود، الخالق البارىء المصوِّر الرزّاق المحيي المميت المدبر الحكيم، الذي أحسن كل شيء خلقه، وأبدع كل شيء صنعه، وأحكم كل أمر دبَّره، وقضى كل شيء قدَّره، فهو وحده الإله الحق الأزلي الأبدي، المستحق للعبادة ظاهراً وباطناً، المنزّه عن كل نقص، له الصفات العليا والأسماءُ الحسنى والعظمة والجلال، لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، ولا إله سواه {إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ }[1] {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}[2] {...هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}[3] {يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ }[4] {هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ *}[5]{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ *}[6] .

إفتقارُ الكائنات كلِّها إلى الله

وجميع الكائنات تنادي على نفسها بالعجز والافتقار إلى الله تعالى القويِّ القادر في وجودها وبقائها وجميع شؤونها، وتشهد بلسان حالها أنه تعالى الإله الحق رب العالمين ، لا شريك له في أُلوهيته وربوبيته، ولا في صفاته وأفعاله، ولا في الخلق والإيجاد، ولا في الإحكام والتدبير، بل الله وحده هو الخالق والمهيمن والقادر والمدبِّر والفاعلُ المُخْتَارُ الحكيم، جلَّتْ قدرتُه، وعَظُمَتْ مِنَّتُه، وسَمَتْ حكمتهُ، ودلَّت عليها صنعتهُ ا لقائمة على نواميس محكمة وأحكام مقدَّرة، والتي أبدعها كلها بيد قدرته على أتم حال، وأكمل نظام. فمصنوعاته الفاخرة، ومخلوقاته الباهرة، ومبدعاته الزاهرة التي ملأ بها أرضه وسمواته ناطقة بقدرته ووحدانيته وعظمته وجلاله وعلمه القديم، شاهدة له سبحانه بالتدبير الحكيم.

وقد أحسن من قال:

فَوَاعَجَباً كيف يُعصَى الإِلَهُ أَمْ كيفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ

---

(1)النساء، آية: 171.
(2)المؤمنون، آية: 116.
(3)فاطر، آية: 3.
(4)السجدة، آية: 5.
(5)يونس، آية: 56.
(6)البقرة، آية: 117.

وَلِلَّهُ في كُلِّ تحرِيكةٍ وتَسْكينَةٍ أَثَرٌ شَاهِدُ

وَفِي كُلِّ شيءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

وهذه الآيةُ الدَّالةُ على وحدانيته هي وجودُ كل شيءٍ على حالةٍ تؤذن بالافتقار ـ وجوداً وبقاءً ـ إلى من صنعه على تلك الهيئة، وفطَرَهُ على تلك الفطرة التي تجري على أحسن تقدير، لم تتشعب به إرادات مختلفة، قال تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ *}[1] وقال: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ *}[2] وقال: {قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً *}[3].

دلالة الكائنات على القدرة الإلَهية

ولقد أثبت العلم الصحيح والبراهين القاطعة أن الكون كله، علويَّ وسفليه، ناطقه وصامته، مترابط الأجزاء، متناسق التركيب، متفاعل القوى لو انحرفت ذرة واحدة منه عن سنَنها ـ الذي رسم لها والذي خلقت لأجله ـ قيد شعرة لاختل نظام العالم، وتناثر عقد إحكامه، ووقعت السموات على الأرض ! فالعوالم كلها لا تزال وستظل متماسكة مترابطة متجاذبة، تؤدي وظائفها التي خلقت لأجلها على أتم نظام وتدبير وإحكام إلى الوقت الموعود.

فمَن الخالق لكل ذلك؟ ومن هو واهب هذه القوى العظيمة؟ ومن هو المحرك للأفلاك في السموات، والمجري لها في مداراتها، والحافظ لسيرها ونظامها، والقائم بتدبيرها منذ وجد العالم، ومن الممسك للسموات أن تقع على الأرض؟ ومَن هو المجري للفُلك في البحار وللسحاب في الأجواء، والمدبر للكائنات الأرضية كلها، والحفيظ على ما اشتملت عليه السموات والأرض من أفلاك ونجوم نيِّرات، وأمم مختلفة الأجناس واللغات والطبائع، ومصنوعات بديعة الصنع محكمة التدبير تؤدي وظائفها بإحكام طوال الدهور ! أليس هو الله رب العالمين، العليم القدير المدبر الحكيم، مالك الملك كله بلا شريك ولا معين {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ}[4] {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا *}[5] {لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ *}[6] {...وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ *}[7] {ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}[8] لا إله إلا هو سبحانه.

---

(1)الأنبياء، آية: 22.
(2)المؤمنون، آية: 91.
(3)الإسراء، آية: 42.
(4)الحج، آية: 65.
(5)فاطر، آية: 41.
(6)يس، آية: 40.
(7)البقرة، آية: 255.
(8)يس، آية: 38.

وكذلك أودع الله تعالى في الإنسان والحيوان من سرِّ الحياة والتكوين ما لا يقدر عليه سواه. وإذا حاول أمهر المصوِّرين والصانعين محاكاة شيء منهما فلن يكون إلا في الصورة فقط. أما بَعْثُ الحياة والاستعداد للنمو والحركة فلن يستطيعه أحد من الخلق، وإنما هو الله وحده سبحانه {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً *}[1].

وكذلك جميع الخواص والمنافع التي أودعها الله تعالى في مخلوقاته كما علم وأراد، لن يستطيع أحد من الخلق إيجاد خاصة منها لشيء لم يرد الله أن تكون له : {أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ *أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُونَ *نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ *}[2] {أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ *} فهل للشركاء الذين أقامهم المشركون للعبادة من دون الله قدرة على شيء من ذلك؟ كلا، بل هو الله العزيز الحكيم، لا رب سواه ولا معبود إلا إياه.

كلمة التوحيد وحقها على العباد

اعلم أيها الأخ أن جميع العلوم الدينية ووسائلها ترجع إلى شرح هذه الكلمة المشرفة، وبيان حقها على العباد، وما يتبعه من أمور العبادات والمعاملات، إعتقاداً وقولاً وعملاً، وقد تقدم شرح معناها.

أما حقها فاعلم أنه التصديق بمعناها تصديقاً يقينياً، والإقرار بها إقراراً صادقاً، والخضوع للألوهية خضوعاً كاملاً بالتزام العبادة والطاعة، والانقياد لجميع الأوامر والنواهي . فيشترك في القيام بحقها القلب واللسان والجوارح. وهي في جملتها ميثاق بين العبد وربِّه على القيام بحقها، والتزامٌ من العبد بذلك ـ ما دام في الدنيا ـ طمعاً في النجاة والفوز في الآخرة إذا أوْفَى به.

وقد قيل لوهب بن منبه: أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟ قال: بلى، ولكن لكل مفتاح أسنان لا يفتح إلا بها. ومن أسنانه: لسان طاهر من الكذب والغيبة، وقلب خاشع طاهر من الحسد والخيانة، طاهر من الحرام والشبهة وجوارح مشغولة بالخدمة طاهرة من الآثام {...وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا *}[3]فمن صدَّق بها بجنانه وأقرَّ بها بلسانه وقام بموجَبها بجوارحه، سعد في دنياه وآخرته وكان مؤمناً حقاً ومسلماً صدقاً ومن لم يصدق بها بقلبه فهو كافر مخلّد في النار. ومن صدق بها بقلبه وأقرَّ بها بلسانه ولكنه لم يقم بموجَبها بجوارحه فهو مؤمن عاصٍ يعذَّب على عصيانه ما شاء الله أن يعذِّب، ولا يخلَّد في النار.

ومن ثمرات التصديق القلبي والإقرار اللساني بهذه الكلمة المشرفة أن العبدلو عاش طول عمره جاحداً وحدانية الرب تعالى وعظمته وجلاله وقدرته، يعبد الصنم ويخضع للوثن، ثم قالها مؤمناً مقرّاً بها، عصم ماله ودمه، وخرج من ذنوبه وآثامه كيوم ولدته أمه، لأن الإسلام يجُبُّ ما قبله، والتوبة تمحو الذنوب.

---

(1)الإسراء، آية: 85.

(2)الواقعة، الآيات: 71، 73.

(3)الفتح، آية: 10.

توقف الإسلام على الجمع بين الشهادتين

إن جميع الأحكام المترتبة على هذه الكلمة الطيبة في الدنيا والآخرة لا يظفر بها إلا من جمع بين الشهادة بها والشهادة بالنبوة والرسالة لخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. فمن أقر بشهادة التوحيد لله تعالى، وأنكر الشهادة بالرسالة له صلى الله عليه وآله وسلم، فليس من أهل التوحيد، بل هو كافر بالله كالذي ينكر التوحيد، مكذب لخبر الله عن رسوله ولأمره بالشهادة له بالرسالة وبطاعته واتّباعه وسلوك طريقه، وتحذيره تعالى من مخالفة أمره. قال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ} [1]وقال تعالى : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا }[2] { إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا }[3] {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول }[4] {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي } [5]{فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[6] إلى غير ذلك من الآيات في هذا الباب.

ولا تتم الشهادة بالرسالة لمحمد حتى يعتقد عمومها إلى كافة الخلق من العرب والعجم والإنس والجن، قال تعالى : {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ *} [7]وقال تعالى : {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا}[8] وقال تعالى: {قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [9]فمن نفى عموم رسالته أو قال إنه رسول إلى العرب خاصة فقد كفر، لما سمعتَ من الآيات الصريحة بعمومها . وقال : «بُعِثْتُ إلى النَّاس كافةً »[10] وكاتب ملوك العالم يدعوهم إلى الإسلام ما أمكنه التبليغ.

وانتشرت دعوة الإسلام في كافة أنحاء الدنيا، ومختلف أُممها من أنواع البشر ، وأقبلت عليه برغبات صادقة وقلوب واعية.

أثر التوحيد وكلمته المشرفة

إن التوحيد أعظم النعم وأنفعها في الدنيا والآخرة. فعلى من أنعم الله عليه به أن يعرف قدر تلك النعمة، ويسعى في حفظها ورعايتها، ودوام الشكر عليها، والاغتباط بها . وأن يجتهد في تقوية توحيده بملازمة الأخلاق الحسنة والأعمال الصالحة، التي هي فروع التوحيد، وثمرات الإيمان، مع اجتناب أضداد ذلك من الأخلاق السيئة والمعاصي.

---

(1)الفتح، آية: 29.
(2)البقرة، آية: 143.
(3)الأحزاب، الآيتان: 45، 46.
(4)النساء، آية: 59.
(5)آل عمران، آية: 31.
(6)النور، آية: 63.
(7)الأنبياء، آية: 107.
(8)سبأ، آية: 28.
(9)الأعراف، آية: 158.
(10)رواه الطبراني عن السائب بن يزيد، والبيهقي عن أبي أمامة.

وفي الحديث: «لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مؤمن»[1] والمعاصي بريد الكفر. وعند فقد فقد التوحيد والإيمان لا ينفع شيء من الأعمال، ولو كان عمل الأولين والآخرين. وحيث بقي مع الإنسان توحيده وإيمانه، فإنه لا يخلد في النار، بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرّة من إيمان.

وإن للشهادتين أثراً عظيماً في تهذيب النفوس وتقويم الأخلاق [2]، وتقوية الرابطة الاجتماعية. فإن في شهادة أن لا إله إلا الله تحريراً للعقول من الأوهام، وتطهيراً للنفوس من أدران الشرك، وسمُوًّا بها من حضيض العبودية لغير الله تعالى، ومن الانحطاط إلى رذيلة عبادة الأصنام والحيوان والإنسان. وبها جمعُ القلوب على معبود واحد، وتوجيه الوجوه إلى قبلة واحدة . ولهذا التوحيد أثره الطيب في جمع القلوب و تعاون بني الإنسان على الخير والصلاح . كما أن في شهادة أن محمداً رسول الله، والإيمان برسالته وكتابه القويم تقويةً للأخلاق، وإصلاحاً للنفوس، وأسوة حسنة في جميع الشؤون.

فهاتان الكلمتان هما كنز المؤمن ورأس ماله، ومرجع سعادته في الدنيا والآخرة، لمن تحقق بمقتضاهما، واستنار بسناهما فيما يلزمه من جانب التوحيد، والتعلق بالجناب الأقدس، واستلهام واردات إمداداته والتعرض لنفحات وصلة وَصِلاَته، وفيما يلزمه من جانب الإتِّبَاع لرسوله الأكرم العروة الوثقى والأسوة الحسنة في سائر المعاملات الدينية والدنيوية، وفي صلاح المعاش والمعاد والقلب والقالب والفرد والمجموع. فعلى قطب هاتين الشهادتين يدور صلاح بني الإنسان في الدارين.

واعلم أن لهذه الكلمة المشرفة شطرين: أحدهما نفي وهو قولك: لا إله؛ والآخر إثبات وهو قولك: إلا الله. فإذا صدر النفي معقَّباً بالإثبات فمعناه من المسلم تقرير التوحيد في القلب بهذه الكلمة الشريفة المنافي للشرك الأكبر الذي يقدح في أصل الإيمان، ويتأكد بتكرارها قلباً ولساناً. قال : «جددوا إيمانكم بلا إله إلا الله»[3] ، والمنافي أيضاً للشرك الأصغر، وهو الرياء الرياء في العبادة، وحب التعاظم على الخلق، والاستعلاء عليهم وغير ذلك من كل عمل يلاحظ فيه العامل نظر الناس، ويشتهي ثناءهم وتعظيمهم والمنزلة عندهم . وفي الخبر : «الشرك في أمتي أخفى من دبيب النمل»[4]

وهذا الشرك الأصغر لا يقدح في أصل الإيمان الذي يدور عليه أمر النجاة، ولكن يقدح في كماله، فكلمة لا إله إلا الله تنفي الشرك الأكبر والأصغر عن الناطق بها المخلص اعتقاداً وعملاً . وفي تقديم النفي وهو : لا إله، تخلية للقلب عن تلك الخفايا والأدران، ثم تحليته وعمارته بأنوار التوحيد والإيمان بذلك الإثبات وهو: إلا الله ـ فلا جرم أن في ملازمة الذكر وتكريره حصولَ تصفية الفؤاد وتطهيره وتزكيته من ال شوائب وتنويره، وتوفر الحسنات

(1)رواه مسلم والترمذي وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(2)إن مجرد التزام الإنسان بالشهادتين يضع عنه الأوزار وسيء الأخلاق مثل الكبر والعجب والحسد ويتحول إلى التواضع والأخبات، ويتوب من الذنوب ويدع الظلم والتجبر وأكل أموال الناس بالباطل، ويمتنع عن الربا والزنا وشرب الخمور وفعل الموبقات، ويدع الكذب والغش والخداع ويلتزم الصدق والأمانة والنصيحة، ويحبّ لأخيه ما يحب لنفسه.
(3) . رواه أحمد عن أبي هريرة
(4)رواه الحاكم وأبو نعيم في (الحلية)، عن علي ، والحكيم الترمذي في (نوادر الأصول) عن ابن عباس.

بأعداد الذكر، كل تهليلة بحسنة، ومضاعفة الواحد بعشرة إلى أضعاف كثيرة . فإذا لاحظ الذاكر أنها آية من القرآن وقَصَدَ القراءة مع الذِّكر، كُتِبَ له ثواب التلاوة.

ومن لطائف الإشارة أن كلمة الشهادة حروفها جوفية ليس فيها شيء من الحروف الشفهية.. للإشارة إلى الإتيان بها من خالص الجوف، وهو القلب، لا من الشفتين . وأنه ليس فيها حرف معجم، بل مجردة من النقط، إشارة إلى التجرد من كل معبود سوى الله، وأنّ (لا إله إلا الله محمد رسول الله) سبع كلمات، وللعبد سبعة أعضاء، وللنار سبعة أبواب، فكل كلمة من هذه السبع تغلق باباً من الأبواب السبعة عن كل عضو من الأعضاء السبعة.

فضائل الكلمة المشرفة

ويحسن أن نشير هنا إلى طرائف من فضائل تلك الكلمة الشريفة، وما في ذكرها من اللطائف والأسرار المنيفة، فمن ذلك ما صح عن النبي ، أنه قال : «من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله، دخل الجنة» [1].

وقال : «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم، وكأَني بهم وقد خرجوا من قبورهم، ينفضون التراب عن رؤُوسهم، يقولون : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور»[2] .

وقال : «أفضل الذكر: لا إله إلا الله» [3].

وقال : «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله» [4].

وقال فيما يرويه عن ربه: «إنى أنا الله لا إله إلا أنا، من أقرَّ لي بالتوحيد دخل حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي»[5] .

وقال : «جددوا إيمانكم. قالوا. وكيف نجدد إيماننا؟ قال: أكثروا من قول لا إله إلا الله»[6] .

وقال : «سبحان الله نصف الميزان، والحمد لله تملؤه، ولا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب»[7] .

وقال : «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن عيسى عبدالله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان منه من العمل »[8] .

---

(1) رواه أبو داود واحمد والحاكم ، عن معاذ بن جبل .
(2)رواه الطبراني والبيهقي في (شعب الإيمان) عن ابن عمر
(3).رواه النسائي وابن ماجه وابن حيان والحاكم، عن جابر
(4) . رواه الترمذي
(5).رواه الشيرازي وابن النجار، عن عليٍّ كرَّم الله وجهه
(6).رواه أحمد، عن أبي هريرة
(7) . رواه الترمذي، عن عبدالله بن عمر
(8)رواه البخاري ومسلم، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

وفي رواية لمسلم: «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار » [1].

وقال : «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة». قيل: يا رسول الله وما إخلاصها؟ قال : «أن تحجزه عن محارم الله»[2] .

وقال «لقِّنوا موتاكم لا إله إلا الله، فإنها تهدم ما كان قبلها من الخطايا» [3].

وقال لمعاذ: «يا معاذ، ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صادقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار» [4].

وقال : «إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»[5] .

وقال لأبي هريرة : «اذهب، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبُه فبشره بالجنة»[6] .

وجاء أعرابي إلى النبي فقال : «يا رسول الله، ما الموجِبتان؟ » قال : «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله دخل النار»[7] .

وجاء أن موسى قال: «يا رب علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك » قال : «يا موسى، قل : لا إله إلا الله» قال: «يا رب، كل عبادك يقولون هذا » قال : «يا موسى لو أن السموات السبع وَعامرهن والأرضين السبع في كِفَّة، ولا إله إلا الله في كفة، لَمالَتْ لا إله إلا الله»[8] .

وقال لمعاذ بن جبل: «أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟ » قلت : «الله ورسوله أعلم» قال : «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به » فقلت : «يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ » قال : «لا تبشِّرهم فيتَّكِلُوا»[9] .

وقال : «أتاني جبريل فقال: بشِّر أمتك أن من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة . قلت : يا جبريل، وإن سرق، وإن زنى؟ قال : نعم . قلت : وإن سرق، وإن زنى؟ قال : نعم، قلت وإن سرق، وإن زنى؟ قال: نعم، وإن شرب الخمر»[10] . قلتُ: ولا يعني هذا أنه لن يحاسب على أعماله. بل سيحاسب على ذلك، ولكنه إن لم يغفر الله له، وحوسب، فإنه سيدخل النار، ولكنه

---

(1)رواه مسلم والترمذي وأحمد، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.
(2)رواه الطبراني، عن زيد بن أرقم.
(3)رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، عن أبي سعيد الخدري.
(4)رواه البخاري ومسلم، عن معاذ بن جبل.
(5)رواه البخاري ومسلم، عن عثمان بن مالك. ورواه الأربعة عن أبي هريرة.
(6)رواه مسلم، عن أبي هريرة.
(7)رواه الديلمي، عن جابر.
(8)رواه النسائي وابن حيان والحاكم، عن أبي سعيد الخدري.
(9)رواه البخاري ومسلم، عن معاذ بن جبل.
(10)رواه الترمذي والنسائي وأحمد، عن أبي ذرّ.

لا يخلّد في النار أبداً ما دام مؤمناً بالله موحّداً له. مخلصاً في توحيده وعبادته. ويخرج الله من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وهذا هو قول أهل الإسلام قاطبة ما عدا الخوارج الذين يرون أن مرتكب الكبيرة مخلّد في النار لنصوص فهموها فهماً خاطئاً، ولم يجمعوا بين النصوص حتى يفهموها على وجهها الصحيح. وأما المعتزلة فقد جعلوا مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين، أي منزلة ما بين الإيمان والكفر . وكل هذه الفرق متّفقة أنه إذا تاب تاب الله عليه وغفر ذنبه وستر عي به . ولكنهم اختلفوا فيمن مات وهو مرتكب للكبيرة، ولم يتب منها، فهو عند الخوارج مخلَّد في النار، وعند المعتزلة في منزلة بين المنزلتين، وعند أهل الحق من السنة والجماعة أنه لا يخلّد في النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

الفصل الثامن
التوحيد في سورة الفاتحة
وقبسات من الإمام ابن القيم

التوحيد في سورة الفاتحة

وقبسات من كلام الإمام ابن القيم

قال الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه «مدارج السالكين» وهو يتحدث عن سورة الفاتحة [1]:

[1]: «التوحيد نوعان : نوع في العلم والاعتقاد ونوع في الإرادة والقصد . ويسمى الأول : التوحيد العلمي، والثاني: التوحيد القصدي الإرادي، لتعلّق الأول بالأخبار والمعرفة، والثاني بالقصد والإرادة. وهذا الثاني أيضاً نوعان: توحيد في الربوبيّة وتوحيد في الإلهية، فهذه ثلاثة أنواع.

«فأما توحيد العلم: فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه والمثال . والتنزيه عن العيوب والنقائص . وقد دلّ على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه والمثال . والتنزيه عن العيوب والنقائص، شيئان: مجمل ومفصل. أما المجمل فإثبات الحمد له سبحانه . وأما المفصّل فذكر صفة الألوهية والربوبية والرحمة والملك . وعلى هذه الأربع مدار الأسماء والصفات». (انتهى) [وهو قوله تعالى الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين].

ثم فصّل رحمه الله في ذلك وأن الحمد يتضمن مدح الممدوح بصفات كماله ونعوت جلاله مع محبته والرضا عنه، والخضوع له. فلا يكون حامداً من جحد صفات المح مود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له... ولهذا كان الحمد لله حمداً لا يحصيه سواه، لكمال صفاته وكثرتها (وفي الحديث أنت كما أثنيت على نفسك لا نحصي ثناء عليك). ولهذا لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، لما له من صفات الكمال ونعوت الجلال التي لا يحصيها سواه...

وإنما الحمد في الأولى والآخرة لمن له صفات الكمال ونعوت الجلال التي لأجلها استحق الحمد ... وتوحيده تعالى إثبات صفات كماله وتنزيهه عن الشبيه والمثيل واتخاذ الولد والزوجة» انتهى كلام ابن القيم.

والقرآن كله كتاب توحيد ودعوة له ومجادلة أنواع المشركين. قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ *اللَّهُ الصَمَدُ *لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ *وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ *} [سورة الإخلاص] .

وقال تعالى {قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ *} [يونس/ 68] .

وقال تعالى {أَلاَ إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ *وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ *} [الصافات 151 152] .

وقال عزّ من قائل {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْ لُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَلاَ

(1)مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين للإمام ابن القيم (وفاته 751هـ) دار الكتاب العربي، بيروت 1974 ج24/1 فصل في اشتمال هذه السورة (أي الفاتحة) على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً *} [النساء/171] .

وقال تعالى {وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ *} [البقرة/ 116] .

وقال تعالى {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ *بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ *لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَ بْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ *} [الأنعام/ 100 - 103] .

وفي سورة مريم بعد أن قصّ الله سبحانه وتعالى ولادة مريم لعيسى تكلم في المهد قائلاً {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا *وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا *وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا *وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا *ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ *مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ *وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ *} [مريم/30 - 36] .

وردَّ الله على النصارى في أكثر من سورة وآية في تأليههم للمسيح قال تعالى {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ ... * وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ ...} [النساء / 171، 172] ،

وفي سورة آل عمران قصّ الله سبحانه وتعالى قصة مولد عيسى من غير أب وتكريمه لأمه حتى جعلها خير نساء العالمين، وقص معجزات عيسى الباهرة ثم قال لبني إسرائيل {إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ *} {إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ... *} [آل عمران/ 51] ثم ردّ الله على وفد نجران النصارى زعمهم بألوهية عيسى لأنه ولد من غير أب فقال عزّ من قائل {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ *الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ *} [آل عمران/59، 60] فلما أبوا أن يقرّوا بذلك أمر الله نبيه ومصطفاه محمداً بأن يباهلهم فأبوا ونكصوا عن المباهلة لمعرفتهم الحق وقول كبيرهم لهم إن باهلتم هذا الوجوه هلكتم عن بكرة أبيكم، فصالحوه على دفع الجزية.

قال تعالى {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ *} [آل عمران/61] ثم قال لهم سبحانه وتعالى {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ *} [آل عمران/64] . ثم قال لهم عزَّ من قائل {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ *وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ *} [آل عمران/79، 80] .

وقال تعالى يخاطب النصارى بفرقهم المختلفة بأنهم كفروا بتأليههم عيسى قال تعالى {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِ ينَ مِنْ أَنْصَارٍ *لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّ ا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ *قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ *} [المائدة/ 72 - 77] .

وقد جمع الله في هذه الآيات فرق النصارى فمنهم من قال إن الله هو المسيح بن مريم ومنهم من قال أن الله ثالث ثلاثة. وهم في ذلك قد تبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل، وكثير من الأمم السابقة للنصرانية جاؤوا بعقيدة التثليث (وقد ناقشت ذلك بتفصيل في كتابي دراسات في العهد الجديد والعقائد النصرانية المعاصرة) فضلّوا وأضلّوا، وساروا هم على طريقتهم ونهجهم. ومنهم فرقة اندثرت كانوا يعبدون المسيح وأمه مريم وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم قال تعالى {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ *مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَ لَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ *} [المائدة/116 - 117] .

وهذه الفرقة كانت تسمّى المريميّة، وكانوا يعبدون مريم ويسوع، وأكثر أتباع هذه الفرقة من النساء ثم اندثرت. ولكن الكاثوليك والأرثوذكس يرفعون مقام مريم إلى مصاف الألوهية . وهي التي تخرج من شاءت من الجحيم وتدخله الجنّة. ولها الأوثان والأصنام في كل كنائسهم ومعابدهم. أما البروتستانت فيرون ذلك كله شركاً بالله وكفراً به.

وسيطول بنا المقام جداً لو تتبعنا الآيات الكريمات التي فيها الرد على من جعل لله ولداً قال تعالى {قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَانَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً *وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا *} [الإسراء/110، 111] وتأتي نهاية سورة الإسراء لتبدأ سورة الكهف أيضاً بتنزيه الله سبحانه وتعالى عن الشريك والولد قال تعالى {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا *قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَناً *مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا *وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا *مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا *} [الكهف/ 1 - 5] .

وفي سورة مريم يقرّع المولى سبحانه وتعالى الذين قالوا اتخذ الرحمن ولدا قال تعالى : {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَدًا *لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا *تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ

وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا *أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَانِ وَلَدًا *وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَانِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا *إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَانِ عَبْدًا *لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا *وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا *} [مريم / 88 - 95] . وقد اهتزت السموات وكادت تتفطّر وتتهاوى لهذه القولة المنكرة (اتخذ الرحمن ولدا) ومادت الأرض وكادت أن تنشق، وها هي الجبال تكاد تخرّ هدًّا بسبب هذه القولة المنكرة البغيضة. ولولا حلم الله وصبره لوقع بهم ذلك كله . ولكنه يؤجلهم ليوم لا ريب فيه. حين يأتي كل واحد منهم يوم القيامة فرداً، فيجازيه على ما قال وعمل.

ومن المشركين من جعل لله بناتٍ يعبدونهم ويشركون الله في عبادتهم. قال تعالى {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ *بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *} [الأنعام/ 100، 101] .

وقال تعالى {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ *وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ *يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ *لِلَّذِينَ لاَ يؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *} [النحل/ 57 - 60] .

وما أسخف عقول هؤلاء العرب المشركين الذين جعلوا لله البنات، وهم أنفسهم يحتقرون البنات. وإذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم - لا يدري أيدسها في التراب؟ أم يبقى على الهوان والذلّ لأن الأنثى عندهم مصدر الذل والمهانة فهي لا تقاتل، ويمكن أن تؤسر وتسترقّ كما يمكن أن تجلب له العار. قال تعالى معقّباً على ذلك كله {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ *} [النحل/ 62] .

ويقول ساخراً منهم في سورة الصافات : {فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ *أَمْ خَلَقْنَا الْمَلاَئِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ *أَلاَ إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ *وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ *أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينِ *مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ *أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ *} [الصافات/ 149 - 155] .

فقد ادّعوا كذباً وبهتاناً أن الملائكة هم بنات الله فأكذبهم الله. وسخر منهم كيف يقولون هذا القول وهم يحتقرون الإناث فكيف يصطفي الله البنات على البنين وهم يعتزون بالبنين !! (ما لكم كيف تحكمون؟ أفلا تذكّرون).. وتنهار بذلك كل مقولاتهم المعوجة التافهة الحقيرة.

فسبحان من لا ندّ له ولا شريك ولا صاحبة ولا ولداً . وما أجمل كلام ابن القيم في كلامه على اسم الجلالة «الله». حيث يقول في كتابه مدارج السالكين [1] : «فاسم الله دالٌ على جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا بالدلالات الثلاث.

فإنّه دالٌّ على إلهيته المتضمّنة لثبوت صفات الإلهية مع نفي أضدادها . وصفات الإلهية هي صفات الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص . ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم كقوله تعالى {وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ

(1)مدارج السالكين لابن القيم ج32/1.

بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ } [الأعراف/ 180] ويقال «الرحمن والرحيم والقدوس والسلام والعزيز والحكيم »[1] من أسماء الله ولا يقال الله من أسماء الرحمن ولا من أسماء العزيز ونحو ذلك.

«فعلم أن اسمه «الله» مستلزم لجم يع معاني الأسماء الحسنى، والدَّالُ عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها اسم الله . واسم الله دال على كونه مألوهاً معبوداً، تتألهه الخلائق محبّة وتعظيماً وخضوعاً وفزعاً إليه من الحوائج والنوائب. وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الحمد. وإلاهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات الكمال، إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي ولا سميع ولا بصير ولا قادر ولا متكلم ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله.

«وصفات الجلال والجمال أخَصُّ باسم الله. وصفات الفعل والقدرة، والتفرّد بالضرّ والنفع، والعطاء والمنع، ونفوذ المشيئة، وكمال القوة، وتدبير أمر الخليقة، أخصُّ باسم الربّ.

«وصفات الإحسان والجود والبرّ والحنان والمنّة والرأفة واللطف أخصُّ باسم الرحمن .. فالرحمن: الذي الرحمة وصفه والرحيم: الراحم لعباده . ولهذا يقول تعالى {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب/ 43] وقال تعالى {إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة/117] .

ولم يجيء رحمان بعباده، ولا رحمان بالمؤمنين، مع ما في اسم «الرحمن» الذي على وزن فعلان من سعة هذا الوصف وثبوت جميع معناه الموصوف به . ألا ترى أنهم يقو لون غضبان للمتليء غضبا، وندمان، وحيران، وسكران ولهفان، لمن مُلىء بذلك، فبناء فعلان للسعة والشمول.

ولذا يقرن استواءه على العرش بهذا الاسم كثيراً كقوله تعالى {الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى *} [طه/5] وقوله {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَانُ } [الفرقان/59] فاستوى على عرشه باسم الرحمن، لأن العرش محيط بالمخلوقات وقد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم كما قال تعالى {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } [الأعراف/ 156] فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات. فلذلك وسعت رحمته كل شيء . وفي الصحيح من ح ديث أبي هريرة قال قال رسول الله «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده موضوع على العرش: إن رحمتي تغلب غضبي»[2] وفي لفظ فهو عنده على العرش» .

«فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة، ووضعه عنده على العرش وطابق ذلك بين قوله {الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى *} وقوله {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَانُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا } ينفتح لك باب عظيم من معرفة الربّ تبارك وتعالى، إن لم يغلقه عنك التعطيل والتجهّم (نسبة إلى فرقة الجهمية).

---

(1)يشير إلى قوله تعالى {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ *هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْ مَانُ الرَّحِيمُ *هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ *هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِىءُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *} [الحشر/21 - 24].

(2)وفي رواية أخرى «إن رحمتي سبقت غضبي فلله ما أوسع رحمته وأشملها وأعظمها!!».

«وصفات العدل والقبض والبسط والخفض والرفع، والعطاء والمنع، والاعزاز والإذلال، والقهر والحكم. ونحوها أخص باسم «الملك» وخصَّه بيوم الدين، وهو الجزاء بالعدل، لتفرّده بالحكم فيه وحده، ولأنه اليوم الحق، وما قبله كساعة، ولأن الغاية وأيام الدنيا مراحل إليه».

ويقول ابن القيم[1] :

«وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة وهي الله، الربُّ والرحمن، كيف نشأ عنها الخلق والأمر والثواب والعقاب؟ وكيف جمعت الخلق وفرّقتهم؟ فلها الجمع والفرق.

فاسم الربُّ له الجمع الجامع لجميع المخلوقات. فهو ربُّ كل شيء وخالقه، والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته. وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته وتحت قهره، فاجتمعوا بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الإلهية، فألَّهه وحده السعداء، وأقرُّوا له طوعاً بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي لا تنبغي العبادة والتوكل، والرجاء والخوف، والحبُّ والإنابة والإخبات والخشية والتذلّل والخضوع إلا له.

«وهنا افترق الناس، وصاروا فريقين : فريقاً مشركين في السعير، وفريقاً موحدين في الجنة. فالإلهية هي التي فرَّقتهم، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم . فالدين والشرع، والأمر والنهي، مظهره وقيامه، من صفة الإلهية . والخلق والإيجاد والتدبير والفعل، من صفة الربوبية . والجزاء بالثواب والعقا ب والجنة والنار من صفة الملك . وهو ملك يوم الدين . فأمرهم بإلهيته، وأعانهم ووفقهم وهداهم، وأضلهم، بربوبيته، وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله . وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفكّ عن الأخرى.

«وأما الرحمة فهي التعلّق، والسبب الذي بين الله وعباده . فالتأليه منهم له، والر بوبية منه لهم، والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم . وبها أسلكهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم، فبينه وبينهم سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة. واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته فـ {الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى *} مطابق لقوله {رَبِّ الْعَالَمِينَ » الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ } ، فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها، أقصى شمول الرحمة وسعتها، فوسع كل شيء برحمته وربوبيته، مع أن في كونه ربًّا للعالمين ما يدلُّ على عل وه على خلقه، وكونه فوق كل شيء.

شفاء القلوب والأبدان

ويوضح ابن القيم اشتمال الفاتحة على الشفائين : شفاء القلوب وشفاء الأبدان فيقول [2] :

«فأما اشتمالها على شفاء القلوب فإنها اشتملت عليه أتمَّ اشتمال، فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم وفساد القصد. ويترتب عليها داءان قاتلان وهما الضلال

---

(1)ابن القيم: مدارج السالكين ج34/1 - 35.

(2)ابن القيم: مدارج السالكين ج52/1 - 55.

والغضب [1]. فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب نتيجة فساد القصد . وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها. فهداية الصراط المستقيم تتضمّن الشفاء من مرض الضلال، ولذلك كان سؤال هذه الهداية أفرض دعاء كل عبد (أي أهم دعاء لكل عبد ولذا يقولها في كل ركعة إهدنا الصراط المستقيم.. وهي على الأقل سبعة عشرة ركعة كل يوم)، وأوجبه عليه كل يوم وكل ليلة، في كل صلاة، لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة . ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه.

والتحقق بـ{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ *} علماً ومعرفة وعملاً وحالاً يتضمّن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد، فإن فساد القصد يتعلّق بالغايات والوسائل فمن طلب غاية منقطعة مضمحلّة فانية، وتوّسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة لها كان كلا نوعي قصده فاسداً . وهذا شأن كل غاية مطلوبة غير الله وعبوديته من المشركين، ومبتغي الشهوات الذين لا غاية لهم وراءها، وأصحاب الرياسات المُتَّبعين لإقامة رئاستهم بأي طريق كان من حقٍّ أو باطل . فإذا جاء الحقُّ معارضاً في طريق رئاستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في ا لطريق، وح ادوا عنه إلى طرق أخرى . وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان، فإذا لم يجدوا منه بُدًّا أعطوه السكة (شعار النقود) والخطبة (ذكر اسم الخليفة في الخطبة) وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ، وإن جاء الحقُّ ناصراً لهم وكان لهم، صالوا به وجالوا وأتوا إليه مذعنين، لا لأنه الحقّ، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم وانتصارهم به {وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ *وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ *أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ *} [النور/48 - 50] .

«والمقصود أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم . وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها، واضمحلت وفنيت، حصلوا على أعظم الخسران والحسرات . وهم أعظم الناس ندامة وتحسرا إذا حقّ الحقُّ وبطل الباطل، وتقطّعت بهم أسباب الوصل التي كانت بينهم، وتيقّنوا انقطاعهم عن ركب الفلاح والسعادة. وهذا يظهر كثيراً في الدنيا، ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله . ويشتدّ ظهوره وتحقّقه في البرزخ . وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء إذا حقَّت الحقائق، وفاز المحقّون وخسر المبطلون، وعلموا أنهم كانوا كاذبين، وكانوا مخدوعين مغرورين..

«وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه، بل توسل بوسيلة ظنها موصلة إليه، وهي من أعظم القواطع عنه، فحاله أيضاً كحال هذا. وكلاهما فاسد القصد. ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ *}.

فإن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء

(1) عبودية الله لا غيره.

(2) بأمره وشرعه.

---

(1)المقصود بالغضب هو غضب الله عليهم عندما ذكر المولى المغضوب عليهم . وليس المقصود هاهنا القوة الغضبية البشرية. وجمع الضلال والغضب في قوله تعالى {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}.

(3) لا بالهوى.

(4) ولا بآراء الرجال وأوضاعهم ورسومهم وأفكارهم.

(5) الاستعانة على عبوديته به.

(6) لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره.

فهذه أجزاء {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ *} فإذا ركبها الطبيب اللطيف العالم بالمرض واستعملها المريض حصل بها الشفاء التام . وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها، أو اثنين أو أكثر.

«ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولا بدّ، وهما الرياء والكبر، فدواء الرياء بـ {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} ودواء الكبر بـ {...وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ *}... فإذا عوفي من مرض الرياء بـ {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} ومن مرض الكبرياء والعجب بـ {...وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ *}، ومن مرض الضلال والجهل بـ {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ *} عُوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في أثواب العافية، وتمّتْ عليه النعمة، وكان من المنعم عليهم {...غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ}، وهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحقّ وعدلوا عنه [وأعظم مثل فيهم اليهود]. {...الضَّالِّينَ *}. وهم أهل فساد العلم الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه [وأعظم مثل فيهم النصارى الذين جعلوا الله ثالث ثلاثة أو فرقة الذين قالوا إن الله هو المسيح عيسى ابن مريم] [1]. انتهى كلام ابن القيم من مدارج السالكين.

وما يهمنا هنا هو شفاء القلوب لارتباطه بموضوع كتابنا وهو الأخلاق. فقد وضع ابن القيم كلاماً نفيساً في أمراض القلوب وأن مدار اعتلال القلوب على فساد العلم وفساد القصد . فإذا فسد العلم وانسدّ طريقه واستبدل بالأوهام والخرافات كما حدث للنصارى وغيرهم من الأمم، ولم يعرفوا الطريق إلى الله وضلّوا السبيل، فكانوا من الضالّين، وعبدوا غير الله حيث أشركوا معه عبداً من عباده أو مخلوقاً من مخلوقاته . وهكذا جميع أصناف المشركين بالله، وإن كان توجههم في الأساس إلى الله لكنهم انحرفوا بسبب فساد العلم والضلال والهوى حتى أشركوا مع الله غيره.

وأما أصحاب فساد القصد، فهم قد عرفوا الحقّ ولكنهم جعلوا قصدهم الدنيا الفانية واشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً . فذلك قصد فاسد أشدُّ ضرراً ممّن ضلَّ السبيل . وليس من أراد الحقّ فأخطأه بسبب هواه، كمن عرف الحقَّ وحاربه لدنيا يريدها ومركز يبلغه وهوى يتّبعه . وأظهر ما يكون هذا النوع في اليهود، والقرآن الكريم مليء بالشواهد في استعراض أخلاق يهود. وقد استعرضنا ما جاء في القرآن (أو بعض ما جاء في القرآن) عنهم في فصل خاص سابق، ولا حاجة لإعادته هاهنا.

ولم يكتف ابن القيم بذلك . ولكنه عمّ ذلك على كل من كان قصده فاسداً، غير الله، وعبوديته من المشركين، ومتّبعي الشهوات، الذين لا غاية لهم وراءها، وأصحاب الرئاسات المتّبعين لإقامة رئاستهم بأي طريق كان من حق أو باطل. فإذا جاء الحقّ معارضاً في طريق

(1)ما بين المعقوفتين هو من كلامي وليس من كلام ابن القيم.

رئاستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم. وهذا كلام شديد في الأمراء وأصحاب السلطة إذ جمعهم مع اليهود أصحاب المقاصد الخبيثة .. وكيف أنهم رغم إدعائهم الإسلام وتمسّكهم بمظاهره من السكّة (العملة النقدية باسم الخليفة) أو الخطبة باسمه، فإنهم لا يهتمّون إلا بأمر لرئاستهم وسلطتهم، فإذا كان الحقُّ معارضاً لما هم فيه طحنوه طحناً إن استطاعوا، فإن لم يستطيعوا ذلك قاموا بالمناورات وتظاهروا بالتوافق معه بالكلام، وفعلوا ما يريدون . وهو أمر ظاهر، بل أشد ظهوراً في زماننا هذا.

ولهذا شدَّد ابن القيم عليهم النكير وقال: «إن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم . ولا شكَّ أنهم أعظم الناس ندامة وتحسُّرا إذا حقَّ الحقُّ وبطل الباطل، وأول ما يكون ذلك عند معاينة الموت، ويزداد في البرزخ وضوحاً، ويتجلّى لهم كأعظم ما يكون يوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون، عندما يؤتى أحدهم كتابه بشماله. قال تعالى {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ *وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ *يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ *مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ *هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ *خُذُوهُ فَغُلُّوهُ *ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ *ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ *إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ *وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ *فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ *وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ *لاَ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ *} [الحاقة/ 25 - 27] .

وقال تعالى {يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ *إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ *} [الشعراء/ 88 - 89] وهؤلاء قد أتوا الله بقلوب مريضة سقيمة مليئة بكل النجاسات والرجاسات والحقد والحسد والكبر، وحبّ الدنيا فكيف تفتح لهم أبواب السموات؟ أم كيف تأتي هم نسائم الرحمة وهم قد أوصدوا على قلوبهم كل منافذ الخير وجعلوها ممحّضة للشر فلا ريب تكون حسرتهم يومئذ عظيمة وكربهم لا نهاية له.

ابن القيم في مدارج السالكين يصف التحقق بإيّاك نعبد

قال ابن القيم في مدارج السالكين [(1)] : «لا يكون العبد متحقّقاً بإيّاك نعبد إلا بأصلين عظيمين (أحدهما): متابعة الرسول . و(الثاني) الإخلاص للمعبود».

وقد قسمهم إلى عدة أقسام (أولهم): أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة، وهم أهم «إياك نعبد» حقيقة، فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبّهم لله، وبغضهم لله فمعاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده، لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكوراً، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة والمنزلة في قلوبهم، ولا هرباً من ذمهم، بل قد عدّوا الناس بمنزلة أصحاب القبور لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً . فالعمل لأجل الناس، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجائهم للضّر والنفع منهم لا يكون من عارف بهم البتّة، بل من جاهل بشأنهم وجاهل بربه ... ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه وحبّه وبغضه، ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم » [انتهى كلام ابن القيم] .

---

(1)مدارج السالكين لابن القيم ج83/1 باختصار.

وقد قال تعالى لنبيه ومصطفاه: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ *} [الأنعام/162 - 163] .. وهي دعاء افتتاح الصلاة.. وأمرها أمر عظيم فقد جعل الله الصلاة والنسك (الحج والذبح) والحياة والموت كلها خالصة لله وحده لا شريك له. وقد كانت حياة الرسول محمد تطبيقاً كاملاً لهذه الآية الشريفة.

وعباد الله المخلصون هم الذين أخلصوا دينهم لله على ما جاء به محمد ، قال الفضيل بن عياض : «العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً، ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص ما كان لله سبحانه وتعالى والصواب ما كان على هدي محمد .

أفضل العبادات الزهد

وأفضل العبادات الزهد في الدنيا وإن ملكها بيده فالزهد في القلب والثقة بما عند الله، وعدم التطلع إلى ما عند الناس، فهو يملكها ولا تملكه. والمقصود هو عكوف القلب على الله، وجمع الهمّة عليه، وتفريغ القلب لمحبّته، والإنابة إليه والتوكّل عليه، والاشتغال بمرضاته سبحانه وتعالى، فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية على لله، ودوام ذكره بالقلب واللسان، والاشتغال بمراقبته دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له... وإذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه ولو فرَّقهم وأذهب جمعيتهم، كما يقول ابن القيم [1].

اختلاف أنواع العبادات

ومن هؤلاء العبّاد من رأى أن أفضل العبادات ما كان فيه نفع للآخرين فرأوا أن مساعدة الفقراء والمرضى والمحتاجين والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل، مع التواضع والاخبات وعدم رؤية الفضل لأنفسهم، بل يرون الفضل لله سبحانه وتعالى ثم لهؤلاء الذين أتاحوا لهم أن يُحسنوا إليهم. وهم كما قال الشاعر : «كأنك تعطيه الذي أنت سائله » ويروون الأحاديث الكثيرة في فضل عمل الخير لخلق الله أجمعين، ولا يقتصرون في رفدهم وبرّهم وخيرهم على صديق أو قريب ، بل يعمّون به البشر أجمعين ـ ولا شكّ أن ذي الرحم مقدّم على البعيد، والجار مقدم على نائي الدار، والمسلم مقدّم على الكافر، ولكنهم لا يمنعون رفدهم من كافر غير محارب لله ورسوله ويستدلّون على ذلك بقوله تعالى {لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ *إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ *} [الممتحنة/8، 9] .

فهم رحمة لخلق الله أجمعين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، إلا من كان محارباً لله ورسوله وللمؤمنين. كما فعلت قريش في عهد النبي ، حيث أخرجوا المسلمين من ديارهم وأموالهم، وعذّبوهم على دينهم. وكما فعلت وتفعل يهود حيث أخرجوا المسلمين من وطنهم فلسطين،

(1)ابن القيم: مدارج السالكين ج86/1.

وعذّبوهم وقتلوهم وشرَّدوهم، وظاهروا على إخراجهم فكيف يكون معهم سلام، وهم مصرّون على ارتكاب جريمة أكبر من أختها كل يوم وكل حين.

وهؤلاء الرحماء الأتقياء لا يقصرون رحمتهم على بني البشر، يل يتعدّونه إلى الحيوانات البكماء فلا يحملّونها فوق طاقتها، ويحسنون إليها عند مرضها وتعبها، ويقومون بمداواتها . وقد دخلت بغي من بني إسرائيل الجنَّة بسبب سقيها الماء لكلب عطشان كان يطيف بالبئر التي شربت منها فأخرجت موقها (خُفّها) وملأته وسقته، فشكر الله لها وأدخلها الجنة . وأدخل الله النار امرأة في هرة حبستها، لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، فماتت، فغضب الله عليها وأدخلها النار.

والآيات والأحاديث في هذا الباب تملأ كتاباً أو كتباً.

نشر العلم

ومن هؤلاء قوم آلوا على أنفسهم تعليم الناس أمور دينهم على هُدى وبصيرة وإخلاص . وهؤلاء مثل الغيث الهطّال يُحي النفوس من جهلها وبُعدها عن الله، فأي فضل أعظم من هذا الفضل، وأي عبادة بعد المفروضات والمكتوبات أعظم من هذه العبادة. وقد ورد في الحديث أن «فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر ا لكواكب». وفي رواية «كفضلي (أي فضل رسول الله) على أدناكم». فأي فضل أعظم من هذا الفضل . وقد قال رسول الله «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمر النعم ». وقال صلوات ربي وسلامه عليه «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعّه من غير أن ينقص من أج ورهم شيء» وقوله : «إن الله وملائكته يصلّون على معلّمي الناس الخير » وقوله : «إن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في البحر، والنملة في جحرها ».. وعمل العابد ينتهي بوفاته وأما عمل العالم وعلمه فيبقى على مرّ الدهور. وما نقلناه آنفاً هو من كلام ابن القيم في كتابه مدارج السالكين. ومثله في كتاب العلم من إحياء علوم الدين للإمام الغزالي .

ترتيب الأوقات

ومن هؤلاء العبّاد العلماء الزهاد العاملين لنفع الأمة وخلق الله (حتى الحيوانات) بكل ما يستطيعون، ولكنهم يقسّمون أوقاتهم، ويحافظون عليها محافظة شديدة، ولا تظهر بركة الوقت إلا بمثل هذه المحافظة الشديدة.. وقد كانوا رحمهم الله المثل الأعلى في المحافظة على الأوقات وعدِّ الأنفاس، وحرصهم الشديد ألا يكون نَفَسٌ في غير طاعة الله، وخدمة الناس، والإخلاص في السرّ والعلن لمولاهم. ولذلك قالوا (نقلاً عن ابن الق يم في مدارج السالكين): «إن أفضل العبادة، العمل على مرضاة الربِّ في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته، فأفضل العبادات في وقت الجهاد، الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار.. والأفضل وقت حضور الضيف مثلاً القيام بحقّه، والاشتغال به عن ا لورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل . (وفي الحديث إن لبدنك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً ولزورك عليك حقاً فآتي كل ذي حقّ حقَّه). والأفضل في الأسحار الاشتغال بالصلاة وقراءة القرآن والدعاء والذكر والاستغفار.. وفي أوقات الصلوات الخمس المبادرة

إلى أدائها جماعة على أكمل الوجوه مع حضور القلب وعدم الاشتغال، ولو فكراً بغيرها أثناء أدائها... وهكذا».

والأفضل لمعلّمي الناس الخير الاختلاط بالناس والصبر على أذاهم مع حفظ حقوقهم بردّ السلام، وتشميت العاطس، وزيارة المريض، واتّباع الجنائز، والتقرّب إليهم بكل ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، على قدر الوسع والطاقة، مراعياً حقوق الأهل والوالدين، والأقربين، والجيران، وذوي الأرحام، وحقوق المسلمين ثم حقوق أهل الذمّة.

والخلاصة كما قال ابن القيم [1] «فالأفضل في كل وقت وحال إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال . والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه . وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق.. وصاحب التعبّد المطلق ليس له غرض في تعبّد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبّع مرضاة الله تعالى أين كانت، فمدار تعبّده عليها. فهو لا يزال متنقّلاً في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى. فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره. فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العبّاد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدّقين المحسنين رأيته معهم، وإن رأيت أرباب الجمعيّة وعكوف القلب على الله رأيته معهم، فهذا هو العبد المطلق الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيّده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات[2] ، بل هو على مراد ربّه، ولو كانت راحة نفسه ولذّتها في سواه. فهذا هو المتحقّق بـ{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ *} حقّاً، القائم بهما صدقاً . ملبسه ما تهيأ ومأكله ما تيسّر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى بالمكان ووجده خالياً، لا تملكه إشارة، ولا يتعبّده قيد، ولا يستولي عليه رسم . حُرٌّ مجرّد، دائر مع الأمر يحث دار، يدين بدين الآمر أنّى توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه، يأنس به كلُّ مُحقّ، ويستوحش منه كلُّ مُبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلّها منفعة حتى شوكها. وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله، فهو لله وبالله ومع الله. قد صحب الله بلا خَلْق، وصحب الناس بلا نفس، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين وتخلّى عنهم. وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلّى عنها . فواها له !! وما أغربه بين الناس !! وما أشدَّ وحشته منهم !! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به وطمأنينته وسكونه إليه».

وقد اختصّ الله سبحانه وتعالى عباداً له على هذه الدرجة في زمن رسول الله . وكان الخير كثيراً في آل بيته وصحابته الكرام النجباء. ثم ظهر في زمن التابعين عدد مبارك على هذه الشاكلة... وهكذا في كل زمن إلا أن عددهم يقلّ مع كثرة البغي وسوء الزمان . لكنهم لم يُعدموا قطّ فهم رحمة الله التي لا تنقطع، وهم الطائفة التي على الحق ظاهرين إلى قيام الساعة لا يضرّهم من خالفهم. ففي كل عصر منهم طائفة، قلّوا أو كثروا، ظهروا أو استتروا. ولكنهم موجودون. وهم أولياء الله العاملين الذين لا تخلو منهم الدنيا إلى قرب قيام الساعة،

(1)ابن القيم: مدارج السالكين ج89/1، 90.

(2)كانوا يلتذّون بالعبادة وبالصلاة والرسول يقول: أرحنا بها يا بلال، فكانوا يجدون روحهم وراحتهم في الصلاة، والدعاء والذكر والاستغفار رضي الله عنهم.

فلا تقوم إلا على لكع ابن لكع، وكافر ابن كافر كما أخبرنا بذلك من لا ينطق عن الهوى صلوات ربي وسلامه عليه.

وصف بلفقيه لعباد الرحمن:

وقد قال الحبيب العلامة عبدالرحمن بن عبدالله بلفقيه (1089 - 1162هـ) في منظومته المعروفة باسم الرشفات:

يقول قوم عن هداهم ضلّوا قد عُدموا في عصرنا أو قلّوا

فقل لهم كلا ولكن جلّوا عن أن تراهم أعين الجهّالِ

فكيف يخلو عالم الشهادة عنهم وهم فيه الهداة القادة

قد حفظ الله بهم عباده وصانهم في سائر الأحوالِ

فهم لفيض فضله شعوبُ [1] تحيا بهم بنوره القلوب

وتغفرُ الزلات والذنوبُ وتدفع الآفات في الأهوالِ

وهم لفيض الله سبحانه وتعالى كالشعوب الممتلئة بالمياه فتحيا بها البلاد، وتبنت الكلأ والعشب. كما في الحديث الشريف: «مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيّبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا. وأصاب طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مَثَلُ من فقه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به فعلم وعمل، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسله به» [2].

وصف الحداد لهم

وقد وصف الحبيب الإمام عبدالله الحداد في قصيدته التائية جماعات المؤمنين القانتين بأنواعهم فمنهم من يحبُّ الاعتزال عن الناس ويؤثر الخمول والبعد عن الشهرة، ومنهم رجال يؤثرون السياحة في الفيافي والقفار، ومنهم رجال الدعوة إلى الله، وهم أفضل القوم:

ومنهم رجال ظاهرون بأمره لإرشاد هذا الخلق نهج الطريقةِ

لهم همّةٍ في دعوة الخلق جملةً إلى الله عن نصحٍ ولطفٍ ورحمةِ

فهم حُجَّةٌ للمؤمنين بربّهم وفيهم لمرتاد الهدى خيرُ قُدوةِ

وحتفٌ على أهل الضلال وحُجَّةٌ تقوم على أهل الشقاقِ بشقوةِ

(1)المقصود بشعوب هنا: شِعب الجبل الذي يمتلأ بالماء من السيول المتدفقة فينفع الله بها العباد والبلاد وشعوب ج شِعب.
(2)أخرجه البخاري في صحيحه كتاب العلم، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، ومسند أحمد ج399/4.

وكلٌّ على نهج السبيل السويّ لن يخالف أمراً آخذاً بالشريعةِ
وإن الذي لا يتبع الشرع مطلقاً على كل حالٍ عبدُ نفسٍ وشهوةِ
صريعُ هوى يُبكى عليه لأنه هو المَيْتُ ليس الميتُ مَيْتَ الطَبيعةِ
وما في طريق القوم بدءاً ولا انتهاء مخالفة للشرع فاسمعْ وأنصتِ
وخلِّ مقالات الذين تخبّطوا ولا تكُ إلا معّ كتابٍ وسُنَّةٍ
فثَمَّ الهدى والنور والأمن من ردى من بدعةٍ تُخشى وزيغٍ وفتنةِ
ومتّبعوا حكم الكتاب وسُنَّةٍ هم المفلحون الفائزون بجنّةِ
عليهم من الرحمن رضوانه الذي هو النعمة العظمى وأكبر مِنَّةِ
ومن حاد عن علم الكتاب وسُنَّةٍ فبشِّرهُ في الدنيا بخزي وذلّةِ
وبشِّرهُ في العُقبى بسكنى جهنمٍ وحرمانِ جنات الخلود ورؤيةِ

ما جاء في الرشفات للعلامة عبد الرحمن بلفقيه من وصف فئاتهم:

وقد وصفهم على اختلاف مشاربهم السيد العلامة الشاعر عبد الرحمن ابن عبدالله بلفقيه في منظومته «الرشفات» فمنه م من تبتّل وأكثر من العبادات والصيام والقيام والأدعية والأوراد والقرآن ومنهم من قضى جُلَّ وقته في العلم والتعليم وإرشاد الخلق، ومنهم من قام مقاماً باهراً بالشرع وأظهر أحكامه حتى استوت على سوقه شجرته وأغصانه.

قال رضي الله عنه:

وبعضهم قد جرّد اجتهاده لربِّه في الصوم والعباده
ملازماً في عمره أوراده موزّعاً في الوقت باستعمالِ
وبعضهم في العلم والتعليمِ والجمع في التأليف والتفهيمِ
مجتهداً في دينه القويمِ فحلَّ ما قد حلَّ من إشكالِ
وبعضهم قام مقاماً باهرْ وأظهر الأحكام في الظواهرْ
بالشرع فيها آمرٌ وقاهرْ حتى استوت مناهجُ العُمَّالِ
وبعضهم في حفظ أمر الدينِ عن كيد ذي جحدٍ وذي مينِ
بنور برهان الهدى مبينِ عن المراء يغنيه والجدالِ
وبعضهم أقيم في الأسبابِ قضى بها بأحسن الآدابِ
وانتظر الافضال من وهَّابِ أقامَهُ في الكسب والعيالِ
فأفضل العبدية الإقامةْ بما له مولاه قد أقامهْ
على هُدى بأحسن استقامهْ بكل ما يرضي من امتثالِ

أي أن أفضل أحوال العبد أن يختار ما اختاره الله مما يتوائم مع مواهبه، فمن أعطاه الله لساناً في الدعوة، أقيم في مجال الدعوة، ومن أعطاه الله علماً نافعاً جليلاً، قضى أوقاته الشريفة في تعليم العباد، ومن فتح الله له في العبادة والأوراد وقراءة القرآن عمل بما فتح الله به عليه، ومن يسَّر له الكتابة والذود عن دين الله من كل معاند وكافر ومبتدع كان مقامه ما أقامه الله فيه ـ وهكذا بشرط الإخلاص لله سبحانه وتعالى في جميع ما يفعل على ما جاءت به الشريعة الغراء.

وفي جميع الأحوال هو متمسك بالشريعة وبالأخلاق السنيّة الرفيعة. قال العلاّمة بلفقيه في الرشفات:

وأجمعوا أن ليس من وصولِ إلا بحفظ الشرع والأصولِ

وكنس سرِّ السرِّ عن فضولِ ليستعدَّ القلبُ للأفضالِ

والشرط تطهير صفاتُ النفسِ من كل طبع ناقص ورجسِ

لينجلي في كل وصف قدسي ويعتلي في طلعة الكمالِ

ومن الواجب عليه بعد الالتزام بالشريعة ممثّلة في الكتاب والسنّة، وما أجمعت عليه الأمة، والاهتداء بهدي صاحب الرسالة صلوات ربي وسلامه عليه، والتمسك بأهداب الدين، وأن يزيل الأوضار والقاذورات من قلبه وسرِّه (وهو ما يعرف بالتخلّي، أي التخلّي عن جميع الأخلاق المذمومة) (ليستعد القلب للأفضال) أي أنه إذا صفّى القلب من الكدورات استعدّ لقبول الهبات والرحمات من ذي الفضل والإفضال . وفي الحديث الصحيح «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله . ألا وهي القلب » والقلب موضع نظر الرب وفي الحديث «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» [أخرجه البخاري] .

لهذا كان من الواجب المتعيّن على كل مسلم مكلّف أن يسعى في تطهير صفات نفسه عن الرذائل والخبائث كالحسد والبخل، والرياء والعُجب والكبر، وجميع الصفات المذ مومة التي تقدح في الإيمان، وتخالف دون ريب مقام عباد الرحمن. فلا بدَّ إذن من تطهير النفس من كل طبع ناقص ورجس (وهو التخلّي عن الصفات المرذولة) ليتمّ له التحلّي بالصفات الطاهرة القُدسيّة. وكما قال الناظم:

لينجلي كل وصف قدسي ويعتلي في طلعة الجمالِ

ثم يقول الناظم:

وأنه لا باب للسعادةْ إلا اتباع العلم والعبادةْ

مع العبودةِ والزهادةْ والجدِّ في الأعمال والأحوالِ

ولا يتمنّى على الله الأماني.

الفصل التاسع
المثل الكامل وحديث الولي

المثل الكامل وحديث الولي

حديث الولي في صحيح البخاري وشرح ابن حجر العسقلاني له

هذا الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق في باب التواضع . وهو من الأحاديث القدسية وهو ما كان لفظه من عند الرسول ، ومعناه من عند الله بالإلهام أو بالمنام، دون واسطة جبريل ، وأضافه الرسول إلى الربِّ ، ورواه عنه، وليس منظوراً في نظمه الإعجاز. أما سائر أحاديثه غير القُدسية، فلم يُضِفْها إلى الله تعالى ولم يروها عنه [1] . وقال الشوكاني عنه: «هذا من الأحاديث القُدسيّة، وهو يحتمل أن يكون مما تلَقّاه ، عن ربِّه بلا واسطة، ويحتمل أن يكون مما تلقّاه بواسطة الملك [2]وقد أخرج الحديث أيضاً الإمام أحمد في مسنده ج256/6.

نصُّ الحديث: عن أبي هريرة قال، قال رسول الله : «إن الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّبَ إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليّ مما افترضته عليه . وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه . وما تردّدت عن شيء أنا فاعله تردّدي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مسارته».

قال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري [3]:

«قوله (من عادى لي ولياً) : المراد بولي الله العالم بالله المواظب على طاعته، المخلص في عبادته... ولا أرى المعنى إلا أنه عاداه (أي الولي) من أجل ولايته على طريق الحسد.

قال ابن حجر: ووقع في حديث عائشة: «من عادى لي وليّاً » وفي رواية أحمد : من آذى لي ولياً فقد استحلّ محاربتي .. وفي حديث معاذ : فقد بارز الله بالمحاربة . وفي رواية البخاري: فقد آذنته بالحرب.

«قال الفاكهاني: هذا تهديد شديد، لأنه من حاربه الله أهلكه، وهو من المجاز البليغ، لأن من كره من أحبّ الله خالف الله، ومن خالف الله عانده، ومن عانده أهلكه... وقال الطوفي: لما كان ولي الله من تولى الله بالطاعة والتقوى تولاه الله بالحفظ والنصرة... فمن عاداه كان كمن حاربه، ومن حاربه فكأنه حارب الله».

قوله (وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبَّ (وبالرفع أيضاً) إليّ مما افترضته عليه). «ويدخل في هذا اللفظ جميع فرائض العين والكفاية... ويستفاد منه أن أداء الفرائض أحبُّ الأعمال إلى الله... والفرض كالأصل والأسِّ، والنفل كالفرع والبناء، وفي الإتيان بالفرائض على الوجه المأمور به امتثال الأمر واحترام الآمر وتعظيمه بالانقياد إليه، وإظهار عظمة الربوبية وذلّ العبودية، فكان التقرّب بذلك أعظم العمل..

---

(1)محمد جمال الدين القاسمي: قواعد التحديث ص 66.

(2)محمد بن علي الشوكاني: قطر الولي على حديث الولي، تحقيق وتقديم د. ابراهيم هلال، الناشر المؤلف ص 232.

(3)أحمد بن علي بن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، المطبعة السلفية القاهرة، (ج341/11 - 347) باختصار وتصرّف يسير.

(وما زال العبد يتقربّ إليَّ. قال القشيري: قرب العبد من ربّه يقع أولاً بإيمانه . ثمّ بإحسان وقُرب الربِّ من عبده ما يخصّه به في الدنيا من عرفانه، وفي الآخرة من رضوانه، وفيما بين ذلك من وجوه لطفه وامتنانه . ولا يتمَّ قرب العبد من الحقّ إلا ببعده من الخلق . قال: وقربُ الربِّ بالعلم والقدرة عام لل ناس، وباللطف والنصرة خاصٌّ بالخواص، وبالتأنيس خاصٌّ بالأولياء .. وظاهره أن محبّة الله تعالى للعبد تقع بملازمة العبد التقرّب بالنوافل .. والنافلة لا تقدّم على الفريضة لأن النافلة إنما سُمِّيت نافلة لأنها تأتي زائدة على الفريضة، فما لم تؤد الفريضة لا تحصل النا فلة، ومن أدّى الفرض ثم زاد عليه بالنفل وأدام تحققت منه إرادة القرب.

قوله (فكنت سمعه الذي يسمع به) (وبصره الذي يبصر به) (ولسانه الذي يتكلم به) ونحوه في روايات أخرى. وقد أُستشكل كيف يكون البارىء جل وعلا سمع العبد وبصره.. الخ.

والجواب من أوجه:

(أحدها) أنه ورد على سبيل التمثيل، والمعنى كنت سمعه وبصره في إيثاره أمري، فهو يحبّ طاعتي ويؤثر خدمتي.

(ثانيها) أن كُليتّه مشغولة بي، فلا يصغي بسمعه إلا إلى ما يرضيني، ولا يرى ببصره إلا ما أمرته به.

(ثالثها) أجعل له مقاصده كأنه ينالها بسمعه وبصره.

(رابعها) كنتُ له في النصرة كسمعه وبصره ويده ورجله في المعاونة على عدوه.

(خامسها) كنتُ حافظ سمعه الذي يسمع به فلا يسمع إلا ما يحلّ استماعه، وحافظ على بصره كذلك. وأيضاً لا يسمع إلا ذكري ولا يلتذ إلا بتلاوة كتابي ولا يأنس إلا بمناجاتي، ولا ينظر إلا في عجائب ملكوتي، ولا يمدّ يده إلا فيما فيه رضاي، ورجله كذلك.

«قال الطوفي: اتفق العلماء ممّن يعتدّ بقوله: أن هذا مجاز وكناية عن نصرة العبد وتأييده وإعانته، حتى كأنه سبحانه يُنزل نفسه من عبده منزلة الآلات التي يستعين بها ولهذا وقع في رواية (فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي)».

«وقال الخط ابي: هذه أمثال والمعنى توفيق الله لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء. وتيسير المحبّة له فيها بأن يحفظ جوارحه عليه، ويعصمه عن مواقعة ما يكرهه الله تعالى من الإصغاء إلى اللهو (والغيبة) بسمعه، ومن النظر إلى ما نهى الله عنه ببصره، ومن البطش فيما لا يحلُّ له بيده، ومن السعي إلى الباطل برجله . وإلى هذا نحا الدّاودي، ومثله الكلاباذي، وعبّر بقوله: أحفظه فلا يتصرّف إلا في محابّي، لأنه إذا أحبّه كره له أن يتصرف فيما يكرهه منه.

(سادسها) قول أهل الزيغ والضلال ممن قالوا بالاتحاد وأن الله يتحد بالعبد حقيقة حتى يصير العبد هو الحقّ، وهو كفر محض وزيغ وضلال.

(سابعها) قال الخطابي أيضاً : وهو كناية عن سرعة إجابة الدعاء في الطلب . وذلك أن مساعي الإنسان كلها إنما تكون بهذه الجوارح . وقال بعضهم (وهو منتزع مما تقدم) لا تتحرك له جارحة إلا في الله ولله، فهي كلها تعمل بالحقِّ للحقّ.

وقال الجيزي: كنت أسرع إلى قضاء حوائجه من سمعه في الإسماع، وعينه في النظر، ويده في اللمس ورجله في المشي.

وحمله بعضهم أن يكون قائماً بإقامة الله له مُحبَّاً بمحبّته له، ناظراً بنظره له من غير أن تبقى معه بقيّة تناط باسم أو تقف على رسم، أو تتعلّق بأمر أو تـوصف بوصف . ومعنى هذا الكلام أنه يشهد إقامة الله له حتى قام، ومحبته له حتى أحبَّ، ونظره إلى عبده حتى أقبل ناظراً إليه بقلبه.

«والنوافل كثيرة فمنها نوافل الصلاة ونوافل الصوم ونوافل الحج والعمرة بعد أداء الفريضة فهو يكررهما إلى آخر تلك النوافل... وفي الحديث إشارة إلى عظم قدر الصلاة فإنه ينشأ عنها محبّة الله للعبد الذي يتقرب بها. ولهذا جاء في الحديث المرفوع الصحيح «وجُعِلتْ قرة عيني في الصلاة» (أخرجه النسائي وغيره) ومع وجود الحفظ والرعاية من الله فإن دليل الحفظ والرعاية الالتزام التامّ الكامل بالكتاب والسنة.

«قال الطوفي »: هذا الحديث أصل في السلوك إلى الله والوصول إلى معرفته ومحبته وطريقه، إذ المفترضات الباطنة (وهو ما أشار إليه الحديث بقوله مما افترضته عليه) وهي الإيمان، والظاهرة وهي الإسلام والمركب منهما، وهو الإحسان فيهما، كما تضمَّنه حديث جبريل[1] . والإحسان يتضمَّن مقامات السالكين من الزهد والإخلاص والمراقبة وغيرها.

«وفي الحديث أيضاً أن من أتى بما وجب عليه وتقرّب بالنوافل لم يُردّ دعاؤه، لوجود هذا الوعد الصادق المؤكد بالقسم... ولو بلغ العبد أعلى الدرجات حتى يكون محبوباً لله لا ينقطع عن الطلب من الله لما فيه من الخضوع له وإظهار العبودية».

قوله (وما تردّدت عن شيء أنا فاعله تردّدي عن نفس المؤمن).

قال الخطابي: التردّد في حقِّ الله غير جائز، والبداء عليه في الأمور غير سائغ ولكن له تأويلان: (الأول) أن العبد قد يشرف على الهلاك في أيام عمره من داء يصيبه، وفاقة تنزل به، فيدعو الله فيشفيه منها ويدفع عنه مكروهها، فيكون ذلك من فعله، كتردّد من يريد أمراً ثم يبدو له فيتركه ويعرض عنه، ولا بدّ للعبد من لقاء ربه إذا بلغ الكتاب أجله، لأن الله قد كتب الفناء على خلقه واستأثر بالبقاء لنفسه (والثاني): أن يكون معناه ما رددت رسلي في شيء أنا فاعله كترديدي إياهم نفس المؤمن، كما رُوي في قصة موسى، وما كان من لطمه عين ملك الموت (لمّا أمر بقبض روحه وتردّده (أي عودة ملك الموت له مرة أخرى) مرة بعد أخرى . وحقيقة المعنى على الوجهين عطف الله على العبد ولطفه به وشفقته عليه.

وقال الكلاباذي: قد يحدث الله في قلب عبده من الرغبة فيما عنده والشوق إليه والمحبّة للقائه، ما يشتاق معه إلى الموت، فضلاً عن إزالة الكراهة عنه، فأخبر أنه يكره الموت

(1)سيأتي الكلام عن حديث جبريل مفصلاً لأهميته البالغة في موضوعنا.

ويسوءه. ويكره الله مساءته فيزيل عنه كراهية الموت لما يورده عليه من الأحوال، فيأتيه الموت، وهو له مؤثر، وإليه مشتاق.

«وهو كله مجاز وهو مثل قوله تعالى (ومن أتاني يمشي أتيته هروله) وفي هذا الحديث عظم قدر الولي لكونه خرج عن تدبيره إلى تدبير ربه، وعن انتصاره لنفسه إلى انتصار الله له، وعن حوله وقوته بصدق توكله.

«وقوله (افترضت عليه) الفرائض الظاهرة فعلاً كالصلاة والزكاة وغيرهما من العبادات، وتركاً كالزنا والربا والقتل وغيرها من المحرّمات، والباطنة كالعلم بالله والحبّ له والتوكل عليه والخوف منه وغير ذلك . وهي أيضاً تنقسم إلى أفعال وتروك . والأفعال كالعلم بالله والحب له والتوكل عليه .. الخ.. والترك ترك الرياء والعجب والكبر والحسد والغ رور إلى آخر الصفات المذمومة.

وقد أشكل على كثيرين إدخال البخاري حديث الولي في باب التواضع والجواب من أوجه (أحدها): إن التقرّب إلى الله بالنوافل لا يكون إلا بغاية التواضع لله والتوكل عليه و (منها) كما زجر عن معاداة الأولياء، فإن موالاتهم لا تكون إلا بالتواضع لهم ومحبّتهم و (منها) أن التواضع هو سبب الرفعة والولاية. وقد قال رسول الله «ما تواضع أحدٌ لله تعالى إلا رفعه » أخرجه مسلم. «وإن الله تعالى أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد » أخرجه مسلم وغيره.

حديث الولي في منظومة الرشفات للحبيب عبد الرحمن بلفقيه

بدأ الحبيب عبد الرحمن بلفقيه في ذكر صفات الولي وكيفية مجاهدته وذلك قبل أن يشير إلى حديث الولاية المشهور. قال تحت عنوان:

رشفة من عذب موردهم ونسمة من طيب مشهدهمْ

فمن دعته دعوة من ربه فأخذت بقلبه ولبّهْ

نال المنى ثم الهناء في قربه إذ صار عبداً خالص الخصالِ

ومن سعى بالحقّ في اجتهاده والصدق في تقواه خير زادهْ

فسوف يعطى القصد من مراده بقرع باب الجود بابتهالِ

والطريق إما جذبة من الحق تعالى أو مجاهدة من العبد كما قال تعالى {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ *} [العنكبوت/69] وكلاهما من فضله يغترف . ولا بد للسالك من أن يتخلّى عن طباعه وأخلاقه الذميمة ويصفّي قلبه حتى تنجلي عنه القاذورات ويصير كالزجاجة وكالكوكب الدرّي وأخلاقه متأهلاً لقبول فيوضات الرحمن.

قال رضي الله عنه:

وعن شرور طبعه تخلّى ثم بنور ربه تحلّى

وذكر اسم ربه فصلّى مستقبلاً لقبلة الإقبالِ

ولا بد له من التخلّي عن شرور طبعه وغلبة شهواته، فهي الرّان الذي يرين على القلوب فيغطّي عليها قال تعالى {كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *} [المطففين/14] ثم تزداد فتصير أكنَّةً وأغ لفة بسب تراكم الذنوب . قال تعالى {...وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا } [الأنعام/20] وقال تعالى عن اليهود {وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ » بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ} [البقرة/88] . فإذا وصلوا إلى هذه المرحلة فليس بعدها إلا الطبع والختم فلا ترى بصيصاً من نور قال تعالى {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ » وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} [البقرة/7] وقال تعالى {كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ} [غافر/ 35] .

فإذا كانت كذلك كانت قلوبهم قاسية كالحجارة أو أشد قسوة : قال تعالى في وصف يهود المتجبّرين الكفرة {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً } [البقرة/74] ، وقال تعالى {فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ} [الزمر/22] .

وهكذا إذا تخلّى العبد من كدورات نفسه وظلمات شهوته وهواه غسل قلبه من الأدران فاستعدّ لتقبل الأنوار، ويعبّر عنه بشرح الصدر . جاء في تفسير ابن كثير [1] في قوله تعالى {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا } [الأنعام/ 125] قال إن رسول الله سئل عن كيفية شرح الصدر فقال : «نور يُقذف في القلب فينشرح وينفسح » قالوا : فهل لذلك من أمارة يُعرف بها قال : « الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت ». وقال : «إذا دخل الإيمان القلب انفسخ له القلب وانشرح».

وقال الفخر الرازي في تفسيره الكبير[2] ، «وأعلم أن شرح الصدر عبارة عن إيقاد النور في القلب حتى يصير كالسراج».

قول الناظم (وذكر اسم ربه فصلّى) أي دام ذكره لربه واستغراقه فيه فص لّى صلاة مودع كما في الحديث يصليها بحضور وخشوع لأنه يظن أن هذه آخر صلاة يصليها.

سِلِمَ بالإسلام من دعواه وانحلّ في الأحكام عن هواه

فصار حقّاً كل ما حواه للحقّ في الحقّ بلا انفصال

وهو قد استسلم لكل ما جاء به الإسلام وخرج عن رؤية نفسه ودعاواها ولجأ إلى الله بالافتقار التام له والانطراح الكامل بين يديه .. وفارق هواه في جميع الأحكام التي جاء بها الشرع الحنيف والتزم بها التزاماً تاماً كاملاً، فإذا فعل ذلك صار حقّاً كل ما حواه، فهو في ظاهره وباطنه لله {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *} [الأنعام/162] فهو خاضع لله في ظاهره وباطنه، محبٌّ لكل ما أمره به . مُنتهي عن كل ما نهى عنه.

وقوله (للحق في الحق بلا انفصال) أي أنه صار للحق الذي هو ضد الباطل بلا انفصال ولا فترة أو إعراض أو إهمال من أوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه.

---

(1)تفسير ابن كثير سورة الأنعام/ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام آية 125.
(2)الفخر الرازي: التفسير الكبير ج40/35.

وصار بالإيمان في أمانِ وبارتفاع الشكِّ ذي اطمئنانِ

ونال بالإحسان في الإحسانِ مراتب الحسنى على اتّصالِ

فصار بالإيمان وتصديق القلب في أمان الله سبحانه وتعالى فهو يرعاه ويكلأه، ولا شك أن نفسه تطمئن وتخرج عن دائرة الشكّ إلى دائرة اليقين. فإذا وصل إلى هذه ال مرتبة راقب الله مراقبة تامة وأحسن العمل والاعتقاد والنيّة، وذلك هو الإحسان . وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

قال الناظم :

ونال بالإحسان في الإحسان مراتب الحسنى على اتصال

ولا شك أن مرتبة الإحسان مرتبة عظيمة وهي «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». فإذا وصل إلى هذه المرتبة بفضل الله وجوده وكرمه فإنه سبحانه وتعالى يجازيه بالإحسان إحساناً في الأولى وفي الآخرة، والحسنى هي الجنة والزيادة هي رؤية الله سبحانه وتعالى في ذلك النعيم الأبدي السرمدي . قال تعالى {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ } [يونس/26] .

وكل حين وهو في زيادة على التُقى يرقى ذُرى السعادْه

في صالح الأعمال والعبادة ويعتلي كل مقام عالِ

والإيمان يزداد وينقص، ولكنه لديه في زيادة، لأنه قد أخلص العبادة لله سبحانه وتعالى فجازاه بهذا الترقيّ المستمر في مقامات القرب من الله سبحانه وتعا لى حتى أوصله الله إلى المكان العالي، وهو مكان الصديقين والشهداء وحَسُن أولئك رفيقاً.

قال الناظم :

حتى صفت أوصافه القدسيّة من الهوى والشهوة النفسيّة

ومن قيود العادة الحسيّه صار صفيَّ الحقِّ صافي البالِ

وهكذا يتصفّى من الهوى والشهوات النفسيّة، وخلاصها عن كل ما يبعد عن الله، والعادات الحسيّة، حتى صار جوهرة تتلألأ من الداخل، وصافي البال من الخارج والداخل . فالكافر والمنافق تتناوبه الشكوك والضيق والكرب، وأما المؤمن إذا صفت صفاته وابتعد عن كل ما يشوب النفس من الكدورات فإنه يتصفّى، ويصفو باله من جميع الكدورات وال قلق الممضّ والضيق والكآبة، ويدخل مرحلة النفس المطمئنة حيث يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فهو لله وبالله، وعلى الله يتوكل، وإليه ينيب.

ولم يزل يقربُ من مولاهُ بكل نفلٍ يبتغي ولاهُ

حتى تولّى كل ما والاه وصار مولاه له موالي

وهكذا كما في الحديث الذي رواه البخاري (حديث الولي) الذي أفضنا في الكلام عنه نقلاً عن ابن حجر العسقلاني في فتح الباري وغيره. «وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى

أحبّه». وكفى بذلك فخراً وعزاً ورفعة أن يكون مولاه وربه يحبُّه ويواليه. وهو ما قاله الناظم بلفظ عذب جميل. فهو لا يزال يتقرّب إلى مولاه بالنوافل حتى أحبّه الله فإذا فعل ذلك تولاّه الله بالحفظ والرعاية، والمواهب اللدنيّة . والإشراقات النورانيّة على قلبه، فلا يرى إلا دلائل معرفته، ولا يسمع إلا بينّات آياته، ولا ينطق إلا بالثناء عليه، ولا يتحرّك إلا في طاعته، فذلك هو التقي قال تعالى {إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ} [الأنفال/ 34] .

ونال أسنى رتبةٍ وقُربهْ من الهدى والنور والمحبّهْ

وصار في كلِّ انتماء ونُسبهْ للحقِّ بالحقِّ بلا انتقالِ

وقد نال هذا المتقيّ لله الذي أصبح يدُعى وليّاً لله. أسنى منزلة (أي أعلا وأظهر) والسنا هو النور، والبهاء.. وهو نور الهداية ونور القُربة من الله سبحانه وتعالى. فهي مقامات القرب من الله سبحانه وتعالى لصلاحه وهداه واتباعِّه أمر مولاه وخالقه، وهو سبحانه وتعالى يحبُّ الصالحين، ويحبُّ المتقّين، وكلما ازداد قربا من الله بهذه الطاعات يزداد حبُّ الله له حتى يصير هذا العبد منتمياً ومنتسباً لله، فيقال عبدالله، وهو مقام تشريف، قال تعالى عن حبيبه ومصطفاه محمد {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ *} [الإسراء/1] فوصفه بوصف العبودية، وهو أعظم الأوصاف حيث لم يتحقَّق أحد بمثل ما تحقّق به سيدنا وشفيعنا ونبيّنا وقدوتنا محمد ، من العبودية الخالصة التامة لله سبحانه وتعالى، فهو لله وبالله، وعلى الله توكله، ومن الله وحده يتلقى عطاياه وهباته . وهو إمام الأنبياء والأولياء، وخير خلق الله أجمعين.. وهكذا الولي يتحقّق بصفات العبودية، وإن كان كل واحد في مقامه {وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ *} [الصافات/ 164] ، ومقام محمد صلى الله عليه وآله وسلم في أعلى عليين، وكلهم من رسول الله ملتمس، فهو إمامهم وقدوتهم جميعاً.

وصار هذا العبد العارف بالله منتمياً إلى حزب الله منسوباً إليه سبحانه وتعالى، وتظهر على يديه الكرامات الخارقة، وإن كانت التقوى أعظم كرامة وأجلُّ عطيّة، وأعظم رتبة، والولي لا يهتم بهذه الكرامات ولا يسعى إليها، وإن كانت تظهر على يديه للتعريف بفضله . أو لقمع جاحد للحق، متّبعٍ للهوى.

وقول الناظم (للحقِّ بالحق بلا انتقال) أي أنه صار منتمياً للحقّ بواسطة عمله، ومعاملته له بالحق لكونه متحققاً بالشريعة، ملتزماً بها ... وسيره في معارج القرب من ربه سير قلبي، فسير الجوارح في الطاعات دليل السير القلبي في معارج القرب. لهذا قال الناظم :

وكان مولاه له فيما خَطرْ يداً ورجلاً ثم سمعاً وبَصرْ

إن استعاذ عاذه من كل شرٌّ وإن دعا أجابه في الحالِ

وهو إشارة واضحة إلى حديث الولي. «وما يزال عبدي يتقرّبُ إليَّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها. وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه».

وقد سبق أن نقلنا ما ذكره الإمام ابن حجر العسقلاني في فتح الباريء وأقوال العلماء في معانيه العديدة العميقة وننقل هاهنا كلام العلامة الشيخ عبدالله أحمد باسودان الدوعني (المتوفى سنة 1266هـ) في شرحه للرشفات الموسوم : «مطالع الأنوار » شرح رشفات السادة الأبرار وبيان أوصافهم الجليلة المقدار [1]حيث قال:

«وقد بسط الأئمة الكلام على معانيه (أي حديث الولي)، وحاصله : أن الولي لله القائم بطاعته تعالى وتوفيقه ورحمته أن من والاه تولى الله رعايته وحفظه، ومن عاداه وآذاه (أي عادى الولي) أهلكه وعذّبه بنار نقمته وقطيعته عنه وعن لطفه ورحمته . وقوله (فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به .. الخ) والمعنى: كنت أسرع إلى قضاء حوائجه من سمعه في الاستماع، وبصره في النظر ويده في البطش ورجله في المشي . وقال بعضهم : ويجوز أن يكون المعنى كنتُ معيناً له في الحواس المذكورة، وقيل غير ذلك... وقوله في الحديث (ولئن سألني لأعطينّه). أي ما سأل، ولئن استعاذني أي طلب مني أن أعيذه مما يخاف لأعيذنّه، والمراد أنه تعالى يتولّى وليّه في جميع أحواله بحسن تدبيره ويكلؤه بحسن رعايته كلاية الوليد.

«وقال بعضهم: إذا أراد الله تعالى أن يوالي عبده فتح عليه باب ذكره، فإذا استلذّ الذكر فتح له باب القرب، ثم رفعه إلى مجالس الأنس، ثم أجلسه على كرسي التوحيد، ثم رفع عنه الحجب وأدخله دار القرار، وكشف له الجلال والعظمة . فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة خرج من حسِّهِ ودعاوى نفسه ويحصل حينئذ في مقام العلم بالله».

الإمام الشوكاني يشرح حديث الولي

وقال محمد بن علي الشوكاني في كتابه «قطر الولي على حديث الولي »[2] بعد أن ذكر الأقوال التي ذكرها ابن حجر في فتح الباريء ولم يعجبه بعضها : «فاعلم أن الذي يظهر لي في معنى هذا الحديث القدسي إنه إمداد من الرب سبحانه لهذه الأعضاء بنوره الذي تلوح به طرائق الهداية وتنقشع عنده سحائب الغواية. وقد نطق القرآن العظيم بأن الله سبحانه هو نور السموات والأرض . وقال النبي لما سئل هل رأى ربه قال : «نور أنّى أراه » وهو في الصحيح.

«وثبت أنه سبحانه وتعالى محتجب بالأنوار، وثبت في الصحيحين وغيرهما من دعائه صلى الله عليه وآله وسلم إذا خرج إلى الصلاة «اللهم أجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وخلفي نوراً، وفي عصبي نوراً، وفي لحمي نوراً، وفي دمي نوراً، وفي شعري نوراً وفي بشري نوراً». وزاد مسلم: «وفي لساني نوراً، وأجعل في نفسي نوراً وأعظم لي نوراً».

---

(1)عبدالله أحمد باسودان: مطالع الأنوار شرح الرشفات، إصدار دار الأصول ـ حضرموت، غير مذكور س نة الطبع، ص 120.

(2)محمد بن علي الشوكاني: قطر الولي على حديث الولي تحقيق وتقديم د . إبراهيم هلال . توزيع دار الباز بمكة المكرمة ص 433 - 435.

«وأي مانع من أن يمدَّ الله سبحانه عبده من نوره فيصير صافياً من كدورات الحيوانية الإنسانية، لاحقاً بالعا لم العلوي، سامعاً بنور الله، مبصراً بنور الله، باطشاً بنور الله، ماشياً بنور الله. وما في هذا من منع أو من أمر لا يجوز على الربِّ سبحانه وتعالى وقد سأله رسوله وطلبه من ربه». ووصف الله سبحانه عباده بقوله {نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِ مْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [التحريم/8] . وليس في هذا ما يخالف موارد الشريعة، ولا ما ينافي إدراك عقول المتشرعين العارفين بالكتاب والسنّة.

«وقد جعل الله سبحانه الخروج من ظلمات المعاصي إل ى أنوار الطاعات خروجاً من الظلمات إلى النور، وورد في الكتاب والسنّة من هذا الجنس الكثير الطيب.

«فمعنى الحديث كنت سمعه بنوري الذي أقذف فيه فيسمع سماعاً لا كما يسمعه أمثاله من بني آدم، وكذلك بقية الجوارح.

«وانظر في هذا الدعاء الذي طلبه رسول الله أن يكون نور الله في سمعه وبصره وقلبه، وعصبه، ولحمه، ودمه، وشعره، وبشره، ولسانه، ونفسه، بل سأل ربَّهُ أن يمدَّهُ بنوره خلفه وأمامه، فلولا أن لنور الله سبحانه قوة لجميع الأعضاء ما طلبه سيّد ولد آدم وخير الخليقة.

«والحال أن الله قد جعل نوراً لعباده، فكيف لا يكون ذلك مطلوباً لسائر العباد لما ينشأ عنه من النفع العظيم؟ فمن أمدّه الله سبحانه بنوره في جميع بدنه صار لاحقاً (أي ملتحقاً) بالعالم العلوي، ومن أمدّ عضواً منه بنوره صار ذلك العضو نورانياً. فإن كان من الحواس كان لها من الإدراك ما لم يكن لغيرها من الحواس التي لم تمدُّ ب نور . وإن كان الإمداد لعضو من الأعضاء غير الحواس صار ذلك العضو قويّاً في عمله الذي يعمل به، مستنيراً، إذا عمل به الإنسان كان عمله صالحاً موافقاً لما هو الصواب.

فاتَّضح لك بهذا معنى ما في هذا الحديث القدسي : أي كنتُ بما ألقيتُ على سمعه وبصره ويده ورجله من نوري، سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. ثم أوضح هذا المعنى بقوله: «فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي». (انتهى كلام الشوكاني . وهو كلام نفيس من عالم جليل عرف بالدقة في العلم والتحرّي في العبارة، واتباع السلف الصالح في الفهم) [1].

قال الحبيب العلامة عبد الرحمن بلفقيه في منظومته البديعة «الرشفات» وهو يواصل الكلام عن هذا الولي الذي صار الله بنوره سمعه وبصره ويده ورجله:

(1)وقد قام الحبيب علوي بن طاهر الحداد بشرح حديث الولي في كتابه: «عقود الألماس بمناقب الإمام العارف بالله أحمد بن حسن العطاس» اصدار مطبعة المدني، ط 2، 1968، القاهرة ج27/1 - 51 وقد بدأه بذكر روايات الحديث المختلفة . ثم استطرد إلى الأحاديث الواردة في المتحابين في الله ومقامهم العظيم ثم انطلق إلى تعريف الولي وكيفية الوصول إلى الولاية بالتقوى وأداء الفرائض والاكثار من النوافل والالتزام التام بشرع الله والانهماك في العبادة والزهد في الدنيا الفانية منخلعا عن الشهوات متحققاً بالطاعات مبتعداً عن المنهيات، متّبعاً للكتاب والسنة، مقتديا بإمام الأئمة محمد ، مصفّياً قلبه عن الأدران، ملتزماً طاعة الرحمن. ثم ذكر الأغلاط التي يقع فيها بع ض الناس في شأن الأولياء، فالأولياء عليهم رضوان الله بشر، لا يعلمون الغيب إلا بما تكرّم الله عليهم به في بعض الأحيان، ولا يسعون للكرامات ولا يهتمّون بها وقد يظهرها الله على أيديهم، وأجلّ كرامة هي التقوى، والأولياء ليست لهم العصمة، ويجعل الله لهم الحفظ من المنكرات وقبيح الأفعال. وهم عبيد من عبيده وأكثرهم محبة له وطاعة. والغلو فيهم مذموم كما أن معاداتهم معاداة ومحاربة لله سبحانه وتعالى.

لمّا بألطاف النّدى تعلّقْ ثم بحقِّ الاقتداء تخلّقْ

ثم بأوصاف الهدى تحقّقْ زها بلبس خلعة الكمالِ

قال الشيخ عبدالله باسودان في شرحه: (لما بألطاف الندى تعلّق) أي أن هذا العبد المحبوب لما اكتنفته ألطاف الحقّ وعنايته تعالى بالندى: أي بالعطاء، تعلَّق: أي تمسك فأناب إليه تعالى وعمل لما دعاه إليه وندبه.

قوله: (ثم بحقّ الاقتداء تخلَّق) أي اتّصف بذلك فصار وارثاً لمتبوعهم (محمد) .

(ثم بأوصاف الهدى تحقّقْ) أي أنه لما تخلّق بالاتباع حصل له نور الهداية، وتحقق بالدراية، وهي المعارف الربانية التي إذا تجلّت على قلب العبد يلبس خلعة الكمال، وهي الولاية التي هي سرّ من أسرار الله، فيصير ذلك المتّصف بها، مظهراً من مظاهر الحق تعالى إذا رؤي ذكر الله تعالى، فيصير حينئذ مغناطيس القلوب تنجذب بواسطته إلى ربّه، وكالإكسير الذي يقلب الأعيان من الحالة الرديئة الوضيعة إلى الحالة العليّة الرفيعة».

وانطلق الحبيب العلامة عبد الرحمن بلفقيه في صفات هذا الولي وعلاماته، وكيف خرج من قياد نفسه إلى قياد ربه حتى أنه لم يعد له مراد إلا مراد ربه، ولم تكن له مشيئة إلا ما شاء ربه.

حتى رأى حقائق الوجودِ وسرَّها بالكشف والشهود

وفيضها من عين معنى الجودِ بعزّة البارئ ذي الجمالِ

فذاق معنى عجزه في نفسهْ وفقره في عقله وحسِّهْ

وأن عزَّ ربِّه في قُدسهْ إليه لكل الفضلِ والكمالِ

فهو يعرف يقيناً وذوقاً أن ليس له من الأمر شيء وقد تسربل بالفقر والعجز، وتمسك بعزِّ ربه في قدسه، فهو صاحب كل فضل وكمال.

وعَلِمَ دقائق التوحيد وعرف صفات الجمال والجلال، وعَلِمَ صفات الذات على الإجمال لأن علمها على التفصيل لا يستطيعه مخلوق، ولا يعلم ذات الله إلا الله. ولكنه يعرف الصفات التي يتجلّى بها على مخلوقاته وعباده كما يعرف مجال أفعاله التي لا حدّ لها ولا أول ولا آخر.

وصار بالعلم له وصولُ وفي فنا القرب له حصولُ

وحبله بقربه موصولُ بأكرم الإكرام والوصالِ

وهو موصول بحبل الله المتين الذي لا ينقطع وعروته الوثقى التي لا تنفصم وقد أكرمه الله بالوصال منه، بالمحبة والتأييد والنعيم الدائم والسرور وبالرضا هو الذي هو أعلى مراتب القرب.

ثم قال رضي الله عنه:

لا قول ذي الإلحادِ باتحادِ ولا حلول قطُّ في اعتقادي

فجلَّ أهل الحق والرشادِ عن قول أهل الزيغ والضلالِ

والقرب الذي جاء في الحديث. هو قرب معنوي، وقرب محبّه، وقد سبق أن ذكرنا ما قاله ابن حجر العسقلاني في حديث الولي « القول السادس في معنى «كنت سمعه وبصره .. الحديث: قول أهل الزيغ والضلال ممن قالوا بالاتحاد، وأن الله يتّحد بالعبد حقيقة حتى يصير العبد هو الحقّ، وهو كفر محض وزيغ وضلال».. وها هنا يقرر الحبيب العلامة عبدالرحمن بلفقيه إنكاره الشديد لأقوال هؤلاء القوم. ويصرّح بأنه يرفض عقيدة الحلول وعقيدة الاتحاد رفضاً باتاً، بل قال أن أهل الرشاد وأهل الحق أجلُّ وأكرم من أن ينسبوا إلى هذا القول الواضح البطلان والبعيد كل البعد عن عقائد الإسلام والتوحيد. ثم يقول مؤكداً ذلك:

فجلَّ وجه ربنا العظيمِ من كل منسوب إلى عديمِ

وعزَّ قُدسُ وصفِهِ القديمِ عن انفصال فيه واتصالِ

فجلّ البارىء سبحانه وتعالى أن ينسب إلى معدوم (وهو كل ما كان غير الله ومنهم هؤلاء البشر) وتعاظم جلاله أن يشبه أحداً أو أن يكون له نظير قال تعالى {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ *اللَّهُ الصَّمَدُ *لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ *وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ *} [سورة الإخلاص] وقال تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}.

فعزّ قُدسُ وصفه القديمِ عن انفصال فيه واتصالِ

فلا حلول هناك ولا اتحاد ولا وحدة وجود، فكلّها أقوال كفريّة مرفوضة رفضاً تامّاً لدى أهل الحقّ.

ثم قال رضي الله عنه:

إذ لا ينال العقلُ كُنه ذاتهْ أو كنه ما أوحاهُ من صفاتهْ

فليس للعبد سوى اثباتهْ لكل ما أثبتَ بالإجلالِ

والعقل البشري لا يستطيع أن يدرك إدراكاً تاماً حقائق الكون أو حتى حقائق نفسه وجسمه فكيف يمكن له أن يدرك ذات الله سبحانه وتعالى عمّا يقول الظالمون .. والعجز عن الإدراك إدراك. وفي الحديث «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله»[1] .

وإذا نظر الإنسان إلى جلد يده مثلاً فسيرى الجلد والشعر والمسام، فإذا أخذ عدسه تغيرت الصورة، فإذا وضع قطعة صغيرة جداً منها تحت المجهر (الميكروسكوب) فسيرى عالماً آخر وكلما كبّر الصورة رأى عوالم أخرى، ورأى ملايين الملايين من البكتريا والفطريات والمخلوقات على جلده، فإذا استخدم الميكروسكوب الإليكتروني فإذا هو بعالم جديد ت ماما .. فقد تجاوز الخلايا إلى مكونات الخلايا وبدأ يدخل في عالم النواة والكروموسومات والحامض

---

(1)كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني، ج371/1 وفيه: رواه أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس، ورواه ابن أبي شيبة في كتاب «العُرس» عن ابن عباس، ورواه الأصبهاني في الترغيب. وفي رواية أبي نعيم عن ابن عباس قال : تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله . فإنكم لن تقدروه قدره . ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب عن ابن عمر مرفوعاً : «تفكروا في الآء الله ولا تفكّروا في الله» وفي صحيح مسلم: لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا خلْقُ الله فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله».

النووي.. وكل واحد منها عوالم. فأي شيء تعرف وأنت تنظر إلى جلدة يدك؟ وأيها الحقيقة في ذلك كله؟ فإذا كان جلد يدك أمام عينك وأنت لا تدرك منه شيئاً فأين أنت من الحقيقة والمعرفة؟ وكيف يمكن أن تطمح إلى معرفة الذات الإلهية العلية؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.. وترى أمامك قطعة صغيرة من حديد مصمته ثقيلة، ولكن علماء الفيزياء يقولون لك أن هذه المعرفة غير حقيقية، فما بين ذرات الحديد مسافات تشبه ما بين الأرض والنجوم والشموس والكواكب البعيدة.. وكلها فراغ في فراغ!!

فإذاً، إدراك أبسط المسائل وما تراه عينك وتحسّه بيدك له عوالم مختلفة فكيف يمكن أن تأتي إلى غيب الغيوب وهو الله سبحانه وتعالى، وكيف يمكن أن تدرك ذاته سبحانه وتعالى . قال تعالى {الم *ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *} [البقرة/1 - 3] .

وقد صدق العلامة عبد الرحمن بلفقيه حين قال : (إذ لا ينال العقل كنه ذاته) والعبد لا يستطيع أن يعرف نفسه معرفة يقينية لا من الناحية المادية ولا من الناحية المعنوية . ولا يعرف معرفة يقينية كل الظواهر المحيطة به، وإنما يعرف بعض صفاتها وقوانينها التي جعلها الله فيها، وهو ما يكفيه في هذه الدنيا. أما في الآخرة حيث ينكشف الغطاء {...فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ *} [ق/22] فهو عالم آخر بقوانينه الخاصة به المختلفة عن قوانين الدنيا. وهناك فقط يمكن معرفة حقائق الأشياء وإدراكها، وأما ذات الله فلا تعرف لا في الدنيا ولا في الآخرة، والرؤية التي تحصل للمؤمنين يوم القيامة حيث يرون ربّهم لا يضامون في ذلك، قال تعالى {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ *إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ *} [القيامة/ 22، 23] فهي رؤية دون إحاطة، ولكنها كرم من المولى الكريم لتتمّ لهم السعادة . وهو أفضل شيء لديهم، وأكبر النعم التي ينعم بها المولى عليهم.

ولهذا فإن معرفة ذات الله أو كُنه صفات الله متعذر على البشر . لهذا قال «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » أي لا أعلم وصف ذاتك ولا حقيقة صفاتك إلا بالتنزيه والتقديس عن أن يماثلك غيرك.

ولهذا كله فالعجز عن الإدارك إدراك، كما رُوي عن أبي بكر الصديق .

قول الشاعر (أو كنه ما أوحاه من صفاته) فإن إدراك كُنه الصفات أمر فوق طاقة البشر، ولا يدرك حقيقته وكنهها إلا الله، وما على العبد إلا أن يقبل ما جاء من صفات الله سبحانه وتعالى بالتسليم دون تعطيل ولا تشبيه . يقول الشاعر بلفقيه (فليس للعبد سوى إثباته) أي إثبات هذه الصفات بغير إحاطة ولا إدراك كنهها . ونثبت كل ما أثبته الله ورسو له من هذه الصفات بلا تعطيل ولا تشبيه مقدّسين له:

فليس للعبد سوى إثباته لكل ما أثبت بالإجلالِ

أي أن العبد ليس له إلا إثبات ما أثبته الله لنفسه من كل كمال من صفات الجلال والجمال دون إحاطة ولا إدراك كنه، ولا تعطيل ولا تشبيه، ثم قال رضي الله عنه:

بل عجزه عن إدراكه إدراكُ وماله عن عجزه انفكاكُ

وما بعزِّ ربّه اشتراكُ لمّا كساه قدرة الأعمالِ

وقد مرّر معنا قول سيدنا أبي بكر الصديق رضي اللَّه عنه «العجز عن الإدراك إدراك». والإنسان لا ينفك عن عجزه (وما له عن عجزه انفكاك)، وهو محدود القدرات، مهما أوتي، وذلك كله من عطاء الله وفضله، وليس بقدرته هو.

قوله (وما بعزِّ ربه اشتراك) أي لا يشترك مخلوق من المخلوقات في صفات العز الكامل لله سبحانه وتعالى فهو سبحانه الغني المعزّ المذلّ. ولا تكون العزّة إلا لله ولرسوله وللمؤمنين قال تعالى {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِ ينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ *} [المنافقون/8] فهي لله وحده خالصة {فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر / 10] ويضفي من عزته على رسوله وعلى عباد ه المؤمنين بفيض كرمه وفضله.. وقد أعطاه هذه القدرة على الأعمال الصالحة فبها أعزّه الله سبحانه وتعالى (لمّا كساه قدرة الأعمال).

ثم يقول الشاعر:

لكن بمحض الفضل من مولاهُ أولاه بالأفضال ما والاهُ

ليبلغ المقصود من ولاهُ ويرتقي كل مقام عالِ

وذلك كله بمحض فضل الله سبحانه وتعالى الذي والى عليه نعمه حتى صار من المقرّبين وحتى صار العبد يرى بنور الله ويسمع بنور الله ويبطش بنور الله ويمشي بنور الله كما قد مرّ معنا في حديث الولي.

ويستمر في ذلك حتى يبلغ المقصود من ولاية الحقِّ سبحانه وتعالى له (ويرتقي كل مقام عال) وذلك أنه لما وفّق للأعمال الصالحة والنيات الخالصة لله سبحانه وتعالى يرتقي إلى كل مقام عالٍ من العلوم والمعارف بمحض الجود الإلهي والكرم الرباني.

ابن تيمية يشرح حديث الولاية ويرد على من زعم الاتحاد

تحدث الشيخ ابن تيمية في الفتاوى [1] عن الفناء والاتحاد وحديث الولا ية وأبدع في ذلك وأفاض حيث قال:

«والمعنى الذي يسمونه الفناء ثلاثة أقسام: فناء عن عبادة السوى، وفناء عن شهود السوى وفناء عن وجود السوى.

«(فالأول): أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه، وبخوفه عن خوف ما سواه وبرجائه عن رجاء ما سواه، وبالتوكل عليه عن التوكل ـ على ما سواه، وبمحبته عن محبة ما سواه . وهذا هو حقيقة التوحيد والإخلاص الذي أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه، وهو تحقيق (لا إله إلا الله) فإنه يفنى من قلبه كل تأله لغير الله، ولا يبقى في قلبه تألّه لغير الله، وكل من كان أكمل في هذا التوحيد كان أفضل عند الله».

---

(1)مجموع فتاوى الشيخ الإسلام، ابن تيمية (الطبعة السعودية على نفقة الملك خالد بن عبدالعزيز رحمه الله) ج369/2 - 380.

وهذا ما يقوله المحققون من أعلام الصوفية كالجنيد وسري السقطى وعبد القادر الجيلاني وغيرهم كثير. فلله درّ الشيخ ابن تيمية ما أعلمه وأنصفه وأعدله.

قال: « (والثاني): أن يفنى عن شهود ما سوى الله . وهذا الذي يسمّيه كثير من الصوفية حال الاصطلام والفناء والجمع ونحو ذلك.

«وهذا فضيلة من جهة إقبال القلب على الله، وفيه نقص من جهة عدم شهوده للأمر على ما هو عليه، فإنه إذا شهد أن الله ربُّ كل شيء ومليكه وخالقه، وأنه هو المعبود لا إله إلا هو، الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب، وأمر بطاعته وطاعة رسله، ونهى عن معصيته ومعصية رسله، فشهد حقائق أسمائه وصفاته وأحكامه خلقاً وأمراً، كان أتمّ معرفةً وشهوداً وإيماناً وتحقيقاً، من أن يفنى بشهود معنى عن شهود معنى آخر، وشهود التفرقة في الجمع، والكثرة في الوحدة، وهو الشهود الصحيح المطابق لكن إذا كان قد ورد على الإنسان ما يعجز معه عن شهود هذا وهذا، كان معذوراً للعجز، لا محموداً على النقص والجهل.

«(والثالث): الفناء عن وجود السوى، وهو قول الملاحدة أهل الوحدة، كصاحب الفصوص وأتباعه الذين يقولون: وجود الخالق هو وجود المخلوق وما ثمّ غير ولا سوى في نفس الأمر. فهؤلاء قولهم أعظم كفراً من قول اليهود والنصارى وعبادة الأصنام [1] . وأيضاً، فإن ولاية الله هي موافقته بالمحبّة لما يحبُّ، والبغض لما يبغض، والرضا بما يرضى، والسخط بما يسخط، والأمر بما يأمر به، والنهي عما نهى عنه، والموالاة لأوليائه، والمعاداة لأعدائه كما في صحيح البخاري.

حديث الولاية: «عن أبي هريرة عن النبي أنه قال: «يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرّب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضته عليا، ولا يزال عبدي يتقرّب إليَّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يسعى . ولئن سألني لأعطِينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه، وما تردّدت عن شيء أنا فاعله تردّدي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بدَّ له منه » فهذا أصحُّ حديث روي في الأولياء.

---

(1)قال الحبيب علوي بن طاهر الحداد في كتابه «عقود الألماس» أن الإمام عبد الله العيدروس قال في كتابه «الكبريت الأحمر» «وكل من اعتقد الحلول والاتحاد فقد كفر » وقال نقلاً عن الشيخ زروق أن قوماً عكفوا على مطالعة كتب لابن عربي وغيره فصاروا إلى زندقة وإلحاد، وقالوا بالحلول والاتحاد فلا حول ولا قوة إل ى بالله العظيم. وقد حذر أئمة السادة العلويين من كتب ابن عربي وعبد الكريم الكيلاني وتصانيف ابن سبعين والعفيف التلمساني وتائية ابن الفارض ومنعوا أبناءهم وتلامذتهم من قراءتها. وندّدوا بأقوال الحلاج وما نسب إلى ابن عربي وشهاب السهروردي المقتول، قتله صلاح الدين الأيوبي سنة 587 بفتوى العلماء، وهو غير صاحب عوارف المعارف، ومنهم صدر الدين القونوي وجلال الدين الرومي وفريد الدين العطار وسعيد الدين الفرغاني ومجد الدين سناني وكل من ذهب مذهبهم . وقال الإمام عبد الله العيدروس: ليس لنا طريق ومنهاج سوى الكتاب والسنّة.. وعليكم بالكتاب والسنّة أولاً وأخراً وظاهراً وباطناً . وكان الإمام العيدروس ينهى عن مطالعة الفتوحات المكيَّة والفصوص لابن عربي، ويأمرهم بحسن الظن فيه . واختلفوا في ابن عربي اختلافاً شديداً، فمنهم من كفَّره، ومنهم من قال : إن العبارات الكفرية مدسوسة عليه . ولكنهم اتفقوا جميعاً على تكفير هذه الأقوال والنهي عن قراءتها. ومال الحبيب علوي بن طاهر الحداد إلى تكفير القائلين بهذه الأقوال وعدم إيجاد الأعذار لهم.

«فالملاحدة والاتحاديون يحتجّون به على قولهم، لقوله: كنت سمعه وبصره ويده ورجله » والحديث حجة عليهم من وجوه كثيرة: منها قوله «من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة » فأثبت معادياً محارباً وولياً غير المعادى، وأثبت لنفسه سبحانه هذا وهذا.

«ومنها قوله (وما تقرّب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه) فأثبت عبداً متقرّباً إلى ربه، وربّا افترض عليه فرائض.

ومنها قوله: «ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه» فأثبت متقرِّباً ومتقرباً إليه، ومُحبًّا ومحبوباً غيره. وهذا كله ينقض قولهم الوجود واحد.

«ومنها قوله: فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به .. الخ فإنه جعل لعبده بعد محبّته هذه الأمور، وهو عندهم قبل المحبة وبعدها واحد ... لا تعدد عندهم، ولا كثرة في الوجود، ولكن يثبتون مراتب ومجالي ومظاهر، فإن جعلوها موجودة نقضوا قولهم. وإن جعلوها ثابتة في العدم، أو جعلوها المعيّنات، والمطلق هو الحق، كانوا قد بنوا ذلك على قول من يقول: المعدوم شيء، وقول من جعل الكليات ثابتة في الخارج زائد على المعيّنات. والأول هو قول طائفة من المعتزلة. وهو قول ابن عربي . والثاني قول طائفة من الفلاسفة وهو قول القونوي صاحب ابن عربي، وكلا القولين باطلان عند العقلاء ولهذا كان التلمساني أحذق منهما، فلم يثبت شيئاً وراء الوجود..

ولكن هؤلاء الضُّلاَّل من الفلاسفة والمعتزلة ما قالوا : وجود المخلوق هو وجود الخالق، وهؤلاء الملاحدة قالوا: هذا هو هذا. ولهذا صاروا يقولون بالحلول من وجه، لكون الوجود في كل الذوات وبالعكس، وبالاتحاد من وجه لاتحادهما، وحقيقة قولهم هي وحدة الوجود.

وفي الحديث وجوه أخرى تدلُّ على فساد قولهم. والحديث حقّ، كما أخبر به النبي ، فإن ولي الله لكمال محبته لله وطاعته لله يبقى إدراكه لله وبالله وعمله لله وبالله، فما يسمعه مما يحبّه الحق أحبَّه، وما يسمعه مما يبغضه الحقُّ أبغضه. وما يراه مما يحبُّه الحق أحبَّه، وما يراه مما يبغضه الحق أبغضه . ويبقى في سمعه وبصره من النور ما يميّز به بين الحقّ والباطل، كما قال النبي في الحديث المتفق على صحته : «اللهم أجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، وفوقي نوراً، وتحتي نوراً، وأمامي نوراً، وخلفي نوراً، وأجعل لي نوراً».

فولي الله فيه من الموافقة لله: ما يتحد به المحبوب والمكروه، والمأمور والمنهي عنه ونحو ذلك، فيبقى محبوب الحقّ محبوبه، ومكروه الحقّ مكروهه، ومأمور الحق مأموره، وولي الحق وليه، وعدو الحق عدوه، بل المخلوق إذا أحبَّ المخلوق محبّة تامة حصل بينهما نحواً من هذا، حتى قد يتألم أحدهما بتألم الآخر ويلتذ بلذته (قلتُ وهذا أظهر ما يكون في الأم وصغيرها فهي تتألم لألمه وتلتذ للذّته) ولهذا قال : مَثَلُ المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » ولهذا كان المؤمن يسرُّه ما يسُّر المؤمنين، ويسوءه ما يسوؤهم، ومن لم يكن كذلك لم يكن منهم.

فهذا الاتحاد الذي بين المؤمنين: ليس هو أن ذات أحدهما هي بعينها ذات الآخر، ولا حلَّت فيه، بل هو توافقهما واتحادهما في الإيمان بالله ورسوله، وشعب ذلك مثل محبة الله ومحبة رسوله، ومحبّة ما يحبه الله ورسوله.

فإذا كان هذا معقولاً بين المؤمنين، فالعبد إذا كان موافقاً لربه تعالى فيما يحبّه ويبغضه، ويأمر به وينهى عنه، ونحو ذلك مما يحبّه الربُّ من عبده، كيف تكون ذات أحدهما هي الأخرى أو حالّةٌ فيها؟.

فإذا عرفت هذه الأصول من الحلول والاتحاد المطلق والمعين، الذي هو باطل، ومما هو من أحوال أهل الإيمان من ولاية الله تعالى وموافقته فيما يحبّهُ ويرضاه وتوابع ذلك، تبيّن لك جواب مسائل السائل.

«وهؤلاء قد يجدون من كلام بعض المشايخ، كلمات مشتبهة مجملة، فيحملونها على المعاني الفاسدة، كما فعلت النصارى فيما نُقل لهم عن الأنبياء، فيدعون المحكم ويتّبعون المتشابه»[1] .

«فقول القائل: إن الربّ والعبد شيء واحد ليس بينهما فرق كفر صريح، لا سيما إذا دخل في ذلك كل عبد مخلوق، وأما إذا أراد بذلك عباد الله المؤمنين وأولياءه المتّقين، فهؤلاء يحبّهم (الله) ويحبّونه، ويوافقونه فيما يحبّه ويرضاه ويأمر به، فقد رضي الله عنهم ورضوا عنه . ولما رضوا ما يرضي الربّ وسخطوا ما يسخط، كان الحقُّ يرضى لرضاهم ويغضب لغضبهم، إذ ذلك متلازم من الطرفين.

«ولا يقال في أفضل هؤلاء : إن الربّ والعبد شيء واحد ليس بينهما فرق، لكن يقال لأفضل الخلق كما قال الله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} وقال {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ } وقال {وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ } وقال {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ}.. ثم قال:

«وأفعال العباد مفعولة مخلوقة لله، ليست صفة له، ولا فعلاً قائماً بذاته. وقوله (وما رميت إذا رميت ولكن الله رمى) فمعناه: وما أوصلت إذا حذفت، ولكن الله أوصل المرمى، فإن النبي كان قد رمى المشركين بقبضة من تراب، وقال : «شاهت الوجوه»، فأوصلها الله إلى وجوه المشركين وعيونهم، وكانت قدرة النبي عاجزة عن إيصالها إليهم . والرمي له مبدأ، وهو الحذف، ومنتهى، وهو الوصول (إلى وجوه الكفار وعيونهم) فأثبت الله لنبيه المبدأ بقوله (إذ رميت) ونفى عنه المنتهى وأثبته لنفسه بقوله (ولكن الله رمى)» [انتهى كلام ابن تيمية] .

وما أحسن ما قال ابن تيمية من تفسير واضح جلي جميل يزيل الإشكال. ثم قال «وأما قول الشاعر في شعره: (أنا من أهوى ومن أهوى أنا) وقوله: (إذا كنت ليلى وليلى أنا)، فهذا إنما أراد به الشاعر الاتحاد الوضعي، كاتحاد أحد المتحّابين بالآخر، الذي يحبُّ أحدهما ما يحبُّ

(1)كثيراً ما يوجد ابن تيمية العذر لبعض كلام المشايخ المجمل الذي يحمل على عدة وجوه فيحمله على أحسن الوجوه .. وهذا هو منهج الحق.

الآخر، ويبغض ما يبغض، ويقول مثل ما يقول، ويفعل مثل ما يفعل، وهو تشابه وتماثل، لا اتحاد العين بالعين، إذ كان قد استغرق في محبوبه حتى فني به عن رؤية نفسه كقول الآخر:

غبت بك عني فظننت أنك أني

«فأما إن يكون غالطاً مستغرقاً بالفناء، أو يكون عني التماثل والتشابه » وهكذا نرى ابن تيمية يحمل هذه الأقوال التي لها عدة محامل، على أحسن محاملها، ولا يبادر إلى أخبث المحامل فيثبته، وإنما يبادر أولاً لأحسن هذه المحامل فيثبتها، ويجد العذر لقائلها، فللّه هو من عالم مُخبت أوّاب محبّ لإخوانه المسلمين، ويحمل ما يقولونه على أفضل المحامل.. ولكنه لا يغفل عن معاني السوء فيذكرها ويؤكد أن ذلك أحد المحامل وأن القائل إذا أراد ذلك المحمل الخبيث السيء، فكلامه باطل.

وذكر عن طائفة من الناس ينشدون قصائد ابن الفارض وغيرها وما فيها من محاذير ظنًّا منهم أنها من كلام أهل التوحيد والمعرفة، وهو لا يفهمها ولا يفهم مرادها . وبعضهم يسمع هذا الكلام فيتوقف لأنه لم يعرف ما يريده الشاعر. وبعضهم ينكر عليهم ما هم فيه من ضلال وكفر، فلا يردّون عليه بل يقولون قام بوصف الإنكار لتكميل المراتب والمجالي.

وهكذا الشيخ ابن تيمية، يوضح الغوامض بأجلى عبارة، وعادته أن يحمل الأقوال التي تحتمل عدة محامل على أفضل المحامل، ولا يرمي قائلها بالكفر والزندقة. ويقول إذا أراد هذا المعنى الخبيث، فهو لا شك من أهل الكفر والزندقة وبالتالي يجعل لذلك القائل مجالاً للرجوع عما قصد إن كان قصد الشر فعلاً، ويجعل له أحسن المخارج.

الفصل العاشر
الإسلام هو دين الله ودين جميع الأنبياء والمرسلين

تعاليم الإسلام [1] والأخلاق مصدرها ومنبعها التوحيد

إن التوحيد الحق الذي جاء به الإسلام هو دين الله لجميع البشر من لدن آدم إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد . فقد جاء في القرآن الكر يم على لسان نوح قوله {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [يونس/72] وعلى لسان إبراهيم وإسماعيل {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ} [البقرة/ 128] وفي وصية يعقوب لأولاده {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [البقرة/132] وسأل يعقوب بنيه ما تعبدون من بعدي؟ قال تعالى {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ *} [البقرة/133] . وعن موسى {فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} [يونس/84] . وسحرة فرعون الذين آمنوا قالوا {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ } [الأعراف/126] حتى فرعون الطاغية المتجبر عندما بدأ يغرق أقرّ بالإسلام . قال تعالى {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ *آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْ مُفْسِدِينَ *فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ *} {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ *} [يونس/90 - 92] ، وعن يوسف قال {تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف/101] وحوارييوا عيسى قالوا {آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } [آل عمران/52] .. وهكذا والآيات في هذا الباب كثيرة وإسلام ملكة سبأ مع سليمان قالت [النمل/44] وعن إبراهيم {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ *} [البقرة/131] وهو الذي سمانا المسلمين {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ} [الحج/78] .

وقال تعالى {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ } [آل عمران/19] وقال عزّ من قائل {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ *} [آل عمران/85] . وقال تعالى {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْ حَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ *فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ مَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ *} [البقرة/135 - 138] .

وهي توضح وحدة الدين منذ آدم إلى محمد في أصوله وعقائده، وإن اختلفت تفاصيل الشرائع والأحكام، فإن أصولها أيضاً واحدة فالكل مأمور بالصلاة والزكاة والصيام، ومنذ أن نادى إبراهيم بالحج ظهر الحج، وإن كان الأنبياء قبله قد حجوا لأن إبراهيم أعاد بناء البيت بعد تهدمه وانبهام أمره {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ } [البقرة/127] . ولهذا فإن ما

(1)وقد حفظ الله جسم فرعون من الغرق آية. وكان ذلك سبباً في إسلام طبيب فرنسي مشهور هو موريس بوكاي حيث أوكل إليه ترميم بعض الموميات لبعض الفراعنة، فوجد جثة محفوظة بشكل باهر، ووجد فيها آثار ملح البحر ومن استقراء التاريخ، عرف أنها لفرعون الذي أغرقه الله، فكان ذلك سبباً في إسلامه.

جاء به محمد هو الدين الخاتم، وهو يحوي جميع ما جاءت به الرسل . وينفي عنها ما أضافه إلى الجاهلون من إضافات وزيغ وكفر وشرك، فهو دين الله القويم قال تعالى {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ} [آل عمران/19] وقال تعالى {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ } [آل عمران 85] {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً } [المائدة/3] .

وقد أخبرنا تعالى أن التوراة الأصلية قبل أن يحرفها اليهود، فيها حكم الله وهو دين الإسلام الحق، قال تعالى {وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ *إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ا لنَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ *} [المائدة/43 - 44] .

ثم جاء عيس ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتاه الله الإنجيل فيه هدى ونور . قال تعالى {وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَ يْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ *} {وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *} {وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ... * وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ... » وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ... *} [المائدة/46، 47] .

والتوراة قد ضاعت منذ أزمنة متطاولة في الحروب والنفي، وعبادة الأوثان، فقد عبد بنو إسرائيل الأوثان: ابتدأوا بعبادة العجل. وقالوا لموسى إجعل لنا آلهة ثم في عهد القضاة ارتدّوا أكثر من سبع مرات، وعبدوا البعليم وعشتروت وملكوم وكل رجاسات الأمم الأخرى . وبعد وفاة سليمان انقسمت المملكة إلى مملكتين صغيرتين متحاربتين هما مملكة أورشليم ومملكة إسرائيل. وكلاهما عبد الأوثان.. وكلاهما كان له 27 ملكاً. وقد عاد من ملوك أورشليم إثنان وعبدا الله سبحانه وتعالى وتابا مما فيه من عبادة الأوثان، وأما مملكة إسرائيل فقد كانت أشد كفراً وعتوّا ولم تعبد الله وحده قط. ولهذا تمّت إزالتها بواسطة الآشوريين قبل مملكة أورشليم (يهوذا وبنيامين). وتبعتها أختها وأزالها نبوخذ نصر البابلي سنة 586 قبل الميلاد . وفي هذه الفترة الطويلة من عبادة الأوثان، وما تبعها من النفي والتشريد ضاعت التوراة ضياعاً تاماً، وأعيدت صياغتها بما بقي من بعض الآيات التي يحفظونها مثل الوصايا العشر، وبعض آيات التوحيد، وبعض آيات الأحكام وأضيف ليها كمٌّ هائل من الركام والغثاء والقاذورات التي تزكم الأنوف[1] .

وأما ما يسمى العهد الجديد فهو يحتوي على أربعة أناجيل ورسائل بولس وغيره.

والنصارى مجمعون على أنه لم ينزل على عيسى إنجيل، ولا جاء عيسى بإنجيل لا من عنده، ولا من عند رب العالمين . وإنما الأناجيل المعترف بها لديهم أربعة هي إنجيل متى

(1)انظر تفاصيل ذلك في كتابيّ: المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، والله والأنبياء في التوراة والعهد القديم إصدار دار القلم دمشق وفصل الأخلاق عند اليهود من هذا الكتاب.

ولوقا ومرقس ويوحنا . وكانوا يزعمون أنّ متّى ويوحنا هما من تـ لاميذ المسيح وأن لوقا ومرقس من تلاميذ التلاميذ .. ولكن الأبحاث الجديدة جعلت الرهبانية اليسوعية والفات يكان واتحاد الكنائس العالمي يقرّون بأن متّى ويوحنا لم يكونا من تلاميذ يسوع، ولا شاهدوه ولا عرفوه.. بل إن يوحنا ليس حتى من تلاميذ التلاميذ .. وهو ذو ثقافة يونانية. وهذه الأناجيل الأربعة كتبت باللغة اليونانية، ويسوع وتلاميذه، لم يكونوا يتحدثون أو حتى يعرفون اليونانية، بل كانت لغتهم اللغة الآرامية واللغة العبرية، فهم كلهم من بني إسرائيل . ترجمت هذه الأناجيل إلى مختلف اللغات ومنها الآرامية والسريانية.

والخلاصة أن هـذه الكتب لم تعدْ عند أتباعها وعلمائهم كتباً أنزلها الله، بل هي كتب كتبها الآف البشر على مدى أكثر من ألف عام .. ولا تزال تُبدّل وتغيّر .. وكل طبعة مما يسمى الكتاب المقدس (Bible) تختلف عن الطبعات التي قبلها، ولو كانت في نفس اللغة(1) .

لهذا كله لم يبق لأحد من ا لبشر أن يزعم أنه على الدين الذي أرسله الله، وهم معترفون بذلك. لهذا كله وجب عليهم جميعاً أن يتّبعوا محمداً الذي جاء بالرسالة الخاتمة نقيّة صافية، ولم يشُبْها زيغ أو تحريف. وحفظ الله بحفظه كتابه الكريم قال تعالى {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ *} [الحجر/9] وقال تعالى {وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ *} [يوسف/104] .

الإسلام يعترف بجميع الأديان السماوية السابقة والأهمية الأخلاقية لذلك

قال تعالى {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ *فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ *قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ *أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [البقرة/136 - 141] .

فما أجمل هـذا الحوار الهادىء مع هؤلاء القوم من اليهود والنصارى. ونحن نعلن لهم أننا مؤمنون بجميع الرسل والأنبياء الذين يؤمنون بهم، ونؤمن بالكتب التي أرسلها الله سبحانه وتعالى، بل ولا يصح لنا إيمان ولا إسلام إن لم نؤمن بهؤلاء الأنبياء والمرسلين جميعاً ولم نؤمن بهذه الكتب التي أنزلها الله وهي التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وصحف إبراهيم، وكلها أنزل الله على رسله من كتاب.

قال تعالى {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ

(1)ناقشت هذه القضية بتفصيل كاف في كتبي. 1) المدخل لدراسة ا لتوراة والعهد القديم و 2) دراسات معاصرة في العهد الجديد والعقائد النصرانية . وكلاهما من إصدار دار القلم دمشق، وكلمة Bible تعني الكتاب باللغة اليونانية . ويسمونه الكتاب المقدس Holy Bible ولا يعني الإنجيل كما يظن كثير من الكتاب وغيرهم..

لَهُ مُسْلِمُونَ *وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ *} {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ » وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [آل عمران/84، 85] فلا يتم لنا إسلام ولا إيمان إن لم نؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين . وأنهم جاؤوا بدين واحد، لا بأديان متفرّقة، ونحن لا نفرّق بينهم فالأنبياء إخوة، أبناء علاّت، أبوهم واحد وأمهاتهم شتى، كما جاء في الحديث. وهو للتشبيه. فهم جميعاً قد جاؤوا برسالة التوحيد الخالصة، وهم جميعاً قد جاؤوا ودعوا إلى الإيمان بالله ورسله وكتبه وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى . وهم جميعاً قد أمروا بالصلاة والزكاة والصوم وهم جميعاً قد أمروا بالصدق والأمانة والعفَّة وفعل الخيرات. وهم جميعاً قد نهوا عن المنكر والكبر والكفر والعجب واستعباد البشر للبشر والعلو في الأرض والإفساد فيها. وهم جميعاً قد نهوا عن الربا والزنا والسرقة والقتل بدون وجه حق. فكل ما هو جميل وخير وبرّ قد أمروا به، وكل ما هو شر وقبيح، واستبداد وطغيان قد نهوا عنه.

والقرآن الكريم أوله لآخرة حافل بالآيات العديدة التي توضّح ذلك أيّما توضيح، وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة.

أوائل سورة البقرة توضح أركان الإيمان والإسلام وارتباطها بالأخلاق

احتوت أوائل سورة البقرة وخواتيمها على لبّ الإسلام وفيها أركان الإيمان وأركان الإسلام . ولهذا كان لها فضل عظيم وقال رسول الله عن خوات يمها أنها نزلت من تحت العرش . وفيها أيضاً آية الكرسي أفضل آية في القرآن لما فيها من صفات الله وتوحيده وتقديسه . وفضائل سورة البقرة كثيرة جداً، وهي وآل عمران تسميان الزهراوين .. ولا تستطيعها البطلة أي السحرة.

وكان كثير من المسلمين ولا يزالون يحرصون على تلاوة سورة البقرة كل ليلة وعلى أقل تقدير، يقرأون أوائلها وآية الكرسي وخواتيمها كل ليلة وخاصة عند النوم، لما فيها من الفضل العظيم والحفظ من الشياطين.

قال تعالى {الم *ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًىً لِلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ *أُولَئِكَ عَلَى هُدًىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [البقرة/1 - 5] .

الإيمان بالغيب: وأول الغيوب هو الله سبحانه وتعالى

وهذا القرآن (هذا الكتاب) (لا ريب فيه) أنه من عند الله. فهو هدى للمتقين. فما هي صفات هؤلاء المتقين (الذين يؤمنون بالغيب) والغيب غيوب، والله سبحانه وتعالى هو غيب الغيوب، ومع ذلك فهو الظاهر والباطن . قال تعالى {هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *} [الحديد/3] . وله وحده الخلق والأمر وبيده كلُّ الأمور يصرّفها كما شاء . وهذا كله يندرج في كلمة لا إله إلا الله التي ذكرنا بعضاً من معانيها في فصل التوحيد . وله الأسماء الحسنى وال صفات العلى قال تعالى {وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا } [الأعراف/180] وقال تعالى {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ *هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ *هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِىءُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *} [الحشر/22 - 24] .

وقال تعالى {اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ... *} [البقرة/255] .

ومن الغيوب التي أمرنا الله الإيمان بها: (الملائكة) وهم خلق نورانيون، خلقهم الله من نور ومحّضهم للعبادة وجعل منهم حفظة وجعل منهم رسلاً إلى أنبيائه من البشر، وجعل منهم ملك الموت وجعل منهم الموكّل بالصور والنفخ فيه. وهما نفختان نفخة لإهلاك كل مخلوق وكائن حتى يقول الحق سبحانه وتعالى {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} ثم يموت إسرافيل (الملك الموكل بالنفخ بالصور)، ثم يبعثه الله ويأمره بالنفخة الثانية {فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ }.. وقد تكفّل القرآن الكريم بتعداد أصناف من الملائكة {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ *وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ *} [الصافات /165، 166] ومنهم من أرسله الله بالرحمة ومنهم من أرسل بالعذاب قال تعالى {وَالْمُرْسَلاَتِ عُرْفًا *فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا *وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا *فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا *فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا *عُذْرًا أَوْ نُذْرًا *} [الملاسلات /1 - 6] ومنهم النازعات قال تعالى

{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا *وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا *وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا *فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا *فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا *} [النازعات/ 1 - 5] .

وقال تعالى عن هؤلاء الملائكة أو من أصنافهم {وَالصَّآفَّاتِ صَفًّا *فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا *فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا *إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ *رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ *} [الصافات/ 1 - 5] .

ومن الغيوب (الجن) وكلمة الجن تعني لغة كل ما اختفى، ومنه الجنين لأنه مختفي في بطن أمه، والجنّة لأنها تخفي من فيها لكثرة أشجارها . ومنها المجنّ وهو الترس يخفي صاحبه من ضربات عدوه، ومنها الجَنان أي القلب فهو مختفي غير ظاهر، ومنها الجنون وهو غياب العقل، واختفاؤه، ومنها المَجَنّة وهي المقبرة لأنها تخفي الأجساد تحت ترابها ومنها قوله تعالى عن إبراهيم {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ} أي أظلم وأخفا المخلوقات بظلامه.

والجن مخلوقات نارية مختفية. قال تعالى {يَابَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ *} [الأعراف/27] وقد تتشكل الملائكة (من نور) والجن (من نار) بصورة بشرية. وقد ورد في القرآن ظهور جبريل والملائكة بصورة بشرية لإبراهيم وللوط ولمريم كما ظهر جبريل م رارًا للنبي محمد في صورة دحية الكلبي، وفي صورة الرجل الشديد بياض الثياب، الشديد سواد الشعر الذي لا يعرفه أحد فسأل النبي في المسجد والناس ملتفون حوله، عن الإسلام والإيمان والإحسان وعن علامات الساعة . ثم اختفى ولم يدركه أحد فقال لهم رسول الله أنه جبريل أتاكم يعلمكم أمور دينكم . وسنستعرض هذا الحديث العظيم لأهميته في موضوعنا هذا بعد قليل.

وأما الجن فهم أيضاً قد يتمثلون في صورة بشرية أو غيرها . وقد تمثل إبليس اللعين في صورة الشيخ النجدي، ودلَّ قريش على ما يفعلون بمحمد بعد أن اختلفوا فأمرهم أن يقتلوه وهو نائم وتشترك في ذلك بطون قريش ويتفرّق دمه فيهم، فلا تستطيع بنو هاشم مقاتلتهم فيرضون بالدّيّة . كما أنه ظهر يوم بدر في صورة سراقة بن مالك الجعشمي زعيم تلك الناحية وقال لهم أنه جار لهم فلما رأى الملائكة فرّ . قال تعالى {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ *} [الأنفال/48] .

وإبليس كان من الجن. قال تعالى {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً *} [الكهف/ 50] .

و(الجنّ) فرق مختلفة فمنهم المؤمنون ومنهم الكافرون وقد أخبرنا الله عنهم في محكم التنزيل وأنزل على رسوله أن منهم من استمع إليه وهو يقرأ القرآن فآمن . قال تعالى {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ *قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي

إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ *يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ *وَمَنْ لاَ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ *} [الأحقاف/ 29 - 32] ، فما أعقلهم وأرشدهم . سمعوا داعي الله، وسمعوا رسول الله وهو يتلو القرآن فاستجابوا ونشروا دعوة الله بين إخوتهم من الجن . فكانوا من الدعاة المهتدين..

وقد أنزل الله سبحانه وتعالى سورة كاملة باسم الجن. قال تعالى {قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَبًا *يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا *وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا *وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا *وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا *وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا *وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَ بْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا *وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا *وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا *وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا *وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا *وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا *وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّ ا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْسًا وَلاَ رَهَقًا *وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا *وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا *} [الجن/1 - 15] .

وقد أوضح لنا المولى سبحانه وتعالى كثيراً من صفات هؤلاء الجن، وأنهم فرقتين فرقة مؤمنة وأخرى كافرة. وأن إبليس من الفرقة الكافرة، بل هو رأسها وقائدها . وأن البشر أيضاً فرقتين فرقة مؤمنة اهتدت بالهدى واتبعت النور، وفرقة كافرة غشيتها ظلمة الكفر واتبعوا الشياطين ورئيسهم إبليس فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة، واتبعوا الجنّ فزادوهم رهقا .. وهو أمر واضح في كل زمان ومكان. فهناك أولياء الرحمن وهناك أولياء الشيطان. {كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا *} [الإسراء/20] .

وقد وصف الله سبحانه وتعالى في افتتاح سورة البقرة صفات المتّقين فقال {الم *ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًىَ لِلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *} وذكرنا أن أول الغيوب هو الله س بحانه وتعالى وهو غيب ظاهر باطن .. ظاهر بتجلياته وصفاته، باطن في ذاته . وهو الأول والآخر، ثم ذكرنا من أنواع الغيب الإيمان بالملائكة والإيمان بالجن وكلاهما غيب بالنسبة للبشر. ثم ذكرت الآية الكريمة إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بما أنزل الله على رسوله وعل ى جميع الأنبياء والمرسلين . ثم عادت إلى ذكر غيب آخر {وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}.

وإقامة الصلاة هي اتباع لأمر الرسالة وهو نوع من التصديق بالغيب، وإن كانت عليه دلائل باهرة، وكذلك الإنفاق في سبيل الله وهو عسير على النفوس الشحيحة {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}، والأمر متصل بغيب آخر وهو الإيمان بالرسالات جميعاً من لدن آدم إلى محمد وما أنزل عليهم من الكتب والصحف . وقد أمرنا بالإيمان بأربعة كتب : (القرآن) وهو الكتاب الخاتم الذي لا ريب فيه. والذي لو اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله لما استطاعوا وقد تحداهم الله سبحانه وتعالى بذلك وقريش والعرب كانوا أهل الفصاحة،

فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً وما لبثت الجن أن قالت {قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَبًا *يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا *} فما أعقلهم وأرشدهم.

وثانيها (التوراة) وهو الكتاب الذي أنزله الله على موسى هدى ونور فأضاعه بنو إسرائيل وحرّفوه ولم يبقوا منه إلا بضع آيات هنا وهناك تلمع كالألماس والجواهر من بين ركام القاذورات.

وثالثها (الإنجيل) وهو الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام فأضاعه النصارى وقالوا ما أنزل الله على عيسى من شيء. بل هي قصص وحكايات وضعها أتباع الإتباع بلغة لم يعرفها عيسى ولا الحواريين، وقد كتب الإنجيل كما أسلفنا باللغة اليونانية، كتبه أربعة رجال هم متّى ومرقس ويوحنا ولم ير أحدٌ منهم يسوع، بل وحسب الأبحاث النصرانية المعاصرة لم يعرف أحدٌ منهم حتى تلاميذ التلاميذ، وهي كلها شخصيات مجهولة ضبابية . وقد ظهرت مئات الأناجيل حسب قولهم واختلفوا فيها اختلافاً شديداً ثم اجتمعوا في مؤتمر نيقية (في تركيا حالياً) سنة 325 وأقرَّ الإمبراطور الوثني قسطنطين الذي لم يكن قد تعمّد بعد، أربعة منها، ووافقه على ذلك ثلاثمائة من البطارقة من بين أكثر من ألفين . واعتمدوا ذلك بأمر الإمبراطور الذي فرض ذلك على رعاياه.

ورابعها (الزبور) وهو المزامير التي جاء بها داود ، وهي ابتهالات لله سبحانه وتعالى . والموجودة حالياً منها ما هو منسوب لداود ومنها ما هو منسوب لغيره من أحبار وأنبياء بني إسرائيل. وفيها حقٌّ وباطل كبقية كتبهم.

وهناك صحف إبراهيم وصحف شيث ابن آدم ولم يبق منها شيء.

الإيمان باليوم الآخر وارتباطه بالأخلاق

وأما الإيمان باليوم الآخر فهو من أهم عقائد الإسلام والإيمان. وهو عماد الأخلاق إذ لولا الإيمان باليوم الآخر ويوم الدينونة والحساب والعقاب لا نفلت أكثر الناس من الدين والأخلاق. {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ *} [الجاثية/24] وبادروا إلى متاع الحياة الدنيا واصطرعوا عليها، القوي بأكل الضعيف، والباطل يستعلي على الحقّ، ولضاعت الأمانة، والصدق والعفاف، وكل الأخلاق الحسنة، ويصبح كل شيء جائزاً وكل جريمة مباحة . وقد صدق الكاتب الروسي الملهم ديستوفسكي حين قال في قصته «الجريمة والعقاب » «إذا لم يكن هناك إله فكل شيء جائز حتى القتل» وبالفعل كانت قصته تدور على فتى قتل عجوزاً بسبب غياب الإيمان بالله واليوم الآخر. والشيء ذاته حصل في قصته المشهورة «الأخوة كرامازوف »، حيث قتل الابن أباه السكير القذر لأنه لم يعد هناك إله.

وقد أسلفنا القول في الفصل الذي خصصناه عن الأخلاق عند اليهود أنهم نتيجة عدم إيمانهم باليوم الآخر (التوراة الحالية ليس فيها أي ذكر لليوم الآخر فقد حذفوا ذلك منها) فإنهم يرتكبون جميع الجرائم والموبقات، كما أن عقائدهم التي تجعلهم ي ؤمنون أنهم أبناء الله وأحباؤه على الحقيقة والمجاز تجعلهم يقومون بما لا يتخيّله بشر من الجرائم باعتبارهم أبناء

الله يفعلون ما شاؤوا بهذه المخلوقات البشرية التي ما خلقها الله إلا لتكون في خدمة يهود، تماماً كما خلق الله الخيل والبغال والحمير والأنعام في خدمة البشر ولمصلحتهم.

وزعموا كذباً وبهتاناً في كتب الحكمة المنسوبة لسليمان أنه لا يؤمن باليوم الآخر فلذلك الكلّ باطل.. الحياة باطل، والعلم باطل والدين باطل!!! وكذلك زعموا أن أيوب لمّا ابتلاه الله كفر بالله وتحدّاه لأنه لا آخرة هناك فلماذا يعذبّه الله ويزهق روحه بهذه الأمراض والأسقام؟

ولا شكّ أن عدم وجود الآخرة في حسِّ اليهود هو الذي جعلهم أحرص الناس على حياة قال تعالى {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ *} [البقرة/96] ولو كانت حياة الديدان. وللأسف فإن المسلمين اليوم أهلكهم حبُّ الدنيا ونسيان الآخرة قال : « تتكاثر عليكم الأمم كما تتكاثر الأكلة على قصعتها قالوا: أمن قلة نحن يومئذ؟ قال : لا بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل أصابكم الوهن. قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت».

وصرنا مثل اليهود الذي يوّد أحدهم أن يعمر ألف سنة. وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر... ومع ذلك فهناك أعداد كبيرة نسبياً من الشباب لا تخشى الموت في سبيل الله.

والقرآن كله مليء بمشاهد القيامة في القرآن. وقد أنزل الله سبحانه وتعالى على نبيه سورة كاملة باسم سورة القيامة قال تعالى {لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ *وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ *أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ *بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ *بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ *يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ *فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ *وَخَسَفَ الْقَمَرُ *وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ *يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ *كَلاَّ لاَ وَزَرَ *إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ *يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ *بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ *} [القيامة/1 - 14] .

وفيها قوله تعالى {كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ *وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ *وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ *إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ *وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ *تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ *كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ *وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ *وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ *وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ *إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ *فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى *وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى *ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى *أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى *ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى *أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً *أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى *ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى *فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى *أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى *} [القيامة/ 20 - 40] ويكون الجواب الوحيد : بل قادر وهو سبحانه يصف حبّ الإ نسان الضال للعاجلة وتركه للآخرة وشكّه فيها ويخبر عن نعيم تهفو إليه النفوس {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ *إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ *} شديد النضرة، {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ *}. ولا يكتفي بذلك النعيم، بل يزيدهم المولى من كرمه وفضله وجوده فيتجلى عليهم في يوم يسمى يوم المزيد حيث يرون ربهم، لا يضامون في ذلك، كما يرون الشمس، بدون إحاطة . فيحصل لهم من السرور والنعيم ما لم يذوقوه من قبل ومما تتصاغر حياله كل أنواع النعيم في الجنان التي يفيضها الرحمن على عباد الرحمن.

ثم تأتي الصورة المقابلة {وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ *} كالحة شديدة العبوس (تظن) توقن (أن يفعل بها فاقرة) والفاقرة هي التي تكسر فقار الظهر وهي الداهية العظيمة. ثم يعرض المولى سبحانه وتعالى لموقف هذا الكافر الجاحد في أثناء النزع وشدته حتى تبلغ روحه تراقيه والترقوة هي عظم ما بين الرقبة والصدر.. وفي ذلك من شدة النزع حيث يضيق النفس وكأنه يتنفس من خرم إبره، كما قال عمرو بن العاص وهو في حالة النزع، يصف ذلك لابنه، (فإذا بلغت التراقي) ووصلت الروح إلى هناك فليس لها إلا الخروج مرغمة، ولا تسل عن ألمها وضيقها وكربها . (وقيل من راق) هل هناك راقٍ؟ ه ل هناك طبيب يداوي هذه الحالة والجواب لا أحد يستطيع أن يمنع الموت إذا حلّ (وظن أنه الفراق والتفت الساق بالساق) كناية عن الشدة فعندئذ يساق إلى ربه (إلى ربك يومئذ المساق) فكيف يكون مصيره وهو في الدنيا لم يتصدق ولم يصلِّ بل كان قد كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتم طى (بسبب كبره وغروره) فها هو الآن في حفرة ضيقة يحيط به ملكان شديدان يسألانه من ربك؟ من نبيّك؟ ما دينك؟ ما كتابك فلا يدري جواباً فيضرب بمقامع من حديد يرتج لها كل ما في الكون ما عدا الثقلين.

ويكون التنبيه والتقريع لمن لا يزالون في الدنيا على شاكلته {أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى *ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى *أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً *} أن يترك عبثاً لا يحاسب كلا، بل هناك بعث ونشور وحساب وعقاب على النقير والقطمير . ويا له من يوم عسير . ثم يجعله ينظر إلى كيفية خلقه {أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى *} ألم يكن نطفة من هذا المني الذي يمنى، وهي أمر حقير تافه . فالمني سائل (ماء) به مجموعة كبيرة من الحيوانات المنوية (ما لا يقل عن خمسين مليون في كل مليلتر من المني. والمني يبلغ ثلاثة إلى خمسة مليلترات). ويختار الله واحداً منها فقط ليلقح نطفة المرأة (البويضة) وفي ذلك إعجاز وأي إعجاز وقدرة ربانية لا يمكن تصورها. والحيوانات المنوية التي تبلغ مئات الملايين لا تشكل سوى نصف إلى واحد بالمئة من هذا المني، أي جزء يسير من هذا المني.

فإذا أراد الله سبحانه وتعالى خلق هذا الإنسان جعل واحداً من هذه الحيوانات المنوية يلقح البويضة (نطفة المرأة) فإذا ما تمّ ذلك، تحول إلى علقة ثم إلى مضغة ثم إلى عظام ثم إلى لحم يكسو العظام. وقد ذكر الله هذه المراحل المختلفة في سورة الحج وفي سورة المؤمنون ولكنه هاهنا اختصرها قال عزّ من قائل {ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى *} {فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى *} والضمير عائد على النطفة من مني يمنى حيث أن مني الرجل يحتوي على خمسين بالمئة من هذه الحيوانات المنوية مما يحمل شارة الذكورة (الكروموسوم Y) وخمسين بالمئة مما يحمل شارة الأنوثة (X) فإذا شاء الله سبحانه وتعا لى لقح حيوان منوي يحمل شارة الذكورة البييضة (نطفة المرأة) فيكون الناتج بإذن الله ذكراً، وإذا لقح حيوان منوي يحمل شارة الأنوثة (X) البييضة فيكون الناتج بإذن الله أنثى. وهو ما ذكره الله سبحانه وتعالى أيضاً في سورة النجم، قال تعالى {وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَ يْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى *مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى *} [النجم/ 45، 46] والنطفة التي تمنى هي نطفة الرجل لا ريب [1].

(1)انظر تفاصيل خلق الإنسان وتحديد جنس الجنين في كتابي خلق الإنسان بين الطب والقرآن، الدار السعودية، الطبعة 13 فصل النطفة.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى يوم القيامة في معظم سور القرآن وخاصة السور المكيَّة فقد أكثر الله فيها سبحانه وتعالى ذكر يوم القيامة والآخرة و شدتها، وما يعقبها من حساب وعقاب وجنة ونار.

قال تعالى في سورة القمر {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ *وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ *وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ *}. وقد انشق القمر فعلاً، وانفلق فلقتين ترى على جبلين من مكة، رأي العين هما جبل أبي قبيس وجبل قيقعان (رواه الشيخان)، وهو من معجزاته الكبرى . ومع ذلك لم تؤمن قريش . فقال له المولى سبحانه وتعالى {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ *} أي شي منكر تنكره النفوس لشدّته وهوله. {خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ *}. يخرجون خاشعين أذلاًء من قبورهم، وهم لكثرتهم كأنهم جراد منتشر (مهطعين إلى الداع) مسرعين مادّي أعناقهم إلى الدّاعي، وهو الله سبحانه وتعالى {يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ }، أي يوم شديد صعب على الكافرين. ثم يقصّ المولى سبحانه وتعالى قصة نوح مع قومه وما انتهوا إليه من العذاب والغرق، ثم بعدهم قوم هود، اهلكوا بريح صرصر عاتيه، ثم ثمود أهلكوا بالصيحة وبعدهم قوم لوط حيث قلب عليهم الأرض بعد أ ن رفعها جبريل بجناحه، تبعتها الحجارة الحصباء، وهكذا قوم فرعون، وينتهي سبحانه وتعالى موبّخا لقريش قائلاً {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ *أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ *} وقد هزم جمعهم يوم بدر {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ *إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ *يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ *} وسقر هي جهنم . أما المتّقون فهم في نعيم دائم قال تعالى {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ *فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ *} ويا له من نعيم دائم عند المليك المقتدر خالق الأكوان وخالق كل شيء ورب كل شيء.

والسور الملكيَّة كلها تتحدث عن يوم القيامة وأهوالها وما يعقبها من حساب وعقاب، ونعيم وعذاب. قال تعالى في سورة المزمل {وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً *إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيمًا *وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا *يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً *} [المزمل/11 - 14] ثم يقول سبحانه وتعالى {فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا *السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً *إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً *} [المزمل/ 17 - 19] .

وفي سورة المدثر يقول تعالى في وصف يوم القيامة {فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ *} وهي نفخة الصور {فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ *عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ *} [المدثر/ 8 - 10] ثم يصف ذلك المستكبر وهو الوليد بن المغيرة المخزومي الذي قال الله عنه : {إِنَّهُ فَكَّرَ وقَدَّرَ *فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ *ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ *ثُمَّ نَظَرَ *ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ *ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ *فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ *إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ *} {إِنَّهُ فَكَّرَ وقَدَّرَ *فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ *ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ *ثُمَّ نَظَرَ *ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ *ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ *فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ *} [المدثر/18 - 25] وهو يعلم علم اليقين أن هذا القرآن من عند الله، ولكنه الكبر والأشر والبطر فكان عقابه سقر قال تعالى {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ *لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ *لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ *} [المدثر/26 - 29] .

وفي سورة الإنسان وصف لهذا الإنسان الذي لم يكن شيئاً مذكوراً ثم جعله الله نطفة ثم خلق النطفة بشراً سوياً ذا سمع وبصر وعقل يتدبر وأمامه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً.

قال تعالى {هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا *إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا *إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا *إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيرًا *} [الإنسان/1 - 4] ثم وصف المولى النعيم الذي يرفل فيه الأبرار {إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا *عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا *يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا *وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا *إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَ زَاءً وَلاَ شُكُورًا *إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا *فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا *وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا *مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا *وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً *وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا *قَوَارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا *وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً *عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً *وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا *وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا *عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا *إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا *} [الإنسان /5 - 22] .

وهو وصف جميل رائع مبهر لنعيم الجنة وقد نزلت هذه السورة في الإمام علي، وزوجته فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، كانا صائمين، فلما حضر وقت الإفطار عند المغرب، جاءهم مسكين فأعطياه أكلهما واكتفيا بالماء القراح، وصاما اليوم التالي، فلما كان وقت الإفطار وقد بلغ بهما الجوع مبلغاً، جاءهما يتيم فأعطياه فطورهما واكتفيا بالماء، وفي اليوم الثالث جاءهما أسير كافر، وهم في أشد الحاجة والجوع في وقت الإفطار فأعطياه وجبتهما وصبرا على الجوع الممضِّ ثلاثة أيام بلياليها قضياها بلا طعام، وكل ذلك يؤثران على أنفسهم مسكيناً ويتيماً وأسيراً. ومع ذلك يقولان لهؤلاء {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا *إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا *} واليوم العبوس هو الشديد وكأنه شخص عابس والقمطرير هو الشديد السواد والشدّة . فلله هذه الوجوه الناضرة ما أكرمها على الله، تصبر على الجوع ثلاثة أيام متتالية ويتصدقون بوجبه طعامهم الأساسية للمسكين واليتيم والأسير. وأشدها، على النفس في اليوم الثالث بعد أن بلغ الجوع مبلغه فإذا أسير يمشي بقيوده يجرها جرّاً، فيتقدمون له بطعامهم .. وهو أسير كافر غير مسلم . فأي مستوى رفيع من الأخلاق هذا. وأي إيثار أعظم من هذ الإيثار. وأين من ذلك ما يتنادون به من حقوق الإنسان وحقوق الأسرى. وقد رأينا ما فعلته أعظم دول العالم اليوم وأكثرها شقشقة وحديثاً عن العدالة. وعن حقوق الإنسان، وماذا فعلت في جوانتنامو بأناس لم تثبت عليهم تهمة وكيف عذّبتهم حتى مات بعضهم، وكيف أذلّتهم وعرّضتهم لكل أنواع العذاب النفسي والجسدي. وما فعلوه في العراق في (أبو غريب) أشدُّ وأكثر هولاً وفظاعة، من اعتداءات بدنية ونفسية وجنسية.. وكل ما يخطر في بال الشيطان والأبالسة فعلوه .. بل أكثر مما يمكن أن يخطر في بال أشد الأبالسة عتوا.

وماذا فعل الصرب؟ وماذا فعل هؤلاء الأوربيون الذين يتسُدقون باسم الحضارة والرقي وحضارة الإنسان وحقوق الأسرى والمسجونين .. إنهم في أسفل سافلين .. في القاذورات وركام الأكاذيب والدعايات الفارغة والحياة المليئة بكل دعارة وحقارة يعيشون ... كم قتلوا من سكان أفريقيا وأستراليا والأمريكيتين وآسيا في أثناء غزواتهم الاستعمارية؟؟ وكم شرّدوا؟ وكم أجرموا؟.

أما هذا المستوى السامي السامق الرفيع من الأخلاق فإنه لا يبلغ لديهم أن يحدث ولو في الخيال. ومع هذا تحقَّق في مدينة الرسول ومن ابن عمه ووصيّه وختنهُ زوج ابنته سيدة نساء العالمين، فكم صبرت وكم عانت؟! لله أنت يا فاطمة الزهراء ما أرفع مقامك عند ربك .. لهذا كله جعلك الله سيدة نساء الأولين والآخرين. ورفع مقامك ومقام زوجك وأبيك وأمك وابنيك إلى مقام لم يرفع إليه أحد غيركم يا آل بيت النبوة والفتوة !! يا أهل الكساء الذين نزل فيهم قول الله تعالى {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب/33] . وأهل بيته كما ورد في صحيح مسلم هم الذين حرموا الصدقة، وأهل بيته هؤلاء هم أهل الكساء الذين صحّت فيهم الأحاديث أنهم جلَّلهم رسول الله بكسائه وقال: «هؤلاء آل بيتي اللهم طهرهم تطهيرا ». فقالت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها وأرضاها: اجعلني معهم يا رسول الله، فقال لهاّ «أنت على خير .» وقد روت بنفسها ذلك الحديث [1].

فهذا المستوى الرفيع من الأخلاق والتضحية والإيثار لم يكن إلا بسبب الإيمان اليقيني باليوم الآخر والبعث والنشور {إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا *} فكانت النتيجة الحتميّة {فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا *وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا *}.

ولم يقتصر ذلك على آل بيت النبوة، بل كان الأنصار من الأوس والخزرج {...وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر /9] ولم ينزل مهاجري على أنصاري إلا بالقرعة.. كانوا يتنافسون في استقبالهم وإكرامهم وكان الأنصاري يقول لأخيه المهاجري بعد أن يقسم ماله نصفين : خذ أيهما أحب إليك . ويتنازل عن إحدى زوجتيه ويقول له : أيهما أعجب لك فأطلقها فتتزوجها؟! وكان المهاجري يردُّ على هذا الكرم الفائض بارك الله لك في مالك وأهلك. دُلّني على السوق. ويذهب ليبيع ويشتري فيرزقه الله تعالى.

كانوا على أنقى صورة من الصفاء والمحبّة والإيثار. وقد وصف الله المهاجرين والأنصار في محكم كتابه في صورة الحشر بعد الانتصار على بني النضير من اليهود، فأعطى رسول الله المهاجرين. فقد كانت فيئاً لرسول الله بدون قتال، إذا استسلمت يهود، فأجلاهم رسول الله ، وسمح لهم بأخذ أموالهم ما عدا الحلقة أي السلاح. فخرجوا يُخربون بيوتهم وأيدي المؤمنين. قال تعالى {وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ

(1)انظر التفاصيل والمزيد من هذه الأحاديث في مقدمة كتاب «الرسالة الذهبيّة » للإمام علي الرضا لكاتب هذه السطور ونشر الدار السعودية (ط 4).

وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [الحشر/ 6 - 9] وقد نزلت في الأنصار عامة، وفي أبي أيوب (خالد) الأنصاري رضي الله عنه خاصة حيث استضاف ضيف رسول الله عندما جاءه أحدهم، ولم يكن معه شيء فقال رسول الله : «من يضيف ضيف رسول الله؟ » فقال أبو أيوب أنا يا رسول الله. ولم يكن عنده إلا عشاء الأطفال الصغار. فقال لزوجته شاغليهم حتى يناموا. ثم قدّموا العشاء وأطفئوا السراج حتى يأكل الضيف، وهم يتظاهرون بالأكل، فتركوا أكل صغارهم وأكلهم هم، مع ما بهم من فقر وخصاصة، تركوه كله لضيف رسول الله حُبّاً لله ولرسوله ورغبه فيما عند الله تعالى.

لهذا مدحهم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. ولم يكن ذلك فقط في هذا الجيل الرباني الفريد ولكنه استمر وإن بصورة أقل بكثير مما سبق في الأجيال التي أتت بعدهم قال تعالى {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ... *} [الحشر / 10] وهكذا طهَّر الله قلوبهم من ال غلِّ والحسد للذين آمنوا، ونجّاهم من جميع الأخلاق المذمومة وحلاّهم بجميع الأخلاق المحمودة . وذلك كله نتيجة الإيمان ونتيجة استحضار يوم القيامة.

ومما جاء في مشاهد القيامة ذلك الاستعراض العجيب في سورة الحاقة. فبعد أن استعرض المولى سبحانه وتعالى ما حلّ بعاد وثمود وفرعون ومن قبله ثم المؤتفكات بالخاطئة (وهي قرى قوم لوط) وقوم نوح الذين أغرقهم الله سبحانه وتعالى نتيجة بغيهم وكفرهم قال تعالى يصف يوم القيامة {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ *وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً *فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ *وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ *وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ *يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ *فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ *إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ *فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ *فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ *قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ *كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَ ةِ *وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ *وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ *يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ *مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ *هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ *خُذُوهُ فَغُلُّوهُ *ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ *ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ *} {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ *وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ *يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ *} [الحاقة/ 13 - 32] لماذا يا رب ينال كل هذا العذاب {إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ *وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ *فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ *وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ *لاَ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ *} [الحاقة/33 - 37] .

وهكذا تكون نتيجة الكبر ورفض الإيمان بالله وباليوم الآخر وبالرسل الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى سبباً لهذا العذاب المهين . ولكن القرآن الكريم يكتفى هاهنا بذكر جريمتين

كبيرتين لهذا المتجبر صاحب الصولة والسلطان {إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ *وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ *} ياالله فإن عدم الحضّ على طعام المسكين يقرن بعدم الإيمان بالله وتكون نتيجته أن يغل من عنقه وأن يسلكوه في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً ثم في الجحيم صلّوه. يصلى نارها وحرّها. وفوق ذلك ليس له اليوم هاهنا حميم ولا صديق ولا معين ممن كان له في الدنيا وهو صاحب ال سلطان والصولجان . وليس له طعام إلا من غسلين وهو غسالة أهل النار مما يسيل منهم من القيح والدم والصديد.. ويا له من طعام خير منه الجوع أو خير منه الزقوم وهي شجرة تطلع من أصل الجحيم رؤوسها كرؤوس الشياطين.

تصوّر أن مجرّد عدم الحضّ على طعام المسكين يقرن بالكفر بالله سبحانه وتعالى ويكون عقابه هذا العقاب الأليم.

وتتكرر هذه المشاهد لهؤلاء المستكبرين الذين يمنعون الماعون ويمنعون رفدهم لمن يحتاج إليه بل ويتكاسلون حتى عن الحضّ على طعام المسكين . قال تعالى {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ *فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ *وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ *فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ *الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ *الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ *وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ *} [سورة الماعون] وهي سورة شديدة على قصرها. فمن هذا الذي يكذب بالدين، وهو يوم ال جزاء ويوم الدينونة؟ إنه صاحب الخلق الجافي القاسي {الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ }. فهو لا يكتفي بعدم إعطاء اليتيم بل يدّعه دعّا ويدفعه دفعاً شديداً ضيّقاً به وتبرُّماً منه . {وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ *}، لا هو أطعم المسكين ولا هو حضَّ على إطعامه، وهو أقلّ البرّ والخير. ثم انظر إليهم كيف يراؤون ويقفون في الصفوف مصلّين وهم عن صلاتهم ساهون لا يدرون صلّوا أم لم يصلّوا . وإنما هم يراؤون ويتظاهرون بأداء الصلوات وهم لا يؤدونها حقيقة . وقلوبهم فارغة منها ومن معانيها. وحتى الماعون يمنعونها ولا يعيرونها للفقراء من جيرانهم إذا طلبوها منهم . فهم قد اختصّوا بأخلاق الشرّ من النفاق والرياء والتظاهر بأداء الصلوات، وهم عنها ساهون، وهم مكذّبون في قلوبهم بيوم الدين، يوم الجزاء يوم القيامة، ويكون سلوكهم سلوك المعتدين وأخلاقهم أخلاق الجبارين مع الفقير والمسكين واليتيم وا لأرملة . وصفة هذا الذي يكذب بالدين وعلامته الكبرى {فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ *وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ *}.

وهكذا تجد أن الإيمان باليوم الآخر دافعاً لأكرم الأخلاق إلى درجة الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة وأما عدم الإيمان بلليوم بالآخر فيؤدي إلى أرذل الأخلاق وإلى الكزازة والتجبر والطغيان حيث يدعُّ اليتيم دعاً، وحيث يمنع العطاء عن المسكين، بل ولا يحضُّ على عطائه أبداً.

وتبدأ سورة المعارج ، وهي مكيّة، بسؤال عن العذاب الواقع، وهو عذاب يوم القيامة والمخيف المريع. قال تعالى {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ *لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ *مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ *تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ *} [المعارج 1/ - 4] ويا له من يوم طويل، لا يستطيع أحدٌ من أهل الدنيا أن يتصوره . وقد خفّفه الله سبحانه وتعالى على أهل الإيمان والإحسان. فهو كصلاة مكتوبة لأصحاب المقامات العُلى .. ويطول بعد ذلك على أهل الموقف كلا بحسب عمله وإيمانه، حتى يبلغ ذلك الطول المخيف خمسين ألف سنة، حينما تسامت الشمس الرؤوس، ويغرق الناس في عرقهم، كل واحد منهم بحسب

عمله فمنهم من يبلغ كعبيه، ومنهم من يبلغ ساقيه، ومنهم من يلجمه العرق .. ويذهب الناس إلى الأنبياء آدم فمن دونه يسألونهم الشفاعة ليخفّف الله ذلك اليوم. وكلهم يعتذر ويقول : نفسي نفسي قد غضب ربي غضباً لم يغضبه من قبل ولن يغضبه من بعد . اذهبوا إلى فلان. وكل واحد يحيل إلى الآخر حتى وصلوا إلى محمد فيقول : «أنا لها أنا لها ». ويأتي ويسجد تحت العرش سجدة طويلة يلهمه الله فيها من الدعاء ما لم يكن يعرفه من قبل، فيقال له : ارفع، واشفع تشفّع. وتلك هي الشفاعة الكبرى والوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة ال تي لا تنبغي لأحد سوى لرسولنا الكريم أفضل خلق الله محمد .

ثم يصف الله تعالى ذلك اليوم العسير {يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ *} أي كدوردي الزيت وذائب الفضة {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ *} والعهن بلغة أهل عسير (أبها وما حولها) إلى اليوم هو القطن. وقيل هو الصوف في الخفة وسرعة تناثره . {وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا *} من شدة الهول . رغم أنهم يبصرونهم {يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ *وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ *وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ *وَمَ نْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ *} {يُبَصَّرُونَهُمْ... *} [المعارج/10 - 14] {كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى *} وهو من أسماء جهنم لأنها تتلظّى وتتلهف لابتلاع الكفار {نَزَّاعَةً لِلشَّوَى *} والشواة هي جلدة الرأس والجمع شوى . {تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى *وَجَمَعَ فَأَوْعَى *} تدعوا هذا المستكبر الذي أدبر عن دعوة الحق وتولى بكبره مغترّا بما جمعه من أموال وكنوز {...فَأَوْعَى *} أي جمعه في الأوعية والخزائن، رافضاً أن ينفقه على الأرملة واليتيم والمسكين وانظر إلى أخلاق هذا الكافر {إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا *وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا *} وهي صفتهم في كل زمان ومكان {...أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا}. وهي صفات البشر عموماً {إِلاَّ الْمُصَلِّينَ *الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ *وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَ عْلُومٌ *لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ *} {إِلاَّ الْمُصَلِّينَ *} وهو حق الزكاة {وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ *وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ *إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ *} فسبب استثنائهم من الأخلاق البشرية ا لمذمومة وأظهرها الهلع وشدة الخوف، والاضطراب الشديد والجزع إذا أصابه الشر، والمنع والاستعلاء إذا أصابه الخير والمال والغنى، سبب كل ذلك هو إيمانهم بالله وإيمانهم باليوم الآخر لذلك هم من المصلين حيث تربطهم الصلاة بربهم والصلاة صلة بين العبد والرب، والصلاة تنه ى عن الفحشاء والمنكر والبغي وكل الموبقات والأخلاق المرذولة . فيتصدقون ويؤدون الزكاة المفروضة . وهم يخشون اليوم الآخر وما فيه من تغييرات كونية مرعبة . ومن عذاب وحساب وعقاب . {وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ *إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَ أْمُونٍ *} [المعارج/27 ،28] ولذا فهم طاهرون مطهرون {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ *إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ *فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ *أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ *} [المعارج/29 - 35] .

هذه هي أخلاق وصفات الذين يخشون ربهم ويخافون عذابه ويؤمنو ن باليوم الآخر .. كل الأخلاق الحسنة الراقية في كفتهم، وكل الأخلاق المرذولة الحقيرة من العُجب والكبر

والغرور والدناءة والشح والبخل والكزازة والغلظة مع الخوف والهلع وعدم الصبر عند الشدّة.. كلها من نصيب الذين لا يؤمنون بالآخرة.

فكيف لا يكون الإيمان بالآخرة من ركائز الأخلاق؟ وكيف لا يكون فقدان ذلك الإيمان سبباً في كل خلق رديء سيءٍ حقير مرذول.

والقرآن كله، وخاصة المكي منه، مليء بمئات الشواهد. وفي ما أوردناه غُنيه لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

الإيمان بالرسل

بدأنا بأوائل سورة البقرة {الم *ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدَىً لِلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ *أُولَئِكَ عَلَى هُدَىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [البقرة/ 1 - 5] .

وقد أفضنا في الحديث عن صفات هؤلاء المتقين الذين يؤمنون بالغيب .. وتحدثنا بشيء من التفصيل عن هذه الغيوب وأن الله سبحانه وتعالى هو أول تلك الغيوب، رغم ظهوره في أفعاله فهو الظاهر والباطن وهو الأول والآخر، وهو بكل شيء عليم. ثم ذكرنا بعض الغيوب التي يجب على المؤمن والمسلم الإيمان بها وهي الملائكة والجن والإيمان بالرسالات جميعاً والكتب المنزلة من عند الله واليوم الآخر.

الصلاة والزكاة وارتباطها بالأخلاق

وقد ذكرت الآيات الكريمات في أوائل سورة البقرة الصلاة والزكاة . وكثيراً ما يقرن القرآن الكريم بينهما. قال تعالى {وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } [البقرة/ 3] وقال تعالى {وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ *} [البقرة/43] وقال تع الى {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ *} [البقرة/45] وقال تعالى {...وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ } [البقرة/83] وقال تعالى {وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ } [البقرة/110] وفصلت آية البرّ في أنواع البر المطلوبة قال تعالى {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَ ةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِ هِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ *} [البقرة/177] .

ويا لها من آية عجيبة جمعت أركان الإيمان وأهم أركان الإسلام، وأهم أركان الإحسان في الأخلاق.

بدأت الآية الكريمة بالتوجيه العميق الهام {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} ولكن البرّ بتوجه القلب إلى الله فأينما تولوا فثم وجه الله وقد جمع الله المسلمين على قبلة واحدة هي البيت الحرام قال تعالى {وَمِنْ حَيْثُ خَ رَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ

الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *} [البقرة/150] وقال تعالى لنبيه ومصطفاه {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} [البقرة/144] .

وليس البر كما يزعم اليهود بالاتجاه إلى بيت المقدس أو كما يزعم النصارى بالاتجاه إلى الشرق، حيث كان الامبراطور قسطنطين الذي وضع لهم تفاصيل دينهم وعبادتهم، يعبد الشمس ويتّجه إلى المشرق فاتجهوا إلى المشرق. وكانوا قبل ذلك يتوجهون إلى بيت المقدس، فلما جاء قسطنطين عام 325 ووضع لهم عقيدة نيقيه وثبَّت عقيدة التثليث ونفى ما عداها، وأقرّ أربعة أناجيل ورفض الأخرى الكثيرة . استقرَّ عندهم التوجه إلى المشرق حتى جاء البروتستانت في القرن السادس عشر بعد الميلاد فلم يجعلوا لقبلتهم جهة معيّنة، بينما بقي الآخرون يتجهون إلى المشرق.

ليس البر أيها الناس بالتوجه يميناً أو يساراً، شمالاً أو جنوباً وإنما البر بالتوجه إلى الله والإخلاص في عبادته {وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ } أي الإيمان بالله وحده وباليوم الآخر وبالملائكة وبكتبه ورسله، وهي أركان الإيمان . ثم ذكر أهم أركان الإسلام {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ} وكل ذلك في التطوع كما قال أهل التفسير قاطبة. لأنه ذكر بعد ذلك الصلاة والزكاة . قال تعالى {وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ } المفروضة، بشروطها وأنصبتها وأصحابها . وكلها قد فصلتها آيات أخرى وأحاديث نبوية عديدة . وإقامة الصلاة من أهم شعائر الدين. وهي خمس صلوات في اليوم والليلة قد فرضها الله على كل مكلف دخل دين الإسلام، ما عدا وقت الحيض والنفاس للمرأة فترفع عنها . والتكليف لا يكون إلا بالبلوغ والعقل. فإذا غاب العقل رفع التكليف. وأما الصبي فيعلّم ويدرّب على الصلاة لسبع، ويضرب عليها لعشر حتى يتعوّدها كما جاء في الأحاديث الصحيحة.

والصلاة عماد الدين وركنه الم تين فمن ضيعها كان لما سواها أضيع . وقد قال : «بين الرجل والشرك ترك الصلاة » أخرجه مسلم . وقال «بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة » أخرجه مسلم. وقال «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر».

و(كان أصحاب رسول الله لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر إلا ا لصلاة) وقال «من ترك صلاة العصر حبط عمله».

ومن أقام الصلوات الخمس بتمامها في المسجد جماعة فقد استوفى أهم أركان الإسلام بعد الشهادتين قال : «ما من امرىء مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفّارة لما قبلها من الذنوب، ما لم تؤت كبيرة، وذلك الدهر كله » [أخرجه مسلم في صحيحه] .

وقال في فضل هذه الصلوات: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات. هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه (أي وسخه وقذره) شيء. قال: فذلك مثل الصلات الخمس يمحو الله بهن الخطايا» أخرجه الشيخان البخاري ومسلم.

وعن أبي هريرة أن رسول الله قال : «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغشَ الكبائر» رواه مسلم.

وهناك مئات الأحاديث في الصلوات المفروضة والصلوات المندوبة وفضلها وفضل قيام الليل والوتر وغيرها .. وفضل بعض الأوقات على بعض . عن أبي م وسى الأشعري أن رسول الله قال: «من صلى البردين دخل الجنة» متفق عليه (رواه الشيخان البخاري ومسلم) والبردان : الصبح والعصر . وجاء في قوله {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ *} [البقرة/ 238] قيل أن الصلاة الوسطى هي العصر، وقيل غير ذلك . وقال : «لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » يعني الفجر والعصر، رواه مسلم.

وقال تعالى {إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا} [النساء/103] أي لها مواقيت وهي خمس صلوات في اليوم والليلة بمواقيتها المعروفة.

ولذلك كانت الصلاة مقياساً وميزاناً قال تعالى عن المنافقين {وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً} [النساء/143] وقال تعالى {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ *الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ *الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ *وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ *} [الماعون/4، 7] وقال تعالى {إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ } [العنكبوت/ 45] .

وقال عن المؤمنين الخاشعين {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ *رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ *لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ *} [النور/ 36، 38] .

والصلاة أحبُّ الأعمال إلى الله إذا أدّاها الإنسان بشروطها وخشوعها وتدبّرها وعن ثوبان أنه سأل رسول الله عن عمل يدخله الجنّة ويباعده من النار فقال: صلى الله عليه وسلم «عليك بكثرة السجود فإنك لا تسجد لله تعالى سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحطّ بها عنك خطيئة».

وقال تعالى {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَ ةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ *الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيهِ رَاجِعُونَ *} [البقرة/45، 46] .

والصلاة تحتاج إلى صبر في أول الأمر ثم تكون بعد ذلك أحبّ شيء للمؤمن . وتكون روحه وراحته. وكثيراً ما كان النبي يقول: «أرحنا بها يا بلال».

و{...يَظُنُّونَ} في الآية بمعنى يوقنون وكلمة الظن تأتي بمعاني كثيرة منها الشك وعدم اليقين، ومنها شدة اليقين {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيهِ رَاجِعُونَ *} كما في هذه الآية.

الصلاة والزكاة والأخلاق

قال تعالى {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } [العنكبوت/45] فإذا لم تنه الصلاة عن الفحشاء والمنكر والبغي وسيء الأخلاق فإن الذي أدّاها، إنما أدى ظاهرها،

ولم يلتفت إلى باطنها وحقيقتها. فحقيقتها إقامة الصلة بالله سبحانه وتعالى ومحبّة الله سبحانه وتعالى ومحبّة رسوله. فإذا كان صادقاً في محبّته وصلاته فلا شك سيترك الفحشاء والمنكر والبغي والعدوان لأن هذه هي أخلاق الكافرين والمنافقين.

وفي الحديث القدسي : «إنما أتقبل الصلاة ممّن تواضع لعظمتي، ولم يستطل بها على خلقي، ولم يبت مصرًّا على معصيتي، وقطع النهار في ذكري، ورحم المساكين وابن السبيل، ورحم الأرملة ورحم المصاب ». أخرجه الزبيدي . وقال تعالى {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا } [التوبة/103] والزكاة معناها النماء، والتزكية التصفية والتطهير . وهي تطهر النفس من الشحِّ وحبِّ المال . فللزكاة دور عظيم في تصفية النفس من أدرانها ومن الشح والبخل وحبّ المال وحبّ الدنيا. قال تعالى {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا *} [الفجر / 20] .

وذلك بعد أن قال عزّ من قائل {كَلاَّ بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ *ولاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ *وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا *وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا *} [الفجر / 17 - 20] والتراث هو الميراث وكانوا وللأسف لا يزالون يأكلون ميراث النساء، أو يمنعوهن من الميراث من آبائهم وأمهاتهم وخاصة ما يتعلق بالأراضي أو البيوت. والأكل الشديد عبَّر عنه القرآن بأنه أكلاً لمّا أي أكلا شديداً، لا يبقى منه شيء.

وقال تعالى {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ *قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ *} [آل عمران/ 14، 15] .

وقد فطر الناس على حبّ هذه الشهوات ومن بينها النساء والمال والذهب والفضة، والخيل المسومة والأنعام والحرث. ولكن ذلك كله متاع قليل لأنه زائل، وكل متاع الدنيا زائل . فكيف إذن نقضي على هذه الشهوات المركوزة في نفوس البشر إلا من عصم ربك بالتذكير بالآخرة والآخرة وما فيها من نعيم في الجنات التي تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . ولهم الأزواج المطهرات الجميلات. والفرق بين نساء الدنيا ونساء الآخرة لا يقاس، فكل نعيم الدنيا لا يقاس بذرة من نعيم الآخرة، وفوق ذلك كله رضوان من الله .. وهو أفضل من كل ذلك النعيم.. ولهذا كتب الله سبحانه وتعالى الزكاة لكي تتزكى النفوس وتخرج من الكزازة والشحّ والبخل، وخوف المستقبل، إلى آخر ما يخوّف به الشيطان أتباعه وأولياءه.

وقال تعالى عن هذا الإنسان الكنود الجاحد لنعمة ربه {إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ *وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ *وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ *} [العاديات/ 6 - 8] .

والكنود هو الكافر للنعمة الجاحد لفضل ربه . ومع ذلك فهو شهيد على نفسه يوم القيامة {كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ } [الإسراء/14] {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ *} وقد سمّى الإنسان المال الخير [1] .. وهو قد يكون خيراً إذا كان بيد المؤمن يأخذه من حِلِّه، ويصرفه في محله،

(1)ويطلق على المال في اللغة (الخير) وقد ورد في القرآن الكريم بهذا المعنى.

دون تقتير ولا إسراف. ولكنه بيد الكافر والمنافق شرٌّ ووبال عليه، رغم أنه يظن أنه خير .. فهو عبد لهذا المال عبد لهذا الدرهم وقد قال : «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم. تعس عبد القطيفه تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش » رواه البخاري في صحيحه وابن ماجة في السنن.

وقد حثّ الله سبحانه وتعالى على الإنفاق في كل وجوه الخير حثًّا شديداً، والقرآن الكريم مليء بالآيات الكريمات في هذا الباب قال تعالى [سبأ/39] .

ووصف سبحانه عباد الرحمن بعدة أوصاف منها قوله تعلى {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا *} [الفرقان/67] .

وصف تفصيلي للإنفاق والحث عليه

وقال تعالى {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ *الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ *يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ *وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ *يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ *الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ *يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ *وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ *إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ *لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ *لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ *الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *} [البقرة/261 - 274] .

وصف الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة الإنفاق في سبيل الله بصورة مفصّلة جميلة رائعة وحذّر من دخائل النفوس، ومن الأذى بعد الإنفاق، ومن ذكره فالإنفاق ينبغي أن يستر، ولا يمنُّ به على من أعطاه ولا يذكره به، فخير العطاء ما كان أعجله وأسرعه وأخفاه دون

منّ. وذكر مداواة النفوس من هذا العطاء المدخول بداء النفوس، وهو حبُّ الظهور، وحب الثناء من الناس، وعدم الإخلاص لله في هذا العطاء.

قال تعالى حاثاً على العطاء وأن الله يضاعفه أضعافاً كثيرة، وضرب له المثل بحبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء إلى أضعاف كثيرة قال تعالى {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ *} [البقرة/261] وشرط هذه المضاعفة أن تكون ابتغاء وجه الله في سبيل الله . ووصف بعد ذلك كيفيتها فقال عزّ من قائل {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *} ثم يعقب على ذلك ويهدد {قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ *} ثم يضرب الله مثلاً لمن يبطل صدقته بالمن والأذى (كصفوان) وهو الحجر الأملس عليه تراب (فأصابه أوابل) أي مطر فبدلاً من أن ينبت وينتفع بهذا المطر (الوابل الصيب) تركه صلداً وأزال ما عليه من التراب فظهرت وبانت قساوته . وكذلك هذه الصدقة التي يتبعها المن والأذى تزيل هذه الطبقة الرقيقة من التراب فيبدو القلب على حقيقته صلدا جاسيا جافا لا يدخل إليه بصيص من نور . وكيف يدخل إلى هذه الصخرة القاسية الجافة، وقد زال ما كان عليها من التراب (الخير) فجاء المطر الذي هو مظنة الخير والإنبات، فأظهر قسوتها وكنودها وغلظها ويا لها من صورة مرعبة ومعبّرة {لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}. ثم يضرب الله مثلاً آخر لمن في قلوبهم الخير يريدون وجه الله وابتغاء مرضاته {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ} ويا لها من جنة في مكان مرتفع وهي محتاجة إلى المطر {أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ } وهكذا يضاعف الله لهؤلاء الذين ينفقون في سبيل مرضاته {فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ} أي مطر غزير (فطلّ) أي مطر خفيف، ولكن بما أنها أرض طيبة، فإنها تكتفي بهذا الطلّ أي المطر الخفيف وتنبت من كل الثمرات . ثم يضرب الله مثلاً آخر محذراً من إحراق الحسنات بالنية السيئة وبالأذى، وإضاعة فضل الصدقة بالمن . يقول تعالى {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ} وها هو في آخر عمره وقد تعب في أول حياته حتى أقام هذه الجنة من النخيل والأعناب وكل الثمرات وتجري من تحتها الأنهار . وهو يعلم أنه لا يستطيع أن يقوم بإحيائها من جديد إذا ذهبت أو احترقت لسببين الأول كبر سنه وضعفه، والثاني أن ذريته ضعفاء صغار لا يستطيعون العمل، وهم أشدّ ما يكونون حاجة لها. فماذا يحدث بالمن والأذى؟ أنه كالإعصار الذي فيه نار يحرقها عن بكرة أبيها، وهو أشدُّ ما يكون حاجة لها . {فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ}. وهذه نتيجة حتميّة للمن والأذى فسيأتي يوم القيامة وقد آذى هذا وضرب هذا وأخذ مال هذا وظلم هذا فيؤخذ من حسناته التي مثل الجبال فلا يبقى منها شيء، ثم يطرح عليه من سيئاتهم وذنوبهم، ثم يؤخذ فيطرح في نار جهنم. وهو الذي سماه رسول الله المفلس في الحديث الصحيح.

ويأتي هذا ومعه مثل هذه الجنة الوارفة الظلال الكثيرة الأثمار فيحرقها إعصار ناري بسبب المنّ والأذى فيا لها من خسارة ويا لها من حسرة يوم القيامة . ثم يأمرهم الله سبحانه وتعالى بأن ينفقوا من طيبات ما يكسبون ولا يذهبوا إلى الخبيث ينفقون منه . ولو أن أحداً أعطاهم مثله لما قبلوه أو لقبلوه على مضض لشدّة حاجتهم وفاقتهم، قال تعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ } ولا يقبل الله إلا طيبا أما الخبيث والمال الحرام فهو ردٌّ على صاحبه {وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ } والخبيث هاهنا بمعنى الرديء وأنكم لم تكونوا لتقبلوه إلا أن تغمضوا أي بالتساهل فيه وغض البصر أو غمضه كاملاً حتى لا يراه. {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} لا يحتاج إلى ما تنفقون وإنما هو عائد لكم بأضعاف أضعافه. وهو حميد وشاكر لكم إذا أنفقتموه ابتغاء رضوان الله. ثم يحذرهم فيقول وهو أعلم بنيّاتهم {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ *} {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ *} ثم يقول لهم إن كانت نيتكم خالصة لله تعالى فإن إبداء الصدقة قد يكون خيراً، ليقتدي بكم الآخرون ولكن إخفاءَها أفضل عند الله وما الظالمين من أنصار قال تعالى {إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ *} {إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ » وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ...}. وكل ما ستنفقونه في سبيل الله سيرجع لكم أضعافاً مضاعفة في وقت أنتم أشدُّ ما تكونون حاجة له . ويحثّهم حثّاً على الإنفاق وخاصة للفقراء الذين يحسبهم الجاهل أغنياء بسبب تعفّفهم فهم لا يسألون الناس ولا يلحفون (أي يشددون ويكثرون) في الطلب. قال تعالى {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ} [من شدة العوز والحاجة] وهم {لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا } أي لا سؤال لهم أصلاً. وقد نزلت في أصحاب الصفّة من الفقراء الذين كانوا يسكنون خلف بيت النبي وكان عددهم يزيد ويقل حتى بلغ الأربعمائة . وهم متفرّغون للجهاد في سبيل الله، وطلب العلم عند رسول . ولا يضربون في الأرض في التجارة أو غيرها ومع ذلك فهم ذوي كرامة لا يسألون الناس أصلاً . ولكن الإنسان المؤمن يعرفهم بسيماهم لأن الجوع والفقر والخصاصة قد أضرّت بهم فظهرت على سيماء وجوههم . ثم تنهي الآيات المباركات آيات الإنفاق بحدث فريد. فقد حصل الإمام علي كرم الله وجهه على أربعة دنانير من عمله فأنفقها كلها في سبيل الله بطرق مختلفة : أنفق دينارا بالليل وديناراً بالنهار وديناراً خفية وديناراً علانية، فحمده الله على ذلك في كتاب أبد الآبدين، قال تعالى {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *} [البقرة/274] .

وتأتي بعدها آيات كثيرة تندّد بالربا وهو الصورة البشعة المقابلة للصدقة والبذل . وكل ما أصاب الإنسانية وخاصة في عصرها الحديث وبالذات الأزمة المالية الحالية (2009) كلها ناتجة عن هذا النظام الربوي البشع الجشع ـ وما يتبعه من استغلال وسرقة أموال وبيع ما لا وجود له وما يسمى المشتقات المالية حتى بلغت م بالغ خرافية لم يسمع بها البشر من قبل وهي تريليونات الدولارات. والتريليون هو مليون مليون . وقد عرف العرب في أيام عزِّهم

ومجدهم مبلغ ألف ألف وكانوا يعدُّونه من المبالغ الخرافية . والألف ألف ليست إلا مليوناً واحداً فكيف بهم إذا كان المبلغ مليون مليون!!

ولا شك أن هذا النظام الربوي الحالي سينهار كما تنبأ بذلك أساطين هذا النظام وعلماء الاقتصاد فيه. ولا أحد يدري متى؟ ولكن علامات الانهيار بادية لكل من له نظر، وكل من له قدرة على التفكير والاعتبار.

الصوم ودوره في الأخلاق

قال تعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِ يقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَ نِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ *أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَ تِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُ مْ يَتَّقُونَ *} [البقرة/ 183 - 187] .

احتوت هذه الآيات القليلا ت على أحكام الصيام التي وردت في القرآن . وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه كتبه على أُمَّه محمد كما كتبه على الأمم السابقة، وإن اختلفت تفاصيل الصيام وعدد أيامه وكيفيته. وقد لطف الله بعباده فسمح للمريض والمسافر أن يفطر ثم يصوم في أيام أخر. وهل الأفضل الإفطار ولو كان السفر يسرا؟ خلاف بين الفقهاء . (وعلى الذين يطيقونه) أي بمشقة للكبر سن أو مرض مزمن (زمانة) فعليهم فدية طعام مسكين عن كل يوم من أيام الصيام . وعلى المرأة إذا حاضت أو نفست أن تفطر وتقضي في أيام أخر . وأما الصلاة فتسقط عنها. والحامل والمرضع فيها تفصيل ع ند الفقهاء فإن خافت على نفسها أو على حملها أو على رضيعها أفطرت وقضت ـ وقيل عليها فدية فقط وقيل فدية مع القضاء وقيل قضاء ولا فدية. خلاف بين الفقهاء ليس هاهنا محله.

والصوم الإمساك عن الطعام والشراب والجماع في نهار رمضان من طلوع الفجر إلى غروب الشمس. وقد أباح الله تعالى الأكل والشرب والجماع طوال الليل بعد أن كان مسموحاً فقط إلى أن ينام الشخص فإذا نام حَرُم عليه كل ذلك، فخفّف الله عنهم ذلك وأباحه إلى طلوع الفجر.

ومَنَعَ الرفث (النساء) إذا اعتكف الشخص في المسجد.. والاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان سنّة. وقد اعتكف رسول الله وزوجاته وصحابته من بعده.

وفضائل الصيام كثيرة جداً وفيه أنزل الله القرآن في شهر رمضان، وفيه ليلة القدر خير من ألف شهر وتكثر في هذا الشهر الكريم البركات والصدقات وصِلات الرحم وفعل الخيرات. وهو من أبرك الشهور على أمة الإسلام.

وفوائد الصيام لا حصر لها وأهمها حصول التقوى التي هي الغرض الأسمى وقد وردت في فضائله أحاديث كثيرة منها قوله : «قال الله عزّ وجلّ كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به«. والصيام جُنَّة (أو وقاية وحماية) فإذا كان صوم يوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابَّه أحدٌ أو قاتله فليقل إني صائم ». (وهو مظهر أخلاقي في منتهى الرقي) والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك (قالوا يبقى له الفضل حتى لو استخدم السواك والفرشاة) للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقى ربه فرح بصومه» أخرجه الشيخان البخاري ومسلم. وهذا لفظ البخاري . وفي لفظ البخاري أيضاً: «يترك طعامه وشربه وشهوته من أجلي. الصيام لي وأنا أجزي به . والحسنة بعشرة أمثالها» وفي رواية مسلم: « كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى : (إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به))». ويا له من فضل عظيم وقد أخرج الشيخان (البخاري ومسلم) أيضاً قوله : «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدّم من ذنبه».

ويقول ابن القيم في زاد المعاد [1] : «لما كان المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات وفطامها عن المألوفات، وتعديل قوتها الشهوانية لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية، ويكسر الجوع والظمأ من حدّة سورتها . ويذكّرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين . وتضييق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب، وتحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الط بيعة فيما يضرّها في معاشها ومعادها. ويسكّنْ كل عضو منها وكل قوة عن جماحه، وتلجم بلجامه، فهو لجام المتّقين وجُنَّة المحاربين (أي الترس أو المجنّ الذي يتقي به المحارب ضربات عدوه)، ورياضة الأبرار والمقرّبين، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال، فإن الصائم لا يفعل شيئاً، وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده . فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها إيثاراً لمحبّة الله ومرضاته. وهو سرٌّ بين العبد وربّه، لا يطّلع عليه سواه. والعباد قد يطّلعون منه على تلك المفطرات الظاهرة. (أما) كونه ترك طعامه وشرابه من أجل معبوده فهو أمر لا يطّلع عليه بشر وذلك حقيقة الصوم.

«وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة وحمايتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها أفسدتها. واستفرغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات، فهو من أكبر العون على التقوى كما قال الله تعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *} وقال النبي «الصوم جُنَّة ». وأمر من اشتدت عليه شهوة ولا قدرة له عليه بالصيام وجعله وجاء (أي رضّ الفحل) هذه الشهوة .

(1)ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد ج188/1.

والمقصود أن مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة والفطر المستقيمة شرعه الله لعباده رحمة لهم وإحساناً إليهم وحميّة وجُنَّة».

وقال في الطب النبوي في باب الصوم : «الصوم جُنَّة أي وقايه . وهو من أدواء (أدوية) الروح والقلب والبدن، وله تأثير عجيب في حفظ الصحة، وإذابة الفضلات، وحبس النفس عن تناول مؤذياتها، ولا سيما إذا كان باعتدال وقصد في أفضل أوقاته شرعاً، وحاجة البدن إليه طبعاً، ثم إن فيه من إراحة القوى والأعضاء ما يحفظ عليها قواها، وفيه خاصية تقتضي إيثاره وهو تفريحه للقلب عاجلاً وآجلاً».

«وهو يدخل في الأدوية الروحانية والطبيعية . وإذا رعى الصائم فيه ما ينبغي مراعاته طبعاً وشرعاً، عظم انتفاع قلبه وبدنه به، وحبس منه المواد الغريبة الفاسدة التي هو مستعد لها، وأزال المواد الرديئة الحاصلة، بحسب كماله ونقصانه».

«ويحفظ الصائم مما ينبغي أن يتحفظ منه وقيامه بمقصود الصوم وسرِّه وعلَّته الغائبة، فإن القصد منه أمر آخر وراء ترك الطعام والشراب. وباعتبار ذلك اختصّ من بين الأعمال بأنه لله سبحانه وتعالى.

«ولما كان جُنَّه ووقاية بين العبد وبين ما يؤذي قلبه وبدنه عاجلاً وآجلاً. قال تعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *} فأحد مقصودي الصيام: الجُنَّة والوقاية. وهي حمية عظيمة النفع. والمقصود الآخر: إجتماع القلب والهمّ على الله تعالى وتوفير قوى النفس على محابّه وطاعته».

وهكذا تتهذّب النفس وتتهذّب الأخلاق. وحتى في هذا الزمان الذي بعد فيه الناس عن حقيقة الإسلام، تجد ملايين المسلمين يقبلون على الصيام في شهر رمضان بشوق ولذة ابتغاء مرضات الله، وتجدهم يتسابقون إلى المساجد لأداء الصلوات المفروضة جماعة، ولإقامة صلاة التراويح المندوبة. وترى الإفطار الجماعي في كل مسجد.. وهي عادة جميلة انتشرت انتشاراً كبيراً في كل بقاع المسلمين، بل وفي البلاد البعيدة التي فيها أقليات مسلمة . وفيها مظهر جميل للتعاون والمحبّة وبذل الخير.. وترى المسلمين في أنقى صور التعاون والمودة في هذا الشهر حتى أن الإنسان ليتمنى أن تكون السنة كلها رمضان، لما يرى من هذا الإقبال على الخير وعلى محبة الآخرين وبذل المعروف، وتحمّل الأذى.

وانظر إلى الملايين تأتي من بلاد بعيدة لتقوم بعمرة في رمضان بعد أن سمعو ا حديث رسول الله : «عمرة في رمضان تعدل حجّة » وفي رواية «حجة معي » لهذا يتسابقون إلى مكة المكرمة ومنها إلى المدينة المنورة.. ولا يبالون بأي مشقّة، بل تغمرهم سعادة ليس مثلها أي سعادة من سعادات الدنيا من المال والجاه وغيرها.

وقد تحدّث الإمام الغزالي في كتابه الفذ «إحياء علوم الدين » عن الصوم وذكر الأحاديث الواردة في فضله، وما يحدث فيه من فرح القلب والبدن وتحدّث عن واجباته وسننه الظاهرة واللوازم بإفساده ثم تحدث عن أسرار الصوم وشروطه الباطنة فقال: «اعلم أن الصوم ثلاث درجات: صوم العموم، وصوم الخصوص وصوم خصوص الخصوص . أما صوم العموم فهو كفّ البطن والفرج عن قضاء الشهوة، كما سبق تفصيله، وأما صوم الخصوص : فهو:

كفُّ السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام . وأما صوم خصوص الخصوص: فصوم القلب عن الهمم الدنيّة، والأفكار الدنيويّة، وكفّه عما سوى الله بالكليّة . ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله واليوم الآخر، وبالفكر في الدنيا إلا دنيا تراد لدين، فإن ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا، حتى قال أرباب القلوب : من تحرَّكت همّته بالتصرّف في نهاره لتدبير عليه كتبت عليه خطيئة، فإن ذلك من قلة الوثوق بفضل الله .. (أما الآن فلا يحتاج أن يهتم لذلك إذ يكفيه أن يذهب لأقرب مسجد ليجد فطوره جاهزاً) وهذه رتبة الأنبياء والصديقين والمقربين..

وأما صوم الخصوص: وهو صوم الصالحين فهو كفُّ الجوارح عن الآثام . وتمامه بستة أمور:

(الأول) غضُّ البصر وكفّه عن الاتساع في النظر إلى كل ما يذمّ ويكره، وإلى كل ما يشغل القلب ويلهي عن ذكر الله (وفي زمننا هذا كثرت الملاهي والتمثيليات المخصوصة لشهر رمضان في كافة محطات التليفزيون في البلاد الإسلامية. وهو بلاءٌ عمَّ وطمّ) وقد قال «النظرة» سهم مسموم من سهام إبليس لعنه الله فمن تركها خوفاً من الله آ تاه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه» (أخرجه الحاكم وصححه من حديث حذيفة) وعن أنس عن رسول الله قال : «خمس يفطرن الصائم: الكذب والغيبة والنميمة واليمين الكاذبة والنظرة بشهوة».

قلتُ: الحديث ضعيف الإسناد كما قال الزين العراقي في تخريجه لأحاديث الاحياء . وهو مذهب ابن حزم بأن هذه الخطايا يفطّرن الصائم. وأهل السنة على أن هذه الذنوب تُذهب أجر الصوم.. وفي الحديث : «كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش » (أخرجه النسائي في السنن الكبرى) وقوله «من لم يدع قول الزور فليس للَّه حاجة إلى صيامه».

قال الغزالي (الثاني): حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء. وإلزامه (أي الصائم) السكوت، وشغله بذكر الله سبحانه، وتلاوة القرآن. فهذا صوم اللسان. وقد قال سفيان (لعله الثوري): الغيبة تفسد الصوم.. وعن مجاهد: خصلتان يفسدان الصيام: الغيبة والكذب. وقال : «إنما الصوم جُنَّة، فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل أني صائم أني صائم» [الحديث أخرجه البخاري في صحيحه] .

وجاء في الخبر أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجهدهما الجوع والعطش فأستاذناه في الإفطار فقال لهما: «قيئا ما أكلتما » فقاءت إحداهما نصفه دما عبيطا (أي خالصاً) وقاءت الأخرى مثل ذلك فقال «إنهما صامتا عمّا أحلَّ الله لهما » (لعله كان صيام تطوع) «وأفطرتا على ما حرّم الله عليهما . قعدت إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تغتابان الناس» [أخرجه أحمد في مسنده ج431/5] . (الثالث) كفّ السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه . قال تعالى {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ } [المائدة/42] وقال تعالى {لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ *} [المائدة/63] . والساكت على الغيبة المستمع لها مشارك في الإثم . قال تعالى {إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ} [النساء/140] .

(الرابع) كفّ بقية الجوارح عن الآثام : من اليد والرجل عن المكاره، وكفّ البطن عن الشبهات وقت الإفطار، فلا معنى للصوم، وهو الك ف عن الطعام الحلال ثم الإفطار على الحرام، فمثال هذا الصائم مثال من يبني قصراً ويهدم مصرا... «وكم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش » قيل هو الذي يفطر على الحرام، وقيل هو الذي يمسك عن الطعام الحلال ويفطر على لحوم الناس بالغيبة، وهو حرام، وقيل هو الذي لا يحفظ جوارحه عن الأثام.

(الخامس): ألا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلىء جوفه، فما من وعاء أبغض إلى الله من بطن ملىء من حلال . وكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله، وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاته ضحوة نهاره، وربما يزيد عليه في ألوا ن الطعام حتى استمرت العادات بأن تدخر جميع الأطعمة لرمضان، فيؤكل من الأطعمة فيه ما لا يؤكل في عدة أشهر . ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى. وإذا دُفعتْ المعدة من ضحوة النهار إلى العشاء . (أي غروب الشمس) حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها ثم أُطعمتْ من اللذّات وأُشبعتْ زادت لذّتها وتضاعفت قوّتها، وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت على عادتها، فروح الصوم وسرّه تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في العود إلى الشرور، ولن يحصل ذلك إلا بالتقليل . وهو أن يأكل أكلته التي يأكلها كل ليلة لو لم يصم. فأما إذا جمع ما كان يأكل ضحوة إلى ما كان يأكل ليلاً فلم ينتفع بصومه . بل من الآداب ألا يكثر النوم بالنهار حتى يحسّ الجوع والعطش . ويستشعر ضعف القوى، فيصفو عند ذلك قلبه، ويستديم في كل ليلة قدراً من الضعف حتى يخفّ عليه تهجده وأوراده، فعسى الشيطان أ لا يحوم على قلبه، فينظر إلى ملكوت السماء . وليلة القدر عبارة عن الليلة التي ينكشف فيها شيء من الملكوت، وهو المراد بقوله تعالى {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ *} [القدر /1] ومن جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام فهو عنه محجوب. ومن أخلى معدته فلا يكفيه ذلك لرفع الحجاب ما لم يخل همّته عن غير الله ، وذلك هو الأمر كله. ومبدأ جميع ذلك تقليل الطعام».

وقد شرحت في كتابي الصوم وأمراض السمنة فسيولوجية الصوم وكيف أن الطعام يمر بثلاث مراحل:

(الأولى): هي أخذ الطعام وهضمه وتحويله إلى طاقة ينتفع بها.

(المرحلة الثانية): تحويل الفائض من هذه الطاقة الموجودة على هيئة جلوكوز أو أحماض دهنية إلى مستودعات الطاقة على هيئة جلايكوجين (Glycogen) ، ودهون تترسب في الجسم خاصة بين الأعطاف والعجز والأرداف والبطن.

(المرحلة الثالثة): عند عدم وجود الطعام يقوم الجسم بما وهبه الله من قدرات بتحويل المخازن الدهنية ومخازن الجلايكوجين إلى طاقة على هيئة جلوكوز وأحماض دهنية.

وكل مرحلة من هذه المراحل معقدة أشد التعقيد . وحتى تعمل هذه المراحل الثلاث لا بد من الامتناع عن الأكل والشرب لمدة تتراوح ما بين 12 و16 ساعة.. لهذا كله فرض الله سبحانه وتعالى الصيام من طلوع الفجر إلى غروب الشمس لأن النشاط وعمليات الهدم

واستخدام الطاقة إنما تكون على أشدها في النهار، بينما تكون على أبطأ درجاتها في الليل ولذا لم يجعل الله الصيام من غروب الشمس إلى بزوغ الفجر أو إلى طلوع الشمس لأن صيام الليل قليل الفائدة. والليل وقت النوم والراحة، قال تعالى {وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا *} [النبأ/9] وفي النوم تقل عمليات الاستقلاب . ورغم أن نوم النهار ليس كنوم الليل إلا أن نوم النهار أيضاً يقلل من عمليات الاستقلاب.

لذا فإن الذين يصومون رمضان ويقضون نهاره نياماً يفقدون كثيراً من فوائد الصوم وحكمه التي منها الصبر على الجوع والعطش... ومنها إذابة مخازن الطاقة والدهون . ومن المخجل أن يأكل المسلمون في شهر رمضان أضعاف ما يأكلونه في أي شهر آخر من أشهر السنة. وإذا كان الأكل والشرب في غير رمضان ينبغي أن يكون بدون سرف . قال تعالى {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف/ 31] . وقال «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات (وفي رواية لقيمات) يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه) رواه النسائي والترمذي وقال حسن ص حيح، وأحمد في مسنده، وابن ماجة والحاكم في المستدرك وابن حبان في صحيحه.

ومعظم أمراض الناس في عصرنا هي من التخمة وكثرة الأكل والسمنة وما ينتج عنها من أمراض البول السكري وضغط الدم وجلطات القلب والدماغ، وآلام المفاصل، والنقرس، وحصوات المرارة وزيادة أنواع من السرطان.. الخ الخ.

لهذا أخرج الشيخان البخاري ومسلم «أن المؤمن يأكل في معي واحد (كناية عن قلة الأكل) والكافر يأكل في سبعة أمعاء » (كناية عن كثرة الأكل) وقيل أن هذه السبعة هي المعدة، وثلاثة أمعاء دقاق هي الاثنى عشر والصائم واللفائفي، وبعدها ثلاث غلاظ هي الأعور والقولون (الصاعد والمستعرض والنازل) والمستقيم.

وقالت عائشة أن النبي قال: «الازم (أي الجوع أو عدم الأكل) دواء، والمعدة بيت الداء، وعودوا كل بدن ما اعتاد» رواه أبو يعلى.

وعن عمر قال : «إيّاكم والبطنة فإنها مفسدة للجسم، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة . وعليكم بالقصد فإنه أصلح للجسم وأبعد عن السرف، وأن الله تعالى ليبغض الحبر السمين » رواه أبو نعيم وغيره موقوفاً ومرفوعاً.

قال الغزالي (والسادس): أن يكون قلبه بعد الإفطار معلقاً بين الخوف والرجاء إذ ليس يدري أيقبل صومه فهو من المقربين أو يردُّ صومه فهو من الممقوتين. وليكن كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها.

قلت: وهذا أسلوب عجيب في التربية وإزالة العجب بالعمل . فإن العجب محبط لا شك بالأجر، بل سبب للوزر والذنب .. وعلى الإنسان أن يبقى معلقاً بين الخوف والرجاء فهما كالجناحين للطائر، لا يطير إلا بهما. ولكن يُغلّب الرجاء عند الموت أ و عند مرض الموت، فذلك أجدر به في ذلك الموقف.

وهناك بعد صوم الفرض أنواع كثيرة من صيام التطوع منها صوم يوم عرفة فإنه يكفر عامين، العام الذي مضى، والعام المقبل، وصوم يوم عاشوراء يكفّر سنة، ومنها صيام الإثنين والخميس، ومنها صيام ثلاثة أيام من كل شهر وهي الأيام البيض (13 و14 و15)، وصيام النذر، وصيام الكفارات الخ الخ.

والمقصود الاستفادة من الصيام سواء كان فرضاً أم نفلاً أم كفارة أم نذراً. ولا يتم الاستفادة من الصيام إلا باتباع السنن والإقلال من الطعام في الليل، والأكل بمقدار الحاجة. وأما التفنّن في أنواع الطعام حتى نأكل في رمضان أضعاف ما نأكله في أي شهر آخر فهو مفسدة لفوائد الصيام الدينية والصحية . وخاصة إذا قضينا الليل في السهر في الملهيات والمسلسلات والأسواق، ولم نقم بما نحتاجه من عبادات وتهجد، وقضينا النهار أو معظمه في النوم .. ويصبح شهر رمضان شهر الكسل والخمول و عدم الإنتاج وهو مناقض لما كان عليه المسلمون منذ عهد رسول الله ، أي العهود الزاهرة، فمعظم الفتوحات الباهرة تمَّت في شهر رمضان ومنها معركة بدر وفتح مكة وعين جالوت والزلاقة وغيرها كثير وآخرها معركة العاشر من رمضان في مصر ضد إسرائيل.

الحج ودوره في الأخلاق

قال تعالى {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ *لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ *ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ *ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ *حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ *ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ *لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ *وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَ قَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ *الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّ رْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ *} [الحج/27 - 37] .

وقال تعالى {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ *لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ *ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ *وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ *أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا

وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ *وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ *} [البقرة/197 - 203] .

وقال تعالى {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *} [البقرة/196] .

وقال تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ *فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ *} [آل عمران/ 96، 97] .

وقال تعالى {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ *} [البقرة/ 158] .

آخر أركان الإسلام الحج

إن الحج والعمرة آخر ما فرض في الإسلام. وقد قام الرسول بأول عمرة في العام السادس من الهجرة فصدّته قريش في الحديبية فأنزل الله فيها سورة الفتح . واعتبرها فتحاً وكانت كذلك قال تعالى {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِيناً *لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا *وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا *} [الفتح/ 1 - 3] وقد منعت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه من دخول مكة وأداء مناسك العمرة وصدّوا عن سبيل الله وذهب عثمان بن عفّان رضي الله عنه لما له من دالّة على قريش يفاوضهم، فعرضوا عليه أن يطوف بالبيت ويؤدي مناسك العمرة فأبى، واحتبسته قريش، فشاع بين المسلمين أن قريشاً قتلته، فبايع الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله على الموت، وما جاؤوا في الأصل لحرب وكانوا لابسين ثياب الإحرام وليس معهم من السلاح إلا السيوف في قرابها فأنزل الله بذلك قرآناً يتلى إلى يوم القيامة يشيد بما فعلوه ويعلن الله سبحانه وتعالى في علاه رضاه عنهم قال تعالى {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا *} [الفتح/18] وكان عددهم (1400) (ألف وأربعمائة) ما تخلّف منهم إلا واحد لم يذكروا اسمه. فهؤلاء الذين بايعوا تحت الشجرة قد رضي الله عنهم وأرضاهم، فمن زعم غير ذلك فقد كذّب بصريح القرآن . وقد قال عنهم سبحانه وتعالى في نفس السورة {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا *} [الفتح/10] .

وبعد مفاوضات عسيرة وشاقّة كتبت قريش مع رسول الله عهداً يدوم فيه السلام بين الفريقين عشر سنوات، ويعود المسلمون من عامهم هذا دون أن يدخلوا مكة، ثم يأتون في قابل (أي العام التالي) ويعتمرون. وكان كاتب الوثيقة علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه . فكتب باسم الله الرحمن الرحيم فاعترضت قريش، وأمره الرسول بمحوها وكتابتها كما

أرادت قريش باسمك اللهم. ثم كتب هذا ما اتفق عليه رسول الله فقالت قريش اك تب اسمك واسم أبيك وامح رسول الله، ولو شهدنا أنك رسول الله ما حاربناك طوال هذه السنين . فأمر الرسول أن يمحوها، فما استطاع، فمحاها الرسول بنفسه . ثم تمت كتابة العهد، وأمرهم الرسول بأن يحلّوا إحرامهم ويحلقوا شعورهم، فأصابهم غمٌّ وهمٌّ، ولم يفعلوا فغضب رسول الله فأشارت عليه أم المؤمنين أم سلمة بما ي نجيهم. وطلبت منه أن يحلق أمامهم فحلق، فتبادروا إلى الحلاقة، يكاد يقتل بعضهم بعضاً من الغمّ، فأنقذتهم أمهم من موقف خطير كادوا فيه أن يعصوا أمر رسول الله دون أن يقصدوا العصيان، ولكن ذلك الموقف كان من شدة الغم. وذهب عمر إلى أبي بكر الصديق معترضاً على هذه الإتفاقية المجحفة التي توافق على ردِّ من أتى مسلماً من قريش إلى رسول الله ، ولا تطلب إعادة من ذهب من المسلمين إلى قريش، إلى غير ذلك من الشروط المجحفة فقال عمر: علام نعطي الدنيّة في ديننا؟ فقال له أبو بكر: الزم غرزك فإنه رسول الله (أي أنه يوحى إليه) فسكت عمر ثم ذهب إلى رسول الله فقال له نفس ال مقولة فقال : «إني رسول الله ولن يضيّعني ». فكانت الحديبية بركة على المسلمين، وأسلم خلال فترة الصلح (قبل أن تنقضها قريش) أضعاف من أسلم منذ أن بعث محمد إلى يومها (أي خلال 19 عاماً). وفتحت في أثنائها خيبر، إلى غير ذلك من الفتوح .. فلما نقضت قريشُ عهدها وحلفاؤها بنو بكر وقتلوا خزاعة غيلة دون إنذار بحرب وقطع للعهد، أمر رسول الله بالاستعداد للحرب وحاول أبو سفيان أن يجدّد العهد وأن يدفع دية القتلى فأَبى عليه رسول الله .. وأخذ الحيطة والرصد حتى يفاجىء قريش. فما شعرت قريش إلا بجيوش الإسلام تقترب منهم في عشرة آلاف جندي مدججين بالسلاح، فارتاعت لذلك قريش واستسلمت. وهذا ما أراده الرسول ، فدخل مكة فاتحاً وعفى عن قريش وسمّاهم الطلقاء وعلى رأسهم زعيم قريش آنذاك أبو سفيان صخر بن حرب فهو وابنه معاوية وجميع أ سرته من الطلقاء ما عدا ابنته أم حبيبة التي سبقته إلى الإسلام منذ العهد المكيّ الأول وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة ثم ارتدّ زوجها، وبقيت غريبة في ديار النصارى، فأرسل النبي يتزوجها، فتزوجها ، ودفع مهرها النجاشي الذي كان قد أسلم، ولم يعلن إسلامه صريحاً لقومه.

وكم من دروس وعظات في وقعة الحديبية، وكيف كاد المسلمون أن يفتنوا، وكيف استطاعت أم المؤمنين أم سلمة أن تنقذهم بحسن مشورتها لرسول الله . وكيف تعلّم المسلمون أن الأمر قد يكون في ظاهره شرّاً، وفي باطنه كل الخير . لهذا كانوا يقولون بعدها : اتهموا رأيكم، إذا جاء الأمر من الله ورسوله. فالخير كل الخير هو في اتباع الأمر، وإن كان ظاهره يبدو على غير ما نحبُّ من الخير، فإن موقعة الحديبية أثبتت لهم عملياً أن رأي رسول الله أبرك من رأيهم، وأن طاعته الطاعة المطلقة هي السبيل إلى الفلاح في الدنيا والآخرة.

واعتمر رسول الله أربع عمرات. ولم يفرض الحج إلا في السنة الثامنة بعد فتح مكة . ولم يحج رسول الله لأن المشركين من العرب كانوا لا يزالون يأتون للحج، فأرسل رسول الله أبو بكر أميراً على الحج، ثم أتبعه بوصيّهِ ومن هو بمنزلة هارون من موسى، وهو الإمام علي بسورة براءة يتلوها على جميع من ح ضر الحج ذلك العام . وقال: «لا يبلّغ عني إلا رجل منّي». فعلي منه وهو أخوه (آخى رسول الله بين نفسه وبين علي عندما آخى بين المهاجرين والأنصار) وجعله بمنزلة هارون من موسى إلى آخر فضائله التي لا تكاد تحصر والمذكورة

في كتب الحديث البخاري ومسلم والسنن، وحَفَل مسند الإمام أحمد بالجمِّ الغفير منها . وذهب علي يتلو عليهم سورة براءة {بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ *وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ *إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ *} [التوبة/1 - 4] والوفاء بالعهد من شيم أهل الإسلام ومن شيم المتقين فمن كان له عهد فعهده إلى مدَّته . ومن كان له عهد مطلق فعدّته أربعة أشهر . ومن لم يكن له عهد فيترك فترة الأشهر الحرم. ومع ذلك {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ *} [التوبة/6] ثم قال عزّ من قائل. {كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ *كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ *} [التوبة:7،8] والإلّ هي القرابة، والذمّة هي العهد . وحضّهم على قتالهم لأنهم هم الذين بدأوا المسلمين بالقتال وطعنوا في دين الإسلام وهموا بإخراج الرسول قال تعالى {أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *} [التوبة/ 13] والآيات الحاثة على قتال هؤلاء المشركين المحاربين الذين نقضوا عهودهم وألبَّوا على المسلمين هي عين العدل والحق، ومع ذلك فقد زعم المستشرقون وأتباعهم أن الإسلام إنما انتشر بالسيف. وقد جعل الله لهؤلاء المشركين مدّة، وطلب بالوفاء بالعهود ما التزموا هم بها . ومع ذلك [التوبة/6] وأرسل معه حراسة حتى يصل إلى قومه سالماً غانماً. بهذه الأخلاق الرفيعة التي لا تخطر في بال بشر عاملهم الإسلام فإذا أثَّرت فيهم ه ذه الأخلاق العالية الرفيعة وأدّت بهم إلى الإسلام فإنهم إخوانكم لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم. وهذا لكافة البشر والجنسيات والأبيض والأسود قال تعالى {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ *} [التوبة/11] . وهكذا أسلم مشركو جزيرة العرب، ثم أسلم من بعدهم في عهد الفتوح أيام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي أمم كثيرة من الروم والفرس وأهل الشام والعراق وفارس ومصر وشمال أفريقيا . وامتدت الفتوح بعد ذلك حتى وصلت أسوار الصين شرقاً والمحيط ا لأطلسي غرباً بعد فتح أسبانيا والبرتغال وأقصى المغرب وما يعرف اليوم بموريتانيا.

ونادى الإمام علي يومها في مكة وبطاحها وعرفات ومنى ومزدلفة أن لا يحج بعد اليوم مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وفي العام التالي (وفي السنة العاشرة للهجرة) حجّ رسول الله ، وهي حجة وا حدة، هي حجة الوداع، وكان فيها اللقاء الأخير، وحج ذلك العام مائة ألف أو يزيدون . وتوجه إليهم بوصاياه العظيمة. وقد أورد خطبته ابن اسحاق وابن هشام وفي كتب السّنة، والقاضي عياض وابن القيم وكل من كتب في سيرته .

وفي سيرة ابن هشام [1]. قال ابن إسحاق : ثم مضى رسول الله على حجه، فأرى الناس مناسكهم، وأعلمهم سُنن حجهم، وخطب الناس (يوم عرفة) خطبته التي بيّن فيها ما بيّن، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا أيها الناس اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا بربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا . وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم أعمالكم . وقد بلّغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤده إلى من ائتمنه عليها . وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، فضى الله أنه لا ربا، وإن ربا العباس بن عبدالمطلب موضوع كله[2] . وإن كلّ دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ربيعة بن الحرث بن عبدالمطلب[3] ، وكان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل، فهو أول ما أبدأُ به من دماء الجاهلية».

«أما بعد، أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه أن يُطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم » «أيها الناس إن النسيء زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلونه عاماً، ويحرّمونه عاماً، ويحرمونه ليواطئوا عدَّة ما حرّم الله، فيحلّوا ما حرّم الله، ويحرّموا ما أحلّ الله[4] . وأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله أثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم ثلاثة متواليه (القعدة والحجة والمحرم) ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان (وكانت قبيلة مضر تعظمه فنسب إليها).

«أما بعد أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقّاً، ولهن عليكم حقّاً . لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبيّنة[5] ، فإن فعلن فإن الله قد أ ذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح (أي غير شديد بالسواك وما أشبه) فإن انتهين فلهن رزقهنّ وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان (أي كالأسيرات) لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلّغت . وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيّنا، كتاب الله وسنّة نبيه».

«أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه. تعلّمُنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم، وإن المسلمين أخوة، فلا يحلّ لأمرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمنَّ أنفسكم . اللهم هل بلَّغتْ فقال الناس: اللهم نعم فقال : اللهم فاشهد».

---

(1)سيرة ابن هشام، دار الفكر ج275/4 - 278.
(2)وضع النبي ربا العباس بن عبد المطلب عمه ليكون قدوة للناس.
(3)كذلك وضع دم ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب (ابن عمه) قُتل وهو رضيع كذلك ليكون لهم قدوة وأسوة.
(4)النسيء هو أن يأجلوا الأشهر الحرم ويغيروا فيها وقد كانوا يفعلون ذلك ليواصلوا حروبهم فمنعها الله بنص القرآن ومنعها رسوله في يوم عرفه .
(5)المقصود بالفاحشة هنا فحش القول وغيره، لا جريمة الزنا، فليس لها إلا اللعان بين الزوجين إذا لم يشهد ذلك أربعة شهود.

وكان المبلغ لخطبة رسول الله ربيعة بن أمية بن خلف (وكان جهوري الصوت). قال له رسول الله : «قل : يا أيها الناس إن رسول الله يقول : هل تدرون أي شهر هذا؟ فيقولون : الشهر الحرام (وفي رواية الله ورسوله أعلم) (وفي رواية في أي بلد هذا؟ في أي يوم هذا) فيقول : إن الله قد حرَّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا في بلدكم هذا في يومكم هذا».

ومما قاله يوم عرفة «يا أيها الناس، إن الله قد أدّى إلى كل ذي حقّ حقَّهُ، وأنه لا تجوز وصية لوارث . والولد للفراش (أي فراش الزوجية ينسب لأبيه ما لم تكن هناك بينة زنا ولعان) وللعاهر الحجر . ومن ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً».

وقد ذكر الإمام أحمد في سننه عن أبي حرة الرقاشي خطبة أخرى قالها في منى في وسط أيام التشريق وإن كانت في محتواها مشابهة لما ذكره ابن هشام في خطبة عرف ات، ولعله حصل دمج بين الخطبتين.

وفي هذه الحجة العظيمة وما فيها من تشريع وتعليم وأخلاق نزل قول الله تعالى {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً } [المائدة/3] فقال يهودي لعمر بن الخطاب: «ياأمير المؤمنين لو علينا أنزلت لاتخذناها عيداً . فقال عمر «والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله والساعة التي نزلت فيها على رسول الله : عشيّة عرفة في يوم جمعة» رواه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد في مسنده وغيرهم من أصحاب المسانيد والسنن. فقد نزلت في يوم عرفة، وهو يوم عيد وفي يوم جمعة وهو يوم عيد.

والخلاصة أن حجة النبي كانت نبراساً لهم في شؤون الحج وفي غير ذلك من التعاليم. وقد قيل أنه خطب في عرفة وفي منى أيام التشريق وأن مجموع خطبه في ذلك الحج الأكبر ثلاث خطب بليغة. بالإضافة إلى عشرات التوجيهات في شأن الحج.

وقد ورد في الحج آيات كثيرة استعرضنا كثيراً منهن وورد فيه الأحاديث الكثيرة فالحج من أركان الإسلام الخمسة يجب على المسلم البالغ العاقل الذي ملك الزاد والراحلة مرة في العمر . وقد دخلت العمرة في الحج (إما مستمتعا أو قارنا أو أن يفرد بالحج ويأتي بعدها بالعمرة). وهو على التراخي ولا يجب على الفور، ولكن المبادرة بالحج دليل على قوة الإيمان متى توفرت أسبابه من القدرة والراحلة وأمن الطريق، فإنه لا يدري ما يحدث بعد ذلك. وهو واجب على الرجل والمرأة سواء، إلا أن المرأة يجب عليها أن تسافر مع ذي محرم أو مع رفقة مأمونة من النساء.

وفضائله كثيرة قال : «من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» أخرجه الشيخان البخاري ومسلم وقوله «ما رئي الشيطان في يوم أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه يوم عرفة» أخرجه مالك في الموطأ. وذلك لكثرة مغفرة الله في ذلك اليوم لأهل الموقف. وإن الله ليغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج.

والحج على مشقته البدنيّة والماليّة له حلاوة لا يعرفها إلا من ذاق الحج.

لذا تجد أن من حج مرّة يحاول جهده أن يحجّ ثانية وثالثة ورابعة .. وهناك من حج ثلاثين حجة، بل هناك من حج خمسين حجة، وذلك لما يجده من النعيم الروحي والسكينة في الحج رغم المشاق.

وفي كل زمن تظهر مشاقٌّ أخرى غير التي كانت في الزمن السابق . وقد ازدادت أعداد الحجيج في العصر الحديث حتى بلغت أكثر من ثلاثة ملايين من خارج المملكة العربية السعودية وداخلها .. ولولا أن الحكومة اضطرت لتحديد أعداد الحجيج من كل بلد لجاء عشرات الملايين ولما كفتهم مكة وبطاحها وشعابها ومزدلفة ومنى ولضاق الأمر بالناس.

وما أجمل صورة الحجيج وهم قد تخلصوا من ثيابهم واستبدلوها بلباس الإحرام البيضاء وهم يطوفون بالبيت ويسعون بين الصفا والمروة ثم يذهبون إلى منى يوم التروية (اليوم الثامن من ذي الحجة) ثم ينتقلون إلى عرفات في صعيد واحد يهتفون كلهم بقلوب خاشعة واجفة: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك. لبيك لا شريك لك.

لا فرق بين عربي وعجمي، ولا أبيض وأسود، ولا غني ولا فقير كأنهم في يوم المحشر يتذكرونه ويبتهلون إلى الله و يدعونه ويخلصون له الدعاء، حتى يحثوا إبليس على رأسه التراب، حقداً وغيظاً مما يرى من تنزّل الرحمات على المؤمنين في هذا الموقف العظيم.

وفوائد الحج لا تحصى ولا تعدّ للفرد وللمجتمع ولأمة الإسلام قاطبة .. تتهذب النفوس وتصفو، وتخلص الأعمال لباريها وتزكو، وتتقارب قلوب المسلمين فتمتلأ بالمحبّة والشفقة .. وتتواضع الجبابرة وتعنو، فلا كبير إلا الله: الله أكبر الله أكبر.. والناس كلهم مقبلون عليه لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك . ولا ندّ لك . لك خضعت النفوس وذلّت الأعناق وامتلأت القلوب لك حُبَّاً ومهابة وإجلالاً.

فأي مكسب أخلاقي يعدل المكاسب التي يحصل عليها الحاج . ويكفيه أن يرجع من الحج نقياً خالصاً من الذنوب كيوم ولدته أمه.

وهكذا يتخلّى الإنسان في الحج عن الأخلاق المرذولة (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج) (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) فالمسلمون يتسابقون إلى الخيرات، وكل مسلم يساعد أخاه بقوله وفعل وماله.. ثم هناك الأضحيات وما يهدى للحرم (الهدي) والنسك وجوابر ما يحدث في الحج من نقص .. وهذه الدماء عند الله بمكان، ولا شك أن هذه الدماء واللحوم لا تنفع إلا الفقراء قال تعالى {لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا » وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ } [الحج/37] . وقد سمّاها الله شعائر الله {ومَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ } وقال تعالى {وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ} [الحج/36] .

وقد أحسنت حكومة المملكة العربية السعودية بأخذ الفائض الكبير من الهدي والأضحيات وتعليبه وتثليجه وإرساله إلى المسلمين في شتى بقاع الأرض كي يأكل منها الفقراء والمساكين. وهو من ضمن منافع الحج التي لا تكاد تُحصى.. ومن التعاون الذي يحصل بين المسلمين ويعلّمهم التواد والتراحم، ومحاولة التخفيف عن الفقراء والمساكين، وخاصة في أوقات الحج ليأكلوا من هذه الأنعام.

وكم من التعاون يمكن أن يحصل في هذا المؤتمر السنوي العام للمسلمين لحلّ مشاكلهم الاقتصادية والأخلاقية والدينية والسياسية.. ولكنهم للأسف مقصّرون في ذلك أشد التقصير.

والخلاصة أن منافع الحج لا تحصى وفضل الله على عباده لا حدّ له والله يجمع شمل المسلمين ويوحّد صفوفهم ويجعلهم عباد الله إخواناً.

الفصل الحادي عشر

الإيمان بالقدر خيره وشرّه من الله تعالى

هذه مسألة شغلت المسلمين دهراً وأدت إلى انقسامهم إلى فرق متعدّدة متناحرة، وكل فرقة تتخذ لها من بعض الآيات القرآنية مرجعاً ودليلاً، وبالتالي تبدّع أو تفسّق أو تكفّر الفرق الأخرى.

وقد ورد في القرآن والسنة المطهرة آيات كثيرة متعلقة بالقدر وبإرادة الإنسان ومسؤوليته قال تعالى {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ *} [القمر /49] وقال {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً } [النساء/47] وقال {وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا} [مريم/21] وقال تعالى {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا *} [الإسراء/16] وقوله تعالى {وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ} [البقرة/247] وقوله تعالى {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ } [آل عمران/26] {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا } [الأحزاب / 38] {وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً } [الأنفال/44] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة . وفي ظاهر بعض الآيات إشكال مثل قوله تعالى {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا *مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا *مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا *} [النساء/78 - 80] .

تفسير ابن كثير [1]:

{وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ } أي خصب ورزق {...يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } أما إذا أصابتهم جانحة أو قحط أو نقص في الثمار والزروع والأولاد أو غير ذلك {وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ} أي من قبلك يا محمد بسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك. وهو قول المنافقين في المدينة وهو كما حكى الله عن قوم فرعون حيث قالوا {فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ *} [الأعراف/ 131] .

وهكذا قال هؤلاء المنافقون دخلوا في الإسلام ظاهراً، وهم كارهون له في نفس الأمر . ولهذا إذا أصابهم شرٌّ إنما يسندونه إلى إتّباعهم للنبي .

قال السُّدّي (وإن تصبهم حسنة) الحسنة: الخصب تنتج مواشيهم وخيولهم، ويحسن حالهم وتلد نساؤهم الغلمان قالوا (هذه من عند الله). (وإن تصبهم سيئة) السيئة: الجدب والضرر في أموالهم، تشاءموا بمحمد وقالوا (هذه من عندك) يقولون بتركنا ديننا واتّباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء فأنزل الله {قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } أي الجميع بقضاء الله وقدره، وهو نافذ في البِرّ والفاجر، والمؤمن والكافر. قال ابن عباس (قل كل من عند الله) أي الحسنة والسيئة. وكذا قال الحسن البصري.

(1)ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ج526/1 - 528 بتصرف واختصار يسير .

ثم قال تعالى منكراً على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شكٍّ وريب، وقِلّة فهم وعلم، وكثرة جهل وظلم {...فَمَالِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا *}.

ثم قال تعالى مخاطباً لرسوله ، والمراد جنس الإنسان ليحصل الجواب {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} أي من فضل الله ومنّه ولطفه ورحمته {وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} أي فمن قِبَلِكَ ومن عملك أنت. كما قال تعالى {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ *} [الشورى /30] قال السُدّي والحسن البصري وابن جريج وابن زيد {فَمِنْ نَفْسِكَ} أي بذنبك. وقال قتادة {فَمِنْ نَفْسِكَ} عقوبة لك يا ابن آدم بذنبك . قال في الصحيح «والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن همٌّ ولا حزن ولا نصب، حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر الله بها من خطاياه».

وقال أبو صالح (وما أصابك مِن سيئة فمن نفسك) أي بذنبك وأنا الذي قدّرتها عليك . رواه ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم بسنده عن مطرّف ابن عبدالله قال : ما تريدون من القدر . أما تكفيكم الآية التي في سورة النساء {وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} [الآية] ... والله ما وكلوا إلى القدر، وقد أمروا، وإليه يصيرون.

قال ابن كثير: وهذا كلام متين قويّ في الردِّ على القدرية (نفاة القدر) والجبرية. ولبسطه موضع أخر» انتهى.

كلام ابن القيم في شفاء العليل:

ومن أحسن من كتب في موضوع القضاء والقدر الإمام ابن القيم في عدة كتب من كتبه ومن أحسنها ما ذكره في كتابه «شفاء العليل» (ص 585 - 591).

وقد قسَّم القضاء والحكم والكتاب والإذن والبعث والإرسال والتحريم إلى قسمين : كوني متعلق بخلقه (وهو جانب الربوبية)، وإلى ديني متعلّق بأمره (وهو جانب الألوهية). قال:

«فما كان مِن كونيّ فهو متعلقٌ بربوبيته وخَلقه . وما كان من الدينيّ فهو متعلقٌ بإلاهيته وشَرْعه. وهو كما أخبرَ عن نفسه سبحانه له الخلقُ والأمرُ . فالخلقُ قضاؤُه وقدرُه وفعلُه . والأمرُ شرعهُ ودينهُ. فهو الذي خَلَقَ وشرعَ وأمرَ. وأحكامُه جاريةٌ على خَلْقه قدراً وشرعاً . ولا خروجَ لأحدٍ عن حكمه الكونيّ القدريّ . وأمّا حُكمه الدينيّ الشرعيّ فيعصيه الفجارُ والفساقُ. والأمران غيرُ متلازمين. فقد يقضِي ويقدِّر ما لا يأمرُ به ولا شَرَعه . وقد يَشرعُ ويأمُر بما لا يقضيه ولا يقدّره. ويجتمع الأمران فيما وَقَعَ مِنَ طاعات عباده وإيمانهم. وينتفي الأمران عما لم يقعْ من المعاصي والفسقِ والكفر. وينفردُ القضاءُ الدينيّ والحُكم الشرعيّ في ما أمرَ به وشرعَه ولم يفعلْه المأمورُ. وينفردُ الحكمُ الكونيّ فيما وَقَع من المعاصي.

إذا عُرف ذلك فالقضاءُ في كتاب الله نوعان كونيّ قدريّ، كقوله {فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ} وقوله {...وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ}، وشرعيّ دينيّ، كقوله {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ} أي أمرَ وشرعَ. ولو كان قضاءً كونيّاً لما عُبد غيرُ الله. والحكمُ أيضاً نوعان. فالكونيُّ كقوله {قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ} أي افعلْ ما تَنصرُ به عبادَك وتخذلُ به أعداءَك. والدينيُّ كقوله {ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ} وقوله {إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ}. وقد يَردُ بالمعنيين معاً، كقوله {وَلاَ يُشْرِكُ فِي

حُكْمِهِ أَحَدًا }: فهذا يتناولُ حكمه الكونيَّ وحكمَه الشرعيَّ . والإرادةُ أيضاً نوعان: فالكونيةُ كقوله تعالى {فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} وقوله {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً } وقوله {إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ} وقوله {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ}، والدينية كقوله {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } وقوله {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ }، فلو كانت هذه الإرادةُ كونيةً لمَا حصلَ العسرُ لأحد منّا، ولوقعت التوبةُ مِن جميع المكلّفين . وبهذا التفصيل يزولُ الاشتباهُ في مسألة الأمر والإرادة هل هما متلازمان أم لا. فقال القدريةُ: الأمرُ يستلزمُ الإرادةَ واحتجوا بحُجج لا تندفعُ وقالت المُثبّتةُ : الأمرُ لا يستلزمُ الإرادة. واحتجوا بحُجج لا تندفعُ . والصوابُ أن الأمرَ يستلزمُ الإرادةَ الدينيةَ ولا يستلزمُ الإرادةَ الكونية . فإنه لا يأمرُ إلا بما يريدُه شرعاً وديناً. وقد يأمرُ بما لا يريدُه كوناً وقدراً، كإيمان من أمره، ولم يوفقه للإيمان، مرادٌ له ديناً لا كوناً. وكذلك أمرَ خليله بذبح ابنه ولم يُرِدْه كوناً وقدَراً. وأمرَ رسوله بخمسين صلاةً ولم يُرِدْ ذلك كوناً وقدراً. وبين هذين الأمرين، وأمْرِ مَن لم يؤمن بالإيمان فرقٌ . فإنه سبحانه لم يحبّ مِن إبراهيم ذبحَ ولده، وإنما أحبَّ منه عزمَه على الامتثال وأن يوطّن نفسَه عليه. وكذلك أمْرُه محمداً ليلةَ الإسراء بخمسين صلاةً. وأمّا أمْرُ مَن علَم أنه لا يؤمنُ بالإيمان فإنه سبحانه يحبُّ من عباده أن يؤمنوا به وبرسله، ولكن اقتضتْ حكمتُه أن أعان بعضَهم على فِعلِ ما أمَره ووفقه له، وخذل بعضَهم فلم يُعنه ولم يوفقْه فلم تحصلْ مصلحةُ الأمر منهم وحصلتْ من الأمر بالذبح.

وأمّا الكتابةُ فالكونيةُ كقوله {كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي } [المجادلة/21] وقوله {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ *} [الأنبياء/105] وقوله {كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ *} [الحج/4] والشرعيةُ الأمْرية كقوله {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ} [البقرة/183] وقوله {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَهَاتُكُمْ} إلى قوله {كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ } [النساء / 23، 24] وقوله {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ } [المائدة/45] فالأولى كتابةٌ بمعنى القدر، والثانية كتابةٌ بمعنى الأمر.

والأمرُ الكونيّ كقوله {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ *} [يس/ 82] وقوله {وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ *} [القمر /50] وقوله {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً } [النساء/47] وقوله {وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا} [مريم/21] وقوله {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا} [الأسراء/16] فهذا أمرُ تقديرٍ كونيّ لا أمرٌ دينيّ شرعيّ . فإن اللهَ لا يأمرُ بالفحشاء. والمعنى قضينا ذلك وقدّرناه . وقالت طائفةٌ: بل هو أمرٌ دينيّ . والمعنى أمرناهم بالطاعة فخالفونا وفسقوا . والقولُ الأولُ أرجحُ لوجوه : أحدُها أن الأضمارَ على خلاف الأصلِ، فلا يُصارُ إليه إلا إذا لم يمكن تصحيحُ الكلام بدونه . الثاني أن ذلك يستلزم إضمارين، أحدُهما أمرناهم بطاعتنا، والثاني فخالفونا أو عصونا، ونحو ذلك . الثالثُ أن ما بعدَ الفاء في مثل هذا التركيب هو المأمورُ به نفسه. كقولك: أمرتُه ففعلَ وأمرتُه فقامَ وأمرتُه فركبَ. لا يَفهمُ المخاطَبُ غيرَ هذا. الرابعُ أنه سبحانه جعلَ سببَ هلاكِ القرية أمْرَه المذكورَ . ومن المعلومِ أن أمْرَه بالطاعةِ والتوحيدِ لا يصلحُ أن يكون سببَ الهلاك، بل هو سببٌ للنجاة والفوز. فإن قيل أمْرُه بالطاعة مع الفسق هو سببُ الهلاك، قيل هذا يبطُلُ بالوجه الخامس، وهو أن هذا الأمرَ لا يختصُّ بالمترفين، بل هو سبحانه يأمرُ بطاعته واتباعِ رسله المترفين

وغيرَهم، فلا يصحُّ تخصيصُ الأمر بالطاعة بالمترفين. يوضحُه الوجهُ السادسُ أن الأمرَ لو كان بالطاعةِ لكان هو نفَسَ إرسال رسله إليهم. ومعلوم أنه لا يَحْسُن أن يقالَ أرسلنا رُسلنا إلى مترفيها ففسقوا فيها، فإن الإرسال لو كان إلى المترفين لَقال مَن عداهم نحنُ لم يُرسَلْ إلينا . السابعُ أن إرادةَ الله سبحانه لإهلاك القرية إنما يكونُ بعد إرسالِ الرسل إليهم وتكذيبهم، وإلا فقبْلَ ذلك هو لا يريدُ إهلاكهم، لأنهم معذورون بغفلتهم وعدمِ بلوغ الرسالة إليهم . قال تعالى {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ *} [هود/117] فإذا أرسلَ فكذَبوهم أراد إهلاكَها فأمرَ رؤساءها ومترفيها أمراً كونيّاً قدرياً لا شرعياً دينياً بالفسقِ في القرية فاجتمعَ أهلُها على تكذيبهم وفِسْق رؤسائهم، فحينئذٍ جاءها أمرُ الله وحُق عليها قولُه بالإهلاك . والمقصودُ ذِكرُ الأمر الكونيّ والدينيّ . ومن الدينيّ قولُه {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ } [النحل/90] وقوله {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [النساء/58] وهو كثير.

وأَمَا الإذنُ الكونيّ فكقوله تعالى {وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ } [البقرة/102] أي بمشيئته وقدَره. وأمّا الدينيّ فكقوله {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ} [الحشر/ 5] أي بأمره ورضاه. وقوله {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ *} [يونس/59] وقوله {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ} [الشورى/21] .

وأمّا الجَعْلُ الكونيّ فكقوله {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ *وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ *} وقوله {وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ} وقوله {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا } وهو كثير . وأمّا الجعلُ الديني فكقوله {مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ} أيْ ما شرعَ ذلك ولا أمرَ به. وإلا فهو مخلوق له واقعٌ بقدَره ومشيئته. وأمّا قولُه {جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ } فهذا يتناولُ الجعلْين، فإنه جَعَلها كذلك بقدره وشرعه . وليس هذا استعمالاً للمشترك في معنييه، بل إطلاقُ اللفظِ وإرادةُ القَدْرِ المشتركِ بين معنييه فتأملْه.

وأمّا الكلماتُ الكونيةُ فكقوله {كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ *} وقوله {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا } وقوله «أعوذُ بكلماتِ الله التاماتِ التي لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجرٌ مِن شر ما خلَق » فهذه كلماتهُ الكونيةُ التي يخلقُ بها ويكوّن. ولو كانت الكلماتُ الدينيةُ التي يأمرُ بها وينهَى لكانت مما يجاوزُهن الفجّارُ والكفار. وأمّا الديني فكقوله {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ } والمرادُ به القرآنُ. وقوله في النساء «واستحللتم فروجَهنَّ بكلمةِ الله » أي إباحته ودينه . وقوله تعالى {فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ } . وقد اجتمعَ النوعان في قوله {وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ} فكتبُه كلماتُه التي يأمرُ بها وينهى ويُحرم.

وكلماتُه التي يخلقُ بها ويكوّن. فأخبرَ أنها ليست جهميةً تنكرُ كلماتِ دينه وكلماتِ تكوينه وتجعلُها خَلْقاً مِن جملةِ مخلوقاته.

وأمَا البعثُ الكونيّ فكقوله {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ } وقوله {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ}. وأمّا البعثُ الديني فكقوله {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ} وقوله {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ}.

وأمّا الإرسالُ الكونيّ فكقوله {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا *} وقوله {وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ} وأمّا الديني فكقوله {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ} وقوله {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً *}.

وأما التحريمُ الكوني فكقوله {وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ} وقوله {قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً} وقوله {وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ *}. وأمّا التحريمُ الدينيّ فكقوله {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ} و{...وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا } {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا}.

وأَمَا الإيتاءُ الكونيّ فكقوله {وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ} وقوله {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ } وقوله {وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا }. وأمّا الإيتاءُ الدينيَّ فكقوله {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ} وقوله {خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ}. وأمّا قولُه {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا}. فهذا يتناولُ النوعين، فإنه يُؤتيها مَن يشاءُ أمراً وديناً وتوفيقاً وإلهاماً.

وأنبياؤهُ ورسلُه وأتباعُهم حظُّهم من هذه الأمور الدينيُّ منها . وأعداؤُه واقفون مع القدَر الكوني، فحيثُ ما مال القدرُ مالوا معه. فدينُهم دينُ القدر، ودينُ الرسلِ وأتباعِهم دينُ الأمْر . فهم يَدينون بأمره ويؤمنون بقدَره، وخُصماءُ الله يعصون أمرَه ويحتجون بقدَره، ويقولون نحن واقفون مع مُرادِ الله . نعمْ مع مُراده الكونيِّ لا الدينيَّ . ولا ينفعُكم وقوفُكم مع المراد الكونيّ؛ ولا يكونُ ذلكم عذراً لكم عنده، إذْ لو عُذرَ بذلك لم يذم أحداً مِن خَلْقه، ولم يعاقبْه، ولم يكن في خَلْقه عاصٍ ولا كافر. ومَن زَعمَ ذلك فقد كَفر بالله وكُتبه كلَّها وجميعِ رسله . وبالله التوفيق (انتهى كلامُ ابن القيم) .

مثال من جسم الإنسان يوضح الجانب الإرادي واللاإرادي

قلت:

وفي بدن الإنسان ما يمثل الجانب الإرادي والجانب اللاإرادي فالجهاز العصبي والجهاز العضلي في جسم الإنسان ينقسمان إلى (1) إرادي و(2) غير إرادي.

والجهاز العصبي يتمثل في (1) الجهاز العصبي المركزي وهو مكون من:

(أ) الدماغ: وهو أغلى ما وهب الله للإنسان، إذ به مراكز الفكر والرؤية والكلام، كما إن به مراكز جمع المعلومات وفهمها وتبويبها وتذكّرها. وبه مراكز الحركة والإحساس والسمع والإبصار والنطق والكتابة والكلام . وهو محروس بفضل الله حراسة قوية بعظام الجمجمة التي تحرس الدماغ من كل جهة، ثم يحيط به سائل (المخ الشوكي) ليحميه أيضاً ويساعد على تغذيته . كما أن هناك ثلاثة أغشية تحيط به (الغشاء الرقيق PLia mater ، والغشاء

العنكبوتي Arachnoid mater والغشاء الجاسي أو القاسي Dura mater وقد يطلق عليها الأم الحنون، والأم العنكبوتية والأم الجافة).

(ب) ويتصل الدماغ بالنخاع الشوكي عبر الثقب المؤخري العظيم في قاع الجمجمة حيث يتصل بالنخاع الشوكي الموجود بداخل القناة الفقرية، والمحروس بالفقرات المبتدئة بالعنق والمنتهية بالعصعص في أسفل الظهر.

(2) المجموعة الثانية: الجهاز العصبي الفرعي (أو الطرفي):

وتشمل الألياف العصبية وعقدها المختلفة وجميعها متفرعة إما من الدماغ أو من النخاع الشوكي. فالأعصاب القحفية (Cranial Nerves) هي إثنا عشر عصباً من كل جانب، (مجموعها 24)، وهي أعصاب خارجة من الدماغ إلى الوجه والعنق . والعصب الأول مسؤول عن الشمّ، والثاني عن البصر، والثالث والرابع والسادس مسؤول عن حركة مقلة العين وعضلات العين . والخامس (العصب ذو الرؤوس الثلاثة) ينقل الإحساس من الوجه والجبهة وفروة الرأس والأسنان، وهو محرّك لبعض عضلات المضغ . والعصب السابع محرّك لعضلات الوجه والشفاه، ويحمل أعصاباً خاصة بحاسة التذوّق في اللسان.

والثامن مكوّنٌ من شقيّن: سمعي خاص بحاسة السمع، واتزاني وهو خاص بحفظ اتزان الجسم أثناء المشي أو الالتفاف، أو الصعود أو الهبوط، ويتعاون في ذلك مع المخيخ المسؤول أيضاً عن الاتزان في الحركات وجسم الإنسان.

والعصب التاسع (العصب اللساني البلعومي) يحمل الأحاسيس من الجزء الخلفي للّسان والبلعوم. كما يغذّي عضلات البلعوم.

والعصب القحفي العاشر يعرف باسم الحائر، أو الرئوي المعوي، وهو مسؤول عن النظام اللاإرادي في تنظيم ضربات القلب، والرئة والقصبة الهوائية ويؤثر على الجهاز الهضمي من المريء فالمعدة فالأمعاء.

والعصب القحفي الحادي عشر: يشترك مع العصب العاشر في عمله . ويقوم أيضاً بتغذية عضلات معيّنة في العنق وفوق الكتف.

أما العصب القحفي الثاني عشر فيعرف باسم «العصب تحت اللسان» وهو يغذي عضلات اللسان ولولاه لفقدنا القدرة على النطق والكلام والأكل.

ثم يلي الأعصاب القحفية الاثنى عشر الأعصاب النخاعية الشوكية (Spinal Nerves) وهي 31 عصباً من كل جانب من جوانب الفقرات . منها ثمان عنقية واثنا عشر ظهرية وخمس قطنية. وخمس عجزية وواحد عصعصي لأنه يخرج من العصعص.

وهذه الأعصاب النخاعية الشوكية تحمل الأحاسيس من الجلد كالألم والبرودة والحرارة واللمس أو ما تحت الجلد من الإحساس بالوزن في مسارات عجيبة إلى النخاع الشوكي ومنه إلى مناطق محددة معيّنة في الدماغ. وذلك من كل أنحاء الجسم ما عدا ما تفعله الأعصاب القحفية.

وتحمل الأعصاب الشوكية أوامر حركية من الدماغ عبر مسارات مبهرة حتى تصل إلى العضلات. وكل عصب له عضلات معيّنة يغذيها كما أن لكل عصب إحساس منطقة معيّنة من الجلد أو تحت الجلد تنقل منها الأحاسيس.

وفيها ما يبهر الإنسان ويجعله يخرُّ ساجداً لربه لما فيها من الدقة والإعجاز والتنظيم المبهر.

وسأنقل هاهنا بعض ما كتبت في كتابي «الخمر بين الطب والفقه »[1]. «وليس الأمر متروكاً لأي عصب يغذي أية عضلة، ولا لكل عصب ينقل الأحاسيس من أي جهة شاء، وإنما هي خرائط دقيقة ونظام باهر رائع، فالأعصاب العنقية مختصّة بالعنق والكتف والعضد والذراع والساعد واليد والأنامل. ويتخصص كل عصب في نقل الأحاسيس من مكان معين لا يحيد عنه، كما يتخصّص كل عصب في أمر مجموعة معيّنة من العضلات بالانقباض أو الانبساط حتى يتم تحريك الذراع أو الساعد أو اليد أو الأنملة. والمتأمل في ذلك ينبهر من دقّة النظام، ودقّة التنفيذ، ودقّة التناسق بين هذه الأعصاب بعضها ببعض، وبين هذه الأعصاب والعضلات، وبين هذه الأعصاب والنخاع الشوكي، وبين النخاع الشوكي والدماغ..

إذا أراد الواحد منا أن يتناول قلماً ويكتب فالأمر سهل هيّن بالنسبة له . وما درى أن ذلك يشمل ملايين العمليات الدقيقة البديعة الصنع، الرائعة النظم والتنسيق ويحتاج ذلك إلى أوامر من مناطق الإرادة العليا في المخ إلى منطقة تنفيذ الأمر في منطقة بيتز (Betz) في المنطقة المحركة (Precentral gyrus) التلفيف المخي من الفص المقدمي الواقعة أمام الميزاب المركزي، فتنطلق منها الأوامر بسرعة البرق إلى النخاع الشوكي في المناطق المحددة في العنق، فينفّذ النخاع الشوكي الأوامر بدقّة متناهية، فتنبسط عضلات وتنقبض أخرى في حركات بديعة متناسقة . وتأتي الأوامر المساعدة من المخيخ تحفظ الاتزان . وكذلك تأتي الأوامر من النويات الغائرة في داخل الدماغ .. وتتجاوب الأصداء بحركة رشيقة هي حركة القلم بالكتابة، أو حركة اليد والأنامل تمتدُّ إلى الكأس فترفعه إلى الشفاه فترشف رشفة أو رشفتين.

ولو تتبعنا أمر هذه الرشفة لهالنا ما نرى: تتحرك عضلات الوجه والشفاه بأ وامر محمولة على العصب القحفي السابع (العصب الوجهي)، كما تتحرك لذلك عضلات اللسان التي يغذّيها العصب القحفي الثاني عشر (Cranial Nerve 12) ، كما تتحرك عضلات البلعوم التي يغذّيها العصب الحادي عشر، ولا تصل إلى المعدة إلا بعد عمليات هائلة ودقيقة وبديعة يغذّيها العصب العاشر.

إنها تنبئنا عن الخالق المدبر البديع الصنع الذي أتقن صنع كل شيء خلقه، وقدّره تقديراً . وجعله في غاية الحكمة والدّقة والبراعة والعلم والقدرة ليدلّنا على اللطيف الحكيم الخبير والعليم القدير. سبحانه ما أعلى شأنه وما أعظم صفاته، وما أكثر نعمه، وما أ قلّ شكرنا، وما أكثر جحودنا وعصياننا.

(1)د. محمد علي البار: الطب بين الخمر والفقه، الدار السعودية، جدة 1986، ط7 ص 151 وما بعدها.

ننتقل بعد هذا إلى لمحة سريعة عن الجهاز العصبي الذاتي اللاإرادي بعد أن عرفنا نبذة موجزة عن الجهاز العصبي الإرادي.

الجهاز العصبي اللاإرادي (الذاتي) Autonomous Nervous System

هذا الجهاز لا تتحكم فيه الإرادة على عكس ما أسلفـنا من الجهاز العصبي الإرادي وهذه الأعصاب تخرج أيضاً من الدماغ وتسير مع بعض الأعصاب القحفية مثل العصب الثالث، والعصب السابع، والعصب التاسع والعصب العاشر والعصب الحادي عشر كما أنها تخرج من أماكن محددة من النخاع الشوكي وتسير مع الأعصاب الشوكية ثم تنفصل عنها و تدخل عقداً خاصة بها حتى تصل إلى هدفها.

والأعصاب الذاتية (غير الإرادية) تنقسم إلى مجموعتين:

(الأولى) المجموعة التعاطفية (الودّية) Sympathatic Nervous System والمقصود بذلك أنها تتعاطف مع حاجات الجسم في وقت معيّن.

(الثانية) المجموعة نظير التعاطفي (نظير الودّية) Parasympathatic Nervous System.

وعمل كل مجموعة منهما على النقيض من الأخرى فالمجموعة التعاطفية تهيء الجسم لحالات الاستعداد للعراك أو الفرار (Fight - Flight) فإذا رأيت ثعبانا مثلاً، فإن رؤية الثعبان بعد أن تُسجَّل في المخ، وتترجم إلى معنى مرعب تؤدي إلى التأثير على مناطق بالمخ مختصّة بمواجهة الأزمات الخطيرة .. وبسرعة متناهية ترسل أوامرها إلى النخاع الشوكي حيث توجد مراكز سفلية للمجموعة التعاطفية. فترسل الأوامر بسرعة البرق الخاطف فتعمل الآتي:

(1) ـ تتسع حدقة العين وتجحظ العين قليلاً {أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا *} [الأحزاب/19] .

(2) ـ يزداد التنفس عمقاً لأخذ كمية كبيرة من الأوكسجين وتتوسع الشعب الهوائية.

(3) ـ تزيد سرعة ضربات القلب فيزداد وجيبه وتبلغ القلوب الحناجر (وهي بطبيعة الحال لم تنتقل من مكانها في الصدر ولكن شدة وجيبها ودقاتها تبدو وكأنها قد بلغت الحناجر).

(4) ـ تزداد سرعة الدورة الدموية، وتدفع بالدم من القلب إلى العضلات، ويدفع الدم المخزون في الطحال والكبد . وتنقبض الأوعية الدموية الذاهبة إلى الجهاز الهضمي والأحشاء، فليس الوقت وقت هضم وأكل، وإنما الوقت وقت عراك أو ف رار، وكل عضلة محتاحة لمزيد من الدم ومزيد من الأوكسجين فلا بد أن يوفر لها ذلك أولاً.

(5) ـ يزداد إفراز الأدرينالين (adrenaline) ويطلق عليه الامريكان إيبنفرين Epinephrine ومصدره الأساسي غدة فوق الكلية . ومعه مواد أخرى تدعى كاتيكول أمينس. وكلها مواد هامة لتحويل السكر المخزون بالكبد والعضلات إلى طاقة.. كما أنها تزيد

من ضربات القلب وقوة الدورة الدموية وترفع الضغط الدموي .. وكلها أمور هامة للقتال أو الفرار.

(6) ـ انقباض عضلات جذور الشعر فيقف الشعر.. ولا شك أن كل واحدٍ منا قد رأى هذا المنظر بنفسه وجرَّبه مراراً. ألم تنظر إلى امرىء غاضب أو مرعوب كيف تتسع حدقة عينه وتجحظ؟ ثم كيف تحمرّ حدقته، وتنتفخ أوداجه، وتسرع نبضات قلبه ويزداد وجيبها ويرتفع ضغط دمه (قد تحدث حالات شلل أو سكتة دماغية بسبب ذلك) ويقف شعر جلده ويزداد إفراز العرق منه ويزداد تنفسه عمقاً حتى يلهث، وهو ماكث في مكانه، وقد ترتعش يديه.

وقد هيّأ الله سبحانه وتعالى للإنسان، بل وللحيوان جهازاً عجيباً يعمل بسرعة فائقة غير إرادية عند اشتداد الخوف أو عند البأس (القتال). فإذا ما التقى سَبْعٌ بغزال فإن الأول يستعدُّ للأكل والقتل، بينما يستعدّ الثاني للفرار . وكلاهما مُقدَّ رٌ بالجهاز التعاطفي Sympathatic Nervous System الذي أوجزنا شيئاً يسيراً من وصفه . ولا بدّ لهذا وذاك من ازدياد الدورة الدموية إلى العضلات، وزيادة وحيب القلب وخفقانه . كما أن كليهما محتاج ليوسّع حدقة عينه: الأول ليرى الفريسة. والثاني ليرى السبيل إلى الفرار من براثن الوحش الكاسر . كما أن كليهما محتاج لزيادة الأوكسجين فيزداد التنفس عمقاً، وتزداد الدورة الدموية حتى تحمل الأوكسجين إلى العضلات. والأوكسجين مادة الاشتعال الأولى فتحرق السكر الموجود وتحوله إلى طاقة دافعة للعضلات: هذه للبطش وتلك للركض والفرار . وكلاهما محتاج لأن يدفع السكر من مخازنه في الكبد والعضلات جاهزاً لأن يُشعل ويحرق ويتحول إلى طاقة بواسطة الأوكسجين، عبر عمليات كيماوية شديدة التعقيد، حتى لا تتحول إلى نار تحرق للجسم، وإنما تأتي عبر أربعين عملية كيماوية متتابعة تعطينا الطاقة على هيئة مادة ثالث فوسفات الأدينوزين (ATP) المعقولة بعقال شديد الأيد والقوّة.

والآن لننظر وقد انتهت حالة الخوف أو القتال، وإذا النبض يبطئ، وإذا دقات القلب تخفت، وإذا الحدقة المبهورة المفتوحة تضيق، وإذا الجفن العلوي ينسدل قليلاً وينخفض بدلاً من ذلك الجحوظ. وإذا التنفّس يقلُّ في عمقه ويصبح سطحياً أو يكاد، وإذا الدم في العضلات يقلّ، بينما يزداد الدم الذاهب إلى الأحشاء.

فقد فاز الأسد بفريسته. وها قد جاء الوقت للأكل فلا بد من إفراز اللعاب وزيادة إفرازات المعدة والمواد الهاضمة الأخرى من المعدة والبنكرياس والأمعاء، وإفراز الحويصلة الصفراوية.. وها هي المعدة والمريء والأمعاء تنقبض لتهضم الطعام، فهي في شغل شاغل، حركة دائرية، وحركة طولية، وحركة دودية .. حركات ثلاث في آن واحد .. والكلُّ يذهب ويجيء ويفرز السوائل ويفتتت الطعام ويهضمه.. ثم يقوم بامتصاص ما هو مفيد .. والجهاز الهضمي يفرز عشرات اللترات ي ومياً من السوائل، ولا من بد إعادة امتصاصها، مع امتصاص المواد الغذائية المهضومة من بروتينات ونشويات، ودهون وفيتامينات وأملاح ... إلخ.

ثم ها هو الأكل وقد انتهى فقد آن الأوان لإخراج الفضلات التي لا فائدة منها، بل منها مضرّة، عبر الشرج فترتخي العضلات الحارسة ال قابضة Sphincters فتخرج الفضلات .

وكذلك البول يتجمع إفراز الكلى في المثانة فلا يسمح له الإنسان بالخروج لأن العضلة العاصرة الحارسة Sphincter الموجودة في أسفل عنق المثانة تمنعه من ذلك . فإذا زاد الضغط في المثانة سمحت له بذلك.

تداخل النظام الإرادي وغير الإرادي:

وها هنا تداخل عجيب بين النظام الإرادي والنظام غير الإرادي، وخاصة بالنسبة للإنسان، فلا يسمح لنفسه بالتبول والتغوط في أي مكان، بل يمنع نفسه من ذلك حتى يجد المكان المناسب (الخلاء، الحمام إلخ) فيأمر إرادياً العضلات العاصرة الحارسة الأخيرة بالسماح لخروج البول أو البراز فيخرج وهكذا عندما تأكل أو تشرب تفعل ذلك بإرادتك، فإذا جاوز الأكل أو الشرب البلعوم انتهت الإرادة . ودخل الجهاز اللاإرادي سواء كان بالنسبة للجهاز الهضمي أو الجهاز البولي. فإذا تم هضم الطعام وصار من الواجب إفرازه وإخراج فضلاته، تدخلت الإرادة حتى ترى ا لمكان والوقت المناسب . لذلك الإخراج . وكذلك الماء والسوائل تدخل الجسم وتدور دوراتها في الجسم ثم تذهب إلى الدم ومنها إلى الكُلى التي تصفّي الدم من المواد السامة ويدخل إلى الكُلى 180 لتراً من السوائل يومياً .. وما في دم الإنسان لا يزيد عن خمسة ليترات. ولكن الله بفضله ومنّه يجعل ذلك الكم الهائل يذهب إلى الكلى في دورات متصلة لا تتوقف ثانية من ليل أو نهار دون أن تشعر بذلك أو يدخل في ذلك الجهاز الإرادي.

ثم تقوم الكلى بتصفية هذه الكمية وتعيدها إلى الدم ويتم إفراز البول بعد عمليات الفرز والامتصاص المعقّدة أشد التعقيد . ولا يخرج من المثانة إلا ما بين لتر ولترين في اليوم الواحد من البول، على حسب الحاجة.

ونحن نعرف قيمة الكُلى مما يعانيه مرضى الفشل الكُلوي . فإذا لم تتم تنقية الدم من الشوائب والسموم بسبب فشل الكلى، تفشل الأعضاء الأخرى وينتهي ذلك بالوفاة ما لم يتم علاج الفشل الكلوي بالديلزة (الغسيل الكلوي وهو نوعان الغسيل الكلوي الدموي بما يسمى جهاز الكلية الصناعية أو الغسيل الكلوي البيريتوني) أو زرع الكلى من متبرع حي أو ميّت . نسأل الله لنا ولكم العافية. وتمام العافية والشكر على العافية.

وهكذا فإن الوظائف الهامة في جسم الإنسان والتي لولاها لمات الإنسان لا تعتمد أبداً على الإرادة، بل هي نظام قهري جبري غير إرادي وضعه الله سبحانه وتعالى للحفاظ على حياة هذا الإنسان (أو الحيوان).

فالقلب ينبض ويضخ الدم منذ بداية الأسبوع الرابع منذ التلقيح (تلقيح البويضة بالحيوان المنوي) في الجنين ويتطور الدورة الدموية، وتركيب القلب مع نمو الجنين شيئاً فشيئاً وتقفل مسالك وتفتح أخرى وتتغير تفاصيل البنية في الجهاز الدوري (القلب والأوعية الدموية) بعد الولادة مباشرة وتستمر لفترة .. وتنضج تفاصيل نمو الجهاز الدوري حسب الحاجة . وليس للإرادة في ذلك أي دور على الإطلاق.

وتستمر نبضات القلب وضخه للدم منذ الأسبوع الرابع للتلقيح إلى لحظة الوفاة دون توقف إلا في حالات عمليات القلب المفتوح حيث يوقف القلب، وتعمل الآله لتضخّ الدم بدلاً عنه لمدة ساعة أو ساعات. ثم يعود الأمر على ما عليه كان.

والتنفس يستمر طبيعياً دون تكلف أو عناء أو مشقّة أو إرادة إلا فيما ندر وذلك أيضاً لأهمية التنفس في حياة الإنسان.

وفي الطعام والشراب تدخل الإرادة فإذا أكل الإنسان أو شرب ودخل الطعام الفم فالأمر لا يزال للإرادة فيه دور، فإذا تجاوز البلعوم (يسميه العرب والفقهاء الحلق) فقد انتهت الإرادة .. وتتم عمليات دخول الطعام والشراب وهضمه وامتصاصه والاستعداد لإخراجه عبر عمليات لا دخل فيها للإرادة مطلقاً. فإذا أراد إخراج الفضلات تدخلت العضلات العاصرة الحارسة الخارجية في الشرج anal sphincters لتمنع الخروج إلا في المكان المناسب . ويندفع الشخص حتى يحقّق ذلك. والإرادة هاهنا محدودة لتهيئة المكان والوقت المناسب، وإلا فإن ضغط الطبيعة أقوى من الإرادة. وكذلك الأمر وبصورة أشد في إخراج البول.

والشيء ذاته يقال عن شهوة الجنس. فهي موكولة ببقاء نوع البشر أو نوع الحيوان وهي تدفع الذكر إلى الأنثى والأنثى للذكر دفعاً، ويتحمل أو يتحملان في ذلك مشقات كثيرة، ويعوضها الله بلذّة الجماع . ولذّة الحصول على ولدٍ (ذكر أو أنثى) ولذة الحياة الزوجية وسعادتها {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً} [الروم/21] وقال تعالى {هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ} [البقرة/187] .

الجانب الإرادي محدود واللاإرادي هو الغالب:

وهكذا ترى أهمية وجود الإرادة في أشياء محدّدة، ووجود النظام الجبري اللاإرادي في معظم كيان الإنسان الفسيولوجي. وهكذا هو في حياته له جانب إرادي محدود سيحاسب عليه وجانب أكبر غير إرادي وغير محدود لن يحاسب عليه.

إن الجسم الإنساني هو أحد معجزات الله الباهرات قال تعالى {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ *} [الذاريات/21] . وقد تعرضت لخلق الإنسان ومراحل ذلك الخلق في الجنين الإنساني في كتابي «خلق الإنسان بين الطب والقرآن» وهو بحمد الله في طبعته الرابعة عشرة (مع تعديل وزيادات في بعض الطبعات).

وفي هذا الخلق يتجلّى الجانب الإرادي والجانب اللاإرادي في جسم الإنسان .. وكله من خلق الله وصنعه وإبداعه {قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا } [النساء/78] . ولا شك أن الجانب اللا إرادي هو الغالب على الإنسان فمنذ خلقه الله من نطفة الرجل ونطفة المرأة بامتشاجهما فصارا النطفة الأمشاج، وهو يمرّ بمراحل متعددة : نطفة، علقة، مضغة، عظام، لحم يكسو العظام ثم ين شؤه الله سبحانه وتعالى خلقاً آخر . قال تعالى {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ *ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ *ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَ كَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ *} [المؤمنون/ 12 ـ 14] وقال تعالى {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ

مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ
وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ
هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ *ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ
وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ
فِي الْقُبُورِ *وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدىً وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ *ثَانِيَ عِطْفِهِ
لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ *ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ
وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ *وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَ يْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ
وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ *يَدْعُو مِنْ
دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ *يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ
لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ *إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ *مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ
بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ *وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ
اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ *إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَا لَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ
أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ *أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ
فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ
النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ *هَذَانِ
خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ
الْحَمِيمُ *يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ *وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ *كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا
مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ *إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَ رِيرٌ
*وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ *إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ
مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ *وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لاَ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ
وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ *وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَ أْتِينَ مِنْ
كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ *لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ
بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ *ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا
بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ *ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا
يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ ال زُّورِ *حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ
وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَ حِيقٍ
*ذَلِكَ ومَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ *لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ مَحِلُّهَا
إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ *وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ
فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ *الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى
مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ
فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُ رُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ
وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ
التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ *إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ

الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ *أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ *الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ *الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ ا لأُمُورِ *وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ *وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ *وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ *فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ *أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَ كِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ *وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ *وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ *قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ *فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ *وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ *وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ *وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهَا دِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ *} {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ » ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ » ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ » لِنُبَيِّنَ لَكُمْ... » ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً » ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ...} [الحج/5] .

فهذه المراحل كلها خلقها الله وأبدعها وسوّاها، ورزقها، ورعاها دون أن يعرف الإنسان عن ذلك شيئاً، فضلاً عن أن تكون له فيه إرادة . وفي سورة الحج توضيح لما يتم أيضاً من سقط أثناء الحمل، وما يتم من ولادة طفل كامل غير مشوه، ولا مصاب بأمراض . ثم ينمو مرحلة بعد مرحلة، يهيء له الغذاء من ثدي أمه، ويملأ قلبها حناناً عليه لترعاه، دون إرادتها . وكذلك أبوه يقدّم له الرعاية حتى إذا بلغ أشدّه طغى واستكبر . ونسي فضل والديه عليه، ونسي نعم الله عليه وهي سابغة مستمرّة لا تتوقف ثانية ولا أقل من ثانية فإذا وكله لنفسه هلك مادياً ومعنوياً.

وفي هذا كله ينمو لديه الجانب الإرادي الذي لم يكن إلا بذرة صغيرة تنمو مع الأيام كما ينمو جسمه، وكما تنمو الشجرة اليانعة الوارفة الظلال .. تنمو مداركه وينمو عقله، وتنمو بذلك إرادته.

والقلم مرفوع عن الصبي حتى يبلغ وعن النائم وفاقد الوعي والمجنون وعن أولئك المتخلفين عقلياً، تخلّفاً يرفع عنهم ا لتكليف . والله بمنّه وكرمه وجوده {لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَ لاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ *} [البقرة/286] ومع هذا يعفو عن

السيئات بمجرد التوبة. وتتمة آية البقرة {...رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ *} [البقرة/286] .

وهو التوّاب الرحيم ويعفو عن كثير. بل يعفو عن الذنوب جميعاً إذا ما تاب العبد {إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} [الزمر/53] وذلك يشمل الشرك والكفر والقتل والكذب والزنا والربا .. كلها يغفرها الله سبحانه وتعالى بالتوبة النصوح والعودة إلى دين الله . وقال تعالى {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا *} [النساء/48 والنساء/116] وذلك لمن يموت مشركاً بالله.

وسيأتي الحديث عن التوبة في فصل خاص فليرجع إليه القارىء إن أحب، وإلا فكل مسلم يعلم ذلك علم اليقين.

ومع القدرة على التفكير واختيار القرار في أمور محدّدة تأتي المسؤولية ويأتي التكليف قال تعالى {أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً *أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى *ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى *فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى *أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى *} [القيامة/36 - 40] . ويكون الجواب الوحيد: بلى إنه على كل شيء قدير.

فسبحان من شملت قدرته كل مقدور وجرت مشيئته في خلقه بتصاريف الأمور {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ *أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ *} [الشورى/49، 50] .

ولو كان الأمر بإرادة البشر لاختل نظام الكون لأن الغالبية الساحقة منهم ستختار الذكور وسيقتتل هؤلاء على العدد القليل من الإناث فشاءت حكمته وإرادته أن يهب الذكور لمن يشاء والإناث لمن يشاء أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً لمن يشاء . ويجعل من يشاء عقيماً بحكمته وإرادته.

وفي كل الأمور كذلك قال تعالى على لسان نبيه {قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ *} [الأعراف/188] وقال على لسان رسوله الكريم {قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ } [الأنعام/50] وقال {وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ} [هود/31] .

وعلم الغيب عنده وحده {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا *إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا *} [الجن 26، 27] وجسم الإنسان يعطينا مثالاً واضحاً في أن الله سبحانه وتعالى قد أعطاه جانباً إرادياً محدوداً، ولفترة محدودة من حياته، يتحمّل بها المسؤولية، وهي فترة التكليف من سن البلوغ إلى الشيخوخة، فإذا فقد قدراته العقلية أو أصابه خرف أو مرض في قواه العقلية، فقد رفع عنه القلم.

وأما الجانب اللاإرادي فهو عالم واسع يبدأ منذ لحظة التلقيح (بين الحيوان المنوي والبويضة) إلى تمام خلقه وولادته، ومن ولادته إلى طفولته حتى إذا بلغ (مبلغ الرجال أو

النساء) تحمّل المسؤولية في عالمه المحدود. بينما بقيه جسمه وبدنه ونفسه كلها خارجة عن إرادته. فالقلب ينبض غصباً عنه، والتنفس يستمر رغم أنفه، والجهاز الدوري يعمل دون كلل. وكذلك الجهاز البولي والجهاز الهضمي والجهاز العصبي وما شئت من أجهزة مبهرة يقضي دارسوها الأعمار في معرفة بعضها فلا يصلون إلا إلى أقل القليل .. ومع ذلك فما وصلوا إليه ويصلون إليه يملأ مكتبات زاخرة وعلوماً جمة لا أول لها ولا آخر.

عالم الذر وعالم الجينات

إن الجين أو الناسلة هي سلسلة من القواعد النتروجينية تقوم بإصدار أوامر لصنع بروتين معيّن. وفي جسم الإنسان حوالى ثلاثين ألف جين (ناسلة) وفيها لغة الشفرة بحيث تتحكم في الصفات الوراثية بأمر ربها . وبحدوث أنواع من الأمراض الوراثية واستعداد للإصابة بأمراض أخرى.. وهذه القواعد النتروجينية هي أربعة فقط:

ويتصل الجوانين بالسايتوزين Guanine = Cytosine .

والأدنين بالثايمين Adenine = Thymine

وهذه الروابط بينهما هامة جداً ثم يتصل كل واحد من هذه القواعد النتروجينية بأحد السكريات الناقصة الأوكسجين Deoxy Ribose (وهو سكر خماسي). ثم يتصل السكر الخماسي بمركب فسفوري. وهذه المجموعة تشكل (نيوكليوتايد).

وهكذا تجد أن ما يسمى الحامض النووي ناقص الأوكسجين (DNA) يتحكم في أسرار الخلية. ويمتد هذا الحبل الملتوي ليصل ما بين الأرض والقمر في حيز صغير جداً يحسب بالمايكرون (المايكرون واحد على مليون من المتر). وفيه أسرار وأسرار ويوجه الخلية ونشاطها ونوع أنزيماتها وخصائصها ووظائفها بحيث أنها لا تقوم بأي وظيفة إلا في الوقت المحدد، وحسب البرنامج المعدّ سلفاً (من الذي أعده؟ من غير الله سبحانه وتعالى).

وهذه القواعد النتروجينية أربعة فقط، فإذا اعتبرناها حروفاً كيميائية فإنه يمكن صياغة 64 كلمة وكل كلمة مكونة من ثلاثة أحرف، وبما أن هذه الكلمات تتحكم في عشرين حمضاً أمينياً Amino acid فإن هناك عدة كلمات (أو صيغ) لكل حامض أميني . ويوضع كل حامض أميني في موضعه المقرّر ضمن سلسلة من الأحماض الأمينية التي تكون البروتين . وبعض البروتينات معقدة وطويلة وتحتاج إلى سلسلة طويلة من القواعد النتروجينية تزيد عن مليونين وبعضها مختصرة ولا تحتاج إلا لبضع مئات من القواعد النتروجينية.

والأمر مع هذا أعقد من ذلك بكثير وعالم الجي نات عالم واسع واسع وهناك تشابه بين الجينات في أصغر النباتات وأصغر الديدان وبين الإنسان!!!

أما التشابه بين الفأر والإنسان فيزيد عن 90 بالمئة!! ومع أن البشر جميعاً يتشابهون في جيناتهم بنسبة 98 بالمئة إلا أن ما بقى وهو اثنين بالمئة يسمح لاختلاف البشر كل هذا الاختلاف. ومن العسير جداً أن تجد شخصين يتطابقان في بصمة الأصبع أو بصمة الجينات أو غير ذلك من البصمات حتى الأخوة التوائم المتشابهة التي هي من حيوان منوي واحد

وبييضة واحدة ونما كلاهما داخل رحم واحد، وتغذّى كلاهما من لبن أم واحدة إلا أن هناك من الفروق الدقيقة بينهما ما تجعلهما شخصان كاملان وليسا شخصاً واحداً.

وفي عالم الجينات ما يشير إلى عالم الذر ولا أقول إنه هو عالم الذر فهو عالم آخر أكثر دقة وروعة من عالم الجينات الذي لم يكشف سرّه إلا في القرن العشرين ولا تزال أسراره كثيفة في القرن الواحد والعشرين بعد الميلاد.

عالم الذر هو عالم الرمز والشيفرة المتناهية الصغر التي لا ندرك أبعادها قال تعالى {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ *} [الأعراف/172] .

قال ابن عباس قال رسول الله : «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان » (هو وادي قريب بين عرفة ومكة) فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه. ثم كلمهم قُبُلاً قال : ألست بربكم قالوا بلى شه دنا، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون» أخرجه الإمام أحمد في مسنده والنسائي في السنن الكبرى والحاكم في المستدرك، وابن جرير وابن أبي حاتم.

وفي الصحيحين البخاري ومسلم عن أنس بن مالك عن النبي : قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به . قال، فيقول : نعم. فيقول: أردت منك أهون من ذلك . قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي».

قيل وذلك هو الفطرة التي فطر الناس عليها فالناس يولدون على الفطرة والطفل يولد على الفطرة، ولديه الاستعداد الكامل للهدى، ولكن أبواه ينصرانه أو يهودانه أو يمجسانه، وتغلب عليه تأثيرات البيئة والشيطان والهوى فلا يجيب داعي الحق . {وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِ نْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً *يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا *} [النساء/119، 120] .

وعن عبدالله بن عمر عن النبي قال : «{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّ ا عَنْ هَ ذَا غَافِلِينَ *} [الأعراف/172] قال: أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس . فقال لهم : ألست بربكم؟ قالوا: بلى. قالت الملائكة: شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين رواه ابن جرير.

وعن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله سئل عن الآية {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ *} [الأعراف/172] فقال رسول الله : «إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية. قال: خلقت هؤلاء للجنّة وبعمل أهل الجنّة يعملون . ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية. قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون ». فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ فقال رسول الله : «إذا خلق الله العبد للجنّة اس تعمله بأعمال

أهل الجنّة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنّة فيدخله به الجنّة . وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار » أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن حبّان.

قلت: إن هذه الأحاديث الشريفة وغيرها قد توهم الجبر، وأن ليس للإنسان أي إرادة في عمل الخير والشر والصحيح غير ذلك. وقد قال تعالى {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا *فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا *قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا *} [الشمس/ 7 - 10] .

وقال تعالى {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ *} [البلد/10] أي الطريقين طريق الخير وطريق الشرّ . وقال تعالى [الرعد/11] وقال تعالى {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ *} [المدثر/38] وقال تعالى {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام/164] .

وذلك لا يناقض أن ما سيفعله الإنسان مسجل مكتوب قبل ولادته، بل وقبل أن يخلق الكون، لأن ذلك في علم الله سبحانه وتعالى. وعلم الله شامل محيط بما كان وبما سيكون منذ الأزل وإلى الأبد . وشاءت قدرته تعالى أن يعطي الإنسان مقداراً محدوداً من الاختيار والإرادة يناط بهما الثواب والعقاب.

ورغم أن الجانب اللاإرادي في جسم الإنسان وفسيولوجية جسمه أكبر بكثير، أو بما لا يقاس، من الجانب الإرادي، إلا أن هذا الجانب الإرادي كافٍ لتحمّل المسؤولية وبالتالي التكليف. وأما من فقد القدرة على الإرادة فتسقط عنه التكاليف الشرعية . فلا تكليف على صغير غير بالغ، ولا تكليف على فاقد العقل ولا مجنون، ولا شيخ طاعن في السن قد بلغ مرحلة الخرف {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَ رْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ *} [الحج/5] ولا مسؤولية على مكره إلا في حدود فإذا أمر بقتل إنسان بريء فلا يقتل مهما كان أمر الإكراه.

وقد أوضحنا أن في جسم الإنسان ما يدلُّ على أن معظم وظائف الجسم تؤدّى دون تدخل الإرادة الإنسانية، وإذا دخلت فيها أفسدتها أيما إفساد، وربما أدّت إلى وفاة الشخص أو إصابته إصابات بالغة . ولكن بفضل الله سبحانه وتعالى لم يجعل للإرادة الإنسانية عليها سبيلاً. وهناك جانب إرادي لا بدّ منه للإنسان في وظائف جسده ووظائف حياته، وعلى هذا المقدار المحدود من المسؤولية يكون التكليف والحساب والعقاب . وفضل الله أوسع وكرمه ورحمته لا تترك هذا الإنسان الضعيف والله يعفو عن كثير.

الفصل الثاني عشر
حديث جبريل
أركان الإيمان والإسلام والإحسان

حديث جبريل

أركان الإيمان والإسلام والإحسان

اشتهر عند أهل الإسلام حديث جبريل لأنه احتوى أركان الإيمان وأركان الإسلام وأركان الإحسان وعلامات الساعة. والحديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة.

تخريج الحديث: عن أبي هريرة قال : «كان النبي بارزاً يوماً للناس فأتاه رجل فقال : ما الإيمان؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه [1] ، ورسله، وتؤمن بالبعث . قال: ما الإسلام؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان. قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال: متى الساعة : قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربَّها، وإذا تطاول رعاةُ الإبل البُهم في البنيان. في خمس لا يعلمهن إلا، الله ثم تلا النبي {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ } [لقمان/34] . ثم أدبر (أي الرجل) فقال: ردُّوه فلم يروا شيئاً. فقال: «هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم».

(2) كذلك أخرج هذا الحديث الإمام مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان في باب كفر من نفى القدر عن عبدالله بن عمر بن الخطاب بعد أن قال والذي يحلف به عبدالله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالق در ثم قال : حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه (قال النووي على فخذ السائل، وقال ابن حجر على فخذ النبي محمد) قال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله : «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت [2] إن استطعت إليه سبيلاً. قل: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدّقه. قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره [3]. قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان؟: قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل . قال فأ خبرني عن أماراتها؟ قال: أن تلد الأمة ربتها[4] وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء [5] يتطاولون في البنيان . قال ثم انطلق فلبثت ملياً ثم قال لي يا عمر : أتدري من السائل؟ قلت الله ورسوله أعلم . قال: فإنه جبريل آتاكم يعلمكم دينكم».

---

(1)قال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري شرح صحيح البخاري (ج114/1 - 125) عند الأصيلي وكتبه بدلاً من لقائه.

(2)لم يذكر البخاري في حديثه عن أبي هريرة وتحج البيت.

(3)لم يذكر أبو هريرة (البخاري) القدر.

(4)في رواية أبي هريرة (ربّها).

(5) في رواية أبي هريرة رعاة الإبل البهم.

وأخرج الإمام مسلم أيضاً حديث أبي هريرة الذي أخرجه البخاري إلا أنه قال رعاة البهم بدلاً من رعاة الإبل البهم.

وقد شرح هذه الأحاديث بتفصيل واف الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم (ج1/157 - 165) والإمام ابن حجر العسقلاني في فتح الباري شرح صحيح البخاري (ج1/114 - 125).

وقد تعرّض كلاهما للاختلافات الخفيفة في الروايات وعللاها. والحادثة واحدة وفي حديث أبي هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبرهم مباشرة بأن الرجل الذي اختفى هو جبريل أتاهم يعلمهم أمور دينهم. وفي حديث عمر بن الخطاب أن عمر بن الخطاب لبث ملياً وفي رواية سأله النبي بعد ثلاث عن الرجل؛ فقال صلى الله عليه وسلم : الله ورسوله أعلم فقال: «ذاك جبريل أتاكم يعلمكم أمور دينكم». وقد علل ذلك النووي بأن عمر كان فيمن قام يبحث عن الرجل، ولم يعد إلى مكانه، ولم يلقه النبي إلا بعد ثلاث فسأله، بينما كان أبو هريرة حاضراً في المجلس، فلما رجعوا دون أن يروا الرجل أخبرهم الرسول مباشرة إنه جبريل أتاهم يعلمهم أمور دينهم. وهي اختلافات لا تؤثر كعدم ذكر الحج عند أبي هريرة وذكره عند عمر بن الخطاب وغيرها من الاختلافات الطفيفة التي لا تؤثر . قل ابن حجر أن سبب عدم ذكر الحج في رواية أبي هريرة أنه قد يكون بسبب نسيان أحد رواة الحديث عنه أو ذهل عنه أبو هريرة نفسه. وردّ على من قال أن الحج لم يكن قد فرض بأن الرجل (جبريل إنما جاء في آخر عمر النبي أي بعد فرض الحج. وأن عمر بن الخطاب ذكره في حديثه . والحادثة واحدة وليست متعددة، فصار الأمر ألى إلى أن أبا هريرة أو أحد رواته نسي أو ذهل عن الحج).

وما يهمّ هاهنا:

(1) أركان الإسلام.

(2) أركان الإيمان.

(3) أركان الإحسان.

وقد أفضت في الحديث عن أركان الإيمان وعلاقة ذلك بموضوع الأخلاق، وهو موضوع كتابنا هذا . وبدأته بالتوحيد أي شهادة أن لا إله إلا الله ثم شهادة محمد رسول الله والإيمان بجميع الرسالات السماوية وجميع الكتب المنزلة والإيمان بالملائكة واليوم الآخر . وكلها غيوب وشرحت ذلك على ضوء ما جاء في أول سورة البقرة {الم *ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ *أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [البقرة/ 1 - 4] .

وقال تعالى في سورة البقرة أيضاً {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ *فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا

فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ *} [البقرة/136 - 138] .

وفي ختام سورة البقرة قال تعالى {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ *} [البقرة/ 285] وفي سورة آل عمران جاء قوله تعالى {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ *وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ *} [آل عمران/ 84، 85] .

ودين الله واحد منذ آدم إلى خاتم الأنبياء والمرسلين . جاؤوا برسالة واحدة أن اعبدوا الله واتقوه ولا تشركوا به شيئاً. جاؤوا بعقيدة واحدة هي عقيدة التوحيد الحقّة، فجاءت الذراري فخالفت، وأدخلت معبوداتها إشراكاً بالله . مما أفضنا في ذكره في فصل التوحيد . وفرض الإسلام الإيمان بالأنبياء جميعاً وبكتبهم وبالملائكة وباليوم الآخر . وجميعهم أمروا بالصلاة والزكاة والصوم والحج . ولكل قوم منسك هم ناسكوه . وكلهم أمر بالبر والصدق والأمانة والعفة ومحبة الله ومحبة الآخرين وبذل المعروف، والتواضع وحسن الخلق. وكلهم نهى عن الكبر والعجب والغرور والحقد و الغلّ والحسد والنميمة والغيبة كما نهوا عن الربا والزنا وجميع الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ونهوا عن الكذب والغش والخداع والسرقة والظلم . فما من خير إلا وأمروا به وما من شرٌ إلا ونهوا عنه وقد حكى لنا القرآن الكريم مواقف الأنبياء الكرام مع أقوامهم وقد تستشري في قوم رذيلة لم تستشرى في غيرهم، بالإضافة إلى جريمة الشرك، وهي أفظع الجرائم التي عمّت في جميع هذه الأقوام . فقوم عاد مثلاً اغتروا بقوتهم وقالوا من أشدُّ منا قوة؟ فقاموا بقطع الطرق والاستيلاء على أراضي الغير. وقوم ثمود اغترّوا بقدرتهم الهندسية {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ *} فظلموا وطغوا وبغوا. وقوم لوط جاؤوا بجريمة لم تعرف من قبل {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ *إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ *} [الأعراف/80، 81] .

وقوم شعيب يطففون الكيل والميزان ويظنون ذلك منهم ذكاء ومقدره. قال لهم نبيهم شعيب {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ *} [الأعراف/85، 86] .

وكان جوابهم {قَالُوا يَاشُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ *} [هود/87] واستغربوا من هذا الحليم الرشيد أن يأمرهم بترك آلهتهم من الأوثان والأصنام، وأستغربوا أكثر تدخله في شؤونهم المالية فما للدين والمال؟ ونحن أحرار نفعل في أموالنا ما نشاء نغشّ ونطفّف الكيل والميزان، ونعتبر ذلك (شطارة) فنسرق الآخرين دون أن يشعروا بذلك . فأخذ يجادلهم فلما أكثر عليهم {قَالُوا

ياشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ *} [هود/91] .

وهكذا الموقف مع جميع الرسل.. إنها قضايا إيمانية وقضايا أخلاقية أساسية . وكم عانى بنو إسرائيل من ظلم فرعون وطغيانه فأرسل الله موسى لتخليصهم من هذا الجبار مدّعي الألوهية. وجاء عيسى إلى بني إسرائيل بعد أن اشتد فسادهم وخبثهم ونفاقهم وتظاهرهم بالدين وهم قبور مبيضّة من الخارج وتكتنفها الديدان من الداخل.. وقد قرّعهم عيسى وحاول أن يصلح من نفوسهم المليئة بكل حقد وغلّ للبشرية جمعاء فقاموا بالكيد له رغم الآيات الباهرات والمعجزات الناطقات، ثم حاولوا الدسّ لدى الامبراطورية الرومانية التي كانت تحكم فلسطين، وكان الحاكم الروماني قد منحهم حكماً ذاتياً . فحكمت المحكمة العليا لليهود (السنهدرين) بصلبه وقتله (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم) قال تعالى عنهم {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً *وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيمًا *وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً *بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *} [النساء/155 - 158] .

وهكذا جاء القرآن الكريم ليبرىء أنبياء الله الكرام من التهم التي ألصقها بهم اليهود عليهم لعائن الله، والأخطاء التي ارتكبوها بحقهم وأوضح ما كان عليه الرسل الكرام من الأخلاق العالية التي حاول اليهود تلويثها في كتبهم المحرّفة (التوراة وكتب العهد القديم الأخرى، وكتب التلمود). كما أن النصارى اتبعوا اليهود وآمنوا بهذه الكتب المحرّفة وأضافوا إلى ذلك فرية تأليه عيسى وجاء الإسلام والرسالة الخاتمة بالحق المبين ليزيح كل هذه القاذورات والاتهامات عن أنبياء الله ورسله وأنهم على الحق المبين وأن الرسالة واحدة والدين واحد والأخلاق العليا التي كان عليها الأنبياء والرسل واحدة .. وما أمروا به من التوحيد والصلاة والزكاة والإيمان باليوم الآخر والتواضع والصدق والأمانة والحق والعدل.. وما نهوا عنه من الظلم والكذب والغش والخداع والكبر والعجب. وأكل أموال الناس بالباطل والتظاهر بالتقوى وهم على قلوب الذئاب. وجيف ملأها الدود.

إنه دين واحد، دين الحق، وعبادة الله واحدة، والإيمان بالغيب والإيمان باليوم الآخر، وفعل الخيرات، والنهي عن جميع المنكرات. فيا له من دين جمع كل خير ونهى عن كل شر . فما أسعد من أتبعه وما أشقى من أعرض عنه {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى *} [طه/124] .

وأضاف حديث رسول الله الذي أخرجه البخاري ومسلم عن عمر ابن الخطاب وعن أبي هريرة فيما يعرف بحديث جبريل، أضاف أركان الإحسان بعد أن ذكر أركان الإيمان وأركان الإسلام.

وهي مرحلة سامقة فوق مرحلة الإيمان والإسلام . وهي أن تعبدالله كأنك تراه . فالله ماثل أمامك تراه في كل ما تفعل فتخشاه وتتقيه وتمتلأ حبّاً له وإجلالاً له . وترى صفات الجمال

والجلال حتى يمتلأ بها قلب هذا المؤمن الصدّيق.. (فإن لم تكن تراه فإنه يراك). فإن لم تبلغ أن ترى الله فإن عليك أن تشعر بأنه يراك فتلزمك مراقبته مما يؤدي إلى أن تحسن العبادة والعمل ومعاملة الآخرين. وقد أفردنا فصلاً طويلاً في شرح حديث الولي وهو حديث صحيح أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق في باب التواضع . وقد نقلت هناك شرح ابن حجر العسقلاني (فتح الباري) وما فيه من علوم غزيرة بعيدة الغور ثم ذكرت أقوال كثير من العلماء. ثم انتقلت إلى قصيدة الرشفات للحبيب العلامة عبدالرحمن بلفقيه ووصفه التفصيلي البارع لحديث الولي. وقد شرحت تلك الأبيات مستعيناً بشرح الشيخ عبدالله باسودان ثم انتقلت إلى كتاب حافل» للإمام محمد ابن علي الشوكاني هو كتاب «قطر الولي على حديث الولي » فنقلت منه ما يشفي ويكفي .. وأخيراً وليس آخراً نقلت كلام الشيخ ابن تيميه وما ذكره في الفتاوى عن حديث الولاية وتعرَّض فيه لصفا ت الولي، وانتقل منه إلى مصطلحات الفناء والاتحاد ووحدة الوجود فحققّها وأجاد في ذلك كله أي إجادة متّصفا بالانصاف متسربلاً بالعلم الواسع. وقد أفاض في حديث الولاية بما يشرح الصدور.

ونقلت قبلها ما جاء في كتاب مدارج السالكين للشيخ النوراني ابن قيم الجوزية في كلا مه عن التوحيد في سورة الفاتحة والتحقق بإياك نعبد وإياك نستعين. وكلها مقامات تدل على أن صاحبها من الذين فتح الله عليهم ونوَّر قلوبهم . وقد فَهِمَ كتاب الله، وسنة رسوله وحديث جبريل وموضوع الإحسان وأركانه، وحديث الولي فاستعرض ذلك كله بأسلوب جذاب رائع، مليء بالحكمة والنور مما أفاضه الله عليه.

وهذه المقامات العلية من التوحيد الخالص تقتضي كل المقامات الأخرى من التوبة والورع والزهد والتوكل والمحبة والرضا مما يستحق أن نفرد لها فصلاً خاصاً فيما يأتي.

قال الإمام عبدالله الحداد في ديوانه:

مقاماته تسع عليك بحفظها وإحكامها وابدأ بتصحيح توبةِ

وخوفٍ، ونعم الخوف للعبد سائق ونعم الرجاء من قائدٍ للسعادةِ

وصبرٍ جميل عند كلِّ بليّةٍ وأمرٍ ونهيٍ أو ركونٍ لشهوةِ

وشكر على النعماء برؤية منعم وصَرف الذي أسداه في سُبل طاعةِ

وصحّح مقام الزهد فهو العماد والتوكّلُ وهو الزادُ في كلِّ رحلةِ

وحبِّ إله العالمين مع الرضا بكل الذي يقضيه في كل حالةِ

وجاهد تشاهد واغنم الوعد بالهدى هدى نصّه بالعنكبوت بآيةِ

وحافظ على المفروض من كل طاعةٍ وأكثر من النفل المفيد لقربةِ

بكنتُ له سمعاً إلى آخر النبا عن الله في نصِّ الرسول المثبّتِ

وجانب هديت النهي من كل جانبٍ وما تشتهيه النفس من كل لذّةِ

وكن في طعام والمنام وخلطةٍ ونطقٍ على حد اقتصار وقلّةِ

وجالس كتاب الله واحلل بسوحه ودم ذاكراً فالذكر ونور السريرة

عليك به في كل حين وحالةٍ وبالفكر إن الفكر كُحل البصيرةِ

وكن أبداً في رغبة وتضرّعٍ إلى الله عن صدق افتقار وفاقةِ

ووصف اضطرار وانكسار وذلّةٍ وقلبٍ طفوح بالظنون الجميلةِ

وحقّق أصول القوم واعلم طريقهم وكل اصطلاح بينهم في الطريقةِ

كفرق وجمع والحضور وغيبة وصحو ومحو وانفصال ووصلة

ولا بد من شيخ تسير بسيره إلى الله من أهل النفوس الزكيّةِ

من العلماء العارفين بربهم فإن لم تجد فالصدق خير مطيّة

والأخلاق تحتاج إلى تربية ومعاناة ومجاهدة ولا تكفي فيها المعرفة كما زعم الفلاسفة ومنظروا الأخلاق. ولا طريق غير التربية التي جاء بها الإسلام والتي ربّى بها رسول الله أصحابه . ثم قام أصحابه بتربية من بعدهم وهكذا إلى يومنا هذا وإلى قيام الساعة .. مع الاعتراف بأن الأجيال الأولى لا نظير لها، ولكن الخير في أمة محمد لا ينقطع أبداً.

الفصل الثالث عشر
المقامات التسع

مقام التوبة

هذا هو أول الطريق وأول المقامات . فلا بد للإنسان من توبة وأوبة، مهما كان ذلك الإنسان. فالكافر لا بد أن يتوب من كفره، ويدخل في دائرة الإسلام، ثم يتوب من الذنوب جميعاً. ومن تاب تاب الله عليه. والمسلم العاصي لا بد له من توبة من الذنوب التي تغطي على القلب. إذا أذنب العبدُ نكت في قلبه نكتة سوداء. فإذا تاب محيت وصُقل قلبه، أما إذا لم يتب جاءت نقطة أو نكتة سوداء أخرى حتى يصير طبقة تسمّى الران، قال تعالى : {كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *} [المطففين/14] ، ثم تزداد فتصير أكنَّة وأغلفة قال تعالى {وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ » وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا } [الأنعام/25] . وقال تعالى عن اليهود يحكي ما قالوه {وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ » بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ } [البقرة/88] ويأتي بعده الختم والطبع. قال تعالى {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ » وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ } [البقرة/7] وقال تعالى {كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ} [غافر/35] .

لهذا لا بد من تعاهد الإنسان قلبه، ولا بد له من تكرار التوبة . ورسول الله المعصوم وهو أكمل البشر وأصدقهم وأطهرهم يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» رواه البخاري في صحيحه. وروى مسلم في صحيحه: «يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة». وهو قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، قال تعالى {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا *} [الفتح/2] .

ويقول : «إنه ليغّان على قلبي فاستغفر الله».

وهذه درجات سامقة حتى أنه لو اشتغل عن ربِّه بأي شيء اعتبر ذلك ذنباً فيستغفر منه . وما قد شغله قد يكون في شأن الدعوة والرسالة..

فإذ ا كان رسول الله يستغفر الله في اليوم والليل مائة مرة، وهو في أعلى مقام يصله مخلوق، فكيف بنا نحن العبيد الخطّاؤون؟!

ومن فضل الله وتعالى أن أمر نبيه بأن يستغفر الله، لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات. قال تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [محمد/19] ومن فضله الذي لا يوصف أن حعل حملة العرش ومن حوله يسبّحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا قال تعالى {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ *رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَّهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *} [غافر/7 - 9] .

بل هناك ما هو أعظم من هذا قال تعالى {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا *} [الأحزاب / 43] والصلاة من الله مغفرة ورحمة.

فالتوبة إذن درجات: توبة الكافر ليعود إلى رحاب الإسلام والدين وتوبة العاصي ليؤوب إلى رحمة الله {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} [الزمر/53] .

وتوبة الأنبياء والصديقين من كل خطرة وفكرة في غير طاعة الله وعبادته.

لهذا قال تعالى {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ولاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *} [النور/31] .

وقال تعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا} [هود/90] .

وقال تعالى {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة/ 222] .

وقال : «لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضلّه في أرض فلاة » متفق عليه.

وفي رواية لمسلم:« لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلّها وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدّة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح».

قال : «لو أنكم لا تخطئون لأتى الله بقوم يخطئون ثم يغفر لهم » أخرجه الحاكم عن أبي هريرة، «لو أنكم لا تذنبون أيها الأمة لاتخذ الله عباداً يذنبون فيغفر لهم » أخرجه الشيرازي عن أبي هريرة وقال : «لو أنكم لا تخطئون ولا تذنبون لخلق الله أمة من بعدكم يخطئون ويذنبون فيغفر لهم » أخرجه ابن جرير والطبراني وابن مردويه وابن أبي الدنيا . وقال : «والذي نفسي بيده لو لم تخطئوا لجاء الله بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم » أخرجه أحمد والنسائي وبمعناه أخرجه الترمذي.

وقال : «إن الله تعالى يبسط يده با لليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها» رواه مسلم: وعن أبي هريرة: والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم » رواه مسلم. وعن أبي أيوب مثله رواه مسلم وقال «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه» رواه مسلم. وقال : «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» رواه الترمذي وقال : حديث حسن وقد قال تعالى {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا *وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا *} [النساء/17 - 18] .

فالتوبة مقبولة بشروطها ما لم يغرغر وما لم يكن في النزع (نزع الموت)، فهي توبة لا يقبلها الله تعالى كما فعل فرعون بعد أن طغى وتجبر رفض كل الآيات التي جاء بها موسى وقتل الأطفال من بني إسرائيل {وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ *} [الأعراف/ 127] فلما انفلق البحر أمام عينه لم يتعظ، بل أسرع وجن وده ليلحق بموسى وقومه، فلما توسط عاد البحر كما كان فأغرقه الله . فلما عاين الغرق والموت أعلن إيمانه وتوبته. قال تعالى يصف ذلك: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَ رَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ *آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ *فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ *} [يونس/90 - 92] .

وقال قال : «كل ابن آدم خطّاء وخير الخطّائين التوابون».

وفي الحديث القدسي : «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم» أخرجه مسلم.

وفي الثلث الأخير من الليل «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا برحمته وكرمه وجوده فينادي ألا هل من مستغفر فأغفر له، ألا هل من تائب فأتوب عليه » أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وأحمد ومالك وابن خزيمة والدارقطني وغيرهم. وهو حديث صحيح متفق عليه.

سورة التوبة: وقصة الثلاثة الذين خلّفوا

وفي سورة التوبة قصّ الله سبحانه وتعالى قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن معركة تبوك دون عذر، فلما رجع رسول الله من هذه الغزوة جاءه الذين تخلّفوا من المنافقين وحلفوا له، وقدّموا الأعذار فقبل منهم ما عدا ثلاثة، هم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي (وقد شهد مرارة وهلال بدراً) فصدقوا رسول الله ، وقالوا: ما لنا من عذر. فأمر الناس ألا يكلموهم، ثم أمرهم بأن يعتزلوا نساءهم . ويصف كعب بن مالك كيف تغيّرت لهم الأرض، وكيف تنكّر لهم الأهل. قال: «ونهى رسول الله عن كلامنا أيها الثلاثة، من بين من تخلّف عنه. قال: فاجتنبنا الناس حتى تنكّرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان. وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق، ولا يكلّمني أحد. وآتي رسول الله فأسلّم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي : هل حرّك شفتيه بردِّ السلام أم لا؟ ثمَّ أصليّ قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عنّي. حتّى إذا طال ذلك عليّ من جفوة المسلمين مشيتُ حتى تسوّرت جدار حائط (أي بستان) أبي قتادة، وهو ابن عمّي وأحبُّ الناس إليّ، فسلّمتُ عليه، فوالله ما ردّ عليّ السلام. فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله، هل تعلمني أحبُّ الله ورسوله ؟ فسكت، فعدتُ مناشدتُه (ثلاث مرات) فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسوَّرتُ الجدار. فبينما أنا أمشي في سوق إذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام ـ يبيعه بالمدينة: يقول من يدلّ على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى

جاءني فدفع إليَّ كتاب من ملك غسان، وكنت كاتباً، فقرأته فإذا فيه: أما بعدُ، فإنّه قد بلغنا أنَّ صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحقْ بنا نُواسك . فقلت حين قرأتها: وهذه أيضاً من البلاء. فتيممت بها التنور (الفرن) فسجرتها (أي أحرقتها)، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين، واستلبث الوحي (أي تأخر) إذا رسول رسول الله يأتيني فقال إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك: فقلت: أطلّقها أم ماذا أفعل؟ فقال: لا؛ بل اعتزلها فلا تقربنها. وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك . فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر». فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله فقالت : «يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال : لا، ولكن لا يقربنّك. فقالت: إنه والله ما به من حركة إلى شيء، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا» قال: «فلبثت بذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من نهى عن كلامنا . ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منّا، قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على سلع (جبل من جبال المدينة) يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجداً».

ونزع ثوبيه وأعطاهما صاحب الصوت، وما يملك غيرهما، واستعار ثوبين ثم ذهب إلى النبي في المسجد فتلقاه الناس يهنئونه بالتوبة فوجاً فوجاً . قال «فلما سلّمتُ على رسول الله قال، وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مرّ عليك مُنذ ولدتك أمّك . فقلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله». وكان رسول الله إذا سُرَّ وجهه كأنه قطعة قمر، وكنّا نعرف ذلك منه. فلما جلستُ بين يديه قلتُ: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله . فقال رسول الله : «أمسك بعض مالك فهو خير لك». فقلت: إني أمسكُ سهمي الذي بخيبر . وقلت يا رسول الله ، إن الله تعالى، إنما نجّاني بالصدق، وإنّ من توبتي أن لا أحدّث إلا صدقاً ما بقيتْ... والله ما تعمّدت كذبةً منذ قلتُ ذلك لرسول الله ، إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله تعالى فيما بقى فأنزل الله تعالى {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ *يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ *} [التوبة/117 - 119] وقد أخرج القصة كلها البخاري ومسلم في الصحيحين.

وانظر كيف بدأ المولى سبحانه وتعالى بإعلان توبته على النبي والمهاجرين والأنصار . وهم لم يتخلّفوا بل جاهدوا أي جهاد وذهبوا إلى تبوك للقاء الروم وأتباعهم من غسّان وغيرها من قبائل العرب في شدة الحرّ مع نقص في الأموال، لهذا سمّاها الله ساعة العسرة، حتى أن بعضهم همّ بالتخلّف ثم لحق بالقوم منهم أبو خيثمة الأنصاري، مع فقرهم وتحسّر بعضهم ألا يجدوا ما يحملهم عليه رسول الله . ولهذا عذرهم الله مع من عذر من الضعفاء والمرضى قال تعالى {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ

لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ *إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ *يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لاَ تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *} [التوبة/91 - 94] .

ولهذا لم يتخلّف عن رسول الله ممن لديه المال والقدرة البدنية إلا منافق معلوم النفاق . ما عدا الثلاثة من خيار الأنصار وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية وقد كانوا صادقين مع رسول الله بعد عودته من تبوك فأتاه المنافقون وحلفوا له وقدّموا الأعذار الكاذبة، فقبل ظواهرهم وأوكل بواطنهم إلى الله وكذلك فعل المهاجرون والأنصار ولكن الله سبحانه وتعالى أنّبهم على ذلك وأمرهم ألا يقبلوا هذه الأعذار الكاذبة وقال تعالى {سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ *} [التوبة/95 - 96] .

ولهذا بدأ الله سبحانه وتعالى بإعلان توبته على نبيّه ومصطفاه وعلى المهاجرين والأنصار لأنهم قبلوا من المنافقين اعتذارهم. ثم إن في ذلك تطييباً لقلوب الثلاثة الذين خُلِّفوا حيث أشرك معهم رسول الله والمهاجرين والأنصار . فيا له من موقف عظيم تتنزل فيه الرحمات، فقد كادت قلوب فريق منهم أن تزيغ بسبب شدة الخروج إلى لقاء الروم (أعظم امبراطورية في الأرض يومئذ)، مع رحلة طويلة وشاقة في وسط الصحراء، في حرّ شديد، تبلغ فيه درجة الحرارة في الظل خمسين درجة أما في الشمس فيمكن أن تقلي بها بيضاً.

وها هي الرحمات تتنزل من السماء لتعلن توبته عليهم قبل أن يعلنوا هم توبتهم قائلاً عزّ من قائل {...ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا} فسبقت توبته سبحانه وتعالى توبتهم وهي كذلك في علمه ولوحه المحفوظ.

وقد نفع الله هؤلاء الثلاثة بصدقهم وإخلاصهم فأنزل الله قرآنا يُتلى إلى يوم الدين وإلى أبد الآبدين يقصّ قصتهم ويعلن توبتهم وطهارتهم.

ودروس معركة تبوك لا حصر لها ومنها:

(1) امتثال مجتمع المدينة، لأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصبرهم، وجلدهم وتحملهم جميع المشاقّ في مرضاة الله وم رضاة رسولهم الذي هو أحبّ إليهم من أنفسهم وأولادهم وأموالهم.

(2) عدم خوفهم من أقوى امبراطورية في العالم آنذاك وهي دولة الرومان ومن معها من نصارى العرب وأتباعهم.

(3) قيام عثمان بن عفّان بتجهيز جيش العسرة، حتى قال رسول الله «ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم»، وتسابق المسلمين في بذل أموالهم وأنفسهم في سبيل الله تعالى.

(4) امتثال أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقاطعة الثلاثة الذين خلّفوا، فلم يكلمهم أحد حتى تنكّرت لهم الأرض وضاقت عليهم أنفسهم . ومع ذلك يقوم كعب بن مالك بحرق كتاب ملك غسّان الذي يواسيه ويدعوه إلى الالتحاق به، فهو يرفض هذا العطاء الملكي ويعتبره من البلاء، بل من أشدِّ البلاء في تلك اللحظات الحرجة.

(5) الصدق في كل الأحوال، حتى لو كان الصدق سيؤدي إلى مضرّة واضحة . قال كعب بن مالك لرسول الله بعد أن سأله : «ما خلّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك (أي راحلتك)؟ قال كعب: يا رسول الله، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أنّي سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلا. ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكَنَّ الله يُسخطُك عليّ، وإن حدثتك حديث صدق تَجِدُ عليّ [1] فيه إنيّ لأرجو فيه عقبي الله . والله ما كان لي من عذر، والله ما كنتُ قطُّ أقوى ولا أيسر مني حين تخلّفت عنك . فقال رسول الله : «أما هذا فقد صدق». ولامه قومه على ذلك وكادوا يدفعونه إلى الذهاب إلى رسول الله والاعتذار لرسول الله وأن يستغفر له فذلك كافيه، فلما عرف أنه قد قال مثل ما قال أثنان من صالحي الأنصار وممن شهد بدراً ثبت على الصدق وقد أنجاه الله بالصدق.

(6) انضباط مجتمع المدينة انضباطاً شديداً لا مثيل له. فابن عم كعب بن مالك، أبو قتادة يرفض أن يكلّم كعب بن مالك، وهو أحبُّ الناس إليه. ولمَّا أمر رسول الله هؤلاء الثلاثة أن لا يقربوا نساءهم. لم يقربوهن، وامتثلوا الأمر وسألوا: هل نطلق؟ قال : «لا ولكن اعتزلوهن ». وذهبت امرأة هلال بن أمية تستأذن رسول الله أن تبقى معه لتخدمه فهو شيخ ضائع، ليس له خادم يخدمه. فأذن لها ثم قال: «ولكن لا يقربنّك». فقالت: إنه والله ما به من حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ». فانظر إلى هذه الزوجة الوفيّة المؤمنة القانتة. لا تتصرف إلا بإذن رسول الله .. إنه مجتمع مثالي في كل أموره وفي شدّة انضباطه.

من أحاديث النبي في التوبة

أوردنا مجموعة من الأحاديث الهامة في التوبة أكثرها مما جاء في رياض الصالحين للإمام النووي ومنها : أن امرأة من جهينة أتت رسول الله وهي حبلى من الزنا فقالت : يا رسول الله أصبتُ حدًّ فأقمه عليّ فدعا نبي الله وليّها فقال : «أحسن إليها، فإذا وضعت فأتني بها»، ففعل، فأمر بها نبي الله، فشُدَّت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها. فقال له عمر: تُصلّي عليها يا رسول الله وقد زنت؟ قال : «لقد تابت توبة لو قُسِمتْ بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عزَّ وجلّ .» رواه مسلم ومثلها قصة ماعز والغامدية ... وكل واحدٍ منهما أتى رسول الله يطلب أن يطهره، فسأل عنهما رسول الله «هل بهما من جنون » قالوا عن كل واحد منهما، أنه عاقل، فأمر بهما فرجما (كل واحد على حدة لأن القصتين مختلفتين) وهؤلاء جميعاً كانوا محصنين وعقوبة المحصن الرجم، وعقوبة غير المحصن أي الذي لم يتزوج بعد مائة جلدة. قال تعالى {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ} [النور/2] .

---

(1) تجد : بالكسر (من الموجدة) وهي الغضب .

وتوبة هؤلاء الذين جاؤوا بأنفسهم يريدون التطهر توبة عظيمة لو قُسِّمتْ على سبعين من أهل المدينة، وفي رواية على أهل المدينة. لكفتهم.. وقد مدحهم رسول الله وأثنى عليهم ووبخّ بشدة من سبّهم، وصلّىَ عليهم بنفسه.

ومن ستره الله لا يشترط أن يأتي إلى ولي أمر المسلمين ويطلب تطهيره كما فعل هؤلاء الثلاثة، فهم قمم سامقة في التوبة، ويكفي أن يتوب المرء توبة نصوحاً صادقة وأن يندم وأن يعزم أن لا يعود. ويتوب الله على من تاب، وشروط التوبة ثلاثة كما قال العلماء إذا كانت بين العبد وربه وهي: أن يقلع عن المعصية و (الثاني) أن يندم على فعلها و (الثالث) أن يعزم ألا يعود لها أبداً . فإن فقد أحد هذه الثلاثة لم تصحّ توبته . وعليه أن يقوم بها قبل أن يحضره الموت وتغرغر نفسه.

وقد يحقق المرء هذه الثلاث، ومع ذلك يقع في الذنب مرة أ خرى. فعليه أن يجدّد التوبة بنفس الشروط السابقة. ولا يمنعه تكرار الذنب من تكرار التوبة، فإن ذلك أعظم من كل ذنب {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ *} [الزمر /53] . والعبد لا بد أن يذنب . والذنوب أنواع كثيرة لا تكاد تحصر، وكلما أحدث العبد ذنباً، أحدث توبة فإن «الله سبحانه وتعالى يفرح بتوبة عبده بأشد مما يفرح الإنسان إذا كان في الصحراء المحرقة، وانفلتت منه راحلته عليها طعامه و شرابه، حتى إذ أيس من وجودها . اضطجع ليموت، فإذا هي قائمة أمامه بطعامه وشرابه، والله سبحانه وتعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها (رواه مسلم).

وأما إذا كانت المعصية تتعلق بحق آدمي فشروطها أربعة : الثلاثة الأولى و (الرابع) أن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالاً أو نحوه ردّه إليه، وإن كان حدّ قذف مكّنه منه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة استحلّه منها . وعليه أن يستغفر لمن أذنب في حقه، ويمدحه بما هو أهله. فما أعظم هذا الدين وما أوسع رحمة الله . وكيف يمكن أن يتمكن الشيطان من هذا المجتمع المترابط المتراحم، الذي يسارع فيه أفراده إلى الاعتذار لبعضهم وطلب العفو منهم إذا أخطأوا في حقهم، وعلى المخطىء والظالم أن يرد تلك المظالم بنفسه وأن يتقدم معها بالاعتذار، وهو أمر عسير كل العسر على النفس البشرية الممتلئة بالعزّة والأ نفة والأشر والبطر. ولا يستطيع ذلك إلا قوي الإيمان . والمجتمع المسلم مطالب كله بالارتفاع إلى هذه القمة السامقة من الأخلاق.

مقام الخوف والرجاء

الخوف والرجاء أساسيان للمؤمن طالما كان في الدنيا، وهما مثل الجناحين للطائر لا يطير إلا بهما. وهما من أشرف ثمرات اليقين. والخوف والخشية والرهبة كلها علامات على وجل القلب وخشيته من الله تعالى. قال عزّ من قائل {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا *} [الإسراء/57] .

مقام الخوف

وأصل الخوف معرفة القلب بجلال الله وقهره وشديد عذابه وعقابه، وثمرة هذا الخوف ترك المعاصي. قال الله تعالى في قصة ابني آدم: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ *لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ *} [المائدة/27، 28] فمنعه خوف الله من أن يرد على العدوان بالعدوان، وكان هابيل هو الأقوى، ولكن خوفه من الله سبحانه وتعالى حجزه عن هذه المعصية، وأما قابيل فقد أغراه الشيطان واستولى عليه الحسد والحقد فقتل أخاه النبيل، ولم يكن في قلبه خوف الله يحجزه عن هذه الجريمة الشنعاء. فكل جريمة قتل وقعت في الأرض بعد ذلك، فله نصيب من وزرها لأنه سَنَّ سُنَّةَ سيئة، وكان فعله أول جريمة في الأرض.

وقد أوضح الله تعالى أن الخوف حاجز عن المعاصي قال على لسان نبيه {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *} [الأنعام/14 - 15] وقد قال إبراهيم لقومه عندما خوفوه انتقام آلهتهم إنه لا يخاف إلا الله، وأن عليهم أن يخافوا غضب الله ومقته وعذابه قال إبراهيم {وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ *وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ *} [الأنعام/80 - 82].

ومن خاف الله أمّنه من كل خوف. أما من خاف غير الله فتتناوبه المخاوف من كل حدب وصوب.. وقال لهم رسول الله عندما طلب منه كفار قريش أن يأتِ بقرآن غير هذا {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *} [يونس/15] فإذا خاف العبد من الله جاءه الأمن من الله فتأتيه الملائكة يوم موته تبشره برحمة الله ورضوانه، قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ *} [فصلت/30] ويقال لهم يوم القيامة {يَاعِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ *} [الزخرف/68].

فالمؤمنون الذين يخافون الله وحده، لا يخافون غيره وتتجلى رباطة جأشهم وشجاعتهم لدرجة تثير حتى إعجاب أعدائهم. وقد ضرب الله لنا مثلاً قوم موسى الذين لم يدخل الإيمان قلوبهم وامتلأت قلوبهم رعباً وفرقاً من العماليق الذين يسكنون الأرض المقدسة. قال تعالى على لسان موسى: {يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ *قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ *قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ *} [المائدة/ 21 - 24].

فها هنا صورتان متقابلتان : صورة لرجلين (يوشع بن نون وكالب بن يفنه)[1] أنعم الله عليهما بخوفه وخشيته، فلم يخافا ولم يرهبا العماليق، القوم الجبّارين الذين كانوا يسكنون الأرض المقدسة.

والصورة الثانية لبني إسرائيل بأعدادهم الكبيرة، وقد نزع الله منهم خوفه، وتواقحوا على موسى وكانوا في منتهى الوقاحة مع الله ورسوله قائلين {...فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ *} وهم مرعوبون خائفون وجلون، تصطك أسنانهم وتضطرب أرجلهم، ويسقطون من الرعب والخوف بمجرد ذكر العماليق.. وهكذا كل من نزع الله من قلبه خوف الله، يخاف من كل شيء.

والصورة ذاتها نجدها في مدينة رسول الله ، والأحزاب قد أقبلت بجيوشها : قريش وغطفان ومن والاهم، ويهود بني قريظة، وهم داخل المدينة ينقضون كل عهد ، ويتحولون إلى صف المعتدين فيصف الله سبحانه وتعالى هذا الموقف العصيب الرهيب {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّ نُونَا *هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا *وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا *وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا *} [الأحزاب/10 - 13] .

ففضحهم الله وامتلأت قلوبهم رُعباً ومع رُعبهم وجُبنهم وخِسّتهم فهم يتواقحون على رسول الله والمؤمنين تماماً كما فعلت يهود مع موسى . قال تعالى {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ[2] إِلاَّ قَلِيلاً * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَ ى اللَّهِ يَسِيرًا * يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً} [الأحزاب: 18-20].

ويا لها من صورة: لقد ملأ الرّعب قلوبهم {فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ } ويزداد وجيب القلب حتى يكاد ينخلع وتبلغ القلوب الحناجر، وتدور الأعين في المحاجر وتجحظ العيون بفعل هرمونات الخوف والرعب التي تنطلق من الجهاز التعاطفي (السمبثاوي Sympathatic N.S.) وتزداد كميات الأدرينالين (الأيبنفيرين) والنورأدرينالين (النورايبينفرين) ومجموعة الكاتيكول أمينس .. ويا لها من صورة لهؤلاء الجبناء تماماً كصورة بني إسرائيل مع موسى حينما قال لهم {ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ } وهؤلاء الذي نزع الله منهم مخافته ومحبّته، يخافون من كل شيء. ويتمتعون بأسوأ الأخلاق، الجُبن والشُحُّ والهلع {...فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ

---

(1)أي يخافون الله والرجلان هما يوشع بن نون، فتى موسى ووصيه من بعده، وكالب بن يفنه، وهما اللذان قادا الفتح بعد فترة التيه أربعين سنة وقدوم جيل جديد من بني إسرائيل.

(2)البأس: هاهنا بمعنى القتال.

حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا } وهكذا ترى النتيجة الحتمية لعدم الخوف من الله : الخوف من كل شيء، والوقاحة المتناهية وسلاطة اللسان وقلة الأدب.

وتأتي الصورة الوضيئة المقابلة {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا *وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيمًا *مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً *لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا *} [الأحزاب/21 - 24] .

وهي صورة وضيئة لقلوب خاشعة مؤمنة امتلأت خشية لله، وخوفاً منه، وحُبًّا له فلم تخف أحداً غيره. والمثل الأعلى في ذلك والقدوة العظيمة والأسوة الحسنة هو رسول الله . الثابت في كل موقف يرتعب فيه الأبطال . وكان الصحابة يقولون إذا احمرّت الحدق، وحمي الوطيس لُذنا برسول الله . وموقفه في جميع المعارك وفي حياته كلها المثال الأعلى للشجاعة والثبات، لأنه أشدُّ الناس خوفاً من الله وخشية له، وحُبًّا لله . فلا يوجد في قلبه ذرة من خوف هؤلاء البشر، بل لا توجد في قلبه ذرة من خوف هذه المخلوقات، لأن قلبه قد امتلأ بحبِّ الله وخشيته. وكذلك فعل المؤمنون وهم على عكس بني إسرائيل الذين لم يظهر فيهم أحد يخاف الله عدا موسى وهارون ويوشع بن نون وكالب بن يفنه، كان أتباع محمد في ذلك الموقف بالآلاف لم يتخلف عنه إلا المنافقون.

والخوف من الله والخشية منه حاجز وأي حاجز عن المعاصي . «ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تنقمع بنار الخوف، فالخوف هو النار المحرقة للشهوات» كما قال الغزالي في الإحياء (1) ويقول : «وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة، وبه تحصل العفّة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرّب إلى الله زلفى». وقد قال تعالى {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ *} [الرحمن/46] ويا له من مقام عظيم . وقال تعالى {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر/28] فإذا كان هناك من يدّعي العلم وليس في قلبه خشية الله فهو علم باطل وغرور . وكل علم من العلوم الشرعية أو الكونية يؤدي إلى الخشية من الله فهو العلم المحمود . وقال تعالى {هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } [الأعراف/154] فالذين يرهبون الله ويخافونه ويخشونه ويتقونه أولئك هم الفائزون. ويكون القرآن هدى ورحمة لهم.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى المنافقين في غير ما آية وانهم نتيجة عدم خشيتهم لله وخوفهم منه يخافون من كل شيء {...يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ *} [المنافقون/4] ويقول عنهم {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ *} [المائد/52] .

ويهدّد الله سبحانه وتعالى هؤلاء المندسّين بين المؤمنين من المنافقين، ومن تأثر بهم من المؤمنين يقول {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

(1)الغزالي: إحياء عليوم الدين كتاب الخوف والرجاء ج197/4 دار صادر بيروت .

وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ *} [المائدة/54] فهم لا يخافون في الله لومة لائم لأن قلوبهم امتلأتْ حُبًّا لله وخشية منه وخوفاً له.

والتقوى هي ثمرة الخوف والخشية وسيأتي الحديث عنها.

وقد وردت في الخوف والخشية آيات كثيرة، وأحاديث عديدة، منها قوله : «قال الله : لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين. فإن أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة وإن خافني في الدنيا أمّنته يوم القيامة» أخرجه ابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة، وابن المبارك في الزهد، وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين.

وقال : «رأس الحكمة مخافة الله » أخرجه البيهقي في شعب الإيمان وفي دلائل النبوة، وهو موجود في مزامير داود إلى اليوم.

وقالت عائشة : «قلت يا رسول الله {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ } [المؤمنون/6] هو الرجل يسرق ويزني قال: لا، بل الرجل يصوم ويصلّي ويتصدّق ويخاف إلا يُقبل منه » (أخرجه الترمذي والحاكم وقال صحيح الإسناد، ورواه الترمذي أيضاً عن أبي هريرة).

وقال الفضيل بن عياض: «من خاف الله دلّه الخوف على كل خير »، وقال الشبلي : «ما خفتُ الله يوماً إلا رأيت له باباً من الحكمة والعبرة، ما رأيته (من قبل) قط».

وقد ورد في القرآن الكريم آثار الخوف والحثّ عليه من البكاء {أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ *وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ *وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ *} [النجم/ 59 - 60] وقال تعالى {قُلْ آمِنُوا بِهِ أَ وْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا *وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً *وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا *} [الإسراء/ 107 - 109] .

وقال : «لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع » عن أبي هريرة، أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح، والنسائي.

وقال : «ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة ومع من خشية الله تعالى أو قطرة دم أريقت في سبيل الله تعالى» أخرجه الترمذي وقال حسن غريب.

وفي الحديث الصحيح الذي أخرجه الشيخان «سبعة يظلّهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» وذكر منهم رجلاً ذكر الله خالياً ففاضت عيناه . وكان رسول الله يقول : «والله أني لأخشاكم لله وأتقاكم له» أخرجه البخاري ويقول: «والله إني لأعلمهم بالله وأشدّهم له خشية » أخرجه الشيخان البخاري ومسلم.

وكم كان رسول الله يبكي وهو يصلّي حتى يسمع له أزيز كأزيز المرجل (القدر في شدة غليانه). وكم كان الصحابة رضوان الله عليهم يبكون حين يسمعون القرآن الكريم أو يقرأونه . وكم كانوا يقومون بآية واحدة طوال الله يردّدونها ويبكون.. وكم كان بعضهم يُغشى عليه من خشية الليل حتى يعودونه، وممن أصاب ذلك عمر بن الخطاب مع قوته وشدّته . وكم كانوا

يبكون عندما يعظهم رسول الله . وكم من حديث فيه : «وعظنا رسول الله موعظة وجلت لها القلوب وذرفت منها العيون»..

والخلاصة أن المجال في ذلك واسع وقد جمعها العلماء الأجلاء في كتبهم وأفردها ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين.

مقام الرجاء: لا يكون خوف إلا ويكون معه رجاء وإلا انقطع القلب وتحول الخوف إلى قنوط ويأس وهو مذموم، بل هو علامة من علامات الكفر. قال تعالى {وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ} [الحجر/56] . وقال تعالى {...لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} [الزمر/53] وقال تعالى {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ *} [الأعراف/99] فلا يأس ولا قنوط ولا أمن من مكر الله ويبقى الإنسان معلقاً بين الخوف والرجاء ما دام في الدنيا، فإذا حضره الموت غلّب الرجاء في ذلك الموقف.

وكل الآيات والأحاديث التي أوردناها في باب التوبة والمغفرة تفتح باب الرجاء في الله سبحانه وتعالى ومغفرته فهو يغفر الذنوب جميعا. ويمدُّ يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويمدُّ يده بالنهار ليتوب مسيء الليل. وقال تعالى {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا *} [الإسراء/57] . قال تعالى {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا *} [الكهف/110] وقال تعالى {مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآَتٍ} [العنكبوت/5] وقال تعالى عن زكريا وزوجته {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء/90] .

وقال تعالى {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ} [الأحزاب/21] وقال تعالى {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ *قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ *قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ *} [الزمر/9 - 11] وقد جمعت هذه الآيات الخوف والرجاء والخشية والعبادة والتقوى، والصبر وأجره، والإخلاص وأهميته، فيالها من آيات قليلات جمعت ذلك كله.

وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [البقرة/218] . وقد أثنى الله على المؤمنين المجاهدين الصابرين على مشاق الجهاد قال تعالى {وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ} [النساء/ 104] .

فكل الآيات التي جاءت في الرجاء كانت من قوم عابدين قانتين - يقومون الليل ويخشون ربهم.. ويجاهدون في سبيله ويتحمّلون في ذلك المشاقّ، ويألمون كما يألم الكفّار، ولكن الفرق بين الفريقين أن المؤمنين يرجون من الله ما لا يرجوه الكفار من البعث والنشور ودخول الجنة ورضوان الله تعالى.

وقد أمر الله تعالى المؤمنين أن يغفروا للذين لا يرجون أيام الله قال تعالى {قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *} [الجاثية/14] . وهي قمة سامقة في الأخلاق.. فهؤلاء الذين لا يرجون أيام الله. إن ماتوا على الكفر فإن مصيرهم إلى الله.. وإن أراد الله لهم خيراً، تابوا إلى الله وأسلموا وآمنوا واتّقوا فيبدّل الله سيئاتهم حسنات .. وهذا الخُلُق العالي الرفيع قد يكون مساعداً لهم في اجتياز عقبات النفس من الكبر والحسد والعجب حتى ينتقلوا إلى رحاب الإيمان.

وكل دعوات الرسل عليهم السلام تنتهي بقولهم : {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ *} [العنكبوت/36] .

لهذا فالخوف والرجاء مرتبطان ارتباطاً وثيقاً . وكلاهما يؤدي إلى الآخر ويؤدي إلى الخشية والتوبة والتقوى والعمل الصالح مع الأخبات والتواضع والخوف من عدم قبول العمل.

وأما الكاذبون والمنافقون والمغرورون فإنهم يتمنّون على الله الأماني ويجمعون إلى سوء العمل الاتكال على أماني المغفرة ويقول بعضهم كما فعل المرجئة أن الطاعات لا تنفع وأن المعاصي لا تضرّ. وهذا بهتان عظيم ويكتفون بما يسمّونه الإيمان القلبي.. ولو كانوا صادقين في قولهم لكان العمل ثمرة الإيمان. فالقرآن كله من أوله إلى آخره يتحدّث عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات. والإيمان قول باللسان وإقرار بالجُنَان (القلب) وعمل بالأركان. قال تعالى {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ *وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ *} [الزلزلة/7، 8] وقال تعالى {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى *الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى *أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى *} [النجم/31، 32] وقال عن هؤلاء المنافقين الذين يزعمون أنهم يعملون الأعمال الصالحة، وقلوبهم فارغة من الآيات متخذين من مسجد ضرار مكاناً لتآمرهم وتجمّعهم قال تعالى {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ *لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ *} [التوبة/ 107، 108] .

ولا بد من الإيمان والعمل معاً . قال رسول الله : «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني».

وقد قال تعالى {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا *} [النساء/123] . وهي آية شديدة فكم تمنى على الله أقوامٌ من أهل الكتاب.. وخاصة هؤلاء اليهود الذين زعموا أنهم أبناء الله على الحقيقة والمجاز. ومثلهم فرق كثيرة من النصارى فأنكر الله عليهم ذلك وأدخل المسلمين أيضاً في هذا التهديد الرعيب : {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ} بل لا بد من العمل الصالح مع صدق النيّة والتوجّه إلى الله سبحانه وتعالى بالخوف والرجاء، فإذا حَسُنَ العمل حَسُن الجزاء. وإذا ساء العمل ساء

الجزاء قال تعالى {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا *} [النساء/ 124] .

فلا بد من اكتمال شروط الإيمان بالعمل الصالح، ولا يتمنّى الإنسان على الله الأماني، ويكون من المغرورين الذين أشبهوا اليهود والنصارى: تركوا العمل واعتمدوا على إيمانهم الكاذب مع شركهم وعُجبهم وغرورهم . قال الحسن البصري : «إن أماني المغفرة قد لعبت بأقوام حتى خرجوا من الدنيا مفاليس » (من الأعمال الصالحة) وقال : «إن المؤمن جمع إحساناً وخوفاً. وإن المنافق جمع إساءة وأمناً».

وقد نبغت فرقة المرجئة أيام بني أمية، قالوا للحكام من بني أميّة، استمروا على مخازيكم وإجرامكم وخطاياكم، فقد غُفرت لكم بقول لا إله إلا الله . وكذبوا على الله ورسوله ليشتروا بذلك ثمناً قليلاً، فما أصبرهم على النار. وقد سَعُدَ بهم الحكام الظلمة من بني أمية أيما سعادة، وأعطوهم الأموال والقصور والدور، وولوهم المناصب العليا في الدولة، ولكن ما لبثوا إلا قليلاً، حتى لفظتهم الأمة، وصاروا معروفين بأنهم أتباع الظلمة من هؤلاء الحكام .. وما هو أشدَّ خسارة الظالمين جميعاً، يوم الحساب والدينونة.

والخلاصة لا بد من الخوف والرجاء، ولا بد من الإيمان والعمل، وكل واحد مرتبط بالآخر أيما ارتباط.

قال الحبيب عبدالله الحداد في التائية:

وخوف ونعم الخوف للعبد سائق ونعم الرجا من قائد للسعادةِ

وذلك كله يحتاج إلى الصبر.

مقام الصَّبْرُ

الصبر لغة[1]

الصبر (ص ب ر): تدلُّ على معان ثلاثة : الحبس، وأعالي الشيء وجنس من الحجارة . والمستعمل هو المعنى الأول أي الحبس يقال : صبرت نفسي على ذلك الأمر أي حبستها . ومات صبراً أي حبساً ومنع منه الأكل و الشرب. قال الراغب الأصفهاني [2]: الإمساك في ضيق، يقال صَبَرْتُ الدابة أي حبستها بلا علف. وقال تعالى {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [الكهف/28] أي احبس نفسك معهم.

وقيل أصل الكلمة من الشدّة والقوة ومنه الصَّبِرُ (وفيه ثلاث لغات بالكسر للباء وسكونها وبدون تشديد للصاد) وهو الدواء المعروف (aloe vera) . وهو شديد المرارة . وفي الحديث: ماذا في الأمرّين من الشفاء: الصبر والثُّفَّاء: (والثُّفَّاء هي حبُّ الرشاد. ولا يزال أهل مكة يسمونها الثُّفا إلى اليوم).

والتصبّر: تكلّف الصبر. والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى [3] قال يعقوب عليه السلام لبنيه {...بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ *} [يوسف/18] وقال ابن تيمية: الصبر الجميل ه و الذي لا شكوى فيه ولا مَعَهُ.

قال الفيروزبادي [4] : وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النفس لمصيبة سُمّيَ صبراً، وإن كان في محاربة سُمّيَ شجاعة، وإن كان في إمساك الكلام سُمِّيَ كتماناً، وإن كان عن فضول العيش سُمِّيَ زهداً، وإن كان عن ش هوة الفرج سُمِّيَ عِفّةً، وإن كان عن شهوة الطعام سُمّيَ شرف نفس، وإن كان عن إجابة داعي الغضب سُمِّي حِلْماً.

قال ابن القيم [5] : والاسم الجامع لذلك كله «الصّبر». وهذا يدلّك على ارتباط مقامات الدين كلها بالصبر.

والله سبحانه وتعالى هو الصبور وهو الذي لا يعاج ل العصاة بالانتقام وقال الغزالي [6]: الصبور هو الذي لا تحمله العجلة على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه، بل ينزل الأمور بقدر معلوم ويجريها على سنن محدودة، لا يؤخرها عن آجالها المقدّرة لها، ولا يقدّمها على أوقاتها، بل يودع كل شيء في أوانه على الوجه الذي يجب أن يكون كما ينبغي.

الصبر في الاصطلاح

---

(1)لسان العرب ج438/4..
(2)الراغب الأصفهاني مفردات القرآن.
(3)تفسير القرطبي ج152/9 .
(4)موسوعة نضرة النعيم ج2441/6 .
(5)ابن القيم: مدارج السالكين ج156/3 .
(6)الغزالي: المقصد الأسنى ص 149.

قال الراغب في مفردات القرآن : الصبر حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عمَّا يقتضيان حبسها عنه . وقال الجاحظ : الصبر عن الشدائد خُلُقٌ مركّب من الوقار والشجاعة. وقال المناوي : الصبر قوة مقاومة الأهوال والألام الحسيّة وا لعقلية. وقيل هو : حبس النفس عن الجزع والتسخُّط، وحبس اللسان عن الشكوى وحبس الجوارح عن التشويش.

وقيل هو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله. قال تعالى عن أيوب : {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا } [ص/ 44] ودعاء الله سبحانه وتعالى عبادة {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ *} [الأنبياء/983] . والشكوى للطبيب من مرض لا يقدح في الصبر لأن الغرض التداوي . وقد أمر رسول الله بالتداوي حيث قال : «تداوو عباد الله فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء»[1] .

وقال ابن القيم [2]: هو ثبا ت القلب عن موارد الاضطراب . وقيل هو الثبات على أحكام الكتاب والسنّة. وقيل هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب.

أقسام الصبر وأقوال العلماء

وقال ابن القيم في أنواع الصبر : الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام : صبر الأوامر والطاعات حتى يؤديها وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها. وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخّطها [3].

وقال الحبيب عبدالله الحداد [4]: والصبر على أربعة أقسام : (أولها) الصبر على الطاعات ويحصل باطناً بالإخلاص وحضور القلب فيها، وظاهراً بلزومها والدوام عليها والدخول فيها بنشاط والإتيان بها على الوج ه المشروع (ثانيها) الصبر عن المعاصي ويحصل ظاهراً باجتنابها والبعد عن مظّانها، وباطناً بترك تحدّث النفس بها وميلها إليها لأن أول الذنب خطرة تذكر الذنوب السالفة، فإن كان يحصل به خوف أو ندم فحسن، وإلا فتركه أحسن . ويبعث على هذا الصبر تذكّر ما وعد الله به على ا لمعاصي من العقاب عاجلاً وآجلاً . ومن واظب على الصبر على هذا الوجه أكرمه الله بوجود الأنفة من المعاصي كلها و (ثالثها) الصبر على المكاره وهي نوعان: (الأول) ما يحصل من الله بلا واسطة كالأمراض والفاقات وذهاب الأموال، وموت الأعزة من الأقارب والأصحاب، ويحصل باطناً بترك الجَزَع، وهو التبرّم والضجر، وظاهراً بترك الشكوى إلى الخلق، ولا يناقضه وصف العِلّة للطبيب، وفيضان العين عند المصيبة (أي بكاء العين). نعم يناقضه لطم الخدود وشقّ الجيوب والنياحة، ونحو ذلك. ويبعث على هذا الصبر العلم بأن الجزع مؤلم في نفسه، وهو مع ذلك م فوّت للثواب، وموجب للعقاب، وأن الشكوى إلى من لا يستطيع أن ينفع نفسه، ولا أن يكشف عنها ضُرَّاً

---

(1)أخرجه أبو داود والترمزي والحكم، وصححاه والنسائي وأحمد في المسند وغيرهم.
(2)ابن القيم: مدارج السالكين ج162/1.
(3)ابن القيم: مدارج السالكين 165/1.
(4)عبدالله الحداد: رسالة المعاونة المظاهر والموازرة طبعة عيسى البابي الحلبي ص 33 باختصار وفي قصيدته التائية قال: وصبر جميل عند كل بليّة وأمر ونهي أو ركون لشهوة.

من الحماقة، وهذه صفة كل مخلوق. ومع ذلك فالشكوى دالة على عدم الاكتفاء بالله الذي بيده ملكوت كل شيء. وذكر ما في الصبر على المصائب والعاهات والفاقات من الثواب، وأن الله تعالى أعلم بما يصلح له من نفسه وقد قال الله تعالى {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ *} [البقرة/155] ومن لزم الصبر على هذا الوجه أذاقه الله حلاوة التسليم، وروَّحَهُ بروح الرضا.

(النوع الثاني من المكاره): ما يكون من قبل الخلق من الأذى في النفس والعرض والمال. ويحصل كمال الصبر على ذلك بكفِّ النفس عن بُغض المؤذي إن كان مسلماً . وعن حبِّ الشرِّ له، وكفِّ اللسان عن الدعاء عليه وترك المؤاخذة له رأسا، إما حِلماً واح تمالاً أو عفواً وصفحاً [1]، اكتفاء بنصرة الله في الأول، ورغبة في ثوابه في الثاني. ويبعث على هذا الصبر العلم بما ورد في فضل كظم الغيظ واحتمال الأذى والعفو عن الناس وقال الله تعالى {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّا لِمِينَ}[2] {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ *} [الشورى/43]. وقال عليه الصلاة والسلام «من كظم غيظاً ولو شاء أن ينفذه أنفذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً». وقال : «ينادي منادٍ يوم القيامة ليقم من أجره على الله فيقوم العافون عن الناس».

ومن لزم الصبر على هذا الوجه أكرمه الله بحسن الخلق، وهو رأس الفضائل وملاك الكمالات وقال صلى الله عليه وسلم: «لا شيء أثقل في الميزان من حُسن الخُلُق . وإن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة صاحب الصلاة والصيام». وقال : «أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم خلقاً».

وقال عبدالله بن المبارك تعالى : «حُسن الخلُق بسط الوجه، وبذل المعروف، وكفّ الأذى». وقال الإمام الغزالي نفع الله به: «حُسن الخلق هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال الجميلة بسهولة».

وأما الصبر عن الشهوات، وهي كل ما تميل النفس إليه من الم باحات الدنيوية، ويحصل كمال الصبر عنها بكفِّ النفس باطناً عن التفكر فيها والميل إليها، وظاهراً بكفّها عن طلبها والتعريج عليها. ويبعث على هذا الصبر، العلم بما في طلب الشهوات وتناولها من الشغل عن الله وعن عبادته، ومن التعرض للوقوع في الشبهات والمحرمات، ومن هيجان الحرص على الدنيا، وحبّ البقاء فيها للتمتع بشهواتها . قال أبو سليمان الداراني «ترك شهوة واحدة أنفع للقلب من عبادة سنة . ومن أدمن الصبر عن الشهوات أكرمه الله بإخراج حبها من قلبه ». انتهى كلام الإمام عبدالله الحداد.

قال الشيخ ابن تيمية [3]: «قد ذكر الله الصبر في كتابه في أكثر من تسعين موضعاً وقرنه بالصلاة في قوله تعالى {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ *}

(1)هذا مقام عظيم من مقامات الصبر، وهو مستوى راق من الأخلاق مع العفو عند المقدرة أو الحلم والاحتمال، مع كفّ اللسان عن الدعاء على المؤذي. ولا يستطيعه إلا الصديقون .

(2)سورة الشورى/40..

(3)موسوعة نضرة النعيم ج2443/6.

[البقرة/45] وجعل الإمامة في الدين موروثة عن الصبر واليقين بقوله {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ *} [السجدة/24] . فإن الدين كله علم بالحقِّ وعمل به. والعمل لا بد فيه من الصبر. بل وطلب علمه يحتاج إلى الصبر كما قال معاذ بن جبل : «عليكم بالعلم فإن طلبه لله عباده، ومعرفته خشية، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، ومذاكرته تسبيح . به يُعرف الله ويُعبد، وبه يُمجَّدُ الله ويوحّد، يرفع الله بالعلم أقواماً يجعلهم للناس قادة وأئمة، يهتدون بهم وينتمون إلى رأيهم».

فجعل البحث عن العلم من الجهاد، ولا بدٌّ في الجهاد من الصبر . ولهذا قال تعالى {وَالْعَصْرِ *إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ *إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ *} [سورة العصر] وقال تعالى {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ *} [ص/45] فالعلم النافع هو أصل الهدى . والعمل بالحقِّ هو الرشاد، وضد الأول الضلال، وضد الثاني الغيّ، فالضلال العمل بغير علم، والغيّ اتباع الهوى. قال تعالى {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى *مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى *} [النجم/1 - 2] . فلا يُنال الهدى إلا بالعلم ولا يُنال الرشاد إلا بالصبر . ولهذا قال علي كرَّم الله وجهه : «ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا انقطع الرأس بان الجسد . ثم رفع صوته فقال ألا لا إيمان لمن لا صبر له» [انتهى كلام ابن تيمية] .

المصابرةُ

المصابرة مفاعلة وهي تعني (1) المشاركة في الصبر (2) موالاة الصبر ومتابعته.

قال تعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *} [آل عمران /200] . قال ابن القيم [1] (اصبروا وصابروا) إنه انتقال من الأدنى إلى الأعلى . فالصبر دو ن المصابرة . وقيل : اصبروا بنفوسكم على طاعة الله، وصابروا بقلوبكم على البلوى في الله. وقيل اصبروا في الله أي أن الصبر يكون في طاعة الله، وصابروا بالله، أي أن المصابرة تكون في الاستعانة بالله.. وقيل الصبر مع نفسك، والمصابرة بينك وبين عدوك».

وقال في تفسيره [2]«أمرهم بالصبر، وهو حال الصابر في نفسه، والمصابرة مقاومة الخصم في ميدان الصبر، فإنها مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين كالمشائمة والمضاربة » وهو المعنى الذي رجحه ابن جرير الطبري في تفسيره حيث قال : «اصبروا على دينكم وطاعة ربكم..» أما المصابرة فيقصد بها مصابرة الأعداء من المشركين. لأن المعروف من كلام العرب في المفاعلة أن تكون من فريقين فصاعداً، ولا تكون من واحد إلا قليلاً.

الصبر على الابتلاء

الابتلاء في الاصطلاح: هو التكليف بالأمر الشاقّ، والبلاء كالبلية: الامتحان. وهو نوعان:

(الأول) الابتلاء بالشر، وهو مناط الصبر.

---

(1)ابن القيم: مدارج السالكين ج166/1، 167.

(2)التفسير القيم لابن قيّم الجوزية ص 217.

(الثاني) الابتلاء بالخير، وهو مناط الشكر.

قال تعالى {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ *} [الأنبياء/35] .

بعض ما ورد في القرآن الكريم في الصبر

الصبر على الطاعات قال تعالى {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ *} [البقرة/45] وقال تعالى {إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ *} [آل عمران/120] وقال تعالى {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ *} [آل عمران/125] .

وقال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ *} [آل عمران/142] {وَكَأَيِّن مِن نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ *} [آل عمران/146] .

وقال تعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *} [آل عمران/200] وقال تعالى {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ *} [يونس/109] وقد أوصى الله تعالى أنبيائه بالصبر قال لنوح {فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ } [هود/49] وقال لمحمد {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ *وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ *} [هود/ 114، 115] وقال عن المؤمنين: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ *جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ *سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ *} [الرعد/22 - 24] .

وقال تعالى {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ *} [النحل/110] .

وقال تعالى لنبيه محمد {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا *} [الكهف/28] .

الصبر على البلاء

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ *وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ *وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ *} [البقرة/153 - 155] .

{وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } [البقرة/177] .

وقال تعالى {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ *} [آل عمران/186]

وقال السحرة لفرعون بعد أن آمنوا فهدّدهم بالصلب والتقطيع للأيدي والأرجل من خلاف {وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ *} [الأعراف/126] .

وقال تعالى {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ *} [الأنفال/46] .

وقال تعالى عن المؤمنين وعلى لسانهم {وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ *} [إبراهيم/12] .

وقال تعالى {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ *} [محمد/31] .

ثمار الصبر

قال تعالى {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ} [الأعراف/137] .

قال تعالى{إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف/90] .

وقال تعالى {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [النحل/96] .

وقال عن المؤمنين {إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ *} [المؤمنون/111] .

وقال تعالى {أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَمًا *} [الفرقان/75] .

وقال تعالى {أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *} [القصص/54] .

وقال تعالى {قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ *} [الزمر/10] .

وقال تعالى يصف أخلاق الدعاة إلى الله {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ *وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ *وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ *} [فصلت/33 - 35]

والآيات في الصبر والمصابرة والابتلاء والصبر على أنواعه كثيرة تزيد عن المائة وفيما سبق غنيه.

بعض ما ورد من الأحاديث في الصبر

الأحاديث في الصبر والمصابرة : كثيرة جداً نقتطف منها بعض ما ورد في رياض الصالحين للإمام النووي.

(1) قال : «الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض . والصلاة: نور والصدقة برهان . والصبر ضياء . والقرآن حجة لك أو عليك بكل الناس يغدو منافع نفسه فمعتقها أو موبقها» رواه مسلم.

(2) «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» رواه مسلم.

(3) أرسلت بنت النبي : «إن ابني قد احتضر فاشهدنا. فأرسل يقري السلام ويقول : إنّ لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمّى فلتصبر ولتحتسب فأرسلت إليه تُقسمُ عليه ليأتيّنها، فقام ومعه سعد ابن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبيّ بن كعب وزيد بن ثابت، ورجال، فرُفِعَ إلى رسول الله الصبيُّ، فأقعدة في حجره ونفسه تقعقع ففاضت عيناه فقال سعد : يا رسول الله ما هذا؟ فقال : هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده » . وفي رواية «في قلوب من شاء من عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء» متفق عليه (أي أخرجه البخاري ومسلم).

(4) وعن أنس قال: مرّ النبي بامرأة تبكي عند قبر فقال: «اتقِّ الله واصبري ، فقالت: إليك عنّي، فإنك لم تُصبْ بمصيبتي . ولم تعرفه فقيل لها : إنه النبي ، فأتت باب النبي ، فلم تجد عنده بوابين فقالت: لم أعرفك فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى» .

وانظر إلى كريم خلقه عندما قالت له المرأة: إليك عنّي فإنك لم تصب بمصيبتي، فتركها لعلمه بحالها . فلما أخبروها بأنه النبي أسفت على قولها وجاءت تعتذر إليه . فأخبرها إنما الصبر عند الصدمة الأولى. وهو مقام عظيم.

(5) وقال : «ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة» رواه البخاري.

(6) وقال : «إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه (أي عينيه) فصبر عوضته منهما الجنّة » رواه البخاري.

(7) عن ابن عباس قال لعطاء بن أبي رباح: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت بلى قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي فقالت: إني أُصرع، وأني أتكشّفَ فادعُ الله تعالى لي قال : إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك فقالت : أصبر فقالت: إنيّ أتكشّف فادع الله ألا اتكشّف، فدعا لها» متفق عليه.

(8) عن عبدالله بن مسعود قال: «كأني أنظر إلى رسول الله يحكي نبيّاً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » متفق عليه. وهكذا فعل مع قومه.

(9) قال : «ما يصيب المسلم من نصب (أي تعب) ولا وصب (أي مرض)، ولا همّ ولا حزنٍ، ولا أذى ولا غمّ حتى الشوكة يشاكها، إلا كفَّر الله بها من خطاياه» متّفق عليه.

(10) وقال : «من يرد الله به خيراً يصب منه» رواه البخاري.

(11) وقال : «لا يتمنيّن أحدكم الموت لضرٍّ أصابه فإن كان لا بدّ فاعلاً فليقل : اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيراً لي» متفق عليه.

ولا شك إن ما يجرى الآن من مساعدة المريض المدنف، المزمن المرض، في تيسير موته جريمة لا تجوز لا من الطبيب ولا ممن يمرّضه . ولا يعطى مادة قاتلة ولو بطلبه المتكرر أو طلب أهله فتلك جريمة مضاعفة، وقتل نفس بدون وجه حق، ومساعدة على الانتحار.

(12) وقال لخبّاب بن الأرث حين قال له: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ وهم يعذبّون في مكة. قال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصدُّه ذلك عن دينه. والله ليتمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء، إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون» رواه البخاري.

(13) وعن أنس قال : كان ابن لأبي طلحة يشتكي فخرج أبو طلحة فقُبض الصبي (أي مات) فلما رجع أبو طلحة قال: ما فعل ابني قالت أم سليم (وهي أم الصبي): هو أسكنُ ما كان فقرَّبت العشاء فتعشَّى، ثم أصاب منها. فلما فرغ قالت : واروا الصبيُّ فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله فأخبره فقال: أعرستم الليلة ؟ قال: نعم قال : اللهم بارك لهما ، فولدت غلاماً . فقال لي أبو طلحة: احمله حتى تأتي به النبي ، وبعث معه بتمرات . فقال: أمعه شيء ؟ قال : نعم تمرات. فأخذها النبي فمضغها ثم أخذها من فيه فجعلها في في الصبي . ثم حنَّكه وسمّاه عبدالله» متفق عليه.

وفي رواية البخاري قال رجل من الأنصار فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرأوا القرآن يعني من أولاد عبدالله المولود.

وفي رواية لمسلم أن أم سليم قالت لأهلها: لا تحدّثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدّثه . فجاء فقرّبت إليه عشاءه فأكل وشرب، ثم تصنَّعت له أحسنَ ما كانت تصنَّع قبل ذلك فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت : يا أبا طلحة أرأيت أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال : لا فقالت: فاحتسب ابنك . قال: فغضب ثم قال: تركتني حتى إذا تلطخت ثم أخبرتني بابني. فانطلقَ حتى أتى رسول الله فأخبره بما كان . فقال رسول الله : «بارك الله في ليلتكما» فحملت. قال: وكان رسول الله في سفر (في إحدى غزواته) وهي معه. وكان رسول الله إذا أتى المدينة من سفر لا يطرقها طروقاً، فدنوا من المدينة، فضربها المخاض، فاحتبس عليها أبو طلحة، وانطلق رسول الله ، فقال أبو طلحة : إنك لتعلم يا ربِّ إنه يعجبني أن أخرج مع رسول الله إذا خرج، وأدخل معه إذا دخل، وقد احتبست بما ترى . فقالت أم سليم : يا أبا طلحة ما أجدُ الذي كنتُ أجد . انطلق. فانطلقنا. وضربها المخاض حين قدما (المدينة) فولدت غلاما فقالت لي أمي (هي أم سليم وأم أنس

تزوجت والد أنس فمات ثم تزوجت أبا طلحة وكان مهرها إسلامه): يا أنس لا يرضعه أحد حتى تغدو به على رسول الله ، فلما أصبح احتملته (والراوي هنا أنس) فانطلقت به إلى رسول الله .. وذكر تمام الحديث.

ويالله من امرأة أم سليم هذه .. شجاعتها مضرب الأمثال وقد صبرت واحتسبت بفقدان ابنها. ولم تصرخ بل قدّمت العشاء لزوجها أبي طلحة (وهو من خيرة الأنصار) وتصنّعت له حتى أصابها، فأي امرأة هذه في قوة أعصابه ا وثباتها .. حتى أبو طلحة على شجاعته وبطولته لم يبلغ شجاعتها وصبرها.. وكان رسول الله يحب أبا طلحة وزوجته أم سليم وكان يذهب عندها وعند أختها أم ملحان. ويخصّها بما لم يخص أحداً من نساء الأنصار فرضي الله عن أم سليم وزوجها وأختها وبقية الأنصار والمهاجرين.

(14) وقال : «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله سبحانه، على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيّره من الحور العين ما شاء » رواه أبو داود والترمذي، وقال حديث حسن.

(15) وعن أبي هريرة أن رجلاً قال للنبي : أوصني. قال: « لا تغضب فردّد مراراً . قال لا تغضب» رواه البخاري.

ولعلَّ رسول الله قد عرف أن الرجل سريع الغضب وأنه يفقد قدرته على التحكم في نفسه عند الغضب فأوصاه: لا تغضب فلما كرّر الرجل السؤال كررّ عليه نفس الإجابة.

(16) قال : «يا أيها الناس لا تتمنّوا لقاء العدوّ، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموه فاصبروا، واعلموا أن الجنّة تحت ظلال السيوف» . متفق عليه.

(17) أتت امرأة إلى النبي بصبي لها وقالت: «يا نبي الله ادع الله له. فلقد دفنت ثلاثة؟ قال: دفنت ثلاثة؟ قالت: نعم. قال: لقد احتظرت بحظار شديد من النار» أخرجه مسلم.

(18) وقال لنسوة من الأنصار : «لا يموت لإحداكن ثلا ثة من الولد فتحتسبه إلا دخلت الجنة . فقالت امرأة منهن : و اثنين يا رسول الله؟ قال أو اثنين » أخرجه البخاري ومسلم واللفظ له.

(19) وقال : «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء. وإن الله إذا أحبّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن ولا يفقد الأجر ببكاء العين فقد بكى رسول الله لفقد إبراهيم وحزن ولكنه لا يقول إلا ما يرضي الرب.

مقام الشكر

لقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة في الشكر والشاكرين. والشكر من صفات كمال الله تعالى {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا *} [النساء/147] وقال تعالى {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّ فَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ *} [البقرة/158] .

وقال تعالى {لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ *} [فاطر/30] .

{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ *} [فاطر/34] .

[الشورى/ 23] .

{إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ *} [التغابن/17] .

فما أكرمه سبحانه وتعالى يشكر عباده وهو المتفضل عليهم . ويجازيهم على مجرد نيّة الطاعة وفعلها أضعاف أضعاف ما قدَّموه. وما قدموه أصلاً لم يكن إلا بفضله وتوفيقه وكرمه وجوده ومن أسمائه الحسنى: الشكور.

وقد وردت آيات كثيرة في جزاء الشاكرين منها قوله تعالى {وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ} [آل عمران/145] .

وقال تعالى {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا *} [الإسراء/19] .

وقال تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ *إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَا هُمْ بِسَحَرٍ *نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ *} [القمر/33 - 35] .

والإنسان إما شكور وإما كفور قال تعالى {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا *} [الإنسان/3] .

وقال تعالى عن هذا الإنسان الشكور المتقي المتصدق {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى *وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى *فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى *} [الليل/5 - 7] وقال {وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى *الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى *وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى *إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى *وَلَسَوْفَ يَرْضَى *} [الليل/17 - 21] وهؤلاء الشاكرون المتصدقون قليلون بين البشر لهذا قال تعالى {وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ/13] .

وقال تعالى على لسان إبليس اللعين {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَ قِيمَ *ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَ هُمْ شَاكِرِينَ *} [الأعراف/16 - 17] .

ولا شك أن الأنبياء كانوا من هذا القليل الشاكر وقد وصف الله سبحانه وتعالى إبراهيم بقوله {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *} [النحل/120، 121] . وآل داود (داود وسليمان) كانا من الشاكرين

قال تعالى {اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ/13] وتحول شكرهم إلى عمل دؤوب في طاعة الله ليلاً ونهاراً.

وقال عزّ من قائل في نوح {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا *} [الإسراء/3] وقد مدح الله سبحانه وتعالى صنيع الإمام علي كرم الله وجهه وزوجته البتول فاطمة الزهراء، سيّدة نساء العالمين، عندما آثروا المسكين واليتيم والأسير على أنفسهما في ثلاثة أيام متتالية بطعامهم، واستمروا على الصيام واكتفوا بالماء القراح قال تعالى عنهم {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا *إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا *إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا *فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا *وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا *مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا *وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً *وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا *قَوَارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا *وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً *عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً *وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا *وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا *عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا *إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا *} [الإنسان/8 - 22] .

وسليمان تبسم ضاحكاً بعد أن سمع كلام النملة قال تعالى {فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ *} [النمل /19] وقد وصّى الله سبحانه وتعالى الإنسان {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ}. قال تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ *وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ *وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ *} [لقمان/12 - 14] .

وآلآء الله سبحانه وتعالى لا تنقطع وكل نفس يتنفسه الإنسان يحتاج إلى شكر وكل شكر لا يكون إلا بتوفيق الله. وهو بالتالي يحتاج إلى شكر آخر.

وهو سبحانه لا يرضى لعباده الكفر فإن آمنوا وشكروا رضي ذلك منهم قال تعالى {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} [الزمر/7] .

ولا يخرج شيء عن إرادته وقدره . ولكن إرادته وقدره نوعان كوني وشرعي . فالكوني قوانين وضعها ولا يخالفها أحد، والشرعي جعل فيه للمكلفين القدرة على الكفر أو الإيمان، والمعصية أو الطاعة. فإن كفروا فإن الله غني عن العالمين والخسارة راجعة على أنفسهم . وإن أطاعوا وشكروا أثابهم أضعاف أضعاف ما قدّموه فضلاً وكرماً وجوداً وشكر لهم ذلك سبحانه وتعالى.

وعطايا الله كثيرة لا تعد ولا تحصى {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ *} [النحل /18] قال تعالى {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *} [الروم/46] .

وقال تعالى {وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *} [فاطر/12] .

وقال تعالى {اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *} [الجاثية/12 - 13] . وقال تعالى ممتناً على المؤمنين بنصر بدر {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *} [آل عمران/123] .

وقال تعالى {بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ *} [الزمر/66] وقال تعالى في معرض آلائه {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ *أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ *لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ *} [الواقعة/68، 70] وقال تعالى {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *} [النحل/78] .

وقال تعالى {قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ *} [تبارك الملك/23] .

وقال تعالى {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ *قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ *} [الأنعام/63، 64] .

بعض الأحاديث الواردة في الشكر

وأما الأحاديث الواردة في الشكر فكثيرة منها عن أمامة الباهلي يرفعه: «إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ (أي خفيف الظهر قليل المؤونة) ذو حظ من الصلاة، أحسن عبادة ربه وأطاعه في السرِّ، وكان غامضاً في الناس لا يشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافاً فصبر على ذلك، ثم نفض بيده، فقال : عُجِّلَتْ منيّته، قلّت بواكيه، قلّ تراثه » . أخرجه الترمذي وقال حديث حسن. وبهذا السند عن النبي قال: «عرض عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا، قلت : لا يا ربِّ، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوما .. فإذا جُعتُ تضرَّعتُ الليل وذكرتك، وإذا شبعتُ شكرتك وحمدتك » . أخرجه الترمذي وقال حديث حسن، وأحمد ومشكاة الأنوار.

وعن معاذ بن جبل أن النبي أخذ بيده وقال: «يا معاذ، والله إني لأحُبّك ، فقال : أوصيك يا معاذ. لا تدع في دبر كل صلاة تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » . أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد.

وقال : «إن للطاعم الشاكر من الأجر مثل ما للصائم الصابر » أخرجه الترمذي واحمد وابن ماجه والدارمي وقال شاكر: صحيح الإسناد.

وقال رسول الله : «إن الله قال لعيسى ابن مريم إني باعث من بعدك أمة إن أصابهم ما يحبّون حمدوا الله وشكّروه، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا، ولا حِلْم ولا علم. قال

يا رب كيف هذا لهم ولا حِلْم ولا علم. قال: أعطيهم من حلمي وعلمي» أخرجه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد ثقات.

عن أبي هريرة، قال رسول الله : «بينا رجل يمشي فاشتدّ عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش. فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي. فملأ خُفَّه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقى فسقى الكلب، فشكر الله له، فغُفِر له . قالوا: يا رسوالله وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: في كُلِّ كبدٍ رطبه أجر» . أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له، ومسلم.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله : «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك عل ى الطريق فأخرَّه فشكر الله له فغفر له» أخرجه الشيخان البخاري ومسلم وعن صهيب الرومي قال: قال رسول الله : «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير . وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء، صبر كان خيراً له» أخرجه مسلم في صحيحه.

وقال رسول الله «من قال حين يصبح اللهم ما أصبح بي من نعمة فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر فقد أدّى شكر يومه . ومن قال ذلك حين يمسي أدّى شكر ليلته » . أخرجه أبو داود واللفظ له والنسائي في اليوم والليلة والنووي في الأذكار وقال مخرجه إسناده حسن.

وعن أبي هريرة قال قال رسول الله : «لا يشكر الله من لا يشكر الناس » أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح.

وعنه يرفعه إلى النبي قال: «يا أبا هريرة كن ورعا تكن أعبد الناس، وكن قَنِعاً تكن أشكر الناس. وأحبَّ للناس ما تحبُّ لنفسك تكن مؤمناً. وأحسن جوار من جاورك تكن م سلماً. وأقلّ الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب » أخرجه ابن ماجه والسيوطي في الجامع الصغير، وحسّنه الشيخ الألباني.

وعن أنس قال قال رسول الله : «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها» أخرجه مسلم.

وعن أسامة بن زيد قال قال رسول الله : «من صُنع إليه معروف فقال لفاعله : جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء » أخرجه الترمذي وقال حسن جيد غريب والنسائي في عمل اليوم والليلة. والأحاديث كثيرة كذلك في فضل الغني الشاكر: عن عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله : «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتا ه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحقّ، ورجل آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها» متفق عليه.

وعن ابن عمر عن النبي قال: «لا حسد إلا في اثنتين رجلٍ آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار » متفق عليه . والحسد في الحديثين الغبطة وهو أن تتمنى مثل ما لصاحبك دون أن تتمنى زوال النعمة عنه.

وعن أبي هريرة أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله فقالوا : «ذهب أهل الدثور (أي الأموال) بالدرجات العُلى والنعيم المقيم . فقال : وما ذاك ؟ فقالوا : يصلّون كما نصلّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدّقون ولا نتصدّق، ويعتقون ولا نعتق فقال رسول الله : أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: تسبّحون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرةً . فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله فقال رسول الله: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» متفق عليه.

كلام ابن القيم في الشكر

قال ابن القيم في مدارج السالكين[1] «ومقام الشكر جامع لجميع مقامات الإيمان. ولذلك كان أرفعها وأعلاها، وهو فوق الرضا، وهو يتضمّن الصبر، من غير عكس . ويتضمّن التوكّل والإنابة والحب والإخبات والخشوع والرجاء . فجميع المقامات مندرجة فيه . لا يستحق صاحبه اسمه على الإطلاق إلا باستجماع المقامات له . ولهذا كان الإيمان نصفين : نصف صبر، ونصف شكر. والصبر داخل في الشكر. فرجع الإيمان كله شكراً والشاكرون هم أقلّ العباد، كما قال تعالى {وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ/13] .

وقال ابن القيم أيضاً [2]: «الشكر ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناء واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبّة، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة».

وقال المناوي [3] : «الشكر شكران : الأول شكر باللسان وهو الثناء على المنعم والآخر شكر بجميع الجوارح، وهو مكافأة النعمة بقدر الاستحقاق، والشكور الباذل وسعه في أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه اعتقاداً واعترافاً».

وقال المناوي: «إن الشاكر من يشكر على الرخاء، والشكور من يشكر على البلاء » وقيل الشاكر من يشكر على العطاء، والشكور من يشكر على المنع . وإذا وصف الباري بالشكور فالمراد إنعامه على عباده.

والله هو الشكور . قال الإمام الغزالي [4] : الشكور في أسماء الله تعالى هو الذي يجازي يسير الطاعات كثير الدرجات، ويعطي بالعمل في أيام معدودة نعيماً في الآخرة غير محدود، ومن جازى الحسنة بأضعافها ويقال أنه شكر.. فإن نظرت إلى معنى الزيادة في المجازاة لم يكن الشكور المطلق إلا الله لأن زياداته غير محصورة ولا محدودة..

وقال ابن منظور: والشكور من صفات الله، جلّ اسمه، معناه : أنه يزكو عنده القليل من أعمال العباد فيضاعف لهم الجزاء.

---

(1)ابن القيم: مدارج السالكين ج137/1 .
(2)مدارج السالكين ج244/2.
(3)نقلاً عن موسوعة نضرة النعيم ج2393/6.
(4)الغزالي: المقصد الأسنى/105، 106.

والشكر يقوم على خمس قواعد [1]: خضوع الشاكر للمشكور، وحبّه له، واعترافه بنعمته، والثناء عليه بها، وألا يستعملها فيما يكره.

والشكر على ثلاثة أضرب: شكر القلب ، وهو تصور النعمة، و شكر اللسان وهو الثناء على المنعم و شكر سائر الجوارح ، وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه. وقوله تعالى {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ *} [سبأ/13] معناه اعملوا ما تعملونه شكراً لله.

وقوله تعالى {وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ/13] تنبيه أن توفيةُ شكر الله صعب.

الفرق بين الشكر والحمد : الحمد يكون بالقلب وباللسان . والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح. والحمد لصفات الله وجلاله. وهو من هذه الناحية أعم من الشكر ولا يستحق الحمد بتمامه إلا الله ولا يستطيع أحد أن يثني على الله بما يستحقه، ولذا جاء في الحديث . «أنت كما أثنيت على نفسك فلك الحمد حتى ترضى» .

قال الإمام عبداللَّه بن علوي الحداد في رسالة المعاونة:

وعليك بالشكر للَّه على ما أنعم الله به عليك ما بك من نعمة في ظاهرك وباطنك ودينك ودنياك...

قال الله تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} [النحل: 53] ولله عليك من النعم ما تعجز عن عدّه وإحصائه فضلاً عن القيام بشكره . قال الله تعالى : {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا } [النحل: 18] .

ولو أن الفقير المريض من الموحدين تفكّر فيما لله عليه من النعم لشغله أداء شكره عن مكابدة الصبر، فعليك ببذل الاستطاعة في شكر ربك ثم بالاعتراف بالعجز عن القيام بما يجب عليك من شكره. واعلم أن الشكر سبب لبقاء النعم الموجودة ووسيلة إلى حصول النعم المفقودة، قال الله تعالى: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ} [إبراهيم: 7] والله أكرم من أن ينزع نعمه على شاكر، قال تعالى : {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الأنفال: 53] أي بترك الشكر عليها. وقد أمر الله عباده بالشكر في عدة مواضع من كتابه، قال تعالى: {كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [البقرة: 172] وقال تعالى: {كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ} [سبأ: 15] . وقال : «الإيمان نصفان: نصفٌ صبر ونصفٌ شكر» .

واعلم أنه كان يجب عليك أن تشكر الله على النعمة الخاصة بك كالعلم والصحة، كذلك يجب عليك أن تشكره على النعم العامة كإرسال الرسل وإنزال الكتب ورفع السماء وبسط الأرض.

وأصل الشكر معرفة القلب بالنعم، وأنها من الله وحده، لم يصل إليه شيء منها بحوله وقوته، بل بفضل الله وبرحمته. وغاية الشكر أن تطيع الله بكل نعمة أنعم بها عليك، فإن لم

(1)موسوعة نضرة النعيم نقلاً عن الفيروزبادي ج2396/6.

تطعه بها فقد تركت الشكر عليها، وإن عصيته بها فقد وقعت في الكفران، وعنده تتبدل النعم بالنقم. ومن بقيت عليه نعمة مع عصيانه لله بها فهو مستدرج {سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ} [الأعراف: 182] {إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا} [آل عمران: 178] .

واعلم أن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته. واعلم أن كثرة الثناء على الله بالفرح من النعم من حيث أنها وسيلة إلى نيل القرب من الله، أو من حيث أنها دالة على عناية الله بعبده . واعلم أن تعظيم النعمة بالشكر وإن كانت صغيرة... واعلم أن التحدث بالنعم غير خروج إلى ما يوهم تزكية النفس في الدينيات، والتبجح بالدنيا في الدنيويات، والأعمال بالنيات . والخير كله في الاقتداء بالسلف الصالح في جميع الحالات والله أعلم.

وقال في القصيدة التائية:

مقاماته تسع عليك بحفظها وإحكامها وابدأ بتصحيح توبةِ

وخوف، ونعم الخوف للعبد سائقٌ ونعم الرجاء من قائدٍ للسعادةِ

وصبر جميل عند كل بليَّةٍ وأمرٍ ونهيٍ أو ركونٍ لشهوة

وشكرٍ على النّعما برؤية مُنعمٍ وصرفِ الذي أسداه في سبل طاعة

وصحح مقام الزهد فهو العماد والتوكل وهو الزاد في كل رحلة

وحبِّ إله العالمين مع الرضا بكل الذي يقضيه في كل حالة

وقد تمّ شرح التوبة والخوف والرجاء والصبر والشكر . وفيما يلي سندرس سوياً مقام الزهد والتوكل وحب إله العالمين والرضا.

مقام الزهد

التعريف لغة واصطلاحاً

الزهد لغة (ز هـ د) مادة تدلّ على القلة في كل شيء قال ابن فارس [1] : (ز هـ د) أصل يدل على قلة الشيء. والزهيد القليل...، ويقال رجل زهيد قليل المطعم، والوادي القليل الأخذ للماء. وأكّد الراغب الأصفهاني هذه المعاني في المفردات [2] . والزاهد في الشيء : الراغب عنه، والراضي منه بالزهيد أي القليل كما في قوله تعالى : {وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ } [يوسف : 20] ... وفلان يزهد في الشيء أي يرغب عنه، لأنه لا يزهد إلا في القليل أو الحقير. يقول الجوهري [3] الزهد خلاف الرغبة. تقول زهد في ا لشيء وعن الشيء : خلاف الترغيب فيه.

---

(1)ابن فارس: المقاييس ج3/3..
(2)مفردات القرآن ص220.
(3)الجوهري: الصحاح ج481/2.

وفي حديث الزُهري : وسُئل عن الزهد في الدنيا فقال : هو ألا يغلب الحلال شكره، ولا الحرام صبره... وفلان يتزهّد أي يتعبّد.

وفي الاصطلاح: هو الإعراض عن الدنيا، وترك راحة الدنيا طلباً للآخرة، وأن يخلو قلبك مما خلت منه يدك. قال الشيخ ابن تيمية : الزهد المشروع هو ترك الرغبة فيما لا ينفع في الدار الآخرة، وهو فضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة الله، كما أن الورع المشروع هو ترك ما قد يضرّ في الدار الآخرة، وهو ترك المحرّمات والشبهات[1] .

وقال ابن القيم [2]: أن الزهد هو سفر القلب من وطن الدنيا، وأخذه في منازل الآخرة، وعلى هذا صنّف المتقدّمون كتب الزهد، كالزهد لعبدالله ابن المبارك، وللإمام أحمد ولوكيع، ولهنَّاد بن السَّري، ولغيرهم.

«ومتعلقه ستة أشياء لا يستحق العبد اسم الزهد حتى يزهد فيها وهي : المالُ والصورُ (أي الجميلات)، والرئاسة، والناس، والنفس، وكلُّ ما دون الله. وليس المراد رفضها من الملك فقد كان سليمان وداود ، من أزهد أهل زمانهما، ولهما من المال والملك والنساء ما لهما ...» [انتهى].

ولا شك أن سيدنا إبراهيم وسيدنا لوط وأبناء إبراهيم إسماعيل وإسحاق ويعقوب كانوا جميعاً أثرياء وكانت لهم الأموال والأنعام الكثيرة، ولكنها لم تدخل قلوبهم قط، وصرفوها في مرضات الله. وكان يوسف في منصب عزيز مصر ووزير المالية، وكان يعتبر من الملوك، ومع هذا لم تكن الدنيا كلها ذات قيمة أمامه، وقد أخرجها من قلبه. وكذلك كان داود وسليمان .

إمام الزاهدين سيدنا محمد

وكان لرسول الله المال الكثير من تجارته بمال زوجته خديجة وقد آثرته رضي الله عنها وأرضاها بكل شيء فزهد وزهدت في ذلك كله. ثم إن أبا بكر الصديق أنفق ماله كله في حبِّ الله وحبِّ رسوله، وفي عتق الرقاب من المسلمين الذين كانوا يعذّبون . وقد قال الله عنه {وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى *الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى *وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى *إلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى *وَلَسَوْفَ يَرْضَى *} [الليل: 17 - 21] .

أمثلة من الصحابة

وكان عدد من الصحابة رضوان الله عليهم أغنياء، فأنفقوا مالهم وجميع ما معهم في سبيل الله، منهم عثمان بن عفَّان مجهز جيش العسرة، ومنهم عبدالرحمن بن عوف وطلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام، وسعد بن عبادة، وسعد بن معاذ وغيرهم كثير، أنفقوا أموالهم في سبيل الله . ومنهم الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، منهم أبو أيوب الأنصاري وكافة الأنصار رضوان الله عليهم {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [الحشر: 9] .

---

(1)ابن تيمية: الفتاوى ج21/10 .

(2)ابن القيم: مدارج السالكين ج13/2، 14.

ومنهم الإمام علي كرّم الله وجهه، كان ينفق ما يأتيه كله في سبيل الله وقد نزل فيه قوله تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *} [البقرة: 274] وكان قد حصل على أربعة دنانير فأنفق ديناراً بالليل وديناراً بالنهار، وديناراً سراً وديناراً علانية. وكان هو الوحيد الذي سارع بتقديم دينار صدقة عندما نزل قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *} [المجادلة: 12، 13] .

وقد أمر الله تعالى المؤمنين بأن يقدموا صدقة إذا أرادوا أن يناجوا رسول الله في أمورهم الخاصة. وذلك لكي لا يشغلوه عن أمر الأمة وتدبير شؤونها، وكان لا بد أن يعوضوا الأمة بأن يتصدَّقوا، فبادر الإمام علي وقدَّم ديناره الوحيد صدقة لكي يناجي رسول الله ، ويكون قدوة للمؤمنين.

فشقَّ عليهم ذلك، فعفا الله عنهم، وسمح لهم بالمناجاة لرسول الله دون أن يقدّموا صدقة لفقراء المسلمين. فكانت بذلك أحد مناقب الإمام علي كرم الله وجهه التي تفرّد بها.

وكما أسلفنا في فصل سابق كيف آثر هو وزوجته فاطمة الزهراء، سيدة نساء العالمين، بطعامهم مسكيناً ويتيماً وأسيراً. وقد نزل في ذلك قوله تعالى : {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا *إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا *إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا *فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا *وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا *} [الإنسان: 8 - 12] .

ولما تولى الخلافة كان يكنس بيت المال بعد أن يوزع كلّ ما فيه على فقراء المسلمين والمستحقين ويصلي في كل ركن منه نافلة.

وهكذا كان الخلفاء الراشدون وصحابة رسول الله ، وآل بيته الكرام، وهكذا كان التابعون وأئمتهم... ثم مَنْ جاء بعدهم . «والخير فيّ وفي أمتي إلى يوم القيامة » . إلا أن المقامات تختلف، فليس في مقام الأنبياء أحد سواء كانوا ملوكاً وأغنياء أم فقراء متعففين ... وجميعهم كان من الزهاد في أعلى المقامات ... وكان أفضلهم وأعلاهم قدراً محمد ... وكذلك كان آل بيته وصحابته في مقامهم العظيم... ثم تستمر الأمثلة المنيرة في هذه الأمة المباركة.

والزهد فيهم يظهر لدى رجالٍ ونساءٍ منهم... والمال لايستعبدهم وذو المال منفق لم يدخل قلبه قط. والفقير متعفّفٌ راضي بما هو فيه، لا يتطلع إلى ما في يد غيره أبداً.

ومن هؤلاء الأئمة الأعلام عبدالله بن المبارك المجاهد الزاهد الفقيه الغني التاجر . وقد اشتهر ابن المبارك (تركي من مرو في تركستان اليوم) بعلمه في الحديث والفقه واشتراكه في المعارك والغزو ضد الكفار وكان من الأبطال الصناديد. كما كانت له تجارة وافرة وكان ينفق على تلاميذه... وإذا ذهب للحج، يأخذ ممن يرغب في الحج معه نفقته ويحفظها لهم، وينفق عليهم ذهاباً وإياباً وفي أثناء الحج، ويشتري لهم الهدايا لأهلهم، فإذا وصل إلى بلده أعطاهم أموالهم التي أعطوه إياها عند ذهابهم للحج.

وكان الليث بن سعد قرين مالك في الفقه، وكانت له تجارة واسعة وسفن محمّلة من النوبة والسودان إلى القاهرة والعكس... وكان ينفق من تجارته على طلبته الفقراء وعلى غيرهم من ذوي الحاجة، ويرسل إلى مالك بالمدينة بالأموال.

وكان إبراهيم بن أدهم من أبناء الملوك في بلخ (في شمال أفغانستان وهي مدينة قد اندثرت تقريباً الآن، وبجانبها مدينة مزار شريف)، ترك الملك والأبهة والأموال ووزعها على الفقراء. وهرب من بلاده وذهب يسيح في الأرض ويأكل من عمل يده حارساً للبساتين ومزارعاً وعاملاً... وكان رضي الله عنه كثير الجهاد. ولمّا جاءه ميراثه من أبيه وزَّعه كله على الفقراء والمساكين والأرامل ورفض أن يأخذ منه شيئاً.

وكان أبو الحسن الشاذلي صاحب مزارع وتجارة، وكان من دعائه المشهور «اللهم وسّع عليّ رزقي في دنياي ولا تحجبني بها عن أخراي». وكان يقول: «اللهم اجعلها في أيدينا ولا تجعلها (أي الدنيا) في قلوبنا»... وكان مع ذلك من الزهاد العبَّاد، ومن أولياء الله الصالحين المنفقين في السراء والضراء وحين البأس . واشترك في الجهاد، ولما عمي ذهب مع المجاهدين ضد الصليبيين في معركة المنصورة . وكان يحثّ الجنود على الصبر والجهاد ويدعو لهم طوال الليل حتى نصرهم الله سبحانه وتعالى ، وتم أسر ملك الصليبيين لويس التاسع وحبسه في دار ابن لقمان في المنصورة.

وفي كل زمان يظهر رجال من هؤلاء إذا أتتهم الدنيا راغمه أنفقوها في سبيل الله ففي أيام السلطان «قانصوه الغوري» في مصر ظهر الشيخ شمس الدّين الديروطي الدمياطي (وفاته 921هـ) وكان شديداً على الأمراء والسلاطين يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وتكلّم على السلطان الغوري في الأزهر في ترك الجهاد، فأرسل السلطان يستدعيه، فلما دخل سلَّم، فلم يرد السلطان السلام لإظهار غضبه، فقال له الشيخ: «إن لم تردّ السلام فسقت وعُزلت !!» فقال السلطان : «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . وقال له لماذا تحطُّ (من مقامنا) بين الناس في ترك الجهاد، وليس لنا مراكب نجاهد فيها؟ فقال الشيخ : عندك المال الذي تَعْمُرُ به... وشدَّد على السلطان وما يكون جوابه يوم القيامة عما ضيّع من أمور المسلمين وعما حصل منه ومن أتباعه من مظالم... وكاد السلطان أن يفقد عقله، من شدة المواعظ، فلما أفاق عرض عليه عشرة آلاف دينار يستعين بها على بناء البرج (الدفاعي) الذي في دمياط، فردّها وقال: «أنا رجل ذو مال لا أحتاج إلى مساعدة أحد، ولكن إن كنت أنت محتاجاً أقرضتك وصبرت عليك». فما رؤي أعزّ من الشيخ ولا أذلّ من السلطان في ذلك المجلس.

ثم قام الشيخ وصرف على عمارة البرج في دمياط أربعين ألف دينار ... وكان من كبار الأثرياء من تجارته. وطلبته الفقراء يأكلون ويشربون عنده.

والمجال واسع وهناك مئات الأمثلة في كل زمان ومكان . ولم يكن الزهد عندهم سوى إخراج حبّ الدنيا من قلوبهم، فإذا جعلها الله في أيديهم من حلال، أنفقوها في وجوه الخير . فإن لم يكن لهم مال، كانت لهم عِفَّةَ، {...لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا } ولا ينظرون إلى ما في أيدي الناس. فقد كفاهم الله حبَّ الدنيا وأخرجها من قلوبهم.

وفي زمننا هذا عرفنا أمثلة وضاءه في الزهد، ومن هؤلاء الشيخ عبدالعزيز بن باز والشيخ محمد بن عثيمين، وكانت تأتيهم الأموال، وخاصة الشيخ عبدالعزيز بن باز، فينفقونها في سبيل الله، ويعيشون في أنفسهم عيشة الكفاف، مع كرمهم وموائدهم عامرة، وهم أنفسهم يتقلّلون في المأكل والمسكن والملبس.

ومنهم الحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف أتته الأموال من كل مكان فبادر إلى إنفاقها وعاش في نفسه وبيته عيشة مقتصدة . وينفق على تلاميذه وغيرهم ممن يأتيه، ويرسل إلى الأرامل والأيتام والمساكين في بلده حضرموت...

ومنهم السيد محمد علوي المالكي المكي أتته الأموال فلم يكتنزها بل بادر إلى إنفاقها على الفقراء والمساكين، وعلى طلبته من أندونيسا وأفريقيا وغيرها من البلدان . واكتفوا باليسير في مطعمهم وملبسهم ومسكنهم... وأمة الإسلام أمة مرحومة لا تزال منهم طائفة على الحق ظاهرين إلى أن تقوم الساعة. فلما سئل رسول الله أين هم؟ قال «في أكناف بيت المقدس». وقد أظهرت الأيام هذه المعجزة النبوية... وكم ظهر منهم في أيام الحروب الصليبية وفي أيام التتار، وفي وقتنا الحاضر في مواجهة يهود الذين تحكموا في العالم الغربي وبالتالي تحكموا في العالم كله ... وكم هي مواقف أهل فلسطين في الصبر والمصابرة والزهد، وخاصة مواقف أهل غزة... ويأبى الله إلا أن يظهر بجانب الخونة والمرتزقة والجبناء أولئك الأفذاذ من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال الذين ضربوا أروع الأمثلة في الصبر والفداء والشجاعة والأمانة والعفة.

أقسام الزهد وأحكامه: قال ابن القيم[1] : الزهد أقسام:

(الأول): زهد في الحرام. وهو فرض عين.

(الثاني): زهد في الشبهات: وهو بحسب مراتب الشبهة، فإن قويت التحق بالواجب، وإن ضعفت كان مستحبّاً.

(الثالث): زهد في الفضول : وهو زهد فيما لا يعني من الكلام والنظر والسؤال واللقاء وغيره، وزهد في الناس، وزهد في النفس حيث تهون عليه نفسه في الله تعالى.

(الرابع): زهد جامع لذلك كله: وهو الزهد فيما سوى ما عند الله، وفي كل ما يشغلك عن الله وأفضل الزهد إخفاء الزهد، وأصعبه الزهد في الحظوظ.

ما يعين على الزهد: والذي يصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء[2] :

(أحدها): علم العبد أن الدنيا ظل زائل وخيال زائر فهي كما قال تعالى : [الحديد: 20] وسمَّاها الله (متاع الغرور)، ونهى عن الاغترار بها، وأخبرنا عن سوء عاقبة المغترّين، وحذَّرنا مثل مصارعهم، وذمَّ من رضي بها، واطمأن إليها.

---

(1)ابن القيم: الفوائد ص118.

(2)ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم ص254، 255.

(الثاني): علمه أن وراءها داراً أعظم منها قدراً، وأجلُّ خطراً، وهي دار البقاء فالزهد فيها (أي الدنيا) لكمال الرغبة فيما هو أعظم منها.

(والثالث): معرفته وإيمانه الحقّ بأن زهده فيها لا يمنعه شيئاً كُتِبَ له منها، وإن حرصه عليها لا يجلب له ما لم يقضِ له منها. فمتى تيقَّن ذلك، ثلَج له صدره، وعلم أن مضمونه منها سيأتيه.

فهذه الأمور الثلاثة تسهّل على العبد الزهد في الدنيا وتثبِّتُ قدمه في مقامه » انتهى كلام ابن رجب الحنبلي.

وقد تحدث ابن القيم في كتابه «طريق الهجرتين وباب السعادتين » عن الزهد [1]: في مواضع كثيرة من كتابه ومما جاء فيه: «فقر الزهاد: وهو نفض اليدين من الدنيا ضبطاً أو طلباً، وإسكات اللسان عنها ذمّاً أو مدحاً، والسلامة منها طلباً أو تركاً . وهذا هو الفقر الذي تكلّموا في شرفه. فحاصل هذه الدرجة فراغ اليد والقلب من الدنيا، والذهول عن الفقر منها، والزهد فيها. وعلامة فراغ اليد، نفض اليدين من الدنيا ضبطاً أو طلباً، فهو لا يضبط يده مع وجودها شُحَّاً وضنَّ اً بها، ولا يطلبها مع فقدها سؤالاً وإلحافاً وحرصاً . فهذا الإعراض والنفض دالٌّ على سقوط منزلتها من القلب، إذ لو كان لها في القلب منزلة لكان الأمر بضدِّ ذلك. وكان يكون حاله الضبط (أي الإمساك) مع الوجود لغناه بها، ولكان يطلبها مع فقدها لفقره إليها. وأيضاً من أقسام الفراغ إسكات اللسان عنها ذمّاً ومدحاً، لأن من اهتم بأمر، وكان له في قلبه موقع اشتغل اللسان بما فاض على القلب من أمره مدحاً أو ذمّاً، فإنَّهُ إن حصلت له مدحها، وإن فاتته ذمّها. ومدحها وذمّها علامة موضعها من القلب، وخطرها، فحيث اشتغل اللسان بذمّها كان بذلك لخطرها في القلب، لأن الشيء إنما يذمّ على قدر الاهتمام به والاعتناء شفاء الغيظ منه بالذمّ. وكذلك تعظيم الزهد فيها إنما هو على قدر خطرها في القلب، إذ لولا خطرها وقدرها لما صار للزهد فيها خطر . وكذلك مدحها دليل على خطرها وموقعها من قلبه، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره..

ثم ذكر إن الشيء إذا صغر في قلب الإنسان أعرض عنه مدحاً وذماً ولم يهتم به أصلاً . ولو اهتم القلب بمهمٍّ من المهمّات المطلوبة التي هي مذاقات أهل القلوب والأرواح لذهل عن النظر إلى نفسه بالزهد والترك . فصاحب هذه الدرجة معافى من هذه الأمراض كلها . من مرض الضبط والطلب، والذمّ والمدح، والترك، فهي بأسرها، وإن كان بعضها ممدوحاً في العلم، مقصوداً يستحق المتحقق به الثواب والمدح، لكنها آثار وأشكال مُشعِرةٌ بأن صاحبها لم يذقْ حال الخلو والتجريد الباطن، فضلاً عن أن يتحقّق من الحقائق المتوقعة المتنافس فيها . فصاحب هذه الدرجة متوسط بين درجتي الداخل بكليته في الدنيا، قد ركن إليها، واطمأن إليها، واتخذها وطناً، وجعلها له سكناً، وبين من نفضها بالكلية من قلبه ولسانه، وتخلّص من قيودها ورعونتها وآثارها، وارتقى إلى ما يسرُّ القلب ويحييه ويفرحه ويبهجه من جذبات العزّة، فهو في البرزخ، كالحامل المقرّب، ينتظر ولادة الروح والقلب، صباحاً ومساء، فإن من لم تولد روحه وقلبه، ويخرج من مشيمة نفسه، ويتخلّص من ظلمات طبعه وهواه

(1)ابن القيم طريق الهجرتين ج33/1، 34 وهو كلام دقيق نفيس.

وإرادته، فهو كالجنين في بطن أمه الذي لم ير الدنيا وما فيها. فهكذا هذا الذي بَعدُ في مشيمة النفس، والظلمات الثلاث هي ظلمة النفس، وظلمة الطبع، وظلمة الهوى . فلا بدَّ من الولادة مرّتين، كما قال المسيح للحواريين: إنكم لن تلجوا ملكوت السماء حتى تولدوا مرَّتين . ولذلك كان النبي أباً للمؤمنين.

وتحدث في موقع آخر [1] عن «الزهد في الأحوال والفقر منها كما تعيّن عليه الزهد في المال والشرف، وخلوّ قلبه منهما ». وهو مقام عظيم يتخلّى فيها هذا السالك عن الأحوال والمقامات ويراها حجاب أو حجب عن الله . وهي وإن كانت حجباً نورانية، إلا أنها حُجب . والحجب نوعان: (1) ظلمانية (من النفس والهوى والشيطان) (2) ونورانية : وهذه يمرّ بها السالك في طريقه إلى الله. ولا يقف عندها حتى يصل إلى مقام العندية (عند مليك مقتدر) [2].

الإمام الحداد والزهد

وقال الحبيب عبدالله بن علوى الحداد [3]: (واعلم) أن الزهد في الدنيا، لأهله نعيم عاجل ولا يستطيعه إلا من شرح الله صدره بإشراق أنوار المعرفة واليقين . قال : «إن النور إذا دخل القلب انشرح له وانفسح قيل فهل لذلك من علامة؟ » قال: التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود » [4]. وقال : «الزهادة في الدنيا تريح القلب والبدن ، والرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن»[5] . وقال : «ازهد لله في الدنيا يحبك الله» [6].

«وأصل الزهد مع رفة القلب بحقارة الدنيا وخسّتها، وأنها لو كانت تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»[7] وأنها «ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله فيها »[8]، وأن من أخذ فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر.

«وثمرة هذه المعرفة، المقصود منها ترك الميل إلى الدنيا باطناً، وترك التنعم بشهواتها ظاهراً، وأدنى درجات الزهد أن لا يقع بسبب الدنيا في ركوب معصية، ولا في ترك طاعة، وأعلى درجاته أن لا تأخذ من الدنيا شيئاً حتى تعلم أن أخذه أحبّ إلى الله من تركه، وبين هاتين الدرجتين درجات كثيرة.

«وللزاهد الصادق علامات: أنه لا يفرح بالموجود، ولا يحزن على المفقود من الدنيا، وأنه لا يشغله طلب الدنيا والتمتع بها عمَّا هو خير له عند ربه.

---

(1)طريق الهجرتين ص39.

(2)وفي هذا المعنى قال الحبيب عبد الله الحداد: فاقطع الحجب الكثيفة بالسير عنها غير معتصر
واقطع الحجب اللطيفة بالسير فيها غير مغتررِ.

(3)عبدالله الحداد: رسالة المعاونة والمظاهرة أو الموازره، طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ص34، 35..

(4)ابن جرير وعبدالرزاق وابن أبي حاتم وابن كثير في التفسير [في قوله: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام)].
.

(5)لم أجده..

(6)رواه ابن ماجه بلفظ: «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما بين يدي الناس، يحبوك» وصححه الألباني.

(7)رواه الترمذي وابن ماجه.

(8)أخرجه الترمذي وقال حسن غريب وابن أبي شيبة والدارمي.

«وعليك بإخراج حبّ الدنيا، والدرهم من قلبك حتى يصير عندك بمنزلة الحجر والمدر، وبإخراج حبّ المنزلة عند الناس من قلبك حتى يستوي عندك مدحهم وذمَّهم وإقبا لهم وإدبارهم، فإن حبّ الجاه أضرُّ على صاحبه من حبِّ المال. وكلاهما دالآن على الرغبة في الدنيا. وأصل حبِّ الجاه حبّ التعظيم. والعظمة من صفات الله فهو منازعة للربوبية، وأما حبّ المال فإنما أصله حبّ التمتع بالشهوات وذلك من صفات البهائم. قال النبي في الحديث القدسي: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما قذفته في نار جهنم»[1]. وقال: «ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حبِّ الشرف والمال في دين الرجل المسلم»[2].

«وعليك بإيثار التقلّل من الدنيا والاقتصار على ما لا بدَّ منه من ملابسه ا ومآكلها ومناكحها ومساكنها، وسائر أمتعتها. وإياك أن تتسع في شهواتها، وتدّعي مع ذلك الزهد، وتحتجّ لنفسك بالحجج الداحضة عند الله، وتطلب لها التأويلات البعيدة عن الحقّ... وإعراض رسول الله والأنبياء قبله، والأئمة بعده، عن التنعم بالدنيا مع القدرة عليه من الحلا ل لا يخفى على من له أدنى معرفة بالعلم.

«وإذا لم تقدر على الزهد في الدنيا فإن تعترف بالرغبة فيها والحرص عليها (أفضل لك)، ولست مأثوماً إلا على طلبها والتمتع بها على وجه محرّم في الشرع.

«والزهد مقام فوق ذلك. وليت شعري، لو أن الله فرض علينا التوسع في الدنيا ف من أين القدرة عليه في زمان عزّ فيه ما يواري العورة ويسدُّ الجوعة من الحلال، فإنّا لله وإنا إليه راجعون» انتهى كلام الحبيب عبدالله الحداد.

والآيات والأحاديث في ذم الدنيا التي يتكالب عليها الناس ويقتتلون، ويركبون في سبيلها كل الموبقات كثيرة جداً وتملأ كتباً وقد صنف فيها ابن أبي الدنيا وغيره... وكل كتب الرقاق والزهد ممتلئة بها.

بعض ما ورد في الزهد من الأحاديث

ومما ورد في الأحاديث قوله: «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما أيدي الناس يحبك الناس» أخرجه ابن ماجه عن سهل بن سعد الساعدي وصححه الألباني. وكان يرتجز أ ثناء بناء مسجده وأثناء حفر الخندق:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة[3]

وقد أخرج مسلم عن عبدالله بن الشخِّير قال: «أتيت النبي وهو يقرأ (ألهاكم التكاثر) قال: «يقول ابن آدم مالي مالي» قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أ و لبست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت».

---

(1)أخرجه مسلم وأبو داود وأحمد وابن ماجه وابن حبان وغيرهم.
(2)أخرجه الإمام أحمد والنسائي والترمذي وابن حبان في صحيحه بلفظ: ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم (وليس في هذه المراجع لفظ زريبة) وهو من حديث كعب بن مالك الأنصاري.
(3)أخرجه البخاري ومسلم.

وعن ابن عمر أن رسول الله أخذ بمنكبه وقال له : «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » وكان ابن عمر يقول : «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك» أخرجه البخاري في صحيحه.

وقال : «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : «ألا كل شيء ما خلا الله باطل » أخرجه الشيخان البخاري ومسلم.

وعن جابر بن عبدالله أن رسول الله مرَّ بالسوق، داخلاً من بعض العالية (حي بالمدينة) والناس كنفته، فمرَّ بجدي أسكَّ (صغير الأذنين) ميّت فتناوله فأخذه بأذنه ثم قال : «أيكم يحبُّ أن هذا له بدرهم؟ فقالوا: ما نحبُّ أنه لنا بشيء. وما نصنع به؟ ! قال: أتحبّون أنه لكم؟ قالوا : والله لو كان حيّاً، كان عيباً فيه، لأنه أسكّ، فكيف وهو ميّت؟ فقال : فوالله !! للدنيا أهون على الله من هذا عليكم» [أخرجه مسلم] .

وعن أبي سعيد الخدري أن رس ول الله قال : «إن الدنيا حُلوة خَضِرَةٌ، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون؟ فاتّقوا الدنيا، واتّقوا النساء، وإن فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» [أخرجه مسلم] .

وقال : «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم» [أخرجه البخاري واللفظ له ومسلم] .

وقال : «وإن هذا المال خَضِرَةٌ حُلْوَة، فنعمَ صاحبُ المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل ... وإنه من يأخذه بغير حقّه كالذي يأكل ولا يشبع، ويكون شهيداً عل يه يوم القيامة» [أخرجه البخاري ومسلم] .

عن أبي هريرة عن النبي قال : «تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة (كساء له خمل) والخميصة (ثياب خز أو صوف معلّمة)، إن أُعطي رضيَ، وإن لم يُعطَ لم يرضَ » أخرجه البخاري وقال : «ليس الغنى عن كَثْرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس» [أخرجه الشيخان البخاري ومسلم والأحاديث في الباب كثيرة جداً وفيما سلف غنية] .

الورع والزهد

ولا يكون زهد بدون ورع. والورع هو أن يترك الإنسان كل ما فيه شبهه . وقد قال : «إن الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمهُنَّ كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه. ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه . ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه . ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » . [أخرجه الشيخان البخاري ومسلم] من حديث النعمان بن بشير. وعن الحسن بن علي بن أبي طالب قال: «حفظت من رسول الله : دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ». رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

وقال : «لا يبلغ العبد أن يكون من المتّقين حتى يدع ما لا بأس به، حذراً مما به بأس » أخرجه الترمذي وقال حديث حسن عن عطية بن عروة السعدي . والورع يكون في الكلام بالتورع عن اللغو بجميع ضروبه. وأما الغيبة والنميمة فهي من كبائر الذنوب وتركها واجب على كل مسلم. قال الإمام القشيري: «الورع في المنطق أشدّ منه من الذهب والفضة » أي أن الورع في الكلام وفضوله أشدّ على الإنسان من الورع من الذهب والفضّة.

والورع في القلب هو عدم انشغاله بالخطرات حتى يصل إلى أن يتورع عمَّا سوى الله كما يقول الشبلي.

والورع في الأفعال فإنه يتضمّن ألا يأكل أو يشرب أو يلبس أو يسكن إلا من حلال ... وكان السلف يتحرّون في ذلك أشدّ التحري. وقد قال رسو ل الله لسعد بن أبي وقاص عندما طلب منه أن يكون مجاب الدعوة: «يا سعد أطبْ مطعمك، تكن مستجاب الدعوة. والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبّل منه أربعين يوماً، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به» . رواه الطبراني في الأوسط وقال : «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : {يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ *}» [المؤمنون: 51] .

وقال: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة: 172] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمدّ يده إلى السماء : يا ربِّ يا ربِّ !! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذيّ بالحرام فأنّى يستجاب له» أخرجه مسلم.

يقول إبراهيم بن أدهم[1] : الورع ترك كل شبهة، وترك ما لا يعنيك.

ويقول أبو سليمان الداراني [2]: الورع أول الزهد، كما أن القناعة طرف من الرضا».

وقال يحيى بن معاذ[3]: الورع على وجهين: «ورع الظاهر وهو أن لا يتحرك إلا لله تعالى وورع في الباطن وهو أن لا يدخل قلبك سوى الله تعالى».

ورأى الحسن البصري [4]غلاماً من أولاد علي بن أبي طالب قد أسند ظهره إلى الكعبة يعظ الناس فأراد الحسن أن يختبره فقال له : ما ملاك الدين؟ فقال : الورع فقال له : فما آفة الدين؟ فقال: الطمع، فتعجّبَ الحسن منه.

وقال أبو نصر السراج الطوسي [5] : الورع يقتضي الزهد . والزهد مقام شريف، وهو أساس الأحوال الرضيّة والمراتب السنيّة. وهو أول قدم القاصدين إلى الله تعالى، والمنقطعين

(1)نقلاً عن الشيخ الدكتور عبدالحليم محمود لله في كتابه: المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالي مع أبحاث في التصوف، دار الكتب الحديثة، القاهرة ص207.
(2) المرجع السابق.
(3)المرجع السابق.
(4)المرجع السابق.
(5) اللمع للطوسي ص71 ، 72 نقلا عن المرجع السابق.

إلى الله، والراضين عن الله، والمتوكلين على الله، فمن لم يحكم أساسه في الزهد لم يصحّ له شيء مما بعده، لأن حُبَّ الدنيا رأسُ كل خطيئة. والزهد في الدنيا رأس كل خير وطاعة.

مقام التوكل

التعريفات

التوكل لغة (و ك ل) تدلُّ على اعتماد على الغير في أمر ما . ومن ذلك التوكيل وهو الاعتماد على الغير وتجعله نائباً عنك (قاله الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن). وتواكل القوم: إذا اتَّكل كلٌّ على الآخر.

والمتوكل على الله: الذي علم أن الله كافل رزقه فيركن إليه وحده ولا يتوكل على غيره، والوكيل من أسماء الله الحسنى، وهو القيّم الكفيل بأرزاق العباد.

ومن أسماء الرسول المتوكل عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: «هذه الآية في القرآن {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا *} [الأحزاب: 45] .

قال في التوراة: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً (أي عصمة) للأميين. أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل. ليس بفظ ولا غليظ ولا سخَّاب (صخاب يرفع صوته) بالأسواق، ولا يدفع السيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح . ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صُمّاً وقلوباً غُلفاً» [أخرجه البخاري في صحيحه] .

التوكل في الاصطلاح: «صدق اعتماد القلب على الله ، عزَّ وجلَّ، في استجلاب المصالح ودفع المضارّ من أمور الدنيا والآخرة، وكِلَةُ الأمور كلها إليه. وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضرّ ولا ينفع سواه»[1] قاله ابن رجب الحنبلي.

وقال الجرجاني [2]: «التوكل هو الثقة بما عند الله واليأس عمَّا في أيدي الناس».

وقال ابن القيم [3]: «التوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلو ب، ويندفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم معه التوكل . ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب، وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها، فالأسباب محل حكمة الله وأمره ونهيه . والتوكل متعلّقٌ بربوبيّته وقضائه وقدر ه، فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل، ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية».

ومن كتاب الطب النبوي (من كتاب زاد المعاد) بعد أن ذكر أحاديث التداوي مثل قوله : «لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله ». [أخرجه مسلم في صحيحه وأحمد] .

وقوله : «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء» [البخاري ومسلم وأحمد] .

وعند أبي داود والنسائي وأحمد جاءت الأعراب فقالوا: يا رسول الله انتداوى؟ فقال: نعم يا عباد الله تداووا. فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داوء واحد قالوا : ما هو؟ قال: الهرم ».

---

(1)ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم ص409.

(2)الجرجاني: التعريفات ص74 .

(3)ابن القيم: مدارج السالكين ج125/2 .

قال: «فقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسبّبات، وإبطال قول من أنكرها..

ومن تأمل خلق الأضداد في هذا العالم، ومقاومة بعضها لبعض، ودفع بعضها ببعض، تبيّن له كمال قدرة الربّ تعالى وحكمته وإتقانهِ ما صنعه، وتفرّده بالربوبية والوحدانية والقهر، وأن كل ما سواه فله ما يضادُّه ويمانعه، كما أنه الغنيّ بذاته . وكل ما سواه محتاج بذاته، (إليه).

«وفي هذه الأحاديث الصحيحة الأمر بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه دفع داء الجوع والعطش والحرّ والبرد بأضدادها. بل لا يتم حقيقة التوحيد، إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبّباتها قدراً وشرعاً، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل كما يقدح في الأمر والحكمة ويُضعفه من حيث يظنُّ مُعطِّلُها أن تركها أقوى في التوكل . فإنَّ تركها عجزا ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه . ولا بدَّ مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطّلاً للحكمة والشرع . فلا يجعل العبد عجزه توكلاً، ولا توكله عجزاً.

«وفيها ردٌّ على من أنكر التداوي وقال: إن كان الشفاء قد قُدِّر فالتداوي لا يفيد وإن لم يكن قُدِّر فكذلك. فإن المرض حصل بقدر الله، وقدر الله لا يدفع ولا يرد.

«وهذا السؤال هو الذي أورده الأعراب على رسول الله . وأما أفاضل الصحابة فأعلمُ بالله وحكمته وصفاته من أن يوردوا مثل هذا»[1] .

«وقد أجابهم النبي بما شفى وكفى فقال: هذه الأدوية والرُّقى والتُّقى هي من قدر الله . فما خرج شيء عن قدره، بل يُردُّ قدرُه بقدره» . وهذا الردُّ من قدره فلا سبيل إلى الخروج عن قدره بوجه ما . وهذا كردِّ قدر الجوع والعطش والحرّ والبرد بأضدادها، وكردِّ قدر العدو بالجهاد. وكلٌّ من قدرِ الله الدافعُ والمدفوعُ والدفع.

«ويقال لمورد هذا السؤال: هذا يوجب عليك أن لا تباشر سبباً من الأسباب التي تجلب بها منفعة، أو تدفع بها مضرَّة ... وفي ذلك خراب الدين والدنيا وفساد العالم . وهذا لا يقوله إلا دافع للحقِّ معاندٌ له. فيذكر القدر ليدفع حجة المُحِقِّ عليه، كالمشركين الذين قالوا {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا } [الأنعام: 148] و{لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلاَ آبَاؤُنَا} [النحل: 35] فهذا قالوه دفعا لحجّة الله عليهم بالرّسل»[2] .

وفي فصل الطاعون ذكر قوله : «الطاعون رجز أُرسل على طائفة من بني إسرائيل، أو على من كان قبلكم فإذا سمعتم به بأر ض فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه» [أخرجه الشيخان البخاري ومسلم والترمذي والبيهقي عن أسامة بن زيد] .

(1)أخرج الإمام أحمد في مسنده والترمذي وقال حديث حسن، وابن ماجه عن أبي خزامة قلتُ يا رسول الله أرأيت رقًىً نسترقيها، ودواء نتداوى به وتُقاة نتّقيها، هل تردُّ من قدر الله شيئاً فقال: «هي من قدر الله».
(2)ابن القيم: الطب النبوي، دار التراث القاهرة ص75 - 79.

قال ابن القيم: «وقد جمع النبي للأمة في نهيه عن الدخول إلى الأرض التي هو بها ونهيه عن الخروج منها بعد وقوعه كمال التحرز منه...» [1] .

قال ابن القيم : «وبالجملة في النهي عن الدخول في أرضه (أي أرض الطاعون) الأمر بالحذر والحمية، والنهي عن التعرّض لأسباب التلف . وفي النهي عن الفرار منه : الأمر بالتوكل والتسليم والتفويض. فالأول تأديب وتعليم، والثاني تفويض وتسليم».

قلت: إن الأمر بعدم الخروج هو لمنع انتشار الوباء، إذ قد يكون الخارج من بلد الوباء حاملاً للميكروب دون أن يظهر عليه أي مرض فينقل المرض إلى بلدان أخرى. وهذا هو ما طبّقته الدول في العصور الحديثة فيما يعرف بالحجر الصحي . وأما المنع من الدخول إلى البلدة المصابة بالوباء، فلتجنّب حصول الوباء لمن هو بعيد عنه.

وثبت أيضاً أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام فلما وصل سرغ (من قطاع غزة من فلسطين اليوم) لقيه أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام وهو طاعون عمواس).

فقال عمر لابن عباس : ادعُ لي المهاجرين الأولين، فدعاهم، واستشارهم فاختلفوا عليه، وكذلك فعل الأنصار، فدعى مهاجرة الفتح من شيخة قريش فلم يختلف عليه منهم رجلان، قالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء فأذّن عمر في الناس أني مصبح على ظهر، فأصبحوا عليه. فقال أبو عبيدة بن الجراح: يا أمير المؤمنين أفراراً من قدر الله تعالى؟ قال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة. نعم نفرُّ من قدر الله تعالى إلى قدر الله . أرأيت لو كانت لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان : إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، ألست إن رعيتها الخصبة، رعيتها بقدر الله تعالى، وإن رعيتها الجدبة بقدر الله؟ قال فجاء عبدالرحمن بن عوف، وكان متغيباً فقال: إن عندي في هذا علماً. سمعت رسول الله يقول : «إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه» . [أخرجه البخاري ومسلم وأحمد والنسائي والبيهقي] .

وقد ناقش ابن القيم هذا الموضوع مراراً في مختلف كتبه، وما ذكرناه فيه غنية. ولا بد من اتخاذ الأسباب قدر الاستطاعة مع الاعتماد التام على الله وحده.

والأسباب موجودة بقدر الله وقدرته . ونحن مطالبون بمعرفة الأسباب واتخاذها، فهذا لا ينافي كمال التوحيد، ولكن الذي ينافي التوحيد هو اعتقاد أن هذه الأسباب فاعلة بذاتها فلا ينظر إلا إليها، ولا يعتمد إلا عليها ولا يثق إلا بها، وينسى الله الذي بيده الأسباب كلها يصرّفها كيف يشاء، فلا ينبغي على المؤمن أن يتوكل أو يعتمد على أحدٍ غير الله . ومع ذلك عليه أن يتخذ من الأسباب ما يراه مناسباً، ويعلم أنها مربوبة مقهورة بيد بارئها وخالقها.

ولذا جاءت الأحاديث النبوية الشريفة توضح ذلك في موضوع العدوى ومنها قوله :

---

(1)شرحت هذا الموضوع بتفصيل في كتاب العدوى بين الطب وحديث المصطفى وكتاب ما رواه الواعون في الطاعون للسيوطي فانظرهما.

(1) ـ «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر وفرّ من المجذوم فرارك من الأسد » [صحيح البخاري كتاب الطب] .

(2) ـ «لا عدوى ولا صفر ولا هامة فقال أعرابي : يا رسول الله فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء، فيجيء البعير الأجرب فيدخل فيها فيجربها كلها . قال : فمن أعدى الأول ؟» [رواه البخاري ومسلم] .

(3) ـ «لا يورد ممرض على مصح» [رواه مسلم] .

(4) ـ عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: كان في وفد ثقيف رجل مجذوم فأرسل إليه النبي إنا قد بايعناك » [رواه مسلم] .

(5) ـ وثبت عن جابر أن النبي أكل مع المجذوم في قصعة واحدة وقال له : «كل ثقة بالله وتوكلا عليه» .

وقد شرحتُ هذه الأحاديث شرحاً وافياً في كتبي : العدوى بين الطب وحديث المصطفى، وهل هناك طب نبوي، وما رواه الواعون في الطاعون للسيوطي [شرح وتحقيق] .

لا عدوى... أي بذاتها، ومع هذا لا بد أن تأخذ بالأسباب وتفرّ من المجذوم فرارك من الأسد، وفي ذكر الأسد إشارة لطيفة إلى الجذام الأسدي الجذامي Lepromatous Leprosi وهو معدي بل شديد العدوى والميكروبات المسبّبة للجذام موجودة بكثرة في أنف المجذوم، وفي المناطق المصابة . وهو على عكس الجذام الدرني Tuberculous Leprosy حيث ميكروبات الجذام قليلة جداً ولا يكاد يُعدى . وهذا ربما يفسر عدم مبايعته للمجذوم من وفد ثقيف لأنه مصاب بالجذام الجذامي الأسدي المعدي، وأكلِهِ مع المجذوم في قصعة واحدة. لأنه ربما كان مصاباً بالجذام غير المعدي أو قليل العدوى.

وقد أبدع ابن القيم[1]في تلخيص الموقف من هذه الأحاديث المتعارضة في ظاهرها، المتّفقة مع الحقيقة في باطنها وحقيقتها، فقال : «وعندي في الحديث مسلك آخر يتضمّن إثبات الأسباب والحكم، ونفى ما كانوا عليه من الشرك واعتقاد الباطل .. ووقوع النفي والإثبات على وجهه (أي لا عدوى.. وفرّ من المجذوم)، فإن العوام كانوا يثبتون العدوى على مذهبهم من الشرك الباطل، كما يقوله ... المنجّمون من تأثير الكواكب في هذا العالم سعودها ونحوسها. ولو قالوا : إنها أسباب أو أجزاء أسباب إذا شاء الله صرف مقتضياتها بمشيئته وإرادته وحكمته، وأنها مسخّرة بأمره لما خُلقت له، وأنها في ذلك بمنزلة سائر الأسباب التي ربط بها مسبباتها، وجعل لها أسباباً أخرى تعارضها وتمانعها، وتمنع اقتضاءها لما حصلت أسباباً له. وأنها لا تقضي مسبباتها إلا بإذنه ومشيئته وإرادته، وليس لها من ذاتها ضرٌّ ولا نفع ولا تأثير البتّة. إن هي إلا خَلْقٌ مسخر مربوب، لا تتحرك إلا بإذن خالقها ومشيئته، وغايتها أنها جزء سبب، وليست سبباً تامّاً، فسببيتها من جنس سبب وطء الوالد في حصول الولد؛ فإنه جزء واحد من أجزاء كثيرة من الأسباب يخلق الله بها الجنين . وكسببية شقّ الأرض وإلقاء البذر فإنه جزء يسير من جملة الأسباب التي يكوّن الله بها النبات. وهكذا جملة

(1)ابن القيم: مفتاح دار السعادة.

أسباب العالم من الغذاء والرواء، والعافية والسقم وغير ذلك. وأن الله جعل من ذلك سبباً لما شاء ويبطل السببية عمّا يشاء، ويخلق من الأسباب المعارضة له ما يحول بينه وبين مقتضاه. فهم لو أثبتوا العدوى على هذا الوجه لما أُنكر عليهم، كما أنّ ذلك ثابت من الداء والدواء، وقد تداوى النبي وأمر بالتداوي، وأخبر أنه ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء إلا الهرم. فأعلمنا أنه خالق أسباب الداء وأسباب الدواء المعارضة المقاومة لها . وأمرنا بدفع تلك الأسباب المكروهة.

«وعلى هذا قيام مصالح الدارين، بل الخلق والأمر مبني على هذه القاعدة، فإن تعطيل الأسباب وإخراجها عن أن تكون أسباباً تعطيل للشرع ومصالح الدنيا ... والاعتماد عليها والركون إليها واعتقاد أن المسبّبات بها وحدها، وأنها أسباب تامة شرك بالخالق وجهل به وخروج عن حقيقة التوحيد...

«والمقامات ثلاثة:

(أحدها): تجريد التوحيد وإثبات الأسباب . وهذا الذي جاءت به الشرائع، وهو مطابق للواقع في نفس الأمر.

(والثاني): الشرك في الأسباب بالمعبود كما هو حال المشركين على اختلاف أصنافهم.

(والثالث): إنكار الأسباب بالكلّية محافظة من منكرها على التوحيد.

«فالمنحرفون طرفان مذمومان : إما قادح في التوحيد بالأسباب، وإما منكر للأسباب بالتوحيد، والحقُّ غير ذلك. وهو إثبات التوحيد والأسباب، وربط أحدهما بالآخر . فالأسباب محلّ حكمه الديني والكوني، والحكمان عليها يجريان، بل عليها يترتب الأمر والنهي، والثواب والعقاب، ورضى الرب وسخطه، ولعنته وكرامته . والتوحيد تجريد الربوبية والإلهية عن كل شرك، فإنكار الأسباب إنكار الحكمة . والشرك بالأسباب قدح في توحيده، وإثباتها، والتعلّق به، والتوكّل عليه والخوف منه، والرجاء له وحده هو محض التوحيد . فهذا لون، وهذا لون والله الموفق للصواب». انتهى كلام ابن القيم.

وقد كان يأخذ بالأسباب في كل أموره، وقلبه معلّق تعلّقاً تامّاً بربِّه، ولا أحد من خلق الله يتوكل على الله حقّ توكله مثله حتى سمّاه المتوكّل. ومع ذلك فقد أعدَّ الزاد والراحلة والدليل (ابن أبي أريقط وهو خريت ماهر رغم أنه مشرك)... وغطّى على اختفائه في الغار، وجعل راعي أبي بكر يمر بأغنامه على الطريق الذي مشوا فيه إلى الغار، وظهرت عناية الله وألطافه التي كانت تحفُّ به طوال حياته. فقد خرج من بين أيدي قريش وحثا على رؤوسهم التراب، ولم يشعروا به. ونسجت العنكبوت على باب الغار واتخذ الحمام مدخله مسكناً له، وذلك كلّه من عناية الله وحمايته لنبيّه . قال تعالى : {إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *} [التوبة: 10] ومع ذلك كله لم يترك الأسباب الظاهرة . بل قام بها كلها مع تمام توكله واعتماده على ربه.

وقد أجمع علماء الإسلام الثقات أن الأخذ بالأسباب، مع معرفة أنها أسباب خلقها الله مربوبة مقهورة، لا ينافي التوحيد. لأن القلب معلّق بالله وحده فهو بيده النفع والضُّرُّ والخير والشرُّ، ولا يعتمد القلب إلا عليه سبحانه وحده. قال الحبيب عبدالله الحداد في رسالة المعاونة [1]:

«واعلم أن أصل التوكل على الله معرفة القلب بأن الأمور كلها بيد الله، ما ينفع منها وما يضرّ وما يسوء منها وما يسرّ، وأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على أن ينفعوه لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، وعلى أن يضرّوه بشيء لم يضرّوه إلا بشيء قد كتبه الله عليه ... ويشترط لصحة التوكل أن لا تعصي الله بسببه، وأن تجتنب ما نهاك عنه، وتفعل ما أمرك به معتمداً في جميع ذلك عليه، ومستعيناً به، ومفوضاً إليه. ولا يقدح في توكلك دخولك في شيء من الأسباب الدنيوية إذا كنت معتمداً على الله دونه (أي دون السبب)...

وقال : «كفى بالمرء إثماً أن يضيّع من يعول». واعلم أن الادخار والتداوي من الأمراض لا يقدحان في أصل توكّل من يعلم أن المغني والنافع والضارّ هو الله وحده. وقد ادّخرَ رسول الله لعياله لبيان الجواز. وأما هو، فما كان يدّخر لنفسه شيئاً إلى غد ... وقد سئل عن السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنّة بغير حساب من أمته فقال: «هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون».

«للمتوكل الصادق ثلاث علامات:

(الأولى): أن لا يرجو ولا يخاف إلا الله، وعلامة ذلك أن يصدع بالحقّ من يُرجى ويُخشى عادة من المخلوقين كالأمراء والسلاطين.

(والثانية): أن لا يدخل قلبه همَّ الرزق، ثقة بضمان الله، بحيث يكون سكون قلبه عند فقد ما يحتاج إليه كسكونه في حال وجوده وأشدّ.

(والثالثة): أن لا يضطرب قلبه في مظانّ الخوف، علماً منه أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه وما أصابه لم يكن ليخطئه» (انتهى كلام الحبيب عبدالله الحداد)

بين التوكل والتفويض:

قال الهروي في منازل السائرين : «والتفويض ألطف إشارة وأوسع معنى من التوكّل . والتوكّل بعد وقوع السبب. أما التفويض فإنه يكون قبل وقوع السبب وبعده . والتفويض هو عين الاستسلام.

أما ابن القيم الذي شرح كتاب الهروي في كتابه الرائع «مدارج السالكين »، فإنه لم يوافق الهروي في هذه النقطة، قال: «لو قال قائل : التوكّل فوق التفويض، وأجلّ منه وأرفع لكان معيباً ولهذا كان القرآن الكريم مملوءاً به (أي بالتوكّل) أمراً وإخباراً عن خاصّة الله وأوليائه وصفوة المؤمنين، وأمر الله به رسوله في مواضع عديدة من كتابه، وسمّاه المتوكل (كما في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص نقلاً عن التوراة). أما التفويض فلم يجيء من القرآن

(1)عبدالله الحداد: رسالة المعاونة والمظاهرة والموازرة، طبعة البابي الحلبي، القاهرة، ص 35، 36. وطبعة دار الحاوي ص 177 - 179.

الكريم إلا فيما حكاه الله عن مؤمن آل فرعون. وذلك قوله تعالى: {وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ} [غافر: 44].

إن اتخاذ المولى وكيلاً هو محض العبودية ... قال: «إن اتخاذ المولى وكيلاً هو محض العبودية، وخالص التوحيد إذا قام به صاحبه حقيقة، وهو بذلك أوسع من التفويض وأعلى وأرفع»[1].

وقال الهروي في منازل السائرين: «الثِّقة بالله هي سواد عين التوكل ونقطة دائرة التفويض» ثم ذكر مثال ذلك ما جاء في القرآن الكريم عن أم موسى حيث قال الله لها: {فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} [القصص: 7].

فألقته في اليم ثقة بربها ووعده الصادق.

قال ابن القيم: والمراد أن الثّقة (بالله) خلاصة التوكل ولُبُّه، كما أن سواد العين أشرف ما فيها.

كلام الغزالي في التوكل

وقال الغزالي: التوكُّلُ عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده[2].

التوكل في القرآن الكريم

وقد ورد التوكل في القرآن الكريم في مواطن كثيرة والتوكل على الله مطلوب في كل شؤون العبد التي يرومها، دنيوية كانت أم أخروية وفي مواطن الخوف والقلق وحين يُظلم الإنسان، وفي ميدان القتال وحين يحمّ القضاء.

والعبادة كلها تحتاج إلى توكل قال تعالى: {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *} [هود: 123] وإذا أردت أن يكون الله وكيلك في كل حال فتمسّك بالتوكّل {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً} [النساء: 81].

وإذا أردت أن تنال محبّة الله {فتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران:159].

وإذا أردت أن يكون الله لك وتكون لله خالصاً فعليك بالتوكل والتقوى قال تعالى: {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا *وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا *} [الطلاق: 2، 3].

---

(1)ابن القيم: مدارج السالكين ج145/2.

(2)الغزالي: إحياء علوم الدين ج259/2.

وقد قال الله لنبيه ومصطفاه محمد ولأمته من بعده، لأنه قدوتهم وإمامهم، {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّ لِينَ} [آل عمران: 159] وقال له: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ *} [النمل: 79] وقال له: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا *} [الفرقان: 58] .

وإذا خشيت كيد الشيطان وأعوانه من الإنس والجن فتوكّل على الله قال تعالى: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *} [النحل: 99] {...وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً *} [النساء: 81] وذلك في كل حال وآن.

وقال عن رسوله: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ *} [التوبة: 128، 129] .

وإن تلوت القرآن فاستند على التوكل {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: 2] وإذا هدّدوك فقل {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَ نَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *} [التوبة: 51] فإن أرادوا سلماً فعليك بالتوكل حتى لا يخدعوك. قال تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ *} [الأنفال: 61، 62] .

وكن كما كان نوح من قبل في قومه بعد أن أصرّوا على الكفر والكيد له قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَ انَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ *فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ *} [يونس: 71، 72] .

وفي كل الأحوال: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا *} [الفرقان: 58] .

والصبر مقرون بالتوكّل قال تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *} [النحل: 41، 42] .

وإذا أردت الرزق فتوكل على الله فقد قال رسول الله: «لو أنكم توكلتم على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو (أي تذهب أول النهار) خماصاً وتروح (أي ترجع آخره) بطاناً (أي شبعانة)» . [أخرجه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه وأحمد] .

والحديث لا يعني التواكل بل الطير تغدو وتسعى بحثاً عن رزقها فيرزقها الله سبحانه وتعالى بفضله وكرمه، فتعود آخر النهار وقد شبعت، ومعها ما يفيض لصغارها.

وقال تعالى عن الرسول محمد وأتباعه بعد أن انهزموا في معركة أُحد بسبب مخالفتهم لأوامر الرسول، وأصابتهم الجراح «فخرجوا مرة ثانية بجراحهم وآلامهم لملاقاة قريش بعد أن سمعوا أن أبا سفيان يريد العودة لاستئصالهم قال تعالى عنهم: {يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ

وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ *الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ *الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ *فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ *} [آل عمران: 171 - 174] .

مقام المحبَّة

قال ابن القيم في مدارج السالكين : (المحبّة) [1]

«ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة المحبَّة، وهي المنزلة التي يتنافس فيها المتنافسون وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمّر السابقون . وبروح نسيمها تروّح العابدون، فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح وقرة العيون . وهي الحياة التي من حُرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلما ت، والشفاء الذي من عدمه حلَّت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام . وهي روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه.

(والمحبَّة) تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا بالغيها إلاّ بشقِّ الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا أبداً واصليها، وتبوِّؤهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها، وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائماً إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلّغهم إلى منازلهم الأولى من قريب. تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة إذ لهم من معيّة محبوبهم أوفر نصيب. وقد قضى، يوم مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة، أن المرء مع من أحبّ. فيا لها من نعمة على المحبّين سابغة.

تالله لقد سبق القوم السُعاة، وهم على ظهور الفرش نائمون، وقد تقدّموا الركب بمراحل وهم في سيرهم واقفون [2]:

من لي بمثل سيرك المدلّل تمشي رويداً وتجيء في الأول

أجابوا منادي الشوق إذ نادى بهم: حيّ على الفلاح. وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم، وكان بذلهم بالرضى والسماح، وواصلوا إليه المسير بالأدلاج، والغدو والرواح . تالله لقد حمدوا عند الوصول سُراهم، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم، وإنما يحمد القوم السُّرى عند الصباح».

ثم قال: لما كثر المدّعون للمحبَّة طولبوا بإقامة البيّنة على صحة الدعوى. فلو يُعطى الناس بدعواهم لادّعى الخليُّ حُرقة الشجيّ، فتنوع المدّعون في الشهود فقيل لا تقبل هذه الدعوى إلا ببيّنة {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } [آل عمران: 31] فتأخَّر الخلقُ كلّهم وثبت أتباع الحبيب (أي رسول الله) في أفعاله وأقواله وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البيّنة بتزكية {يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُو نَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ } [المائدة: 54] فتأخر أكثر المحبّين وقام المجاهدون فقيل لهم إن نفوس المحبّين وأموالهم ليست لهم فهلمّوا إلى بيعة {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ} [التوبة: 111] .

---

(1)ابن القيم: مدارج السالكين ج3/6 - 42.

(2)لا يقصد أبداً أنهم لم يبذلوا جهدهم في العبادة، فقد بذلوها، ولكن القليل من المحبّ كثير، وهو سريع الوصول. ولا بد من المحبّة لله سبحانه ولرسوله وإلا فلا فائ دة أصلاً من أي عمل قال تعالى : {إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } [آل عمران: 31] فمن لم يتبع الرسول فليس له محبّة صادقة، وإنما هي دعاوى..

فلما عرفو ا عظمة المشترى، وفضل الثمن، وجلالة من جرى على يديه عقد التبايع : عرفوا قدر السلعة، وأن لها شأناً، فرأوا من أعظم الغَبْن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس . فعقدوا بيعة الرضوان بالتراضي، من غير ثبوت خيار، وقالوا: «والله لا نقيلك ولا نستقيلك».

فلما تمّ العقد وسلّموا المبيع قيل لهم: قد صارت نفوسكم وأموالكم لنا رددناها عليكم أوفر ما كانت، وأضعافها معها {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} [آل عمران: 169، 170] .

إذا غُرست شجرة المحبَّة في القلب وسقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار، وآتت أُكلها كل حين بإذن ربِّها، أصلها ثابت في قرار القلب، وفرعها متصل بسدرة المنتهى.

لا يزال سعي المُحبِّ صاعداً إلى حبيبه لا يحجبه دونه شيء {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: 10] .

مادة المحبة وحدودها:

لا تحدّ المحبَّة بحدٍّ أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء . فحدّها وجودها، ولا توصف المحبّة بوصف أظهر من «المحبَّة».

وإنما يتكلّم الناس في أسبابها وموجب اتها، وعلاماتها وشواهدها، وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسوم دارت على هذه الستّة، وتنوّعتْ بهم العبارات وكثرت الإشارات، بحسب إدراك الشخص ومقامه وحاله، وملكه للعبارة.

وهذه المادة (أي المحبَّة) تدور في اللغة على خمسة أشياء:

(أحدها): الصفاء والبياض، ومنه قولهم لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حَبَبُ الأسنان.

(الثاني): العلو والظهور، ومنه حَبَب الماء وحبابه، وهو ما يعلوه عند المطر الشديد، وحبَبَ الكأس منه.

(الثالث): اللزوم والثبات، ومنه حبَّ البعير وأحبَّ، إذا برك ولم يقم.

(الرابع): اللبّ: ومنه حبّة القلب للُبِّه وداخله.

(الخامس): الحفظ والإمساك: ومنه حِبُّ الماء للوعاء الذي يحفظ فيه ويمسكه، وفيه معنى الثبوت أيضاً.

ولا ريب أن هذه الخمسة من لوازم المحبَّة، فإنها صفاء المودّة، وهيجان إرادات القلق للمحبوب، وعلوّها وظهورها منه لتعلّقها بالمحبوب المراد، وثبوت إرادة القلب ل لمحبوب، ولزومها لزوماً لا تفارقه، ولإعطاء المُحِبُّ محبوبَهُ لُبَّه وأشرف ما عنده، وهو قلبه، ولاجتماع عزماته وإراداته وهمومه على محبوبه.

فاجتمعت فيها المعاني الخمسة، ووضعوا لمعناها حرفين مناسبين للمسمّى غاية المناسبة «الحاء» التي هي من أقصى الحلق، و«الباء» الشفوية التي هي نهايته، فللحاء الابتداء وللباء الانتهاء. وهذا شأن المحبّة وتعلّقها بالمحبوب...

ثم اقتصروا على اسم الفاعل من «أحبّ» فقالوا: «مُحِبّ» ولم يقولوا «حابٌّ» واقتصروا على اسم المفعول من «حبّ» فقالوا «محبوب» ولم يقولوا «مُحِبٌّ» إلا قليلاً.. وأعطوا «الحُبَّ» حركة الضم التي هي أشدّ الحركات وأقواها ... وأعطوا «الحِبَّ» وهو المحبوب حركة الكسر لخفّتها عن الضمّة، وخفّة المحبوب، وخفّة ذكره على قلوبهم وألسنتهم ... فتأمل هذا اللطف والمطابقة والمناسبة العجيبة بين الألفاظ والمعاني، تُطلعك على قدرة هذه اللغة، وأن لها شأناً ليس لسائر اللغات.

تعريفات للمحبَّة:

ذكر ابن القيم ثلاثين تعريفاً للمحبّة قالها رجال معروفون بالصدق والمحبّة . منها قولهم : «المحبّة أن يكون كلك بالمحبوب مشغولاً وذُلُّك له مبذولاً ». ومنها : «المحبّة نار في القلب تحرق ما سوى مراد المحبوب » ومنها : «ميلك للشيء بكلّيتك ثُمَّ إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ثم موافقتك له سِرًّا وجهراً، ثم علمك بتقصيرك في حبّه».

ومنها: «المحبَّة الميل الدائم بالقلب الهائم».

ومنها: «موافقة الحبيب في المشهد والمغيب».

ومنها: «محو المُحبِّ لصفاته، وإثبات المحبوب لذاته».

ومنها: «مواطأة القلب لمرادات المحبوب».

ومنها: «استكثار القليل من جنايتك، واستقلال الكثير من طاعتك».

ومنها: «معانقة الطاعة ومباينة المخالفة».

ومنها: «أن تمحو من القلب ما سوى المحبوب».

ومنها: «توحيد المحبوب بخالص الإرادة وصدق الطلب».

ومنها: «سقوط كلُّ محبَّة من القلب إلا محبَّة الحبيب».

ومنها: «أن لا يُؤثر على المحبوب غيره، وأن لا يتولى أمورك غيره».

ومنها: «المحبّة سفر القلب في طلب المحبوب، ولهج اللسان بذكره على الدوام».

ومنها: «المحبّة بذل المجهود وترك الاعتراض على المحبوب».

واختار ابن القيم قول الجنيد : «عبد ذاهبٌ عن نفسه، متّصلٌ بذكر ربّه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرقت قلبه أنوار هيبته، وصفا شِربهُ من كأس ودِّه، وانكشف له الجبَّار من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرّك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله . فهو بالله ولله ومع الله».

وفي هذا منه إشارة إلى حديث الولي الذي أفردنا له فصلاً كاملاً لأهميته . قال الله في الحديث القدسي: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ من أداء ما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذ بي لأعيذنّه» [أخرجه البخاري] فللّه من كلام نفيس . وقد صدق ابن القيم في اختيار هذا القول للجنيد على الأقوال الأخرى باعتباره أكملها. وكلاهما له حِسٌّ مرهف وقلب مفعم بالحبّ، وعلم ومعرفة بالله تمنعه وتحجزه عن الشطط.

وذكر ابن القيم الأسباب الجالبة للمحبَّة والموجبة لها: وقال أنها عشرة:

(أحدها): قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به.

(الثاني): التقرّب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبَّة.

(الثالث): دوام ذكره (أي الله سبحانه وتعالى) باللسان والقلب، والعمل والحال، فنصيبه من المحبّة على قدر نصيبه من الذكر.

(الرابع): إيثار محابِّه على محابّك عند غلبات الهوى، والتسنّم إلى محابّه . وإن صعب المرتقى.

(الخامس): مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلّبه في رياض هذه المعرفة ومباديها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبَّه لا محالة.

(السادس): مشاهدة برِّهِ وإحسانه والآئه، ونِعَمهُ الباطنة والظاهرة.

(السابع): انكسار القلب بكلّيته بين يدي الله تعالى. وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

(الثامن): الخُلوة به وقت النزول الإلهي (في الثلث الأخير من الليل) لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب، والتأدب بأدب العبودية بين يديه. ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

(التاسع): مجالسة الصالحين والمحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم.

(العاشر): البعد عن كل سبب يحول بين القلب وبين الله .

«فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبّون إلى منازل المحبّة، ودخلوا على الحبيب . وملاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة». انتهى.

والمحبّة متبادلة بين العبد والربّ (يحبهم ويحبونه):

ومحبّة العبد لربه فوق كل محبّة في حياة العبد، ولا نسبة لسائر المحاب إليها وهي حقيقة «لا إله إلا الله». ومحبّة الربِّ للعبد (لرسله وأنبيائه وأولائه) صفة زائدة على رحمته وإحسانه وعطائه، فإنه لمّا أحبّهم كان نصيبهم من رحمته وإحسانه وبرِّه أتمّ نصيب.

والمشركون جعلوا لله أنداداً يحبّونهم كحبِّ الله قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ *} [البقرة: 165] .

وهي آية شديدة لو تفكّر فيها الإنسان . فهؤلاء المشركون اتخذوا أنداداً يحبونهم كحبّ الله ومع ذلك فقد جعلهم الله من حزب الشيطان وفي أسفل سافلين وقال في نفس الآية عنهم : {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ *إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ *} [البقرة: 165، 166] . واعتبرهم من الظالمين إذ يسوون أندادهم بالله سبحانه وتعالى فكانت عاقبتهم هم وأندادهم نار جهنم وما هم بخارجين من النار.

وللأسف نحن في زماننا هذا قد اختلطت علينا الأمور فأكثر الناس يحبّون أندادهم وشهواتهم وشياطينهم من الأنس والجن حبّاً لا يترك لهم من أمرهم شيئا، فحبّهم كله لغير الله!! وهو موقف عسير فإذا كان أولئك الذين يحبّون الله، ويحبّون معه أنداداً أ خرى يُرمون في جهنم خالدين فيها أبداً، فكيف بهؤلاء الذين لا يذكرون الله إلا قليلاً، وليس لهم من محبّة الله ومعيته نصيب.

شروط المحبة

ولا تتم محبّة الله إلا بأن تكون المحبّة لله وحده وأن يتم بيع النفوس كاملة له قال تعالى : {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِ نِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْ تَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *} [التوبة: 111] .

وما هي صفات هؤلاء الذين باعوا أنفسهم لله وقالوا ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل؟ إنهم : {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِ رُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ *} [التوبة: 112] .

واشترط عليهم شروطاً لم يوفها إلا القليل من كل أمة وجيل قال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْ رِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ *} [التوبة: 24] .

وهي آية شديدة جداً كما قال الزمخشري في تفسيره «الكشاف» ولا يقوم بها إلا من وفقه الله وسدّده. وهم قليل في كل زمان ومكان، وكانوا أكثر ما كانوا مع رسول الله . تم بانتهاء جيل الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، وهم الثلاثة قرون التي شهد لها رسول الله بالخيرية، قلّت أعدادهم، ومع ذلك فهم موجودون في كل زمان ومكان، مهما ادلهمت الخطوب، وكثرت المحن، واشرأبت الأعناق والقلوب إلى الفتن . وسيزدادون قرب مجيء المهدي وعيسى . وزمان المهدي وعيسى هو من خير الأزمنة بعد زمن رسول الله لكثرة أنصار الحق والخير وصدْقِ جهادهم ومحبّتهم لله، فيستحقّون نزول عيسى ، وقتل الدجال

وأتباعه. وأكثر أتباعه اليهود كما ذكر ذلك رسول الله ، وهو ذاته يهودي أعور ممسوح العين، وعينه كأنها عنبة طافية، وهو شاب قطط، جعد الشعر، يجعل الله له خوارق فتنة للناس، بل هو أشدُّ الفتن على الإطلاق وقد حذَّر منه الأنبياء منذ زمن نوح إلى زمن محمد .

والرسول الكريم هو الذي أوضح لنا صفاته النفسيّة والبدنيّة وألآعيبه الشيطانيَّة، وأمرنا بأن نقرأ عليه عند مواجهته فواتح سورة الكهف وخواتيمها . ويتبعه سبعون ألفاً من ذوي الطيالسة اليهود.. وأكثر أتباعه النساء أيضاً لقلة عقولهن وسرعة استهوائهن . وما نراه من استغواء المرأة في كل مكان، وإخراجها من بيتها وأسرتها إلى الشوارع، وإلى فقدان كل سند لها، وإلى أن تبحث عن لقمة العيش بأي ثمن، ولو كان عرض جسدها في الإعلانات أو في المواخير أو في أساليب الدعارة الخفيّة باسم الفن، والظاهرة باسم العفن، وكل هذا دافعٌ للمرأة لتكون من أتباع الدجال.. واليهود يعملون على ذلك بكل كيدهم وخسّتهم ولؤمهم وحقارتهم . وقد نجحوا في ذلك إلى حدٍّ كبير ولكن نهايتهم قريبة بإذن الله تعالى.

قال ابن القيم وهو يعلّق (1) على قوله تعالى: «{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ } [البقرة: 165] : فأخبر (سبحانه) أن من أحبَّ من دون الله شيئاً، كما يحبُّ الله تعالى، فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً، فهذا ندٌّ في المحبة، لا في الخلق والربوبية... وإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم . ثم قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ}. وفي تقدير الآية قولان: (أحدهما) أن الذين آمنوا أشدُّ حبّاً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها ويعظمونها من دون الله. و (الثاني) : أن الذين آمنوا أشدُّ حبّاً لله من محبّة المشركين بالأنداد لِلَّهِ فإن محبَّة المؤمنين خالصة، ومحبّة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها»...

ثم قال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران: 31] وهي تُسمّى آية المحبّة . قال أبو سليمان الداراني : لما ادَّعت القلوب محبَّة الله أنزل الله لها محنة (أي امتحاناً) وهي قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}.

وقال: {يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}، إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها . فدليلها وعلامتها : أتباع الرسول. وفائدتها وثمرتها : محبّة المُرسِل لكم . فما لم تحصل المتابعة فليست محبتكم له حاصلة ومحبته لكم منتفية».

علامات المحبين

وقال تعالى : {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ *} [المائدة: 54] .

فقد ذكر لهم أربع علامات: (أحدها) أنهم أذلّة قيل معناه: أرقاء (من الرقَّة)، رحمة مشفقين عليهم، عاطفين عليهم، و (الثانية) أنهم أشداء على الكافرين كشدة الأسد على فريسته، و (الثالثة) : الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد واللسان والمال. وذلك تحقيق دعوى المحبّة، و

(1)ابن القيم: مدارج السالكين ج20/3 - 22.

(الرابعة) : أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم . وهذا علامة صحة المحبّة، فكل مُحبٍّ يأخذه اللوم عن محبوبه فليس بمحبٍّ على الحقيقة.

المقامات الثلاثة في قوله تعالى : {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا *} [الإسراء: 57] فذكر المقامات الثلاثة: الحبُّ وهو ابتغاء القرب إليه، والتوسّل إليه بالأعمال الصالحة، والرجاء، والخوف.

وقال تعالى: {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [الأنعام: 52] فهؤلاء الذين يريدون وجه الله هم من أحبابه، ولذا فلا تسمع لكبراء القوم الذين طلبوا منك (أي رسول الله) أن تجعل لهم يوماً خاصاً بهم ليسمعوا منك ولا يختلطوا بالفقراء والعبيد والمساكين، فهم في اعتبارهم من حثالة القوم، ولا ينبغي لهم وهم الكبراء أن يجلسوا معهم . فأبى الله سبحانه وتعالى عليه ذلك بل حثّه في أكثر من آية على أن يحتفي بهم أيما احتفاء، كما احتفى بابن أم مكتوم الأعمى الذي كان يقول فيه رسول الله : «أهلاً بمن عاتبني فيه ربي» ، ويكرّمه ويقرّبه من مجلسه وقال الله سبحانه وتعالى لنساء النبي : {وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا *} [الأحزاب: 29] فجعل إرادته غير إرادة الآخرة وهذه الإرادة موجبة للذة النظر إليه في الآخرة . وكان رسول الله يدعو فيقول : «اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحقّ في الغضب والرضى. وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفد، وأسألك قُرَّة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك. وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضرّاء مضرّة، ولا فتنة مضلّة. اللهمّ زيِّنا بالإيمان، واجعلنا هداة مهتدين» [أخرجه ابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك] ، واستدل به ابن القيم على ثبوت لذة النظر إلى وجه الله تعالى وعلى ثبوت الشوق إلى لقائه وهو من علامات المحبّة.

وفي الصحيح عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله : «ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرء لا يحبّه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر، بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار» .

وفي جامع الترمذي عن أبي الدرداء عن النبي قال : «كان من دعاء داود : «اللهم إني أسألك حُبَّك وحُبَّ من يحبك، والعمل الذي يبلّغني حبّك اللهم اجعل حبّك أحبّ إليَّ من نفسي وأهلي ومن الماء البارد»».

وفي الترمذي أيضاً عن عبدالله بن يزيد الخطمي أن النبي كان يقول في دعائه : «اللهم ارزقني حبّك، وحبّ من ينفعني حبّه عندك . اللهم ما رزقتني مما أحبُّ فاجعله قوّة لي فيما تحبّ، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغاً فيما تحبّ» .

والقرآن والسنَّة مملوآن بذكر من يحبّه الله تعالى من عبادة المؤمنين كقوله تعالى : {وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ } [آل عمران : 146] {وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [آل عمران : 134] وقوله

تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: 222] وقوله تعالى : {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ *} [الصف : 4] وقوله تعالى : {فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [آل عمران: 76، والتوبة: 5، 8] .

وهو بضد ذلك {لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ } [البقرة : 205] و{اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ }] [لقمان: 18] {وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران: 57، 140] .

وفي السنّة حديث الولي وقد تقدم مراراً. ومناداة الله تعالى لجبريل أن الله يحب فلاناً فأحبّه. عن أبي هريرة ، عن النبي قال : «إذا أحبّ الله تعالى العبد نادى جبريل إن الله يحب فلاناً فأحببه، فيحبّه جبريل فينادي في أهل السماء أن الله يحبُّ فلاناً فأحبوه فيحبّه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض» متفق عليه [البخاري ومسلم] .

وعن عائشة أن رسول الله بعث رجلاً على سرَيّة فكان يقرأ لأصحابه فيختم بـ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ *} فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله فقال: «سَلُوه لأي شيء يصنع ذلك ؟ فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن فأنا أحبُّ أن أقرأ بها فقال : «أخبروه أن الله تعالى يحبه» متفق عليه.

وفي السّنّة «أحب الأعمال إلى الله: الصلاة على أول وقتها، ثم برّ الوالدين ثم الجهاد في سبيل الله» و«أحب الأعمال إلى الله : الإيمان بالله ثم الجهاد في سبيل الله ثم حج مبرور » و«أحب العمل إلى الله: ما داوم عليه صاحبه» .

قال ابن القيم [1]: فلو بطلت مسألة المحبَّة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطل منازل السير إلى الله، فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام، فإنه الاستسلام بالذلّ والحبِّ والطاعة لله . فمن لا محبَّة له لا إسلام له البتّة، بل هي حقيقة «شهادة أن لا إله إلا الله» فإن الإله هو الذي يألهه العباد حُبّاً وذُلاًّ، وخوفاً ورجاء، وتعظيماً وطاعة له. بمعنى «مألوه» وهو الذي تألهه القلوب أي تحبّه وتذل له. وأصل «التأله» التعبد. والتعبد آخر مراحل الحب . يقال: عبّده الحب وتيّمه إذا ملكه وذلّله لمحبوبه . فالمحبة حقيقة العبودية. وهل تمكن الإنابة بدون المحبّة والرضى والحمد والشكر، والخوف والرجاء؟ وهل الصبر في الحقيقة إلا صبر المحبّين؟ فإنه إنما يُتوكّلُ على المحبوب في حصول محابّه ومراضيه.

وكذلك «الزهد» في الحقيقة هو زهد المحبين فإنهم يزهدون في محبة ما سوى محبوبهم وكذلك «الحياء» في الحقيقة إنما هو حياء المحبّين، فإنه يتولد من بين الحبّ والتعظيم...

وكذلك مقام الفقر، فإنه في الحقيقة فقر الأرواح إلى محبوبها، وهو أعلى أنواع الفقر، فإنه لا فقر أتمّ من فقر القلب إلى من يحبه، لا سيما إذا وحّده في الحب، ولم يجد منه عوضاً سواه. حقيقة الفقر عند العارفين:

حقيقة الفقر عند العارفين

(1)ابن القيم: مدارج السالكين ج26/3، 27.

وكذلك «الغنى» هو غنى القلب بحصول محبوبه. وكذلك «الشوق » إلى الله تعالى ولقائه، فإنه لبُّ المحبين وسرّها. فمنكر هذه المسألة ومعطلها من القلوب، معطّلٌ لذلك كله وحجابه أكثف الحجب، وقلبه أقسى القلوب وأبعدها عن الله. وهو منكر لخلّة إبراهيم ، فإن الخلة كمال المحبة» انتهى. ورسول الله «لولا أنه خليل الرحمن لاتخذ أبا بكر خليلاً» .

وقال الهروي [1]: «والمحبة أول أودية الفناء، والعقبة التي ينحدر منها على منازل المحو . وهي آخر منزل تلتقي فيه مقدمة العامة وساقة الخاصة».

قال ابن القيم: «إنما كانت المحبَّة أول أودية الفناء لأنها تفني خواطر المحبِّ عن التعلق بالغير وأول ما يفنى من المحبّ خواطره المتعلّقة بما سوى محبوبه، لأنه إذا انجذب قلبه بكليّته إلى محبوبه انجذبت خواطره تبعاً».

ويريد بمنازل المحو «مقاماته»: و (أولها) : محو الأفعال في فعل الحقّ تعالى فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلاً، و (الثاني) : محو الصفات التي في العبد، فيراها عاريَّة أعيرها، وهِبة وهُبها، ليستدلّ بها على بارئه وخاطره، وعلى وحدانيته وصفاته، فيعلم بواسطة حياته معن ى حياة ربّه وبواسطة علمه وقدرته وإرادته، وسمعه وبصره، وكلامه وغضبه ورضاه، معنى علم ربّه وقدرته وإرادته، وسمعه وبصره، وكلامه، وغضبه ورضاه. ولولا هذه الصفات فيه لما عرفها من ربّه. وهذا أحد التأويلات في الأثر الإسرائيلي «اعرف نفسك تعرف ربك»[2] . وهذه الصفات فـي الحقيقة أثر الصفات الإلهية فيه، فإنها أثر أفعال الحقّ، وأفعاله موجب صفاته وأسمائه. فإذاً عاد الأمر كله إلى أفعاله، وعادت أفعاله إلى صفاته.

«ففي هذه المنزلة يمحو العبد شهود صفاته ووجودها الذي ليس بحقيقي . ويثبت شهود صفات المعبود ووجودها الحقيقي. فالله سبحانه منح العبد هذه الصفات ليعرفه بها ويستدل بها عليه، فإن لم يفعلها عطَّل عليه طريق المعرفة والاستدلال بها، فصارت بمنزلة العدم ولهذا يوصف الغافل عن الله بالصمم والبكم والعمى والموت، وعدم العقل.

و (الثالث) : محو الذات: وهو شهود تفرّد الحقّ تعالى بالوجود أزلاً وأبداً. وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء . ووجود كلُّ ما سواه قائم به وأثر صنعه، فوجوده هو الوجود الواجب الحقّ، الثابت لنفسه أزلاً وأمداً، وأنه المتفرّد بذلك.

وهذا المحو يصحُّ باعتبارين (أحدهما) : اعتبار الوجود الذاتي. ولا ريب في إثبا ت محوه بهذا الاعتبار إذ ليس مع الله موجود بذاته سواه. وكل ما سواه فموجود بإيجاده سبحانه.

(الاعتبار الثاني) : المحو في المشهد. فلا يشهد فاعلاً غير الحقِّ سبحانه، ولا صفات غير صفاته، ولا موجوداً سواه، لغيبته بكمال شهوده عن شهود غيره وما أحسن ما قاله ابن القي م في تفسير الفناء.

---

(1)الهروي: منازل السائرين الذي شرحه ابن القيم في كتابه: مدارج السالكين، انظر المدارج ج3/3 .

(2)وهو مذكور أيضاً عن الفلاسفة.

الحبيب عبدالله الحداد يشرح المحبَّة [1]:

قال: «وعليك بالحبّ في الله حتى يصير سبحانه أحبّ إليك مما سواه، بل حتى لا يصير لك محبوب إلا إياه. وسبب وجود الحبّ من جهة المحبوب إما وجود كمال فيه أو حصول نوال منه، فإن كنت ممن يحبّ لأجل الكمال فالكمال والجمال والجلال لله وحده، لا شريك له في شيء من ذلك... وما يلوح على صفحات بعض الموجودات من معنى كمال، ويبدو عليها من رونق جمال فهو المكمّل والمجمّل سبحانه، بل هو الموجه لها والمخترع . ولولا أنه أنعم عليها بالإيجاد لكانت مفقودة معدومة، ولولا ما أفاض من صنعة لكانت قبيحة مشؤومة.

«وإن كنت ممن يحبّ لأجل النوال، فلست ترى إحساناً، ولا تشاهد امتناناً، ولا ترى إكراماً، ولا تبصر إنعاماً عليك، وعلى سائر الخلق، إلا والله تعالى هو المتفضل بجميع ذلك بمحض الجود والكرم . فكم من خير قد أسداه إليك، وكم من نعمة قد أنعم بها عليك؟ فهو سيّدك ومولاك الذي خلقك وهداك، والذي له مماتك ومحياك، والذي أطعمك وسقاك وكفاك وربَّاك، وأسكنك وآواك، يرى القبيح منك فيستره، وتستغفره منه فيغفره، ويقذف تعظيمك وحبّك في القلوب، وتعصيه بنعمته، فلا يمنعه وجود العصيان عن إفاضته الإحسان . فكيف ينبغي لك أن تحبّ غير الرحيم، هذا الإله الكريم؟ أم كيف يحسن منك أن تعصي هذا الرب الرحيم؟

واعلم أن أصل المحبّة المعرفة، وثمراتها المشاهدة وأدنى درجاتها أن يكون حبّ الله هو الغالب على قلبك، ومحكّ الصدق في ذلك أن لا تجيب أحب الخلق إليك إذا دعا إلى ما يكون سخط الله في فعله كالمعاصي، أو في تركه كالطاعات. وأعلى درجاتها أن لا يصير في قلبك حب غير الله البتّة، وهذا عزيز، ودوامه أعزّ منه، وعند دوامه تضمحلّ البشرية بالكليّة وعنه ينشأ الاستغراق بالله الذي لا يبقى معه شعور بالوجود وأهله بحال [2].

(واعلم) أن محبَّة رسول الله ، وسائر أنبيائه، وملائكته، وعباده الصالحين، وما يعين على طاعته، كل ذلك من محبّته (سبحانه وتعالى). وقال : «أحبّوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبّوني بحبّ الله وأحبّوا أهل بيتي بحبّي» .

وفي الحديث القدسي: «وجبت محبّتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ والمتباذلين فيّ. وللمحبّة الصادقة علامات أجلّها وأعلاها كمال المتابعة لرسول الله في أقواله وأفعاله وأخلاقه. قال الله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } [آل عمران: 31] . وبحسب المحبّة لله تكون المتابعة لحبيب الله، إن كثيراً فكثير، وإن قليل فقليل، والله على ما نقول وكيل» (انتهى كلام الحداد).

(1)عبدالله الحداد: رسالة المعاونة طبعة البابي الحلبي ص36 - 38. وطبعة دار الحاوي ص 181 - 183 وقد ذكر الحبيب علوي بن طاهر الحداد في كتاب ه «عقود الألماس » حديث الولي واستطرد منه إلى المحبة وإلى ذكر المتحابيّن في الله والأحاديث الكثيرة الواردة في صفاتهم. انظر عقود الألماس ج31/1 - 33، مطبعة المدني، القاهرة 1968 ط2.

(2)هذا الكلام مطابق لكلام ابن القيم السابق وذكره للفناء بسبب المحبّة . وقد صدقا كلاهما، وقد تميز ابن القيم بحلاوة الأسلوب وعمق العرض، وتميز الحداد بالاختصار والإيجاز ومخاطبة العامة بما تستطيع أن تفهمه بمداركها البسيطة.

وقد أورد الإمام النووي في رياض الصالحين وغيره ما يؤكد وجوب طاعة الرسول ومحبته قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر: 7] .

وقال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ } [الأحزاب: 21] .

وقال تعالى: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا *} [النساء: 65] وقال تعالى: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} [النساء: 80] ، وقال تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » صِرَاطِ اللَّهِ} [الشورى: 52، 53] .

وقال : «كل أمتي يدخلون الجنَّة إلا من أبى » قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال : «من أطاعني دخل الجنَّة ومن عصاني فقد أبى» [رواه البخاري عن أبي هريرة] .

وقال : «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذبّهن عنها، وأنا آخذ بحُجزكُمْ عن النار، وأنتم تفلتون من يدي» [رواه مسلم عن جابر بن عبدالله] .

ولا شك أن محبَّة الله ورسوله مرتبطتان ارتباطاً تاماً وسبق الإشارة إلى قوله تعالى : {إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران: 31] .

وقد قال : «لا يؤمن العبد حتى أكون أحبّ إليه من أهله وماله والناس أجمعين» .

وفي حديث آخر قال عمر بن الخطاب لرسول الله : «أنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي».

فقال الرسول : «لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك » فقال عمر : «أنت أحب إليَّ من نفسي قال: الآن يا عمر » أي الآن كمل إيمانك.

وفي حديث آخر: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما» .

وقد أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بمحبة بعضهم لبعض وصفة المؤمنين أنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم قال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَ مَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح: 29] .

وقال تعالى : {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ *} [المائدة: 54] .

فصفتهم الإيمان ومحبة أخوتهم المؤمنين لدرجة أن يكونوا أذلاء على المؤمنين، أعزّة على الكافرين. فهم رحماء بينهم أشداء على الكفار (عكس ما نراه اليوم بين المسلمين، فهم أشداء على أخوتهم المسلمين وأذلاء مع الكفار من شتى الأنواع، من يهود وصليبيين).

وقد قال : «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» [رواه مسلم] .

وقال عن الأنصار: «لا يحبّهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق. من أحبَّهم أحبّه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله» [متفق عليه] .

وقال : «المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء » [رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح] .

وقال : «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلّي يوم لا ظل إلا ظلي» [رواه مسلم] .

وفي حديث السبعة الذين يظلّهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ذكر منهم : «رجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه» [متفق عليه] .

وعن أبي هريرة أن النبي قا ل: «أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى فأرصد الله على مدرجته ملكاً» وذكر الحديث إلى قوله: «إن الله قد أحبّك كما أحببته فيه » [رواه مسلم] ، وقد زاره لمحبته في الله فقط، لا لمال أو غرض دنيوي.

عن معاذ بن جبل قال سمعت رسول الله يقول : «وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتزاورين فيّ والمتباذلين فيّ » [رواه مالك في الموطأ بإسناد صحيح] ... وعن أنس أن رجلاً كان عند النبي فمر رجل فقال يا رسول الله إني لأحب هذا فقال له النبي : «أأعلمته؟» قال: لا قال: «فأعلمه» فلحقه فقال: «إني أحبّك في الله» فقال: «أحبّك الله الذي أحببتني فيه » [رواه أبو داود بإسناد صحيح] .

مقام الرضا

التعريفات

الرضا عن الله من أعلى المقامات، وهو متبادل رضا العبد عن الربّ، ورضا الربّ عن العبد. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ *جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ *} [البيّنة: 7، 8] . قال الراغب الأصفهاني (1) : «رضا العبد عن الله أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد هو أن يراه مؤتمراً بأمره ومنتهياً عن نهيه».

وفي الصحاح للجوهري (2): « الرِّضوان» (بكسر الراء وضمها): الرضا، والرضوان : الرضا الكثير، ولما كان أعظم الرضا رضا الله سبحانه، خُصَّ لفظ الرضوان في القرآن بما كان من الله قال سبحانه: {يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً} [الفتح: 29] ، وقال عزّ من قائل: {يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ} [التوبة: 21] .

وقال تعالى : {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ *} [آل عمران: 15] .

---

(1)الراغب الأصفهاني: مفردات القرآن ص197.

(2)الجوهري: الصحاح/2353.

وقال تعالى: {أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِي رُ *} [آل عمران: 162] .

وقال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ *يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ *خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ *} [التوبة: 20 - 22] .

وقال عزّ من قائل: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *} [التوبة: 72] .

وقال تعالى: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِ رَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ *} [الحديد: 20] ورضوان اسم للملك على باب الجنة.

الرضا في الاصطلاح:

«هو سرور القلب بمرِّ القضاء. وقيل: «الرضا ارتفاع الجزع في أي حكم كان »... وقيل: «سكون القلب تحت مجاري الأحكام »، وقيل: «نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد فإنه اختار له الأفضل، وهو ترك السخط» [1] .

كلام ابن القيم في الرضا

قال ابن القيم [2] : بعد أن ساق حديثين:

(أولهما): قوله : «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً ». و(الثاني): قوله : «من قال حين يسمع النداء: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً غفرت له ذنوبه » . قال: هذان الحديثان عليهما مدار مقومات الدين، وإليهما ينتهي . وقد تضمّنا الرضا بربوبيته سبحانه وتعالى وألوهيته، والرضا برسوله، والانقياد له، والرضا بدينه والتسليم له . ومن اجتمعت له هذه الأربعة فهو الصدّيق حقاً . وهي سهلة بالدعوى واللسان، وهي من أصعب الأمور عند حقيقة ا لامتحان، ولا سيّما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها. من ذلك تبيّن أن الرضا كان لسانه به ناطقاً، فهو على لسانه لا على حاله.

«فالرضا بإلاهيته يتضمَّنُ الرضا بمحبته وحده، وخوفه، ورجائه، والإنابة إليه والتبتّل له، وانجذاب قوى الإرادة والحُبُّ كلها إليه، فِعْ لَ الراضي بمحبوبه كل الرضا . وذلك يتضمّن عبادته والإخلاص له . والرضا بربوبيّته يتضمّن الرضا بتدبيره لعبده . ويتضمّن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضياً بكل ما يَفْعَلُ به . فالأول يتضمّن رضاه بما يؤمر به. والثاني يتضمّن رضاه بما يُقدِّره عليه «وأما الرضا بنبيّه

(1)الجرجاني: التعريفات ص111 وابن القيم: مدارج السالكين ج185/2.
(2)مدارج السالكين ج179/2، 180.

رسولاً فيتضمّن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقّى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره البتّة . لا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه، ولا يرضى في ذلك بحكم غيره، ولا يرضى إلا بحكمه. فإن عجز عنه كان تحكيمه غيره من باب غذاء المضطّر إذا لم يجد ما يقيته إلا من الميتة والدم . وأحسن أحواله أن يكون من باب التراب الذي إنما يتمّم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور».

«وأما الرضا بدينه فإذا قال: أو حكم، أو أمر، أو نهى، رضيَ كل الرضا. ولم يبق في قلبه حرج من حكمه وسلّم له تسليماً [1]. ولو كان مخالفاً لمراد نفسه أو هواها أو قول مُقلّده وشيخه وطائفته» (انتهى كلام ابن القيم).

وقال الإمام ابن تيمية [2]: «من لزم ما يرضي الله من امتثال أوامره واجتن اب نواهيه، لا سيّما إذا قام بواجبها ومستحبّها فإن الله يرضى عنه، كما أن من لزم محبوبات الحقّ أحبّه الله كما قال في الحديث الصحيح الذي في البخاري «من عادى لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرّب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته...» الحديث. وذلك الرضا نوعان:

(أحدهما): الرضا بفعل ما أُمر به وترك ما نُهي عنه . ويتناول ما أباحه الله من غير تعدٍّ محظور {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ *} [التوبة: 59] وهذا الرضا واجب . ولذا ذمَّ من تركه بقوله : {وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُو نَ *وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ *} [التوبة: 58، 59] .

«و(النوع الثاني) : الرضا بالمصائب كالفقر والمرض والذُّل، فهذا رضا مستحبٌّ في أحد قولي العلماء، وليس بواجب، وقد قيل أنه واجب. والصحيح أن الواجب هو الصبر، كما قال الحسن: الرضا غريزة، ولكن الصبر معوّل المؤمن. وقد رُوي في حديث ابن عباس أن النبي قال: «إن استطعت أن تعُمَّ الرضا مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً».

«وأما الرضا بالكفر والفسوق والعصيان فالذي عليه أئمة الدين أنه لا يرضى بذلك فإن الله لا يرضاه، كما قال تعالى : {وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ } [الزمر : 7] ، وقال: {وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ} [البقرة: 205] . وقال تعالى: {يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ *} [التوبة: 96] . (انتهى كلام ابن تيمية).

---

(1)يشير ابن القيم إلى قوله تعالى: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا *} [النساء: 65].

(2)ابن تيمية: الفتاوى ج10/.

وما قاله الإمام ابن تيمية حقٌّ وصدقٌ . وقد قال مثله الإمام عبدالله الحداد في رسالة المعاونة [1]حيث قال : (وعليك) بالرضا بقضاء الله تعالى، فالرضا بالقضاء من أشرف ثمرات المحبَّة والمعرفة ومن شأن المحبّ أن يرضى بفعل محبوبه حلواً كان أو مُرّاً . وقالَ حديث قدسي عن الله: «من لم يرض بقضائي، ولم يصبر على بلائي، فليلتمس ربّاً سواي ». وقال : «إن الله إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم، فمن رضيَ فله الرضا، ومن سخط فلهُ السخط».

«فالواجب عليك أيها المؤمن أن تعلم وتعتقد أن الله تعالى هو الذي يهدي ويضلّ، ويُشقي ويُسعد، ويقرّب ويُبعدْ، ويعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويضرُّ وينفع . فإذا علمت ذلك وآمنت به فالواجب أن لا تعترض على الله في شيء من أفعاله لا ظاهراً ولا باطناً . ولسان الاعتراض أن تقول لِمَ لهمَ كان هذا؟ وهلاّ كان هذا كذا؟ وبأي ذنب استحقَّ فلان ما جرى عليه؟ فمن أجهل ممن يعترض على الله في ملكه، وينازعه في سلطانه، وهو مع ذلك يعلم أنه تعالى المنفرد بالخلق والأمر والحكم والتدبير يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد (لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون).. ومن الواجب عليك أن تعتقد أن جميع أفعال الله وقعت على وجه لا أحكم منه، ولا أعدل، ولا أفضل منه، ولا أكمل. وهذا حكم الرضا بأفعال الله على وجه الإجمال .. وأما على سبيل التفصيل فإن الأمور التي تخصّك على قسمين:

(1) ـ منها ما يلازمك كالصحة والغنى . وهذا القسم لا يتصور فيه سخط، إلا من حيث نظرك إلى من فُضّلَ عليك في ذلك. فالواجب عليك عنده أن ترضى بما قسم الله لك من حيث أن له سبحانه أن يفعل في ملكه ما شاء، أو من حيث أنه تعالى قد اختار لك ما هو الأصلح لك والأنسب لحالك وهذا أكمل.

(2) ـ ومنها ما لا يلازمك كالمصائب والأمراض والفاقات، فحرام عليك أن تتبرّم بشيء من ذلك أو تجزع عنده، والأكمل لك أن ترضى وتسلّم، فإن لم تستطع فلتصبر ولتحتسب. قال : «اعبد الله تعالى بالرضا، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير» .

«وليس من الرضا في شيء ما يجده بعض الأغبياء من الطمأنينة عند ترك المأمورات، أو ارتكاب بعض المحظورات، فإن فعل المعاصي وترك الطاعات مما يسخط الله تعالى، فكيف يرضى هو بشيء لا يرضى الله به. قال الله تعالى: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } [الزمر : 7] . وإنما رضي هذا المسكين عن نفسه، وظن أنه رضي عن ربّه . والرضا عن الله وعن النفس يبعد أن يجتمعا في موطن واحد . وما أحسن ما قاله الإمام الغزالي في رسالته لأبي الفتح الدمشقي: «الرضا هو أن ترضى بما يفعل الله باطناً، وتفعل ما يرضيه ظاهراً، فإن أراد العبد أن يعرف ما عنده من الرضا، فليلتمسه عند نزول المصائب، وورود الفاقات، واشتداد الأمراض، فسوف يجده هناك أو يفقده . وكثيراً ما تسمع من سفلة أبناء الزمان عندما يقال لهم: ما لكم تتركون الطاعات وتفعلون المحرّمات؟ فيقولون هذا شيء قد قضاه الله علينا وقدَّره، ولا محيص لنا عنه، وإنما نحن عبيد مقهورون . فهذا مذهب الجبريَّة بعينه ومنتحله قائل بلسان حاله، إن لم يقلْ بلسان مقاله: «لا فائدة في إرسال الرسل، وإنزال الكتب».

(1)عبدالله الحداد: رسالة المعاونة ص36، 37 (طبعة البابي الحلبي ـ القاهرة) وطبعة دار الحاوي (185 - 189)..

«ويا عجباً لكيف يصدر ممن يدّعي الإيمان الاحتجاج لنفسه على ربِّه، ولله الحُجَّة البالغة على جميع خلقه. وكيف يرضى المؤمن لنفسه أن يتشبّه بالمشركين القائلين : {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: 148] .

أولا يسمع ما ردّ الله عليهم به إذ يقول لنبيه : {قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ} [الأنعام: 148] .

«واعلم أن الدعاء والإلحاح لا يقدح في الرضا، بل هو من الرضا . كيف والدعاء مُقرِّبٌ عند التحقّق بالتوحيد، وهو لسان العبودية، وعنوان التحقّق بالعجز، والاضطرار، والذّل، والافتقار. ومن تحقّق بهذه الأوصاف عرف ووصل، وعلى غاية القرب من الله..

وقد قال رسول الله : «الدعاء مخ العبادة، وسلاح المؤمن، ونور السموات والأرض . وأن من لا يسأل الله يغضب عليه » . قال تعالى جلّت قدرته {وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [الأعراف : 180] {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [البقرة: 60] . وما وقع من الخليل من الإمساك عن الدعاء حين طرح في النار، إنما ذلك بسبب يختصّ بتلك الحال، وإلا فقد حكى الله عنه الدعاء في مواضع عديدة من كتابه، بل لم يحكِ عن أحدٍ من الأنبياء أكثر مما حكى عنه، فتفقّه في كتاب الله واستخرج العلوم منه، فإنها بجملتها مودعة فيه، لا يشذُّ منها دقيق ولا جليل، ولا جليّ ولا خفيّ، قال تعالى: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: 38] {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل: 89] (انتهى كلام الحداد).

الرضا من القرآن والسنَّة:

وقد ورد في القرآن الكريم والسنّة المطهرة آيات كثيرة وأحاديث عديدة عن الرضا ومشتقاته سبق ذكر بعضها، وسنذكر طائفة أخرى دون استقصاء .. وإنما عرضنا وضع الأمثلة مما ورد، وذكره «كتاب نضرة النعيم من مكارم أخلاق الرسول الكريم» [1].

وجوب ابتغاء مرضات الله في كل عمل ونيّة:

قال تعالى : {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ *} [2] [البقرة: 207] .

وقال تعالى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *} [البقرة: 265] .

وقال تعالى: {لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا *} [النساء: 114] .

---

(1)موسوعة نضرة النعيم ج2106/6 - 2122.
(2)يشري نفسه: أي يبيعها لله ابتغاء مرضاته .

وقال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً } [المائدة: 3] .

وقال تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *} [المائدة: 15، 16] .

وقال تعالى: {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *} [التوبة: 109] .

وقال تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *} [الحشر: 8] .

وقال تعالى: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا} [البقرة: 144] حيث تحول من قبلة بيت المقدس إلى البيت الحرام.

وقال تعالى عن أصحاب حمراء الأسد الذين ذهبوا لملاقاة قريش مرة أخرى بعد هزيمة أحد مع جراحهم {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ *الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ *فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ *} [آل عمران: 172 - 174] .

وقال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا } [التوبة: 100] .

والتسبيح والصلاة سبب للرضا قال تعالى: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى *} [طه: 130] .

والذين جاهدوا في سبيل الله {لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ} [الحج: 59] .

وقال تعالى يصف المؤمنين الذين لا يوادّون {مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة: 22] .

ويصف المولى سبحانه وتعالى من أوتي كتابه بيمينه {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ *إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ *فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ *} [الحاقة: 19 - 21] .

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ *لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ *فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ *} [الغاشية: 8 - 10] .

و {يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ *ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً *فَادْخُلِي فِي عِبَادِي *وَادْخُلِي جَنَّتِي *} [الفجر: 27 - 30] .

والنفوس ثلاثة:

(1) ـ النفس الأمارة بالسوء : وهي نفس ظالمة ومصيرها بائس إن لم تتب وتتدارك ما فات.

(2) ـ النفس اللوَّامة: وهي نفس حسَّاسة: تتألم من الذنب وتستغفر وتتوب إلى الله، وتلوم نفسها على ما فرَّطت في جنب الله. فهي في جهاد للنفس الأمَّارة بالسوء وللشيطان والهوى . ولا شك أنها إلى خير.

(3) ـ النفس المطمئنة الراضية المرضيَّة: وهي نفس قد وصلت إلى أعلى المقامات وهو مقام الرضا فلا تفعل إلاَّ ما يرضي الله، ولا تحبّ إلا ما يحبّه الله، ولا ترى ولا تسمع ولا تفعل ولا تترك إلا ما يريده الله منها فهي لله وبالله ومن الله . وهو مقام لا يصله إلا الرسل والأنبياء والأولياء، كما قد تمّ شرحه في حديث الولي أكثر من مرة.

قال تعالى: {وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى *الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى *وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى *إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى *وَلَسَوْفَ يَرْضَى *} [الليل: 17 - 21] وقد نزلت في أبي بكر الصديق الذي بذل ماله في حبّ الله وحبّ رسوله، وفي شراء العبيد الذين آمنوا وكانت قريش تعذّبهم فيشتريهم ويعتقهم، لا ابتغاء محمدة، ولا رداً لجميل ونعمة، بل ابتغاء وجه ربه الأعلى، لهذا يبشره المولى سبحانه وتعالى بالرضا {وَلَسَوْفَ يَرْضَى *} رضي الله عنه وأرضاه وجعل الفردوس الأعلى مثواه وجزاه عن رسول الله والمسلمين خير الجزاء.

والرسول يقول: «أمتي أمتي ويدعو لهم فيقول له المولى سبحانه وتعالى لا نخزيك في أمتك» وينزل قوله تعالى : {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى *}» [الضحى: 5] . [أخرجه مسلم في صحيحه] .

وقال من ثقلت موازينه يوم القيامة فهو في عيشة راضية قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ *فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ *} [القارعة: 6، 7] .

وصفة الرسول وصحبه الكرام أنهم رحماء بينهم، أشداء على الكفار قال تعالى : {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا *} [الفتح: 29] .

وقال : «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأرضاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والوَرِق (الفضة)، ومن أن تلقوا عدوّكم فتضربوا أعناقهم ويضربون أعناقكم؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: ذكر الله» [أخرجه الترمذي عن أبي الدرداء وابن ماجه، وصححه الألباني] . وقال لعلي عندما خلّفه في بعض مغازيه أميراً على المدينة فقال له علي : يا رسول الله خلّفتني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله : «أما ترضى أن

تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوّة بعدي » [أخرجه الشيخان البخاري ومسلم] .

وعندما أعطى المؤلفة قلوبهم من تميم وغطفان مالاً جزيلاً يوم حنين تألم بعض الأنصار فجمعهم رسول الله وقال لهم: «إني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رحالكم برسول الله؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به فقالوا بلى يا رسول الله قد رضينا » وبكوا بكاء شديداً رضي الله عنهم فدعا لهم رسول الله وأعلن أنه منهم ومعهم وأخبرهم أنهم سيجدون أثرة شديدة بعده «فاصبروا حتى تلقوا رسول الله فإني على الحوض» [أخرجه الشيخان البخاري ومسلم عن أنس بن مالك] .

وقال : «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيَحمدَهُ عليها، أو يشرب الشربة فيحَمدَهُ عليها» [أخرجه مسلم في صحيحه] .

وقال : «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً : فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، ولا تفرّقوا . ويكره لكم : قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال» [أخرجه مسلم والبخاري] .

وفي الصلاة على النبي محمد نزل ملك «فقال: يا محمد إن ربك يقول: أما يرضيك أنه لا يصلّي عليك أحدٌ إلا صلّيت عليه عشرا، ولا يسلّم عليك أحدُ إلا سلَّمتُ عليه عشرا» [النسائي والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي] .

وقد نزل قرآن في شهداء بئر معونه ثم نسخ «أن ابلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنَّا ورضينا عنه» [رواه الشيخان البخاري ومسلم عن أنس] .

وقال : « رضا الرب في رضا الوالد، وسخط الربِّ في سخط الوالد » [أخرجه الترمذي وصححه] .

وقال «عن السواك: «««مطهرة للفم، مرضاة للرب » [أخرجه النسائي وابن خزيمة وابن حبان والبخاري معلقاً ومجزوماً] .

وفي دعاء السفر «اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البرّ والتقوى ومن العمل ما ترضى، اللهم هوّن علينا سفرنا هذا وأطوِ عنَّا بُعده» [أخرجه مسلم عن عبدالله بن عمر] .

والأحاديث كثيرة جداً في هذا الباب، وفيما تقدم ما يغني ويكفي.

تتمات للمقامات التسع لا بُدّ منها:

وقد بدأنا هذه الفصول بأبي ات الحبيب عبدالله الحداد في قصيدته التائية التي ذكر فيها المقامات في الطريق إلى الله تعالى . ورغم اختلاف العلماء الطفيف في ذكر هذه المقامات وتقدم بعضها على بعض إلا أنها جميعاً تتفق في ذكر هذه المقامات التي على الراغب في الوصول إلى الله سبحانه وتعالى أن يسلكها، ويتحقّق بها.

أهمية النية والإخلاص:

ولا شك أن أول ما ينبغي أن يبدأ به الإنسان هو إخلاص النيّة لله تعالى ولهذا بدأ الإمام البخاري كتابه الصحيح بحديث النيّة المشهور عن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» متفق عليه [أخرجه البخاري في سبعة مواضع من صحيحه] ، أولها كيف كان بدء الوحي، وهو بداية كتابه. لأن النية هي العمدة في كل الأعمال. قال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّـ مَةِ *} [البيّنة: 5] وقال تعالى: {لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَا لُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ } [الحج: 37] والتقوى محلها القلب وهي بمعنى النيّة هاهنا.

والحديث قد أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة بقوله : «إنما الأعمال بالنيّة» وكثير من أهل العلم كان يبدأ كتابه بهذا الحديث لمعرفتهم قدره وأهميته في جميع العبادات، وبها (أي النيّة) تتحول العادات إلى عبادات أو العكس. وقد بدأ الإمام النووي كتابه «رياض الصالحين» بذلك تحت عنوان باب الإخلاص وإحضار النية وبعد أن أورد ثلاث آيات أورد الأحاديث في النيَّة وبدأها بحديث عمر بن الخطاب المتقدم . وقد قيل أن رجلاً من مكة هاجر إلى المدينة ليتزوج امرأة تدعى «أم قيس» كان يحبّها. ولم تكن له نيّة في الهجرة إلى الله ورسوله فلذلك جاء الحديث وعرف الرجل باسم مهاجر أم قيس..

ولا يقبل الله عملاً مهما كان ظاهره جيّداً وسليماً إلا بشيئين : (الأول) النية والإخلاص لله تعالى و (الثاني) : أن يكون وفق ما جاء به رسول الله فإن فُقِدَ أحد الشرطين، ردّ الله هذا العمل ولم يقبله.

وعندما سئل رسول الله عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حميّةً، ويقاتل رياءً، أي ذلك في سبيل الله؟ قال : «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو سبيل الله » متفق عليه [أي أخرجه البخاري ومسلم] .

ولما مرض سعد بن أبي وقاص في مكة بعد الفتح وخاف أن يموت فأراد أن يوصي بثلثي ماله فأبى عليه رسول الله فقال «الشطر؟ فقال: لا فقال سعد: فالثلث يا رسول الله فقال : الثلث والثلث كثير. إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفّفون الناس. وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرتَ عليها حتى ما تجعل في في امرأتك » والشاهد هاهنا، وهو أن ما تنفقه على نفسك وزوجتك وأولادك وغيرهم من ذوي القربى والمساكين سيكون كله لك أجراً ما دمت تبتغي بذلك وجه الله. ثم قال : «اللهم امضِ لأصحابي هجرتهم، ولا تردَّهم على أعقابهم، لكن البائس سعد بن خوله» (وهو نفس سعد بن أبي وقاص) يرثى له رسول الله أن مات بمكةً متفق عليه.

وقد عاش سعد بذلك كما أخبره الرسول : «ولعلك أن تُخلّف حتى ينتفع بك أقوام، ويضرَّ بك آخرون» فعاش سعد ، وفتح القادسية في العراق، وعاش حتى زمن معاوية، ونفع الله به أقواماً، وأضرّ به آخرين. وقد كان سعد مجاب الدعوة فآذاه بعضهم فدعا عليهم فاستجيب له.

والخلاصة أن أهم ما يبدأ به الإنسان هو تصحيح نيّته وقصده حتى لا يكون له في أي عمل يعمله قصد إلا رضا الله ورسوله. وأن يكون ذلك العمل على الوجه المشروع الذي بيّنه الله في كتابه ورسوله محمد في سنته، وشرحه وأوضحه العلماء الأجلاَّء.

ثم تأتي بعد النيَّة المقامات التسع التي ذكرها العلماء الأجلاء ومنهم الحبيب عبدالله الحداد في التائية:

مقاماته تسع عليك بحفظها وإحكامها، وابدأ بتصحيح توبةِ

وخوفٍ، ونعم الخوف للعبد سائقٌ ونعم الرجاء من قائدٍ للسعادةِ

وصبرٍ جميل عند كلِّ بليَّةٍ وأمرٍ ونهيٍ أو ركونٍ لشهوةِ

وشُكرٍ على النعماء برؤية مُنعمٍ وصرفِ الذي أسداه في سُبل طاعةِ

وصحّح مقام الزهدِ فهو العمادُ والتوكّلُ، وهو الزادُ في كلِّ رحلةِ

وحُبِّ إله العالمين مع الرضا بكل الذي يقضيه في كل حالةِ

وقد شرحت هذه المقامات التسع مستعيناً بالله سبحانه وتعالى وما قاله العلماء ومن أمثالهم ابن تيمية وابن القيم والإمام الحداد في رسالة المعاونة وغيرهم.

المجاهدة والهدى..

ولا بد من المجاهدة في هذه الطريق . فالنفس الأمارة بالسوء تعيق الإنسان، وكذلك الشيطان والهوى، وأقرانه السوء، وكثير من الأهل والخلاّن . وكلهم يعيقون عن الطريق القويمة لما فيها من الوعورات والشدّة على النفس في أول الأمر، ولكن من وفّقه الله وصبر على مجاهدة النفس يبدله الله بذلك حلاوة يجدها في قلبه، وسعادة في روحه . ولو علم أهل الدنيا بما عليه أهل الله من السعادة لجالدوهم عليها بالسيوف كما ورد عن أئمة الصالحين.

قال الحبيب عبدالله الحداد:

وجاهد تشاهد واغنم الوعد بالهدى هدىً نصُّهُ بالعنكبوت بآيةِ

مشيراً إلى قوله تعالى : {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ *} [العنكبوت: 69] .

وهو وعدٌ صادق من ربِّ العالمين وأحكم الحاكمين فلا شك من تحقّقه، إذا صحبت المجاهدة نيَّة صادقة في ابتغاء مرضات الله . وقد أمرنا أن ندعو الله سبحانه وتعالى في كل ركعة من ركعات الصلاة الواجبة والنفل بدعائه سبحانه وتعالى بأن يهدينا إلى الصراط المستقيم قال تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ *صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ *} [الفاتحة: 6، 7] وهو الصراط الذي سار عليه الأنبياء والصالحون وحسن أولئك رفيقاً منذ بداية الحياة الإنسانية إلى نهايتها، ومنذ عهد آدم إلى قيام الساعة. وأما المغضوب عليهم فهم الذين عرفوا الحقّ وحاربوه وعادوه بسبب الكبر والحسد والحقد والأمراض التي ملأت نفوسهم، وهم أعداء الأنبياء والرسل على مدى التاريخ . وقد بدأ

شيخهم إبليس بذلك كبراً وحسداً لآدم عندما أمره الله أن يسجد له فأبى ذلك مستكبراً . قال تعالى : {قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ *أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ *مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ *إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ *إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ *فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ *فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ *إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ *قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ *قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ *قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ *وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ *قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ *قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ *إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ *قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ *إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ *قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ *لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ *} [ص: 67 - 85] .

فإبليس بطبيعته النارية، وكان مع الملائكة وهم خلق من نور، لم يرَ في الأمر بالسجود لآدم إلا المهانة والذلة قال: {أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً} فرفض من أجل ذلك الكبر السجود لآدم ، والسجود لآدم هو طاعة لله الذي أمر بذلك وسجود له، ولكن إبليس لم ير ذلك فوقع في أكبر المعاصي وأشدّها وهي الكبر والعجب والحسد والحقد فأدّى به ذلك إلى الطرد من رحمة الله إلى أبد الآبدين، قال تعالى: {...فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ *} أي مرجوم ومعناها مطرود من رحمة الله والكبر شيمة إبليس وأعوانه وأكثر ما يتجلّى في اليهود وفي عليَّة القوم في كل مكان وزمان وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

وأما الضالون فقد ضلّوا الطريق وأمعنوا في البعد عن الهداية بسبب الهوى وخير مثالٍ لهم النصارى الذين ضلّوا في عيسى فعبدوه وجعلوه إلهاً، وابتدعوا أقوالاً ما أنزل الله بها من سلطان متّبعين خرافات الأمم التي سبقتهم وتحدثوا عن إله واحد في ثلاثة أقانيم وقالوا : {إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ} [المائدة: 73] كما قالوا: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [المائدة: 17] وقد وقعوا في الضلال والزيغ والكفر بسبب الأهواء. نعوذ بالله من الضلال بعد الهدى.

أكثر من النفل المفيد لقربةٍ، والذكر عليك به:

ولا بد للوصول إلى الهدى من توفيق الله سبحانه وتعالى واتباع المصطفى في جميع أوامره ونواهيه، والمحافظة على المفروض من كل طاعةٍ، وقد فرض الله سبحانه وتعالى الصلاة لوقتها جماعة، وفرض صوم شهر رمضان، كما فرض الزكاة والحج وفرض برّ الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الجيران، وحبِّ الخير للناس جميعاً.. و(أكثر من النفل المفيد لقربة)... والنوافل في جميع ما ذكره الله ورسوله من سنن الوضوء وسنن الصلاة والصلوات النوافل، والسواك والاغتسال (لغير الجنابة لأنها فرض) والصدقات بعد الزكاة، وأعمال البرّ والإحسان، والحج بعد الحج والعمرة بعد العمرة إلى آخر أنواع الطاعات والقربات وأهمها الذكر والصلاة على النبي محمد ، ولزوم الاستغفار، وقلة الكلام وقلة الطعام وقلة المنام، والصلاة بالليل والناس نيام، لأنها كلها تؤدي إلى محبة الله للعبد فإذا أحبّه الله كان الله له حافظاً ووكيلاً وكان سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي

ينطق به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها.. وهو حديث الولي المشهور الذي تكرر ذكره.

وجانب هديت النهي في كل جانب   وما تشتهيه النفس من كل لذّةِ

فابدأ بالبعد عن المحرمات من المال الحرام والأكل الحرام والشراب الحرام والنظر الحرام والصوت الحرام، وابتعد عن الربا والزنا والغيبة والنميمة والك بر والعجب والبطر وغمط الناس، والحسد والحقد وقول الزور وكل خُلُقٍ مذموم. فإذا انتهيت من ذلك فابتعد عن شهوات النفوس، وابتعد عن الشبهات ولا تكن كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن حمى الله محارمه، فاجتنبها.

ثم رُضْ نفسك على الزهد في الدنيا، والإقلال منها ولتكن لك بُلغة . ولا تقبل عليها إقبالاً يفقدك دينك وخلقك. وكن كما قال الحداد:

وكن في طعام والمنام وخلطةٍ   ونُطقٍ على حدِّ اقتصار وقلّةِ

وبدل إضاعة الأوقات في قيل وقال وما يستتبعه من غيبه أو نميمة، أو مجرد إضاعة وقت فإن عليك أن تجالس كتاب الله وتتد بره وأن تكثر من ذكر الله وأن تتفكر في آلآء الله عليك وفي مخلوقاته وسعة كونه وتعدد أسمائه وصفاته وأفعاله. قال الإمام الحداد:

وجالس كتاب الله واحلل بسوحه   ودم ذاكراً فالذكر نور السريرةِ

عليك به في كل حين وحالة   وبالفكر إن الفكر كحل البصيرةِ

وكن من {...وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ } [الأحزاب: 35] وقال تعالى : {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [البقرة: 52] .

وقال تعالى : {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُنْ مِ نَ الْغَافِلِينَ *} [الأعراف : 205] وقال تعالى : {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ } [العنكبوت: 45] وقال تعالى: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *} [الجمعة: 10] .

وقال لموسى {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي *} [طه: 14] وقال له ولهارون {اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي *} [طه : 42] . وقال عن المعرض عن ذكر الله أنه يعيش حياة ضنكاً في الدنيا والآخرة. قال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا} [طه: 124] .

والقرآن هو الذكر قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ *} [الحجر: 9] .

وقال تعالى: {وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ *} [يوسف: 104] .

وقال تعالى: {ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ *} [آل عمران: 58] .

وقال تعالى: {أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْ ذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *} [الأعراف: 63] .

وقال تعالى: {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ *} [يس: 11] .

وقال عزّ من قائل: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ *لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ *} [يس: 69، 70] .

وقال تعالى: {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ *بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ *} [ص: 1] .

وقال تعالى: {وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ *} [الأنبياء: 50] .

فالقرآن الكريم هو الذكر الحكيم . والصلاة إنما أقيمت لذكر الله وكذلك الجهاد وكافة الأركان.

وقال تعالى: [طه: 14] وقال تعالى عن الصلاة: {إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} [العنكبوت: 45] .

وقال تعالى: {أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ *اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ *} [الزمر: 22، 23] .

والأحاديث النبوية الشريفة في فضل الذكر وأنواع الأذكار تملأ كتباً، ومنها كتاب الإمام النووي الأذكار. عن أبي موسى الأشعري عن النبي قال : «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت» [رواه البخاري. ورواه مسلم] فقال: «مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت».

عن أبي هريرة أن رسول الله قال: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه» متفق عليه [البخاري ومسلم].

وعنه، قال رسول الله : «سبق المُفَرِّدون» . قالوا: وما المفرِّدون يا رسول الله قال : «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات» [رواه مسلم] . المُفَرِّدون: بتشديد الراء وتخفيفها والمشهور التشديد. قاله النووي في رياض الصالحين.

وقال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكم، وأرفعها في درجاتكم. وخير لكم من إنفاق الذهب والوَرق (الفضة)، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى. قال: ذكرُ الله تعالى» [رواه الترمذي والحاكم في المستدرك وقال إسناده صحيح. عن أبي الدرداء] .

وعن عائشة قالت: «كان رسول الله يذكر الله على كل أحيانه» [رواه مسلم] .

التفكر مع الذكر:

قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآَيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ *الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ

وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ *رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ *رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ *رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ *} [آل عمران: 190 - 194] .

ولقد جمعت هذه الآيات الكريمات في أواخر سورة آل عمران التفكر والذكر والدعاء الخالص الخاشع القانت لذلك استجاب الله لهم {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ *} [آل عمران: 195] .

وقال تعالى في سورة البقرة : {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *} [البقرة: 164] .

وقد جمعت هذه الآية العظيمة التفكر في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وهي ظواهر كونية تستغرق أعمار المختصين. ثم التفكر في السفن التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وخواصها وما أنعم الله به على الإنسان من استخدام خواص المادة والاستفادة منها وما في ذلك من علوم المادة من فيزياء وكيمياء وهندسة وأنواع من المهن (الحدادة والنجارة) ومعرفة النجوم والسير على هديها، وما اكتشف بعد ذلك من البوصلة والخرائط والعلوم البحرية، وأنواع التجارات التي تسير في البحر، ولا تزال غالب المواد تشحن بطريق البحر والحاويات.

ثم التفكر في أنواع المخلوقات الحيَّة والدواب {وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ} وأنبت به النبات وبثَّ فيها من كل دابة، من جميع أصناف الحيوان الذي يدبُّ على الأرض أو يسبح في البحر أو يطير في السماء، فهو آية من الآيات العظ يمة التي تحتاج إلى تدبر وتفكر وإلى ذكر وشكر. ثم انظر إلى تصريف الرياح برحمته تسوق السحاب إلى بلد ميت فيحيي به الله الأرض بعد موتها. وإذا جاء ذكر الرياح في القرآن الكريم فهي رياح خير وبركة تسوق السحب وتُلقِّحُها، وتُسيِّر السفن في البحار، وتلقّح النبات. أما الريح فإذا ذكرت في القرآن فهي ريح عذاب {بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ » سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ *فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ *} [الحاقة: 6 - 8] وقد جعلها الله عذاباً لقوم عاد {الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلاَدِ *فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ *} أولئك القوم الذين قالوا من أشد منا قوة فأنزل عليهم غضبه ومقته وعذابه بالريح التي لا تُبقي ولا تذر.

والتفكر مطلوب في جميع مخلوقات الله من العرش إلى الفرش {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ *} [الذاريات: 21] .

وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ} [الروم: 8] .

وتكرر ذكر التفكر في القرآن الكريم قال تعالى : {فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الأعراف: 176] وقوله: {كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [يونس: 24] {...إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *} [الرعد: 3] {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: 11] .

{فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: 69] .

{وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الروم: 21] .

والقرآن الكريم مليء بالآيات الداعية إلى التدبر والتفكر في هذا الكون الفسيح، وفي الليل والنهار، وفي النبات والحيوان، وفي خلق ا لإنسان، وفي جميع الظواهر الكونية والفيزيائية والكيمائية.. وفي النفس الإنسانية، وفيما يكون بين الزوجين من مودة ورحمة . وفي الغرائز التي تحفظ الحياة على الفرد والغرائز التي تحفظ الحياة على المجموع .. وفي قصص السابقين من الأمم عبرة وأي عبرة ومجال واسع للتفكر وا لتدبر. فأي آيات الله تنكرون؟ {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَا لِمِينَ *} [الروم: 22] .

وقد لخّص الحبيب عبدالله الحداد ما على المؤمن الصادق أن يفعله ويلتزم به بعد ذ كره للمقامات التسع:

وجاهد تشاهد واغنم الوعد بالهدى هدى نصّه بالعنكبوت بآيةِ

وحافظ على المفروض من كل طاعة وأكثر من النفل المفيد لقربةِ

بكنتُ له سمعاً إلى آخر النبا عن الله في نصِّ الرسول المثبّتِ

وجانب هُديت النهي من كل جانب وما تشتهيه النفس من كل لذّةِ

وكن في طعام والمنام وخلطةٍ ونطق على حد اقتصار وقلّةِ

وجالس كتاب الله واحلل بسوحه ودم ذاكراً فالذكر نور السريرة

عليك به في كل حين وحالةٍ وبالفكر إن الفكر كحل البصيرةِ

وكن أبداً في رغبة وتضرّع إلى الله عن صدق افتقار وفاقةِ

ووصف اضطرار وانكسار وذلة وقلب طفوح بالظنون الجميلةِ

الدعاء والتذلل ومقام العبودية:

ولا بد من الاتصاف بأوصاف العبودية لله سبحانه وتعالى والخضوع التّام له ودعوته رغبة ورهبة وتضرّع وانكسار وذلّة. قال تعالى عن زكريا : {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ *فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ *} [الأنبياء: 89، 90] .

وهكذا كل الأنبياء والصالحين يدعون ربهم رغباً ورهباً. وكانوا له خاشعين متذللين مقرّين بتقصيرهم، مفتقرين إلى ربهم تمام الافتقار. اطّرحوا جميع الأسباب ووقفوا على باب الفقر والمذلّة والعبودية لربهم وخالقهم، فقرّبهم وآنسهم وجعلهم في كنفه ورعايته ... يرون المنّة

والفضل لله وحده {قُلْ لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الحجرات: 17] فالمنَّة لله وحده ولا يمنّ على الله بالإيمان إلا منافق، أو أعرابي جلف جاهل. قال تعالى : {قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *} [الحجرات: 14، 15] .

وقال تعالى عن عباد الله الذين اصطفاهم : {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ *جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ *} [فاطر: 32، 33] .

وقد قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } [فاطر : 28] وكلما ازداد علماً ازداد خشية وأشدّ الناس خشية لله محمدٌ ، فهو أعبدهم وأكثرهم خشية وتذلّلاً لله سبحانه وتعالى.

وقال تعالى في وصف عباد الله المتقين {إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ *وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ *أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ *} [المؤمنون: 57 - 61] .

وقد قالت عائشة لرسول الله : «قلت يا رسول الله {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ } هو الرجل يسرق ويزني. قال: لا، بل الرجل يصوم ويصلّي ويتصدّق ويخاف ألاَّ يقبل منه » [أخرجه الترمذي والحاكم وقال صحيح الإسناد] .

فالذين آمنوا لا يدخلون على الله إلا من باب الافتقار والذلّة والعبودية التامة، وأكملهم في ذلك سيّدهم ونبيّهم، وخليل ربهم، وأفضل المخلوقات كلها علويها وسفلييها، محمد . وهو عبدالله وقد اتصف بالعبوديّة المحضة لله سبحانه تعالى، والذلّ بين يديه، والافتقار التام له . وقد قال عنه سبحانه وتعالى في ليلة تكريمه، ليلة الإسراء والمعراج {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ *} [الإسراء: 1] وقال عنه : {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا *} [الجن: 19] .

ووصف الأنبياء بالعبودية قال عن عيسى : {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا *} [مريم: 30] وقال عنه : {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا *فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا *} [النساء: 172، 173] .

وقال عن نوح : {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا *} [الإسراء: 3] .

وقال عن سليمان : {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ *} [ص: 30] وقال عن أيوب : {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص: 44] .

وقال لأمة الإسلام على لسان نبيه : {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ *} [الأنبياء: 92] وهي أمة واحدة تمتد عبر الأجيال منذ آدم إلى خاتم الأنبياء والرسل محمد وإلى يوم الدين.

وقال تعالى في دع وة عامة لجميع البشر {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ *وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ *تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ *وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ *وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ *رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ *} [ق: 6 - 11] .

وجمعت هذه الآيات الشريفات الكريمات التفكّر والنظر في ألآء الله ومخلوقاته وأفضاله على عباده، وتكرّمه عليهم بكل هذه النعم والآيات... أليس في ذلك تبصرة وذكرى لكل عبد منيب؟ بلى والله وأنها لذكرى وتبصرة تمتلأ منها القلوب بالرهبة والخشوع والذلة والمسكنة مع كمال الحبّ والإجلال لهذا الرب المتفضل الكريم المنان ذي الفضل والإحسان . وسيأتي يوم يظهر فيه الملك المطلق {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } [غافر: 16] {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَانِ وَفْدًا *وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا *لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَانِ عَهْدًا *وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَدًا *لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا *تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا *أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَانِ وَلَدًا *وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَانِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا *إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَانِ عَبْدًا *لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا *وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا *إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا *} [مريم: 85 - 96] . ويا له من يوم عسير، يوم يقفون أمام الله خاشعين أذلاء ناكسي رؤوسهم ترهقهم ذلّة، وتكفرُ بهم آلهتهم قال تعالى : {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا *كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا *} [مريم: 81، 82] .

ولا شك أن مقام العبودية هو أعلى مقام لأنه يشتمل على كل المقامات ابتداء من إخلاص النية والتوبة والخوف والرجاء والصبر والشكر والزهد والتوكل (وحبّ إله العالمين مع الرضا بكل الذي يقضيه في كل حالة).

وحبِّ إله العالمين مع الرضا بكل الذي يقضيه في كل حالةِ

وهو مقام عظيم اتصف به أكمل اتصاف سيدنا محمد . واتصف به الأنبياء الكرام وعباد الله الصالحون من الملائكة والجن والبشر . قال تعالى عن داوود {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ *} [ص: 17] .

وقال تعالى : {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ *ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ *وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الأَلْبَابِ *وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلاَ تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ *} [ص: 41 - 44] وقال تعالى : {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي

الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ *إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ *وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ *وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ *هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ *جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ *} [45 - 50] .

وقال عن محمد : {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا *} [الفرقان: 1] وقال: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} [الزمر: 36] وقال {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى *} [النجم: 10] وقال عزّ من قائل: {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} [الحديد: 9] .

فهذه صفات أكمل الخلق وأشرفهم وأنبلهم وهي العبودية التام ة لله سبحانه وتعالى والانطراح بين يديه والتذلّل له، والدخول عليه من باب الافتقار التام فقد قال : «لن يدخل أحد الجنّة بعمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمَّدني الله برحمته» .

فأي مقام هذا أعظم من هذا المقام . وهو مقام الفقر والعبودية التامة لله سبحانه وتعالى .. ومن وصل إلى هذه المرحلة فلا تستعبده شهوة ولا فكرة، ولا منصب، ولا مال، ولا جمال .. ولا يدخل في قلبه شيء من متاع الدنيا من الذهب والفضة والأنعام والحرث والخيل المسومة والنساء الجميلات ... كل ذلك قد تركوه ولم يلتفتوا إليه .. فقد امتلأ ت قلوبهم من خشية الله ومحبته ومودته. {يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} {سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا} ولذتهم وسعادتهم في عبادته والإخلاص له. فإذا انطرحوا بين يديه وسالت دموعهم على خدودهم وعنت له جباههم معفَّرة بالتراب فقد وصلوا إلى أعلى عليين وارتفعت م قاماتهم فوق الأفلاك والنجوم .. وانكشف أمامهم فضل الله وقدرته وكماله وجماله وكرمه وفيضه فلا أسعد به منهم . وتتمّ لهم السعادة الكبرى حين ينظرون إليه بأعينهم {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ *إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ *} [القيامة: 22، 23] .

نسأل الله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يكرمنا جميعاً والمسلمين بمحض فضله وكرمه ومنّه بإخلاص العبودية له والانطراح بين يديه، والذلّ له وحده والفقر إليه، وأن نتحقّق بذلك على أكمل الوجوه وأرضاها له. إنه سميع مجيب.

الفصل الرابع عشر
اصطلاحات القوم

اصطلاحات القوم

(الفناء والغيبة والفرق والجمع)

قال الحبيب عبدالله الحداد:

وحقّق أصول القوم واعلم طريقهم   وكل اصطلاح بينهم في الطريقةِ

كفرق وجمع والحضور وغيبة   وصحو ومحو وانفصال ووصلةِ

هذه اصطلاحات يستخدمها الصوفية. وقد تحدث عنها القشيري في رسالته والسهروردي في عوارف المعارف، وابن تيمية في الفتاوى في المجلد المجموع فيه الفتاوى عن الصوفية وتحدث عنها ابن القيم في مدارج السالكين وهو شرح لكتاب الإمام عبدالله بن محمد بن علي الهروي الحنبلي الصوفي المتوفى سنة 481هـ الموسوم بعنوان «منازل السائرين »، وكتاب ابن القيم البديع طريق الهجرتين وباب السعادتين. وكلام ابن تيمية وابن القيم في منتهى العدل والإنصاف، وإيراد الحجج القوية وتبيين الطريقة القويمة.

ابن تيمية والتصوف[1] :

ولا شك في أن ممّن انتسبوا إلى الفقه جماعات مارقة عن الدين، وكذلك نرى بعض من انتسبوا إلى التصوف خرجوا به عن حدود الشريعة.. قال ابن تيمية: «وهذا الصراط المستقيم يشتمل على علم وعمل: علم شرعي وعمل شرعي، فمن علم ولم يعلم بعلمه كان فاجراً، ومن عمل بغير علم كان ضالاً . وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نقول : قال النبي : «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون . وذلك أن اليهود ع رفوا الحقّ، ولم يعملوا به، والنصارى عبدوا الله بغير علم». ولهذا كان السلف يقولون: احذر فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون . وكانوا يقولون من فسد من العلماء ففيه شبهة من اليهود، ومن فسد من العبّاد ففيه شبهة من النصارى.. فالسالك طريق الفقر والتصوف والزهد والعبادة إن لم يسلك بعلم يوافق الشريعة وإلا كان ضالاً عن الطريق، وكان ما يفسده أكثر مما يصلحه. والسالك من «الفقه والعلم والنظر والكلام » إن لم يتابع الشريعة، ويعمل بعلمه وإلا كان فاجراً ضالاً عن الطريق. فهذا هو الأصل الذي يجب اعتماده على كل مسلم.

«وأما التعصب لأمر من الأمور بلا هدى من الله فهو من عمل الجاهلية {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ} [القصص: 50] .

«والزهد المشروع ترك ما لا ينفع في الدار الآخرة، وأما كل ما يستعين به العبد على طاعة الله فليس تركه من الزهد المشروع، بل ترك الفضول التي تشغل عن طاعة الله ورسوله هو المشروع. وكذلك في أثناء المائة الثانية صاروا يعبّرون عن ذلك بلفظ الصوفي، لأن لُبس الصوف يكثر في الزهاد».

منشأ التصوف:

---

(1)ابن تيمية: الفتاوى المجلد 11 (التصوف) الطبعة السعودية بأمر الملك خالد بن عبدالعزيز رحمه الله ص26 - 29.

وقال في موضع آخر [1]: «وإذا عرف أن منشأ التصوف كان من البصرة . وأنه كان فيها من يسلك طريق العبادة والزهد، مما له فيه اجتهاد، كما كان في الكوفة من يسلك طريق الفقه والعلم ما له فيه اجتهاد، وهؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظاهرة، وهي لباس الصوف، فقيل في أحدهم «صوفي»، وليس طريقهم مقيّداً بلباس الصوف، ولا هم أوجبوا ذلك، ولا علّقوا الأم ر به، لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال.

كلام ابن تيمية في التصوف وأنواع الصوفية

قال : «ثم «التصوف» عندهم له حقائق وأحوال معروفة قد تكلّموا في حدوده وسيرته وأخلاقه كقول بعضهم: الصوفي من صفا من الكدر وامتلأ من الفِكَرْ، واستوى عنده الذهب والحجرْ. التصوف كتمان المعاني وترك الدعاوي» وأشباه ذلك. وهم يسيرون بالصوفي إلى معنى الصدّيق. وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصدّيقون كما قال الله تعالى: .

«ولهذا ليس عندهم بعد الأنبياء أفضل من الصوفي، لكن هو في الحقيقة نوع من الصدّيقين، فهو الصدّيق الذي اختصَّ بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه».

واعتبرهم ابن تيمية صديقين، كما أن من أخلص النيّة والاجتهاد في العلم الشرعي يعتبر صدّيقاً وقد يكونون من أجلّ الصديقين حسب زمانهم، إلا أن الصديق في العصر الأول (عصر الصحابة) أفضل منهم.

قال ابن تيمية [2]: «ولأجل ما وقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنازع »... فطائفة ذمّت «الصوفيَّة والتصوف » وقالوا : إنهم مبتدعون، خارجون عن السُنَّة .. وطائفة غَلَتْ فيهم وادّعوا أنهم أفضل الخلق، وأكملهم بعد الأنبياء، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم.

«والصواب أنه مجتهدون في طاعة الله تعالى، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله تعالى : ففيهم السابق المقرّب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين . وفي كلٍّ من الصنفين من قد يجتهد فيخطىء، وفيهم من يذنب فيتوب ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه، عاصٍ لربّه».

وما أحسن وما أعدل ما قاله ابن تيمية [3]. وقد قسَّم ابن تيمية المنتسبين إلى الصوفية إلى ثلاث طوائف: صوفية الحقائق، وصوفية الأرزاق، وصوفية الرسم:

«فأما صوفية الحقائق»: فهم الذين وصفناهم (وقال عنهم أنهم من الصديقين).

وأما صوفية الأرزاق: فهم الذين وُقِفَتْ عليهم الوقوف (أي الأوقاف والأحباس) كالخوانك (أي الخانقاهات وهي محلاّت يعيشون فيها ويُرزقون)، فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق، فإن هذا عزيز، وأكثر أهل الحقائق لا يتّصفون بلزوم الخوانك، ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط (أحدها) العدالة الشرعيَّة بحيث يؤدون الفرائض ويجتنبون المحارم و(الثاني): التأدب بآداب أهل الط ريق . وهي الآداب الشرعية، في غالب الأوقات، وأما

(1)ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية ج16/11 - 17.
(2)ابن تيمية مجموع الفتاوى ج17/11 - 18.
(3) . المصدر السابق ص19، 20

الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت إليها و (الثالث): أن لا يكون أحدهم متمسّكاً بفضول الدنيا...

وأما «صوفية الرسم» فهم المقتصرون على النسبة، فهمّهم في اللباس والآداب الوضعية، ونحو ذلك، فهؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زي أهل العلم وأهل الجهاد ويؤدي نوعٍ ما من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمرهم أنه منهم، وليس منهم».

قال ابن تيمية [1]في أولياء الله تعالى:

«وأولياء الله هم المؤمنون المتَّقَون، سواء سُمِّيَ أحدهم فقيراً وصوفياً أو فقيهاً أو عالماً أو تاجراً أو جندياً أو صانعاً أو أميراً أو حاكماً أو غير ذلك. قال الله تعالى : {أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ *} [يونس: 62 - 63] .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي قال: يقول الله تعالى: « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرّب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ... الحديث. وه ذا الحديث قد بيَّن فيه أولياء الله المقتصدين أصحاب اليمين والمقرَّبين السابقين.

«فالصنف الأول الذين تقرّبوا إلى الله بالفرائض، والصنف الثاني الذين تقرّبوا إليه بالنوافل بعد الفرائض، وهم الذين لا يزالون يتقرّبون إليه بالنوافل حتى أحبّهم».

أهل الصُفّة:

وسئل ابن تيمية عن أهل الصُفَّة ؟ [2] فقال: «أما الصُفَّة التي ينسب إليها أهل الصُفَّة من أصحاب النبي فكانت في مؤخر مسجد النبي في شمالي المسجد بالمدينة النبوية (وهي الآن تعرف بدكّة الأغوات) كان يأوي إليها من فقراء المسلمين من ليس له أهل ولا مكان يأوي إليه...

«فلما كان المؤمنون يهاجرون إلى المدينة النبوية كان فيهم من ينزل على الأنصار بأهله أو بغير أهله، لأن المبايعة كانت على أن يؤوهم ويواسوهم. وكان في بعض الأوقات إذا قدم المهاجر اقترع الأنصار على من ينزل (عنده) منهم. وكان النبي قد حالف بين المهاجرين والأنصار وآخى بينهم، ثم صار المهاجرون يكثرون بعد ذلك شيئاً بعد شيء، فإن الإسلام صار ينتشر والناس يدخلون فيه ... فكان من لم يتيسر له مكان يأوي إليه، يأوي إلى تلك الصُفَّة التي في المسجد، ولم يكن جميع أهل الصُفَّة يجتمعون في وقت واحد، بل منهم من يتأهل (أي يتزوج ويكون له أهل وبيت) أو ينتقل إلى مكان آخر يتيسّرُ له . ويجيء ناس بعد ناس، فكانوا تارة يقلّون، وتارة يكثرون، فتارة يكونون عشرة أو أقل وتارة يكونون عشرين وثلاثين وأكثر، وتارة يكونون ستين وسبعين.

---

(1)ابن تيمية: الفتاوى ج22/11، 23.
(2)المصدر السابق ج38/11 - 43.

«وأما جملة من آوى إلى الصُفَّة مع تفرّقهم (أي العدد الإجمالي) فقد قيل : كانوا نحو أربعمائة من الصحابة. وقد قيل كانوا أكثر من ذلك، ولم يعرف كل واحد منهم . وقد جمع أسماءهم الشيخ أبو عبدالرحمن السُلَمي في كتاب «تاريخ أهل الصُفَّة» جمع ذكر من بلغه أنه من أهل الصُفَّة . وكان معتنياً بذكر أخبار النُسَّاك والصوفيَّة والآثار التي يستندون إليه ا، والكلمات المأثورة عنهم، وجمعَ أخبار زهاد السلف وأخبار جميع من بلغه أنه كان من أهل الصفة، وكم بلغوا، وأخبار الصوفية المتأخرين بعد القرون الثلاثة. وجمع أيضاً في الأبواب : مثل حقائق التفسير، ومثل أبواب التصوف الجارية على أبواب الفقه، ومثل كلامهم في التوحيد والمعرفة والمحبة. ومسألة السماع وغير ذلك من الأبواب، وفيما جمعه فوائد كثيرة ومنافع جليلة».

وقال عنه أنه من أهل الخير والدين والصلاح والفضل، وما يرويه من الآثار فيه من الصحيح الشيء الكثير، ويروي أحياناً أخباراً ضعيفة، بل موضوعة يعلمها العلماء..

ونقل عن البيهقي أنه نقل عن أبي عبدالرحمن السلمي، وأنه صالح ولا يتعمّد الكذب أبداً، وقد يخطىء في الرواية. ومن هؤلاء النساك والزهاد الصوفية من هو مُتقن لعلم الحديث مثل ثابت البُنَّاني والفُضيل بن عياض وأمثالهما. ومنهم من قد يقع في بعض حديثه غلط وضعف، مثل مالك بن دينار وفرقد السبخي ونحوهما.

قال: «فالذي جمعه الشيخ أبو عبدالرحمن السلمي ونحوه في تاريخ أهل الصفة وأخبار زهاد السلف وطبقات الصوفية، يستفاد منه فوائد جليلة، ويجتنب ما فيه من الروايات الباطلة، ويتوقف فيما فيه من الروايات الضعيفة».

ثم قال: «ومن له في الأمة لسان صدق عام، بحيث يُثنى عليه، ويُحمد في جماهير أجناس الأمة فهؤلاء هم أئمة الهدى، ومصابيح الدُجى، وغلطهم قليل بالنسبة إلى صوابهم . وعامَّته من موارد الاجتهاد التي يُعذرون فيها. وهم الذين يتّبعون العلم والعدل، فهم بُعداء عن الجهل والظلم، وعن اتّباع الظّن وما تهوى الأنفس».

فأي إنصاف أعظم من هذا الإنصاف وأي عدل أشدُّ من هذا العدل؟ فقد قال ابن تيمية عن هؤلاء الصوفية الصادقين بأنهم «أئمة الهدى ومصابيح الدجى »، وغلطهم قليل بالنسبة إلى صوابهم، وعامّته من موارد الاجتهاد الذي يُعذرون فيها (وإذا اجتهد العالم أو القاضي فأخطأ فله أجر) قال: «وهم الذين يتّبعون العلم والعدل، فهم بُعداء عن الجهل والظلم، وعن اتباع الظن وما تهوى الأنفس».

ومن اتهمهم بذلك فقد ظلم نفسه، وأوبقها واتّبع هواه وسارع إلى الظن السيىء بأخيه المسلم، وظلمه وبهتَهُ، والله حسيبه، فما أحسن ما قاله ابن تيمية.

وتحدَّث حد يثاً طويلاً عن الولي وما ورد فيه من آيات وحديث الولي . وقد جعلنا لهذا الموضوع فصلاً خاصاً فلا نعيده هاهنا. وقد أكَّد ابن تيمية على أن الولي قد يخطىء «فليس من شرط أولياء الله المتقين أن لا يكونوا مخطئين في بعض الأشياء خطأً مغفوراً لهم، بل ولا من شرطهم ترك ال صغائر مطلقاً، بل ولا من شرطهم ترك الكبائر أو الكفر الذي تعقبه التوبة». فكم من هؤلاء الصحابة كان كافراً معانداً محارباً لله ولرسوله، فلما آمن وأسلم صار

من المُبشَّرين بالجنَّة، منهم عمر بن الخطاب . والتوبة تجبُّ ما قبلها، والإسلام يَجبُّ ما قبله وقد قال تعالى: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ *لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ *لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [الزمر: 33 - 35] .

قال ابن تيمية: «والمتّقون هم أولياء الله، ومع هذا فأخبر أنه يكفّر عنهم أسوأ الذي عملوا . وهذا أمر متفق عليه بين أهل العلم والإيمان».

والأولياء ليسوا معصومين، ولكن الله سبحانه وتعالى بكرمه يحفظهم من الذنوب وإن ألمّوا بها سارعوا وبادروا بالتوبة النصوح.

وسُئل عن أحاديث مكذوبة عن أهل الصُفَّة وأنهم لم يقاتلوا قط مع النبي ومفتريات أخر . وقال ابن تيمية عن حديث: «أنا من الله والمؤمنون مني» لا يُحفظ هذا اللفظ عن رسول الله ، لكنه قال لعلي: «أنت مني وأنا منك» كما قال الله سبحانه {بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ} أي أنتم نوع واحد، متّفقون في القصد والهدى كالروحين اللتين تتّفقان في صفاتهما . وهي الجنود المجنَّدة التي قال النبي : «الأرواح جنود مجنَّدة فما تعارف منها إئتلف وما تناكر منها اختلف».

الحلول والاتحاد:

وقال [1]: «ليس أحدٌ من أهل المعرفة يعتقد حلول الربّ تعالى به أو بغيره من المخلوقات ولا اتحاده به. وإن سُمِعَ شيء من ذلك منقول عن بعض أكابر الشيوخ فكثير منه مكذوب . اختلقَهُ الأفّاكون من الاتحادية المباحيّة الذين أضلّهم الشيطان وألحقهم بالطائفة النصرانية.

«والذي يصحُّ منه عن الشيوخ له معان صحيحة . ومنه ما صدر عن بعضهم في حال استيلاء حالٍ عليه، ألحقَهُ تلك الساعة بالسكران الذي لا يميّز ما يخرج منه من القول ثم إذا ثاب عليه عقله وتمييزه ينكر ذلك القول، ويكفّر من يقوله. وما يخرج من القول في حال غيبة عقل الإنسان لا يتخذه هو ولا غيره عقيدة، ولا حكم له، بل القلم مرفوع عن النائم والمجنون والمغمى عليه والسكران الذي سكر بغير سبب محرّم، مثل من يُسقى الخمر وهو لا يعرفها أو أُوجرها [2]حتى سكر أو أطعم البنج[3] وهو لا يعرفه كذلك».

وهذا كلام يدلُّ على منتهى الإنصاف والدقّة والعدل وحسن الظن بأعلام المسلمين . فقد أحسن الدفاع عنهم. وقسَّم ما ينقل عنهم إلى مجموعات (أولها) كلام مكذوب عليهم (ثانيها) كلام صحيح له معان صحيحة تحتاج إلى دقة نظر وفهم. ويقول ابن تيمية : «نعم !! للمؤمنين العارفين بالله المحبّين له، من مقامات القرب ومنازل اليقين ما لا تكاد تحيط به العبارة، ولا يعرفه حقّ المعرفة إلا من أدركه وناله . والربُّ ربّ والعبد عبد . ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته. وليس أحدٌ من أهل المعرفة بالله يعتقد حلول الربّ تعالى به، أو بغيره من المخلوقات ولا اتحاده به.

---

(1)ابن تيمية: الفتاوى ج73/11 - 75.

(2)الوجور وضع الدواء في الفم مباشرة.

(3)وهو الشيكران وكان يستخدم في البنج ويسمى البنج.

(ثالثها) كلام قاله الشيخ[1] وهو في حالة غيبوبةتشبه حالة السكران الذي لا يميّز ما يقوله وذلك بسبب استيلاءُ حالٍ عليه، أو واردٍ من الواردات بحيث لا يميّز القول . فإذا ثاب إلى عقله ورشده أنكر ذلك أشدّ الإنكار ورفضه أتمَّ الرفض.

(رابعها): قال : «وقد يشاهد كثير من المؤمنين من جلال الله وعظمته وجماله أموراً عظيمة تصادف قلوباً رقيقة فتحدث غشياً وإغماء . ومنها ما يوجب الموت، ومنها ما يخلّ العقل وإن كان الكاملون منهم لا يعتريهم هذا كما لا يعتري الناقصين عنهم، لكن يعتريهم عند قوة الوارد على قلوبهم، وضعف المحلّ المورود عليه، فمن اغترَّ بما يقولونه أو يفعلونه في تلك الحال كان ضالاً مضلاً».

وهكذا اعتذر لهم ابن تيمية بكافة الاعتذارات، وحمل كلامهم على أحسن محامله، ومن لم يجد له محملاً جعله في حالة اصطلام وعدم تمييز كما يقع فيه من فقد عقله لأي سبب من الأسباب فلا يؤاخذ بما يقول ويفعل حتى يرجع إليه عقله ورشده.

ثم أورد ابن تيمية مرة أخرى حديث الولي الذي استشهد به عشرات المرات في الفتاوى وغيرها. ثم قال: فانظر كيف قال في تمام الحديث : «فبي يسمع وبي يبصر ولئن سألني .. ولئن استعاذني...» فميّز بين الربّ والعبد ألا تسمع إلى قوله تعالى : {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْ رِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ *} [المائدة: 72] وقال: {وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَ ابٌ أَلِيمٌ} [المائدة: 73] إلى قوله: {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ} [المائدة: 75] .

وقال: {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَ ا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً *لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا *} [النساء: 171، 172] .

«وكذلك روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله قال : «يقول الله تعالى يا ابن آدم !! مرضت فلم تعُدني !! فيقول: رب كيف أعودك وأنت ربُّ العالمين؟ فيقول : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض، فلو عدته لوجدتني عنده» .

وذكر في الجوع والعري مثل ذلك . فانظر كيف عبَّر في أول الحديث بلفظ مرضتُ، ثم فسَّره في تمامه، بأن عبدي فلاناً مرض، فلو عُدتَه لوجدتني عنده، فميّز بين الرب والعبد . والعبد العارف بالله تتحدُّ إرادته بإرادة الله بحيث لا يريد إلا ما يريده الله أمراً به ورضا . ولا يحبُّ إلا ما يحبّه الله، ولا يُبغض إلا ما يبغضه الله، ولا يلتفت إلى عذل العاذلين، ولوم

(1)ابن تيمية: الفتاوى ج75/11، 76، 77.

اللائمين كما قال سبحانه {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ} [المائدة: 54] انتهى كلام ابن تيمية.

وقد صدق ابن تيمية في كل م ا قاله. وهو عين ما يقوله المحقّقون من شيوخ التصوف الحقّ، البعيد عن الحلول والاتحاد ووحدة الوجود.

الشيخ سالم بن عبدالرحمن باصهي والفناء والاتحاد:

وإليك ما قاله الشيخ المحقق سالم بن عبدالرحمن باصهي الشبامي الحضرمي (1280 - 1336هـ) في شرح هذه المصطلحات في رسال ته المخطوطة «كشف الغطا عما يحصل للسالكين من الخطا» فإنه يتفق تماماً مع ابن تيمية والشيخ ابن القيم، وما ذكره الإمام عبدالله الحداد والإمام عبدالرحمن بلفقيه وغيرهم، فكلهم بفضل الله أتوا بكلام واحد مع اختلاف العبارة نثراً ونظماً.

وسنبدأ هاهنا بما قاله باصهي عن مقام الفنا ثم المقامات الأخرى:

اعلم أن مقام الفنا هو المقام الرابع من مقامات التوحِيد، الذي لم يسطَّر شرحه في الكتب إلا مجرد الرمز، والإيماء إلى بعض مقدماته بضرب الأمثلة لا غير.

فالمقام الأول من مقامات التوحيد؛ هو: أن يقول الإنسان: لا إله إلا الله بلسانه ، وقلبه غافل عنه، أو منكر له، كتوحيد المنافقين.

والمقام الثاني من مقامات التوحيد: أن يصدّق بمعنى اللفظ كما صدق به عموم المؤمنين، وهو اعتقاد العوام.

والمقام الثالث من مقامات التوحيد: أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق، وهو مقام المقرّبين، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهَّار.

والمقام الرابع من مقامات التوحيد : أن لا يرى في الوجود إلا واحداً، وهي مشاهدة الصدّيقين، وتسمّيه الصوفية: الفناء في التوحيد.

و«اعلم أن الحق جل وعلا كائنٌ في رتبة الألوهية، لا ينزل عنها أصلاً، ولا يتّصل بالحادث ولا يحلُّ فيه، بل تعالى الحقُّ عن الاتصال والانفصال، لأنهما من لوازم الحدوث، والحادث أبداً في رتبة الحدوث، لايرقى عنها أصلاً، فشتَّان بين القديم والحادث حتى يتصل أحدهما بالآخر ويتّحد، فالحادث أبداً في رتبتة لا يرقى عنه أبداً، ولا يتَّصل بالقد يم، ولا يستحيل الحادث حتى يصير قديماً أصلاً.

وإنما الفناء الذي يشير إليه العارفون؛ هو: أن العالم يغيب في نظر العارف كالقلم في يد الكاتب، فلا ينظر الإنسان إلى القلم وإنما ينظر إلى الكاتب الذي بيده القلم، ولا يكون القلم معدوماً ولا اتّحد بالإنسان، وإنما حصلت الغيبة عنه لكونه معزولاً عن الفعل الحاصل بواسطته، وإنما الفعل للإنسان.

فهكذا العالم، لم تكن التدبيرات والحركات والسكنات له استقلالاً، وإنما هي مخلوقة فيه، وهو كالمُجري لها فقط، فصار الملَحوظُ والمشاهدُ خالقُ تلك التدبيرات والحركات والسكنات عند العارفين، و غاب عن شهودهم العالم، وجميع حركاته وسكناته، فأعرضوا عنه كما أعرض الإنسان عن القلم الذي في يد الكاتب، وصار الملحوظ عنده الكاتب.

ومثَلُ ذلك: الخطُّ[1] ؛ الذي يصل إليك من أحبِّ الناس إليك، فإنك حال قراءتك له تغيب عن البياض والحبر، مستغرقاً في لذّة الخطاب معه، حتى يصير الكاتب المذكور كأنه حاضر عندك، بل يصير عندك في تلك الحالة أقرب من كل قريب، وأنت في تلك الحالة غائب عن ذكر البياض والحبر، بل غائب عن جميع ما بين يديك من أهل وولد، مع أن هذه الأشياء موجودة وحاصلة عندك، وإنما غبتَ بغيرها ـ حتى لم تشهدها ولم تذكرها ف ي تلك الحالة ـ لاستغراقك بغيرها.

فهكذا فلتفهم غيبة العارف عن الكون، مع بقاء الكون، ووجوده على ما هو عليه من الحدوث.

ـ فإن قلت: فمن أين يحصل الالتباس؟ إذا كان الأمر كما ذكرت!!.

ـ فاعلم؛ أنه يحصل الالتباس مع التحلّي، لأن الإنسان إذا تخلّى عن الرذائل وتحلّى بالفضائل، صار قلبه كالمرآة، فيرتسم فيه الوجود كله كارتسام الصورة في المرآة. فإذا صار هذا الحال ذوقاً للسالك، التبس على السالك : المتجلّي، والمُتَجلَّى فيه، فظن حينئذٍ أنه عين القديم، ولم يحصل عنده تمييز بينهما لالتباس المُتجلِّي والمُتَجلَّى فيه، ودقةِ الفرق بينهما.

وهذا مزلّة أقدام الرجال، وغلطٌ فاحشٌ، أعني: ظن السالك أنه عين المتجلِّي والعياذ بالله، وأما من حصل له التجلِّي ولم يعتقد أنه عين المتجلِّي، بل استغرقه المتجلّي عن غيره، ولم يشهد غيره، فهذا هو مشهد العارفين، فافهم.

وقد زلَّ كثير بهذا الالتباس، وظنو ا أنهم في عين الصواب، بل توهموا أنهم في أعلى المقامات، ومن نبَّههم على هذا الخطأ نسبوه إلى القصور والانحطاط عن شأوهم، وقالوا له : أنت بعدُ لم تصلْ إلى ما نحن فيه من الذوق وصفاء التوحيد، لتقيّدكم بمراسم الشريعة، وهذه سيرةُ العوام وعلماء الظاهر، وأما نحن فقد ارتقينا عن هذا الحال النازل!!

فغلطوا، ولم يعلموا أن العقائدَ الظاهرة لم تتغير بحصول الكشف والتجلّي أصلاً، وإنّما تزداد وضوحاً وتتسع دائرة الفهم فيها، لأنها لا تتغير أصلاً.

فلو استهلك العارفُ غاية الاستهلاك في مقام الفناء لم يتغير العالم عن حاله الأول أصلاً ، ولم يصرْ قديماً، بل يبقى في عقيدة العارف على حكمه الأول من الحدوث، وإنما يغيب عنه فقط برؤية مدبِّره ومصرِّفه، يغيبُ عنه شهوداً فقط، لا أنَّ العالم انعدم بعد أن كان موجوداً.

ثم قال: «فأهل الحق: الأشياء عندهم باقية على حدوثها، لم تتغير أصلاً، وإنما يفنون ع نها بعدم ملاحظتها، ويلحظون جناب الحق فقط».

---

(1)المقصود بالخطِّ ها هنا الرسالة والجواب..

والملحدون: الأشياء عندهم هي عين الحق، فما هناك حادث.

فأهل الحق: تغيب الأشياء عن شهودهم فقط في حالة الفناء، وهي عندهم موجودة في نفس الأمر، كما أن الإنسان تغيب عن نظره رؤية النجوم بالنهار ولا يشاهد إلا الشمس، مع علم ه: أن النجوم موجودة في السماء، إلا أن الشمس سترتها فقط. فهكذا فليفْهَم شهود العارفين بالله، وعدم نظرهم إلى الغير مع وجود الغير في نفس الأمر.

ولنزد ذلك وضوحاً أيضاً، فنقول:

إن المخلوقات كالمرايا لآثارِ صفات الله، فلم يلتفت العارف إلى المرايا بشهود ما فيها، لا لكون المرايا صارت عين المرئي فيها، فافهم.

فمن هنا غلط من غلط، وزلّ من زلّ، فظن أن لا مرآة، ومنه نشأ خيالُ من قال: أنا الحق، والعياذ بالله.

ومثله أيضاً: إذا قابل المرآةَ شيء أحمر ـ مثلاً ـ، فيظن البليدُ أن المرآةَ حمراء، وأن تلك الحُمرة التي فيها هي عينُ المرآة وجزء منها، والحال : أنها ليست المرآةُ حمراءَ، ولم تكن الحمرة جزءاً منها أصلاً، فلو كسروا المرآةَ لم يجدوا فيها حُمرةً، ولم تكن حمراء.

فهكذا الموجودات؛ تلألأ فيها أنوار الجمال الإلهي، فظن الغَمْرُ : أن الموجودات جزءٌ من الذَّات، أو أنها عين الذَّات، أ و أن الذّات حلّتْ فيها، كما توهّم الناظر إلى المرآة : أن تلك الحمرة كائنة في المرآة وحَالَّةٌ فيها، أو أنها عين المرآة. والحال أنها لم تكن حالَّةٌ في المرآة ولم تكن عين المرآة، وإنما هي خيال فقط، ارتسم فيها.

هكذا العالم كالمرآة!!، لم يحلَّ فيه الحق، ولا اتصل به ولم يكن عينه أصلاً، وإنما ارتسمت فيه أنوار جماله وجلاله من غير حلول ولا اتحاد ولا اتصال، فشتّان بين القديم والحادث.

فأنَّى للحادث أن يتصل بالقديم أو يصير محلاً له، أو يصير عينه، وإنما استترت في نظر العارفين بسبب شهود أنوار الحضرة الإلهية، حتى صارت الح ادثات غيباً في أنوارها عند العارفين، كما استترت النجوم بضوء الشمس حتى صارت النجوم غيباً في أنوار الشمس عند الناظرين.

وإذا عرفتَ أن الحادثاتِ لم تصِرْ عين الحق في حال الفناء، بل صار الحق هو المشهود لهم في تلك الحالة، ولم يروا غيره، لاستتار الغير تحت أنوار ظ هوره، حتى أنهم لم يذكروا الغير ولم يخطر ببالهم، لا أنَّ الغيرَ انعدم في نفس الأمر واضمحل في الخارج.

وظهر لك حينئذٍ : أن جميع ما ذكره العارفون من الألفاظ الموهمة للحلول والاتحاد فمعناهم: فناء الموجودات وانعدامها في شهودهم، لا في نفس الأمر، كما أن انعدام النج وم للناظر بالنهار، إنما هو في شهودهم لا في نفس الأمر، لأنها موجودة في السماء، وإنما استترت، فهكذا هنا فافهم.

فكل ما أشار إليه العارفون من فناء السِوى، فيعنون به ما ذكرنا.

فمعنى قولهم: (لا موجود إلا الله)؛ أي: أن غير الله لا يسمى موجوداً مع الله، لكون وجوده من غيره، فلمّا لم يكن في الموجود من هو بهذا الوصف إلا الله، قيل : لا موجود إلا الله، لأنه لم يستمدّ وجوده تعالى من غيره. وقيل: لغير الله فانٍ [1] لكونه استفاد الوجود من غيره وهو الله، فصار الغيرُ من جملة فعلِ الله تعالى، فلم يكن غيرَه بهذا الاعتبار، لاستفاد ة الوجود منه تعالى، ولم يكن عينَ الحق لكونها ـ أعني: المخلوقات ـ حادثة والحق قديم.

وحينئذٍ يتضح لك أيضاً قولُهم: (لستَ هُو ولا غيرَه)، فمعناهم: أنك لستَ هو، لأنك حادث، والحق قديم، فشتان ما بينهما.

ومعنى قولهم: (أنك لست غيره)، لأنك مستفاد منه، أعني: وجودك مستفاد منه، لأن الغير هو من لم يستفد وجوده من غير، فلما كان قيامك به تعالى قيل: إنك لست غيره، لا أنك عينه، فافهم.

ثم قال «وبالجملة؛ فجميع ألفاظ العارفين التي توهم الحلول أو الاتحاد، لم يعنوا بها أن الموجودات معدومة في نفس الأمر حتى تصير هي هو، وإنما يعنون ب عدَمها في الشهود لا في نفس الأمر، وإن اختلفت عباراتهم.

ونحن إن شاء الله ننقل لك من كلامهم ما يؤيد ما ذكرناه.

مثال آخر؛ يعرفك الفرق بين العارف وغير العارف:

فالعارفُ : يصير عنده العالم كالكتابة، ويفهَم من تلك الكتابة أخباراً وعلوماً وحِكماً وأسراراً كل يوم، واستغراق قلبه في معانيها، غائب عن الحروف والحبر، بما في ضمن تلك الكتابة من المحادثات والمخاطبات اللذيذة، حتى إنه من شدّة استغراقه يرى كأنه بين يدي الله، يفهم عنه ما يقول بواسطة الخلق، فهكذا العارف مستغرق بمكالمة الكاتب الذي هو الله وغائب عن الحبر والحروف الذي هما من المخلوقات.

وأما غير العارف: فيرى العالم ولم يشهد فيه شيئاً، ولم يفهم عنه شيء، فهو كالواقف على الكتابة، ولم يعرف ما في ضمنها، لكونه ليس بقارىء، فهكذا مثال غير العارفين، فافهم.

فأنوار جمال الحضرة مشرقة على صفحات الموجودات، ظاهرة عند أهل البصائر، قا ل الحبيب عبدالله بن علوي الحداد:

واشْهد جمالاً أشرقت أنوارُه في كلِّ شيء ظاهراً لا خافي فافهم قوله : (واشهد)، وافهمْ قوله: (في كل شيء)، تعرفْ صحة الأمثلة السابقة.

ومما يدلك أيضاً على أن الفناء إنما هو في الشهود، قوله:

اللهَ لا تشهد سواه ولا ترى إلاه في ملك وفي ملكوت «فمن حصل له شهود الحقّ بالذوق، ولم يشهد غير الله في العالم واعتقد أنه لم يكن هناك خلق أصلاً، حتى صار العالم عنده عين الحقّ، فقد زلَّ ووقع في الاتحاد. ومن حصل له شهود الحقّ بالذوق، فلم يشهد غير الله أصلاً، ومع ذلك فهو يعتقد أن العالم مخلوق على هيئة ولم يصرْ عين الحقّ، ولا صار قديماً، وإنما

---

(1)كل ما هو غير الله كتب عليه الفناء. ولذا يقال «كل ما هو غير الله فإنه فانٍ».

غاب عنه في حال الشهود فلم يذكره، ولم يخطرْ بباله، بل سترته أنوار ظهور الحقّ فهذا هو المحقّق.

فلما كان الحال يحتاج إلى دقّة نظر، ونور وافر يميّز به بين الحقّ والباطل نهى أهل الله عن كشف هذه الأذواق للعامة حتى لا يقعوا بسماعها في اعتقاد القول بالحلول والاتحاد [1]...

وقد قال الإمام عبدالله الحداد:

فقد ستروا أهل الطريق وأخملوا أموراً من التحقيق حتى تغطّتِ

لئلا يراها المنكرون فيخسروا بإنكارها لا عن دليل وحجة

ويسمعها قوم وليسوا من أهلها فيرتبكوا فيها بجهل وغربة

كما ضلّ أقوام بها وتخبَّطوا ومالوا عن الدين القويم وشرعةِ

وكم من قريبٍ بعدّته عبارةٌ عن الفهم فاستمسك بحبل الشريعةِ

ثم نقل الشيخ باصهي كلام كثير من العلماء الأجلاّء في هذه النقطة الهامة : قال الإمام أبو حامد الغزالي في كتاب «إحياء علوم الدين» كتاب «ذم الغرور»:

«وسالك هذه الطريق قد يغترَّ في الوقوف على بعض هذه الحجب (النورانية). وقد يغترّ بالحجاب الأول. وأول الحجب بين الله وبين العبد هو نفسه، فإنه أيضاً أمر ربَّاني، وهو نور من أنوار الله تعالى، أعني سرَّ القلب الذي يتجلّى فيه حقيقة الحقِّ كله حتى أنه ليتسع لجمل ة العالم، ويحيط وتتجلّى فيه صورة الكلّ. وعند ذلك يشرق نوره إشراقاً عظيماً، إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه.

«وهو في أول الأمر محجوب كمشكاة هي كالساترة له، فإذا تجلّى نوره، وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله عليه، ربما التفت صاحب القلب إلى القلب فير ى من جماله الفائق ما يدهشه، وربما سبق لسانه في هذه الدهشة فيقول: أنا الحقّ. فإن لم يتضح له ما وراء ذلك اغترَّ به ووقف عليه، وهلك».

وقال الغزالي: «وبهذه العين نظر النصارى إلى المسيح فرأوا إشراق نور الله قد تلألأ فيه فغلطوا فيه كما يرى كوكباً في مرآة أو في م اء فيظن أن الكوكب في المرآة فيمدّ يده إليه ليأخذه فهو مغرور».

(1)وقد وضع الحبيب العلامة علوي بن طاهر الحداد فصلا في كتابه «عقود الألماس » بعنوان: «في التحذير من الطرائق الشيطانية الممقوتة المؤدية إلى الزندقة والكفر» وقال أن هذه الطرق كانت موجودة في زمن الحبيب عبدالله الحداد في الهند، في أرض الدّكن، وفي آشي (ما يعرف اليوم بأندونيسيا وماليزيا وغيرها). وقال الحبيب علوي بن طاهر الحداد أنها موجودة في زمنه (بداية القرن العشرين) في أماكن أخرى مثل شرق أفريقيا (زنجبار) والصومال ولحج وعدن . وهاجمهم هجوماً شديداً وأعلن كفرهم إن لم يتوبوا ويرجعوا وقد ناقش بعضهم ورجعوا وتابوا. وشدَّد النّكير على المدعو حسن الضالعي الذي ادّعى أنه من أهل البيت . وأنه كذّاب ولا صحة لما ادعاه . وأنه أضلَّ كثيرين بدعوته وأنه من أصحاب الحلول ووحدة الوجود وأسقط التكاليف والصلاة والصيام وغيرها. ويدّعون أنّ ذلك هو التوحيد. وذكر الحبيب علوي بن ط اهر الحداد أنه قابل أفراداً منهم، فتاب بعضهم على يديه ورجعوا عن مقالتهم الكفرية . ورأى منهم رجالاً في جاوه وسومطره وآشي . وقد قام العلماء بمحاربتهم وفضح نحلتهم الضالة وما فيها من كفر وزندقة وزيغ. وأطال في الردِّ عليهم فانظره في عقود الألماس ج106/1 - 122..

«وأنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله تعالى لا تحصى في مجلدات » انتهى كلام الغزالي في الإحياء. وقال في كتاب «الإملاء في مشكلات الإحياء»:

«المرتبة الرابعة : فهم قوم رأوا الله تعالى وحده ثم رأوا الأ شياء بعد ذلك فلم يروا في الدارين غيره ولا اطلعوا في الوجود على سواه. فإن قلت: أليس الوجود مشتركاً بين الحادث والقديم، والمألوه والإله. ثم معلوم أن الإله واحد، والحوادث كثيرة فكيف يرى صاحب هذه المرتبة الأشياء شيئاً واحداً. ذلك على طريق قلب الأعيان، فتعود ال حوادث قديمة، ثم تتَّحد بالواحد فترجع هي هو .. وفي هذا من الاستحالة والمروق عن مصدر العقل ما يُغني عن إطالة القول فيه...

«والجواب عن ذلك أن الحوادث لم تنقلب إلى العدم ولم تتحد بالفاعل ولا اعترى الولي التخييل فتخيّل ما لا حقيقة له. وإنما هو ولي مجتبى وصديق مرتضى خصَّه الله بمعرفته على سبيل اليقين والكشف التام «وكشف لقلبه ما لو رآه ببصره ما ازداد يقيناً»...

ثم شرح كيف أن الولي يرى الأشياء من حيث أوجدها الله تعالى بالقدرة، فلا وجود لها إلا به وبسببه وإرادته، فإن الولي يرى صانعها ومدبّرها ولا يراها هي لأنها أثر من آثاره..

ونقل الشيخ باصهي عن ابن عربي كلاماً مناقضاً لما يقال عنه . قال ابن عربي : «ما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد، كما إن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول . فمن فصل نفسه عن الحقِّ فنعم ما فعل، ومن وصل فكأنما شهد على نفسه بأنه كان مفصولاً حتى اتّصل، والشيء الواصل لا يصل بنفسه. وما ثمَّ إلا ذاته ومصنوعاته».

وقال: «الحادث لا يخلو من الحوادث . لو حلَّ بالحادث القديم لصحّ قول أهل التجسيم، فالقديم لا يحلُّ ولا يكون محلاً . ومن ادّعى الوصل فهو في عين الفصل »... وقال: «أنت أنت، وهو هو، فإيّاك إيّاك أن تقول كما قال العاشق (أنا من أهوى ومن أهوى أنا)، فهل قدرَ هذا أن يردّ العينين واحدة . لا والله ما استطاع فإنه جهل . والجهل لا يتعقّلُ حقّاً . ولا بدّ لكل أحد من غطاء ينكشف عند لقاء الله» ونقل نقولا على نفس هذا النسق منكراً الوحدة والاتحاد والحلول. وقال: «لا يصح أن يكون الخلق في رتبة الحقّ أبداً، كما لا يصح أن المعلول في رتبة العِلّة».

ثم نقل عن عوارف المعارف للسهروردي نقولات كثيرة ضد الاتحاد والحلول ووحدة الوجود واعتبرها من الكفر والضلال والزيغ والبعد عن الحق.

الشعر في لطائف المنن

وكذلك فعل حين نقل عن الشعراني في لطائف الم نن، وردَّ رداً صريحاً وعنيفاً على من زعم الحلول والاتحاد ووحدة الوجود. وشبههم بعبَّاد الأصنام. ثم قال الشعراني:

«وبعضهم رأى أن كل شيء في الوجود هو الإله وأن عين هذا الوجود الحادث هي عين الله من الجماد والنبات والعقارب والحيّات والجان والإنس والملك والشيطان ، ويجعلون الخالق هو عين المخلوق... وهذا كلام لا يرضاه أهل الجنون، ولا من كان في حُبِّهِ مجنون . وقد نُقلتْ هذه الأمور في زمننا هذا (أي زمن الشعراني) عن جماعة بالصعيد (أي صعيد

مصر)، فيعتقدون هذه الأمور فيما بينهم وبين أصحابهم من الملاحدة، وينكرون ذلك في الظاهر خوف القتل. بل الذي أقول أن إبليس نفسه لو ظهر، ونسب إليه هذا المعتقد لتبرأ منه، واستحى من الله، وإن كان هو الذي يُلقي في نفوسهم ذلك.

«وقد حكيت لسيدي الشيخ علي الخواص بعض صفات هؤلاء فقال: هؤلاء الزنادقة، وهم أنجس الطوائف، لأنهم لا يرون حساباً ولا عقاباً، ولا جنَّةً ولا ناراً، ولا حلالاً ولا حراماً، ولا آخرة، ولا لهم دين يرجعون إليه، ولا معتقد يجتمعون عليه وهم أخسُّ من أن يُذكروا لأنهم خالفوا المعقولات والمنقولات والمعاني وسائر الأديان التي جاءت بها الرسل عن الله تعالى. ولا نعلم أحداً من طوائف الكفَّار اعتقد اعتقاد هؤلاء، فإن طائفة من النصارى قالت المسيح ابن الله وكفّرهم القوم الآخرون، وطائفة من اليهود قالت العزيز ابن الله وكفّرهم القوم الآخرون، فلم يجعلوا الوجود عين الله تعالى».

ثم نقل الشعراني ما سبق ذكره من كلام محيى الدين بن عربي من الكلام الجيد. وقال إن الأعداء دسّوا عليه في كتبه هذه المقالات والعقائد الزائفة. وأن النسخة من كتاب ابن عربي التي بخطّه ليس فيها هذه الأباطيل والكفر. وأن ابن عربي قال في الفتوحات المكيّة: «من أراد أن لا يضلّ فلا يرمِ ميزان ظاهر الشريعة من يده طرفة عين. ويعتمد ما عليه الأئمة المجتهدون ومقلّدوهم ويرفض ما عداه».

وأنهى باصهي رسالته بالدعوة إلى الالتزام التام بالشريعة وعلى الإنسان أن يشتغل بالطاعات ووظائف العبودية، ويكون سلوكه على التقوى، ويبتعد عن هذه المقالات الزائغة الضالة؛ ويطلب الهداية من الله إلى الصراط المستقيم في كل نَفَس. ويجتهد كل الاجتهاد في مداواة أمراض قلبه وأن يتحقّق بأوصاف الفقر التام والفاقة إلى خالقه وبارئه.

ثم وضع تذييلاً لكتابه الهام، وموضوعه ظهور شخص يُدعى السيد حسن الضالعي في جبال يافع (من مخاليف اليمن) في زمن الكاتب يدعو الناس إلى وحدة الوجود وقد شنَّ عليه باصهي حملة شعواء أبادت خضراءه. وأوضح أن هذا الكلام كلام كفري ساقط. وإنه قد قابل المدعو حسن الضالعي وجادله وأوضح له أسباب المفاهيم الخاطئة والضالة المضلّة. وهو ما سبق أن وضعه في رسالته المسمّاة «كشف الغطاء عما يحصل للسالكين من الخطأ»، والتي نقلنا معظم ما فيها فيما سبق. ثم جاء المدعو حسن الضالعي بعد شهر واعترف بخطئه، وأن ما قاله باصهي هو الحقّ، وأنه رجع عن هذه النحلة. ثم اتّفق به باصهي بعد ذلك بسنة في عدن وقال أنه قد ترك جميع ما كان يقوله من وحدة الوجود، وأنه متمسك بالشريعة.

ولكن هذا الرجل عاد إلى ما كان عليه. وقد حمل عليه أيضاً حملة قوية أبانت مخازي أقواله العلامة السيد علوي بن طاهر الحداد [1] (مفتى جهور بماليزيا وكانت تسمى الملايو).

ورغم أن اتباع المدعو حسن الضالعي بلغوا الآلاف إلا أن موقف العلماء في حضرموت وغيرها جعل هذه النحلة تختفي، وفتنتها تنتهي، ولله الفضل والمنَّة.

الحبيب الحداد يردُّ على الفرق الزائغة ويبين طريقة أهل الحقِّ والهدى:

(1)عقود الألماس ج106/1 - 122.

قال الحبيب عبدالله الحداد في قصيدته التائية بعد أن ذكر أصنافاً من العابدين القانتين ومنهم من يؤثر الخلوة والبعد عن الناس، ومنهم مقيم الأنام، ولكنه مستور عنهم تحت أستار الله، مفضلاً الخمول على الظهور ومنهم:

ومنهم رجال ظاهرون بأمرهِ لإرشاد هذا الخلق نهج الطريقةِ

لهم هِمَّةٌ في دعوة الخلق جُملةً إلى الله عن نُصحٍ ولُطفٍ ورحمةِ

فهم حُجَّةٌ للمؤمنين بربهم وفيهم لمرتاد الهدى خيرُ قُدوةِ

وحتفٌ على أهل الضلال وحُجَّةٌ تقوم على أهل الشقاقِ بشقوةِ

وكلٌّ على نهج السبيل السويّ لن يخالف أمراً آخذاً بالشريعة

وإن الذي لا يتبع الشرع مطلقاً على كل حالٍ عبدُ نفسٍ وشهوةِ

صريع هوى يُبكى عليه لأنَّهُ هو الميْتُ ليس الميْتُ ميتَ الطبيعةِ

وما في طريق القوم بدءاً ولا انتها مخالفةٌ للشرع فاسمع وانصتِ

وخلِّ مقالات الذين تَخبَّطوا ولا تكُ إلا مع كتاب وسُنَّةِ

فثمَّ الهدى والنور والأمن من ردى ومن بدعةٍ تُخشى وزيغٍ وفتنةِ

ومُتّبعو حُكم الكتابِ وسُنَّةٍ هم المفلحون الفائزون بجنّة

عليهم من الرحمن رضوانه الذي هو النعمة العظمى وأكبر مِنَّةِ

ومن حاد عن علم الكتاب وسُنَّةٍ فبشِّره في الدنيا بخزي وذلّةِ

وبشِّره في العقبى بسكنى جهنم وحرمان جنَّاتِ الخلود ورؤيةِ

ثم يعتذر الإمام الحداد كما اعتذر ابن تيمية لما قد يبدو من كلمات موهمة وهي صحيحة أو كلمات حصلت في حالة فقدان الوعي والإدراك عن حالة وجدٍ وغلبة قال:

فقد ستروا أهل الطريق وأخملوا أموراً من التحقيق حتى تغطّتِ

لئلا يراها المنكرون فيخسروا بإنكارها لا عن دليل وحجَّةِ

كما أنكروا قومٌ على بعض من مضى من العارفين أهل الهدى والبصيرة

ويسمعها قومٌ وليسوا من أهلها فيرتبكوا فيها بجهل وغِرَّة

كما ضلّ أقوام بها وتخبّطوا ومالوا عن النهج القويم وشرعةِ

وإن الذي أبدى من القوم ما سبيله السترُ مغلوبٌ بحالٍ قويَّةِ

يفارقه التمييز عند ورودها عليه وإن أخطأ فليس بمُعْنتِ

وكم من قريب بعدَّته عبارةٌ عن الفهم فاستمسك بحبل الشريعة

وسلّم لأهل الله في كل مشكل لديك، لديهم واضحٌ بالأدلة

ودعا إلى الطريقة الزكيَّة ورياضة النفس فقال:

خليلي هل من مسعد منكما على سلوك سبيل دارسٍ وخفيَّةِ

رياضة نفس واعتزال عوائدٍ وقمع حظوظٍ للقلوب مُميتةِ

وترك الأماني والمرادات كلّها وكلِّ اختيار والتدابير جملة

وكنس ضمير القلب كي يبقى فارغاً من الحُبِّ للدنيا الغرور الدنِيَّةِ

وتطهيره سبعاً عن الميل للسوى بماء الفنا بالله عنه وغيبةِ

وجمع على المولى العظيم بترك ما عن الذكر يُلهي والتزام العبادةِ

فإن تسعداني بالوفاق فإن لي به بعض أنس وارتياح وقوَّةِ

وإلا فأمر الله عندي معظَّمٌ وعندي بحمد الله يا رُبَّ رغبةِ

وفي فصل حديث الولي (المثل الكامل) تقدم شرح صفات هذا الولي كما ذكره أئمة العلماء من أمثال ابن حجر العسقلاني وابن تيمية وابن القيم والشوكاني .. وما جادت به قريحة العلامة الشاعر عبدالرحمن بلفقيه والإمام عبدالله الحداد، وقد ردّوا في أثناء تلك الشروح على دعاوى الحلول والاتحاد، وما يزعمه هؤلاء المارقون عن الدين . كما فصّل الإمام ابن تيمية في موضوع الفناء وأنه ثلاثة أقسام:

أنواع الفناء عند ابن تيمية

(1) ـ فناء عن عبادة السوى: وهو أجلّ الدرجات وأرفعها وهو حقيقة التوحيد والإخلاص.

(2) ـ أن يفنى عن شهود ما سوى الله، وفيه نقص من عدم شهوده للأمر على ما هو عليه.

فإذا شهد حقائق أسمائه وصفاته وأحكامه خلقاً وأمراً كان أتمّ معرفة وشهوداً وإيماناً وتحقيقاً من أن يفنى عن شهود معنى آخر . وشهود التفرقة في الجمع، والكثرة في الوحدة، وهو الشهود الصحيح المطابق. لكن إذا قد ورد على الإنسان ما يعجز معه عن شهود هذا وهذا كان معذوراً للعجز، لا محموداً على النقص.

(3) ـ الفناء عن وجود السوى، وهو قول الملاحدة أهل الوحدة؛ الذين يقولون : وجود الخالق هو وجود المخلوق، وما ثمّ غير ولا سوى في نفس الأمر . فهؤلاء قولهم أعظم كفراً من قول اليهود والنصارى وعبَّاد الأصنام.

وقد أفاض في الرد عليهم بمثل ما قاله السهروردي في العوارف والغزالي في الإحياء، وفي الإملاء على إشكالات الإحياء... وما قاله القشيري في الرسالة، وما قاله الشعراني في لطائف المنن وشيخه على الخواص. وما فصله تفصيلاً الشيخ سالم بن عبدالرح من باصهي في رسالته المخطوطة «كشف الغطا عمَّا يحصل للسالكين من الخطا » وما ذكره العلامة الحبيب ابن طاهر الحداد في كتابه «عقود الألماس». وقد نقلنا معظم ما فيها لأهميتها البالغة . وما قاله الإمام الحداد والعلامة عبدالرحمن بلفقيه نظماً في هذا الباب.

والخلاصة أن أهل الإسلام وعلماؤه الأجلاء متّفقون على أن من قال بوحدة الوجود والاتحاد والحلول قد مرق مروقاً من الدين، بل يعتبر أشدُّ كفراً من اليهود والنصارى وعبدة الأصنام.

ما قاله ابن القيم[1] في موضوع الفناء : وهو يتفق في ذلك مع شيخه ابن تيمية وغيره.

قال: الفناء الذي يشار إليه على ألسنة السالكين ثلاثة أقسام: فناء عن وجود السوى، وفناء عن شهود السوى، وفناء عن عبادة السوى وإرادته. وليس هناك قسم رابع.

فأما (القسم الأول): فهو فناء القائلين بوحدة الوجود، فهو فناء باطل في نفسه، مستلزم جَحد الصانع، وإنكار ربوبيته وخلقه وشرعه، وهو غاية الإلحاد والزندقة [2] . وهذا هو الذي يشير إليه علماء «الاتحادية» ويسمّونه «التحقيق» وغاية أحدهم فيه أن لا يشهد رباً وعبداً، وخالقاً ومخلوقاً، وآمراً ومأموراً، وطاعة ومعصية، بل الأمر كله واحد !! فيكون السالك عندهم في بدايته يشهد طاعة ومعصية، ثم يرتفع عن هذا الفرق بكشفٍ عندهم إلى أن يشهد الأفعال كلها طاعة لله لا معصية فيها، وهو «شهود الحكم والقدر»، فيشهدها طاعة لموافقتها الحكم والمشيئة. وهذا ناقص عندهم أيضاً إذ هو متضمّن للفرق . ثم يرتفع عندهم عن هذا الشهود إلى أن لا يشهد لا طاعة ولا معصية، إذ الطاعة والمعصية إنما تكون من غير لغير، وما ثمَّ غير. فإذا تحقّق بشهود ذلك وفني فيه، فقد فنيَ عن وجود السوى . فهذا غاية التحقيق عندهم، ومن لم يصل إليه فهو محجوب. ومن أشعارهم في هذا قول قائلهم:

وما أنت غير الكون، بل أنت عينه ويفهم هذا السرَّ من هو ذائقُ وقول الآخر:

وما الموج إلا البحر لا شيء غيره وإن فرَّقته كثرة المتعدّدِ و (القسم الثاني) من أقسام الفناء: هو الذي يشير إليه المتأخرون من أرباب السلوك، وهو «الفناء عن شهود والسوى »، مع تفريقهم بين الربّ والعبد، وبين الطاعة والمعصية، وجعلهم وجود الخالق غير وجود المخلوق. ثم هم مختلفون في هذا الفناء على قولين:

(أحدهما) أنه الغاية المطلوبة من السلوك، وما دونه بالنسبة إليه نقص، ومن هنا يجعلون المقامات والمنازل معلولة.

و(القول الثاني): أنه من لوازم الطريق، لا بُدَّ منه للسالك، ولكن البقاء أكمل منه [3].

وهؤلاء يجعلونه ناقصاً ولكن لا بد منه. وهذه طريقة كثير من المتقدّمين . وهؤلاء يقولون إن الكمال شهود العبودية مع شهود المعبود، فلا يغيب بعبادته عن معبوده، ولا بمعبوده عن عبادته. ولكن لقوة الوارد وضعف المحلّ، وغلبة استيلاء الوارد على القلب، حتى يملكه من

(1)ابن القيم: طريق الهجرتين وباب السعادتين المطبعة السلفية ـ القاهرة 1376هـ ص260 - 262.

(2)وهو نفس ما يقوله أصحاب الطبيعة اليوم. وإن كان القول قديماً عند اليونان، وقال به الهندوس والبوذيون باختلاف في تعبيراتهم إلا أنهم ينتهون إلى شيء واحد وهو أن هذا الكون بجميع ما فيه هو الخالق والمخلوق، ولا شيء سوى ذلك.

(3)وهذا القول أيده الشيخ ابن تيمية كما سبق أن نقلناه عنه، وأيده السهروردي في عوارف المعارف والغزالي في الإحياء والشعراني في لطائف المنن، والحبيب عبدالله الحداد في قصائده وخاصة ال تائية الكبرى والحبيب عبدالرحمن بلفقيه في الرشفات وغيرهم كثير. ونقلنا ما ذكره الشيخ سالم عبدالرحمن باصهي في رسالته «كشف الغطاء » فكفى وشفى . وهو من المتأخرين وفاته 1336هـ .

جميع جهاته، يقع الفناء. والتحقيق أن هذا الفناء ليس بغاية، ولا هو من لوازم الطريق، بل هو عارض من عوارض الطريق يعرض لبعض السالكين دون جميعه[1] . وسببه أمور ثلاثة:

(أحدها): قصده وإرادته والعمل عليه، فإنه إذا علم أنه الغاية المطلوبة شمَّر سائراً إليه، عاملاً عليه، فإذا أشرف عليه وقف معه ونزل بواديه وطلب مساكنته. فهؤلاء إنما يحصل لهم الفناء لأن سيرهم كان على طلب حظّهم ومرادهم من الله وهو الفناء، ولم يكن سيرهم على تحصيل مراد الله منهم وهو القيام بعبوديته والتحقّق بها . والسائر على تحصيل مراد الله منه لا يكاد الفناء يحل بساحته ولا يعتريه.

(السبب الثاني): قوة الوارد بحيث يغمره ويستولي عليه. فلا يبقى فيه متسع لغيره أصلاً.

(السبب الثالث): ضعف المحلّ عن احتمال ما يرد عليه.

فمن هذه الأسباب الثلاثة يعرض الفناء. ولمَّا رأى الصادقُ في طريقه، السالك إلى ربِّه أن أكثر أصحاب الفِرَقْ محجوبون عن هذا المقام، مشتّتون في أودية الفَرْقُ، وشهدوا نقصهم، ورأوا ما هم فيه من الفناء أكمل، ظنّوا أنه لا كمال وراء ذلك وأنه الغاية المطلوبة، فمن هنا جعلوه غاية.

ولكن أكمل من ذلك وأعلى وأجلّ هو (القسم الثالث): وهو الفناء عن عبادة السوى وإرادته، ومحبّته، وخشيته، ورجائه، والتوكل عليه، والسكون إليه، فيفنى بعبادة ربِّه، ومحبّته وخشيته والتوكل عليه، وبالسكون إليه، عن عبادة غيره، وعن محبته، ورجائه، والتوكل عليه، مع شهود الغير ومعاينته[2] . فهذا أكمل من فنائه عن عبودية الغير ومحبته مع عدم شهوده له وغيبته عنه، فإذا شهد الغير في مرتبته أ وجب شهوده له زيادة في محبّة معبوده وتعظيماً له وهروباً إليه، وضنَّاً به، فإنْ نظر المحبّ إلى مبادىء محبوبه ومضادّه يوجب زيادة حبّه له...

وكان النبي يقول في دعائه: «اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت» وفي سجوده يقول: «اللهم لك سجدت وبك آمنت » . وكذلك في ركوعه: «اللهم لك ركعت وبك آمنت» .

فهذا دعاء من قد جمع بين شهود عبوديته وشهود معبوده (وهذا ما يسمّيه الصوفية في اصطلاحهم الجمع) ولم يغب بأحدهما عن الآخر . وهل هذا إلا كمال العبودية : أن يشهد ما يأتي به من العبودية، موجهاً لها إلى المعبود الحقّ، مُحضِراً لها بين يديه، متقرّباً بها إليه . (ولا شك أن هذا أعلى مقاماً من الغيبة وهو فناء عن شهود السوى وقد يسمى فناء الشهود).

---

(1)وقد صدق في ذلك ابن القيم.

(2)ذكر الإمام عبدالله الحداد في التائية أصول القوم واصطلاحهم:
كفرق وجمع والحضور وغيبة وصحو ومحو وانفصال ووصلة والفرق هو معرفة السالك الفرق بين الخالق والمخلوق والجمع هو الاجتماع على محبته، والحضور هو استحضار المولى سبحانه وتعالى ورؤيته (أن تعبد الله كأنك تراه)، والغيبة هي غيبة عما سوى الله تعالى . والصحو هو معرفته لشؤون العالم وأموره وأمور أهله وأصحابه مع حضوره مع الله، والمحو: هو «فناء عن شهود السوي » وهو الذي تحدث عنه ابن القيم في القسم الثاني . وانفصال: هو تحقيق انفصال المخلوق عن الخالق والعبد عن الرب والحادث عن القديم.. وأما الوصلة فهو الاتصال بالمحبة والخضوع و التوكل والإيابة والإنابة.

فأما الغيبة عنها بالكلّيّة بحيث تبقى الحركات كأنها طبيعية، غير واقعة بالإرادة، فهذا وإن كان أكمل من حال الغائب بشهود عبوديته عن معبوده ـ فحال الجامع بين شهود العبودية والمعبود أكمل منهما». وقد صدق ابن القيم فهذا هو مقام الرسول ثم أجلة الصحابة من بعده . ثم التابعين لهم بإحسان.

خطأ من فهموا أن روح آدم والبشر من ذات الله تعالى (تعالى الله عن ذلك):

وهناك فهم شائع في العصر الحديث وهو أن روح آدم التي نفخها الله في آدم هي من ذات الله وفهموا قوله تعالى: {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي } [ص: 72] على أن من تبعيضيّة . وأن الله سبحانه وتعالى نفخ في آدم من ذاته وروحه. وهو خطأ فاحش يماثل ما وقع فيه النصارى في عيسى وفهموا أنه روح الله أي ذات الله تعالى، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، قال تعالى : {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ } [مريم: 171] وفي الحديث الشريف يقال لعيسى : يا روح الله.

ولا بد إذن أولاً من فهم كلمة الروح كما وردت في القرآن الكريم والسنة المطهرة [1]: وقد ورد لفظ الروح في القرآن الكريم على عدة معان منها:

(1) ـ إنه القرآن الكريم. قال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا} [الشورى: 52] وقوله تعالى : {يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ } [النحل: 2] وهو القرآن الكريم والذكر الحكيم. ولقد سمى الله القرآن روحاً لأنه حياة القلوب والعقول.

(2) ـ إنه الوحي الذي ينزل على الأنبياء قال تعالى: {يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاَقِ} [غافر: 15] .

(3) ـ أنه ملك من الملائكة عظيم الخلق جداً. وهو المراد بقوله تعالى : {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفًّا لاَ يَتَكَلَّمُونَ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ وَقَالَ صَوَابًا *} [النبأ: 38] .

(4) ـ أنه جبريل وهو المراد في قوله تعالى : {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ *عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ *} [الشعراء: 193 ـ 194] .

وفي قوله تعالى: {تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ *} [القدر: 4] في شأن ليلة القدر. وفي قصة مريم حيث تمثل لها جبريل بصورة بشر {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا} [مريم: 17] .

(5) ـ أنه القوة والثبات والنصرة التي يؤيد الله بها من يشاء من عباده قال تعالى : {أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ} [المجادلة: 22] .

(6) ـ أنه الروح والريحان والاستراحة قال تعالى عن الجنة وما فيها : {فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ *} [الواقعة: 89] .

(1)انظر كتاب الروح لابن القيم.

(7) ـ أنه الروح الذي به حياة البدن قال تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ *فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ *فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ *إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ *} [ص: 71 ـ 74] . وقال بعض المفسرين أنَّه المقصود في قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً *} [الإسراء: 85] .

ويغلط كثير من الناس في العصور الحديثة ويظنون، وبئس ما ظنّوا، أن الروح التي في آدم هي من ذات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وهو فهم تسرَّب من النصارى وأهل الكتاب الذين يعتقدون، بناء على ما جاء في سفر التكوين من التوراة المحرّفة، أن الله خلق آدم بيده، على صورة الله خلقه، ونفخ فيه من روحه أي من ذاته. ولما تزوج بنو الله (وهم من نسل آدم وحواء لأن فيهم روح الله وذاته !!) من بنات الناس (وهُنَّ، حسب زعمهم الكاذب بنات حواء من زناها مع الجن، وبنات آدم من زناه مع عشيقته الجنيّة ليليت كما هو مسجل في التلمود وشرح التوراة) غضب الربُّ وقال «لا يدين روحي في الإنسان » أي لا يبقى روحي الطاهر في هذا الإنسان الملوّث فأمر بإغراق العالم ما عدا نوح وبنيه لأنهم كانوا من نسل الله، حسب زعمهم الفاجر الكاذب.

وللأسف فإن جميع ترجمات معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية وخاصة اللغة الإنجليزية تترجم هذه الآيات على أساس أنها من ذات الله ومن عندهم تبعيضيَّة، وهو كفر صراح.

قال ابن القيم في كتابه «الروح»:

«ونسبة الروح إلى الله كنسبة البيت والناقة والعبد والرسول فيقال بيت الله (الكعبة)، وناقة الله (ناقة صالح) وعبدالله ورسول الله . وكلها إضافات إليه تقتضي التشريف والتكريم ... فالبيوت كلها بيوت الله، والنوق كلها له، والعبيد جميعاً عبيده، والخلق كلهم ملك يده، فأضاف فرقة منهم إليه وسمّاهم حزب الله وعباد الله، وسمّى الفرقة الأخرى حزب الشيطان وعباد إبليس والهوى... وكلهم خلقه وعبيده، إلا أن هذا الاصطفاء والاجتباء جعل الإضافة إليه » فهو كله من باب التكرم والتشريف لا غير.

ويقول الإمام عبدالله العيدروس في كتابه الد رّ والجوهر: «وإذا وصل الذاكر إلى عالم الروح برز له نعت القدم بتنصيص التخصيص ونشور التشريف من باب إضافة (ونفخت فيه من روحي)... إلى أن يقول فنزِّه القدم (أي الله) عن الحدث (أي المخلوق)... فنزِّه القديم (أي الله جلَّ جلاله) عن المُحدَثْ (أي المخلوق). وجلّت الأزلية عن الوصل والفصل .. إضافتك إليه إضافة مزيَّة، لا إضافة جزئية، إضافتك إليه إضافة خصوصية لا إضافة بعضيَّة، إضافة قُرب، لا إضافة نسبة، إضافة كرم لا إضافة قِدَمْ . هو مُنزّه عن كلِّ إضافة وإن قال : {...وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} [انتهى كلام العيدروس].

الإمام العيدروس يرد على أصحاب الفناء ووحدة الوجود

وبذلك يردُّ الإمام عبدالله العيدروس على من قالوا بوحدة الوجود والاتحاد وفهموا الفناء بأنه فناء الوجود والتحقيق أنه فناء الشهود، كما نقلنا فيه كلام ابن تيمية وابن القيم وجهابذة العلماء.

فاحذر أن تفهم أن آدم فيه من ذات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فهو عين ما زعمته النصارى في أن عيسى روح الله («ابنه» على قول و «ثالث ثلاثة » على قول وأن الله هو المسيح ابن مريم على قول). وهو كله كفرٌ محض وهُراء، وما زعمته اليهود في تلمودهم من أن روح الله التي كانت في آدم تسلسلت من آدم إلى نوح، ومن نوح إلى سام، ومن سام إلى إبراهيم، ومن إبراهيم إلى إسحاق (لأنه بإسحاق فقط يدعى لك نسل) حسب قولهم في التوراة المحرّفة. ومن إسحاق حسب زعمهم إلى يعقوب الذي سرق بكورية أخيه عيسو (العيص) وأخذ العهد والبركة من أبيه إسحاق عندما شاخ وعمى بالخداع والكذب، ومن يعقوب إلى بنيه. فبنو اسرائيل حسب زعمهم الكاذب هم أبناؤ الله وأحباؤه على الحقيقة والمجاز . وروح الله أي ذاته تسلسلت فيهم من آدم إلى نوح إلى سام إلى إبراهيم ومن ثمّ إلى يعقوب وبنيه.

فهذه اعتقادات كُفرية وباطلة عقلاً وديناً، ويفترون على الله الكذب، ومن يزعمون الحلول وفناء الوجود (وحدة الوجود)، والاتحاد هم مثل اليهود والنصارى، بل أشدُّ منهم لأن النصارى جعلوا ذلك كله في عيسى . واليهود، عليهم غضب الله، جعلوا روح الله وذاته فيهم هم. وحتى العلمانيون منهم يعتقدون أنهم يمثّلون الذات العليَّة في الأرض رغم تصريحهم بعدم وجود إله على الإطلاق. وقد ناقشتُ تلك الدعاوى والآراء الباطلة في كتابي «العلمانية أصولها وجذورها» فلينظره من يرغب في معرفة آراء هؤلاء اليهود الفجرة الكفرة».

عقيدة الاتحاد والفناء عند النصارى

وللنصارى عقيدة من أغرب العقائد، وأبعدها عن العقل والمنطق، وهي عقيدة اليوكاريست (Eucharist) أي عقيدة العشاء الربَّاني (القربان). يعتقدون أن عيسى يظهر بينهم في القدَّاس، وعندما يقوم القسيس بتوزيع قطع صغيرة من الخبز على الحاضرين، فإنهم جميعاً يأكلون لحم ربّهم، يسوع المسيح، وعندما يعطيهم قليلاً من النبيذ الأحمر (الخمر)، يتحول هذا الخمر في أجسادهم إلى دم المسيح ربهم. فهم يأكلون ربهم ويشربون دمه، في كل حين يقام فيه قُدَّاس. وعلى هذا يحلُّ فيهم الربُّ ويصبحون مقدَّسين. ولكن لا يمكن أن يتمّ ذلك إلا على يد قسيس معترف به لديهم ومسلسل في كهنوتهم إلى البابا . فإذا قام به إنسان خارج نطاق الكهنوت، فإنه يعاقب على ذلك، لأنه يلوّث ربّه.

وعلى هذا فهم يقسّمون أتباع المسيح إلى فريقين (الأول) وهو فريق الكهنوت : ويبدأ بالشمّاس والكاهن البسيط ويرتقي إلى القسيس ثم رئيس كنيسة ثم رئيس مجموعة كنائس، ثم رئيس منطقة كاملة وهو البطرك (البطريارك) (Patriarch) ثم يصل إلى الكرادلة الذين يختارون منهم البابا. وهو مثل المسيح. وقد حلَّ المسيح الربُّ فيه . ولهذا يقولون دائماً قداسة البابا. ففيه من الألوهية أجزاء كثيرة جداً لأن الربّ قد حلّ فيه. وإذا كان الرب يسوع يحلّ في عامة الأتباع في العشاء المقدس والقربان، وذلك بواسطة قسيس صغير في قرية نائية، فكيف برئيس هؤلاء الأساقفة والكرادلة وهو البابا . إنه المسيح متجسِّدٌ في شكل بابا، ولهذا فهو

مقدَّس، وأحكامه لا تنقض، وهو معصوم عندهم من الخطأ والزلل فيما يصدره من تعليمات رسميَّة.

وهؤلاء الكهنة كلهم يعتبرون مقدّسين. ودرجة القداسة تزداد كلما ازدادت الرتبة حتى تبلغ أوجها لدى البابا.

وصدق الله العظيم حيث يقول : {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ } [التوبة: 31].

و(الفريق الثاني) هم عامة النصارى، وهم الذين افتداهم المسيح يسوع من ال خطيئة فكان لهم فداء . ولهذا يسمّونه الفادي والخروف الذي ذُبح من أجلهم . ويحصلون على الخلاص والنجاة من خطيئة آدم التي لا علم لهم بها. ولم يشهدوها ولم يعرفوها إلا عن طريق الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل . ولهذا لا ينجون من الخطيئة والعذاب إلا بالتعميد، والاعتراف لدى القسيس بالخطايا وإعطاء القسيس والكنيسة من الأموال ما يتطهّرون به من هذه الخطايا، لأن القسيس مندوب للبابا والبابا مندوب المسيح، ولذا فهو يغفر ذنوب وخطايا الأتباع المغفّلين. كما أنهم ينجون من هذه الخطايا بأكل لحم ربّهم وشُرب دمِه الذي يوزّعَهُ الكاهن في أثناء القربان (العشاء الرباني).

وكان النصارى جميعاً يعتقدون أنهم يقومون فعلاً بأكل لحم ربهم، وأنهم جميعاً يشربون دمه، في هذه الطقوس المقزّزة . ثم جاء البروتستانت ورأوا أن ذلك الكلام ينفّر الناس، وخاصة بعد أن استيقظت أوروبا وأهل أوروبا من عصور الظلام وسيطرة الكنيسة، فقالوا : إن طقوس القربان كلها رمزية، وأن المسيح يسوع الرب الممجّد حسب قولهم لا يحضر هذه الطقوس. وإذا حضر فإنه قطعاً لا يتحوّل إلى قطعة خبز يأكلها النصراني ولا إلى مَجَّة من النبيذ يشربها من يد الكاهن. وأعلنوا أن هذه قصة رمزية مؤثرة.

وأما الكاثوليك والأرثوذكس بفرقهم المختلفة وجميع فرق النصارى الأخرى فإنهم لا يزالون يؤمنون بحقيقة تجسّد الربِّ يسوع في قطعة الخبز، وأنهم يأكلون ربَّهم في هذا القدّاس، ويشربون دمه، ويمتزجون به، تماماً كما يفعل الوثنيون في أعيادهم وقدَّاساتهم عندما يلتحمون بربهم ويأكلونه ويشربون دمه مما قد شرحته شرحاً وافياً في كتابي «دراسات في العهد الجديد والعقائد النصرانية المعاصرة فلينظره من أراد المزيد.

والخلاصة أن النصارى يقسّمون البشر إلى:

(1) ـ كهنوت مقدّس حلَّ فيه الربُّ المسيح بدرجات متفاوتة.

(2) ـ علمانيون أي من هذا العالم وهم بقية النصارى.

أما الباقون فلم ينجو بعد من خطيئة آدم وهم في لُجَّات الجحيم، إن لم يتوبوا ويؤمنوا بالمخلّص الفادي الرب يسوع، ويتعمّدوا على يد القسيس، ويأكلوا لحم ربهم من يده، ويشربوا دم ربهم الذي يعطيهم إياه على شكل نبيذ أحمر !! فيا لله من ع قول ما أسخفها وأحقرها وأضلّها وأبعدها عن الرشاد. ولله في خلقه شؤون يهدي من يشاء ويضلُّ من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

الفصل الخامس عشر
أهمية الشيخ المربّي

أهمية الشيخ المربّي

قال الحبيب عبدالله الحداد في التائية الكبرى:

ولا بد من شيخ تسير بسيرهِ إلى الله من أهل النفوس الزكيةِ

من العلماء العارفين بربهم فإن لم تجدْ فالصدقُ خير مطيّة

وبعد فإن الحقّ أفضل مُسلكٍ سلكتَ وتقوى الله خير بضاعةِ

ومن ضيّع التقوى وأهمل أمرها تغشّتَهُ من العقبى فنون الندامةِ

ومن كانت الدنيا قصارى مراده فقد باء بالخسران يوم القيامةِ

ومن لم يكن في طاعة الله شغله على كل حال لا يفوز ببغيةِ

فقدان الشيخ المربي:

ولا شك أن الإنسان يحتاج إلى شيخ وأستاذ ومثل وقدوة في كل علم من العلوم ومهنة من المهن. فالنجّار والحداد والطبيب لا بد له أن يتعلم هذه الصنعة على يد خبير بها. وكان النظام التعليمي في السابق عند المسلمين، وغيرهم، يعتمد على تعليم الطفل مبادئ الإسلام، وقراءة القرآن والضروري من علم الفقه، بما تستقيم به عبادته وحياته، ثم يُنظر في ميول هذا الغلام، فإن رأوا فيه ميلاً إلى العلم ورغبة فيه، ذهب إلى العلماء وجلس بين أيديهم، ينهل منهم العلوم والسلوك والآداب. وإن وجدوا أنه ليس ميّالا للعلوم، ولكن له ميل إلى صنعة من الصنائع، فيرسل إلى من يجيد تلك الصنعة، ويتعلّم منه. وكثيراً ما كان الشخص يتعلم من أبيه التاجر، أو الصانع أو النجّار أو الحداد إلخ . وكثير منهم قد يكون ميله إلى الفروسية وأنواع الرياضات البدنيَّة والقتال فيوَجَّه للجندية وهكذا.

النظام التعليمي الحديث في البلاد العربية:

وأدّى تغيير النظام التعليمي، وخاصة عند العرب، في العصر الحاضر إلى فقدان التربية وإضاعة السنين ليقضي الطالب اثني عشرة سنة من الابتدائية إلى الثانوية، وكلما تعلّم شيئاً ونجح فيه في الامتحان مزَّق كتبه، ومحاه من ذاكرته . فلا يصل إلى الجامعة، وما معه إلا القليل مما درسه خلال هذه الأعوام الطويلة. ثم يبقى في الجامعة ما بين أربع وست سنوات ليتخرج منها وقد حصل بعضهم على مهارات تعينه على الحصول على وظيفة أو عمل . وكثير منهم لا يستفيد حتى من ذلك ولا يستطيع الحصول على عمل مناسب. وأما التربية فلا يتعلّمها إلا فيما ندر في المدرسة أو في البيت . ولهذا ترى الطالب يتطاول على أستاذه، بل وقد يضربه، أو يؤذيه أذى بالغاً.. وتوضع في ذلك مسرحيات مضحكة هزلية، حتى يصبح لدى الطلبة اعتقاد شبه جازم، بأن عليهم أن يكونوا من «الطلبة المشاغبين »، وأنهم سيبدون أغبياء إذا كانوا مؤدبين ومهتمين بدروسهم.

ثم إن الدروس حشو نظري في أغلب أحوالها، وقد أقَرَّ بذلك أهل التعليم، وعرفوا أن هذه السنين الطويلة مضيعة لوقت أغلب الطلاب الذين لا يستفيدون منها، لا في دينهم ولا في دنياهم، ولا في حياتهم المهنية ولا حياتهم الروحيَّة.

ويخرجون إلى سوق العمل بعد الجامعة غير مؤهلين فيحتاجون إلى إعادة تأهيل . كما أن كثيراً منهم فاقد لكثير من الأخلاق، ونسبة كبيرة جداً منهم تدخّن التبغ (سجائر وأرجيلة ومعسَّل وشيشه... إلخ). ونسبة غير قليلة تجرّب المخدرات بأنواعها.

ويقع بعضهم في براثن الإدمان . كما أن مجموعة كبيرة منهم يتمّ تشجيعهم بواسطة المسلسلات التليفزيونية والشبكة العنكبوتية، والإعلام الهابط والفنّ الداعر للانخراط في قضايا الزنا واللواط.. ويتمّ تمجيد ذلك وتغليفه بسيلوفان الحبّ والحرّية الشخصية.

وقد تم عولمة هذه القضايا، ووراءها يهود وعقولهم وتدبيرهم وإعلامهم وهوليود والفن الداعر ... إلخ وأصبحت تجارة الجنس من أوسع التجارات، وما يسمّى البورنوجرافي (Pornography) أي المتاجرة بالصور والإثارة الجنسية مادَّة هامة جداً في الإعلام والشبكة العنكبوتية (النت).. ولم يكتفوا بذلك، ولكنهم أوغلوا في القذارة، وانتهوا إلى المتاجرة بابضاع الأطفال ذكوراً وإناثاً . وهي تجارة واسعة جداً، وانغمس فيها طبقات مختلفة من المجتمع الغربي (والعدوى حاصلة للمجتمعات الشرقية) بما فيهم رجال الكنيسة . والاتهامات على رجا ل الكنيسة الكاثوليكية بالذات، حول الاعتداء على الأطفال، تملأ مجلدات . وقد اضطرت الكنيسة إلى دفع المليارات تعويضاً للأشخاص الذين تمَّ الاعتداء عليهم أثناء طفولتهم، أو الدعاوى التي يقيمها أولياؤهم [1].

ومن الواضح الجلّي أن ما يسمَّى وزارة التربية والتعليم، قد فشلت إلى حدٍّ كبير في مختلف البلاد الإسلامية، عرباً وعجماً . في تربية الأجيال على الأخلاق المستقيمة والدين القويم، كما أن مخرجات التعليم لا تناسب سوق العمل.

محاولات إصلاح التعليم لإخراج ما يناسب سوقِ العمل:

وقد بدأت محاولات كثيرة في إخراج ما يناسب سوق العمل وسيوضح المستقبل هل تنجح هذه الخطط أم تفشل كسابقاتها؟ أما موضوع التربية فهو لا يحظى إلا بالقليل من الاهتمام . والمربّي هو الشارع والتليفزيون والنت (NET) أي الشبكة العنكبوتية والمسلسلات، ورفقاء السوء ولذلك نشكو من انحدار عام للأخلاق للأمة ككل (وهي ظاهرة عالمية أيضاً مع وجود فوارق بين المجتمعات المختلفة).

ولا شك أن الالتزام بالصدق والأمانة والعفّة وقيم العدل تنحدر في جميع أنحاء العالم، ولكن العالم الغربي الليبرالي، يحرص داخل مجتمعاته على بقاء الكثير من هذه القيم، وإن كان يستخدمها بطريقة انتقائية مع الملونين والعالم الثالث. ولم تقم أوروبا والولايات المتحدة وأستراليا إلا على الاستعمار البغيض، وقتل ملايين الهنود الحمر والسود، واستعباد مئات الملايين من البشر، وإقامة نظام العبودية الحقير، وهو أشدُّ مما كان أيام الرومان، كما تقول دائرة المعارف البريطانية الموثّقة. وما كان أيام الرومان من نظام للعبودية، هو أسوأ نظام عبودية عرفته البشرية في تاريخها الطويل . ويكفي أن تعرف أن الرجل الأبيض جلب إلى

(1)اعترفت الكنيسة الكاثوليكية في إيرلندة مؤخراً (نوفمبر 2009) بأن كثيراً من قساوستها قاموا بالاعتداء على الأطفال . والحملة على الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا والولايات المتحدة شديدة جداً. ولا شك أنهم فسقة، ولكن من أسباب الحملة عدم اعتراف الكنيسة الكاثوليكية بالشذوذ الجنسي (اللواط والمساحقة)..

الأمريكيتين وجزرها حوالى مائة مليون أفريقي مستعبدين، خلال قرنين من الزمن، مات منهم في الثورات والمناجم وأعمال السخرة والتعذيب أكثر من سبعين مليوناً وهو رقم مفزع دون ريب. ويفضح أخلاقيات الرجل الأبيض . وهذا لا يعني أن البيض كلهم على شاكلة واحدة، بل فيهم عدد لا بأس به من ذوي الضمير الحي، وهم الذين وقفوا ضد نظام العبودية، ونظام القنانة، ونظام التمييز العنصري، وحاربوه أشد المحاربة وبذلو ا في ذلك جهودهم، وضحّى بعضهم بحياتهم من أجل هذه المبادىء الإنسانية العالية.

وفي العالم الإسلامي انحدرت هذه القيم منذ أن تحولت الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض، وكان الانحراف تدريجياً مبتدئاً بنظام الحكم واختيار الخليفة «الخلافة بعدي ثلاثون ثم تكون ملكاً عضوضاً»، أي عاضّين عليه بالنواجذ والأسنان جميعاً. ثمَّ يتحوّل ذلك إلى ملك جبري.

وحتى يتم ذلك الملك العضوض لا بد من إفساد النفوس وشراء الذمم، والكذب والخداع . واستخدام السمّ للتخلص من الخصوم السياسيين الخطرين كالتخلص من الإمام الحسن بن علي والأشتر النخعي إلخ وغيره م... وقد اشتهرت المقولة «إن لله جنوداً من العسل » إذ كان يتم التخلص من الخصوم بالسم المدسوس في العسل.

ظهور علامات الساعة الصغرى كلها:

وأدى اكتناز الثروة لفئة معيَّنة إلى الترف في هذه القصور، وإلى الظلم وإلى أن تضيع الأمانة. وقد قال رسول الله للأعرابي الذي سأل متى الساعة؟ قال: «إذا ضيّعت الأمانة» فقال الأعرابي: وكيف تضييعها؟ فقال : «إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» .

وهذا التضييع للأمانة أحد علامات الساعة الصغرى، وقد وردت في الأحاديث علامات كثيرة أخرى منها أن يتطاول رعاء الشاء (البهم) في البنيان ومنها انتشار الزنا والربا، ومنها أن يكتفي الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، ومنها انتشار المعازف، ومنها انتشار الخمور بأنواعها وتُسمَّى بغير اسمها.

ومنها أن لا يؤمر بالمعروف ولا يُنهى عن المنكر، ثم يكون ما هو أشدّ منه وهو أن يصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً. وهو ما وصلنا إليه في زماننا هذا، ويزداد الظلم ويزداد الهرج وسفك الدماء لدرجة أن القاتل لا يعرف . من قَتَل ولا فيما قتله؟ ! ولا المقتول يعرف فيما قُتِل ولم قُتِل؟!

وهو أمر نشاهده يومياً في التفجيرات والمفخخات والقنابل الموقوتة.. ويقتل الشخص نفسه بتفجيرها في سوق عام فيقتل نفسه ويقتل عشرات الأبرياء ويجرح العشرات أو المئات ظلماً وعدواناً.. وهو يظنّ أنه يجاهد في سبيل الله عندما يقتل أخوته المسلمين.

ولو كان ذلك في يهود، لعدم وجود وسيلة أخرى، لمحاربتهم في فلسطين مع وجود الضعف العام للأمة والتخلي عن الجهاد، لكان ذلك مقبولاً على مضض، لأن القتال غير التفجيرات، والإثخان في العدو غير أن يقتل المرء نفسه في سوق أو محطة باصات، ولكن

إن عُدمت الوسائل الأخرى لمحاربة عدو فاجر متجبر قاتل سافك للدماء، مستحلّ لجميع الحرمات، فهي وسيلة من لا وسيلة له غيرها.

وقد انتشر الكذب لدى ا لمسلمين بصورة لا تصدق . وقد روى الإمام أحمد في مسنده أن رسول الله قال: «إن من علامات الساعة الصغرى كثرة الكذب » . وعندما سئل رسول الله : هل يكون المؤمن سارقاً؟ قال: «قد يكون » فسئل: هل يكون المؤمن زانياً؟ قال : «قد يكون قيل : هل يكون كاذباً؟ قال: لا» .

ومن علامات النفاق الكذب. قال : «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان». [رواه البخاري ومسلم وغيرهما] .

وللأسف فإن هذه الصفات الثلاث قد انتشرت بين المسلمين في زماننا هذا إلا من عصم ربك، وقليل ما هُم.

ويقول المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنَّة، وإن الرجل ليصدق، ويتحرّى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار. وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » [أخرجه الشيخان البخاري ومسلم وأحمد] .

وقد قال : «من يضمن لي ما بين لحييه (وهما الفكّان والمقصود لسانه) وما بين رجليه (والمقصود فرجه) أضمن له الجنَّة» [رواه البخاري] .

ويقول : «اضمنوا لي سِتّاً من أنفسكم أضمن لكم الجنَّة : اصدقوا إذا حدَّثتم، وأوفوا إذا عاهدتم، وأدّوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضّوا أبصاركم ، وكفّوا أيديكم » [أخرجه أحمد] .

قول الزور وشهادة الزور:

وقال : «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قالوا : بلى يا رسول الله قال : الشرك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس» . وكان متكئاً فجلس وقال: «ألا وقول الزور، وشهادة الزور، ألا وقول الزور وشهادة الزور » فما زال يردّدها حتى قلنا : ليته سكت » [أخرجه الشيخان البخاري ومسلم] .

وقد ردّدها ليوضّح لهم أهميتها وخطورتها.

انتشار الفساد:

والفساد كما قلت بدأ من قمة الهرم الاجتماعي، وهو الحكم. وأدّى ذلك إلى الكذب والخداع والتزوير والرشاوى وإفساد الذِمم، وشراء الأنفس بالولايات والأموال واستخدام كل الوسائل القذرة. ثم أدّى الترف واكتناز المال إلى الثورات الاجتماعية العديدة التي شهدتها المجتمعات الإسلامية، وثورات الخوارج والزنج وفرق تدّعي حبّ آل البيت وغرضها السلطة والمال . ونشأ عن ذلك الفرق المختلفة المرجئة. (لتبرير ظلم الحكام وأنه لا يضرُّ مع الإيمان باللسان والقلب أي معصية وأي جريمة وبالتالي لا أهمية للعمل الصالح مطلقاً). والجبرية، باعتبار

أن ما وقع كله بقدر الله. وهو كلام فيه حقٌّ وباطل. فأما الحقّ فإنه لا يكون في هذا الكون إلا بقدر الله وعلمه وهو قدر كوني، ولكنه سبحانه وتعالى وضع أوامر شرعية {وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ}. بل يرضى لهم الإيمان والطاعة. وهذا هو قدره الشرعي كما قال الإمام ابن تيمية وابن القيم، وغيرهما من العلماء . وعلى العبد أن لا يحتجّ بالقدر كما فعل المشركون حيث قالوا: {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: 148] .

فهؤلاء حجتهم داحضة، واحتجاجهم بالقدر، جريمة أكبر من جريمتهم الأصلية.

قال تعالى: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} [الكهف: 29] .

وقال تعالى: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ *} [البلد: 10] أي الطريقين طريق الخير وطريق الشر.

وقال تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا *فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا *قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا *} [الشمس: 7 - 10] .

وقال تعالى: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *} {لاَ إِكْرَاهَ ... *} [البقرة : 256] .

والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً.

ظهور العلماء الزهّاد الربّانيين:

ولم تؤدِ الثورات والحروب إلا لمزيد من الدماء، فلم يكن هناك من سبيل لإصلاح نفوس الأمة، قادة وشعوباً، إلا طريق التربية والتهذيب فأخرج الله للأمة علماء أعلام زاهدين، طلّقوا الدنيا ورأوها فتنة، فهذّبوا أنفسهم وراضوها على الأخلاق الزكيَّة، و على محبَّة الخير للناس، وعلى الصدق والوفاء، والعدل، والإيثار {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [الحشر: 9] يقتدون بالأنصار {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [الحشر : 9] فجاء الذين من بعدهم واقتدوا بهم قال عنهم سبحانه وتعالى : {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [الحشر: 10] .

وقاموا بواجبهم في دعوة الناس للأخلاق الزكية بأفعالهم قبل أقوالهم، وبسلوكهم قبل كلامهم وألسنتهم، فكانوا المثل الأعلى والقدوة المثلى للناس . وربّوا تلاميذهم على هذه الأخلاق وعلى هذا الزهد. وعلى هذا الإخلاص لله سبحانه وتعالى. فلما عرف أصحاب الدنيا والسلطان أنهم لا ينافسونهم على سلطانهم ودنياهم وأنهم يتقذّرونها كما يتقذّر أحدهم الجيفة (وقد علمهم ذلك رسول الله عندما قال لأصحابه بعد أن أمسك بجيفة «أن الدنيا أهون عند الله من هذه الجيفة وأن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولو كانت تساويه لما سقى كافراً منها شربة ماء»).

لما رأى أهل السلطان والمال والدنيا ذلك منهم، أنصاع لتأديبهم وكلامهم من أرا د الله لهم الخير. وترك إبراهيم بن أدهم أمارته في بلخ، وتخلّى عنها وذهب مع غمار المسلمين، يعمل بيده، ويحرس البساتين ويجاهد مع المجاهدين، ويعلّم الناس أن ما عند الله خير وأبقى مما في أيدي الناس. فأحبَّه الناس وانكبوا عليه يتعلمون منه، وهو يختفي منهم.

وشقيق البلخي، تلميذه يقف في معركة كولان في مواجهة الكفار على حدود الصين فيقول لتلميذه حاتم الأصم: أتجد نفسك في مثل الليلة التي زُفَّتْ فيه إليك عروسك؟ قال : حاتم: لا والله. قال شقيق: والله إني لأجد نفسي أكثر من اليوم الذي زُفَّتْ إليه عروسي. فقاتل حتى قتل مقبلاً غير مدبر.

وشقيق البلخي أول من تكلّم في المواجيد ـ كما قالوا : ثم انظر إلى حاتم الأصم، والجنيد، وسرى السقطي وعبدالله بن المبارك والحسن البصري والإمام علي زين العابدين وأولاده محمد الباقر وزيد والإمام جعفر الصادق وموسى الكاظم وأولادهم.. كيف ساروا على الهدى وعلى دعوة الناس إلى الزهد والتقلّل من الدنيا وإلى تلك الأخلاق السامقة التي لم يصل إليها إلا القليل، فكانوا المثل الأعلى للأمة.

الأئمة الأربعة يقاومون الظلم:

ولم تتوقف المسيرة وظهر الأئمة الأعلام مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد رضي الله عنهم وأرضاهم وأصّلوا مذا هب أهل السنة والجماعة، وكانوا في حياتهم من الزاهدين، ورفضوا عطايا الحكام.. وقاوموهم عندما رأوا ضرورة ذلك.

فالإمام أبو حنيفة مات في السجن، وهم يريدونه أن يكون قاضي القضاة لأكبر دولة في الأرض آنذاك، وهي الدولة العباسية، والمنصور ومن بعده يريدونه على ذلك، وهو يرفض، لأنه يرى أثرة واكتنازاً لأموال الأمة، وظلماً يقع، فلا يريد أن يكون شريكاً في ذلك، ويعلن برفضه موقفه العظيم من هذه الدولة التي كان يستبشر بها خيراً لتكون بديلاً عن دولة بني أمية الظالمة، فوجدها مثلها . وكان قد وقف مع زيد بن علي زين العابدين في ثورته ض د الظالم الجبار المتكبر الطاغية هشام بن عبد الملك بن مروان .. وأرسل يمدّه بالمال . وقال: لولا أمانات للناس عنده لقاتل معه.

ـ الإمام مالك في المدينة أفتى «ليس على مستكره طلاق » . وكان المنصور فرض بيعته وفيها أن من نكث بيعة المنصور العباس تكون زوجته طالقاً . فأفتى مالك بهذه الفتوى، حتى ينضم الناس إلى صفوف الثورة التي يقودها محمد بن الحسن حفيد الإمام الحسن عند المنصور، وقد كانت البيعة السرّية للرضا من آل البيت. وكان المقصود بها محمد بن الحسن، فاستطاع المنصور والسفاح سرقة الثورة كما معتاد في سرقة الثورات . والمهم أن الإمام مالك عرّض نفسه للإهانة والتعزير والضرب حتى خلعت كتفه بسبب هذا الموقف الشجاع.

والإمام محمد بن إدريس الشافعي، عالم قريش، كاد أن يفقد حياته أيام هارون الرشيد بتهمة مساندته لثورة العلويين في اليمن . ولولا تدخل محمد بن الحسن (تلميذ الإمام أبي حنيفة) وأجلّ العلماء في الدولة العباسية مع أبي يوسف، لقتله هارون الرشيد.

والإمام أحمد بن حنبل وقف وقفته المشهورة في محنة خلق القرآن وصمد ضد ما يقوله المبطلون فسجن وضُرب وعُذِّب في أواخر أيام المأمون ثم المعتصم ثم المقتدر، ثم عاد المتوكل إلى القول الحق، واعتذر للإمام أحمد وحاولوا أن يغرقوه بالعطايا فرفضها، وبالمناصب فأباها. وقال إن إقبالهم عليّ أشدّ على نفسي من إدبارهم عني وتعذيبهم لي. فيا لله من إمام زاهد مجاهد.

كتب في الأئمة الأعلام المجاهدين الزاهدين:

وقد جمع الإمام عبدالكريم القشيري المتوفى سنة 465 هـ في رسالته المشهورة أمثلة عديدة من مواقف هؤلاء العلماء الزهاد العباد. وجمع العلامة أبو نعيم الأصبهاني سير هؤلاء الزهاد الأعلام في كتابه «حلية الأولياء» ثم قام ابن الجوزي بحذف الأسانيد من الأحاديث، وأضاف إليه من ظهر من العباد والزهاد والعلماء العاملين رجالاً ونساء إلى زمنه (وفاته 597هـ) وجعله كتاباً حافلاً في عدة مجلدات بعنوان «صفة الصفوة».

قال ابن الجوزي في مقدمة كتابه: «أما بعد، فإنك أيها الطالب الصادق، والمريد المحقّق (ولفظ المريد من ألفاظ الصوفية) لما نظرتَ في كتاب حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني أعجبك ذكر الصالحين والأخيار، ورأيته دواء لأدواء (جمع داء) النفس، إلا أنك شكوت من إطالته بالأحاديث المسندة... وسألتني أن أختصره لك، وأنتقي محاسنه، فقد أعجبني منك أنك أصبت في نظرك...»

وقال إنه قام بتهذيب الكتاب وحذف ما لا حاجة له، وحذف المكرر ثم أضاف أخبار وسير الأعلام الزهاد العباد العلماء المجاهدين الذين ظهروا بعد وفاة أبي نعيم الأصبهاني ، كما أضاف أسماء مجموعة هامة من السابقين لم يذكرهم أبي نعيم.

وأكَّد على أن غرض كتاب أبي نعيم في الحلية هو مداواة القلوب وبيان أخلاق القوم ليهتدى بهم الناس ويقتدوا، فلا حاجة لذكر الأحاديث التي لا علاقة لها بالقلوب والأخلاق.

وقد افتتح ابن الجوزي كتابه القيم «صفة الصفوة » بذكر نبينا محمد فإنه صفوة الخلق وقدوة العالم وذلك بعد أن ذكر فضل الأولياء والصالحين ثم ذكر المشتهرين من أصحابه بالعلم المقترن بالزهد والتعبد، على طبقاتهم في الفضل، وما أكثرهم. ثم ذكر التابعين ثم من تبعهم بإحسان . ويذكر البلدة ومن ظهر بها من العبّاد والنساك والعلماء الصالحين القدوة للأنام، ثم يذكر العابدات الزاهدات والعالمات.

وبدأ بالمدينة المنورة لأنها دار الهجرة، ثم ثنَّى بمكة المكرمة ثم الطائف ثم اليمن ثم عاد إلى بغداد وانحدر منها إلى المدائن ثم نزل إلى واسط والبصرة ثم إلى الأبلّة وهكذا إلى عبادان وتستر وغيرها من بلاد الإسلام واتجه شرقاً إلى فارس وخراسان وأفغانستان وتركستان، هراة وبلخ في أفغانستان، ومرو وفرغانة وترمذ وبخارى ونخشب (من التركستان) ثم عاد إلى بغداد واتجه غرباً إلى الشام وبيت المقدس ثم فلسطين ومصر ثم المغرب بمعناه الواسع ثم عبّاد الجزر، وعبّاد الجبال، وعبّاد السواحل وأهل الفلوات والصحارى... ثم أخبار عبَّاد الجن وختم بذلك كتابه وزاد عدد الأنس المذكورين عن ألف

شخص، كلهم قدوة للمقتدي، وهدى للمهتدي وعدد الرجال أكثر من ثمانم ائة وعدد النساء أكثر من مائتين.

ولا شك أنه كتاب حافل في بابه.

ثم جاء من بعده من العلماء فصنفوا في هذا الباب كتباً أخرى كثيرة . «والخير فيّ وفي أمتي إلى قيام الساعة » كما يقول الحبيب المصطفى . ففي كل بلد تظهر منهم طائفة على الحق ظاهرين لا يضرّهم من خالفهم إلى قيام الساعة، فهم منارات الهدى وأعلام الطريق إذا ادلهمت السبل وانبهمت معالم الطريق.

جيل صلاح الدين:

وعندما انحرفت الأمة وزاد اختلافها جاءها الصليبيون واحتلوا بيت المقدس وأكناف بيت المقدس ومكثوا أكثر من تسعين سنة حتى هيأ الله ظهور جيل جديد هو جيل صلاح الدين بقيادة رجل أخلص الانقياد لله وترك اللهو وشهوات الحكم، وجعل همّة كله في إنقاذ بيت المقدس هو صلاح الدين الأيوبي.

ولكن جيل صلاح الدين لم يظهر إلا بجهود مربّين سبقوا إلى ذلك، منهم الإمام الغزالي والإمام عبدالقادر الجيلاني، وانتشرت مجموعات الفتوّة ضمن الطرق ال صوفية. وبدأوا بتهذيب النفوس، وترك الأخلاق المرذولة (التخلّية)، ثم التزموا بالأخلاق العالية، واقتدوا بسيد الخلق وإمام الإنس والجن (التحلية).. فلما طلّقوا الدنيا وأخرجوها من نفوسهم، مع وجود المال لدى بعضهم إلا أنه كان في أيديهم ولم يكن في قلوبهم (كما شرحناه في فصل الزهد) قام هؤلاء العبّاد العلماء الزّهاد بنشر التعليم الإسلامي الحقّ، وقاموا بتهذيب النفوس فلما تهذبت هذه النفوس وبدأت مجموعات الفتوة من الصوفية تقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفعل الخيرات والمكرمات، والتدرب على القتال . كان الجو صالحاً لإعلا ن الجهاد ضد الصليبيين..

لهذا كله كان صلاح الدين ومن بعده خلفاؤه من أبنائه وأحفاده حريصين جداً على الانخراط في مجموعات الصوفية، وتشجيعهم، والوقوف معهم، وبناء الخانقاهات لهم، ليقوموا بدورهم التربوي الجهادي في الأمة.

ثم لما ذهبت دولة آل أيوب وظهر المماليك، كا نوا أشدَّ طاعة للعلماء لأنهم يعرفون أنهم كانوا عبيداً فأصبحوا ملوكاً. وكانوا يخشون سطوة العلماء ونقدهم لهم . وقد ظهر في ذلك الموقف الإمام العز بن عبد السلام . وثار في الشام على حفيد صلاح الدين الذي صالح الصليبيين وأعطى الإمبراطور الألماني مفاتيح القدس ليساعد ه في حرب أبناء عمومته وإخوته من بني أيوب في مصر والشام. فشدَّد عليه النكير، وانتقل إلى مصر معلناً غضبه على هذا الأمير الذي تواطأ مع الصليبيين، وتم إخراج الصليبيين مرة أخرى من القدس . ثم جاء هولاكو، وما أدراك ما هولاكو بالطامة الكبرى والنكبة العظمى؟

وسبب تلك النكبة سوء الإدارة والانغماس في الترف وضعف الخليفة واستيزاره لابن العلقمي الشيعي الذي نقم على ابن الخليفة ذبحه للشيعة في العراق . فانتقم من ذلك بمراسلة

هولاكو. وكان هولاكو قادماً على أية حال فزاده ذلك طمعاً في بغداد عاصمة الخلافة . ولم يستعد الخليفة للأمر بل قضى ليله ونهاره في اللهو حتى أحاطت به خطيئته . وقد أوضحت تفاصيل ما حدث في كتابي: كيف أسلم المغول؟

ومن ألطاف الله بالمسلمين وقوف السلطان قطز والظاهر بيبرس حكام ومصر والشام لهولاكو ومندوبه كتبغا . وكان وراءهم العزّ بن عبدالسلام وعلماء المسلمين الأعلام يوجهونهم ويوضحون لهم كيف يسلكون، حتى أمر العزّ بن عبدالسلام ببيع الأمراء المماليك وجعل ذلك في خزينة الدولة، قبل أن يفرض السلطان الضرائب الباهظة وأخذ الأموال من الأمة.

فلما انصاع الأمراء لأمر الشرع وانقادوا صاغرين نصرهم الله سبحانه وتعالى.

وحدث ما لم يكن في الحسبان فقد أسلم بركة خان بن جوجي بن جنكيزخان، وهو ابن عم هولاكو. وحارب هولاكو في مناطقه، فاضطر هولاكو أن يسحب جيشه الذي بلغ نصف مليون جندي من دمشق. وذهب هولاكو بنفسه لمحاربة ابن عمه المسلم ولم يُبقِ سوى عشرة آلاف أو أكثر قليلاً مع قائده كتبغا استهواناً بجيش المماليك، واضطراراً لمحاربة ابن عمه الذي أسلم على يد الصوفية من أهل بخارى وما حولها وبالذات على يد الشيخ باخرزي.

دور الزّهاد والعلماء في الجهاد:

فكان دور الصوفية من الزهاد والعلماء مباركاً، وجهدهم مضاعفاً . فهم عملوا على نشر الإسلام بين أولاد وأحفاد جنكيزخان، فلما يسّر الله لهم إسلام بركة خان، كان ذلك عوناً للمسلمين في مصر والشام. وعمل العز بن عبدالسلام ومن معه من العلماء والزهاد على إذكاء روح الجهاد في مصر والشام. فنصرهم الله نصراً مؤزراً في عين جالوت.

وكذلك كان موقف ابن تيمية ضد التتار، وهم من حكام العراق وفارس وما حولها وكانوا من نسل هولاكو، وقد أسلم ابن هولاكو. ثم قُتل، وهو أحمد تكودار، ثم أسلم أحفاد هولاكو . ورغم أن هؤلاء التتار كانوا مسلمين اسماً إلا أنهم كانوا بعيدين عن الإسلام من الناحية العملية، فوقف ابن تيمية ضدهم . وجمّع الجيوش مع الأمراء وحثّهم على قتالهم. ورغم الهزيمة في المرة الأولى إلا أنه ثبت واستطاع أن يحثّ الأمراء من الشام ومصر على قتالهم حتى انتصروا عليهم.

وكانت مواقفه مع خان التتار في منتهى الشجاعة والصدق. وبفضل الله سبحانه وتعالى ثم بفضل موقف ابن تيمية ومن تابعه من العلماء والزهاد انتصر المسلمون على هؤلاء التتار.

وفي كل زمان يظهر هؤلاء المربّون العلماء الأتقياء الزهاد القدوة فتحصل للأمة بركة بوجودهم والاقتداء بهم..

ولولا وجود هؤلاء العلماء والزهاد والمربّين لكان حال الأمة أشدُّ سوءاً مما وقعت فيه منذ بداية الحكم الفردي وتحوله من خلافة راشدة إلى ملك عضوض.

لكن تربية هؤلاء القوم ووعظهم للعامة والخاصة، كثيراً ما كانت تهذّب النفوس وتخفّف من السعار وحبّ الدنيا والسلطة والإمارة، وتعيد الناس إلى العدل، وإلى الزهد وإلى الاستقامة، وإلى الصدق والأمانة.

وكم ظهر في كل قرية ومدينة وصقع ونجع من النجوع من هؤلاء القوم المربّين الذي حفظوا للأمة دينها وتراثها وأخلاقها وعلمها.

وقد ذكر الحبيب عبدالله الحداد في قصيدته العينية عدداً وافراً من هؤلاء القوم من عهد التابعين إلى عهده (وفاته 1132هـ) وقد ركّز في العصور الأخيرة على من ظهروا بحضرموت وطنه. وهو أمر طبيعي لأنه بهم أعرف.

وابتدأ رحلته الروحية بحثاً عن هؤلاء القوم:

من كل طود في العلوم وفي الحجا متبحّرٍ متفنّنٍ متوسّعِ

داع إلى الله العظيم بفعله ومقاله والحالُ غيرُ مضيَّعِ

ذي عفَّةٍ وفتوةٍ وأمانةٍ وصيانة للسرِّ أحسن من يعي

وزهادة وعبادة وشهادةٍ منه الغيوب بمنظر وبمسمع

جمع الرياضة والكشوف ولم يزل يرقى إلى أن يستجيب إذا دُعي

مثل الإمام عليّ زين العابدين القانت المتبتّلِ المتخشِّعِ

والباقر السجّاد خير مُهذِّبِ العالم الربانيِّ المتورّعِ

والصادق الصدِّيق أستاذ الأُولى وإمام أهل الحقِّ غير مدافعِ

وخليفة الصدق ابن عبد عزيزها العادل المتحفظ المتطوّعِ

وأويس القرني أخير تابعٍ وأبي سعيد الناصح المتبرع [1]

ومحمد أعني ابن واسع قاري الر حمن لُذ بالزاهد المتقنّعِ [2]

أكرم به وبمالك الخير الذي أُريَ المنامَ فكان أحسن مسرع [3]

والعجمي المستجاب وعتبة نعم الشهيد بنيّة وبمضجعِ [4]

وأحسن بثابت [1] والربيع المنتقى [2] وبابن زيد الحميد المرجعِ [3]

---

(1)أبو سعيد المشار إليه هنا هو الحسن البصري (21 - 110هـ) أحد أشهر التابعين وأفضل من في البصرة في زمانه . اشتهر بمواعظه وصدقه ومواقفه ضد ظلم بني أمية. وكان كلام الحسن يشبه كلام الأنبياء.

(2)محمد بن واسع من التابعين، أُريد على القضاء فأبى وكان من الزهاد العباد.

(3)مالك الخير هو مالك بن دينار تاب بسبب رؤية ابنته التي توفت صغيرة. سمع الحديث والعلم من مالك بن أنس والحسن البصري ومحمد بن سيرين وسعيد بن جبير. وكان من أهل العلم والحديث والتقوى.

(4)والعجمي هو حبيب بن عيسى اشتهر بالبصرة، وعتبة هو عتبة بن إبان الغلام، مات شهيداً في قتال الروم.

واستمر الإمام عبدالله الحداد في ذكر أمثلة رائعة منهم. وقد شرح هذه القصيدة تلميذه السيد العلامة الحبيب أحمد بن زين الحبشي بأمر من شيخه وتوسع توسعاً معتدلاً في السير، واقتصد في غير ذلك. وكتابه حافل وقد طبع أكثر من مرة ومنها طبعه كرجاي المحدودة بسنغافورة سنة 1987 إلى أن يقول الإمام الحداد بعد أن ذكر سلسلة من أعلام آل البيت النبوي في حضرموت.

ولاقبضنَّ عنان قولي هاهنا حسبي وفي تعدادهم لم أطمعِ

فهم الكثير الطيّبْ المدعو لهم من جدّهم حين الزفاف ألا تعي

يقصد بذلك دعاء النبي لفاطمة وعلي بأن يخرج الله منهم الكثير الطيب وقد استجاب الله لنبيه تلك الدعوة الطاهرة ليلة الزفاف فأخرج من ذريتهما الكثير الطيب على مدى الأزمنة وإلى قيام الساعة، حتى يظهر المهدي من نسل محمد فيظهر على يديه الإسلام ظهوراً لم يظهر به من قبل (إلا في أيام الرسول والخلفاء الراشدين من بعده رضوان الله عليهم). فيدخل الإسلام كل بيت مدر أو وبر بعزّ عزيز أو ذلّ ذليل.

ثم قال الإمام الحداد:

وجماعة منهم أخذنا عنهمُ علم الطريق القصد فانصتْ واسمعِ

مثل الجمال نزيل مكة شيخنا والفخر والصوفي عقيل المِصقْعِ

والجمال نزيل مكة هو السيد العلامة محمد بن علوي السقاف ولد بالشحر ثم هاجر واستقرّ بمكة وذريته موجودون في مكة وغيرها إلى اليوم.

والفخر الصوفي هو الشيخ أبو بكر بن عبدالرحمن بن علي السقاف من العلماء الزهاد العباد، والثالث المذكور في البيت هو عقيل ب ن عبدالرحمن السقاف، أحد الزهاد العباد الأولياء المكاشفين.

ثم قال الناظم:

وأبي حسين عمر العطاس من قد صار من أهل اليقين بموضع

وعمر العطاس هو أحد أهم شيوخ الحبيب عبدالله الحداد، إمام يأخذ عن إمام وشيخ يتربّى بشيخ. وهو أحد أئمة العلم والزهد والتقى.

ثم ذكر الحداد مجموعة من مشايخه ثم قال:

والقصد ذكر نصيحة ووصية للنفس والإخوان إذ كانوا معي

تقوى إله العالمين فإنها عزٌّ وحرزٌ في الدُنا والمرجعِ

---

(1)وثابت هو ثابت البُنّاني (وفاته 127هـ) بصري تابعي، صحب أنس بن مالك أربعين سنة، وكان ثقة في الحديث ومن علمائه. يقرأ القرآن كل يوم وليلة ويصوم أغلب الأيام حتى قيل يصوم الدهر. وشهد له أنس بن مالك أنه من مفاتيح الخير.
(2)الربيع المنتقى: هو الربيع بن خيثم الثوري التيمي، التابعي وفاته سنة 63 من أصحاب عبدالله بن مسعود وكان ابن مسعود يقول إذا رآه (وبشّر المخبتين) أما إن الرسول لو رآك لأحبّك.
(3)ابن زيد هو عبدالواحد بن زيد، أدرك الحسن البصري وكان من الزاهدين كثير الحزن والبكاء..

فيها غنى الدارين فاستمسك بها والزم تنل ما تشتهيه وتدّعي
والزهد في الدنيا الدنيّ متاعها دار الوباء فما بها من مرتعِ
تُلْهي عن الأخرى ولا تبقى ولا تصفو بحالٍ فاجتنبها أو دعِ
وعليك بالصبر فلا تعدل به شيئاً، وبالشكر الأتمِّ الأوسعِ
والخوف لله العظيم وبالرجا فكلاهما مثل الدواء الأنفعِ
والصدقِ والإخلاص لله احتفظ بهما فإنهما عماد المشرعِ
والتوبة الخلصاء أوّلُ خُطوةٍ للسالكين إلى الحِماءِ الأمنعِ
وبمرِّ ما يقضي الإله وحُلوه كن راضياً ومن التوكّلِ فاكرعِ
ولصالح النيّات كن متحرِّياً مستكثراً منها وراقب واخشعِ
واقنع بميسور المعاش ولا تُطل أملاً وعمّا لا يحلُّ تورَّعِ
واحذر من الكبر المشوم فإنَّه داءٌ ومن عُجبٍ وشُحٍّ مُهلعِ
ومن الرياء فإنه الشرك الخفيُّ ومن التفحُّشِ شيمةُ العبد الدَّعي
والنفسُ رُضها باعتزال دائمٍ والصمت معْ سهرِ الدُّجى وتجوُّعِ
وهواك جاهدهُ جهاد مُنازعٍ ومُخالفٍ مثل العدوِّ الأبشعِ
واتلُ القرآن كلام ربك دائماً بتدبُّرٍ وترتُّلٍ وتخشُّعِ
والذكر لازِمهُ وواظبهُ على مرِّ الزمان مع الحضور الأجمعِ
فهو الغذاء لكل قلب مهتدٍ وهو الدواء لكل قلب موجعِ
وعليك بالصلوات فاعرف حقّها ومكانها من دين ربِّك واخضعِ
واحسن محافظة عليها واحضُرَنْ فيها ولا تغفلْ ولا تتوزَّعِ
والصوم والزكوات والحج إلى بيت الإله فقم بفرضك واسرعِ
واعلم بأنك عن قريبٍ ميّتٌ فاذكر مماتك واخشَ سوء المصرعِ
واذكر بأنك عن قليل صائرٌ في بطن قبرٍ من فلاةٍ بلقعِ
ومن القبور إلى النشور لمحشرٍ والوزن والجسر المهول الأشنعِ
ثم المصيرُ لجنَّةٍ ونعيمها أو حرِّ نارٍ والعذابِ الأفظعِ

دور الشعر والأناشيد في التربية:

ويا لها من قصيدة جمعت آداب السلوك ومعالم الإسلام وفروض الإيمان والإحسان وتربية النفس والحفاظ على ما أمر الله به والابتعاد عن ما نهى الله عنه ... وأمراض النفوس وكيفية مداواتها والتذكير برجال السلف الصالح وذكر أمثلة منهم ومن مجاهداتهم وأعمالهم.

فأي تربيةٍ للنفس أعظم من هذه التربية. وهذه القصائد الجميلة تنشد في المجالس والمحافل بصوت الحادي ذي الصوت الجميل فتؤثر في النفوس، ويكون لها دور وأي دور في التربية، ثم يأتي كلام العلماء والوعّاظ فيزيد المسألة نوراً على نور، ويتعمق التأثير.

مجالس العلماء ودورها في التربية:

وقد كان لهؤلاء الصالحين ولا يزال دور عظيم في إصلاح نفوس العامة وتهذيبها . وقد كان للحضارمة في ذلك دور وأي دور. انتشر من حضرموت إلى الهند وماليزيا وأندونيسا وجميع شرق آسيا. كما انتشر في شرق أفريقيا إلى وسطها في الكونغو وانتشر من الحبشة والصومال وكينيا وتنزانيا وجزر القمر إلى جنوب أفريقيا في كيب تاون . ولهم تأثير في أصقاع مختلفة من العالم. وصلتهم بالحجاز أخذاً وعطاء صلة وثيقة منذ مئات السنين .. ومن الحجاز إلى الشام ومصر والمغرب..

وأمة الإسلام مترابطة والخير فيها ينطلق رغم العوائق.. ولكن لا بد من التربية وأ ن تسير بسير شيخ إن كنت تريد أن تصل إلى الطريق دون عوائق.

وما أشدّ رحمة هؤلاء الشيوخ ومحبتهم للناس جميعاً، وللمسلمين خاصة، ولتلاميذهم بصورة أخصّ. ويتحمّلون المشقّات. ويصبرون على الناس، ويكونون قدوة . فكم قد رأيت ورأى مثلي منهم من الصبر والأدب والعفّة والزهد والرحمة ما لا يتخيّله إنسان إنه يوجد في هذا الزمان. ولكنه بفضل الله وكرمه موجود.

بذلوا أرواحهم وأوقاتهم وأموالهم وعلومهم في سبيل الدعوة إلى الله وتأليف القلوب، وكانوا يعلّمون تلاميذهم بالقدوة أولاً، وبالنظرة ثانياً، وبالإشارة ثالثاً، وبالكلام عن قوم آخرين فعلوا كذا وكذا «وإياك أعني واسمعي يا جارة » ومن النادر جداً جداً أن يصرّحوا بتوجيه... ويقتدون بسيّدهم وإمامهم محمد في قوله: «ما بال أقوام فعلوا كذا ... ما بال أقوام قالوا كذا» فللّه هم... ما أصبرهم وأكرمهم وأحلمهم وأعلمهم بمداواة النفوس.

ومع أدبهم الجمّ وتواضعهم الشديد فلم يكونوا يسمحوا بأن تذكر الدنيا في مجالسهم بل هي مجالس علم ودراسة في كتاب الله وسنة نبيه ومداواة النفوس وكلام أئمة القوم ... فإذا ختموا مجالسهم ختموها بذكر الله والصلاة على النبي مثلما افتتحوها. وينشد المنشد والحادي بعض القصائد الجميلة المذكّرة بالله والدَّالة على الطريق القويم فتنتعش القلوب والأرواح بالصوت الجميل والكلام العذب والشعر السلسبيل.

ولم يكن في مجالسهم، لا الخاصة ولا العامة، أي ذكر للآخرين أو غيبة أو نميمة . فلم يكونوا يسمحون بذلك أبداً. بل لم تكن الدنيا تذكر في دواوينهم ومجالسهم مطلقاً.

وقد جالست بعضهم سنيناً فلم أسمع إلا ما يروق لمسمعي من خلق زكي وعلم نبوي وتفسير قرآن، وشواهد على رفعة الخلق وصفاء الروح، وضعةِ الدنيا في قلوبهم فإذا ملكوها أنفقوها ولم يبخلوا أو يضنّوا بها.

ومن هؤلاء الحبيب أحمد مشهور الحداد رحمة الأبرار ومنهم الحبيب ع بدالقادر بن أحمد السقاف وغيرهم كثير.

وأشهد أني رأيت الشيخ عبدالعزيز بن باز إذا أتى مجلساً في ضيافة وكان الناس ومنهم علماء للأسف يخوضون في الدنيا، وأحياناً في الغيبة، فإذا جاء الشيخ وسلّم أمر قارئه أن يقرأ فيقرأ من كتب ابن القيم التي فيها ترقيق مثل حادي الأ رواح وطريق الهجرتين وغيرها من كتبه فيسكت القوم ويستمعون وقد يشاركون في مائدة الخير فتتحول من مجالس دنيوية بحتة إلى مجالس أخروية يذكر فيها اسم الله كثيراً وهكذا القوم الصالحون المربّون في كل مكان وزمان نفعنا الله ببركتهم وعلومهم وأسرارهم آمين آمين.

دور المدارس والأربطة في التربية

وهناك مدارس وأربطة في مختلف بلاد المسلمين لا تزال تعتمد على التربية من الشيوخ العارفين وتمزج العلم بالعمل والآداب بالأخلاق ومن هذه الأربطة رباط الإمام عبدالله الشاطري في تريم، والذي أعيد دوره ودار المصطفى وجامعة الأحقاف . وهناك محاضر وأربطة في موريتانيا لا تزال قائمة . وهناك بعض الجامعات الإسلامية في أندونيسيا تقوم على الجمع بين العلم الشرعي والتربية . وفضل الله واسع وأمة الإسلام إلى خير . ولا تزال طائفة أهل الحق موجودة إلى قيام الساعة، وإن قلّوا أو لم يعدْ لهم ظهور بارز كما كان الشأن من قبل، لكنهم بفضل الله موجودون وسيزدادون قرب ظهور المهدي والمسيح عيسى بن مريم .

الفصل السادس عشر
فلسفة المصلحة (المنفعة)
والبراجماتيزم (الواقعية) الذرائعية
في الحضارة الغربية

المصلحة واللذة لدى اليونان:

إن مفهوم المصلحة (المنفعة) هو مفهوم قديم لدى الإنسان. ويمثله لدى اليونان أرستبوس تلميذ سقراط الذي فسَّر السعادة باللذة الشخصيَّة. ولذا فإن ما يأتي باللذة هو السعادة، وما يأتي بالألم هو الشقاء. وقال إن السلوك الذي يحقّق هذه السعادة القائمة على تلك اللذات هو سلوك أخلاقي، والمبادىء السلوكية التي تحقّقها هي مبادىء أخلاقية.

ثم ظهر أبيقور (Epicure)[1] في القرن الثالث قبل الميلاد. ورأى أبيقور أن هناك مصدرين يسببان القلق للإنسان هما الخوف من الآلهة والخوف من الموت. وبما أن الآلهة اليونانية مشغولة في جبال الأولمب (قرب أثينا) بصراعاتها وأمورها الخاصة، فإن البشر لا ينبغي أن يخافوها، لأنها هي معنيّة بأمورها ولا تهتم بأمور البشر أو سعادتهم أو شقائهم، لأن هذا يتعارض مع سعادتها[2]. وأما الموت فيجب ألا يخشى لأن بالموت تنتهي الآلام وجميع الإحساسات باللذة والسعادة. وإذا انتهت جميع المشاعر بالموت فلا ألم ولا لذة هناك. ولذا يمكن أن يعيش الإنسان حياة سعيدة بالسعي للحصول على الملذات بصورة معتدلة، لأن الإغراق في الملذات يسبّب الآلام. ويجب تجنّب الآلام بما في ذلك الآلام الناتجة عن الإغراق في الملذات. وأفضل طريقة للعيش هي الحصول على اللذة بتعقّل واعتدال وشجاعة وعدل، وزرع بذور الصداقة[3].

وللأسف فإن مذهب أبيقور تحوّل على يد الأتباع إلى مذهب لاقتناص اللذة، بل وأحياناً الإغراق في اللذة، والانغماس في الشهوات (Hedonism). وهو عكس ما كان يدعو إليه أبيقور. وعكس ما كانت عليه حياته من اعتدال. ومذهب اللذة الذي انتشر باسمه أدى إلى الانحلال وإلى انهيار اليونان ثم من بعد ذلك الإمبراطورية الرومانية.

الفلسفة الرواقية Stoicism :

وظهرت في نفس الفترة التي انتشرت فيها الفلسفة الأبيقورية الداعية إلى اللذة، فلسفة أخرى على النقيض منها عُرفت باسم الفلسفة الرواقيّة، لأن أتباعها كانوا يمشون في رواق الأكاديمية الفلسفية وهم يتناقشون، تماماً كما كان سقراط يفعل.

ومؤسس هذه المدرسة هو زينون (Zeno)[4] الذي عاش في القرن الثالث والرابع قبل الميلاد (334 - 262 قبل الميلاد) وكان معاصراً لأبيقور.

---

(1)أبيقور (341 - 270) قبل الميلاد. ولد في جزيرة ساموس، وأدار مدرسة للفلسفة في أثينا منذ عام 306 قبل الميلاد وحتى وفاته عام 270 قبل الميلاد (أي لمدة 36 سنة) وترك ثلاث رسائل وذكر فلسفته الشاعر اليوناني والكاتب والفيلسوف لوكريشييس في قصيدة طويلة عنوانها: في طبيعة الأشياء.

(2)الموسوعة العربية العالمية طـ2 (1999م) الرياض ج115/1.

(3)المصدر السابق.

(4)زينون (334 - 262 قبل الميلاد) فيلسوف يوناني مشهور معاصر لأبيقور. ويفرّق بينه وبين إمبراطور بيزنطي يدعى زينون أيضاً (Zeno) بأن الفيلسوف يدعى زينون السيتي (Zenon of Citium) وقد عاش قبل الإمبراطور الروماني بسبعة قرون. كما يفرّق بينه وبين فيلسوف يوناني سبقه هو Zeno of Elea (زينون الأيلي) الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد. وكان مؤيداً لفلسفة أستاذه بارامنيدس، بعدم وجود عالم خارجي حقيقي وأن الحركة وهم.

وقد دعى زينون إلى أن الإنسان يجب أن يتحلَّى بالفضيلة التي هي أعظم الخصال الحميدة. وقد اشتهر أتباعه بالصبر والثبات (Stoicism) وصارت الكلمة محمدة على عكس الفلسفة الأبيقورية التي صارت مذمَّة.

ويؤمن الراوقيون بالحتميَّة المحضة (وهي التي عرفت عند المسلمين فيما بعد باسم الجبرية) أي الاعتقاد بأن جميع الأشياء محكوم عليها أن تكون على ما هي عليه. لذلك يجدر أن نتحلّى بالحكمة والفضيلة، وأن نرضى بما لا سبيل إلى تغييره. وأن يبذل الإنسان ما في وسعه للاستفادة منه [1].

وقد انتشرت الرواقية بعد انتهاء الدولة اليونانية وظهور الإمبراطورية الرومانية وكان من أهم أتباعها وناشري مذهبها ومطوريها في الجانب الأخلاقي أربعة، هم:

(1) ـ ماركوس توليوس شيشرون أشهر خطباء روما وأحد رجال كبار الدولة فيها.

(2) ـ الإمبراطور ماركوس أوريليوس: وهو أحد الأباطرة الكبار في روما.

(3) ـ المعلّم الفيلسوف أبيكتوس (50؟ - 138؟ بعد الميلاد): من آرائه أن هناك عناية إلهية حكيمة تحكم كل الأشياء. لذا فإن ما يعدّه البشر مصائب، هي في الحقيقة أجزاء من خطط إلهية ترتّب الأمور بحكمة وإلى الأفضل. واعتقد أن الحمقى فقط ينزعجون من الأحداث التي تخرج عن سيطرتهم. وأن الرواقي الأصيل يستطيع مواجهة الموت والنكبات بنفس مطمئنة.

ولد أبيكتوس (أبيكتيتوس) في آسيا الوسطى. وكان عبداً في شبابه، ثم تحرَّر، وعاش ودرس في روما حتى عام 89 ميلادية، عندما قام الإمبراطور دوميتيان بطرد الفلاسفة فأمضى أبيكتيتوس بقية حياته في التدريس في نيكوبوليس باليونان.

(4) ـ سينيكا (Seneca) [2]: (لوكيوس آنيوس) مولده سنة أربعة قبل الميلاد ووفاته سنة 65 بعد الميلاد. خطيب ورجل دولة روماني وفيلسوف. وكان والده كاتباً مشهوراً بنفس الاسم (Lucius Annaeus Seneca (The Elder) وكان أستاذاً للإمبراطور الطاغية نيرون (Nero) في بداية حكمه، ولكنه ثار ضد نيرون فأمره بتجرّع السم. له كتابات في الفلسفة الرواقية، ومسرحيات ساخرة من الحكام وتراجيديا كلاسيكية.

الفلسفة النفعية في العصور الحديثة Utilitarian Philosophy :

ظهر توماس هوبز (Thomas Hobbs) في إنجلترا في القرن السابع عشر الميلادي (1588 - 1679). وكان مدافعاً بقوة عن الملكية المطلقة وفضّلها على النظام الأرستقراطي والديمقراطي. وكانت فلسفته تتمثل في أن الإنسان شرير بطبعه، وأناني ويبحث عن اللذة ويسعى لاقتناص الفرص لنفسه، ويبعد عن الآلام وجميع ما يكدّره. ولما كان الناس جميعاً

---

(1) الموسوعة العربية العالمية ط2 ج461/17.

(2) لم تذكر الموسوعة العربية سينيكا ضمن المشاهير من أتباع الفلسفة الرواقية وذكرت بدلاً منه شيشرون بينما ذكر قاموس وبستر الطبعة الموسوعية بيديه سينيكا، ولم تذكر شيشرون.

The New Lexicon Webster Dictionary of the English Language. Encylopedic Edition, 1989, ..New York

بهذه الرغبة، فلا بد من أن يصطرعوا ويتقاتلوا . ولذا فإن عليهم أن يتنازلوا عن كثير من إرادتهم للملك الذي هو السلطة المطلقة، وإلا فإن الفوضى ستعمّ وستزداد الآلام، ولن يستطيع إلا القليل أن يتمتعوا بملذاتهم. كتب ذلك بتوسع في كتابه الضخم اللواثيان (Leviathan) عام 1651 [1].

وقد جاء في الموسوعة العربية الميسّرة [2]:

توماس هوبز (1588 - 1676) فيلسوف إنجليزي، كان معلماً للملك شارل الأول. وعرف في الميدان السياسي بكتابه التنين الجبَّار (اللواثيان) الذي دافع فيه عن حكم الملوك المطلق، وأيّد حكم آل ستيوارت في إنجلترا.

وقال بحياة فطرية سابقة على نشأة الجماعة (الإنسانية)، ولكنها حياة فوضى وصراع، اضطر الأفراد معها إلى التعاقد لإنشاء الجماعة السياسية . وهذا التعاقد تمّ فيما بينهم، واختاروا بمقتضاه حاكماً لم يكن طرفاً في العقد، ولم يرتبط لذلك تجاههم بشيء، وخصوصاً أن الأفراد نزلوا بالعقد عن حقوقهم الطبيعية . وترتَّب على ذلك أن سلطان الحاكم غير مقيّد بشيء، وهو الذي يصنع القوانين ويعدّلها حسب مشيئته . وانتهى إلى تفضيل النظام الملكي على النظامين الأرستقراطي والشعبي . وفلسفة هوبز تجريبية تردُّ المعلومات إلى الخبرة الحسّيّة، وما يحدث لها من روابط.

وقد قام الدكتور زكريا إبراهيم (أستاذ الفلسفة في جامعة القاهرة) باستعراض فلسفة هوبز وحياته في فصل بعنوان اللواثيان (التنين) لتوماس هوبز في سلسلة كتب تراث الإنسانية[3] .

ومما أفادنا فيه عن حياة هوبز أنه ولد عندما هجم الأسطول الإسباني الضخم (الأرمادا) على بريطانيا عام 1588، وأنه عاش حياة حافلة حتى وفاته في سن الواحدة والتسعين (1679). وقد شهد أحداث ثورة كرومويل . وكان أستاذاً للملك تشارلز الثاني، وسافر إلى أوروبا مراراً وخاصة فرنسا وتعرّف على العالم الفلكي جاليلو في إيطاليا . وقد أوحى إليه جاليلو بتطبيق المنهج الهندسي أو الطريقة الاستنباطية في علم الأخلاق.

وقد هاجمه البرلمان البريطاني واتهمه بالإلحاد، وهاجمته الكنيسة بشدّة، ولولا أن الملك قد حماه لوجد عنتاً أكبر من ذلك ولتعرضت حياته للهلاك.

ويعتقد هوبز أن العقل نفسه مادة وأن التفكير حركة، فليس ثمة إلا أجسام وكل ما يحدث في الأجسام من ظواهر إنما يرتد إلى حركات . وليس يكفي أن نقول أن الإحساس هو نقطة البدء في كل معرفة، بل يجب أن نضيف إلى ذلك أيضاً أن الإحساس هو في ذاته حركة من حركات المخ . ومهما كان من سمو الأفكار، فإنه ليس ثمة فكرة واحدة لا يمكن ردّها في خاتمة الأمر إلى هذا الحسّ أو ذاك. ويفرّق هوبز بين الحركة من جهة، ومظاهرها من جهة

---

(1)قاموس وبستر (المصدر السابق)..
(2)المجموعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غربال، دار إحياء التراث العربي، القاهرة ج1913/2..
(3)د. زكريا إبراهيم: اللواثيان (التنين) لتوماس هوبز، تراث الإنسانية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي (مصر)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ج251/1- 262.

أخرى.. ويقول عن الإحساس باللذة أنها بمثابة نوع خاص من الحركة في القلب . (وهو أمر خطأ من الناحية المادية والإحساس باللذة أو الألم يتم في الدماغ).

أما الظاهرة والإدراك الحسّي والعاطفة والوعي والضمير، فإنها جميعاً ليست أشياء حقيقية واقعية، بل هي مجرد مظاهر، ومهما يكن من شيء فإن الظاهرة الأولى التي ينبغي أن تسترعي انتباه الفيلسوف هي أن ثمّة شيء يبدو لنا، وأننا ندرك هذا الشيء عن طريق الإحساس. ولما كانت الظواهر هي مبادىء المعرفة بصفة عامة، فإن كل فلسفة لا بد من أن تجعل من الإحساس مبدأ لكل معرفة تحصّلها من تلك المبادىء، وبالتالي فإن الإحساس هو الأصل في كل علم [1].

ويرى هوبز أن الحركة هي المُسيّرة لهذا العالم فهناك حركة تحدث خارجنا، وأخرى تحدث فينا، وليس الإنسان في نظره سوى مجموعة من الحركات . وليس مضمون الإحساسات سوى عملية ظهور للحركات في المخ والأعصاب.. وكما أقام هوبز كل تصوره للوجود على أساس الحركة الميكانيكية، نراه يقيم تصوّره للحياة الأخلاقية والاجتماعية على غريزة البقاء الشخصي . والواقع أن غريزة المحافظة على البقاء الشخصي هي في نظره هوبز الغريزة الأساسية التي تتحكم في الوجود الإنساني كله.

ومن هنا فقد ارتبط مفهوما اللّذة والألم بطبيعة حياتنا العضوية . لأن كل ما يشبع فينا تلك الغريزة يسبّب لنا ضرباً من اللّذة، وكل ما يعارض لدينا تلك الغريزة لا بدّ من أن يوَلِّد لدينا شعوراً بالألم . ومعنى هذا أنه حينما تكون الحركة ملائمة لمجموع وظائفنا الحيوية فإنها تحدث اللّذة، على حين أنها تولّد لدينا ـ في الحالة المضادة ـ نوعاً من الإحساس بالألم.

واللّذة بدورها تولّد الرغبة، والرغبة هي حركة انبساط نبحث فيها عن بعض الموضوعات السارّة، في حين أن الألم يولّد النفور . والنفور هو بمثابة حركة نكوص نتراجع فيها عن بعض الموضوعات الأليمة.

أما الإرادة، فإنها في رأي هوبز، إنما تعبر عن أقوى الرغبات، بمعنى أننا نريد ضرورةً تلك الرغبة التي تتغلّب على كل ما عداها من الرغبات، فيصدر عنها الفعل بطريقة حتمية (جبرية مادّية) لا أثر فيها للاختيار.

حقاً إن الكلاسيكيين (المدرسيّين) طالما تحدّثوا عن حريّة أخلاقيّة، تتمثّل في القدرة على الإرادة أو عدمها، ولكن هذه الحريَّة المزعومة هي في نظر هوبز مجرّد وهم من الأوهام . والواقع أننا لا نملك حريّة أخلاقية، بل كل ما نملكه هو تلك الحريّة الجسمية (الطبيعية) التي نستطيع معها أن نفعل ما تتّجه إليه أقوى رغباتنا.

---

(1)هذا كلام فيه حق وباطل، فأما الحقّ فهو إننا نتعلم عن طريق الأحاسيس المختلفة (السمع، الذوق، الشم، البصر، اللمس) قال تعالى : {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *} [النحل: 78]. وأما الباطل فهو قصر العلم على الأحاسيس فقط. ولم ينتبه إلى موضوع (الأفئدة). وليس المقصود بها القلب العضلي بل هي لطيفة ربانية غير مدركة بالحس، هي التي تأخذ هذه الأحاسيس وتفهمها وتحوّلها إلى معلومات بواسطة الدماغ. وهو ما يعبّر عنه بالروح. وقد أهمل هوبز والماديون إهمالاً تاماً موضوع الروح وأنكروه إنكاراً تاماً.

تلك هي المبادىء الس يكولوجية العامة التي يرتب عليها هوبز نظريته الأخلاقية إلى الموجود البشري. وهنا نراه يقرن الخير باللّذة، والشرّ بالألم، فيقرّر أن الخير والشرّ إنما هما لفظان عامّان نستخدمهما للإشارة إلى الموضوعات المرغّبة، والموضوعات المنفّرة على التعاقب. ومعنى هذا أنه ليس ثمّة خير مطلق أو شرٌّ مطلق، فإنه لا سبيل إلى استخراج قاعدة أخلاقية تنبع من طبيعة الموضوعات نفسها . وما دام خيرنا يرتبط دائماً بما هو نافع لنا، وشرّنا يرتبط في نظرنا دائماً بما هو ضارٌّ لنا، فلا حرج علينا إذا قلنا أن المنفعة هي قاعدتنا الأخلاقية الوحيدة. وحسبنا أن نراجع شتّى أهوائنا وعواطفنا لكي نتحقّق من أنها ترتدّ دائماً في نهاية الأمر إلى غريزة المحافظة على البقاء من جهة، وإرادة القوة أو حبُّ السيطرة من جهة أخرى. ومهما كان تنوّع الأهواء البشريّة، فإنها جميعاً تُخفي وراءها ضرباً من الشعور بالأنانية وحبّ الذات. فالشفقة، مثلاً، هي في صميمها عاطفة أنانية : لأنني حينما أرى آلام الآخرين، وحينما تأخذني الشفقة بهم والعطف عليهم إنما أتصوّر أن هذه الآلام قد تلحق بي أنا أيضاً، فأتألم لها سلفاً، وأشفق على نفسي مما قد ينزل بي من مصائب أو محن في المستقبل!! والإحسان والمحبّة إنما هي جميعاً عواطف أنانية تُخفي وراءها إرادة القوة وحبُّ السيطرة: فإن الأريحي هو الشخص الذي يشعر بأن لديه قدرة كبرى يستطيع معها أن يحقِّق سعادته الخاصة وسعادة الآخرين، والمحسن هو الشخص الذي يدرك تفوّقه على الآخرين حتى يمدُّ يد العون إليهم ويعمل على الأخذ بيدهم... إلخ.

وحتى لو نظرنا إلى انفعال الضحك لوجدنا أن اللّذة التي يسبّبها لنا الموضوع المضحك، إنما هي نوع من الكبرياء نستشعرها عند رؤيتنا لمصائب الآخرين أو زلاتهم أو نقائصهم (كأن تنزلق قدم شخص محترم، فيسقط على الأرض)، فتستولي علينا عزّة فجائية تجعلن ا نشعر بتفوُّقنا عليهم، وتميُّزنا عنهم . أما الشعور الديني فهو في جوهره مجرد إحساس بالخوف أو الرهبة من الأشياء اللامرئية ؟!(1)

ومن كل ما تقدم يتبيّن لنا أن القانون الطبيعي في نظر هوبز إنما يتلخّص في طلب اللّذة والانصراف عن الألم، بحيث أن الأخلاق تختلط عنده بمبدأ المنفعة، ولكن لما كانت سعادة الموجود البشري لا يمكن أن تتحقّق بالوصول إلى حالة الطمأنينة النفسية أو السكينة العقلية (لماذا لا تتحقق فلا يوجد سبب منطقي لما يقوله هوبز، بل هو ينقض نفسه وأقواله نقضاً تاماً بمثل هذه التّرهات)، فإن الإنسان لا بد من أن ينتقل دائماً من رغبة إلى أخرى (لم يوضح لنا لماذا يحدث ذلك من الناحية المادية الفسيولوجية التي يتحدث عنها)، ومن موضوع إلى

(1)إن ما يقوله هوبز فيه قليل من الحق، وكثير من الباطل والغثاء. فما دام قد قرّر أن الإحساس هو نقطة البدء في كل معرفة وأن الإحساس ذاته حركة من حركات المخ. وقد أكد أن الأحاسيس كلها مصدرها مادي . ونشعر بها بسبب تفاعلات كيميائية كهربائية في الجهاز العصبي، وأن اللذّة هي حركة ملائمة في المجموع العصبي، وأن الألم هو حركة غير ملائمة في المجموع العصبي (وهو كلام غير دقيق من الناحية الفسيولوجية فالألم له دور هام وظيفي في أجسامنا وشرح ذلك يطول) والإرادة تعبّر عن الرغبات المتولّدة من الأحاسيس. فإن تفسيره للشفقة والعطف والحب وفعل الخير والإحسان كلها تفسيرات غير منطقية ولا منسجمة مع نظريته. وأسخف منها تفسيره الضحك بأنه نوع من الكبرياء وهو تفسير سخيف.. ولا ينطبق على ما قدّمه من أسباب فسيولوجية مادية لكل الإحساسات والآلام واللذّات . وأسخف منه وأقل منطقاً وعقلاً تفسيره للشعور الديني بأنه مجرد إحساس بالخوف أو الرهبة من الأشياء الموهومة اللامرئية. فما دام الأمر مادة فقط وشعور مادي وحركة مادية فكيف تتولّد الرهبة والخوف من أشياء لا وجود لها؟! إن نظريته نفسها تهدم معظم ما قاله في هذا الصدد.
.

موضوع آخر دون أن يتمكّن من التوقف عند أية منفعة مهما كان من قيمتها (وهذا كلام غير عقلاني ولا منطقي ولا حتى مادي).

فالحياة الإنسانية سلسلة من الرغبات المستمرّة، وسعادة البشر تستلزم بالضرورة اللهفة المستمرّة للانتقال من حالة إلى أخرى (أيضاً هذا كلام غير علمي من الناحية الفسيولوجية) والحرص البالغ على البحث عن «قوة» بعد أخرى دون أن يكون ثمّة توقف (لماذا يبحث عن القوة وهي معنى تجريدي بالنسبة لفسيولوجية الجهاز العصبي المادي الذي تحدث عنه وبنى نظريته على أسسه)، اللهم إلا بالموت.

ومهما زعم أرسطو أن الإنسان حيوان اجتماعي أو مدني بطبعه، فإن الواقع نفسه ليشهد - فيما يقول هوبز - بأن الإنسان هو بطبيعته مجرد فرد أناني، لا يتحرك إلا من أجل ذاته . فليست الأنانية عرضاً من أعراض الحياة البشرية، بل هي جوهر الوجود البشري من حيث هو وجود مادي نفعي يقوم على السعي نحو البقاء والعمل على زيادة السيطرة [1]. وهكذا يخلص هوبز إلى القول بأن القانون الطبيعي الأوحد الذي يحرّك الآلات البشرية إنما هو قانون الأنانية أو المنفعة أو إرادة القوة.

وقد سعدت بريطانيا بهذه النظرية لأنها أتاحت لها استعباد الأمم واسترقاقهم بل وإبادة الهنود الحمر في أمريكا الشمالية والسكان المحليين في أستراليا ونيوزيلندة . وكذلك سعدت أوروبا بهذه النظريات وأوجدت نظريات مماثلة في القوة وتمجيدها لدى شوبنهور، وبصورة خاصة لدى نيتشه، فالقوّة هي الحقُّ والحقُّ هو القوّة . وهو مبدأ مستمرّ من ذلك العهد الاستعماري الذي بدأ في القرن السادس عشر الميلادي باكتشاف الأمريكتين وما تلاهما من الاكتشافات الكبرى في القرنين السابع عشر والثامن عشر وعهود الاستعمار البغيض .. ثمَّ الحروب بين هؤلاء البيض المتنافسين على استعباد العالم ونهب ثرواته .. وهي معركة مستمرة إلى اليوم بفلسفات جديدة، ولكن أصلها الحقيقي ينبع من فلسفة هوبز ونظريات دارون والبقاء للأصلح وإعادة تفسير كل شيء حسب هذه الفلسفات المادية النفعية الحقيرة.

إن فلسفة هوبز تؤدي إلى صراعات أكبر داخل المجتمعات الأوروبية بل والمجتمع البريطاني نفسه، ومواقفه كانت مع الملكية المطلقة ضد الديمقراطية، وضد حتى الأرستقراطية، مع الرفض التام لتحديد أي سلطة من سلطات الملك..

ورغم أنه مادي إلا أنه يتفق تماماً مع الذين يتحدّثون عن الحق الإلهي للملوك Divine Rights of Kings وأن الله قد جعل الملك مُمثّلة على الأرض كما كان آخرون يتحدثون عن البابا باعتباره المُمثّل الحقيقي ليسوع، ولبطرس الأكبر الذي قال له يسوع حسب زعمهم : «إن ما تفتحه في الأرض يفتحه الله في السماء، وما تقفله في الأرض يقفله الله في السماء، وما تفعله على الأرض يقرّه الله في السماء وما ترفضه في الأرض يرفضه الله في السماء ».

(1)هذه النظريات الفلسفية اخترعها الإنجليز عندما بدأوا في عهد الاستعمار وبداية ظهور دولتهم الإمبراطورية ولكي يبيحوا لأنفسهم استعمار الآخرين والسيطرة عليهم، حولوا ذلك إلى مبادىء أخلاقية طبيعية، ومثلها نظرية دارون في جانبها الاجتماعي حيث تفرض الطبيعة البقاء للأصلح، وتتخلّص من الأضعف دوماً، فإذن من الطبيعي أن يكون الإنجليزي المتفوق هو الأصلح وهو الذي يُبيد الهنود الحمر في الولايات المتحدة وكندا، والسكان الأصليين في أستراليا ونيوزيلنده . ويستعبد كافة الشعوب في أفريقيا وآسيا. وكل ذلك أمر طبيعي وأخلاقي!!.

والبابا هو ممثل لبطرس كبير حواريي المسيح ، حسب زعمهم . وأدى ذلك إلى الصراع المشهور بين البابوات وملوك أوروبا .. وأولئك كلهم تحدّثوا باسم الدين والربِّ ويسوع الممجّد .. أما هوبز و غيره من الفلاسفة الملاحدة فقد أقرّوا بسلطة الملك، أو الدولة وسيطرتها، ولكن عبر فلسفة مادية . والنهاية لدى الفريقين واحدة . دعم الظلم والجبروت والطغيان وأن يكون القويّ هو المسيطر وهو الإله في الأرض من دون الله تعالى.

جيرمي بينثام 1748) Jeremy Bentham - 1832)

يعتبر جيرمي بينتام أحد الفلاسفة الإنجليز المشهورين في العصور الحديثة لأنه أقام فلسفة لا تزال مقبولة بصورة عامة لدى الغرب (مع وجود انتقادات عديدة لتفاصيلها) وهي الفلسفة النفعية أو فلسفة المصلحة Utilitarianism .

وقد وسّع بينتام موضوع الفلسفة النفعية التي ناد ى بها هوبز Hobbs إلى مصلحة أكبر قدر ممكن من أفراد المجتمع. ولكن هذه المصلحة مادية بحتة . فلو كانت هناك مصلحة في نشر تجارة الخمور في بلدٍ ما، فإن هذه المصلحة تعتبر مصلحة معتبرة. ففي الخمور مصلحة للأفراد عندما يشربون الخمر لشعورهم بالسعادة وإيجاد علاقات اجتماعية، وهي تشكل دخلاً كبيراً لمن يعملون بهذه الصناعة وبيعها وترويجها، وهم يقدّرون بالملايين ففي فرنسا وحدها يعمل في زراعة العنب الذي يستخدم لصناعة النبيذ، ومصانع النبيذ والذين يعملون في ترويجها وبيعها وفي البارات.. إلخ أكثر من مليون شخص .. والشيء ذاته يقال في كل بلد أوروبي، وقل مثل ذلك في معظم دول العالم التي تبيح صناعة وترويج الخمور . ويدخل للدولة مبالغ كبيرة من الضرائب على الخمور . وبهذه النظرة السطحية تبدو منافع الخمور وشربها وترويجها كبيرة . ولذا يؤيدون تجارتها وبيعها وترويجها . وقد أثبتت الأبحاث منذ بداية القرن العشرين أن هذه الأرقام في منافعها خاطئة . فالكوارث والحوادث والتلف الذي يحدث بسبب شرب الخمور هو أضعاف أضعاف هذه المبالغ الهزيلة نسبياً التي تحصل عليها الدولة. كما أن الأمراض الناتجة عن الخمور وكلفة علاجها تبلغ عشرات المرات وأضعافها، مما يمكن أن تحصل عليه الدولة من مكاسب. وقد تبيّن أن 86 بالمئة من جرائم القتل وجرائم العنف الأخرى تمت تحت تأثير الخمور، وأن 50 بالمئة من جميع حوادث الطرق هي بسبب الخمور، وأن 50 بالمئة على الأقل من حالات الاغتصاب تمت تأثير الخمور وأن معظم حالات الاعتداء على المحارم هي بسبب شرب الخمور[1] .

وكانوا يؤيدون تجارة التبغ والتدخين والسجائر بناء على مكاسبها المادية .. وهي مكاسب ضخمة جداً تصل إلى عشرات المليارات من الدولارات سنوياً. ولكن في مقابلها يموت سنوياً منذ بداية الألف الثالثة للميلاد (2000 وما بعدها) أكثر من خمسة ملايين شخص سنوياً بسبب التدخين ويصاب بالأمراض مئات الملايين سنوياً بسبب التدخين. وكلفة هذه الأمراض والوفيات تفوق دون ريب مكاسب الشركات، ومكاسب الحكومات من الضرائب المفروضة على التبغ وهي أموال تحرق عبثاً في الهواء، وتسبب تلوث البيئة، وثلث الحرائق في العالم.

---

(1)انظر تفصيلات ذلك في كتابي «مشكلة الخمور والمخدرات : نظرة إلى الجذور واستشراف للحلول »، دار القلم دمشق وكتابي «الأضرار الصحية للمسكرات والمخدرات والمنبهات»، الدار السعودية، جدة..

والشيء ذاته يقال عن تجارة الجنس والبغاء، ويدافعون عنها بأنها أقدم تجارة ومهنة في العالم... وأنها تحقّق مكاسب ومنافع لمن يقومون بها، كما تحقّق رضا العملاء والزبائن وتفرغ شحناتهم الجنسية الفسيولوجية.. ومكاسبها اليوم أيضاً بمليارات الدولارات ولكن هذه المكاسب أيضاً وهمية ولا تق ارن بالخسائر الناتجة عن تجارة الجنس في تحطيم المجتمع وقيمه وانتشار الأمراض الجنسية. فهناك أكثر من خمسين مليون شخص مصاب بالإيدز الآن وقد مات منهم أكثر من 15 مليون منذ ظهور الإيدز في بداية الثمانينات إلى اليوم . كما إن العذاب الذي يتعذّبه هؤلاء لا يقارن مطلقاً بلحظات اللذة العابرة، والخسائر المادية في فقدان الشباب، وخاصة في أفريقيا ووجود عشرات الملايين من الأيتام، بسبب وفاة الوالدين أو أحدهما بسبب الإيدز، وإصابة مليون طفل سنوياً بالإيدز كلها تجعل مكاسب الزنا واللواط المادية وتجارة الجنس تافهة وباهتة .. وحتى بميزان المنفعة المادية البحتة، فإن الأمراض الجنسية قد تسببت في تدمير أفريقيا، وأثّرت بشكل كبير في معظم دول العالم.

فبالإضافة إلى 50 مليون مصاب بالإيدز هناك 250 مليون مصاب بالسيلان (الجونوريا) و500 مليون مصاب بالكلاميديا والمايكوبلازما (وهي أمراض جنسية تسبّب ا لعقم والالتهابات في الجهاز التناسلي وغيره)، وخمسين مليوناً يصابون بالزهري وهذه الأمراض وغيرها الناتجة عن الزنا واللواط تؤدي إلى فقدان الحياة وإلى الأمراض الخطيرة وإلى فقدان مئات المليارات في معالجة هذه الأمراض دون جدوى.

هذه هي الأمراض الجسمانية، أما الأمراض النفسية والأخلاقية فلا حدود لها . وهي تؤدي إلى تحطم هذه المجتمعات أخلاقياً واجتماعياً، وإلى العزوف عن الزواج، وانتشار العزوبة، وإلى كثرة نسبة الطلاق عند حدوث الزواج، وإلى الخيانة الزوجية إذا لم يتم الطلاق لصعوبته ومنعه في الديانة المسيحية الكاثوليكية والأرثوذكسية.

والخلاصة أن المنفعة التي تأتي من البغاء وتجارته لا تفيد سوى مجموعة محدودة أغلبهم من اليهود الذين يتحكمون في تجارة البغاء والمخدرات والخمور، ويزدادون ثراء على ثراء وتحكّماً في البشر.. بينما البشرية كلها تعاني من هذه الموبقات معاناة مادية وروحية وأخلاقية ومالية وصحية.. إلخ إلخ.

والشيء ذاته يقال عن الربا الذي دافع عنه بينثام وكتب عنه كتاباً هاماً سمَّاه «دفاع عن الربا» Defence of Usury ونشره عام 1787، وقد كان لهذا الكتاب أثر كبير في دعم نظريات آدم سميث Adam Smith في حرية التجارة وحرية أخذ الربا.

وسعد اليهود المرابون بكتاب بينثام لأنهم مرابون على مدى التاريخ، وقد انتقدهم بحرارة الكاتب المسرحي الإنجليزي المشهور وليام شاكسبير في مسرحيته الشعرية، «تاجر البندقية»، الذي أصرّ على أن يأخذ الربا من الضحية، فلما لم يستطع دفع الأقساط، أخذ حكماً من المحكمة بقطع أجزاء من جسمه ليوفّي دينه مع أرباحه الربوية الفاحشة.

ولدا فإن كتاب بينتام جاء بعد عصر وليام شاكسبير بقرنين من الزمن، وقد تهيأت نفوس كثيرين لتقبّل مثل هذه الآراء. واعتبار النظام الربوي الاستغلالي البشع نظاماً هاماً مفيداً نافعاً

للبشر ولتطوّر التجارة، ودعم عمليات الاستعمار والجيوش الغازية التي استولت على أمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلنده والهند وأجزاء واسعة من أفريقيا والعالم.

وهو نظام ... أدّى ويؤدي إلى كوارث رهيبة وآخرها الأزمة الاقتصادية العالمية التي حدثت في أواخر عام 2008، وفضحت النظام الرأسمالي الجشع البشع والذي قام بألاعيب ما يسمى المشتقات المالية (Derivatives) بسرقة تريليونات الدولارات وهي أشدّ بكثير من ألاعيب الربا بأنواعه المختلفة.

وقد أدّى ذلك إلى أن تكون العملات الرئيسة في العالم وخاصة الدولار، بدون أي غطاء، والولايات المتحدة الأمريكية نفسها واقع ة في دين رهيب يبلغ عشرات التريليونات، ومن المستحيل تسديد هذه الديون.

والبنك المركزي الفيدرالي في الولايات المتحدة هو بنك يهودي خاص، وهو الذي يصدر العملة الأمريكية ويحدّد سياستها !! والدولة مديونة لهذا البنك بعشرات التريليونات، أي أن الولايات المتحدة كلها، و معها دول العالم الأخرى، قد تمّ رهنها لهؤلاء اليهود، مصاصي الدماء.

والغريب فعلاً أن ما يسمى بنك إنجلترا Bank of England الذي موّل الإمبراطورية البريطانية التي لم تكن تغيب عنها الشمس وتحكّم فيها، وفي ثرواتها هو أيضاً بنك يهودي خاص!!! (أغلبه لعائلة روتشيلد).

فتاريخ أوروبا الحديث وبالذات الأنجلوساكسون (الذين سكنوا بريطانيا والولايات المتحدة وكندا، وأستراليا ونيوزيلندة، وجنوب أفريقيا)، كانوا مدينين لفلسفة جيرمي بينثام التي دعمت الفلسفة النفعية Utilitarianism وأدت إلى انتشار النظام الربوي العالمي. وكان كتاب بينثام دفاع عن الربا Defence of Usury قد لعب دوراً كبيراً مع فلسفة آدم سميث (Adam Smith) (وكلاهما بريطاني) في نشر النظام الربوي العالمي والنظام الرأسمالي الحالي.

ترجمة جيرمي بينثام: (1748 - 1832) (من دائرة المعارف البريطانية)

ولد جيرمي بينثام في 15 فبراير 1748 في مدينة لندن وكان والده المدعي العام في هذه المدينة العالمية، وهيأ ابنه ليكون محامياً مرموقاً وسياسياً بارزاً، إلا أن بينثام رغم تخرجه كمحامي إلا أنه اتجه إلى الكتابة وإلى الفلسفة، ورحل إلى أوروبا وإلى روسيا . ووضع أول كتاب له عام 1776 بعنوان «قطعة من الح كومة» Fragment on Government وانتقد فيه معارضة سير بلاكستون للتحديث والإصلاح السياسي والمالي.

ثم ظهر كتابه «دفاع عن الربا » عام 1787 عندما كان في زيارة لأخيه في روسيا . ثم وضع كتاباً سماه «الكتاب العملي في الاقتصاد السياسي » Manual of Political Economy وفي عا م 1789 صدر كتابه مقدمة في مبادىء الأخلاق والتشريع An Introduction of the Principles of Morals and Legistation .

وفيه أوضح فلسفته النفعية Utility وعرَّفها بأنها الخاصية التي تجلب السرور واللذة والسعادة، أو تمنع حدوث الضرر أو الألم أو عدم السعادة للمجموعة التي يُنظر في مصالحها.

يقول : «إن الإنسانية محكومة بدافعين أساسيين هما : (1) اللذة (السرور) و(2) الألم .. وينبغي أن يكون هدف كل التشريعات في تحقيق السعادة لأكبر عدد من أفراد المجتمع . وينبغي ألا تستخدم العقوبات (لأنها تسبّب الآلام) إلا لدرء مخاطر أكبر وشرور أعظم» [1].

وقد انتشر هذا الكتاب انتشاراً واسعاً في إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة ونال بسببه التكريم الواسع. وأصبح رئيساً لنقابة المحامين (جمعية المحامين) في بريطانيا والمشهورة باسم (لنكولن إن) (Lincolin Inn) وهي الحانة التي كانوا يجتمعون فيها أول الأمر في لندن. وأصبحت مركزاً عالمياً لعلم القانون ودراسته، وتجمّعُ المحامين المرموقين، وذلك عام 1817. وحاول أن يبوّب وينظّم القانون الإنجليزي في مدوّنه Codification of English Law ، ولكنه واجه صعوبات جمّة، ولم يستطع أن يتمّ عمله.

وحاول القيام بإصلاحات واسعة في نظام السجون، وجعله أكثر إنسانية، لكنه فشل في نهاية المطاف، بسبب اضطراب أفكاره وتداخلها، وعدم وجود خُطَّة تنفيذية عملية لآرائه المتشعّبة، كما تقول دائرة المعارف البريطانية[2] .

وقد أيد بينثام الإصلاحات في نظام الانتخابات ليكون أكثر ديمقراطية . ونشر عام 1830 كتاب «التبرير العقلاني للعقاب » أو «الأسس المنطقية للعقاب » (Rationale of Punishment) . وهو كتاب وضعه بالفرنسية قبل ذلك. كما وضع من قبل كتاب «التبرير العقلاني للثواب» (Rationale of Reward) أو «الأسس المنطقية للثواب».

تقييم دائرة المعارف البريطانية لأعمال بينتام:

إن بينثام ناقد جيّد للقانون الإنجليزي، ولكنه ليس كذلك كفيلسوف. وللأسف لم يكن يعرف حدود مقدرته فحاول أن يضع قواعد أساسية للأخلاق .. وكانت تعريفاته إما تتّسم بالبساطة المفرطة إلى حد السذاجة أو الغموض إلى حدّ التناقض . وأما طريقته في حساب السعادة بالأرقام والمعادلات فقد كانت غير قابلة للتطبيق حتى لدى أشدّ المعجبين بها. وهي في الواقع سخيفة (absurd) . وكأخلاقي وعالم نفسي فإن مجادلات بينثام كانت تتّسم بالغموض والتناقض والسطحية وخاصة عند محاولته تفسير السلوك الإنساني.

وقد اعتقد أن كل إنسان هو أناني أنانية تامة (مثل سلفه هوبز) ويجب على كل شخص أن يحقّق لنفسه أكبر قدر من السعادة (أكبر قدر من اللذة، وأقل قدر من الألم)، دون اعتبار للوسيلة ولا الكيفية. وحتى مقولته المشهورة «أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس » ليس لها معنى في المجال التطبيقي.

---

(1)إن هذه الفلسفة تبدو سليمة في ظاهرها. ولكن واقعها مليء بالتناقضات وسنورد ردوداً عليها وخاصة رد الشيخ الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي الموسع في كتابه الهام ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية . وهو رسالته للدكتوراه، إصدار مؤسسة الرسالة، بيروت. طـ4 سنة 1402هـ/ 1982..

(2)دائرة المعارف البريطانية الطبعة 15 لعام 1982 ج837/2 - 839.

وتتميّز الفصول الأولى من كتابه «مقدمة في مبادىء الأخلاق والتشريع » بالاضطراب والتناقض، ويمكن كشف تناقضاتها واضطرابها بسرعة لأي قارئ حصيف. والحقّ أن بينثام لم يغطِّ فقر أفكاره وتناقضاتها كما يفعل كثيرون ببهرجة القول والبيان الزائف واستخدام اللغة الأدبية الرفيعة، بل كان صادقاً وبسيطاً في عرض أفكاره، دون تمويهات بلاغية.

ولكن قدرات بينثام تظهر في نقده للدساتير والأنظمة والقوانين، وفي كتابه التبرير العقلاني للإثبات القضائي Rationale of Judicial Evidence حيث وصف الإجراءات القضائية المتّبعة في المحاكم البريطانية آنذاك، وكيفية إصلاحها . كما قا م بوضع طريقه لتحديد المناقشات في البرلمان والوصول إلى نتائج ذات قيمة، بدلاً من إضاعة الأوقات في مناقشات غير مفيدة وغير مبرّرة.

جون ستيوارت مِل John Stuart Mill [1]:

المؤسس الثاني للفلسفة النفعية الحديثة (ولادته في لندن عام 1806 ووفاته في أفيجنون في فرنسا 1873).

كان والده جون مل أحد المشهورين في مجال الفكر والفلسفة وقام بنفسه بتربيته، وفي سن الثامنة كان يقرأ اللغة اليونانية بسهولة، وقرأ فيها فلسفات ومنطق أرسطو وأفلاطون، وتاريخ هيرودتس، وفلسفة ديوجنيس، وهندسة إقليدس، وبعض الأعمال الأدبية، بالإضافة إلى التاريخ الإنجليزي، وفي الثامنة أيضاً بدأ دراسة اللغة اللاتينية. ولم يبلغ الثانية عشرة إلا وقد قرأ الأعمال المهمة في اللغة اليونانية، كما قرأ آدم سميث فيلسوف عصره ومؤسس النظام الليبرالي الرأسمالي.

وفي سن الرابعة عشرة سافر إلى فرنسا مع عائلة السير صموئيل بينثام، شق يق جيرمي بينثام الذي سبق الحديث عنه، وتعرّف بالتالي على آراء وفلسفات جيرمي بينتام بواسطة شقيقه صموئيل كما أجاد اللغة الفرنسية خلال عام واحد فقط.

وفي سن السابعة عشرة التحق بشركة الهند الشرقية الاستعمارية، ومكث دهراً طويلاً فيها. وكانت هذه الشركة هي الحاكمة للهند، ولها جيوش كاملة، وهي تمثل بريطانيا التي أصبحت عظمى بالفعل. ولكن الحكومة البريطانية بعد فترة من الزمن حولتها إلى حكم التاج . وكان ميل هو الرئيس الفعلي لهذه الشركة العملاقة حتى عام 1858 عندما استولت على مهماتها الاستعمارية حكومة بريطانيا.

إذن نحن أمام رجل من عمالقة الفكر الاستعماري البريطاني . رغم كتاباته الليبرالية، فالليبرالية وحقوق الإنسان، وحقوق المرأة لا تتعدّى لدى هؤلاء القوم الشخص البريطاني، فإذا تعدّته، فإنها لا تتعدّى بحال الرجل الأبيض الأوروبي الذي حكم العالم آنذاك.

وقد انتقد جون ستيوارت ميل مثل سلفه جيرمي بينتام النظام القضائي البريطاني، والنظام البرلماني، ونشر مقالات عدة في العديد من المجلات المحترمة آنذاك مثل ويستمنستر ريفيو (Westminster Review) [1]ومجلة المسافر (Traveller) ومجلة مورنينج كرونكل.

(1)مادة هذا الفصل من دائرة المعارف البريطانية الطبعة 15 لعام 1982 الماكروبيدياج 12/197 - 200..

وفي عام 1825 بدأ تحرير وجمع كتاب صديقه جيرمي بي نتام «التبرير العقلاني للأدلة الجنائية أو الأسس المنطقية للأدلة الجنائية (Rationale of Judicial Evidence) وهو في خمسة مجلدات جمعها جون ستيوارت مِل من العديد من الأبحاث والمقالات لصديقه بينتام. وانتهى منها عام 1827.

وظهرت اتجاهاته الليبرالية في رسالته «الممتحن» عام 1830 «وروح العصر» عام 1831 وما تلاهما من أبحاث نشرت في المجلات المختصة، مثل لندن وويسمنستر ريفيو London and Westminster Review (اتحدت مجلتان مشهورتان آنذاك في واحدة) وكان هو رئيس تحريرها . ونشر مقالات هامة في أدنبره ريفيو Edinburgh Review . وجمعت لكثير من هذه الأبحاث في كتاب بعنوان «أطروحات ومجادلات مِل» في مجلدين (Mill's. Dissertation and Discussion 1859) وكتب مِل في مواضيع أدبية ونقد لشعر كولريدج، وفي التاريخ (تاريخ فرنسا) و«النظام الديمقراطي في أمريكا» وكتاباً عن صديقه بينتام (وهو أيضاً صديق والده).

وكتب عن المنطق والاقتصاد السياسي وتأثر بأوجست كومت ومجموعة من العلماء والفلاسفة البريطانيين مثل إسحاق نيوتن وجيرمي بينتام وجون لوك ودافيد هيوم ووالده جيمس مِل.

وفي المنطق فضّل المنطق القياسي الاستدلالي (Syllogism) على المنطق الاستقرائي (inductive Logic) ودافع عنه ضد الآخرين. واعتبر أن المنطق الجديد لا يلغي المنطق القديم، بل يعضّده ويضيف إليه (Supplementary) ونشر بحثه الطويل في كتابه «منظومة المنطق» System of Logic في مجلدين، وركز في الجزء الرابع من الكتاب على إيجاد منطق لدراسات العلوم المختلفة من التاريخ وعلم الاجتماع، وعلم النفس وغيرها ووضع دراسات نقدية متكاملة لذلك الغرض.

وساهم في الكتابة في الاقتصاد السياسي في حلّ معضلات معاصرة في زمنه، وكيفية توزيع الثروة، وتعريف العمالة المنتجة، والعمالة غير المنتجة، والعلاقة بين الربح والأجور، ودافع عن حقوق الفلاحين في امتلاك الأراضي الزراعية . وظهرت بذلك ميوله الاشتراكية المعتدلة، ودافع عن حقوق العُمّال المهضومة، وطالب بتغيير نمط حياتهم المُزرية وذلك بإعطائهم أجوراً عادلة.

وكتب مقالاً مطولاً بعنوان «تحرير المرأة» ظهر ضمن كتابه «أطروحات ومجادلات مِل» في المجلد الثاني. وبعد تقاعده من شركة الهند الشرقية عام 1858 تفرّغ للكتابة فكتب «في الحرية» و«إصلاح البرلمان» عام 1859، «والحكومة الممثلة للأمة» عام 1861 وطالب بمزيد من الديمقراطية مع نبرة نشاؤمية في إمكانية التلاعب بهذا النظام الديمقراطي بواسطة الانتخابات والتأثير على الرأي العام.

وأهم بحوثه ما نشره في مجلة فريزر ماجزين بعنوان «النفعية» Utilitarianism عام 1861 وكرسالة خاصة عام 1863. وركز على أهمية اللذة والمنفعة، بما في ذلك اللذة التي

(1)ويستمنستر هو مقر البرلمان البريطاني. وهذه مجلة تعنى بشؤون البرلمان.

تأتي من الأعمال الفنّيَّة والشعر والخيال والعواطف الإنسانية . أي أنه ارتقى بها من مجرد اللذّة الحسيّة التي نادى بها هوبز وقصرها على كل فرد بذاته، أو اللذة الحسيَّة التي نادى بها بينثام ووسعها لتشمل أكبر عدد من أفراد المجتمع.

وبدأ يكتب نقداً لفلسفة وليام هاميلتون وأوجست كومت وغيرهما . وأيَّد اتجاه كومت الإنساني في فلسفته الأخيرة .. وهاجم جيمس ستوا رت مِل الدين الذي يؤسس لنظام هرمي فاسد ومستبّد وطاغي (وهو ما كان موجوداً في نظام الكنيسة على مدى تاريخها الطويل الأسود) وفي عام 1869 أعاد نشر كتاب والده جيمس مِل: «تحليل ظواهر العقل الإنساني » Analysis of the Phenomena of Human mind مع إضافات وشروح ورسوم توضيحية. وهو عمل قدّمه كتعبير عن امتنانه لوالده الذي أصرّ على تعليمه بنفسه في حياته الأولى.

وأيَّد جون ستيوارت مل الشمال الأمريكي ضد الجنوب في الحرب الأهلية باعتبار ذلك تحريراً للعبيد. ونجح في دخول البرلمان عام 1865، رغم أنه رفض أي دعاية انتخابية، ولو محدودة. ثم عُيّن مديراً لجامعة سانت أندروز عام 1867. وأيَّد بقوة إصلاحات في البرلمان، وقال أن على بريطانيا أن تمدَّ يد العون لكل الحركات التحرّرية، وهو أمر مستحيل لأن بريطانيا في زمنه كانت الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس . وبذلك فقد شعبيته وسقط في الانتخابات التالية . وعاش بقية حياته متنقّلاً ما بين فرنسا في أفيجنون Avignon وبريطانيا. وكانت سلوته ربيبته (ابنة زوجته المتوفّاة) هيلين تيلر Helen Taylor . وظل طول حياته وفيّاً لهذه الزوجة التي أحبها حبّاً لا نظير له.

وكتب وكوّن جمعية لحقوق المرأة في التصويت والانتخ اب (Suffrage) (لم يكن للمرأة أي صوت ولا للفقراء إذ كان حق التصويت مقصوراً على من يملك أرضاً أو منزلاً من الذكور البالغين فوق 25 سنة). وكتب ثلاث مقالات في الدين نشرت بعد وفاته لشدة هجومه على الدين المسيحي ورجال الكنيسة والكهنوت.

تقييم دائرة المعارف البريطانية لجون ستيوارت مِل:

إن تأثيرات مل في الفكر الإنجليزي المعاصر كبيرة ولا يمكن إغفالها . وكان قوة دافعة للفكر الليبرالي ولمحاولات الإصلاح في النظام السياسي والاجتماعي.

أما كتاباته الفلسفية فبالرغم من وضوحها وسلاستها إلا أنها تتسم بكثير من السطحية . ورغم ذلك فإن كتابات مِل لا تزال تؤثر في كثير من المناقشات الفلسفية في القرن العشرين وتستخدم كثير من المصطلحات التي جاء بها، ويعتبر من أبرز الفلاسفة النفعيين Utilitarian ، ومع ذلك فإن بعض كتاباته كانت شديدة الوضوح في الوقوف ضد هذه الفلسفة النفعية!!

ويقال عنه إنه إمبرا طوري لأنه عمل معظم حياته العملية في شركة الهند الشرقية الاستعمارية وكان أحد رجالاتها وأركانها الكبار، ومع هذا فهو يدّعي أنه ليبرالي ويدعو إلى حرية الشعوب!!

وأما نظرياته في المنطق القياسي (الاستدلالي) ونظرياته في الرياضيات، فإنها تستخدم لتوضيح النتائج القائلة لطريقته في التفكير!!

إن الفلسفة النفعية التي جاء بها بينثام ووالده قد تعدّلت كثيراً على يد مِل، وذلك لمواجهة الانتقادات الحادّة لهذه النظرية في العهد الفيكتوري. وكان مِل يوضّح أنه مستقل في تفكيره عن بينثام، وخاصة في مقالته المشهورة «في الحرية» on Liberty. ويبدو جيمس ستوارت مِل أقرب إلى الرومانسية منه إلى الفلسفة النفعية البراجماتية في كثير من كتاباته. ولعل التأثير الرومانسي الشديد في عصره قد أدّى به إلى هذا الخلط العجيب بين الاتجاه الرومانسي والاتجاه البراجماتي النفعي والواقعي، وقد أعلن بنفسه مراراً استعداده للتعلم من أي شخص وأي اتجاه. وفي الواقع إننا نجد في كتابات مِل المختلفة آثاراً لمختلف أنواع التيارات السياسية والفكرية والفلسفية التي كانت تمور موراً وتروج في القرن التاسع عشر الميلادي.

وجاء في الويكيبديا (الموسوعة الحرة) على الشبكة العنكبوتية: «أن أسمى المبادىء عند جون ستيوارت مِل هي حرية الفرد والتنوّع والعدالة وصولاً إلى السعادة البشرية. وكانت ميول مِل الاشتراكية هادئة جداً حتى اعتبره الاشتراكيون في عصره «التجسيد الحي لإصلاحي وديع ليبرالي بورجوازي راديكالي». وقد أقرَّ الفابيون (اشتراكيون في بريطانيا ظهر منهم فيما بعد الكاتب المسرحي المشهور برنارد شو) بأن جون ستيوارت مِل هو الأب الروحي لحركتهم الاشتراكية المعتدلة.

وكان دائماً ضد تغوّل السلطة، ويرى أن الحاكم يجب أن تكون سلطته محدودة، كما أن مدة حكمه كذلك يجب أن تكون معلومة ومحدّدة (وهو ما أخذت به كثير من الدول الديمقراطية فيما بعد، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية). وكان يؤكد أن لا يكون للحكام سلطة مستقلّة، بل يجب أن تكون سلطتهم نابعة من انتخابات محدّدة، وأن تكون سلطات البرلمان قوية تستطيع أن تمنع أي جموح أو جنوح في هذه السلطة». انتهى كلامه.

قلتُ:

وهو م ن رواد الاقتصاد الحرّ والمنافسة الحرّة دون قيود. «وإن أي قيد على الاقتصاد الحرّ هو شرٌّ محض، بينما إطلاق الحرية للاقتصاد هو خير محض». وهي مقولة أخذت بها الدول الرأسمالية ولا تزال إلى اليوم تنادي بحرية السوق وحرية التجارة. ولكن هذه الدول الكبرى تضع القيود على التجارة إذا ما رأت أنها ستضرّ مصالحها، وتطالب بقوة بتنفيذها، بل تفرضها بالقوة إذا كانت في مصلحتها. إن فلسفة جون ستيوارت مِل الاقتصادية لا تزال حيَّة إلى اليوم. وهي تجمع كلاماً جميلاً عن الحرية، وتؤيد بطريقة غير مباشرة استعباد الآخرين كما فعل هو في حياته العملية التي قضّاها في خدمة أكبر شركة استعمارية في العالم، وهي شركة الهند الشرقية التي استعمرت الهند، وخاضت الحروب، وقتلت مئات الآلاف من البشر، وحاربت الدول الاستعمارية الأخرى مثل هولنده وفرنسا، والتي أنشأت كل واحدة منها شركة استعمارية شرقية لاستعمار أندو نيسا ولاوس وكمبوديا والهند الصينية!!

وكان يطالب بقوة بحرية الرأي «وإن البشر جميعاً لو اجتمعوا على رأي، وخالفهم في هذا الرأي فرد واحد لما كان لهم أن يسكتوه، بنفس القدر الذي لا يجوز لهذا الفرد إسكاتهم لو كانت لديه القوة والسلطة ». وكان الحدّ الوحيد الذي وضعه لحدود حرية التعبير هو إيجاد ضرر فعلي بالآخرين.

ويقول مِل : «إننا إذا أسكتنا صوتاً واحداً فربما نكون قد أسكتنا الحقيقة . وإن الرأي الخاطىء قد يحمل في جوانحه بذور الحقيقة الكامنة، وأن الرأي المجمع عليه لا يمكن قبوله على أسس عقلية فقط، بل لا بد أن يدخل واقع التجربة والتمحيص . وما لم يواجه هذا الرأي تحدّياً من وقت لآخر فإنه سيفقد أهميته وتأثيره.

ولا يجوز مطلقاً الحدُّ من حرية أي شخص إلا إذا أضرّ بالآخرين . وتكون معاقبته آنذاك بواسطة القانون العادل. وإذا كانت طريقة الإضرار لا يعاقب عليها القانون فينبغي أن تُدان أخلاقياً، وأن تعتبر رذيلة تستحق الاستهجان . إن القسوة والحقد والضغينة والحسد والرياء والنزق وسرعة الغضب، وحبّ التسلط على الآخرين، والكبرياء، والتلذّذ بامتهان الآخرين، والاستئثار بالفوائد والمنافع دون وجه حق كلها تعتبر رذائل أخلاقية مُدانة، حتى ولو لم يعاقب عليه ا القانون . ويجب على المجتمع إدانتها بقوة، وإشعار من يفعل ذلك بإدانة واستهجان المجتمع لسلوكه ذاك.

وكان جون ستيوارت مِل من الداعين للنظرية الفلسفية التي تنصّ على أن المآلات (العواقب) الجيّدة لأكبر عدد من الناس هي الفيصل في اعتبار أي عمل أو فكرة أخلاقية أم لا؟ وطالما كانت المآلات (العواقب) جيدة، فالعمل جيد وأخلاقي حتى لو اقتضى ذلك وسائل غير أخلاقية كالكذب أو الاستعمار أو إيجاد ضرر محدود بعدد قليل من البشر.

وهي نفس الفلسفة التي استخدمها بوش ورامسفيلد في جوانتانامو، وأبو غريب في العراق. ومعتقلات باجرام في أفغانستان، واستخدام العنف وامتهان كرامة الإنسان والاعتداء الجنسي والجسدي للحصول على الاعترافات ممن يسمّون إرهابيين مسلمين.

وطالما أنهم ليسوا بيضاً ولا يهودا فإن هذه الأعمال القذرة والمنتنة والإرهابية التي تسوّق لمحاربة الإرهاب، هي أعمال يمكن تبريرها أخلاقياً باعتبار أن الضرر الحاصل على عدد محدود من البشر غير البيض (من المسلمين الإرهابيين) هو ضرر بسيط ومحتمل في سبيل الحفاظ على أمن المجتمع الليبرالي في الولايات المتحدة والعالم.

وليم جيمس (1842 - 1910 William James) البراجماتي الليبرالي: هو أحد أقطاب الفكر الليبرالي والفلسفة النفعية والبراجماتية بعد تعديلها. ولد وليم جيمس في مدينة نيويورك عام 1842، ودرس في المراحل الأولى فيها، ثم ذهبت العائلة إلى أوروبا فدرس في فرنسا وسويسرا (في جنيف). واهتم هناك بالعلوم (Science) والرسم. وعندما عادت أسرته إلى الولايات المتحدة عام 1858 درس الرسم في نيوبورت في رودس أيلند (Rhodes Island) ولكنه ترك الرسم عام 1861 والتحق بجامعة هارفارد لدراسة العلوم ثم الطب. وبعد رحلات متعدّدة في أوروبا حيث درس الفسيولوجيا والفلسفة وعلم النفس عاد إلى هارفارد وتخرّج من كلية الطب سنة 1869، ولكنه لم يمارس الطب بسبب نوبات متكرّرة وعنيفة من الكآبة. ومنذ

عام 1872 درّس في هارفارد علم الفسيولوجيا والتشريح، ثم درّس علم النفس التجريبي. وبعد أن تزوج عام 1878 بدأ ينشر مقالات في الفلسفة وعلم النفس، وعيّن في عام 1880 أستاذاً مساعداً للفلسفة في هارفارد مع استمراره في تدريس علم النفس. ودرّس الفلسفة والمنطق والأخلاق وعلم النفس التجريبي حتى عام 1892. وفي عام 1890 أصدر كتابه «مبادىء علم النفس» مع هنري هولت. ثم نشر كتاباً في الفلسفة الشعبية (Popular Philosophy) حول الإيمان، وكان ضد التسليم بالغيبيات، وإن لم ينكر الإيمان. ومنذ عام 1898 كتب في الفلسفة البراجماتية والنفعية. وعمل ضد الموقف الاستعماري الأمريكي للفيليبيين. وزاد اهتمامه بدراسة الأديان والتجارب الشخصية الدينية كظاهرة نفسية.

ويقول عنه ول ديورانت في كتابه قصة الفلسفة [1]: «لقد امتاز جيمس بروعة تحليله الذي انتهى به إلى الإقبال على الفلسفة، والعودة أخيراً إلى الميتافيزيقيا. ويعرّف الفلسفة بقوله: «إنها التفكير الوحيد بالأشياء في أفضل طريقة شاملة مدركة». وكتب كتاب «إرادة الإيمان» وكتاب «أنواع من التجربة الدينية» ثم ظهر كتابه الشهير البراجماتية (Pragmatism) عام 1907 ثم كتاب «الكون المتعدد» و«معنى الحقيقة» عام 1909 وكتاب «بعض مسائل الفلسفة» عام 1911 (أي نشر بعد وفاته) وكتاب «مقالات في المذهب التجريبي المتطرّف» الذي نشر أيضاً بعد وفاته عام 1912.

كتاب البراجماتية Pragmatism (أي الواقعية العملية):

ينظر وليم جيمس إلى الفكر كمرآة ضرورية للحقيقة الخارجية. والفكر يدرك ويعكس العلاقات أو الصلات بين الأشياء، فهو يرى كل شيء بالعلاقة أو القرينة.. وينكر جيمس على مذهب الترابط أو التداعي تأليف الفكر من ظواهر منفصلة، ويبيّن أن الظواهر الفكرية تجري في تيار متّصل، وأن الفكر لا يمكن ردّه إلى الظواهر الفسيولوجية أو الطبيعية البحتة.. وعلى ذلك يجب اعتبار الدماغ آله نقل تصل بالجسم قوى فكرية مباينة للقوى الجسمية (أي أنه يؤمن بقوى عقلية أو روحية غير ماديّة. وهو أمر لم يكن يقرّه الفلاسفة الماديون).

وقد اهتم جيمس بمقال للفيلسوف الأمريكي المشهور تشارلز بيرس بعنوان «كيف نوضح أفكارنا» نشر عام 1878 وخلاصة ما قال أنه ينبغي علينا أن نفحص النتائج العملية الناتجة عن هذه الفكرة (أي فكرةٍ كانت). ولا فائدة ولا جدوى من مناقشة مصدر الفكرة وما هي مقدماتها، فإن المهم هو تفحّص نتائجها. وهو ما عرف باسم البراجماتية (Pragmatism). فعوضاً عن أن نتساءل عن ماهية الفكرة وأصلها وحقيقتها، فإن المهم حقاً هو أن ندرس ونتساءل عن نتيجة تلك الفكرة، وبالتالي يتحول اهتمامنا إلى الحصول على الفائدة من تلك الفكرة، وهو أمر هام في مجال التطبيق العملي للحاضر والمستقبل. فإذا لم يكن لهذه الأفكار مردود عملي ونتائج ملموسة فلا حاجة للناس للانشغال بها. وهو أمر قد اهتم به الإسلام مع اختلاف تام في الغايات. وقد ورد في دعاء الرسول: «اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما

(1) ول ديورانت: قصة الفلسفة ترجمة: د. فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف الطبعة السادسة، 1988، بيروت ص615 - 624.

علمتنا» كما وردت الاستعاذة بالله من علم لا ينفع: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن دعوة لا يستجاب لها...». إلخ.

ويرفض جيمس الحتمية الدينية (المذهب الجبري). وهو موجود في المسيحية (كما هو موجود عند بعض المسلمين) وخاصة عند كالفن (أحد مؤسسي المذهب البروتستانتي). ويرى أن الإنسان له جانب واضح من الحرية والإرادة (دون أن يدخل في التفاصيل).

ويرى أن الناس يقبلون الفلسفات أو ينبذونها وفقاً لحاجاتهم وطباعهم لا وفقاً للحقيقة الموضوعية. وهم لا يتساءلون هل هذا منطقي؟ بل يتساءلون عن مدى ما تتناسب الفلسفة مع حياتهم ومصالحهم!!

ويرى أن ذوي الطباع الرقيقة يميلون إلى الدين والتمسك بالحقائق المس لّم بها والعقائد المحدودة الثابتة (بصرف النظر عن موافقتها للعقل والمنطق أو معارضتها له، وهو ما يتجلّى بكل وضوح في العقائد النصرانية مثل التثليث وسرّ التعميد، وسرّ القربان... إلخ).

أما الطباع العنيفة فهي تبحث عن الحقائق، وتعود بالمعرفة إلى الإحساسات وتعتمد على المادة والتجارب. وهي قدرية وتشاؤمية ومرتابة!! وهناك من يجمع بين الفريقين وله عقل علمي نقدي يعتمد على الحواس والمادة، ومع ذلك له عواطف وأشواق روحية.

ومن الغريب حقاً أن «يعتقد جيمس أن الإيمان بتعدّد الكون والآلهة يقدّم لنا مثل هذا الانسجام»[1] فهو يدعو إلى الشرك والإيمان بالآلهة المتعدّدة وتعدّد الأكوان وهو أمر في منتهى الغرابة من فيلسوف مادي براجماتي .. ولكن بما أن لديه أشواقاً روحية ودينية لم تستطع أن تجيب عنها الكنيسة، فقد تحوّل إلى هذا الخليط العجيب من الفكر المادي البراجماتي والفكر الديني الوثني المتعدد الآلهة. قال تعالى: [الكهف: 17] .

وينقل عنه ول ديوارنت ما يلي [2]: «ليس الكون نظاماً منسجماً ومغلقاً بل هو معركة لتيارات مختلفة واتجاهات متعارضة وأهداف متضاربة . ومن العبث أن نقول أن هذه الفوضى التي نعيش فيها ونتحرك هي من صنع إرادة واحدة متماسكة . والكون يقدّم لنا كل دليل وعلامة على التناقض والتعارض في نفسه. وقد يكون الأقدمون أعقل منا وأحكم . وقد يكون تعدّد الآلهة أصدق وأحق من وجود إله واحد بالنسبة إلى هذا الخلاف والتعارض في الكون.

لقد كان الاعتقاد بتعدّد الآلهة الدين الحقيقي لعامة الناس دائماً، ولا يزال كذلك والناس على صواب . والفلاسفة على خطأ . إذ الاعتقاد بوحدانية الكون هو المرض الذي يصاب به الفلاسفة الذين يستبدّ بهم الجوع والعطش لا للوصول إلى الحقيقة، بل إلى الوحدة، وحدة العالم».

ويا له من ضلال مبين. وهو يخالف كل علم وكل منطق ... والعالم كله يشهد بهذه الدقة والنظام في هذا الكون. وهناك مئات المقالات والكتب العلمية التي ظهرت في القرن العشرين

(1)ول ديورانت: قصة الفلسفة ص620.
(2)المصدر السابق.

والتي تشهد بروعة هذا النظام الفذّ في الكون، والتي تشهد بخالق واحد مدبر قدير حكيم لا إله إلا هو.

ولكن العمى والضلال يفعلان كل ذلك.. وها هو عالم مادي براجماتي يرى أن تعدّد الآلهة وتعدّد الأكوان هو التفسير المعقول والمنطقي لهذا الكون المتعدد. قال تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا} [الأنبياء: 22] وقال عزّ من قائل: {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ} [المؤمنون: 71].

وهو يتخيل أن الإيمان بإله واحد لهذا الكون يفرض علينا الإيمان بالجبرية (الحتمية) وهو ما لا يستسيغه ولا يقبله. وربما كان ذلك بسبب ما كان في عصره من الناحية الدينية المسيحية البروتستانتية الكالفينية التي كانت منتشرة في الولايات المتحدة. وهكذا ضلّ هذا الفيلسوف الطريق. وبدلاً من أن يعود إلى الإيمان بالإله الواحد الخالق المصوّر المبدع القادر الحكيم، عاد إلى الأقدمين والوثنيات ورآها حلاًّ بدلاً من الفكر المادي. ودعا إلى الإيمان بتعدّد الأكوان وتعدّد الآلهة!!

يقول ول ديوارنت [1]: «لقد أثار تعدّد التجارب والمذاهب الدينية الكثيرة دهشة جيمس واسترعت اهتمامه. وهو يصفها بعين العطف مع أنه في معظم الأحيان لا يتّفق معها، ويرى شيئاً من الحقيقة في كلّ واحدٍ منها، ويطالب أن نفتح عقولنا لكل أمل جديد، واقتنع أخيراً في حقيقة عالم روحاني آخر».

ويبدو لي أنه لو عرف الإسلام لاقتنع به لأن الإسلام يجمع بين العقل والأشواق الروحية ولا يوجد أي تناقض بينهما فيه.

ويعتقد جيمس أنه لا قيمة للأمور والعقائد والفلسفات إلا إذا أرشدتنا ودفعتنا إلى تحسين أوضاع حياتنا وأعمالنا على الأرض.. وقد كرّس حياته في الجهود التي تستهدف تحسين الحياة الإنسانية، وكان دائماً يمدُّ يد المساعدة للناس، ويعتقد أن في كل فرد طاقة كامنة يمكن أن تستخدم لإسعاد الإنسانية ومحاربة الشقاء والمرض والجهل، وتجفيف المستنقعات، وريّ الصحاري، وحفر القنوات، وبناء ما تدمّره الحروب. وكان ضد الحروب لأنها لا غاية لها سوى التدمير، وسيطرة أمة على أمم أخرى واستغلالها لصالح طبقة معيّنة. وأبدى تعاطفه مع الفكر الاشتراكي، ولكنه أظهر مقته لما في هذا الفكر من حطٍّ لقيمة الفرد.

وقد صرَّح بأن فلسفة البراجماتزم ليست إلا اسماً جديداً لوسائل فكرية قديمة. والحقيقة عنده هي ما قامت التجربة والاختبار على صدقها. وليست المنفعة الشخصية دليلاً على صدق المقولة، بل إن المنفعة الشخصية تدلُّ على أخلاق رديئة، إذا كانت تضرّ بالآخرين.

ويرى ول ديورانت أن ما فعله جيمس هو إزالة الغشاء الذي أحاط بالفلسفة، وواصل العمل في عالم الأشياء الذي لا مهرب منه. وستذكره الأجيال بفضل تأكيده على الناحية التجريبية والواقعية الجديدة أكثر من نظريته عن الحقيقة. وهو عالم نفساني أكثر منه فيلسوفاً.. ويعترف بصراحة بأنه لم يأت بجديد في عالم الفلسفة.

---

(1) ول ديورانت: قصة الفلسفة ص621.

ونجد في الإسلام بعض نقاط الالتقاء مع جيمس ومنها أن العلم إذا لم يؤدِ إلى عمل فلا قيمة له (مع اختلاف المفاهيم والغايات اختلافاً تاماً). وقد استعاذ الرسول محمد : «من علم لا ينفع ومن عمل لا يقبل، ومن دعوة لا يستجاب لها » . ولا شك أن محبة جيمس لمساعدة الناس ومحاولته الدعوة إلى تحسين الحياة الإنسانية ومحاربة الشقاء والجهل والفقر والمرض، ووقوفه ضد الحروب المدمرة التي لا غاية لها إلا السيطرة واستغلال بني البشر من الأقوياء لا شك أن هذه الصفات محبوبة ومرغوبة في كل دين، وأن الإسلام يدعو إليها ويحبّذها ويكرّم من يدعو إليها، مع اختلاف تام في الغايات والأهداف، لأن المسلم يسعى إلى رضاء الله سبحانه وتعالى وحده، ووليم جيمس لا يعرف له إلهاً، وهو مضطرب أشد الاضطراب في هذا المجال لدرجة أنه يحبّذ تعدّد الآلهة، وإن لم يكن يؤمن بها فعلاً.

ولهذا فإن مادية وليم جيمس مختلطة تماماً بروحانيات مضطربة ومشوشة . وهو على عكس الماديين السابقين واللاحقين يرى أهمية الأديان، وإن لم يستطع أن يميّز الحق منها من الباطل. وقد رأى في كل دين من هذه الأديان بعض الحقّ وشمَّ فيها بعض روائح الحقيقة، فتاه في تلك الدروب، ولم يخرج منها سالماً.

جون ديوي 1859 Johen Dewey (1859 - 1952) والتربية العملية النفعية:

ولد جون ديوي في برلنجتون فيرمونت في الولايات المتحدة (في شرق الولايات المتحدة) عام 1859 وعُمِّرَ طويلاً (93 سنة) وغيّر التفكير في نظام التعليم في الولايات المتحدة، ومن ثمَّ في العالم أجمع. ولا يزال تأثيره التربوي قوياً جداً إلى اليوم (في القرن الواحد والعشرين).

وقد تميّز في فلسفته التعلي مية بالواقعية (البراجماتية) ورفض كل تفسير خارج المادة والطبيعة، ورفض الميتافيزيقيا (ما بعد الطبيعة)، وحذا حذو الفلاسفة الماديين بيكون وهوبز وسبنسر ومِل. ويعتقد أن مشكلة الفلسفة كانت دوماً اختلاطها بالأبحاث الدينية . وهو يرى أن الإله موجود في نفوسنا، وبالتالي يجب إبعاد الإلهيات من الفكر الفلسفي.

وكان مؤمناً بقوة بنظرية التطور. وما كان ما يهمه من الفكر والعقل هو الجوانب العملية .. وعلى الفلسفة ألا تتجه إلى محاولة معرفة العالم الخارجي، ولكن إلى معرفة كيفية السيطرة عليه. ليست الفلسفة تحليلاً للإحساس والمعرفة، فهذا من اختصاص علم النفس، ولكنها تنسيق بين المعرفة والرغبة(1) .

ولنفهم الفكر ينبغي أن نلاحظه عندما يبدأ في مواجهة المشاكل الصعبة وكيفية حلّها، وذلك بإيجاد افتراضات يُسترشد بها، ثم يُخضع هذه الافتراضات للملاحظة والتجربة (نفس المنهج العلمي المعروف باسم Science).

(1)ول ديورانت: قصة الفلسفة ص628.

والفرد هو نتاج المجتمع، والغرائز يمكن تغييرها . وبالتالي يمكن تعديل أي سلوك أو غريزة بمنهج تربوي[1] . ولا شك أن استجابة الأفراد لهذا التغيير تختلف، فمنهم من يستجيب بسرعة، ومنهم من لا يستجيب إلا بعد جهود جبارة، ومنهم من لا يستجيب مطلقاً..

ويرى جون ديوي أن النمو والتطور هو أعظم الأشياء وأفضلها، وقد جعل من النمو والتطور مقياسه الأخلاقي . فالنمو في نظره هو المقياس الأخلاقي، وليس الخير المطلق . (وهي نظرة مادية بحتة).

والعقل وحده هو الذي يمكننا من الاشتراك في تكوين مصيرنا . وحرية الإرادة هي استضائة السلوك بالمعرفة . والمعرفة العملية هي مفتاح الحرية . والمشكلة كلها تكمن في تطور العلم وتطبيقه على الحياة.

ولا يثق ديوي بالدولة، ويفضّل نظاماً متعدّداً، يقوم فيه بعمل المجتمع بقدر المستطاع جمعيات طوعية اختيارية.. وأن توزع السلطات على جهات متعدّدة بحيث يحدّ كل واحد منها الجهة الأخرى. وهو ما يطبّق بالفعل في النظام الأمريكي . ويرى أنه لا يمكن تحقيق البناء السياسي إلا إذا طبّقنا على مشاكلنا الوسائل التجريبية والآراء التي أثبتت نجاحها في العلوم التجريبية . ويجب أن نقابل كل مشكلة من مشاكلنا عن طريق الافتراضات الخاصة، لا النظريات العامة الشاملة. ويجب إجراء التجارب وحل المشكلة ببحثها جزئياً، قطعة قطعة للوصول لحلّ غموض المشكلة المعروضة [2].

لهذا يعتبر جون ديوي فيلسوف التربية الحديثة في عصرنا ولا يزال تأثيره في هذا الميدان قوياً جداً . ويرى ديوي أن المدرسة هي مؤسسة اجتماعية والحياة الاجتم اعية للطفل هي الأساس لجميع الأنشطة التعليمية . ويعتمد التعليم على طبيعة نمو قُوى الطفل واهتماماته . وأهم وظائف المدرسة عنده هي:

(1) تبسيط وترتيب عناصر ميول الطفل التي يُراد إنماؤها.

(2) تطهير المتعلم من العادات الاجتماعية المذمومة، وتهذيبه.

(3) تحقيق الانفتاح المتوازن للناشئة، كي يعيشوا حياة التكاتف والتآلف والبحث الجماعي.

(4) القدوة أشد أثراً في النفس من المواعظ والنصائح.

(5) تنمية الجانب الجمالي والذوقي لدى الطفل.

وفي كل هذه الأنشطة يتم التعاون بين البيت والمدرسة. وقد وضع ديوي طريقة لبناء أسس التفكير العلمي تتلخص في الآتي:

(1) وجود خبرة تهمُّ الطالب.

(2) ظهور مشكلة، وعند الطالب الحافز لحلها من خلال عملية التفكير.

---

(1)يعتبر الإسلام أن الطفل يولد على الفطرة ثم يقوم أبواه (البيئة) بتهويده أو تنصيره أو تمجيسه أي أن الدين والأخلاق تكتسب، وإن كان لها جانب فطري هام. إلا أن تأثير البيئة يستطيع تغيير الفطرة..

(2)ول ديورانت: قصة الفلسفة ص631.

(3) وضع الفروض والاحتمالات لحلها.

(4) اختبار الفروض واقعياً للتحقّق من جدواها واحداً بعد الآخر. وينبغي أن تكون الأسئلة واقعية، وكذلك الفروض، فإذا وقفت السيارة فجأة في الطريق فإن هذا يجعل السائق يبحث عن الأسباب المحتملة لذلك (نفاذ الوقود، عطل في البطارية، ارتفاع شديد في درجة الحرارة... إلخ) ثم كيف يعمل على إصلاح الخلل.

ويرى ديوي أن التفكير العلمي المبني على القدرة على الفهم والتحليل وحلّ المشكلات العملية أفضل من حشو أذهان الطالب بحشد من المعلومات، فالأصل في التعليم غرس المنهج العلمي في التفكير والقدرة على التفكير في حلّ المشكلات التي تواجهنا.

ويقوم التفكير العلمي على الاعتماد على الحواس والعقل والبرهان من أجل الوصول إلى الحقائق بطريقة موضوعية تعتمد على وضع الفروض وإجراء التجارب لتبيّن مدى صدقها . وقد أفرط في تقدير قدرة العقل على الاستنباط وأنكر الدين والغيبيات في منهجه.

والواقع أنه ينظر إلى المسائل الواقعية العملية التي تحتاج فعلاً إلى المنهج العلمي التجريبي لحلّها، وأما المسائل الدينية والغيبية والنظرية فهو بعيد عنها كل البعد، وليست داخلة في منهجه. ويرى أنها لا تدخل تحت مجال البحث فمجالها العاطفة الدينية والأشواق الروحية والإيمان. وهذه كلها خارج نطاق بحثه كله.

وقد أكّد ديوي على توسيع دائرة التعليم المهني والدراسات العمليّة، والعمل البحثي منذ سن مبكّرة للطالب، وأن تكون الأبحاث مشتركة بين مجموعات صغيرة من الطلبة . وتعتمد على ما يسمى التفكير في حلّ المشكلة Problem Solving .. والعلم المبني على البرهان Evidence based Knowldge {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة: 111] .

وهو ما تأخذ به اليوم الجامعات والمدارس. ولكن هذه الطريقة مكلّفة جداً، لأنها تحتاج إلى مختبرات وأجهزة، وأهمّ من ذلك تحتاج إلى عدد وافر من المربّين والأساتذة المتدرّبين بدقّة على هذه الوسائل . وهو أمر متعذّر للأسف في معظم دول العالم الثالث ذات الإمكانيات الفقيرة والمحدودة. وبالتالي لا يمكن أن تطبّق إلا على مستوى النخبة في هذه البلدان..

وتشكو الولايات المتحدة من اختلاف المستويات في مدارسها، فبعض المدارس ذات مستوى عالٍ وتجريبي، وتسير تماماً على توجيهات ديوي (مع تطويرها)، بينما هناك مدارس أخرى مزدحمة وفقيرة في هذه الوسائل الحديثة. ولا تزال تطبّق الوسائل العتيقة وحشو ذهن الطالب بالمعلومات . ونجد ذلك بصورة خاصة لدى مدارس السود والهسبانك (ذوي الأصول الأسبانية من أمريكا اللاتينية). ويطالب الكثيرون بما فيهم الرئيس أوباما بإصلاح النظام التعليمي في الولايات المتحدة، ورفع مستواه فقد سبقتهم سنغافورة وكثير من دول أوروبا.. ولكن الولايات المتحدة تعوّض ذلك بهجرة العقول إليها وفتح باب الهجرة لذوي الكفاءات العلمية، وهو أمر أساسي ومنهجي للولايات المتحدة منذ تأسيسها إلى اليوم.

والشيء ذاته يقال عن النظام الصحي في الولايات المتحدة، حيث نجد أرقى المستشفيات وأفضل الأطباء، ولكنها للأسف لا تعالج الفقراء الذين ليس لديهم تأمين صحي . كما أن

الجانب الوقائي كان شبه مهمل لفترة طويلة . وهناك إصلاحات قوية ومشاريع متعدّدة لإصلاح هذا الخلل المشين.

ولا شك أن ديوي قد أثرى النظام التعليمي في الولايات المتحدة وفي العالم . ولكنه للأسف زاد من مادية هذا العالم واعتماده فقط على الجوانب العملية البراجماتية، مما أدى إلى هزال الجوانب الروحية وضعفها الشديد، ونتائج ذلك مزيد من الشقاء الإنساني والكوارث.

الفصل السابع عشر
آراء في الفلسفة النفعية والبراجماتية

آراء في الفلسفة النفعية والبراجماتية وفلسفة المصلحة واللذة

إن فلسفة المنفعة (المصلحة) قد مرّت بأطوار متعددة كما أسلفنا. واعتبرت اللذّة هي الدافع للسلوك الإنساني، كما أن الألم دافع سلبي له. ومنذ عهد ارستبوس تلميذ سقراط تمَّ اعتبار أن كل ما يؤدي إلى اللذة الشخصية ويبعد الألم هو السعادة. وكل ما يؤدي إلى الألم ويبتعد عن اللذة هو الشقاء. وتطورت الفكرة على يد أبيقور (القرن الثالث قبل الميلاد)، وتحولت إلى اقتناص اللذة والانغماس فيها على يد أتباعه من بعده.

وظهرت هذه الفلسفة من جديد على يد هوبز الإنجليزي (القرن السابع عشر بعد الميلا د) الذي يعتقد أن العقل نفسه مادة وأن التفكير هو حركة. وغريزة البقاء هي التي تتحكم في كل فرد من أفراد الجنس البشري بل والحيواني، وكل ما يشبع فينا تلك الغريزة يسبب لنا ضرباً من اللذة، وكل ما يعارض تلك الغريزة يسبب شعوراً بالألم.

واللذّة تولّد الرغبة، والإرادة هي أقوى الرغبات التي تصدر عنها الأفعال بطريقة حتميّة (جبرية مادية) لا أثر فيها للاختيار. والواقع أننا لا نملك، حسب رأي هوبز، حُريّة أخلاقية، بل كل ما نملكه هو حركة تلك الأجسام غير الإرادية !! واللذة هي الخير والألم هو الشرّ، وكل ما يؤدي إلى اللذة هو أيضاً خير، وكل ما يؤدي إلى الألم هو أيضاً شرّ . وبالتالي فإن المنفعة هي القاعدة الأخلاقية الوحيدة.

نقد بينثام:

وقد قام بينثام بتوسيع هذه الفلسفة من الحصول الفردي على اللذة أو المنفعة إلى حصول أكبر عدد من أفراد المجتمع عليها . والاعتبار في أي عمل هو نتيجته : هل يحقق مصلحة لأفراد المجتمع أو لأكبر عدد فيه أم لا؟ فإذا كان كذلك فهو عمل أخلاقي مهم، ولو كان يؤدي إلى ضرر بأفراد قليلين. وهذه المصلحة أو المنفعة ماديّة مباشرة، ولا تنظر إلى حياة الإنسان في الآخرة، فهذا الموضوع أصلاً خارج نطاق البحث.

واستخدم بينثام كلمة Utilitarianism (أي المنفعة) وهي مأخوذة من كلمة لاتينية Utilis وتعني شيئاً مفيداً Useful . وهذا المبدأ يقرُّ بأن كل ما هو نافع أو مفيد فهو جيد وعمل أخلاقي.. وينبغي أن يكون النفع شاملاً لأكبر عدد من أفراد المجتمع، ولو أدّى إلى ضرر مجموعات صغيرة منه . وقد نادى بينثام بتطبيق هذا المبدأ على المستوى الأخلاقي والاجتماعي والسياسي والتشريعي. واللذّة عنده هي الخير، والألم هو الشر (نفس التعريفات اليونانية القديمة). ولكنه أضاف أنها يمكن أن تقاس بأربعة قياسات وهي:

(1) قوة تأثير كل منها.

(2) مدة تأثير كل منها.

(3) مدى تمتع الفرد بها.

(4) عدد الذين يمكن أن يتمتعوا بها.

وقد أُنتقدت هذه القياسات لما فيها من اضطراب من الناحية العملية.

وقد اعتبر بينثام أن أهم مصدر للذّة هو المصدر المادي. وقد اعتبر أن الربا أحد مصادر الثروة وبالتالي المنفعة واللذّة، ودافع عنه بقوة. كما أن توفير العلاقات الجنسيّة للعمال خارج نطاق الزواج يزيد من الإنتاج، ويؤدي إلى منفعة ولذّة .. وبالتالي يعتبر عملاً أخلاقياً . وقد ناقشنا بعض هذه الأمثلة مثل ترويج الخمور والتدخين لأنها يمكن أن تحقّق اللذّة على المستوى الفردي والمجتمعي، كما تحقق مكاسب مادية ونفعية . وبالتالي تكون عملاً أخلاقياً مرغوباً فيه!!

وقد قام جيمس ستيوارت مِل بتعديل هذه الفلسفة قليلاً مع الإبقاء على أصلها، فوسَّع دائرة اللذة خارج النطاق المادي البحت إلى اللذة الروحية والعقلية والفنّية. وأيّد بقوة حق المرأة في الانتخاب (Suffrage) ، كما أيَّد إجراء إصلاحات في النظام البرلماني الانتخابي في بلاده (بريطانيا) لتشمل الفقراء (لم يكن القانون يسمح لغير الملاك بالإدلاء بأصواتهم . ولا بد أن يكونوا من الذكور الذين بلغوا سناً فوق الخامسة والعشرين).

ورغم أنه كان ليبرالياً إلا أنه عمل طوال حياته في خدمة شركة الهند الشرقية الاستعمارية، وكان أحد أهم رجالاتها لمدة أربعين عاماً تقريباً . ونادى بقوة بحريّة التجارة والاقتصاد الحرّ والعولمة (وهو ما تمّ مرة أخرى في أواخر القرن العشرين). وكان من المؤيدين بقوة لحرية الرأي . وأضاف إلى نظرية المنفعة نظرية المآلات (العواقب) Sequentialism بمعنى أن عواقب ومآلات أي عمل أو فكرة هي التي تحكم على تلك الفكرة والعمل.

فإذا كانت النتائج جيّدة، فالفكرة أو العمل جيد وأخلاقي، ولو استخدم وسائل غير أخلاقية كالكذب أو الاستعمار، أو إيجاد ضرر لعدد محدود من البشر . وهي فلسفة اعتمدتها الدول الاستعمارية الأوروبية والولايات المتحدة، ولا تزال تسير على هديها بعد تعديلات طفيفة فيها.

أما وليم جيمس (William James) الأمريكي فيعتبر أحد أقطاب الفكر الليبرالي والفلسفة النفعية والبراجماتية إلا أنه يختلف عن الآخرين في إيمانه بأهمية الدين لأنه يحقّق للإنسان جوانب لا يمكن أن تغطّيها الفلسفة والعلوم. ويرى أن الأديان السابقة التي تدعو إلى تعدّد الآلهة، وتعدّد الأكوان أقرب إلى الحقيقة من الأديان التوحيدية أو الأفكار العلمانية.

وكان يركّز على الاهتمام بالجانب العملي من أي فكرة، ويعتبر هو وتشارلز بيرس (الأمريكي أيضاً) رواد الفكر البراجماتي. وإذا لم يكن لهذه الأفكار مردود عملي فلا حاجة للناس للانشغال بها. (وهو يقع في ذلك في تناقض مع نفسه في اهتمامه بالأديان وخاصة الأديان الوثنية والشركية التي تقول بتعدد الآلهة). ويرفض جيمس الحتمية الدينية الموجودة خاصة في المذهب الكالفيني البروتستانتي ويرى أن الإنسان له جانب واضح من الحريّة والإرادة، دون أن يدخل في التفاصيل. وكان دائماً يدعو إلى تحسين أوضاع حياة الإنسان، وأبدى بعض التعاطف مع الفكر الاشتراكي مع مقته الشديد لتقييد حرية الفرد.

وجاء بعده جون ديوي الذي ينكر الأديان، ولكنه يؤكد على أهمية الحرية لكل شخص في أن يعتقد ما يشاء، وأن الفلسفة يجب أن تهتم فقط بالأشياء العملية، وكيفية السيطرة على العالم الخارجي، وكيفية إيجاد الحلول للمشاكل التي تواجهها من الناحية العملية البحتة . وأن تقابل كل مشكلة بإيجاد فروض لحلها، ثم نبدأ بإجراء التجارب لحل تلك ال مشكلة. والتجربة التي تحقّق أفضل نجاح في حل المشكلة، هي التي نسعى إليها ونقوم بها . ويعتبر جون ديوي فيلسوف التربية الحديثة وتأثيره لا يزال عميقاً جداً إلى اليوم. ولكنه أوجد أجيالاً كاملة بعيدة عن الاهتمام بالأديان والأشياء الروحية. وأهم شيء لديه هو تحقيق النجاح الملموس المادي.

دراسة بوشامب وشلدرس (Beauchamp and Childress) لنظريات المنفعة (Utility) في كتابهما «قواعد أخلاقيات الإحيائية الطبية» (Principles of Biomedical Ethiecs)

يعتبر بوشامب وشلدرس من أعلام أخلاقيات الطب في أواخر القرن العشرين وبداية القرن الواح د والعشرين . ويعتبر كتابهما المذكور المرجع الأساسي والأهم للدارسين لأخلاقيات الطب (يسمى بعد توسيع دائرته الإحيائية الطبية). وقد طبع طبعات متعددة ولا يزال يعاد طبعه باعتباره المرجع الأول لدارسي أخلاقيات الطب[1] . يقول المؤلفان[2] :

«لقد خصّصنا الفصل الثامن لمناقشة النظريات الأخلاقية Moral Theories وفيه: «أن أي كتاب مرجعي (text book) يبدأ باستعراض النظرية ثم نقدها لدرجة أن لا تقوم لها قائمة، ثم ينتقل إلى النظرية الأخرى فيستعرضها، ثم ينقدها نقداً لاذعاً لا يُبقي ولا يذر، بحيث أن القاريء لهذه النظريات يتشكّك في قيمة أي منها، وبالتالي يزهد فيها كلها . وهذا أمر غير مطلوب ولا مرغوب فيه، لأن في كل نظريةٍ بعض الجوانب الإيجابية، وبعض الجوانب السلبية التي ينبغي أن يوجه لها الانتقاد. وهذا هو منهجنا».

وقد وضعا شروطاً أو قواعد تُدرس على ضوئها أي نظرية أخلاقية (في المجال الح ياتي الطبي) منها:

(1) مناقشة تجريدية للنظرية.

(2) منظومة تستعرض قواعد الأخلاقيات.

(3) قواعد مترابطة.

(4) تبرير منطقي مترابط لهذه القواعد.

ولا بد أن تحوز هذه النظرية على عدة شروط حتى يمكن اعتبارها نظرية أخلاقية . وليس بالضرورة أن تحوز على كل هذه الشروط لأن ذ لك قد يعتبر تعجيزاً، ولكنها على الأقل تحوز معظم هذه الشروط وهي:

---

(1)لدَّي الطبعة الخامسة منه الصادرة عام 2001 وقد صدرت بعده طبعات أحدث.
Tom Beauchamp & James Childress: Principles of Biomedical Ethics, 5th edition, 2001, Oxford University Press, NewYork. pp. 337-383..
(2)سننقل ما قالاه بشيء من الاختصار.

(1) الوضوح (Clarity) .

(2) الترابط المنطقي (الالتحام والتماسك) (3) . (Coherence) أن تكون: شاملة وكاملة ويمكن إدراكها (Completeness and Comprehensiveness) .

(4) البساطة (Simplicity) .

(5) القدرة على الإيضاح (Explanatory Power) .

(6) القدرة على التبرير (Justificatory Power) .

(7) القدرة على إيجاد محصول (ناتج) (المخرجات) (Output Power) .

(8) ممكن تنفيذها عملياً (عملية) (Practicability) .

وأي نظرية طوباوية لا يمكن تطبيقها على المجتمعات أو يمكن تطبيقها على عدد محدود من الأفراد لا يمثلون المجتمع ككل، فإنها تعتبر غير عملية، وبالتالي يجب إسقاطها.

«ونرى أن النظرية النفعية (Utilitarianism) أنها نظرية متماسكة البناء الداخلي (Coherent) ومترابطة منطقياً وشاملة (Complete & Comprehensive) ولها قدرة على إيجاد محصول أو ناتج (Output Power) ، ولكنها غير مترابطة منطقياً في عدة نقاط حيوية وهامة كما نراها، وخاصة في مجال العدالة في توزيع الخدمات الصحية، وفي مجال حقوق الإنسان، وفي مجال المشاريع الشخصية.

«وعلى العكس من ذلك نجد نظريات كانت [1] فهي متماسكة ومتطابقة مع كثير مما نراه ولكنها محدودة جداً في مجال الوضوح والبساطة والمخرجات (المحصول أو الناتج).

النظرية النفعية المعتمدة على المآلات (النتائج):

إن النظرية النفعية تعتمد على نتائج العمل أو مآلاته (الذرائع) Consequentialism فإذا كانت نتيجة أي عمل مفيدة لأكبر عدد من المجتمع، فإنها تعتبر نتيجة حسنة ونافعة وأخلاقية، ولو أدّى ذلك إلى الإضرار بعدد قليل محدود من البشر . وهذه النظرية قد جاء بها جيرمي بينثام (1748 - 1832) وجون ستيوارت مل (1806 - 1873) [2] .

«ولأول وهلة تبدو الفلسفة النفعية الذرائعية منطقية لأنها تسعى إلى تكثير المنافع وتقليل الأضرار قدر المستطاع. ونستعملها في حياتنا العامة والخاصة بشكل طبيعي ويومي . وفي تحديد ميزانية العائلة نقدّم ما هو أهم على ما هو مهم، وقد لا نقبل أشياء معيّنة بناء على منافعها وأضرارها. وفي الحياة العامة مثلاً نناقش فائدة إيجاد حديقة وأهميتها في حي معين، وندرس المكاسب والخسائر.. وهل يمكن الاستفادة بهذا المبلغ في مشروع أكثر أهمية (بناء ملجأ للعجزة أو لكبار السن.. إلخ) عند تضارب المصالح.

(1)كانت (عمانوئيل) (1724 - 1804) فيلسوف ألماني مثالي، اشتهر بفلسفة الواجب Deontology وباعتماده على العقل وعدم الاعتماد على الحواس لأنها كثيرة الخطأ. والأخلاق تبنى على أسس حرية الإرادة وأسس الإيمان ووجود الله . وأشهر كتبه «نقد العقل الخالص»، و«نقد العقل العملي» والمقصود بالنقد هنا هو التحليل الذي يوضح المعالم.

(2)لقد تم استعراض آراءهما بتفصيل كاف فيما سبق من فصول.

«لهذا فإن علينا أن ندرس القيمة القصوى والجدوى من أي عمل، ونوازن بين فوائده، وأضراره، ونسعى لزيادة المكاسب وتقليل الخسائر قدر الإمكان . ويقول فريق آخر من أصحاب نظرية المنافع أن بعض الأمور مثل تحقيق السعادة (اللذة) والحرية والصحة أمور لا يمكن المساومة عليها ووضعها في ميزان المكاسب والخسائر.

«ويعترف بينثام وجيمس بأن بعض الأعمال البشرية لا يمكن تفسيرها بأنها تسعى إلى اللذة والسعادة، فمثلاً بعض الباحثين من العلماء يرهق نفسه في البحث عن الحقيقة العلمية أو الاكتشاف العلمي، ناسياً لذّته وسعادته، بل وقد يضحّي بالكثير من أجل الوصول إلى هدفه . وقد حاول جيمس أن يفسّر ذلك بأن هدف هذا الشخص في الأساس كان المال والسعادة والشهرة، ولكنه مع انهماكه في العمل، وجد لذّته فيه لدرجة إنهاك نفسه والتضحية بكثير من الملذات، وإن كان هدف الشهرة والمال لا يمكن إغفاله من تصرفات هذا الشخص.

«ولكن الفلاسفة المعاصرين من أنصار هذه النظرية النفعية (المصلحية) يقولون إن هناك قيماً هامة أهملها بينثام وجيمس وهي خارج نطاق اللذة والمال (السعادة) ومنها قيمة الصداقة، والمعرفة والصحة والجمال.. وهي قيم تفوق عند بعض الناس أهمية اللّذة والمال».

المكاسب المادية واللذات الحسية التي نادى بها بينثام وجيمس:

ومع هذا فإن هؤلاء الفلاسفة المحدثين يرون أهمية الفلسفة النفعية مع توسيع دائرتها لتشمل المعاني المجرّدة مثل الصداقة، والحرية، والذاتية (Autonomy) والجمال وحب المعرفة، واكتناه المجهول.

«ويرى بعض الفلاسفة النفعيين الآخرين أن المعاني المجرّدة ليست مُتَّفقاً عليها عند البشر، وبالتالي يجب الحصول على رضا كل شخص حسبما يراه هو بميوله وأفكاره . (وهو أمر يجعل الضوابط شبه مستحيلة) وهو ما يعرف بالاختيارات الشخصية Individual Preference .

ويضرب المؤلفان مثالاً بقصة طفله في الخامسة من العمر لديها فشل كلوي، وقد وصلت إلى مرحلة لا بد فيها من زرع كلية من متبرع، ووافقت العائلة على إجراء الفحوص لمعرفة الشخص المناسب للتبرع. وكانت الأم غير مناسبة في فحص الأنسجة. وهناك طفلان آخران في الرابعة والثانية، وقد رأى الأطباء عدم تعريضهما لهذه المخاطر، ولعدم إمكانية وجود إذن منهما لصغر سنهما، وإذن الوالدين غير كاف في هذه الحالة . وعند فحص الأب وجد أنه مناسب وفحص أنسجته مطابق . وقد أخبره الطبيب أن المرض في هذه الطفلة سيؤثر في الغالب على بقاء الكلية الجديدة، وبالتالي فإن نسبة النجاح في هذه العملية محدود. وقرّر الأب أنه لا يريد التبرع لأن نجاح العملية مشكوك فيه، ويمكن العثور على كلية من متوفى (احتمال ضعيف)، وهو يخاف من العمليات وعواقبها . ولكنه طلب من الطبيب أن لا يخبر زوجته بأنه يرفض التبرع، وإنما عليه أن يقول أنه غير مناسب وغير مطابق في فحص الأنسجة.

وقد تردَّد الطبيب كثيراً في أن يقوم بالكذب على الأسرة، لأن الكذب أساساً مرفوض وعمل غير أخلاقي . وسيؤدي إذا انتشر الخداع في الطب إلى عدم ثقة المرضى بالأطباء وبالتالي سيؤدي ذلك إلى ضرر أكبر.

وفي الجانب الآخر قال الأب أن حياته الأسرية ستتحطم إذا عرفت زوجته والأهل بذلك، وستتهمه بأنه أناني يرفض التبرع لابنته بكليته، والتبرع بكليته لا يسبب إلا احتمالاً ضئيلاً بالضرر له.

وفي الواقع فإن نجاح العملية لابنته مشكوك فيه، وقد عانت ابنته كثيراً من هذا المرض، ولا يريد أن يعرّضها لمزيد من المعاناة، كما إنه يعترف بأنه يخاف من العمليات الجراحية.

ويرى الطبيب أن من حقّ الأب أن يرفض التبرع (الحرية الذاتية Autonomy) ولا يجد مبرراً أخلاقياً كافياًً للضغط عليه، كما أن حقّ المريض (هنا المتبرع وهو الأب) في الحفاظ على سرّه (Confidentiality) تكفله كل المدونات الأخلاقية الطبية.

وفي النهاية يقرّر الطبيب أن يقول للزوجة أن زوجها لأسباب طبيّة لا يُنصح بالتبرع بكليته (وهو كلام عام وما يسمى معاريض وليس كذباً مباشراً كأن يقول أن فحص الأنسجة غير مطابق وغير ملائم).

وهذه القصة الواقعية معضلة أخلاقية (Ethical Dilemma) وقد انقسمت آراء الأخلاقيين النفعيين أنفسهم فيها، فمنهم من نظر إلى أن إجراء العملية وزرع كلية للطفلة سيعطيها فرصة للحياة، وهي فرصة غير موجودة بدون زرع الكلية، ووالدها أنسجته مطابقة. وفي نظرهم ليس له عذر كاف في عدم التبرع . وعليه فإنه يجب عليه أخلاقياً أن يتبرع بكليته لابنته.

وطلبه من الطبيب أن يكذب ينبغي أن يرفض للأسباب التالية:

(1) أن الكذب مرفوض أخلاقياً وسيؤدي إلى فقدان ثقة المرضى بالأطباء، وبالتالي إ يجاد ضرر أكبر.

(2) أن الأسرة في مثل هذه الحالات عادة ما تتفكك، حتى لو تبرّع الأب بكليته . ويبدو من سلوك الأب أن الأسرة على وشك التفكك.

ويرد آخرون بأن موقف الطبيب سليم للأسباب التالية:

(1) من حقِّ المريض أو المتبرع أن يرفض أي إجراء على بدنه.

(2) من حق هذا الشخص الحفاظ على سرّية قراره.

(3) أن الطبيب لم يكذب كذباً مباشراً، ولكنه استخدم المعاريض.

(4) أن الكذب إذا كان في صالح المريض أو الشخص، ولن يضر الآخرين فينبغي أن يستخدم.

وليس صحيحاً أن الكذب في حالات محدودة سيؤدي إلى فقدان الثقة بالأطباء . إن الكذب في صالح المريض (أو العميل) إذا كان لا يضرّ الآخرين أمر لا غبار عليه . وخاصة إذا استخدم الطبيب كلمات موهمة وليست كذباً مباشراً (في المعاريض مندوحة حسب المفهوم الإسلامي).

أقول: وفي البلاد الإسلامية (عرباً وعجماً) فإن قول الحقيقة بصورة جافة للمريض مباشرة تؤدي إلى عواقب وخيمة. وخاصة إذا كان التشخيص الطبي يقول أن المرض (السرطان) مثلاً، منتشر ولا فائدة من أي علاج، والمريض سيموت خلال شهر أو شهرين أو أي مدة معيّنة.

وهنا محاذير عدة:

(1) أن المريض قد لا يتحمل الصدمة العنيفة وتؤدي الأخبار السيئة إلى وفاته أو حدوث آلام نفسية شديدة لا مبرّر لها.

(2) أن المريض قد لا يطلب معرفة التشخيص، وبالتالي فإن إعطائه هذا التشخيص دون طلبه يشكّل نوعاً من الاعتداء على حريته الشخصية (autonomy).

(3) أن تحديد المدّة التي سيعيشها المريض أمر غير صحيح. والطبيب لا يستطيع أن يحدّد المدة. وإن كان يعرف أن مثل هذه الحالات في العادة لا تعيش أكثر من شهر أو شهرين مثلاً. فهناك استثناءات كثيرة تحدث. ولا يوجد ما يلزم الطبيب بتحديد المدة. وكم من مرضى حدَّد لهم الأطباء موعد وفاتهم عاشوا، وربما مات الطبيب المعالج قبل المريض.

(4) أن تحديد زمن الوفاة أمر من الرجم بالغيب. وهو يعارض العقائد الإسلامية. ولا توجد أي فائدة في التحديد. ويستطيع الطبيب أن ينبّه الأهل على خطورة الحالة دون تحديد مدّة زمنية للوفاة. كما أنه قد يخبر المريض القوي الإيمان والثابت بصورة متدرجة بخطورة حالته، وخاصة إذا طلب المريض معرفة ذلك.

(5) يستطيع الطبيب أن يذكر للمريض أن الرسول أوصى كل مسلم ألا يبات إلا وقد كتب وصيته. وسيفهم المريض ضمناً ما يقصده الطبيب.

(6) أن الرسول أمرنا إذا دخلنا على المريض أن ننفس له في الأجل [1]، فإن ذلك لا يرد من قدر الله شيئاً، ولكنه يفيد نفسية المريض ويفسح له في الأمل.

(7) أن الرسول دعا إلى استخدام المعاريض. وفي المعاريض مندوحة عن الكذب المباشر.

---

(1) عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله: «إذا دخلتم على المريض فنفّسوا له في الأجل، فإن ذلك لا يردُّ شيئاً، وهو يطيِّب نفس المريض» سنن الترمذي (كتاب الطب) وسنن ابن ماجه (كتاب الجنائز). قال ابن القيم في الطب النبوي: «في هذا الحديث نوع شريف من أشرف أنواع العلاج، وهو الإرشاد إلى ما يطيّب نفس العليل: من الكلام الذي تقوى به الطبيعة، وتنتعش به القوة، وينبعث به الحار الغريزي، فيتساعد على دفع العلّة أو تخفيفها الذي هو غاية تأثير الطبيب». وتحدث ببلاغة عن التأثير النفسي والروحي في مدافعة المرض..

وقد أباح الرسول الكذب للصلح بين المتخاصمين، وذلك أن يقول أن فلاناً ذكرك بالخير ويقول للآخر مثل ذلك، وهو أمر لم يحدث . كما يجوز للزوج والزوجة أن يستخدما الكذب لبقاء العشرة وزيادة المحبةً. وأما إذا كان الكذب ينقذ حياة شخص بريء من شخص معتدي ظالم فالكذب واجب، وإنقاذ الحياة لشخص بريء مقدم على معصية الكذب، بل ينقلب الكذب هاهنا إلى طاعة.

وفي هذه النقاط يتفق معنا فيها أصحاب الفلسفة النفعية النفعية العملية (Act Utilitarian) بينما يرفض ذلك أصحاب الفلسفة النفعية القاعدية Rule Utilitarian . كما يختلف عنا من باب أولى أصحاب فلسفة الواجب Deontology وعلى رأسهم الفيلسوف كانت . فالكذب عندهم رذيلة في كل الحالات، ولا يوجد لديهم ما يبرّر الكذب حتى في الحالات التي ينقذ الكذب فيها حياة إنسان (عند أصحاب فلسفة الواجب). وهو موقف مرفوض تماماً. وقد انتقد ذلك الموقف عدد كبير من علماء الأخلاق.

وفيما عدا إنقاذ حياة بالكذب، فإن غالبية أصحاب الفلسفة النفعية القاعدية، وكل أصحاب فلسفة الواجب يرون أن الكذب رذيلة، وبالتالي لا يمكن استخدام الكذب وخاصة مع المرضى أو في المعاملات أو بين الزوجين أو في الإصلاح بين المتخاصمين.

ويدعو سمارت Smart وهو من أصحاب الفلسفة النفعية العملية Act Utilitarianism إلى أن الالتزام بالقواعد الأخلاقية مثل الصدق في القول، قد لا يشكّل الحلّ الأمثل لموقف معين، وأن الكذب قد يكون هو الحلُّ الأمثل . ولا يعني ذلك إبا حة الكذب على إطلاقه، بل الكذب ممنوع إلا في حالات خاصة، سيؤدي فيها الكذب إلى منفعه (للمريض) والصدق إلى مضرّة. ولن يؤثر حدوث حالات محدودة من عدم الالتزام بالصدق، في أخلاقيات الطب، ولا في ثقة المرضى بالأطباء.

وقد تكون الطريقة التي يتحدث بها صاحب الفلسفة النفعية مثيرة للغضب والاشمئزاز كما حدث لحاكم ولاية كلورادو السابق ريتشار لام Richard Lamm عندما صرَّح بأن على المرضى في حالات ميؤسة من شفائها أن يعرفوا أن عليهم واجباً، هو أن يموتوا ولا يستخدموا الأجهزة المكلّفة والمستشفيات الباهظة الكلفة، لإبقائهم على قيد الحي اة، فقد أثارت تصريحاته غضب كثير من سكان الولاية.

ورغم أن ما قاله صحيح، بالنسبة لأصحاب الفلسفة النفعية، إلا أن الطريقة التي صرّح بها كانت مثيرة للغضب . ولا شك أن استعمال الأجهزة المكلّفة، والرعاية الصحية في وحدات العناية المركزة الباهظة الثمن تؤدي إلى استنزا ف الأموال العامة فيما لا يفيد في الحالات الميؤس منها؛ بينما يمكن أن تصرف هذه الأموال في رعاية الطفولة والأمومة ورعاية المرضى الذين يستجيبون للعلاج.

وقد توصل معظم الأطباء إلى أن استخدام وحدات العناية المركزة والعلاج المكثف في الحالات الميؤس منها، أمر لا مبرّ ر له. ولا يعني ذلك عدم الرعاية الصحية، والتمريض الجيّد، وتسكين الآلام، وتخفيف الشعور بالكآبة والإحباط بكافة الوسائل الممكنة بما في ذلك العقاقير المناسبة. بل يجب تقديم هذه الرعاية المهمة سواء كانت في المنزل أو في وحدات

خاصة من دور الرعاية الصحية مما يسميه الإنجليز (Hospice) . وذلك يخفف بشكل كبير من عبء التكاليف، ويساعد المرضى والأهل على تقبّل وضعهم، والتخفيف عنهم (قدر الإمكان) من الآلام والمنغصات والأعراض . ويمكن أن تقوم ممرضة أو ممرض بزيارة يوميّة إلى المنزل وتستدعي الطبيب عندما يلزم الأمر.

وقد وصلت إلينا ه ذه المشكلة. وترى بعض الحالات الميؤسة منها في وحدات العناية المركزة والمكثفة، حيث تبقى بعض هذه الحالات لأشهر عدة وبعضها لسنين . وتكون تكلفة هذه الأجهزة والمعالجات غير المجدية ملايين الدولارات. فإذا صرفت هذه الأموال من قبل الدولة، فإن ذلك سيؤدي إلى حرمان آلاف وربما ملايين الأطفال والأمهات من الرعاية المطلوبة القليلة الكلفة والكبيرة الفائدة والجدوى. فعلى سبيل المثال حملات تحصين (تطعيم) الأطفال ضد أمراض الطفولة لا تكلف إلا مبالغ زهيدة جداً لكل طفل، لكنها تمنع أمراضاً خطيرة جداً، ووفيات، ومعالجات ذات كلفة عالية جداً. وكذلك التركيز على رعاية الأمومة، فإن كلفتها بسيطة (لكل أم)، ولكن مردودها كبير جداً على صحة الأم، وخاصة إذا صحب تلك الرعاية، توعية قوية بإرضاع الأم طفلها وحثها على ذلك ومساعدتها فيه، ومنع شركات الألبان من دخول مستشفيات الولادة والأطفال، وتوزيع هداياهم المجانيّة من هذه العلب، بحيث لا ترضع الأم وليدها، وتخرج من المستشفى بعد يوم أو يومين ثم تشتري هذه الألبان المجففة لتكسب الشركة، وتصاب هي وطفلها بالأضرار التي لا حصر لها.

بل إن حملات مكافحة التدخين ومنع التدخين في الأماكن العامة كلها، ووضع ضرائب عالية على التبغ والسجائر، والتشديد في هذه المكافحة، واستخدام أجهزة الإعلام بكثافة في توضيح هذه الأضرار الرهيبة على الصحة من التدخين (سجائر، شيشة، معسل، تبغ ممضوغ... إلخ) سيكون لها مردود جيد على صحة الأمة أفضل من جميع المستشفيات والأجهزة الحديثة مجتمعة.

لهذا إذا تعارضت مصلحتان تقدّم المصلحة الأهم وذات الجدوى، على المصلحة الأقل فائدة. وأما إن كانت عديمة الجدوى والفائدة فتعتبر عبثاً، والعبث والإسراف وإضاعة المال أمرٌ ينهي عنه في الشريعة الإسلامية.

وتبقى المشكلة حتى لو كان المريض وأهله هم الذين سيتحمّلون الكلفة الباهظة له ذه الرعاية المكثفة، وقد عانت أسر كثيرة من الديون بسبب رعايتهم لمريضهم في مستشفى خاص في أقسام الرعاية المركّزة والمكثّفة بعد أن تبيّن للأطباء عدم جدوى تلك المعالجة . وللأسف فإن بعض المستشفيات الخاصة، إن لم أقل كلها، تحرص على إبقاء المريض تحت هذه الأجهزة متى وثقت من الدفع (دفع مباشر نقدي، تأمين صحي، جهة أخرى تقوم بالدفع) ولو كانت الفواتير تصل إلى الملايين، بينما ترفض هذه المستشفيات نفسها إجراء عملية جراحية مستعجلة لطفل التهبت لديه الزائدة الدودية، وهي على وشك الانفجار، أو امرأة على وشك الولادة (سواء كانت طبيعيةً أم قيصرية) إذا لم يستطع أهل المريض الدفع مقدماً..

وللأسف، فإن المشكلة تتضاعف إذا كان المريض أجنبياً، ولم يكن لديه تأمين صحي، وهو فقير، فلا المستشفيات الحكومية تقبله، ولا المستشفيات الخاصة تدخله، ويموت بعضهم

بالفعل من هذا الموقف لعدم وجود أي رعاية صحيَّة ولو في الحالات المستعجلة لهؤلاء المساكين .. وفي بعض الأحيان يسمح لهم بدخول الطوارىء، ولكن لا يسمح لهم بدخول المستشفى، ويبقون في قسم الطوارىء حتى تخفّ الأعراض، ثم يطردون . وهو موقف لا أخلاقي، وموقف يرفضه ديننا الحنيف، وأخلاقنا العربية، وحقوق الإنسان..

إنه موقف يحتاج إلى مراجعة شاملة.

موت الرحمة أو الموت الرحيم Euthanasia :

يرى أصحاب الفلسفة النفعية والليبراليون أصحاب الحرية الشخصية، أن الشخص المريض مرضا مزمناً لا علاج له، يستطيع أن يطلب من طبيبه أن يريحه من هذا العذاب، بحقنه في الوريد من مادة سامة توقف نبضات ا لقلب مثلاً (بوتاسيوم) أو جرعة كبيرة من الباربيتورات المنومة مع حقنة من الأنسولين الخافض للسكر في الدم إلى مستوى الوفاة أو غير ذلك من الوسائل.

ولا يعتبرون ذلك عملاً غير أخلاقي، إذا قبل به المريض والطبيب ويطالبون بتغيير القوانين لتسمح بمثل هذا العمل المرفوض دينياً وأخلاقياً.

ووظيفة الطبيب إنقاذ المريض والدفاع عن الحياة، لا قتل المريض ومباشرة القتل بنفسه . إن الطبيب يتحوّل هاهنا إلى قاتل. وقد بدأت هولندة فسمحت بما يسمى القتل الرحيم أو الموت الرحيم بشروط خاصة محدّدة. وتبعتها بعض الولايات في الولايات المتحدة . والمطالبة قوية في بريطانيا ودول الشمال والدول الأوروبية الأخرى للسماح بهذه الجريمة، وجعلها مشروعة قانونياً.

وعندما بدأت هولنده التشريع في هذه القضية اشترطت وجوب الطلب المتكرر الواعي من المريض بكامل إرادته ووعيه أن يقوم الطبيب بقتله وإراحته من معاناته. ثم تبيّن بعد ذلك أن معظم هؤلاء المرضى لا يتمتعون بالقدرة الواعية والتفكير الواضح، وأكثرهم في حالة من التشتت الذهني، وكثير منهم في حالة غيبوبة تامة، وبالتالي لا يمكن أخذ موافقتهم، فاخترعوا لذلك الوصية الحية Living Will وهي أن يوصي الشخص أثناء حياته ووعيه ويسجل ذلك رسمياً بأنه إذا أصيب بكذا وكذا ووصلت درجة مرضه إلى المرحلة الفلانية، فإنه يطلب إيقاف الأجهزة كلها عنه، بل ويطلب إنهاء حياته .. ثم تطور الأمر لأكثر من ذلك فسمحوا للأهل أو الزوجة أو الزوج بأن يطلب إيقاف الأجهزة والتغذية إذا كان المريض غير قادر على إبداء رأيه بسبب فقدان الوعي.. وهناك حالات كثيرة موثقة حكمت فيها المحاكم بإيقاف التغذية والماء حتى يموت هؤلاء المرضى (ذوي الحياة النباتية المستمرة Persistent Vegetative States) صبراً، أي يقتلون بمنعهم من الشرب والأكل والتغذية (طبعاً لا يتغذون إلا بواسطة الأنابيب). وأشهر هذه الحالات حالة تيري شيافو Terri Schiavo التي حكمت المحكمة لزوجها مايكل شيافو بأن يمنع عنها الغذاء والماء، في المستشفى التي هي فيه رغم معارضة والديها، ومعارضة الرئيس بوش ومعارضة أخيه جيب حاكم فلوريدا . ولكن المحكمة أصرّت على الحكم بعد محاكمات متعددة ع لى مستويات مختلفة، وتمَّ قتلها بطلب زوجها (في 31 مارس عام 2005)، والذي تبيَّن أنه كان مؤمناً على حياتها فحرص

على قتلها رسمياً حتى يحصل على مبلغ التأمين الكبير، وحصل عليه بالفعل، وتزوج عشيقته التي أنجب منها طفلين قبل الزواج.

وكان قد حصل على تعويض بمبلغ ربع مليون دولار من الطبيب الذي أخطأ في معالجتها وتسبّب لها في فقدان الإدراك والدخول في الحياة النباتية عام 1992، وحصل على مبلغ ثلاثمائة ألف دولار عام 1998 تعويضاً عن فقد حياته الزوجية.

إنها فلسفة براجماتية نفعية وصلت إلى الحضيض والمستنقعات.

وقد تمَّ تنفيذها رغم معارضة والدي تيري شياثو، ومعارضة البابا ومعارضة حاكم فلوريدا جيب بوش ومعارضة الرئيس جورج دبليو بوش ومعارضة مجموعات المحافظة على الحياة الإنسانية.

تقييم بوشامب وشلدرس للفلسفة النفعية:

«رغم الانتقادات الكثيرة التي توجه للفلسفة النفعية فإن لها عناصر قوة كالآتي:

(1) أنها تشكل فلسفة فعَّالة في السياسة العامة لأي دولة أو مجتمع. لأنها تبحث عن المصلحة، وتوازن بين المصالح والمفاسد .. وتسعى لاكتساب المصلحة الأعظم متخلّية عن المصلحة الأقل. وفي الحالات التي لا توجد إلا مضار فإنها تسعى لتجنب المضرة الأكبر وتتحمل المضرّة الصغرى إذا لم يكن من ذلك بدّ [(1)].

(2) تعمل فلسفة المنفعة (المصلحة) في موضوع الإحسان (Beneficence) أيضاً. رغم أن الإحسان يستلهم مبادىء أعلى من المصلحة وتكون مرتبطة بفعل الخير والسعي إليه. لكن فلسفة المنفعة تدخل أيضاً في موضوع الإحسان (Beneficence) وعدم الضرر (لا ضرر ولا ضرار) (Non maleficence) .. وكلاهما مرتبط بالمصلحة.

(3) إن اهتمام فلسفة المنفعة بالمآلات (النتائج) (Consequences) أمر مهم من الناحية العملية. ولا يمكن إغفال النتائج في أي نظرية فلسفية أخلاقية. وبالتالي لا بد من الاهتمام بمآلات (نتائج) الأمور [(2)].

(4) الاهتمام بالمجتمع والعدالة وتوزيع الخدمات على أكبر عدد ممكن. ولكن ذلك يؤدي أحياناً إلى التعدي على الحرية الفردية وحقوق الإنسان.

عناصر الضعف في الفلسفة النفعية:

(1) تبدو المشاكل واضحة عند النفعيين الذين يسعون إلى تحقيق الاختيارات الشخصية (Individual Preferences) لأن الفرد وهو يسعى للحصول على أكبر منفعة ممكنة لشخصه، يضرّ بالآخرين، أو على الأقل ينتقص من فرصهم للحصول على هذه المنفعة. هذا

---

(1) هذا القدر من المصلحة يتفق مع قواعد الأحكام وموضوع المصلحة في الإسلام.

(2) يهتم الإسلام اهتماماً كاملاً بالمآلات. والدنيا مزرعة الآخرة. ولا يقصر ذلك الاهتمام على الدنيا كما تفعل الفلسفة النفعية.

إذا كان ملتزماً بعدم الإضرار بالآخرين وعدم استخدام وسائل غير أخلاقية للحصول على المنافع. (وهو أمر تعاني منه البشرية في كل مكان، وبصورة مفضوحة في العالم الثالث).

(2) «يرى الفلاسفة النفعيون أنه يجوز عند الضرورة أخذ أطفال الأعداء وتعذيبهم ليعترف آباءهم. وهو موقف غير أخلاقي ومشين ومرفوض . مهما كانت الفوائد المرجوة » انتهى كلام بوشامب. وأقول: إن هؤلاء النفعيين لا يرون غضاضة في ارتكاب هذه الجرائم من أجل الحصول على اعترافات ولو بالإكراه لتحقيق سياستهم، كما حصل في جوانتانامو وأبو غريب (في العراق) وباجرام (في باكستان). وكل الجرائم الكبرى التي قام بها بوش ورامسفيلد وديك تشيني كانت مغلّفة بأغلفة المصلحة .. والدفاع عن أمريكا وأمنها، والدفاع عن النظام الليبرالي أمام الهجمات الإرهابية.

(3) لا يفرق الفلاسفة النفعيون بين ما هو ضروري وإلزامي أخلاقياً (Morally Obligatory Action) وبين ما هو نفل (أي زائد عن الضرورة) (Superrogatory actions) والفرق بينهما واضح. فالأمر الضروري يجب عمله، بينما النفل هو أمر تطوعي محمود.

ومثال ذلك أن تفرض التخلص من العجزة والشيوخ إذا وصلوا إلى سن يصبحون فيها عبئاً كبيراً على المجتمع، وكذلك المرضى المزمنون الذين لا يوجد أمل في شفائهم . فإن التخلص من هؤلاء يصبح عندهم عملاً أخلاقياً. ويجب تشجيع هؤلاء على الانتحار كما يقول دونا جان (Don agan) كما أن التبرع الإلزامي بكلية أمرٌ لن يضر المتبرع، وسينقذ حياة آخرين، وأخذ الأعضاء من الموتى دماغياً لن يضر أحداً، ولكنه سينفع العديد من الأشخاص ويعطيهم حياة جديدة نافعة.

وهكذا يحولون التبرع الطوعي بالأعضاء، وهو أمر محمود، إلى واجب أخلاقي بالتبرع بالأعضاء وبالتالي تؤخذ باسم الواجب بصورة قسرية، وهو أمر مرفوض تماماً.

ومن الناحية العملية لم يتم تطبيق هذا المبدأ في الدول الغربية وترفضه الفلسفة الليبرالية وحقوق الإنسان رفضاً تاماً . ولكن تمّ تطبيق التخلص من المرضى المزمنين والعجزة والشيوخ الذين وصلوا إلى الخرف وإلى الحاجة لرعاية مستمرة في النظام النازي.. وإلى حد ما في النظام الستاليني الشيوعي الروسي . والنظام الماوي الصيني الشيوعي . كما قامت أوروبا بفرض التبرع بالأعضاء لمن يموت دماغياً في المستشفيات الحكومية، ولم يعلن اعتراضه قبل وفاته كتابة[1] .

وقد قامت الصين في عهد ماوتسي تونج بتحديد النسل بطفل واحد لكل أسرة، وبالتالي إذا حملت المرأة ولديها طفل فإن عليها أن تقوم بإجهاض نفسها، وفي الأرياف كانوا ينتظرون حتى تتم الولادة فإذا ولدت أنثى تم قتلها لتتاح لهم الفرصة لإنجاب ولد ذكر، ثم تطورت هذه الطريقة مع وجود أجهزة السونار (الموجات فوق الصوتية) إلى إجراء الفحص في الشهر الرابع ـ الخامس من الحمل عندما يتبين هل الجنين ذكر أو أنثى (بنسبة عالية من الدقة أكثر

---

(1)كانت المملكة المتحدة لا تقبل بهذا الاجراء، ولكنها منذ بداية القرن الواحد والعشرين بدأت تناقش هذه القضية على كافة المستويات، حتى تحصل على رأي عام يوافق على ذلك ثم تصدر بذلك قانونا من البرلمان.

من 90 بالمئة) فإذا تبين أن الجنين أنثى تمّ إسقاطها. وقد انتشرت هذه الطريقة أيضاً في الهند وتم قتل ملايين الأجنة خلال العقدين الماضيين.

وقامت حكومة الصين الماوية، بتشجيع من الغرب، بفرض التعقيم للرجال والنساء وتمَّ تعقيم أكثر من خمسين مليون صيني، وذلك لإيقاف الزيادة السكانية. كما قامت أنديرا غاندي بتعقيم أحد عشر مليوناً من الرجال في الهند أيضاً بدعم كامل من الغرب حسب الفلسفة النفعية باعتبار أن ذلك سيخفّف من الزيادة السكانية التي ستؤدي إلى كوارث حسب زعمهم.

وكان عدد السكان ثلاثمائة مليون عندما قامت أنديرا بهذه السياسة الحمقاء، وسكان الهند اليوم (2009) أكثر من ألف ومائتي مليون. وقد تحسنت أحوال السكان عما كانت عليه أيام أنديرا. وأصبحت الهند من الدول المرموقة ويشجعها الغرب كي تنافس الصين. إذن الفلسفة النفعية فلسفة تتغير كل يوم. وما هو اليوم صواب يكون خطأ غداً وما هو اليوم فضيلة يصبح غداً جريمة نكراء.

وقد أكد بوشامب وشلدرس على هذه النقطة أكثر من مرة في نقدهما للفلسفة النفعية.

(4) مشكلة التوزيع غير العادل للمنافع : ترى الفلسفة النفعية وجوب توزيع المنافع على أكبر عدد ممكن من أفراد المجتمع، ولكنها لا تمانع في وجود ضرر بمجموعة صغيرة من البشر (وخاصة إذا لم تكن من البيض أو اليهود)، فالمصلحة تقتضي إيصال المنافع إلى أكبر عدد ممكن (عادة من المجتمعات الغربية البيضاء)، وإهمال من يصيبهم الضرر من الأقليات أو الفقراء أو الضعفاء في المجتمع الأوروبي. أما خارج المجتمعات الغربية فلا قيمة أصلاً لهؤلاء البشر عندهم. ومثال ذلك ما حصل في مصنع السايناد (Cyanide) في بهوبال في الهند حيث قامت الشركة الأمريكية (Union Carbide) بإنشاء مصنع في الهند، وبمواصفات لا تقبلها الولايات المتحدة من حيث السلامة، فلما انفجر المصنع وقتل عشرات الآلاف، وأصاب بالضرر مئات الآلاف، استطاعت الشركة أن تتخلص من التزاماتها الأخلاقية بواسطة الرشوة، وإعطاء المسؤولين مبالغ جيّدة، ووزعت مبالغ تافهة على المتضررين. وبالتالي نجت من إفلاس محقق لو حدثت هذه المأساة في الولايات المتحدة أو دولة أوروبية أو في أستراليا أو في كندا، بالإضافة إلى محاكمات ستدخل كثيراً من مسؤولي الشركة السجن. ولكن بما أن المتضرّرين هم من الهنود وليسوا من الجنس الأبيض، فإن الأمر يعتبر هيّناً لديهم، وبالتالي أمكن التخلص من جميع الالتزامات بدعم كامل من حكومة الولايات المتحدة لهذه الجريمة النكراء، وتأييد مُبَطّن من الدول الأوروبية، وسكوت على الظلم والاستغلال من الهند ودول العالم الثالث.

وقد ضرب المؤلفان مثلاً على عدم العدالة الناتجة من الفلسفة النفعية في الولايات المتحدة في المجال الطبي. ففي دراسة موسعة للتغلب على مشكلة ارتفاع ضغط الدم تبيَّن أن الذين يعانون من الارتفاع الشديد، وبدون اكتشاف المرض ولا علاجه هم في الغالب من السود الذين لا تأمين صحي لهم .. ووجد الباحثون أن المردود للفحص العشوائي في أقسام الطوارىء (وهو المكان الوحيد الذي يستطيع السود الذين ليس لهم تأمين صحي الذهاب إليه) لهؤلاء السود ضئيل، وحتى لو عُرف المرض، فإن هؤلاء لا يستطيعون متابعة العلاج لأنهم

لا يملكون تأميناً صحياً، وليس لهم طبيب يرعاهم. وبالتالي نتيجة هذا النظام الصحي البائس، فإن الدراسة تؤيد أن لا يفحص هؤلاء السود ولا يتم علاجهم، بل يستمر العلاج حسب المعتاد لمن هم مسجلون عند الأطباء ولهم تأمين صحي. وبدلاً من انتقاد النظام الصحي المتخلّف في الولايات المتحدة والمتحيّز للبيض والأثرياء من السود، فإن هؤلاء الدارسين قرّروا الاستمرار في النظام البائس الحقير والدفاع عنه، وبالتالي عدم الكشف والعلاج لهؤلاء السود البائسين. وبرّروا ذلك بأن جميع الدراسات الميدانية أوضحت عدم جدوى معالجة هؤلاء السود والكشف عليهم، لأنهم لا يستمرّون في العلاج.

وبدلاً من نقد ا لنظام الصحي، قام هؤلاء الباحثون، بما في ذلك المؤلفان المشهوران بوشامب وشلدرس، باعتبار أن البحوث كلها تؤكد عدم جدوى علاج هؤلاء السود الفقراء، بدلاً من تغيير هذا النظام المزري والحقير والذي يجعل الولايات المتحدة في مستوى بنجلاديش والدول الأفريقية بالنسبة لخمسين مليون مواطن أمريكي بدون تأمين صحي..

وقد بدأت محاولات لدراسة الموضوع أيام الرئيس كلينتون وفشل في ذلك بسبب معارضة الكونجرس والجمهوريين وأصحاب الفلسفة النفعية والبراجماتية.. واستمر الوضع أيام بوش الابن بصورة أعنف، ولكن أوباما (2009) يحاول أن يعيد الكرة لتصحيح هذه الأوضاع المزرية، ولكنه يواجه حرباً شرسة من الهيئات الصحية والشركات الدوانية المتنفّذة، وشركات التأمين المستفيدة من هذه الأوضاع وأصحاب الفلسفة الليبرالية والنفعية.

الفلسفة الليبرالية:

تتحدث الفلسفة الليبرالية عن حقوق الأفراد المختلفين في المجتمع وخاصة المرأة والشاذين جنسياً وتركز جهودها على حقوقهم التي يكبتها المجتمع . ويركزون جهودهم على نشر الشذوذ والعلاقات الجنسية المحرمة، والإجهاض وتغيير الجنس (الجندر) وما إلى ذلك من حقارات.

وحتى لا تبدو الصورة قاتمة وفي منتهى الحقارة، فإنهم يتحدثون عن حقوق الأقلي ات، والسود والهسبانك (الأصول الأسبانية) في الولايات المتحدة.

ومن الناحية الطبية يركزون على ما يسمى:

(1) الحرية الذاتية: Autonomy .

(2) الخصوصية: Privacy .

(3) المحافظة على أسرار المريض: Confidentiality .

ولا شك أن هذه الأمور الثلاثة ذات أهمية بالغة وتقرّها كل الأديان والجماعات والفلسفات بصورة عامة. ولكن عند الدخول في التفاصيل تبدأ نقاط الاختلاف وتظهر المآخذ.

في مجال الحرية الذاتية (autonomy) يحقُّ للإنسان البالغ العاقل أن يفعل في نفسه ما يشاء فمثلاً يستطيع أن يغيّر جنسه من ذكر إلى أنثى (قضية الجندر) وهو ما يعرف بعبر الجنس (tran Sexudism) أي يعبر من جنس الذكورة إلى الأنوثة أو العكس، بدون وجود

أي خلل جسماني أو هرموني، ولكن بمجرد وجود الرغبة والهوى وقد وصلت هذه القضية إلى البلاد الإسلامية، عربية وأجنبية، وتم تحويل مئات وربما آلاف الأفراد من الذكورة إلى الأنوثة، أو بالعكس من الأنوثة إلى الذكورة دون وجود أي مبرر طبي سوى الهوى والرغبة.

وقد تمّت هذه العمليات في المغرب وتونس ومصر وتركيا والسعودية وأندونيسا وماليزيا ولبنان .. كما تمّ إجراؤها لمواطنين من الكويت في تايلند، وحصلت نتيجة ذلك بعض المشكلات القانونية في تغيير هوية الشخص من ذكر إلى أنثى.

وفي مصر اشتهرت قضية الطالب في كلية الطب بجامعة الأزهر، ويدعى سيد الذي قام بتغيير جنسه إلى أنثى تدعى سالي . ولما كانت كلية الطب في الأزهر منفصلة بين الإناث والذكور، فقد أراد أن يدخل كلية البنات، ورفض الأزهر، ورفع سالي قضية في المحكمة وحكمت له المحكمة بدخول كلية البنات بعد تغيير جنسه، ولكن الأزهر أثبت أن سالي اشتغلت رقاصة في ملهى ليلي (كابريه)، كما اعترفت سالي بعلاقتها الجنسية العديدة في التليفزيون (وقد رأيتها بنفسي)، وأنها أقامت هذه العلاقات الشاذة عندما كان اسمه سيد، ثم تحولت إلى شكل أنثى، واعترفت اعترافاً كاملاً أمام الملايين بالزنا واللواط . وبدلاً من أن يعاقبه/يعاقبها القانون المصري على ذلك، طالبت المحكمة بعودته / عودتها إلى الدراسة، فرفض الأزهر وقال إن مكانة الأزهر لا تسمح بدخول رقاصة وعاملة في الدعارة في كليته، وكسب القضية.

ولكن أصحاب حقوق الإنسان والولايات المتحدة الأمريكية أقامت عدة دعاوى على مدير جامعة الأزهر الدكتور الطيب النجار وطالبته بتعويضات بالملايين، لأن سالي اضطرت للعمل في الكابريه وفي الدعارة، وبالتالي فإن على مدير جامعة الأزهر الدكتور الطيب النجار أن يعوّضها على ذلك. وهناك العديد من القضايا ضد مدير جامعة الأزهر حالياً، وقد تؤدي به إلى فقدان منصبه وإلى دخول السجن لأنه رفض إدخال سالي إلى كلية طب الأزهر قسم البنات!!

وقد أخبرتني ابنة مدير جامعة الأزهر بهذه التفاصيل في 27 شعبان 1430هـ عندما حضرت إلى المركز الطبي الدولي بجدّة الذي أعمل فيه، لحضور محاضرات في الإعجاز العلمي والتي شاركتُ في تنظيمها مع الأستاذ الدكتور زغلول النجار.

وهذا يوضح إلى أي مستنقع قذر نندفع إليه بواسطة الليبراليين ودعاة حقوق الإنسان .. إن الإنسان الذي يُقتل أو يُدمّر بيته في غزة لا حقوق له، وآلاف الأطفال والمشردين والنساء اللاتي تُبقَرُ بطونهن في فلسطين والعراق وأفغانستان بواسطة جنود إسرائيل والولايات المتحدة وبريطانيا والتحالف الدولي معهما، لا قيمة لهم ولا أحد يتحدث عنهم، وكذلك ما تمَّ من جرائم في البوسنة والهرسك، وفي سينكيانج (الأوغور المسلمون) في الصين، وفي تايلند، وفي الفليبين . إن دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم ودورهم كلها مباحة، ومهما تعذبت النساء فلا أحد أبداً يتكلم عن معاناة المرأة المسلمة في فلسطين وفي العراق وفي أفغانستان وغيرها من جراء هذه الاعتداءات المتتالية من الدول الكبرى الليبرالية . والتي

تتشدق بالحديث عن حقوق الإنسان .. ولا حقوق إلا للشاذين جنسياً والعاهرات والداعرات ولتغيير الجنس.. وما عدا ذلك فلا حقوق لأي إنسان عند هؤلاء المجرمين.

الفصل الثامن عشر
المصلحة في الشريعة الإسلامية
وفي الفلسفة الغربية

المصلحة في الشريعة الإسلامية
وفي الفلسفة الغربية

وقد كتب العلامة الشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رسالته للدكتوراه بعنوان ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية [(1)]. وقد بيّن الفروق بين ما يسمى مصلحة (منفعه) في الفلسفة الغربية وبين المصلحة في الشريعة الإسلامية.

وقد يبدو أن هناك اتفاقاً بين تعريف المصلحة لدى الفريقين، ولكنه اتفاق ظاهري، لأن المصلحة في الشريعة منضبطة بضوابط الشريعة.

تعريف المنفعة:

«المنفعة هي اللذة أو ما كان وسيلة إليها، ودفع الألم أو ما كان وسيلة إليه . وبتعبير آخر هي، كما قال الرازي، اللذة تحصيلاً أو إبقاء. فالمراد بالتحصيل جلب اللذة مباشرة، والمراد بالإبقاء الحفاظ عليها بدفع المضرّة وأسبابها [(2)].

ويعرّف العزّ بن عبدالسلام المصلحة بقوله [(3)]: «المصالح أربعة أنواع : اللذات وأسبابها، والأفراح وأسبابها، والمفاسد أربعة أنواع : الآلام وأسبابها، والغموم وأسبابها . وهي منقسمة إلى دنيوية وأخروية . فأما لذات الدنيا وأسبابها وأفراحها، وآلامها وأسبابها، وغمومها وأسبابها فمعلومة بالعادات، ومن أفضل لذات الدنيا المعارف وبعض الأحوال، ولذات بعض الأفعال. وأما لذات الآخرة وأفراحها وأسبابها فقد دلّ عليه الوعد والوعيد والزجر والتهديد » (في القرآن والحديث). ويجب التمييز في المصالح والمفاسد بين ما هو مصلحة أو مفسدة في ذاته، وبين ما هو كذلك لأنه سبب لهما. ذلك لأنه ربما كانت أسباب المصالح مفاسد فيؤمر بها أو تباح، لا لكونها مفاسد، بل لكونها مؤدية إلى المصالح وذلك كقطع الأيدي المتآكله حفظاً للأرواح، والمخاطرة بالأرواح في الجهاد».

وقد اعتبر الشيخ البوطي أن طلب المنفعة واللذة أمر فطري لدى الإنسان، لا خلاف حوله، وبما إن الإسلام دين الفطرة فإنه قد حرص على تحقيق هذه المصلحة، مظاهرها وأوسع طاقاتها بما شرعه الله لعباده من شرائع وأحكام، وما خطّه لعباده من أخلاق وفضائل . وقد اتفقت الشرائع على أن المنفعة هي مقياس ما يسمّى الخير والشر . وأن وسائل المنفعة تُعطى حكم المنفعة، وأن شرط كلٍّ من المنفعة ووسائلها أن لا تقترن بها أضرار مساوية للمنفعة المرتقبة أو راجحة عليها. كما أن وسائل المضرّة تُعطى حكم المضرّة نفسها، ولو كانت بحدّ ذاتها ذات فائدة ومنفعة، بشرط أن لا ترجح تلك الفائدة على المضرّة المتوقعة.

---

(1)د. محمد سعيد رمضان البوطي : ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص 23 - 70 وسننقل ما قاله بشيء من الاختصار وبعض الإضافات اليسيرة . وتمّ تقديم الرسالة عام 1965 ونال بها شهادة دكتوراه بامتياز.

(2)المحصول للرازي ص194.

(3)قواعد الأحكام للعز بن عبدالسلام ص15 وما بعدها. تحقيق د. نزيه كمال حماد ود . عثمان ضميريه، دار القلم، دمشق 1421هـ/ 2000م.

والمصلحة في الشريعة الإسلامية منضبطة بأحكام الشريعة التي تنظر إلى الدنيا والآخرة، وأن مصالح الدنيا محكومة بسلامة مصالح الآخرة . ومن ثمّ فلا مجال لاضطرابها بين اختلاف الميول والرغبات والأحاسيس.

أما المصلحة (المنفعة) عند علماء الأخلاق في الغرب، فهي مرتبطة بمصالح الدنيا فقط وميزان الخير والشرّ عندهم مجرّد ما يتواضعون عليه، أو ما يبدو لهم من التجارب والخبرات، أنه يحقّق اللذة أو يبعد الألم.

«وإذا علمنا أن الشعور بالمنفعة ومداها، كمّاً وكيفاً، متفاوت بين أفراد الناس تفاوتاً كبيراً، حسب تفاوت عاداتهم وخبراتهم وثقافاتهم، بل وأمزجتهم وأغراضهم أدركنا أي مثار للخلاف يكمن في استقلالهم بوضع موازين الخير والشرّ لجميع أعمال البشر وتصرفاتهم، رغم ما يبدو لديهم من مظهر الإجماع، على اعتبار أصل المنفعة جنساً لهذه الموازين [1].

«ولقد اعترف بنثام ـ وهو من أكبر الباحثين في المنفعة من حيث هي ميزان للخير والشر ـ بخطورة الخلاف الذي انتهى إليه بحث علماء الفلسفة في هذا الموضوع فقال:

«ولقد قلَّ الطعن على أصل المنفعة، فضلاً عن أنه صار معتبراً كأنه الرابط الجامع بي ن الأخلاق والسياسة إلا أن شبه الإجماع هذا ظاهري فقط، فإن الناس اختلفوا اختلافاً كثيراً في فهم المنفعة وتقديرها حق قدرها، ولذلك تشعبت مقدماتهم وتباعدت نتائجهم »[2].

ولم يختلف عنه جون ستيوارت مِل الذي جاء من بعده، في التنبيه إلى أهمية هذا الخلاف وبعد جذوره و تطاول أمده لدى الفلاسفة قديماً وحديثاً . يقول في مطلع كتابه عن «مذهب المنفعة العامة»: إن الخير الأقصى ـ وهو أساس الأخلاق ـ كان مثاراً للجدل منذ أيام سقراط الشاب وبروتاغورس الشيخ. وتشعب الباحثون إزاء هذه المشكلة فرقاً ومدارس دون أن تلتقي عندهم وجهات النظر. إن اتفاق الباحثين على نتائج البحث ممكن في العلوم النظرية، مستحيل بالإضافة إلى العملية ـ كالأخلاق والتشريع [3]ـ ذلك لأن الإنسان يأتي أفعاله من أجل غاية يهدف إليها، والقاعدة التي يسير الفعل بمقتضاها يجب أن تستمد كل طابعها وصورتها من هذه الغاية التي تخضع لها. ومن هنا وجب البدء بوضع غاية لتدبير أفعال الإنسان[4] .

ويقول البوطي:

«وقد قدرها قوم بقيمة السعادة الشخصية، أي بمدى ما يستفيده صاحب الفعل لنفسه بقطع النظر عمَّن تعلَّق به أثر الفعل، وينتمي هذا المذهب إلى الفيلسوف اليوناني أبيقور ويتبناه من فلاسفة العصر الحديث «هوبز». وأياً كان القصد الحقيقي لهذا الفيلسوف من وراء مذهبه هذا فإنه بلا شك مذهب جمع من حوله السفلة الساقطين على الدوام ونشأ عنه من المفاسد ما هو معلوم لكل باحث.

(1)محمد رمضان البوطي: ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية ص25.
(2)أصول الشرائع لبنتام ترجمة أحمد فتحي زغلول ص17 ج1 .
(3)كانوا يجعلون الأخلاق والتشريع من العلوم العملية وذلك منذ عهد اليونان ثم اختلف الوضع في العصور الحديثة. .
(4)مذهب المنفعة العامة للدكتور توفيق الطويل ص142

كما قدَّرها آخرون بما سموه «أكبر سعادة للنوع البشري» وهو المذهب الذي أطلق عليه اسم مذهب السعادة العامة أو مذهب المنفعة. فعند الحكم على عمل بأنه خير أو شر، يجب أن ننظر فيما ينتجه العمل من اللذائذ والآلام لا لأنفسنا فحسب بل لجميع النوع البشري، ومن أرباب هذا المذهب بينثام وجون ستيوارت مِل صاحب نظرية المنفعة(1) .

وينبغي أن نعرف أن كل مذهب من المذاهب التي تفرّعت إليها آراء هؤلاء الفلاسفة قامت من حولها عواصف من الاعتراضات والمفاسد التي لا تتناهى، وحسبك أن تعلم أن أقرب مذهب منها ـ نظرياً ـ إلى القبول وهو مذهب المنفعة العامة قوبل باعتراضات كثيرة، من أهمها أنه قد يقع التفاوت والاختلاف في قيم اللذة من حيث الكيف والكم، فقد يكون ما هو لذيذ عند شخص أو جماعة عكس ذلك عند الآخرين، وقد يكون ما هو أسمى في شموله لدى جماعة هو عينه أدنى من ذلك لدى آخرين، إذ لا معيار للمنافع والمضار عندهم إلا ما أوجدوه هم من عند أنفسهم، ومشاعر النفوس متخالفة، ومقومات الإنسانية الكاملة لدى الناس متفاوتة.

ولقد حدا هذا ببينثام أن يضع كتابه «أصول الشرائع» محاولاً فيه تحديد المنافع والملاذ بمقاييس مادية دقيقة مرتباً ما تفاوت منها محاولاً إلزام القوانين بها . غير أنه بالإضافة إلى كونه جهداً متكلفاً فيه، يعتبر مخططات وترتيبات نظرية مجردة، لا تثب ت أمام أبسط عرف من الأعراف التي تتبع من دعوة صحفية مركزة، أو غاية سياسية مقصودة، أو شهوة من الشهوات البراقة.. ويخيّل إليّ أن الذين ذهبوا إلى أن الخير والشر والفضائل والرذائل، كل ذلك يعرفه الإنسان بقوة غريزية باطنة مميزة دون أي حاجة إلى الاستعانة بميزان الم نفعة الشخصية أو العامة ـ لم يذهبوا هذا المذهب إلا هرباً من التهافت الذي وقع فيه الآخرون، وإنكاراً للفصام الذي وقع بين كلامهم النظري وواقع المجتمع العملي.

أهم خصائص المصلحة لدى أرباب النظم الوضعية كالآتي:

الخاصة الأولى : أن المعايير الزمنية التي يقيسون بها ا لمصالح والمفاسد معايير ضيقة محدودة بعمر الدنيا وحدها، ذلك أنهم لا يبصرون من وراء حدودها امتداداً لمزيد من الحياة أو لحياة أخرى. حيث يعلقون لأنفسهم هناك آمالاً يتخذون ممّا بينها وبينهم وسائل إليها.

ويقول الدكتور اسماعيل مظهر في كتابة «فلسفة اللذة والألم»:

«... إن أكثر المرافق التي تكوِّن حضارة الإنسان كالتجارة والصناعة والزراعة ونظام الأحزاب والديموقراطيات بأنواعها والحريات على مختلف ألوانها، أكثر ما تحركها الانفعالات وتقودها الشهوات وتحتكم فيها المطامع والأغراض، وأقل ما تكون خضوعاً لمحكمة الضمير، ولو أن إخضاع هذه المرافق أجدر بالنوع البشري وأجدى . ولكنك لا تجد لها من أثر إلا في المثاليات (2)..».

---

(1)الواقع أن الجنس البشري عند هؤلاء القوم يتمثل في الجنس الأبيض واليهود فقط . لأن بينثام دعى إلى استخدام الربا واستغلال البشر، وخاصة الملونين. وأما جون ستيوارت مِل فقد قضى أربعين سنة من عمره في خدمة شركة الهند الشرقية التي استعمرت الهند، وكان أحد رجالاتها المهمّين.

(2)د. إسماعيل مظهر: فلسفة اللّذة والألم ص39.

«ولا ريب أننا عندما نتساءل عن سبب هذه الظاهرة لا نجد لها إلا سبباً واحداً هو وزن الأعمال بميزان الدنيا وحدها، والحياة الدنيا إن هي إلا مجموعة انفعالات، مختلفة بل ومتضاربة في أكثر الأحيان، تقود سعي الناس في شتى المذاهب والاتجاهات».

الخاصة الثانية: أنها مقومة بقيمة اللذة المادية فقط، سواء روعي في ذلك ما تعود ثمرته على شخصية الفرد وحده أو على الشخصية العامة للمجتمع.

ولا يعارض ذلك أن المنفعة في مذهب أمثال «ستيوارت مِل» منقسمة إلى أنواع: فمنها الحسية ومنها المعنوية، ومنها الجسمية.. إلخ لأن مردها جميعاً إلى نوع واحد، وهو ما يجدر أن يسمى باللذة المادية، ورغم أن «مِل» حاول أن يثبت بالبرهان التجريبي تنوع اللذة إلى حسية ومعنوية وأن اللذائذ المعنوية ترجح في كثير من الأحيان على اللذائذ الحسية، وبيّن ذلك بما أجمع عليه الخبراء من أن الذكي لا يرضى أن يكون أبله ولا المتعلم أن يكون جاهلاً[1] ـ فإنا نقول أن اللذائذ المعنوية لا ترجح في الحقيقة على الحسية إلا لاقتناع أصحابها أن المعنوية من شأنها أن تثمر اللذائذ الحسية أيضاً، فمن منا يجهل أن الذكاء في الإنسان مفتاح يفتح له أبواب مختلف اللذائذ الحسية من غنى ورفاهية وصحة وغير ذلك حتى ولو كان حمل ذلك المفتاح يكلفه شيئاً من المشقة والجهد، ومن منا يجهل أن الجهل والبلاهة وسيلتان إلى المخاطر والآلام، حتى ولو كانتا في ظاهرهما تحملان لصاحبهما نسيماً بارداً رخياً من الراحة والأمن؟

فأرباب نظريات الأخلاق وأرباب القوانين الوضعية[2] إنما تعود موازين الخير والشر بأيديهم ـ مهما دارت ولفَّت ـ إلى القيمة المادية المحسوسة التي بها وحدها تقوم الدنيا كلها في نظرهم.

وكما تسخر فضائل الأعمال عندهم للوصول إلى الأماني والمقاصد المادية، فإن الرذائل أيضاً تستخدم لنفس المهمة، إذ لا فرق بين الرذائل والفضائل ما دام كل منهما وسيلة مجردة، ومهما يكن من فرق بينهما فإنه يسقط سقوطاً تاماً ما داما يستويان في تحقيق الغرض المطلوب.

إن فتح أبواب دور اللهو على مصاريعها، وعرض أشد المغريات الجنسية في أنحاء المجتمع، وإطلاق الخمور والمكيفات في رؤوس الناس وعقولهم ـ كل ذلك إنما يعتبر شراً في النظرة الأولى فقط، ولكنه سرعان ما ينقلب إلى خير كبير عندما يلاحظ الربح المادي الذي تثمره دور اللهو وتجنيه ضرائب الخمور (وأماكن القمار ووسائل الميسر المنتشرة لديهم).

وإذا أردت أن تعرف مدى الشعور المادي عند هؤلاء لدى تقويم المنافع فأصغ إلى «بينثام» وما يقوله في كتابه أصول الشرائع:

---

(1)ص107 و108 من كتاب الأخلاق لأحمد أمين.

(2)مرة أخرى أحب أن أذكر القارىء بأنه لا فرق بين بحوث الأخلاق ولوائح القوانين إلا في أسلوب المعالجة وحدها.

«...إن في الزينة والتحسين منفعة لأنها تساعد على جلب الغرباء في البلد: ينفقون فيها من أموالهم ويتبارزون بمتاجرهم، وكلما تقدمت الأمة في التحسين وإنشاء البلديات صار لها على غيرها شبه ضريبة يؤديها الناس بلا شعور، فالبلد التي توفرت فيها أسباب الزينة مما يروق الخاطر أشبه شيء بملهى يتوارد إليه الناس أفواجاً على اختلاف طبقاتهم ليروا ما فيه من الألعاب، ويدفعون رسماً زهيداً بالنسبة لكل واحد منهم، فيتحصل الملهى على قسم عظيم من نفقاته، وربما كان تقدّم الأمم في المحسنات وأنواع الزينة والأدب موجباً لميل الأمم إليها »[1].

إن هذا الكلام يوضح من غير شك ـ بقطع النظر عن مناقشة الفكرة ذاتها ـ الميزان الرئيسي الذي يضعه هؤلاء في الاعتبار لدى معرفة المصالح والمفاسد. كما يوضح أن من السهل تحويل كثير من الموبقات إلى مصالح ضرورية من أجل ذلك، فهو نفسه مثلاً يرى من الضروري أن يتيسر سبيل الاتصال الجنسي المطلق للخدم والبحارة والجنود والشباب من ذوي الطبقة الرفيعة وكثير من أشباههم. يقول:

«وإذا قطعت النظر عن الشبان الذين لم يبلغوا أشدهم ترى كثيراً من الرجال لا يقدرون على القيام بأعباء العائلة، فالخدم والجنود والبحري غير ممكنين من حركاتهم ورغباتهم، منقادون لغيرهم على الدوام وليس لهم مستقر معروف، وذو المستقبل من الطبقة الرفيعة ينتظر فرص الزمان لينال مالاً أو ليكتسب جاهاً حتى يستقر حاله ويتمكن من نفسه تماماً، وجميع من ذكرناهم محرومون من الزواج عائشون منفردين اضطراراً، وأول مسهل لهذه الحالة يأتي إلى الذهن هو إجازة الاجتماع لزمن محدود »[2].

وواضح أن مثل هذا القول إنما يصدر من الاقتناع بأن النفع المادي ـ سواء كان خاصاً أو عاماً ـ هو الذي ينبغي أن يكون الغرض الرئيسي من وراء سعي الفرد والمجتمع، وبناء على ذلك فإن من السهل أن ينقلب ما هو رذيلة وشر، بحد ذاته، إلى فضيلة وخير، عندما يساهم في تحقيق رخاء مادي مثلاً.

ومثل هذه النظرية هو الذي يحمل كثيراً من أرباب المعامل والمصانع الكبرى على أن يهيئوا لعمالهم تحقيق رغائبهم الجنسية في نظام لا ينخرم كما يهيئون لهم أجورهم المادية، وليس في ذلك شيء من الغضاضة ما دام أنه يساعد على تقديم أكبر قدر ممكن من الإنتاج. [قلتُ: واعتبارهم أن العاهرات في الجيش يقدمن خدمات كبرى. وقد تَمَّ إعطائهن ميداليات الوطنية في الحرب العالمية الأولى والثانية في جميع الجيوش المتحاربة (بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، روسيا، الولايات المتحدة، اليابان)].

ثم إن هذه الخاصة هي في الحقيقة نتيجة للخاصة الأولى التي مر بحثها، إذ ليس من المنتظر ممن لا يعرف أن يعرض تجارب الخير والشر إلا في الحقل الدنيوي وحده أن يفهم للمنفعة معنى غير معناها المادي المحسوس، والمنفعة المعنوية المجردة لا تنبع إلا من النظرة الدينية القائمة على أساس اعتبار حساب جدي لليوم الآخر.

---

(1)أصول الشرائع لبنثام ص273.

(2)أصول الشرائع لبنثام ص106 و107.

كما أن هذه الخاصة من مستلزمات مبدأ «حبُّ الذات » أيضاً وهو يعتبر قدراً مشتركاً يؤوب إليه معظم الباحثين في المنفعة وفلسفتها وإن بدا لأول وهلة أنهم مختلفون في هذا المبدأ.

فلا خلاف في الحقيقة بين «هوبز » حامل لواء الفلسفة الأبيقورية الفردية في العصر الحديث، وبينثام حامل لواء المنفعة العامة، في أن كلاً منهما يصدر عن مبدأ واحد، هو «الأنانية الفردية» أو «حب الذات» وأن كلاً منهما ينتهي إلى الإيمان بضرورة شمول النفع للغير أيضاً، وإن اختلفت فيما بينهما حيثيات هذه الضرورة . (انظر كتاب مذهب المنفعة العامة د. توفيق الطويل).

وإذا كانت الأنانية الفردية هي منبع المنفعة حتى عندما تقدم للغير؛ وإذا كان المراد من المنفعة إنما هو أن تبذر وسيلتها، وتحصد نتيجتها في هذه الحياة الدنيا وحدها ـ فماذا عسى أن تكون هذه المنفعة إذاً سوى اللذة المادية المجردة مهما كان الشكل الذي قُدِّمت فيه، ومهما كانت الوسيلة التي اتخذت إليها؟

الخاصة الثالثة: اعتبار الدين عندهم فرعاً للمصلحة، أي إنه يستعان به (أحياناً) من حيث كونه مؤثراً في تنفيذ وجوه المصلحة المعتبرة لديهم.

لقد عقد بينثام في كتابه أصول الشرائع فصلاً خاصاً عن كيفية وجوب استعمال المؤثر الديني بل والتصرف فيه للاستعانة به في تحقيق ما يراه علماء الأخلاق والقانون من مسالك الخير والشر، يقول فيه:

«يجب أن يكون سير الديانة موافقاً لمقتضى المنفعة، فالديانة باعتبارها مؤثراً تتركب من عقاب وجزاء، فعقابها يجب أن يكون موجهاً ضد الأعمال المضرّة بالهيئة الاجتماعية فقط، وجزاؤها يكون موقوفاً على الأعمال التي تنفعها فقط، وهذه هي القاعدة الأولية، والطريقة الوحيدة في الحكم على سير الديانة هو النظر إليها من جهة الخير السياسي في الأمة فقط، وما عدا ذلك لا يلتفت إليه[1] .

ولقد تبنى هذه النظرية ـ على نطاق واسع ـ وليم جيمس، وشرحها في كتابه «البراجماتزم» حيث دعا إلى التمسك بكل ما من شأنه أن يحقق غاية أخلاق ية سليمة، حتى ولو كان الأمر المتمسك به باطلاً في جوهره، بل ولا يهم أن يكون حقاً أو باطلاً ما دام أنه يحقق نفعاً مرغوباً فيه.

ويقول عنه الدكتور توفيق الطويل في كتابه مذهب المنفعة العامة:

«كان جيمس يهتم بالعقيدة الدينية باعتبارها ظاهرة إنسانية، وهو يريد أن ي حقق للناس السعادة، فإذا كان اعتقادهم بوجود الله كفيلاً بتحقيق سعادتهم وجب أن يعتقدوا في وجوده، وإذا أثبتت التجربة أنه يكفل سعادتهم كان هذا الاعتقاد حقاً، حتى ولو عجز العقل النظري عن أن يقيم الدليل المنطقي على أن هذا الاعتقاد حق».

(1)كتاب أصول الشرائع لبنثام ص307.

والخلاصة أن المصالح التي آ منت بها أوروبا على أيدي علماء الفلسفة الأخلاقية، ثم اتخذتها أساساً لقوانينها، مصالح تنبع من أنانية فردية غير مهذبة وإن ظهرت بمظهر السعي إلى الصالح العام، تحوم حول حاجات الجسم وشهواته وإن بدت أنها تطرق باب العقل تسأله وتستفتيه، لا تضع في حساب الوسيلة غاية م ن وراء الحياة الدنيا وإن لم تنكر الدين . ينبغي أن يعلم هذا كل باحث إسلامي كي لا يتشابه عليه الأمر ويقوده تيار التقليد باسم المرونة في الفهم وصلاحية الدين لكل وقت.

أهم خصائص المصلحة في الشريعة الإسلامية: ثلاث

الخاصة الأولى: أن الزمن الذي يظهر فيه أثر كل من ا لمصلحة والمفسدة ليس محصوراً في الدنيا وحدها بل مكوَّن من الدنيا والآخرة معاً.

وبيان ذلك أن المصلحة هي المنفعة أو الوسيلة إليها. فكل عمل أثمر لصاحبه منفعة ـ وإن جاءت الثمرة متأخرة ـ يعتبر عملاً صالحاً . ويختلف مدى تأخر الثمرة من عمل لآخر، فقد يتأخر إلى فترة قليلة كالاكتساب للرزق، وقد يتأخر إلى أكثر كزرع الأرض لجني الثمار، وقد يكون التأخر أكثر من ذلك أيضاً كمن يشحّ على نفسه في الرزق ليوفر حاجته من المال لسن الشيخوخة . وكل عمل يغلب على ظن فاعله أنه يثمر في المستقبل منفعة راجحة له يعطي حكم المصلحة، ما دام يربطه بـالمستقبل ـ بعيداً كان أم قريباً ـ حبل قوي من الأمل، غير أن المستقبل ينتهي في نظر من غفلوا عن حياة أخرى من بعد الموت، بانتهاء حياة الإنسان هذه. ولذا رأيناهم لا يضعون الأعمال إلا في معيار الزمن الدنيوي وحده ولا يمتد بهم الأمل القوي إلى ما بعد الموت بحال . أما معنى المستقبل في يقين من آمن بالله إيماناً صادقاً، لا تقليدياً على اللسان، فهو وحدة زمنية تمتد امتداداً شاسعاً إلى ما بعد الموت، بحيث تضؤل إلى جانبه قيمة هذه الحياة الدنيا كمّاً وكيفاً . والتنبيه إلى وجود هذه الحياة الآخرة هو من أهم ما بعث من أجله الرسل والأنبياء، وكتاب الله تعالى يفيض بمختلف الأدلة والبراهين على وجود هذه الحياة.

فإذا تبين ذلك، فقد أرادت حكمة الله جل جلاله أن يصل بين كل من الحياتين بوشيجة متينة، هي وشيجة السبب والمسبب، إذ أمر عباده باتخاذ حياتهم الدنيا وسيلة للسعادة في حياتهم الآخرة فقال: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ}[1] وقال {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا *}[2]. ثم بيَّن لهم كيفية التسبب في بلوغ سعادة الآخرة بإلزامهم بشريعة كاملة يتبعونها، هي مجموع ما يلتئم مع فطرة الإنسان الصافية الأولى ويضمن له في حياته هذه ـ فضلاً عن الحياة الآخرة ـ السعادة الكاملة . غير أنها في كثير من الحالات لا تلتئم مع ما قد ركب في الإنسان من شهوة جامحة وأنانية غير مهذبة يلبسان عليه الحق بالباطل . ويغشيان أمامه سبيل الفطرة الأولى والفكر السليم، ففي إناطة هذه الشريعة بالجزاء الأخروي ما يبعد الإنسان المؤمن عن تلك الأهواء ويشدّه إلى التمسك بما أمر به، على ما يجده من بعض الشدّة في مخالفة نفسه.

---

(1)سورة القصص، الآية: 77.

(2)سورة الإسراء، الآية: 19 .

وبناء على ما تتصف به المصلحة والمفسدة في الشريعة الإسلامية من هذا الشمول كان أبرز صفة من صفات الشرائع الإلهية بإجماع علمائه أنها جاءت لما فيه صلاح الناس في عاجلهم وآجلهم، أي جاءت بشريعة يلزم من تطبيقها حصول السعادة لهم في دنياهم وآخرتهم.

وبناء على ذلك أيضاً فإنه لا يجوز للباحث أن يحكم على فعل بأنه مصلحة بناء على ماله من الظواهر والآثار الد نيوية حتى يكون على بينة من آثاره الأخروية أيضاً، وذلك عن طريق النظر في نصوص الشريعة وحدودها.

ثم إنه يترتب على هذه الخاصة أمران:

الأول: أن مشروعية جميع أحكام العباد تعود إلى قدر مشترك من التعبد . على تفاوت في ذلك، حتى ولو كانت هذه المصالح متعلقة بمعايشهم ومعاملاتهم الدنيوية. وهذا ما أراده الإمام القرافي بقوله: (لا يوجد حق للعبد إلا وفيه حق لله تعالى) [1].

ومن هنا كان الإنسان مثاباً بتنفيذ ما أمر الله جل جلاله، حتى ولو كان في ذلك استجابة لداعي شهوته ما دام أنه ملاحظ تنفيذ حكمه تعالى . وهذا واضح وصريح في قوله : «وفي بضع أحدكم صدقة» [2].

ومن هنا أيضاً كان الإنسان محروماً من الثواب إذا لم يلاحظ ـ وهو يسعى إلى مصالحه المشروعة ـ الاستجابة لأمر الله، حتى ولو كان في سعيه تنفيذ لمقصد من المقاصد الشرعية . وهذا واضح وصريح أيضاً في قوله تعالى : {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ *} [النور : 39] ، وفي قوله : «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » [أخرجه البخاري ومسلم] .

ومردُّ هذا الكلام إلى أن الشارع الحكيم إنما نظّم أحكام الإسلام على أساس أن يكون اكتساب مصالح الدنيا سبيلاً لنيل سعادة الآخرة. وإنما يتمُّ هذا عندما يتخذ الإنسان من جميع مقومات حياته وسعادته الدنيوية سبيلاً وواسطة إلى اكتساب السعادة الخالدة . وذلك طبقاً لما أمر الله تعالى به في قوله : {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *} [الأنعام: 162] . ولقد نبَّه العزّ بن عبدالسلام إلى هذا في عبارات وجيزة إذ قال:

«الإنسان مكلَّف بعبادة الديان باكتساب في القلوب والحواس والأركان ما دامت حياته، ولم تتم حياته إلا بدفع ضروراته وحاجاته من المآكل والمشارب والملابس والمناكح وغير ذلك من المنافع، ولم يتأت ذلك إلا بإباحته التصرفات الدافعة للضرورات والحاجات»[3] .

الثاني: أن ما درج عليه بعض الباحثين من تقسيم الأحكام الشرعية إلى ما هو حقٌ لله وحقٌ للعباد، لا بد من حمله على محمل التجوز والتغليب فقط، إذ الأحكام كلها ـ من حيث ضرورة

---

(1)الفروق للقرافي ج141/1.
(2)أخرجه مسلم في صحيحه.
(3)قواعد الأحكام ج2 ص69..

استسلام العباد لها وارتباطها بالجزاء الأخروي ـ قائمة على أساس حق الله تعالى في أن يلزم الناس موقف العبودية له بوصفه مالكهم وخالقهم.

غير أن جميع هذه الأحكام تحمل في الوقت نفسه إلى الناس مصالحهم التي جعلها الله لهم بمحض فضله حقوقاً. فكل حكم من أحكام الشريعة قائم إذاً على أساس حقِّ الله، وكل حكم متضمن في الوقت نفسه حقاً للعباد، على تفاوت في مدى ظهور هذه الحقوق واختلاف في تعلقها بالدنيا أو الآخرة.

وانظر، فإن مماشاة هذين الحقين لبعضهما وملازمة الواحد منهما للآخر يتجليان فيما ثبت في الحديث الصحيح عن رسول الله : «حقُّ الله على العباد أن يُعبدْ ولا يُشركْ به شيء، وحق العباد على الله إذا عبدوه ولم يشركوا به شيئاً أن لا يعذبهم »[1] فقد أناط الحديث حقُّ الله على الناس في وقوفهم موقف العبودية، بكل ما يصدرون عنه من تصرفات وأعمال . وأناط حقُّ العباد في إثابتهم وإكرامهم بالتزامهم هذا الموقف من عبودية الله تعالى، فلم يبق مجال لتقسيم حقوق الأحكام بين الله وعباده.

الخاصة الثانية: أن قيمة المصلحة الشرعية لا تنحصر فيما تنطوي عليه من لذة مادية كما آلت إلى ذلك المصلحة لدى علماء الأخلاق، بل هي نابعة من حاجتي كل من الجسم والروح في الإنسان.

صحيح أن تحقق الحاجات الروحية لدى الإنسان، لا يأتي بالسهولة التي تحقق بها حاجاته الجسمية من طعام وشراب ومعاملات. لأن في العوامل الشهوانية لدى الإنسان وما سُلِّط عليه من وسواس الشياطين وما يحفُّ به من ظروف، ما يعرقل عليه السبيل إلى تحقيق حاجاته الروحية، بل ما قد يُسكِتُ صوت تلك الحاجات نفسها في بعض الأحيان. ولكن هذا لا يمنع أن يكون السعي إلى تحقيق أغراض الروح مع ذلك مصلحة ضرورية للكون وللإنسان . وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى : {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ}[2] ». ولقد سبق أن ذكرنا أن الإنسان لا يمكن أن يقف موقف العبودية لله والخضوع لتكاليفه إلا إذا قام صراع في نفسه بين الخير والشر، وهذا هو الذي يجعله مستأهلاً لثواب الله ورضوانه يوم القيامة.

فإذا ثبت هذا فلنوضح حقيقة الحاجات الروحية لدى الإنسان، بأمثلة لذلك، فقد تحدَّث كثير من الناس عن هذا البحث دون أن يوضحوه بأمثلة من الأحكام الشرعية . إن تحقيق الحاجات الروحية يتمثل باختصار ـ في تحقيق الغاية التي وضعها رسول الله دليلاً على تمام إيمان المؤمن وذلك حين قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[3] . وبيان ذلك أن إخضاع الإنسان هواه للشريعة التي جاء بها بحيث يتحول هواه عن موقفه السابق من

---

(1)رواه مسلم. والحديث من رواية معاذ بن جبل ونصه: قال رسول الله : «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد » قال الله ورسوله أعلم قال: «أن يعبد الله ولا يشرك به شيء». قال: «أتدري ما حقهم عليه إذا فعلوا ذلك» فقال الله ورسوله أعلم قال : «أن لا يعذبهم». .

(2)سورة المؤمنون، الآية: 71.

(3)رواه الديلمي. ذكره المناوي في كنز الحقائق وقد قال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ} [آل عمران/31].

المعاكسة والمعاندة إلى التحبيذ والتأييذ ـ لا بد أن يكون منسجماً مع أصل الفطرة الإنسانية، وإلا لم يكن الإسلام إذاً دين فطرة كما هو ثابت، وإذاً فقد أصبحت محاولة الإنسان التغلب على أهوائه وسوقها إلى التعود على قيود الشريعة، سعياً لتحقيق حاجاته الروحية، حتى وإن بدا له في أول الأمر أنه سعي معاكس، ومن أوضح الأدلة على ذلك أن الإنسان يجد نفسه بعد فترة قصيرة من الثبات على هذه المحاولة أمام لذائذ وسعادة دونها مختلف لذائذ الجسم والأهواء.

أما تفاصيل الأحكام المشروعة لتحقيق هذه الحاجات فكثيرة، من أهمها ما شرعه الله تعالى من وجوب مدافعة المسلم ومعالجته للأمراض القلبية، من كبر وحقد وعجب وحسد ورياء، وهذه المعالجة هي ما يعبر عنه الكتاب الكريم بالتزكية في مثل قوله تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ *}[1] . وفي مثل قوله : {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى *وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى *}[2] . ولا ريب أن الغرض من شرع هذه التزكية ليس هو الوصول إلى مزيد من الربح المادي أو اللذة الجسدية، ولكنه إبعاد ما من شأنه أن يرين على الروح الإنسانية من مث ل هذه الأمراض التي لا تتفق مع فطرتها الصافية، وهو مصلحة مستقلة بذاتها.

ويتصل بهذا ما شرعه الله تعالى لذلك، كالإكثار من العبادات والذكر والتسبيح والنوافل وقيام ساعات من الليل، فكل ذلك من شأنه أن يساعد المؤمن في محاولة سوق أهوائه في طريق الشريعة وأحكامها، ويزكي النفس من الأمراض العالقة بها، ومن أجل هذا يذكّر الله رسوله بتحقيق هذه الأحكام، كلما اطلع منه على ما قد يعتور البشر من ضيق نفسيٍّ بسبب ما كان يعانيه من شأن الدعوة، كقوله : {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ *وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ *}[3] .

ومن الأحكام التي تحقّق أعظم قسط من حاجة الروح، ضرورة الإيمان نفسه . إذ فيه إيصال للروح إلى بغيّتها المنشودة وهي التعرف على القوى المسخرة للكون لتدين لها بالعبادة والخضوع. وتلك مصلحة كبرى لا توازيها مصالح توفير الطعام والشراب واللذائذ والأموال، وإن كانت هي نفسها تعبّد الطريق للوصول إلى هذه المصالح الجسميّة الأخرى.

إنها لمصلحة هامة قطعاً في حياة الإنسان إذاً، أن يستطيع نفض ما يعلق بفطرته الصالحة الأولى من الأمراض والأوبئة، بقطع النظر عما يلزم ذلك من النفع المادي وهذا هو المراد بالحاجات الروحية لدى الإنسان. والتي تكفلت بها مصالح الشريعة الإسلامية.

هذا كله عدا مصلحة الثواب والأجر الأخروي، فقد عدَّه أناس في المصالح الروحية، غير أني أرى أن شأن الثواب لا يختلف عن شأن أي ثمرة نافعة من ثمرات سعي الإنسان في هذه الحياة، ما دمنا اعتبرنا الوحدة الزمنية التي يلتقي فيها بَذر الوسائل مع حصاد النتائج، مكونة من الدنيا والآخرة معاً . والإنسان ينتظر السعادة الأخروية . سواء المادية منها أو الروحية

(1)سورة البقرة، الآية: 151.
(2)سورة الأعلى، الآيتان: 14 - 15.
(3)سورة ق، الآية: 39.

بنفس الهوى والشهوة التي ينتظر بهما السعادة الدنيوية ما دام أنه آمن بالحياة الآخرة إيماناً لا شك فيه.

الخاصة الثالثة: أن مصلحة الدين أساس للمصالح الأخرى ومقدَّمَةٌ عليها، فيجب التضحية بما سواها مما قد يعارضها من المصالح الأخرى إبقاء لها وحفاظاً عليها . وذلك على العكس مما رأيناه معتبراً لدى علماء الأخلاق والقانون، فهم إلى جانب كونهم لا يقيمون وزناً لأمر الآخرة والدين بحد ذاته، يستغلّون ما قد يكون لدى عوام الناس من عقيدة أو فطرة دينية، للاستفادة منها في فرض أفكارهم الخاصة وما يروق لهم من المصالح الدنيوية، كما رأينا فيما مضى.

ولعل الباحث لا يشكُّ في أن هذه الخاصة من بدهيات الشريعة الإسلامية . ولكني مع ذلك أرى أن من الضروري دعمها بمزيد من الأدلة والبراهين، وذلك تذليلاً للسبيل الذي سنسلكه إلى تفنيد أوهام الذين حسبوا المصلحة ديناً ثانياً مستقلاً بذاته ينسخ من الأول ما يشاء ويبطل منه ما يريد. وسنرى عند إبطال وهم هؤلاء أن لهذه الخاصة علاقة وثيقة بقطع دابر مثل هذا الزلل.

وليس في هذا أي تعارض مع ما هو ثابت من أن الشريعة الإسلامية متضمنة بمجموعها لمصالح العباد، ذلك لأن إحراز مرضاة الله تعالى والخلود في جنته هما أعظم مصلحة على الإطلاق في حياة الإنسان، ولما كان قانون البشرية كلها يقضي بتسخير الأدنى لما هو أعلى رتبة منه، واتخاذ بعض المصالح وسائل لتحقيق بعضها الآخر بناء على قاعدة اتباع الأكثر فائدة والأعظم نفعاً، فقد كان من المصلحة نفسها أن يسخّر الإنسان جميع وجوه المنافع والمصالح الفرعية في حياته، لتحقيق ما هو أعظمها نفعاً على الإطلاق.

ومن الأدلة على هذه الخاصة، الأمور التالية:

أولاً: ما مرَّ من بيان أن الله تعالى قضى بأن يجعل الإنسان حياته الدنيا بما فيها واسطة لاكتساب السعادة في الحياة الآخرة، والأدلة على ذلك منثورة في الكتاب والسنة، وقد سبق ذكر طرف منها فلا نعود إليها بالتكرار.

الضرورات الخمس:

ثانياً: المصالح الضرورية كلها منقسمة إلى خمسة أقسام مرتّبة:

فأولها الدين، وثانيها النفس، وثالثها العقل، ورابعها النسل، وخامسها المال، أجمع على ذلك المسلمون، بل وما خلت أمة «كما يقول الغزالي وغيره إلا وكانت هذه الضرورات مرعية عندها»[1] .

وبناء على هذا الترتيب فقد قضت الشريعة بوجوب إحراز كل مرتبة من هذه المراتب الخمسة، حتى وإن قضت الضرورة بالتضحية بجزء مما دونها . فيجب المحافظة على الدين وتقويم شرعته حتى وإن استلزم ذلك فوات ما دونها وهو مصلحة المحافظة على النفس،

(1)راجع ص140 ج1 من كتاب المستصفى للغزالي طبعة مصطفى محمد، وص10 ج2 من كتاب الموافقات للشاطبي.

ومن أجل ذلك شرع الجهاد . ويجب المحافظة على النفس حتى وإن اقتضى ذلك إهمال ما دونها وهو المحافظة على العقل، ولذا كان من حق الإنسان أن يفتدي حياته بالخمر إذا أكره عليها بواسطة القتل. ويجب المحافظة على ضوابط النسل حتى وإن استلزم ذلك تفويت مزيد من المال، ولذا لم يكن من شرعة الإسلام في شيء استخدام المثيرات الجنسية التي قد تغزو المجتمع بالفوضى والانحدار الخلقي مهما يكن ذلك جالباً للربح المادي والسعة في الرزق.

وهذا الترتيب لا يعني في مجموعه سوى شيء واحد هو اعتبار المصالح الدنيوية فرعاً عن جوهر الدين الذي يقضي أولاً وآخراً بوقوف الإنسان موقف العبودية من خالقه .

ثالثاً: المصالح الدنيوية التي جاءت بها الشريعة إنما جاءت ضمن خط معين وطبق حدود مرسومة، رسمتها نصوص الكتاب والسنة والقياس الصحيح عليهما. وهذا دليل واضح على أن المصلحة إنما تقف تحت راية الدين، إذ به صحَّ شرعها وبواسطته تمَّ ضبطها . وبالتأمل في هذا ينبثق المعنى المراد من قوله تعالى : {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا }[1] وقوله تعالى : {قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا }[2] وقوله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}[3] .

وما دام الدين هو القاضي بشرعة أصل المصلحة وضبط حدودها ووضع قيودها، فليس معنى ذلك إلا أنها متفرعة عنه آتية من ورائه لاحقة بآثاره.

ويترتب على هذه الخاصة أمور ثلاثة لا بد من مراعاتها:

الأمر الأول: ضرورة سير المصالح في ظل جوهر الدين المكون من صريح النصوص والأحكام وما تمّ عليه بالإجماع، بمعنى أنه لا يجوز بناء حكم على مصلحة إذا كان في ذلك مخالفة لنص كتاب أو سنة أو قياس تمَّ الدليل على صحته، أو إجماع، إلا إجماعاً تأسس أمره على مصلحة دنيوية غير ثابتة، فيجوز أن يتغير حينئذٍ ذلك الإجماع بمثله إذا تغيرت المصلحة الأولى وقامت مصلحة غيرها. مثال ذلك ما لو أجمع المسلمون في وقت ما على ضرورة قتل الأسرى أو استرقاقهم نظراً لمصلحة تستدعي ذلك كالمعاملة بالمثل، ثم أجمعوا في وقت آخر على خلاف ذلك نظراً لزوال الحالة السابقة. ومثاله أيضاً ما لو أجمع المسلمون في عصر ما على عقد الصلح بينهم وبين الكافرين لمصلحة تستدعي ذلك، ثم رأى من بعدهم وأجمعوا على عدم الصلح لزوال تلك المصلحة.

الأمر الثاني : إن الصلاح والفساد في الأفعال، إنما يعتبر كل منهما أثراً وثمرة لأحكام الشارع على الأشياء من تحريم وإباحة وإيجاب .. وإلا لبطل أن تكون المصالح فرعاً للدين كما ذكرنا، بل تصبح حينئذٍ أساساً ينبع منه الدين، كما رأينا ذلك لدى معظم أرباب النظم الوضعية وفلاسفة الأخلاق.

---

(1)سورة الحشر، الآية: 7. .

(2)سورة البقرة، الآية: 275.

(3)سورة الأنعام، الآية: 153.

الأمر الثالث: لايصح للخبرات العادية، أو الموا زين العقلية والتجريبية أن تستقل وحدها بفهم مصالح العباد أو تنسيقها. فلا يجوز الاعتماد على ما قد يراه علماء الاقتصاد وخبراء التجارة من أن الربا لا بد منه لتنشيط الحركة التجارية والنهوض بها . ولا يصح الاعتماد على ما قد يتّفق عليه علماء النفس والتربية مثلاً من أن الجمع بين الجنسين في مرافق المجتمع يهذّب من الخلق ويخفّف شره الميل الجنسي، فهو مصلحة ينبغي تحقيقها . ولا يجوز اتّباع ما قد يراه بعض الأطباء من أن لحم الخنزير ليس بمستخبث وأن أكله لا يعقب أي آثار سيئة في الخلق أو الجسم [1].

إذ لو صحَّ ذلك لكانت الشريعة م حكومة بخبرات الناس وأفكارهم وتجاربهم الشخصية ولما صحَّ أن المصلحة فرع عن الدين فهي محكومة به ضبطاً بل ومتوقفة عليه وجوداً.

لا بدَّ إذاً أن يعرض نتاج خبرات الناس وتجاربهم وعلومهم على نصوص الشريعة وأحكامها الثابتة، فإن كان بينها اتفاق أخذ بها وكان النص هو المحكّم في ذلك. وإن كان بينها تعارض بأن كان ما رآه الناس مصلحة يعاكس النصّ الشرعي الثابت، وجب إهمال تلك المصلحة . وليس معنى ذلك أن الشارع قد أهمل هنا مصلحة للناس دلّت عليها علومهم وتجاربهم، بل المعنى أن تقدير هؤلاء الناس لهذه المصلحة لا بدّ أن يكون قد اتصل به نوع من الخلل والفساد، فنحن نتَّهم تقدير الناس ولا نتَّهم نصوص الشريعة، كيف وإن أحكام الناس لا تخلوا في غالب الأحيان عن شائبة الهوى والشهوات والأغراض، وأعظم دليل على ذلك أنهم لا يفتأون يتَّهمُ بعضهم بعضاً بذلك في صدد مثل هذه الأحكام.

أما إذا وجدنا أن نصوص الشرعية غير مُتعرِّضة لهذه التجارب والخبرات، سلباً ولا إيجاباً، فإنه يؤخذ بها، وتصبح معتمدة في حياة الناس، وتتأسس عليها الأحكام الشرعية التي ربطها الشارع بالظروف والمصالح القائمة على تلك الخبرات.

ومن أوضح الأدلة على هذا صريح قوله تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ} [2]وقوله: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً * } [3].

فقد تبين إذاً أن خبرة أولي الأمر من أرباب الحل والعقد وعلومهم معتبران فيما تُرك لهم مجال البحث والاجتهاد فيه. أما ما لم يترك فيه ذلك بأن كان حكمه ثابتاً مُبرماً، فليس الحكم فيه إلا إلى الله ورسوله. وإنما يعود بيان الرسول إلى حكم الله سبحانه وتعالى.

وما ترك المجال فيه للناس لا يعدو أحد قسمين:

---

(1)لقد ثبت ثبوتاً قطعياً ضرر الربا وضرر الاختلاط بين الجنسين، وضرر أكل لحم الخنزير وهناك مؤلفات عدة في كل واحدة من هذه النقاط الثلاث.
(2)سورة القصص، الآية: 50 .
(3)سورة النساء، الآية: 59.

(أولهما): أمور متعلقة بالدين من عبادات ومعاملات لم ينصّ الكتاب أو السنّة عليها، لارتباطها بمصالح غير ثابتة مع الزمن. فمثل ذلك ترك المجال فيه على أساس الاجتهاد بما له من شروط وضوابط معروفة. ودليله إقرار رسول الله ذلك لمعاذ حينما أرسله إلى اليمن [1] .

(ثانيهما): أمور دينوية محضة لا تعلّق لها بشيء من الأحكام الشرعية كشؤون الصناعة والفلاحة والزراعة من حيث كونها قائمة على التجارب والخبرات الطبيعية، فمثل هذه الأمور موكول شأنها إلى عقول الناس وخبراتهم ومدى ما يحرزونه من مدارك وتجارب . ودليله قول رسول الله عن مثل هذه الأمور: «أنتم أعلم بشؤون دنياكم»[2] . (انتهى كلام الشيخ البوطي).

(1)ولفظه كما أخرجه في التيسير عن أبي داود والترمذي: كيف تصنع أن عرض لك قضاء؟ قال أقضي بما في كتاب الله قال فإن لم يكن في كتاب الله قال فبسنّة رسول الله ؟ قال فإن لم يكن في سنّة رسول الله؟ قال: اجتهد رأيي لا آلو: قال فضرب رسول الله صدري ثم قال: «الحمد لله الذي وفّق رسول رسول الله ما يرضي رسول الله».
(2)رواه مسلم .

الفصل التاسع عشر
فلسفة المصلحة عند سلطان العلماء
العزّ بن عبد السلام

فلسفة المصلحة عند سلطان العلماء العزّ بن عبد السلام

(ولد في دمشق 577 أو 578 ووفاته بالقاهرة 660هـ)

ترجمة العز بن عبدالسلام (نقلاً عن د . نزيه حماد وعثمان ضميريه في مقدمتهم لكتاب قواعد الأحكام باختصار وتصرف).

أبو محمد عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام السُّلَمي، الشافعي مذهبا، الدمشقي مولدا والمصري دارا ووفاة الملقب بسلطان العلماء.

قال عنه ابن السبكي في طبقات الشافعية الكبرى[1] : «هو شيخ الإسلام والمسلمين، وأحد الأئمة الأعلام، سلطان العلماء، إمام عصره بلا مدافعة، القائم بالأمر والمعروف، والنهي عن المنكر في زمانه، المطّلع على حقائق الشريعة وغوامضها، العارف بمقاصدها».

ووصفه ابن حجر بقوله[2]: «كان عالي الهمة، بعيد الغور في فهم العلوم، درّس وأفتى، وصنَّف وبرع، حتى وصف بأنه بلغ رتبة الاجتهاد، وتخرّج به جماعة . وكان قائماً بالمعروف لا يخاف في ذلك كبيراً ولا صغيراً، مع ال زهد والتقشّف، والورع، والتفنّن في العلوم».

وكان ينتقد التعصب المذهبي ولا يتقيّد في فتاويه بالمذهب الشافعي الذي كان من أعلامه، بل يفتي بما كان يؤدي إليه اجتهاده، ويترجح عنده بالدليل[3] .

واشتهر بالورع والزهد في الدنيا، ورغم فقره إلا أنه كان كثير الصدقات، فإ ذا أتاه مال سارع بإنفاقه على الفقراء والمساكين.

قال عنه الشيخ أسعد اليافعي في مرآة الجنان [4] : «إن الإمام العز كان جبل إيمان، لا يخشى سلطاناً، ولا يهاب سطوة الملك، بل يعمل بما أمر الله ورسوله به وما يقتضيه الشرع المطهر».

وقال طاش كبرى زاده في «مفتاح السعادة»[5] : «كان يتكلم بالحقّ، ويصدع به، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وكان ينادي سلاطين مصر بأسمائهم في مجالسهم العظام عند تقبيل العلماء أيديهم، بل الأرض بين أيديهم».

وكان سبب تركه لدمشق أن سلطانها الصالح إسماعيل (حفيد صلاح الدين الأيوبي محرر القدس) قد استعان بالفرنج في محاربة نجم الدين أيوب (أيضاً حفيد صلاح الدين) وحاكم مصر. وقام إسماعيل بتسليم الإمبراطور الألماني القدس، كما سلم الفرنجة مدينة صيدا وقلعة الشقيف، فأنكر عليه العز بن عبدالسلام ذلك أشد الإنكار، فغضب منه السلطان وعزله عن

---

(1)طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي ج209/8.
(2)ابن حجر: رفع الأصر عن قضاة مصر ج351/2.
(3)اليونيني: ذيل مرآة الزمان 505/1..
(4)أسعد اليافعي: مرآة الجنان ج155/4.
(5)اليافعي: مرآة الجنان ج156/4، والسيوطي: حسن المحاضرة ج161/2، 162.

القضاء والخطابة وسجنه، ثم أطلقه فخرج إلى الديار المصرية، فأرسل له السلطان رسولاً يتلطّف به لكي يعود إلى دمشق. وقال الرسول للعزّ بن عبدالسلام: «ما نريد منك شيئاً إلا أن تنكسر للسلطان، وتقبّل يده لا غير !! فقال له الشيخ : يا مسكين ما أرضاه يقبّل يدي، فضلاً عن أن أقبّل يده. يا قوم، أنتم في واد وأنا في واد. والحمد لله الذي عافانا مما ابتلاكم به»[1] .

فلما وصل مصر استقبله السلطان نجم الدين أيوب وأكرمه وولاه قضاء مصر . وكان نجم الدين أيوب على عكس ابن عمه محارباً للصليبيين، وله معهم وقعات كبرى، ومات وهو مريض في أثناء هجوم لويس التاسع على مصر فكتمت زوجته شجرة الدر الخبر، حتى تمّ النصر وسجن لويس التاسع في دار ابن لقمان في المنصورة.

وكان السلطان نجم الدين أيوب (آخر السلاطين الأيوبيين في مصر) قوياً مرهوباً، بل كان ظالماً كثير التجبر حتى على أصحابه [2]، ورغم ذلك فقد تصدّى الإمام العزّ بن عبدالسلام لهذا السلطان بقوة، رغم أن السلطان أكرم العزّ بن عبدالسلام عند قدومه إلى مصر وولاه القضاء والخطابة.

ذكر ابن السبكي في طبقات الشافعية الكبرى أن العز بن عبدالسلام طلع إلى القلعة عند السلطان يوم العيد والعساكر مصطفون بين يديه، والأمراء تقبّل الأرض بين يديه، فضلاً عمّن هو دونهم، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه: «يا أيوب!! ما حُجَّتُك عند الله إذا قال لك ألم أبوّىء لك مصر، ثم تبيح الخمور؟ فقال السلطان: هل جرى هذا؟ قال: نعم الحانة الفلانية تباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلّب في نعمة هذه المملكة !! فقال السلطان: يا سيدي هذا أنا ما عملتُهُ. هذا من زمان أبي. فقال الشيخ: أأنت من الذين يقولون {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ} [الزخرف: 22] . فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة».

فقال تلميذ الشيخ أبو الحسن الباجي : أما خفته؟ فقال : والله يا بنيّ، استحضرت هيبة الله تعالى، فصار السلطان قدامي كالقط!! [3] .

وحكى السبكي والسيوطي أنه لما تولى الشيخ عز الدين (العز بن عبدالسلام) القضاء في مصر تصدّى لبيع أمراء الدولة من الأتراك، وذكر أنه لم يثبت لديه أنهم أحرار، وأن حكم الرّق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين، فبلغهم ذلك فعظم عليهم الخطب . وحاول نائب السلطان ثم السلطان أن يلاطفوا الشيخ كي يرجع عن رأيه فأبى، فغضب نائب السلطان وخرج مع جنده شاهراً سيفه ليقتل العزّ. فلما وصل بيت الشيخ طرق الباب فخرج ولد الشيخ فرأى نائب السلطان شاهراً سيفه غاضباً، فخرج الشيخ غير مكترث، فلما وقع بصره على نائب السلطان يبست يد النائب، وسقط السيف منها فارتعد النائب وبكى، فقال للشيخ: يا سيدي ايش تعمل؟ قال: أنادي عليكم وأبيعكم . قال: ففيم تصرف ثمننا؟ قال : في مصالح المسلمين

(1)النجوم الزاهرة ج335/6.
(2)ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج211/8.
(3)المصدر السابق.

قال: من يقبضه (أي المال)؟ قال: أنا. فتمّ ما أراد ونادى على الأمراء واحداً واحداً، وغالى في ثمنهم، وقبض الثمن وصرفه في مصالح المسلمين ووجوه الخير»[1] .

ولما تحرك التتار نحو مصر بعد أن استولوا على الشام، جمع السلطان قطز القضاة والفقهاء والأعيان لمشاورتهم فيما يعتمد عليه من أمر التتار، وأن يؤخذ من الناس ما يستعان به على جهادهم، فقال الشيخ لا يؤخذ من الناس مال إلا بعد أن تؤخذ الحلي والأموال من الأمراء والسلطان. فخضع السلطان لذلك. وبذلك العدل نصر الله المسلمين في عين جالوت . وكان يوماً مشهوداً للسلطان قطز وقائد جيوشه الظاهر بيبرس.

وكان الشيخ طوداً في العلم والزهد والأمانة والعفة والشجاعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومواقفه كلها مشهودة وقد جعل الله له الهيبة في قلوب السلاطين حتى يذعنوا لتوجيهاته، ويناديهم بأسمائهم، ويقرّعهم، مع أن العلماء فضلاً عن غيرهم كانوا يقبّلون يد السلطان، بل ويقبّلون الأرض بين يديه؟؟

مؤلفات العز بن عبدالسلام:

لقد ترك العز بن عبدالسلام ذخيرة كبيرة من المصنفات في العلوم الإسلامية مثل التفسير والفقه وأصول الفقه وقواعد الأحكام، والحديث والعقيدة وتهذيب الأخلاق . وبعضها قد طبع وبعضها لا يزال مخطوطاً.

وقد أورد الدكتور نزيه حماد والدكتور عثمان ضميريه محققا كتاب قواعد الأحكام في أفضل طبعاته، قائمة بمؤلفات الشيخ المطبوعة والمخطوطة والمنسوبة إليه بالخطأ وهي ليست له، فمن المطبوع:

(1) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز : لخّصه السيوطي وأضاف إليه زيادات وسمَّاه «مجاز الفرسان إلى مجاز القرآن».

(2) أحكام الجهاد وفضائله: تم تحقيقه مرتين، مرة بواسطة الدكتور نزيه حماد ونشرته دار الوفاء بجده، ومرة بواسطة إياد خالد الطباع ونشرته دار الفكر بدمشق.

(3) رسالة الأنواع في علم التوحيد: حققها إياد الطباع ونشرتها دار الفكر، دمشق.

(4) بداية السُّول في تفضيل الرسول: طبع عدة مرات.

(5) ترغيب أهل الإسلام في سكن الشام.

(6) الترغيب في صلاة الرغائب الموضوعة.

(7) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال : وسيتم استعراض أهم ما جاء في هذا الكتاب لتعلقه بعلم الأخلاق وهو موضوع هذا الكتاب، وقد نشر بتحقيق إياد خالد الطباع تم بتحقيق د. حسين الجبوري.

---

(1)طبقات الشافعية الكبرى ج216/8. وحسن المحاضرة ج162/2. نقلاً عن: القواعد الكبرى (قواعد الأحكام في إصلاح الأنام) مقدمة المحققين د. نزيه كمال حماد ود. عثمان ضميريه، دار القلم دمشق، 1421هـ/2000.

(8) الفتن والبلايا والمحن والرزايا (فوائد البلوى والمحن).

(9) الفرق بين الإسلام والإيمان.

(10) الفوائد في اختصار المقاصد (القواعد الصغرى) وهو اختصار لقواعد الأحكام . ونشر ثلاث مرات بتحقيقات مختلفة في الرياض والقاهرة ودمشق.

(11) فوائد في مشكل القرآن.

(12) مقاصد الرعاية للمحاسبي شرحها الشيخ العز بن عبدالسلام.

(13) مقاصد الصلاة.

(14) مقاصد الصوم.

(15) مناسك الحج.

(16) ملحق الاعتقاد.

(17) وصية الشيخ.

كتاب قواعد الأحكام: (الجوانب الأخلاقية)

وأهم كتبه دون ريب قواعد الأحكام المعروف بالقواعد الكبرى .. والكتاب مشهور لدى القدماء وتوجد منه نسخ عديدة في كثير من المكتبات استعرضها الدكتور نزيه حماد والدكتور عثمان ضميريه في مقدمة التحقيق لكتاب قواعد الأحكام.

والكتاب يُصنّف في كتب أصول الفقه ومقاصد الشريعة، وهو أول من كتب في علم المقاصد. وقد عرّفه السيد صديق بن حسن القنوجي بقوله: «علم تبيين المصالح المرعية في كل باب من الأبواب الشرعية. وهو علم يُعرفُ به حِكمةُ وضع القوانين الدينية، وحفظ النُسبَ الشرعية بأسرها. وأما موضوعه فهو النظام التشريعي المحمدي الحنيفي من حيث المصلحة والمفسدة. وأما غايته: فهي عدم وجدان الحرج فيما قضى الله ورسوله، والانقياد التام للأحكام الإلهية وكمال الوثوق والاطمئنان بها والمحافظة عليها بحيث تنجذب النفس إليها بالكلية ولا تميل إلى خلاف مسلكها» [1].

وقد أرجع الشيخ العز بن عبدالسلام الفقه كله إلى اعتبار المصالح ودرء المفاسد . وقد قال في مقدمة كتابه : «الغرض بوضع هذا ا لكتاب: بيان مصالح الطاعات والمعاملات وسائر التصرّفات، ليسعى العباد في كسبها، وبيان مقاصد المخالفات ليسعى العباد في درئها، وبيان مصالح المباحات ليكون العباد على خيرة منها، وبيان ما يقدّم من بعض المصالح على بعض، وما يؤخر من بعض المفاسد عن بعض، مما يدخل تحت أ كساب العباد، دون ما لا قدرة لهم عليه ولا سبيل لهم إليه».

(1)«أبجد العلوم» تأليف صديق بن حسن القنوجي ج143/2 نقلاً عن مقدمة كتاب قواعد الأحكام تحقيق د . نزيه حماد ود . عثمان ضميرية ـ دار القلم، دمشق 2000.

وقد أشار علال الفاسي في كتابه «مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها»[1] إلى ذلك بقوله: «والمقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، واستمرار صلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كلّفوا به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل والعمل، وإصلاح في الأرض واستنباط لخيراتها وتدبير لمنافع الجميع ... ومجموع الآيات القرآنية يبيّن بوضوح أن الغاية من إرسال الرسل والأنبياء وإنزال الشرائع هو إرشاد الخلق لما به صلاحهم وأداؤهم لواجب التكليف عليهم».

وقد اهتم علماء الإسلام بعلم المقاصد وكان سلطان العلماء العز بن عبدالسلام من الرواد فيه، ثم تبعه بعد ذلك الإمام الشاطبي وحجة الله البالغة للدهلوي ثم زاد الاهتمام بعلم المقاصد في العصر الحديث.

ويعتبر كتاب «قواعد الأحكام» مدخلاً لإيجاد نظرية عامة في الفقه الإسلامي، كما يمكن أن يكون مجالاً لعدة أطروحات عالية في مسائل خاصة تعرّض لها الكتاب.

كما يعتبر الكتاب بحق رائداً في علم الأخلاق بنظرية شبه متكاملة، وهو ما جعل الدكتور محمد عابد الجابري يفرد له فصلاً هاماً في كتابه «العقل الأخلاقي العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية».

ونجد قبل الجابري الشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي يضع رسالته للدكتوراه في موضوع المصلحة بعنوان «ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية»[2] .

وقد تعرض البوطي للنظريات الغربية الأخلاقية في المصلحة، وقد أحسن الاستعراض وقراءة الفلسفات الغربية ومصادرها اليونانية الأولى ثم انتقل إلى هوبز الإنجليزي في القرن السادس عشر ثم بعده جيرمي بينثام مؤسس هذه النظرية الحديثة (Utilitarism) في القرن التاسع عشر وتلميذه جيمس ستيوارت مِل الذي وسع النظرية من الجانب المادي المحسوس ليشمل لذات المعرفة والفن والجمال. وقد سبق مناقشة ذلك بتفصيل كاف. واهتم الجابري أيضاً بكتاب «شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال»، وقد أحسن الدكتور الجابري بإلقاء الضوء على هذا الكتاب الهام الذي لم يحظ مثلما حظي كتاب القواعد بالاهتمام من العلماء على مدى الأزمان.

دراسة موجزة لكتاب قواعد الأحكام:

وابتدأ العز بن عبدالسلام في توضيح أهداف كتابه من المقدمة، وأن مصالح الدارين مرتبطة بطاعة الرحمن كما وردت في القرآن وكلام خير بني الإنسان. وأن المفاسد كلها مرتبطة بمعصية الرحمن وتولي الشيطان.

وقد «أمرهم بتحصيل مصالح إجابته وطاعته، ودرء مفاسد معصيته ومخالفته، إحساناً إليهم، وإنعاماً عليهم، لأنه غني عن طاعتهم وعبادتهم، فعرَّفهم ما فيه رشدُهم ومصالحهم ليفعلوه، وما فيه غيّهم ومفاسدهم ليجتنبوه، وأخبرهم أن الشيطان لهم عدو ليعادوه ويخالفوه،

---

(1) علال الفاسي: مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها ص41 - 43 نقلاً عن مقدمة كتاب قواعد الأحكام المصدر السابق.

(2) د. محمد سعيد رمضان البوطي: ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت.

فرتّب مصالح الدارين على طاعته واجتناب معصيته، فأنزل الكتب بالأمر والزجر والوعد والوعيد، ولو شاء الله لأصلحهم بدون ذلك ولكنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد {وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ} [فصلت: 46] .

وقد أوضح سلطان العلماء العز بن عبدالسلام أن مصالح الدارين تُبنى في الأغلب على ما يظهر في الظنون (وهو ظن قوي راجح) قال: «وللدارين مصالح إذا فاتت فسد أمرهما، ومفاسد إذا تحققت هلك أهلهما. وتحصيل معظم هذه المصالح بتعاطي أسبابها مظنون غير مقطوع به، فإن عُمّال الآخرة لا يقطعون بحسن الخاتمة، وإنما يعملون بناء على حُسن الظنون، وهم مع ذلك يخافون أن لا يقبل منهم ما يعملون[1] . وقد جاء التنزيل بذلك في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ *} [المؤمنون: 60] .

«وكذلك أهل الدنيا إنما يتصرّفون بناء على حُسن الظنون، وإنما أُعتمد عليها لأن الغالب صدقها عند قيام أسبابها، فإن التجار يسافرون على ظن أنهم يسلمون ويربحون، والصنّاع يخرجون من منازلهم على ظن أنهم يُستعملون بما به يرتفقون . والأكّارون (الفلاحون) يحرثون ويزرعون بناء على أنهم يُستغلّون، والبغّالون (أصحاب البغال) يتصدّون للكراء لعلهم يُستأجرون... وكذلك الناظرون في الأدلة والمجتهدون في تعرّف الأحكام يعتمدون في الأكثر على ظن أنهم يظفرون بما يطلبون، والمرضى يتداوون لعلهم يشفون ويبرؤون . ومعظم هذه الظنون صادق موافق، غير مخالف ولا كاذب، فلا يجوز تعطيل هذه المصالح الغالبة الوقوع خوفاً من ندور كذب الظنون، ولا يفعل ذلك إلا الجاهلون».

وهي نظرة عجيبة واقعية ومتواضعة، فلا يجزم بشيء من الأمور في معظم هذه الأمور وهي لذلك محلّ اجتهاد ونظر وإعمال العقل في فهم النصوص وتطبيقها.

مصالح الدنيا تعرف بالعقل:

ويقول: «معظم مصالح الدنيا ومفاسدها معروفة بالعقل، وكذلك معظم الشرائع، إذ لا يخفى على عاقل ـ قبل ورود الشرع ـ أن تحصيل المصلحة المحضة، ودرء المفسدة المحضة عن نفس الإنسان وغيره محمود حسن، وأن تقديم أرجح المصالح فأرجحها محمود حسن، وأن درء المفاسد المرجوحة محمود حسن . وأن درء المفاسد الراجحة على المصالح المرجوحة محمود حسن. واتفق الحكماء على ذلك». (انتهى كلام العزّ بن عبدالسلام) وهو أمر منطقي عند الأمم جميعها إلا إذا فسدت القيم والموازين، كما يحصل في العصر الحديث . وقد اتفقت الشرائع كما يقول العز بن عبدالسلام على تحريم الدماء والأبضاع والأموال والأعراض ـ ولكن الحضارة الحديثة أباحت قتل الملايين من سكان الأمريكيتين حتى يأخذ الرجل الأبيض أراضيهم وأموالهم ونساءهم دون أي مبرر على الإطلاق . ثم قام الرجل الأبيض باستيراد مائة مليون من أفريقيا في أبشع تجارة عبيد عرفها التاريخ الإنساني كما تقرّ بذلك دائرة المعارف البريطانية (الطبعة 15 لعام 1982). وقد مات وقتل في الثورات، وفي

(1)لم يقطع بذلك رسول الله حين قال: «لن يدخل أحد الجنة بعمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته». وهذا منتهى التواضع والأخبات والعبودية لله سبحانه وتعالى حيث لا يرى العبد المِنَّة إلا لله سبحانه وتعالى، ويبقى بين الخوف والرجاء معلقاً.

المناجم، وفي التعذيب، وفي أعمال السخرة ما يقرب من سبعين مليوناً من هؤلاء الأفارقة . وتم تدمير أمم في أفريقيا الغربية بواسطة الرجل الأوروبي، عبر قرنين من الزمان. وما تلاه من قضايا الاستعمار. والشيء ذاته حصل في أستراليا ونيوزيلندة وكندا حيث تم إبادة السكان هناك إلا من بقايا قليلة استمرت إلى اليوم.

وقد قامت الحضارة الأوروبية بسرقة الشعوب كلها لحساب الرجل الأبيض، كما تم سرقة العمال والطبقات السفلى من المجتمعات الأوروبية ذاتها لصالح الطبقات الرأسمالية، والتي يتحكم فيها اليه ود. فصار اليهود في نهاية الأمر في قمة الهرم، وهم يستحلّون الدماء والأبضاع والأموال والأعراض، طالما كان ذلك ممكناً من غير اليهود، واستخدام كافة الوسائل القذرة والملتوية في ذلك. (انظر فصل الأخلاق عند اليهود من هذا الكتاب).

وأباحت الحضارة الغربية الربا ومجّدته، وهو سرقة للأموال، كما أباحت أنواع القمار والميسر، وأدخلت ذلك في ما يسمى البورصة وبيع المعدوم، وبيع المشتقات (Derivatives) الماليَّة، فتمَّ بذلك سرقة أموال الشعوب جميعها . مما جعل أغنى الدول الكبرى (الولايات المتحدة وبريطانيا ودول أوروبا) تصبح مفلسة ومديو نة بتريليونات الدولارات (التريليون: مليون مليون. وهو رقم خرافي لم يكن أغلب الناس قد سمعوا عنه قبل عشرين عاماً فقط). ولا يوجد أي أمل في تسديد هذه الديون . وكي يتم الخروج من الأزمة الاقتصادية الخانقة والانهيار الذي حدث في سوق العقار والمشتقات والأسهم، تمَّ ضخُّ مزيد من الأموال المستدانة من البنوك اليهودية (البنك الفيدرالي الأمريكي هو بنك خاص يهودي وبنك إنجلترا كذلك. وكلاهما يصدر العملات بدون رصيد من الذهب). وبالتالي سيؤدي ذلك حتماً إلى انهيار هذا النظام المالي والاقتصادي الحالي المبني على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم.

وأما الأبضاع فقد تحولت المرأة باسم حرية المرأة وحقوق المرأة إلى سلعة للاستمتاع ولترويج البضائع والإعلانات. ولا يمكن بيع سيارة أو حتى أمواس حلاقة إلا باستخدام جسد المرأة ثم لم يكتفوا بذلك، بل تم تسهيل الإجهاض إن حدث رغم شيوع وسائل منع الحمل . وأصبح من النادر جداً أن تجد في المجتمعات الغربية من قد بلغت سن الثامنة عشرة دون أن تفقد بكوريتها بواسطة الزنا . بل إن الأسرة والوالدين ينزعجان انزعاجاً شديداً إذا بلغت ابنتهما هذه السن دون أن يكون لها خليل أو عشيق أو مجرد صديق تقيم معه العلاقات الجنسية!!

ولم يكتف هؤلاء المجرمون بنشر الزنا والربا، بل قاموا بنشر الشذوذ الجنسي والدفاع عنه، وحتى صارت الحملات الانتخابية تتبارى في المحافظة على حقوق اللوطية وحقوق المساحقات. وكأن قوم لوط قد عادوا وقالوا عن لوط وآله: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ *} [النمل: 56] .

ومن أغرب ما حدث أن منصب رئيس الكنائس الأنجليكانية قد شغر في الولايات المتحدة في آخر القرن العشرين فتم انتخاب رئيسٍ للأساقفة هناك. ولكن الشخص المرشح دخل ومعه عشيقه وقال لهم: إن الرب يسوع أمرنا بالّصدق وأنا أعترف لكم بأنني على علاقة جنسية مع

صديقي هذا منذ ربع قرن من الزمان تقريباً. فإذا أردتم انتخابي فافعلوا ذلك عن بيّنة. فانتخب بأغلبية غير متوقعة لو لم يصرّح بذلك . وقد أذيعت هذه الكلمة في التليفزيونات ومنها التليفزيون CNN والتليفزيون البريطاني BBC وحظي بإعجاب الممثلين للكنيسة.

ويكفي أن نعرف أن مجلس الكنائس البريطاني أعلن عام 1966 أنه يقف ضد رأي الإنجيل في العفة قبل الزواج وبعده متى ما شكلت تلك العلاقة (الجنسية) امتزاجاً صادقاً بين شخصين. ويدعو المجلس إلى التراخي في إجراءات الإجهاض، والسماح بإعطاء وسائل منع الحمل للقاصرات حتى بدون إذن أوليائهن. وبالفعل أباح البرلمان البريطاني الإجهاض عام 1967 وتمّ التراخي في نشر وسائل منع الحمل للفتيات القاصرات حتى بدون إذن أولياء أمورهن.

خلاصة الأمر أن الشرائع كما يقول سلطان العلماء قد اتفقت على تحريم الدماء والأبضاع والأموال والأعراض، ولكن الحضارة الغربية الأوروبية عملت على إباحتها بطرق ملتوية وبأسماء براقة . وهو مما أخبرنا به المصطفى من انتشار الزنا والربا في آخر الزمان . واكتفاء الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، وأنهم يتسافدون كما تتسافد الكلاب في الأماكن العامة. ويكون أمثلهم طريقة الذي يقول : لو نحيتها عن الطريق ولا يستطيع أحد أن يتدخل في هذه الأمور باعتبارها حرية شخصية، ومن حقوق الإنسان.

ومن يفعل ذلك يتم إيداعه السجن، أو يتهم بالإرهاب، وتقوم الحرب على تلك الدولة التي تمنع الحريات الشخصية، كما حصل في أفغانستان وعلى البلاد الإسلامية التي لا تزال تطبق الشريعة الإسلامية، ولو بصورة متيسرة.

الاختيار بين المصالح والمفاسد:

وقد ذكر سلطان العلماء العز بن عبدالسلام: أن الناس إذا واجهوا مفسدتين اختاروا أقلّهما ضرراً، وإذا واجهوا مصلحتين اختاروا أكثرهما فائدة، وإذا حصل التساوي فيتخير ذوو الرأي بين المصلحتين أو المفسدتين بمعرفة أمارات دالة على الترجيح.

الأطباء والاختيار بين المصالح والمفاسد:

ويقول : «وكذلك الأطباء يدفعون أعظم المرضين بالتزام بقاء أدناهما، ويجلبون أعلى السلامتين والصحتين، ولا يبالون بفوات أدناهما، ويتوقّفون عند الحيرة في التفاوت والتساوي. فإن الطب كالشرع وضع لجلب مصالح السلامة والعافية، ولدرء مفاسد المعاطب والأسقام، ولدرء ما أمكن دروءه من ذلك. ولجلب ما أمكن جلبه من ذلك...

«والذي وضع الشرع هو الذي وضع الطب، فإن كل واحد منهما موضوع لجلب مصالح العباد ودرء مفاسدهم».

وهي نظرة عجيبة تساوي بين الطب والشرع. ولله درّ سلطان العلماء في هذا الفهم الدقيق لمصالح العباد.

قال : «واعلم أن تقديم الأصلح فالأصلح، ودرء الأفسد فالأفسد مركوز في طباع العباد نظراً لهم من رب الأرباب ». وقد صدق، إلا إذا طمست الفطرة وعمت البصيرة، وصار

الحق باطلاً، والباطل حقاً، والصلاح فساداً والفساد صلاحاً. كما قال فرعون لملأه {ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ} [غافر: 26].

وهكذا تحول فرعون الطاغية الجبار الفاسد المفسد إلى داعية للصلاح، ويريد قتل موسى حتى لا يظهر في الأرض الفساد. وقلب الحقائق هو شأن هؤلاء المجرمين المفسدين الطغاة المتجبّرين.

وأما اليوم فقد أصبحت لهم فلسفات ودعوات عالمية وصحف وتليفزيونات وإذاعات وجامعات حتى يصبح الحقُّ باطلاً، والباطل حقاً. وحتى يصبح الفساد والمنكر صلاحاً ومعروفاً.

والإمام العز بن عبدالسلام كان يتحدّث عن الفطر السليمة التي تبحث عن الأصلح فالأصلح وتدرء الأفسد فالأفسد.. وتتفق فطرهم وشرائعهم على تحريم الدماء والأبضاع والأموال والأعراض، وعلى تحصيل الأفضل فالأفضل من الأقوال والأعمال. ولكن الحضارة المعاصرة حضار دجّالية (وهي مقدمة الدجّال الذي يقلب الحق باطلاً والباطل حقاً، والفساد صلاحاً والصلاح فساداً).

المصالح الخالصة عزيزة الوجود:

ثم قال الإمام العز بن عبدالسلام: «واعلم أن المصالح الخالصة عزيزة الوجود»، وقد صدق فما من مصلحة إلا وفيها مفسدة، وما من لذّة إلا وفيها نوع ألم، ولا من سعادة إلا وفيها مشقّة.

قال: «ومصالح الدارين ومفاسدهما في رتب متفاوتة. فمنها ما هو في أعلاها، ومنها ما هو في أدناها. ومنها ما يتوسط بينهما. وهو منقسم إلى متفق عليه، ومختلف فيه.

«فكل مأمور به ففيه مصلحة في الدارين أو في إحداهما. وكل منهي عنه ففيه مفسدة فيهما أو في إحداهما. فما كان من الأكساب محصّلاً لأحسن المصالح فهو أفضل الأعمال. وما كان فيها محصّلاً لأقبح المفاسد فهو أرذل الأعمال.

«فلا سعادة أصلح من العرفان والإيمان وطاعة الرحمن. ولا شقاوة أقبح من الجهل بالديّان والكفر والفسوق والعصيان... ومعظم مقاصد القرآن الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفاسد وأسبابها. ولا نسبة لمصالح الدنيا ومفاسدها إلى مصالح الآخرة ومفاسدها، لأن مصالح الآخرة خلود الجنان، ورضا الرحمن، مع النظر إلى وجهه الكريم فيا له من نعيم مقيم. ومفاسدها خلود النيران وسخط الديان مع الحجب عن النظر إلى وجهه الكريم فيا له من عذاب أليم».

«والمصالح ثلاثة أنواع (أحدها): مصالح المباحات (الثاني) مصالح المندوبات. (الثالث) مصالح الواجبات. والمفاسد نوعان (أحدهما) مفاسد المكروهات و(الثاني): مفاسد المحرمات».

نورانية سلطان العلماء:

ويتألق الإمام العز بن عبدالسلام وهو يتحدث عن أهمية مصالح الآخرة وما يفعل الأصفياء للحصول على جنات النعيم، ثم يرتقي درجة أعلى من ذلك إلى أصفياء الأصفياء الذين عرفوا لذات المعارف والأحوال، وسعوا إلى لذة النظر إلى الوجه الكريم.. وهو مستوى سامق تحدّث عنه الإمام الجنيد، وسري السقطي، والحارث المحاسبي، والغزالي، وابن القيم، وغيرهم من الذين رقّت قلوبهم وصفت سرائرهم، ووصلت إلى مرحلة من النورانية والشفافية.

قال سلطان العلماء العز بن عبدالسلام:

«قدَّم الأولياء والأصفياء مصالح الآخرة على مصالح هذه الدار لمعرفتهم بتفاوت المصلحتين، ودرؤوا مفاسد الآخرة بالتزام بعض مفاسد هذه الدار، لمعرفتهم بتفاوت الرتبتين[1] .

«وأما أصفياء الأصفياء فإنهم عرفوا أن لذات المعارف والأحوال أشرف اللذات فقدّموها على لذات الدارين، ولو عرف الناس كلهم من ذلك ما عرفوه لكانوا أمثالهم، فنصبوا ليستريحوا، واغتربوا ليقتربوا، فمنهم من تحضره المعارف بغير تكلّف[2] فتنشأ عنها الأحوال اللائقة بها بغير تصنّع ولا تكلّف. ومنهم من يستذكر المعارف لتنشأ عنها أحوالها، وشتّان ما بين الفريقين».

«وقد يتكلّف المحروم استحضار المعارف فلا تحضره، فسبحان من عرَّف نفسه لهؤلاء بغير تعب ولا نصب، ولا استدلال ولا وصب، بل جاد عليهم وسقاهم من خالص وبله[3] ، وصافي فضله، فشغلهم به عمّن سواه، ولا مؤنس لهم غيره، ولا معتمد لهم إلا عليه، لعلمهم أنه لا ملجأ لهم إلا إليه، فرضوا بقضائه، وصبروا على بلائه، وشكروا لنعمائه، يتّسِعُ عليهم ما يضيق على الناس، ويضيق عليهم ما يتَّسِعُ للناس».

«أدبهم القرآن، ومعلّمهم الرحمن، وجليسهم الدَّيان، وسرابيلهم الأذعان . قد انقطعوا عن الإخوان، وتغرّبوا عن الأوطان، بكاؤهم طويل، وفرحهم قليل، يَرِدُون كل حين مورداً لم يتوهموه، وينزلون منزلاً لم يفهموه، ويشاهدون ما لم يعرفوه. لا يعرف منازلهم عارف، ولا يصف أحوالهم واصف، إلا من نازلها ولابسها . قد اتّصفوا بأخلاق القرآن، على حسب الإمكان، وتلك الأخلاق موجبة لرضا الرحمن وسكن الجنان في الرغد والأمان مع النظر إلى الديان»[4] .

وهذا كلام نو راني، قد جاوز الفقه الاصطلاحي، إلى الفقه عن الله . كما رأينا ذلك عند الحسن البصري ومن جاء بعده من أمثال رابعة العدوية وإبراهيم بن أدهم وحاتم الأصم وعبدالله بن المبارك وبشر الحافي وسرى السقطي والجنيد وأبي سليمان الداراني وأبي طالب المكي صاحب قوت القلوب، والحارث بن أسد المحاسبي صاحب «الرعاية لحقوق الله »،

(1)يشير بذلك إلى قول : «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات».
(2)وهو ما يعرف بالعلم الوهبي.
(3)الوبل: المطر الغزير.
(4)يشير إلى قوله تعالى: {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ *إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ *} [القيامة: 22، 23]..

والإمام محمد بن محمد الغزالي الذي تأثر بما كتباه تأثراً كبيراً ثم أضاف إلى ذلك من غزير علمه ودقة فهمه ورقة عبارته في كتبه وأشهرها «إحياء علوم الدين». وتحدث عنهم القشيري في رسالته، وعن هذه الأحوال التي يكابدونها والمقامات التي يصلون إليها، مقاماً بعد مقام، وكلها من مقامات القرب التي لا يعرفها كما قال الإمام العز بن عبدالسلام إلا من نازلها ولابسها. ثم جاء الهروي وشرح بعض أحوالهم في كتابه منازل السائرين الذي شرحه الشيخ ابن القيم في ثلاثة مجلدات تحت عنوان «مدارج السالكين» وكثير من كتب ابن القيم تدور حول هذه المعاني الشريفة والمقامات العالية والأحوال المنيفة.

وقد أوردنا فيما سبق من فصول في الكلام عن التوحيد وحديث الولي نقولات في هذا الباب من الشيخ ابن القيم والشيخ ابن تيمية والإمام الشوكاني وأئمة هذا العلم والفن وما قالوه شعراً ونثراً ومن ذلك قصائد الإمام عبدالله الحداد وقصيدة الرشفات للإمام عبدالرحمن بلفقيه وأفضنا في ذكر نقول من كلامهم.

الجابري يتجنى على أئمة العلم ويكذب:

والغريب حقاً أن نجد الدكتور محمد عابد الجابري في كتابه «العقل الأخلاقي العربي» يتجنَّى على هؤلاء القوم فيما كتبه في فصل «الشيخ والمريد»، وردّ حديث الولي الذي أخرجه البخاري في صحيحه وَقَبِلَهُ أئمة العلم. وهو فيلسوف غربي الثقافة، لا يعرف علم الحديث، وليس من حقه تصحيح أو تكذيب الأحاديث، وخاصة أنها وردت في الصحيحين .. وهو يخاطر بذلك مخاطرة تؤدي به إلى الزيغ.. ويخلط في نقده بين ما ورد من فلسفات وحدة الوجود والاتحاد، وقد رفضها أئمة القوم، وأعلنوا براءتهم منها كما سبق أن أوضحناه، وبين كلام هؤلاء الأئمة الأعلام، وقد زعم كذباً وبهتاناً أن بعض علماء الإسلام أجازوا وضع الحديث في مجال الترغيب والترهيب أي في مجال الأخلاق (ص535).

وتحامل على موضوع المجاهدة وذم الدنيا وحبّها، والانغماس فيها. واعتبر أن ذلك من غلو المتصوّفة .. والقرآن كله من أوله لآخره حافل بذم الدنيا وأتباعها وعبّادها، وكذلك أحاديث الرسول الأكرم محمد ، كلها تذمّ الدنيا وأنها لا تزن عند الله جناح بعوضة، وأنها جيفة يتقذّرها المؤمن، وأن الدنيا طريق للآخرة ومعبر ونحن مسافرون عنها. «وكن في الدنيا كأنك غريب». إلى آخر الأحاديث التي استعرضنا بعضاً منها فيما سبق من فصول.

وتحامل جداً على أبي طالب المكي في كتابه العظيم «قوت القلوب»... وخلط بين نظريات وأقوال ما يسمى الكتاب المقدس (التوراة المحرفة والإنجيل) وقصة الخطيئة الأصلية... وهو كلام يدلُّ على حقد أعمى وجهل لا حدود له.

كما تحامل جداً على الغزالي .. وأخرج الحارث المحاسبي من أئمة التصوف، مع أن المتصوفة جميعاً يجعلونه من أئمتهم ويعتبرون كتابه «الرعاية لحقوق الله» أحد مراجعهم.

ونراه يتحامل أيضاً على الحارث المحاسبي لأنه نسى حقوق العباد، واهتم بحقوق الله فقط وأشاد بالعز بن عبدالسلام لأنه ذكر حقوق الله باختصار شديد حسب زعمه، وركز على حقوق العباد.. وأنكر نورانية العزّ ابن عبدالسلام. وما أوردناه من كلامه يردُّ عليه، ويجعله من الأئمة النورانيين الذين جمعوا العلم والعمل، والزهد في الدنيا وقول الحق في وجه الحكام

والسلاطين.. وله من الكرامات الشيء الكثير. وقد أوردنا أن نائب السلطان ذهب شاهراً سيفه ليقتله ومعه ثُلَّة من الجند، فلما خرج عليه الشيخ يبست يده وسقط السيف من يده .. والشيخ لا قوة له ولا حول ولا أنصار ولا جنود، ولا سيف ولا رمح .. وذلك كرامة واضحة .. وكان يصيح على السلطان نجم الدين أيوب: يا أيوب ما حجّتك عند الله إذا قال لك ألم أبوَّىء لك مصر ثم تبيح الخمر؟

والسلطان الذي يرتعد منه الأمراء والعلماء ويقبّلون الأرض بين يديه، يت صاغر حتى يقول: يا سيّدي هذا أنا ما عملته. هذا من زمان أبي فيأتي الرد مزلزلاً أأنت من الذين يقولون: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ} [الزخرف: 22].

وكم من موقف له يدل على الكرامة والحفظ، وهو يبيع الأمراء من المماليك ويقبض ثمنهم ويودعه بيت المال، ثم يصرفه في مصالح المسلمين.

الجابري يحول العز إلى فيلسوف المصلحة والنفعية:

ومع ذلك كله نجد الجابري يحوّل الإمام العز بن عبدالسلام إلى فيلسوف المصلحة وكأنه يتحدث عن جيرمي بينثام وجون ستيوارت مِل .. ولم يفهم الجابري الفروق الأصلية بين المصلحة التي دعا إليها علماء الإسلام وتمثّلها الإمام العزّ بن عبدالسلام وبين المصلحة في الفلسفة الأوروبية.

وقد أوضح العزّ اشتراك البشر جميعاً في الاهتمام بالمصلحة وأن ذلك ضمن الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها، ولكن شتّان بين من يجعل همّه كله هذه الدنيا، وبين من يجعل همّه الأول رضوان الله تعالى والشوق إلى لقائه والنظر إلى وجهه الكريم . هذه مقامات لا يستطيع أن يدركها أو يفهمها أو يستسيغها من قضى عمره كله في دراسة الفلسفات اليونانية والأوروبية وفي تدريسها. فهو أمر خارج عن نطاق تفكيره المادي، والدنيوي، فكيف بالله يمكن أن نطلب من ال دكتور الجابري أن يفهم هذه المقامات العالية والأحوال المنيفة التي تحدّث عنها العزُّ بن عبدالسلام أو أبو طالب المكي أو الحارث المحاسبي أو الغزالي ... إلخ.. إلخ .. فثقافة الرجل لا تسمح له بفهم هذه الأشياء وتذوّقها وإدراكها، بل تجعله يخلط في فهمهما خلطاً شديداً.

ويكفي أنه قد أنصف الإمام العزّ بن عبدالسلام إلى حدٍّ بعيد، ولكنه حصره في مصالح الدنيا. وحاشا للعزّ بن عبدالسلام أن ينحصر فيها، بل قد نبَّه العزُّ على خسران من نظر إلى مصالح الدنيا دون أن ينظر إلى مصالح الآخرة. فقد قال: «ولا نسبة لمصالح الدنيا ومفاسدها إلى مصالح الآخرة ومفاسدها، لأن مصالح الآخرة خلود الجنان، ورضا الرحمن، مع النظر إلى وجهه الكريم فيا له من نعيم مقيم، ومفاسدها خلود النيران وسخط الدّيان، مع الحجب عن النظر إلى وجهه الكريم، فيا له من عذاب أليم».

مصالح الآخرة لا تعرف إلا بالشرع:

قال العز بن عبدالسلام: «أما مصالح الآخرة وأسبابها، ومفاسدها وأسبابها، فلا تعرف إلا بالشرع، فإن خفي منها شيء طُلب من أدلّة الشرع، وهي الكتاب والسنّة والإجماع والقياس المعتبر والاستدلال الصحيح».

«وأما مصالح الدنيا وأسبابها، ومفاسدها وأسبابها فمعروفة بالضرورات والتجارب والعادات والظنون المعتبرات، فإن خفي شيء من ذلك طُلب من أدلته».

ولا شك أن العقل السليم الذي وهبه الله للإنسان مع الفطرة المستقيمة ستدلُّ الإنسان على المصالح ليجتنيها، وتعرّفه على المفاسد ليجتنبها . ولكن الفطر قد ران عليها ما يغطّيها من التهويد والتمجيس والتنجيس ح تى صارت ترى الحق باطلاً، والباطل حقاً، والمعروف منكراً، والمنكر معروفاً، ونادوا كما نادى فرعون من قبل {ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ} [غافر: 26] .

وهكذا تحول فرعون الطاغية الفاسد المفسد إلى داعية للإصلاح ويريد قتل موسى حتى لا ينشر في الأرض الفساد.

وكم نرى اليوم من أمثال فرعون يهتدون بهديه ويقولون مقولته. بل الحضارة الغربية كلها على هذا المنوال بصورة ذكيَّة ماكرة، تحوّل الباطل إلى حق، والحقّ إلى باطل، والمنكر إلى معروف، والمعروف إلى منكر مما ذكرناه وأوضحناه.

في بيان حقيقة المصالح والمفاسد:

قال العزّ بن عبد السلام : «المصالح أربعة أنواع : اللذات وأسبابها، والأفراح وأسبابها . والمفاسد أربعة أنواع: الآلام وأسبابها، والغموم وأسبابها. وهي منقسمة إلى دنيوية وأخروية فأما لذات الدنيا وأسبابها، وأفراحها وأسبابها، وآلامها وأسبابها، وغمومها وأسبابها فمعلومة بالعادات. ومن أفضل لذات الدنيا لذات المعارف وبعض الأحوال [1] ، ولذات بعض الأفعال في حقّ الأنبياء والأبدال. فليس من جُعِلَت قرّة عينه في الصلاة، كمن جُعِلَت الصلاة شاقّة عليه. وليس من يرتاح إلى إيتاء الزكاة كمن يبذلها وهو كاره لها.

وأما لذات الآخرة وأسبابها، وأفراحها وأسبابها، وآلامها وأسبابها، وغمومها وأسبابها فقد دلَّ عليها الوعد والوعيد والزجر والتهديد».

ولا شك أن الناس متفاوتون في طلب اللذات «فمن طلب لذات المعارف والأحوال في الدنيا ولذة النظر والقرب في الآخرة، فهو أفضل الطالبين، لأن مطلوبه أفضل كل مطلوب ومن طلب نعيم الجنان وأفراحها ولذّاتها، فهو في الدرجة الثانية. ومن طلب أفراح هذه الدار ولذَّاتها فهو في الدرجة الثالثة. ثم يتفاوت هؤلاء الطلاب في رتب مطلوباتهم، فمنهم الأعلون، ومنهم الأدنون، ومنهم المتوسطون...».

---

(1)وهذا مما انتقده بوشامب وشيلدرس على النظرية النفعية عند بينثام وجون ستيوارت ومِل وأضرابهم وقد أوردنا نقده فيما سبق . وهو لم يقصد من المعارف إلا الأبحاث العلمية المادية . لأن المعارف والأحوال التي يتحدث عنها العزّ بن عبدالسلام خارج نطاق تفكير هؤلاء الغربيين وأبعد شيء عن إدراكهم وفهمهم.

«وعلى الجملة فمن أقبل على الله أقبل الله عليه، ومن أعرض عن الله أعرض الله عنه، ومن تقرّب منه شبراً تقرّب منه ذراعاً، ومن مشى إليه هرول إليه، ومن نسب شيئاً إلى نفسه فقد زلَّ وضلّ. ومن نسب الأشياء إلى خالقها المنعم بها كان في الزيادة، فإن الله يقول {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ} [إبراهيم: 8] {وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: 145] .

«وأفضل ما تُقُرِّبَ به التذلّل لعزّة الله، والتخضُّع لعظمته، والانحشاش (أي الاستحياء) لهيبته، والتبرّىء من الحول والقوّة إلا به . وهذا شأن العارفين . وما خرج عنه فهو طريق الجاهلين».

أنواع المصالح:

قال: «المصالح ضربان : أحدهما حقيقي وهو الأفراح واللذات، والثاني : مجازي، وهو أسبابها» .

وربما كانت أسباب المصالح مفاسد، فيؤمر بها أو تباح، لا لكونها مفاسد، بل لكونها مؤدية إلى المصالح، وذلك كقطع الأيدي المتآكلة حفظاً للأرواح، وكالمخاطرة بالأرواح في الجهاد (حفاظاً على الدين وديار المسلمين).

«وكذلك العقوبات الشرعية كلها ليست مطلوبة لكونها مفاسد، بل لأدائها إلى المصالح المقصودة من شرعيتها كقطع يد السُرَّاق، وقطَّاع الطريق، وقتل الجُناة، ورجم الزناة، وجلدهم وتغريبهم وكذلك التعزيرات. كل هذه مفاسد أوجبها الشرع لتحصيل ما رُتِّبَ عليها من المصالح الحقيقية. وتسميتها بالمصالح من مجاز تسمية السبب بالمسبب ». (انتهى كلام العز).

قلتُ: إن الحضارة الغربية اعتبرت كل هذه العقوبات مفاسد لا فائدة منها، بل جرائم كبرى ووحشية. وتبعهم في ذلك العلمانيون من أبناء المسلمين وذراريهم، وتحدثوا بصراحة عن وحشية قطع يد السارق، وفظاعة رجم المحصن الزاني، وجلد الزاني غير المحصن . والزنا (العلاقات الجنسية بما فيها الشذوذ من اللواطة والمساحقة) كلها أمور شخصية ولا يحق لأحد أن يعاقب عليها متى كانت بالرضا بين شخصين بالغين عاقلين . ومعظم القوانين في بلاد المسلمين عرباً وعجماً قد نحت هذا المنحى . وهي لا تعاقب مطلقاً لا على الزنا ولا على اللواط ولا غيرهما من الموبقات مثل شرب الخمور . وكل هذه القوانين تبيح الربا وتتعامل بواسطته، وتشيد به، وتعاقب كل من اعترض على هذه القوانين، وتدخله السجن وتعذّبه عذاباً أليماً، يصل إلى القتل والتشريد والنفي .. وكل القوانين الوضعية الغربية قد اعتبرت عقوبة القتل للقاتل أمر وحشي واستبدلته بالسجن المؤبد أو الطويل المدى .. ولا عقوبة مطلقاً على الزنا واللواط متى تمّ بالرضا. أما في حالة الاغتصاب فالعقوبات في الغالب الأعم تافهة ولا تتجاوز التوبيخ، وفي أقصى الحالات السجن. وشرب الخمور مباح ومقنّن، وعليه ضرائب تدخل ميزانية الدولة، بل هناك ضرائب على المومسات ودور البغاء، ويشكّل ذلك جزءاً من دخل الدولة. وهو أمر ليس مقصوراً على الدول ا لكافرة، بل قد عمّ البلاء حتى صار هو القاعدة والأساس في معظم بلاد المسلمين.

وقد وصل الأمر إلى أن مجرد محاولة الحدّ من البغاء والدعارة في تركيا، من قبل الحكومة الحالية (أردوغان) أدّت إلى استنكارات وشجب من العلمانيين والدول الأوروبية مما اضطر الحكومة إلى التراجع عن موقفها، حتى لا تتهم بالأصولية!!

كما أن مجرد قيام إحدى السيدات بلبس منديل على رأسها في البرلمان التركي، أدى في الحكومة السابقة إلى احتجاج أعضاء البرلمان، وطردها منه، رغم أنها فازت عبر الانتخابات الديمقراطية!!

بطبيعة الحال لا يعلّق العلمانيون المعتدلون من أمثال الجابري على هذه المآسي، ولا على عبارات العزّ بن عبدالسلام التي ترى المصلحة كل المصلحة في قطع يد السارق، ورجم الزاني المحصن وجلد غير المحصن .. إلخ. وإنما يختار ما يريد من كلام الإمام العزّ بن عبدالسلام ويوهم القارىء أن العزّ بن عبدالسلام جعل المصلحة التي يحدّدها العقل والتجربة هي الحَكَم في كل هذه الأمور.

وبعد أن استعرض الجابري ما ذكره العزّ بن عبدالسلام من أنواع الحقوق وهي أربعة : حقوق الخالق، وحقوق الإنسان على نفسه، وعلى غيره (حقوق العباد) وحقوق الحيوان والرأفة به ومداواته إذا مرض، قال الجابري: «حسبنا أن نذكر أنه (أي العزّ بن عبدالسلام) ينظر إلى أفعال الإنسان المسلم من زاوية المصالح والمفاسد، سواء كانت تخصُّ الدنيا وحدها أو الآخرة وحدها، أو تخصهما معاً . وهو ينظر إلى هذه الأفعال كلها، أفعال الإنسان من زاوية أداء الحقوق : حقوق الله، وحقوق الناس بعضهم على بعض، وحقوق الحيوان على الإنسان، والهدف هو رسم الصورة الأخلاقية لأداء هذه الحقوق.

«غير أن ابن عبدالسلام لا يحصر الأخلاق في هذا المستوى من الوجود البشري، الذي هو مستوى العلاقة مع الغير (العلاقة مع الله، ومع الذات، ومع الناس، ومع الحيوان)، بل ينظر أيضاً إلى الفعل الأخلاقي بوصفه إحساناً، أي فعل الحسن والأحسن، سواء في العلاقة مع الخالق أو مع النفس أو مع الحيوان. ذلك أن جلب المصلحة ودرء المفسدة فعل يمكن أن يكون على كيفيات عديدة . والكيفية الأحسن هي الإحسان . فالإحسان في منظور ابن عبدالسلام لا يعني فقط فعل الخير، كالصدقة على الفقير، بل الإحسان هو فعل كل مباح أو مندوب إليه أو مأمور به على الوجه الأحسن والأفضل» [1].

وقد أجاد الجابري وأحسن في هذا القول . واعتبر أن كتاب «شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال» هو مجال بحث الإحسان في كل عمل من الأعمال.

كتاب شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال للعز بن عبدالسلام:

قال الجابري : «قد يفهم من عنوان الكتاب لأول وهلة أنه كتاب في التصوف والزهد فعبارة «المعارف والأحوال» من لغة التصوف، كما أن عبارة «صالح الأقوال والأفعال »

(1)د. محمد عابد الجابري : العقل الأخلاقي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية (نقد العقل العربي /4)، بيروت ط2/2006 ص605 - 60.

من لغة الزهاد والنساك، لذلك صنّفه محقّقه على رأس قائمة مؤلفات العزّ في العقيدة والزهد والرقائق» وقد أنكر الجابري ذلك وقال إن الكتاب في الأخلاق.

ولم يفهم الجابري قطّ ارتباط الأخلاق بالزهد وتربية النفس، وهو ما سعى إليه أهل التصوف السنّي من أيام الحسن البصري، وإبراهيم بن أدهم والجنيد وبشر الحافي وسري السقطي والحارث المحاسبي، وأبي طالب المكي والغزالي وابن القيم .. إلخ ولا خلاف هناك بين كتب الأخلاق وكتب الزهد والأدب (أدب النفس) والتصوف، فكلها تسعى إلى تهذيب النفوس وتربيتها وصقلها من أدرانها. ولكن أنّى للجابري أستاذ الفلسفة الغربية والتي قضى في رحابها أكثر عمره أن يفهم ذلك.

على كل حالٍ وضعُه كتابيّ الإمام العز بن عبدالسلام «قواعد الأحكام » و«شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال» في قائمة كتب الأخلاق أمر جيّد، ولا غبار عليه.

قال العز في كتابه «شجرة المعارف والأحوال»:

«ومن فهم ضوابط هذا الكتاب، ووقف على حقيقة المصالح، وانحصارها في جلب المصالح ودفع المضار، وعلى حقيقة المفاسد وانحصارها في جلب الضرر ودفع النفع، وأنه لا فرق في ذلك من قليله وكثيره، جليله وحقيره، لم يكد يخفى عليه أدب من آداب القرآن، ولا سيما إذا اتضحت وتمحّضت المصالح والمفاسد أو ظهر رجحانها».

لذلك وضع فصلاً في آداب القرآن . والمقصود بالمعارف عند العز بن عبدالسلام هو معرفة الله سبحانه وتعالى ومعرفة صفاته وثمرة هذه المعرفة التخلّق بأخلاق القرآن.

وصفات الله سبحانه وتعالى يقسّمها علماء التوحيد (أو علم الكلام) مع بعض الاختلافات التي لا تؤثر[1] إلى ثلاثة:

(الأول): صفات النفي أو السلوب: وهي نفي كل عيب أو نقص عن الله سبحانه وتعالى.

(الثاني): صفات الذات: وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر.

(الثالث): الصفات الفعلية: كالضّرر والنفع والغفر والستر والرزق، والعطاء والمنع .. إلخ وهي كثيرة جداً.

قال العزّ: «وتثمر كل شعبة من هذه الشعب لما يناسبها من الأحوال، ولما يلائمها من الأقوال والأعمال، فعارف الجمال محبّ، وعارف الجلال هائب... فالمعرفة أصل لكل خير، ومصدر لكل برّ، ومصرف لكل شرّ، مع شرفها بنفسها ومتعلقها وثمرها وأجرها . وأفضل الأحوال ما نشأ عن أشرف المعارف، وأفضل المعارف ما تعلّق بالله وحده».

---

(1)قال بعض العلماء إن الصفات الواجبة تنقسم إلى أربعة أقسام : نفسية وسلبيّة ومعاني (على قول)، ومعنوية (على قول آخر). والنفسيّة هي التي لا تتحقّق الذات إلا بها، وهي الوجود فقط. والسلبية هي التي تنفي أضدادها، وهي القدم، والبقاء، والمخالفة للحوادث، والقيام بالنفس والوحدانية. والمعاني هي الصفات الوجودية بااعتبار ذاتها لا باعتبار تعلّقها بصفة، وهي سبع: القدرة والإرادة والعلم والحياة والكلام والسمع والبصر (وهي صفات الذات). والمعنوية هي التي تلازم المعاني وهي السبع الباقية (المذكورة آنفاً) [ذكره العلامة السيد محمد أحمد الشاطري في كتابه «دروس التوحيد»]..

وأخلاق القرآن تقوم على التحلّي بما يمكن وما يجوز للإنسان أن يتحلّى به من صفات الله سبحانه وتعالى ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً.

أما الذات الإلهية فيجب التخلّق إزاءها بخصائص العبودية والذل والإذعان . أما الصفات الإلهية فبعضها لا يمكن للإنسان أن يتخلّق بها كالأزلية والأبدية والغنى عن العالمين . ومن الصفات الإلهية ما لا يجوز التخلّق بها مثل العظمة والكبرياء (العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني إزاري وردائي قصمته).. ولا يجوز للإنسان أن يتكبر على خلق الله . والكبر من صفات إبل يس اللعين الذي تكبّر أن يسجد لأبينا آدم . وهو صفة إبليس وأتباع إبليس على مدى الأزمان.

وقد ورد الحث على التخلّق بصفات الجود والحياء والعلم والوفاء والكرم والعفو، وذلك حسب الإمكان. وهذه الصفات هي لله على أعلى درجات الكمال، وللإنسان أن يقترب منها على قدره كمخلوق ضعيف لا قوة له إلا بالله».

والتخلق بصفات الله تعالى يشمل التخلق بالصفات الإيجابية، فالله سبحانه وتعالى هو المحسن أمر بالإحسان متفضّل أمر بالإفضال، نافع أمر بالنفع، غفّار أمر بالغفر، ستّار أمر بالستر، حليم أمر بالحلم، عليم أمر بالعلم، حكيم أمر بالحكمة، رحيم أمر بالرحمة، صبور أمر بالصبر، شكور أمر بالشكر، قدّوس أمر بالقدس (أي التطهر)، سلام أمر بالسلام.

وأما أوصاف السلب (النفي) فنفي النقص والعيب والحدوث عن الله سبحانه وتعالى ونفي الوالد والولد والزوجة والندُّ والشريك، فصفاته متوحّدة بالأزلية والأحدية، والاس تغناء عن الموجب والموجد، وعن الشبيه والنظير. وبالتالي ليس لبشر (أو أي مخلوق كان) أن يتصف بشيء من هذه الصفات.

وأما أوصاف الذات. فإن منها ما لا يمكن أن يتصف بها مخلوق وهي القدرة والحياة فهي لله وحده. أما سائر صفات الذات كالعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام فإن على البشر أن يتخلّقوا بها حسب ما قرّره الله لهم فلا يسمع إلا ما أراد الله له أن يسمعه ولا يرى إلا ما أراد الله أن يراه (وأن يحمي سمعه وبصره عن كل ما حرّمه الله) وكذلك صفة الكلام فلا يتكلم إلا بما أحلّه الله له ودعاه إليه وأن يمتنع عن كل ما منعه الله من ه من الغيبة والنميمة وقول الزور.. إلخ.

الإحسان وأنواعه:

وبالجملة ينبغي التخلق بما يمكن ويجوز من أسماء الله الحسنى .. وأما التخلق بأفعال الله كما تحدّث عنها القرآن فيمكن تلخيص ذلك في الإحسان إلى عباد الله بمثل ما أنعم الله عليك به. وقد صنّف العز بن عبدالسلام الإحسان إلى الإحسان العام، والإحسان الشرعي والإحسان بإسقاط الحقوق، والإحسان ببذل الأموال، والإحسان بالأخلاق والأعمال، والإحسان بالأقوال، والإحسان بالدعاء.

والإحسان من صفات الله سبحانه وتعالى . وقد أمرنا أن نتخلّق بها . «أمر الله سبحانه وتعالى بالعدل والإحسا ن وبالمساعدة عليهما، ونهى عن كل إثم وعدوان وعن المعاضدة

عليهما، مرغّباً في قليل الخير وكثيره، ومرهّباً من جليل الشرّ وحقيره ... وكتب الإحسان على كل شيء حتى النملة والنحلة، وأمر بإحسان الذبحة والقتلة وإحداد الشفرة وإراحة الذبيحة. وأمر بإحسان عبادته بأن نعبده كأنا نراه، لنعظّمه تعظيم من نقبل عليه وننظر إليه، فإن لم نكن نراه فهو يرانا».

والإحسان نوعان حسب من نتوجه به إليه . (الأول) نوع نتوجه به إلى أنفسنا وهو يعود علينا لا يتعدّانا إلى سوانا، كأداء الواجبات وإراحة النفس.. إلخ فهذا إحسان قاصر و (الثاني) يتعدّانا إلى غيرنا في العاجل أو في الآجل، أو فيهما معاً . وهذا إحسان متعدٍّ . والإحسان المتعدّي يتعلّق بالقلوب والأبدان. فإحسان القلوب بإرادة كلِّ نفع للعباد، فإن الإرادة سبب ذلك. وكذلك بالصبر عن المظالم. وبأن تحبّ لكل مسلم ما تحبُّ لنفسك ... وإحسان الأبدان يندرج إلى أقسام : (أحدها) نقل الملك بالهبات والصدقات و (الثاني): إباحة المنافع والأعيان كالعواري (جمع عاريّة) والضيافات و (الثالث): الإسقاط كالعتق والإبراء من الديون والقصاص والحدود وسائر العقوبات و (الرابع): الإعانة على الطاعات بتعليمها وتفهيمها والمساعدة على فعلها.. و(الخامس): إعانة بكل نفع عاجل أو آجل، فعلي أو قولي، كالإعانة بالبناء والخياطة.. إلخ و(السادس): حسن الأخلاق كإظهار البشر، وطلاقة الوجه والتبسّم في وجوه الإخوان. و(السابع): إحسان الإحسان: وهو أن يُفعل على أعلى مراتبه، خالياً من الشُبه والأذيّة، والعيوب، والإذلال والمنَّة.

وإلى جانب الإحسان العام، القاصر منه والمتعدي . هناك الإحسان الشرعي، وهو الذي تتحدث عنه، كتب الفقه وهو أنواع : (فرض عين) كالزكوات والنفقات، (وفرض كفاية) كالجهاد وتجهيز الأموات . (وسُنَّة عين) كالضحايا (أي الأضحيات) والهدايا (ما يهدى في الحج) والصدقات، (وسُنَّة كفاية) كتسليم أحد الجماعة على من يمرّون به من الآحاد والجماعات، هذا إضافة إلى آداب كل منها وما يستحبّ فيها . والإحسان المتعلّق بالمعاملات وهو أصناف كثيرة كالمسامحة في الأعواض [1] ، والصدق في وصف الأعواض وأثمانها، والمسامحة في وصف الثمن، كإمهال الموسر والتجاوز عن المعسر، والتجاوز في النقد [2] ، واجتناب الشبهات، وبيان عيوب الأعواض، وإقالة النادم، وأن لا يبيع على بيع أخيه... إلخ.

ومن أنواع الإحسان الشرعي الإحسان إلى الرقيق في حسن المعاملة والتأديب بآداب الشرع وإعفاف ذكورهم بالإنكاح ونسائهم بالتزوي ج أو الوطء (لصاحب اليمين). والصفح عن الذنوب والإغضاء عن العيوب. وقد كان التاريخ الإسلامي ناصعاً في معاملة العبيد وقد صار من هؤلاء الموالي أغلب علماء الأمة الذين يشار إليهم بالبنان، كما صار منهم الملوك والقادة. فابن طولون عبد من عبيد المعتصم، وهو مؤسس الدولة الطولونية في مصر والشام، والأشفين قائد جيوش الإمبراطورية الإسلامية في العصر العباسي عبد .. والإخشيد ملك مصر والشام عبد وقد أقام دولة في مصر والشام، والدولة الخوارزمية أقامها عبد، والدولة الغزنوية مؤسسها عبد. وكم من الدول في العالم الإسلامي أقامها من كانوا عبيداً وتمّ إعتاقهم

(1)الأعواض: جمع عوض وهو كل ما يتعاوض به من البيوع.
(2)النقد: المقصود به الدراهم من الفضة والدنانير من الذهب، وكانت تتفاوت في قيمتها بسبب جودة صناعتها، والتجاوز يكون بقبول النوع الأقل جودة في مقابل الأكثر جودة، وربما قبل النوع الرديء منها حتى لا يحرج المشتري.

وتوليتهم المناصب . وأشهر هذه الدول دول المماليك البحرية وهم عبيد مجلوبون من التركستان وغالباً من منطقة (قازاقستان الحالية). والمماليك البرجية كانوا من القوقاس من الشركس. وهؤلاء جميعاً حكموا العالم الإسلامي مئات السنين . ولا يوجد في تاريخ البشرية مثل ذلك أو قريب منه أو حتى قلامة ظفره. ويكفي أن نعرف أن عدد الخلفاء العباسيين كانوا أربعة وثلاثين. اثنان وثلاثون منهم كانت أمهاتهم من الجواري (أمهات ولد).. وكانت لهؤلاء الجواري السطوة والحظوة في القصور على مدى التاريخ الإسلامي من العهد الأموي إلى آخر العهد العثماني.

ولقد حرّر الإسلام العبيد والإماء وحثّ على ذلك أيّما حث، وجعله كفارة كثير من الذنوب، وعلامة على الإحسان «فمن أدَّب جارية فأحسن تأديبها، وغذَّاها فأحسن غذاءها، ثم أعتقها وتزوجها آتاه الله أجره مرتين. كما يقول العز بن عبدالسلام مشيراً بذلك لحديث البخاري في صحيحه.

وفي حديث آخر «فك الرقاب من أفضل القربات لأنه يُعتق بكل عضو من المُعَتَّقِ عضواً من المُعْتِقْ من النار حتى فرجه بفرجه » [أخرجه البخاري في صحيحه] . كما قال : «إذا صنع لأحدكم خادمه طعامه ثم جاءه به، وقد تولى حرّه ودخانه فليقعده معه فليأكل، فإن كان الطعام مشفوهاً قليلاً فليضع في يده منه أكلة أو أكلتين» .

وقال : «لا يقولنَّ أحدكم عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل غلامي وجاريتي، وفتاي وفتاتي . ولا يقل العبد لسيده : مولاي، فإن الله مولاكم . ولا يقولنّ أحدكم: اسقِ ربّك، أطعم ربك. ولا يقل أحدهم ربّي» [أخرجه البخاري] .

ولا باب للمقارنة بين ما كان في الإسلام من نظام راق لهؤلاء الأرقاء وحسن معاملتهم حتى أصبحوا جزءاً من الأسر المرموقة، وكوَّنوا دولاً وحكومات وكان منهم أعلام الأمة من العلماء والأولياء والمجاهدين والأدباء والشعراء والأمراء وقادة الجيوش إلخ إلخ

ولا داعي لذكر ما كان في الإمبراطورية الرومانية من معاملة قاسية للعبيد والإماء، وما كان في جميع الأمم من امتهان لهم واحتقار.. ولكن لم يبلغ أي نظام في هذه المعاملة القاسية ما وصل إليه الرجل الأبيض في معاملته للعبيد فيما يسمى حالياً الولايات المتحدة . وقد شمل ذلك الاستبداد والطغيان والإجرام الأمريكيتين .. وكان حظ أمريكا الشمالية من ذلك أوفر الحظوظ (إن صح هذا التعبير) ولا يوجد أحقر ولا أظلم من الرجل الأوروبي في العصور الحديثة في معاملة العبيد [1] . وهذا ما تؤكده دائرة المعارف ال بريطانية الطبعة 15 لعام 1982.

ومن أنواع الإحسان الإحسان بإسقاط الحقوق . والإصلاح بين الناس . «والإصلاح بين الناس يجري في كلِّ ما يقع فيه التنازع . وهو إحسان إلى المظلوم بدفع الظلم عنه، وإلى الظالم بدفع مأثم الظلم، وبالعفو عن القصاص، وهو من أفضل الصدقات لأنه تصدّق بحياة،

(1)هذا لا يعني وجود أفراد أحسنوا معاملة عبيدهم، ولكنهم قليل جداً بالنسبة لمجموع المستوطنين من الأوروبيين الذين يرون من واجبهم إبادة هؤلاء الهنود الحمر والسود ويستدلون على ذلك بمقاطع من التوراة المحرّفة.

أو ببعض الأعضاء والصفات . ومنه غفران الإساءة والصبر عنها، والإبراء من الديّة والصداق، وإبراء المعسر وإمهاله، ومجانبة الانتقام. وبالإغضاء عن الخادم، وبفك الرقاب».

ومن أنواع الإحسان كما يقول العز بن عبدالسلام بذل الأموال والإحسان إلى الجار والقريب والتصدق بأفضل الأموال وبما تحبّون، والإطعام في المجاعات خاصة، ومواساة الإخوان والجيران، وذوي القربى وإخفاء الصدقات وإكرام الضيف... إلخ.

ومن أنواع الإحسان كفالة الأيتام والإحسان إليهم وتربيتهم كالأبناء والبنات، بل ومعاملتهم أفضل مما يعامل المرء أبناءه وبنا ته. والسعي على الأرملة والمسكين «والساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله» كما جاء في الحديث النبوي الشريف.

بل يجب الإحسان إلى الأسرى {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا *إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا *} [الإنسان: 8، 9] ، وهي منزله سامقة لم تصل إليها أمة من الأمم، ولا يمكن أن تصل إلى السفح من ذلك الجبل العالي والقمة السامقة التي تجري تحتها السحب.

ويجب الإحسان إلى الكفار غير المحاربين قال تعالى: {لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ } [الممتحنة: 8] . وبرّ الكفار الذين لا يحاربون الإسلام وأهله إحسان إليهم وتأليف لهم على الإسلام.

والإحسان في إقامة العدل العام والولاية العامة. وهو من أهم أوجه الإحسان إذ تستقيم به دولة الإسلام. ولم تخرب الديار وتُحطّم دول الإسلام إلا بفقدان العدل .. ولا بدّ من الإحسان في كل أنواع الولايات «وكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته » ولم يرسل رسول الله أحداً إلا وجعله مسؤولاً فيما ولاه الله إياه، فالخادم مسؤول في مال سيّده والمرأة مسؤولة في بيت زوجها، والرجل مسؤول عن أولاده وزوجته ومن هو تحت يده .. وهكذا إلى الولاية العامة وأمير المؤمنين المسؤول عن الأمة كلها.

والإحسان يكون للزوجة وللزوج وللأطفال وللخدم .. إلخ. وكما يكون الإحسان بالأقوا ل والمداعبة وحسن الخلق، يكون بالأعمال والتربية والإشراف وبذل الجهد . وكل ذلك أمانة فليؤد الذي أؤتمن أمانته.

بل إن الإحسان يشمل الدعاء لنفسك وأهلك وجميع المسلمين وإرادة الخير لهم . ويشمل قطعا الإحسان إلى البهائم والحيوانات والطيور.. بل يشمل الإحسان الترويح عن النفس. وهو أمر مستغرب . إذ أن تمكين الأطفال والصغار والشباب من اللعب ضرب من الإحسان . وكذلك الزوجات «وهلا بكراً تلاعبها وتلاعبك » . والسماح باللهو عند الحاجة له، وفي الأعياد وحفلات الزواج (وهو لهو غير محرم في حدوده الشرعيَّة). وللأسف قد أسرفت الأمة على نفسها في اللهو وحياتها كلها أصبحت لهواً ولم تعرف جِدّاً. وهو لهو في كثير من الأحيان قد تجاوز المباح إلى المحرّم.

واعتبر العز بن عبدالسلام كل أنواع الإحسان من المصالح التي ينبغي أن تُحصّل . وإذا اجتمعت مصلحتان سعينا لتحصيلهما معاً، فإن عجزنا عن ذلك، سعينا للحصول على أعلاها.

وكذلك الشأن إذا اجتمعت مفسدتان دفعناهما معاً، فإن عجزنا عن ذلك دفعنا أقبحهما وأشدّهما ضرراً.

والمصالح والمفاسد متداخلة. والمصلحة المحضة: معرفة الله والإيمان به وبكتبه وبرسله وبملائكته وباليوم الآخر .. والمفسدة المحضة : الجهل بالله والكفر به وبرس له وكتبه.. ومن المفاسد ما لا يباح قط كقتل الإنسان البريء والزنا واللواط . ومنها ما قد يباح لضرورة كشرب الخمر عندما لا يجد المرء ماء وأوشك أن يموت من العطش وعندما يغصّ بلقمه ولم يجد سوى الخمر.. وعند الإكراه. ومن ذلك أكل الميتة عند الاضطرار ومثلها لحم الخنزير أو الدم .. ومن المفاسد ما هو أقل من ذلك كالصلاة في أرض مغصوبة، أو الوضوء بماء مغصوب أو الصلاة في ثوب مغصوب، قال العز بن عبدالسلام : فهذه أنواع المصالح التي تباح لأجلها المحظورات، فإن كانت المصلحة مما يجب السعي في تحصيله وجب تحصيلها كالكذب لحفظ النفوس والأبض اع والأطراف، فإن كانت مما يستحب تحصيلها استحب تحصيلها كالكذب للإصلاح ونحو ذلك. وهذه الأمثلة مرشدة لما سواها ![1]

والموقف إزاء تداخل المصالح والمفاسد هو الورع. وهو حرم واحتياط لفعل ما يتوهم من المصالح، وترك ما يتوهم من المفاسد.. فكل فعل توهمنا اشتماله على مصلحة ومفسدة، فإن كانت مصلحته أرجح من مفسدته، فالورع في فعله تنزيلاً للموهوم منزلة المعلوم، وإن كانت مفسدته أرجح من مصلحته فالورع في تركه . تنزيلاً للموهوم منزلة المعلوم . فإن استوت مصلحته ومفسدته احتمل أن يقال لا ورع فيه تنزيلاً للموهوم منزلة المعلوم.

«وكل من فعل ما اتفق على إيجابه أو اختلف فيه، واجتنب ما اتفق على تحريمه أو اختلف فيه، واجتنب كل مفسدة موهومة، وأتى بكل مصلحة موهومة فنِعمّا صنع، لإتيانه بأعلى مراتب الورع. وقلّ من يفعل ذلك أو يقدر عليه».

أما اختلاف العلماء فرحمة. ولذلك لا يجوز الإنكار إلا لمن عل م أن الفعل الذي نهى عنه مجمع على تحريمه، وأن الفعل الذي يأمر به مجمع على إيجابه... ونعني بالنهي عن الإنكار إنكار تحريم، ولو أنكر للإرشاد أو أمر به أو أمر النصح والإرشاد فذلك نصح وإحسان. ومن قدر على إزالة المنكر بيده لزمه ذلك إلا أن يخاف على نفسه، فسقط الوج وب وانتفى الاستحباب. وهو كلام دقيق في تغيير المنكر والأمر بالمعروف من إمام متضلع، زاهد، اشتهر بالإنكار على السلاطين والأمراء، ولم يخفْ في الله لومة لائم..

ورحم الله العز بن عبدالسلام فقد كان مثالاً نادراً في حياته، ومثالاً نادراً بعد مماته بسيرته وكتبه وعلمه الغزير. وهكذا كان أعلام الأمة في تاريخها المجيد ولا يزال منهم طائفة إلى قيام الساعة. والله ولي التوفيق.

(1)هذا يخالف ما جاء به الفيلسوف الألماني كانت، صاحب فلسفة الواجب، الذي يرى أن الك ذب رذيلة في جميع الأوقات والأحوال. ولا يجوز عنده الكذب، ولو لانقاذ حياة. وهو شطط قد أوضحنا خطأه وزيفه في فصل المصلحة وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل الأخير وهو عن كانت وفلسفته.

الفصل العشرون
كانت وفلسفته
فلسفة الواجب الكانتيه الأخلاقية
(Kantian Deontology in Moral Phitosophy)

عمانويل كانت (كانط)

(Immanuel Kant) [1724-1804]

يعتبر (عمانويل كانت) أحد أهم فلاسفة عصر التنوير، وأحد كبار رواد هذه الحركة في ألمانيا وفي أوروبا. وقد عاش معظم حياته في عهد امبراطور المانيا فردريك الأكبر الذي اشتهر بدعم حركة التنوير مع مقدار كبير من الحرية في القول وإن أثار ذلك القول رجال الكنيسة والدولة.

ترجمة حياته

ولد (كانت) في 22 أبريل 1724 في مدينة كونيجزبرج (Konigs berg) في بروسيا (Prussia) التي كانت أهم مقاطعات ألمانيا ومصدر قوتها آنذاك . وقد صارت هذه المدينة جزءاً من روسيا في الحروب الطويلة بين روسيا وألمانيا، وتُعرف باسم كالينينجراد (Kaliningrad) في مقاطعة (أوبلاست) يعرف أيضاً باسم كالينينجراد إلى اليوم.

وهو الابن الرابع من أحد عشر طفلاً (مات ستة منهم في سن الطفولة) لأبوين شديدي التدين، هما يوهان جورج كانت الذي يعمل كسروجي (صانع للسروج)، وهو من أصل اسكوتلندي . أما أمه آنا رويتر فقد كانت شديد ة التدين . وكلاهما من المذهب التقوي البروتستانتي الذي كان كالمثودية (methodist) الإنجليزية يشدّد على الإيمان والتوبة والالتجاء رأساً إلى الله، بعكس العبادة اللوثرية التقليدية في الكنيسة بقسيس وسيط.

وقد أُدخل الطفل عمانويل (معناها الله معنا) إلى مدرسة دينية تقوية في كونيجزج عندما بلغ الثامنة. ودرس فيها لمدة ثمان سنوات . وكان اليوم المدرسي يبدأ في الخامسة والنصف صباحاً بنصف ساعة للصلاة، وكل حصة تختم بالصلاة بالإضافة إلى حصة ساعة كاملة لتدريس الدين. وكان التاريخ يُدَّرس أساساً من العهد القديم، واليونانية من العهد الجديد، ويوم الأحد يكرّس بكامله للعبادة.

لقد كان تعليماً أثمر : الفضيلة في بعض خريجيه، والنفاق في آخرين، وروحاً كئيبة في معظمهم، كما يقول ول ديورانت في كتابه الموسوعي والممتع قصة الحضارة . وقد قال عنها (كانت) [1] فيما بعد: «إن الخوف والرعدة يغلبانه حين يتذكر تلك الأيام».

وفي عام 1740 انتقل إلى جامعة كونيجزبرج وقضى فيها ست سنوات ليرسم قسيساً لوثرياً، ولكنه رفض الدعوة رغم ما وعد به من ترقيه إلى وظيفة مريحة . وعاش بدلاً من ذلك تسع سنوات من الفقر، يعلّم فيها أبناء الأسر الثريّة، ويواصل دراسته العليا . وكان اهتمامه حتى عام 1770 بالعلم Science بعيداً عن اللاهوت وكان الشاعر والمفكر اليوناني لوكريتيوس من أحب المؤلفين إليه.

وفي عام 1775 نال درجة الدكتوراه، وسُمح له بأن يحاضر في الجامعة بوصفه معلِّماً خاصاً، لا يكافأ إلا بالرسوم التي يقرر الطلبة دفعها له . وظلَّ خمسة عشر ة عاماً في هذا

(1)ول ديورانت: قصة الحضارة ج206/41.

الوضع القلق. وخلال هذه المدة رفضت الجامعة توظيفه لديها، وظلَّ فقيراً ينتقل من نُزل إلى نزل ولا يجرؤ على الزواج. ولا يسكن بيتاً خاصاً حتى بلغ التاسعة والخمسين. وعندما سئل : لماذا لم تتزوج؟ قال: عندما أردت الزواج لم تكن هناك فتاة لتقبل بي بسبب فقري، وعندما شارفت الشيخوخة لم تعد بي حاجة للزواج.

وكان (كانت) يحاضر في مواضيع كثيرة التباين ليجتذب عدداً أكبر من الطلاب، وكان عليه أن يحاضر بلغة واضحة مع قليل من الدعابة . وكان «كانت» المعلم والأستاذ يختلف تماماً عن «كانت» المؤلف الذي اشتهر بغموض عبارته وج فافها. وقد وصفه هردر (أحد المفكرين الألمان المشهورين الذي تتلمذ على يديه): أسعدني الحظ بمعرفة فيلسوف كان معلّمي. ففي مقتبل عمره تحلّى بشجاعة الشباب المرِحة، وأعتقد أن هذه الشجاعة لازمته حتى الشيخوخة ... وفي متناوله الضحك والدعابة الذكية .. ومحاضراته تجمع بين التعليم والترفيه.. وكان يشجّع سامعيه على التفكير لأنفسهم ويضطرهم في رفق إلى هذا التفكير . أما الاستبداد فكان غريباً على طبعه . وهذا الرجل الذي أذكر اسمه بأعظم عرفان وتبجيل هو (إيمانويل كانت)، وصورته ماثلة أمامي وهي محببّة إلى نفسي[1] .

(كانت) والعلوم Science

كان (كانت) مهتماً بالعلوم والرياضيات، وذلك قبل أن يهتم بالفلسفة المجرّدة . وقد وسَّعت العلوم مداركه وعُمقَ أفكاره. وأول أعماله المنشورة كان «خواطر من التقييم الحقيقي للقوى الديناميكية» نشره عام 1747 وقد ناقش فيه قوة الجسم أثناء الحركة، وهل تقاس كما زعم ديكارت وأويلر بالكتله x السرعة، أو كما زعم ليبنتس: بالكتلة x مربع السرعة، وهو إنجاز ممتاز لفتى في الثالثة والعشرين من العمر . وفي سن الثلاثين نشر مقالاً «في زمن دوران الأرض اليومي (حول نفسها) وهل يتغيّر بالمدّ والجزر ». وفي نفس العام نشر بحثاً عن الأرض وهل هي بسبيلها إلى الشيخوخة؟ وعبّر عن القلق الذي يساور العلماء في عصرنا على فقد الشمس بعض طاقتها بحيث تكون النهاية تجمّد الأرض.

وفي سن 31 عاماً قدَّم بحثاً هاماً بعنوان «التاريخ الشامل للطبيعة ونظرية السماوات » وقدّم كتابه هذا إلى الملك فردريك الأكبر . ولكن دون أن يُذكر اسم المؤلف وقد ردّ جميع عمليات الأرض والسماء إلى قوانين آلية، ولكنه أكّد أن ما في هذا الكون من تناسق وجمال يدلُّ على وجود عقل أسمى من جميع العقول المعروفة، وهو الكائن الأسمى . وجاء بنظرية السديم الكوني، وأن النجوم تجمّعت ولا تزال تتجمَّع من هذا السديم الكوني، وذلك عام 1755 سابقاً بذلك معاصريه، ثم قام لابلاس بإدخال تعديلات على هذه النظرية عام 1796.

ونشر (كانت) ثلاث مقالات عن الزلازل بعد كارثة زلزال لشبونة عام 1755، وفي 1757 نشر مقالاً بعنوان «محاضرات في الجغرافيا الطبيعية وبيان عنها ». وفي عام 1758 نشر «نظرية جديدة في الحركة والسكون»

(1)ول ديورانت: قصة الحضارة ج207/41.

واتسعت دائرة اهتمامه فنشر مقالات عن القياس المنطقي، والتفاؤل، وأمراض الرأس، وقد ألمح في هذه الرسالة إلى أن تكرار العمل الرتيب المملّ يؤدي إلى الجنون.

وفي عام 1763 انتقل لأول مرة إلى علم اللاهوت ببحث عنوانه «الدعامة الوحيدة الممكنة للبرهنة على وجود الله». وكان فيها مبلبل الخاطر والفكر.

وكتب عن التطور ومع ذلك أحجم عن فكرة البيولوجية القائمة على المذهب الآلي . وكتب مقالاً في «براكين القمر». ومن ثم تحول إلى محاولات التوفيق بين اللاهوت والفلسفة والعلم.

بداية الأبحاث الفلسفية

في عام 1770 عرضت عليه الجامعة منصب أستاذ المنطق والميتافيزيقيا، وكان هذا المنصب أحد العوامل التي جعلته يزيد من اهتمامه بالمنطق والميتافيزيقيا وفلسفة العقل . وكانت التقاليد تقضي بأن يُلقى الأستاذ الجديد بحثاً إفتتاحياً باللغة اللاتينية . واختار (كانت) موضوعاً عسيراً بعنوان «في شكل ومبادىء العالم المحسوس والعالم المعقول».

واستخدم المصطلحات الفلسفية المدرسية (السكولاستية) السائدة في الجامعة الألمانية في زمنه. وقصد بالعالم المحسوس: العالم الذي تدركه الحواس، وسمّاه فيما بعد عالم الظواهر أو الظاهرات (الفينومينولوجيا) (Phenomenology) .

أما العالم المعقول فهو العالم الذي يدركه العقل والفكر ولا تدركه الحواس، وهو فوق نطاق الحواس وإن كان هو أصل الأشياء وأصل المدركات وقد سمّاه عالم النوميني . وهي كلمة لاتينية مفردها Neumenon وجمعها Neumena والمقصود بها حقيقة الأشياء في ذاتها لا في ظواهرها. والحواس تدرك الظواهر بينما العقل يدرك حقيقة الأشياء (النوميني).

وقال (كانت): إن الزمان والمكان ليسا شيئين موضوعين أو محسوسين، بل شكلين من أشكال الإدراك الحسّي أصيلين في طبيعة العقل وبنيانه . وأن العقل ليس متلقيّاً وناتجاً عن الأحاسيس، بل هو عامل إيجابي له طرائق وقوانين عمل أصيلة لتحويل الأحاسيس إلى أفكار.

نقد العقل الخالص [1]:

وقد وسع (كانت) هذه الآراء في كتابه الهام جداً «نقد العقل الخالص » (Critique of Pure Reason) الذي صدر عام 1781. وهو كتاب عسير الفهم، معقد العبارة .. وقد حذف عمداً بعض الأمثلة التي يمكن أن توضح أفكاره لأنها حسب قوله «ليست ضرورية إلا من وجهة النظر الشعبية. وهذا الكتاب لا يمكن أبداً جعله صالحاً للاستهلاك الشعبي.

«وكان على (كانت) أن يخترع ترجمة ألمانية لمصطلح لاتيني، وفي كثير من الحالات لم تكن هناك مصطلحات لاتينية تفي بالغرض المنشود. وقد أربك (كانت) قُرَّاءه بخلعه المعاني الجديدة على الألفاظ القديمة. والصفحات المائة الأولى واضحة نسبياً، أما بقية الكتاب فدخان

(1)ول ديورانت: قصة الحضارة: ج212/1.

أسود لا يتبيّن منه شيء »، كما يقول ول ديورانت في كتابه الهام «قصة الحضارة » (ج212/41).

ويهدف الكتاب إلى تمحيص نقدي حصيف مستقلاً ع ن التجرية.. وقد قصد (كانت) أن يصف الحسّ والإدراك الحسّي والفكرة والعقل، وأن يقرر لكلّ منها حدودها واختصاصاتها الصحيحة.

وهناك حسب قوله معرفة قبلية (أي قبل ورودها عن طريق الأحاسيس). وهي معرفة فطرية للعقل وسماها a Priori (أي قبلية) مثل أن الإثنين أكثر من الوا حد، أو أنه لا بد أن يكون للمعلولِ عِلّة . وقد سمّاها العقل الخالص (Pure Reasou) وهي المعرفة التي لا تتطلب برهاناً من التجربة وقد قال ما نصه: «إن مَلَكة المعرفة الحاصلة من المبادىء القبلية يمكن أن نسميها العقل الخالص . والبحث العام في قَدْرها وحدودها يؤلف نقد العقل الخالص»[1] . واعتبر (كانت) أن هذه الطريقة ستحلّ كل مشاكل الميتافيزيقيا[2] .

وقد حاول (كانت) أن يخفّف من غلواء الذين يمجّدون العقل، ويجعلونه المرجعية الوحيدة للإنسان مبعدين بذلك الدين والعقائد والروحانيات من حياة الإنسان . وقد كان هذا الاتجاه سائداً لدى ما يسمى التنويريين . واعتبر (كانت) أن هؤلاء أنفسهم قد تحولوا إلى عقائديين (دوجماتيين Dogmatics) يؤمنون بدون تفكير حرّ في تأليهم للعقل . وردّ (كانت) بذلك أيضاً على من أرادوا إثبات المسيحيّة بواسطة العقل وحده من أمثال كرستيان فون فولف ولبنتس. وقد حكم (كانت) بدجماطيقية الميتافيزيقية على كل مذهب في العلم أو الفلسفة أو اللاهوت لم يخضع أولاً لامتحان نقدي للعقل ذاته [3].

واعترف (كانت) أن الفيلسوف الإنجليزي ديفيد هيوم هو الذي وجَّه أبحاثه في مجال الفلسفة النظرية في اتجاه مختلف كل الاتجاه عن الاتجاه الدوجماطيقي السائد.

وقد أوضح كانت أن المعرفة تنقسم إلى قسمين:

(1) معرفة عن طريق الحواس (تجريبية). وهذه أيضاً ينظّمها ويرتّبها العقل (الفطري) بحسب ما لديه من قدرات فطرية ذاتية.

(2) معرفة متجاوزة للحسّ والتجارب الحسيّة المادية وسماها المعرفة المتسامية (الترانستد نتاليه) Transcendental) وهي إدراكات عقلية قبلية a Priori مستقلة عن التجربة[4] وقد قسم كانت هذه المدارك الفطرية إلى عدة مقولات (Categories) كالآتي:

ثلاث مقولات للكم: هي الوحدة والكثرة وجملة الكل Quantity singular Particular ,Universal

---

(1)كلمة نقد عند (كانت) تعني التحليل..

(2)الميتافيزيقيا metaphysics أي كل ما وراء الطبيعة المادية (الغيبيات).

(3)ول ديورانت: قصة الحضارة ج213/41.

(4)هذا المفهوم ليس جديداً كما يظن المحدثون وينسبونه إلى (كانت)، وإنما هو مفهوم قديم، والعقل كما تحدث عنه العرب قديما عقلان: فطري ومكتسب. والفطري الذي يدرك الأشياء بداهة مثل أن الاثنين أكثر من الواحد والمكتسب الذي يكتسب بالتجارب والمعارف. ولكن (كانت) تحدَّث عن العقل بأسلوب معقد أشدَّ التعقيد وقد أدّى ذلك إلى البلبلة.

و ثلاث مقولات للكيف : هي الوجود والسلب وحد التناهي Quality; affirmative, ,negative infinite .

وثلاث مقولات للإضافة : هي الجوهر في مقابل العَرَض، والسببية في مقابل التلازم، والمشاركة أو التفاعل. Relation: Substance, Cause, Community).

وثلاث مقولات للجهة : هي الإمكان في مقابل الاستحالة، والو جود في مقابل العدم والضرورة في مقابل العرضية [1] (Modality: Possibility, existence, necessity [2].

وكل إدراك حسّي يندرج تحت واحد أو أكثر من هذه الأشكال والقوالب الأساسية للفكر، فالإدراك الحسيّ إحساس تترجمه الأشكال الفطرية للزمان والمكان، والمعرفة إدراك حسّي تحوّله المقولات إلى حُكم أو فكرة.

والتجربة ليست قبولاً سلبياً لانطباعات موضوعية على حواسنا، وإنما هي حصيلة العقل المؤثر إيجابياً على خامة الإحساس.

وقد عدَّ «كانت» علاقة العِلّة والمعلول شكلاً حقيقياً من أشكال الفكر، لا حقيقة موضوعية. وهي بهذه الصفة مستقلّ ة عن الخبرة، وضرورية لحصول المعرفة من التجارب، لأننا لا نستطيع فهم التجربة بدونها.

وخلاصة هذا الكلام المعقد العسير الهضم: أن المدركات العقلية الذاتية والفطرية هي التي تستطيع أن تفهم التجربة وتعرف العلّة والمعلول. وهي مدركات فطرية ذاتية قبلية (Priori) لا نكتسبها من التجارب. وهي بتعبير القدماء العقل الوهبي (أي الذي وهبه الله للانسان ويعبر عنه أيضاً بالفطري) وهو الذي يدرك بالبداهة أنّ الإثنين أكثر من الواحد . والعقل الكسبي الذي يعرف التجارب والأمور بواسطة التجارب، وهي معرفة متغيّرة وغير ثابتة . ولكنها أيضاً تعتمد على فهم التجارب والحوادث على العقل الوهبي.

وبالتالي فإن فهمنا للقوانين الطبيعية ناتج عن قوانا العقلية الذاتية الفطرية (الوهبيّة) ونتيجة لذلك فإن «قوانين الطبيعة ليست كيانات موضوعية، بل مركبات عقلية نافعة في معالجة التجربة» [3]. وكل معرفة تتخذ شكل الصور أو المُثُل، والعالم بالنسبة لنا ليس إلا أفكارنا [4] . وما دمنا لا نعرف حقيقة المادة وكنهها إلا بواسطة الأفكار، وكأفكار، فالمادية إذن مستحيلة منطقياً لأنها ترد المعلوم (وهي الأفكار) إلى المجهول أو المعلوم بطريق غير مباشر (وهو المادة التي لا تعرف إلا بواسطة هذا العقل الفطري) [5] . ولكن المثالي يخطئ إذا اعتقد أنه لا شيء موجود إلا صورنا، لأننا نعلم أن الصور يمكن إحداثها بالأحاسيس، التي تنتج في

---

(1)ول ديورانت: قصة الحضارة ج214/41، 215.

(2)الترجمة الإنجليزية للمصطلحات هي من دائرة المعارف البريطانية ج390/1 - 398 (الطبعة 15 لعام 1982). .

(3)ول ديورانت: قصة الحضارة ج215/41.

(4)هذا شطط فالعالم الخارجي موجود بكل تأكيد مستقلاً عن أفكارنا.

(5)هذه الأفكار تقترب كثيراً من أفكار أفلاطون (Plato) والتي سمّاها عالم المُثُل.

الغالب عن عِلّةٍ خارجية . ولكن معرفتنا لهذا الشيء الخارجي مبنية على قدراتنا العقلية الذاتية . وبالتالي فإن العالم الخارجي موجود، ولكنه في حقيقته المطلقة مجهول لا يمكن معرفته[1] .

ويقول «كانت» والنفس أيضاً حقيقة ولكن لا يمكن معرفة كنهها . ونحن لا ندركها حسيًّا على الإطلاق. وهي بالتالي نومين (Neumena) أي حقيقة الأشياء من ذاتها التي لا تدرك حسيًّا.

والإحساس بالذات يمتزج مع كل حالة عقلية، ويوفر الاستمرارية والهوية الشخصية والوعي بالذات (الذي سماه) «وعي الذات الاستبطاني » هو أوثق تجاربنا قاطبة، ولا سبيل إلى إدراكه عقلياً كشيء مادي . والحقيقة مجهولة وراء المادة، ومع هذا فإن النفس (غير المادية) والعقل (غير المادي) يؤثران في الجسد المادي ويوجهانه.. وهو أمر شديد التعقيد ويخرج عن نطاق المنطق العادي إذ كيف تستطيع النفس غير المادية أو أي شيء غير مادي أن يؤثر في المادة [2]. وليس باستطاعتنا بالعقل الخالص (العقل النظري : الفطري) أن نثبت أن نفس الفرد خالدة، أو أن الإرادة حرّة أو أن الله موجود، ولكن أيضاً لا نستطيع بالعقل الخالص أن ندحض هذه المعتقدات (هنا يبدو خطأ (كانت) إذ أن العقل الفطري وهو ما سمّاه العقل الخالص يستطيع أن يدرك أن الله موجود وقد أثبت الفلاسفة المسلمون ذلك كما في قصة حي بن يقظان الذي توصل إلى الله بفطرته وعقله).

ويقول (كانت) إذا حاولنا إثبات عقائد الدين أو دحضها بالبراهين العقلية وقعنا في أغلاط ومغالطات وتناقضات متلازمة . والأمر ذاته يحصل في القول ببداية العالم أو عدم بدايته، والإرادة هل هي حرّة أو غير حرة أو أن كائناً واجب الوجود (الكائن الأعلى وهو الله) موجود أو غير موجود بواسطة البوهان العقلي (وهو كلام نقضه ابن رشد وانتقده نقداً شديداً قبل «كانت» بسبعة قرون تقريباً) [3] .

ويعلّق على ذلك ول ديورانت أن هذه النتيجة محيّرة جداً . ولكن (كانت) تخلّص من هذه الأقوال الغريبة بأن في باطننا شيء أعمق من العقل هو شعورنا الذي لا يقبل التنفيذ بأن العقل والنفس والوعي كلها ليست مادية، وأن الإرادة حرّة إلى حدٍّ ما . ونحن لا نستطيع أن نقتنع، بأن العالم تسلسل بدون نهاية ولا بداية . فكيف نبّرر إذن إرادة الإيمان فينا؟ يقول (كانت): إن أشياء العالم يجب النظر إليها كأنها تلقَّت وجودها من عقل أسمى . ففكرة الله هي في الحقيقة مدرك عقلي موجِّه، لا مدرك عقلي مباشر، هي فرض يعين على الكشف والفهم

---

(1)وقد صدق «كانت» في هذه النقطة فإننا كبشر لا نعرف كنه وحقائق الأشياء وإنما نعرف ظواهرها. قال تعالى {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الروم/7] ومعرفة الأمور في الحياة الدنيا هي معرفة ظاهرية . أما حقائق الأشياء وبواطنها فهي عند الله سبحانه وتعالى. ويطلع الله من أراد له من عباده معرفة بعض حقائقها . أما المعرفة المطلقة فهي لله وحده سبحانه وتعالى.

(2)أوضحت العلوم الحديثة تمازج المادة مع غير المادة وتحولت المادة إلى موجات أو ذبذبات كهرومغناطيسية لا تُعرف حقيقتها. وبالتالي اختلط مفهوم المادة matter مع مفهوم «ضد المادة» antimatter.

(3)انظر فصل ابن رشد من هذا الكتاب في الجزء الأول.

ولكنها ليست برهاناً. ففي ميدان اللاهوت يجب أن ننظر إلى كل شيء كأن جماع المظاهر كلها له أساس واحد، كلي الاكتفاء وراء ذاته، وهو عقل موجود بذاته مبتكر مبدع..

ولكن المبرّر الأشد إلزاماً للاعتقاد الديني، في رأي «كانت»، هو أن هذا الاعتقاد لا غنى عنه للأخلاقية. ولولا أن هناك كائناً أصلياً متميّزاً عن العالم، ولو كان العالم بغير خالق، ولو كانت إرادتنا غير حُرَّة، ولو كانت الروح فانية كالمادة، لفقدت الأفكار والمبادئ الأخلاقية كلٍ صحتها . وإذا شئنا للصفة الأخلاقية والنظام الاجتماعي ألا يعتمدا كليّة على الخوف من القانون، فلا بد لنا أن ندعم الإيمان الديني، ولو بوصفه مبدأً منظِّماً . ويجب أن نسلك في حياتنا، كأننا نعرف أن هناك إلهاً، وأن نفوسنا خالدة وأن إرادتنا حرّة[1] .

إذن نرى (كانت) رغم اعترافه بعدم قدرته على إيجاد برهانٍ عقلي بوجود الله والروح والإرادة الحرّة إلا أننا بذواتنا نشعر بعمق وجود هذه الأشياء (وهي الفطرة)، كما أن حياتنا الأخلاقية لا يمكن أن تقوم إلا بالإيمان بوجود الله تعالى.

ويعلّق على ذلك كله «ول ديورانت» بأن كتاب «نقد العقل الخالص» يجمع التناقضات كلها. لقد أصبح في وسع المتشكك أن يزعم أن «كانت» قال باللاأدريه، وأن يزدري إرجاعه الله إلى مكانته السابقة مكمّلاً للشرطة . وقد وبّخه اللاهوتيون على تسليمه بهذا القدر الكبير للكفار، ولكنهم اغتبطوا لأن الدين خرج ـ فيما بدا لهم ـ حيّا من رحلته الخطرة داخل عقل (كانت).

وقد علَّق كارل راينهولت على هذه الضجة الكبرى التي أثارها كانت بكتابه قائلاً عام 1786: «لقد حكم الدوجماطيون على كتاب «نقد العقل الخالص» بأنه محاولة شاكّ يقوّض يقينية المعرفة، والشكاك بأنه قطعة من التبجّح المستعلي تضطلع بإقامة صورة جديدة من الدوجماطيقية على أنقاض مذاهب سابقة . وأما فوق الطبيعيين فقالوا أنه حيلة مبيتة بدهاء لإزاحة الأسس التاريخية للدين . وقال عنه الطبيعيون (الملحدون) أنه دعامة جديدة لفلسفة الإيمان المحتضرة . وحكم عليه الماديون بأنه إنكار مثالي النزعة لحقيقة المادة . وأما الروحانيون فقالوا أنه قد قصر المعرفة على العالم المادي باسم مستتر تحت اسم ميدان التجربة».

وكما يقول ول ديورانت فإن مدارس الفكر المختلفة هاجمت (كانت)، وبالتالي صنعت شهرته، وسرعان ما جرت مصطلحات كانت وألفاظه الطويلة المعقدة على لسان كل مثقف . ولم يفهم (كانت) لم عجز نقّاده عن فهمه رغم أنه عرَّف مصطلحاته مراراً . وفي عام 1783 ردَّ على الهجمات بإعادة صياغة كتابه (نعقد العقل الخالص) بصياغة ظنها أبسط من الأولى وسمى ردّه «مقدمه لكل ميتافيزيقيا مستقبله قادرة على الظهور كعلم » . ومع هذا كان معقّد العبارة بعد الصفحات الأولى من هذه الرسالة، وماثل تعقيد عبارة كتابه الأصلي.

---

(1)ول ديورانت: قصة الحضارة ج218/41. و(كانت) هاهنا يشبه إلى حدٍّ ما فولتير الذي يقول إذا لم يكن هناك إله فإن علينا أن نخلقه. كما يشبه من جهة ثانية ديستوفسكي (الروسي) الذي يقول: إذا لم يكن هناك إله فكل شيء جائز حتى القتل.

واستطاع (كانت) في زمن فردريك الأول أن يتّقي هجمات رجال الدين والمحافظين، وحيّا (كانت) ملكهُ باعتباره عنوان حركة التنوير الألماني وحاميها، والملك الوحيد الذي قال لرعاياه فكروا كما تشاؤون.

ولكن خليفة فردريك الأول فردريك وليم الثاني (1786 - 1797) كان يختلف تماماً عن والده وكان يهتم بقوة الدولة أكثر من اهتمامه بحرية العقل، وبالتالي سمح لرجال الدين والمحافظين أن يبسطوا نفوذهم . لهذا قام (كانت) في الطبعة الثانية من كتابه نقد العقل الخالص (1787) بتعديل وتخفيف بعض عبائره التي جعلت رجال الدين يتهمونه بالهرطقة .. وذلك لمواجهة موجة الاضطهاد الفكري التي قامت بها الكنيسة.

تحليل أو نقد العقل العملي (1788) Critique of Practicle Reason

لقد قوّضت حركات التنوير اللاهوت في أوروبا ثم قوضت الأسس الأخلاقية نتيجة التشكيك في وجود إله مثيب ومعاقب. وأحسَّ (كانت)، بوصفه من أنصار التنوير، أن عليه واجباً أخلاقياً بالعثور على أساس عقلي للأخلاق، فوضع في مقال عنوانه «المبادئ الأساسية لميتافيزيقيا الأخلاق» (Groundwork of the Metaphysics of Morals) عام 1785 رأيه الصريح في أن المفاهيم الأخلاقية كلها مستقرّة ومتأصلة قبلياً في العقل كلية . ثم وسع هذا الرأي في كتابه الكبير «نقد العقل العملي». (Critique of Practicle Reason) .

وفيه يشرح (كانت) نظريته بأن لكل فرد ضميراً يمثل الإحساس بالواجب وهو أمر مطلق متعلق بالقوة المتسامية (الترانسندنتاليه Transcendental) الموجودة في أعماق الإنسان كإنسان. وكما أن هناك إدراكات عقلية قبليه a Priori مستقلّة عن التجربة، فهناك قوة سامية أخلاقية موجودة في كل فرد فينا . وهي في ذاتها أعمق من الأخلاق المكتسبة بالتجربة والمران والتربية (في الحديث الشريف أن أشج عبد القيس الذي قا ل له الرسول بأن فيه خصلتان يحبهما الله ورسوله هما الحلم والأناة، سأل الرسول الكريم هل هما سجيتان فيه أم أنه تطبع بهما. فقال له المصطفى : بل هما سجيتان وهبكهما الله إياهما أو كما قال والحديث في الصحيحين) والأخلاق موجودة كسجية فطرية، كما أنها أيضاً يمكن أن ت كتسب بالتطبع والمران والتربية (ومن تصبّر صبّره الله تعالى).

ويقول (كانت): «شيئان يملآن العقل بالإعجاب والرهبة المتجددين المتعاظمين أبداً .. السموات المرصعة بالنجوم من فوقنا، والقانون الأخلاقي في داخلنا»[1] .

ويقول : «وكثيراً ما يتعارض هذا الشعور الأخلاقي برغ باتنا الحسيّة، ولكننا ندرك أنه عنصر أسمى فينا من طلب اللذّة، وهو ليس ثمرة التجربة وإنما هو جزء من بنائنا النفسي الأصيل.. وهو محكمة باطنية حاضرة في كل شخص.. وتأمرنا هذه المحكمة بأن نفعل الحقّ من أجل الحقّ كغاية في ذاته، لا كوسيلة للسعادة أو حتى للثواب أو هر باً من العقاب فهذا الأمر أمر مطلق ينبع من داخل ذات كل فرد فينا ». وهو ما أطلق عليه فلسفة الواجب Deontology .

(1)ول ديورانت: قصة الحضارة ج221/41.

وهذا الأمر المطلق يتخذ شكلين. (1) عامل الناس كما تحب أن يعاملوك وبذلك تظل قاعدة إرادتك صادقة . (2) واعمل بحيث تعامل الإنسانية، سواء كانت ممثلة في شخص ك أو في شخص أي إنسان آخر، وفي جميع الأحوال، كغاية في ذاته، لا كمجرد وسيلة أو واسطة لبلوغ مرام مهما كان هذا المرام أو الغرض . وهذه الصياغة لا يوجد لها نظير في النظم الغربية. ولا توجد إلا في تعاليم الإسلام الواضحة، بل والتي زادت على ما اقترحه (كانت). وذلك بمبدأ الإحسان . {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} [الشورى/40] والآيات في هذا الباب كثيرة جداً ومنها قوله تعالى {وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [البقرة /237] وقوله تعالى {...وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [التغابن/14] وقوله تعالى {...وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [النور /22] وقال تعالى {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *} [آل عمران /133، 134] وقوله تعالى {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} [البقرة/109][1] .

الإحسان بالالتزام الأخلاقي. وهو أمر نابع عن إرادة حرّة. وبذلك يرد على من زعم بأن الإنسان مجبر بصورة آلية ميكانيكية بقوانين الطبيعة. ويقول أن الشخص بدون الإرادة الحرة عديم المعنى. وإذا كان كذلك فإن الحياة نفسها تصبح عديمة المعنى، وكذلك الكون بأكمله. فلا بد إذن أن يكون هناك اختيار حُرٌّ للإنسان.

ويقوم (كانت) بمحاولة معقّدة لهذه المسألة الواضحة لأن فلاسفة عصره أقرّوا بمبدأ الحتمية الميكانيكية الطبيعية . وحتى يردّ عليهم يرجع مرة أخرى إلى العقل المتسامي الترانسندتالي (Transcendental) ، وإننا لا نعرف في الواقع إلا ظواهر الأشياء، أما حقيقتها (النوميني أو ذات الشيء) فلا نستطيع أن ندركه وإن كنا نشعر به. وينتهي إلى القول بأن قوانين العلة والمعلول التي يبدو أنها تحكم أفعال أبداننا فإنها لا تتحكم في إرادات الحقيقة الروحية المطلقة الكائنة وراء عملياتنا العقلية . فوراء ميكانيكيات العالم الظاهري للمك ان وللأفكار في الزمان هناك حرّية في العالم الحقيقي النوميني الذي بلا مكان ولا زمان .. عالم الحقيقة المطلقة: الظاهرة والباطنة.

ويمكن للطبيعة والحرية أن توجدا معاً، وإن كان حسب قوله، ليس في إمكاننا إثبات ذلك، ولكن يجوز لنا أن نفترضه بحكم طبيعة حِسِّناً الأخلاقي الآمر والعميق. وبدونه تموت حياتنا الأخلاقية.

ويقول: «ولكن إذا كان الحسُّ الأخلاقي يبررّ افتراضنا قدراً من الإرادة الحرّة، فإنه يبرّر أيضاً اعتقادنا بخلود النفس، ذلك أن حِسَّنا يستحثنا إلى كمال تحبطه المرّة بعد المرّة دوافعنا الحسّيّة. ونحن لا نستطيع تحقيق هذا الكمال في حياتنا على الأرض. فإذا كان هناك عدلٌ في

---

(1)والأمر بالإحسان والعفو موجود أيضاً بصورة واضحة في تعاليم يسوع (عيسى ابن مريم) كما هو مدوّن في الأناجيل (من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر) وهي بدرجة غير عملية ولا يستطيعها إلا القليل جداً جداً من البشر (باركوا لاعنيكم!!).

العالم، فلا بد أن نفترض أننا سنُمنح حياة متصلة بعد الموت لاكتمالنا الاخلاقي. وهذا يفترض أيضاً وجود إله عادل وهو ما يبرّره العقل العملي. فالسعادة الأرضية لا تتفق دائماً والفضيلة، ونحن نشعر أن التوازن بين الفضيلة والسعادة سيُصحَّحُ في مكان، (في الآخرة). وهذا لا سبيل إليه إلا إذا افترضنا وجود إله يحقّق هذه المصالحة ... وعليه فإن وجود سبب للطبيعة كلها (أي خالق للطبيعة) هو من مسلمات العقل العملي» [1].

وهكذا أثبت أيمانويل كانت وجود الله ووجود اليوم الآخر والجنة والنار والثواب والعقاب واكتمال الفضيلة والسعادة في اليوم الآخر، ولكنه استخدم طريقة تخالف طريقة اللاهوتيين اللذين استنبطوا الحسّ الأخلاقي من الله وعكس (كانت) القضية واستنبط وجود الله من الحسِّ الأخلاقي.

والمهم أن (كانت) وصل إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر حسب قانونه الأخلاقي الذي ينبع من ذواتنا ومن أعماق أنفسنا في عالم النوميني (حقيقة ذات الشيء).

ويقول أن علينا أن نتقبّل هذه الواجبات على أنها أوامر إلهية، ولكن لن ننظر إلى الأفعال الأخلاقية بأنها إلزامية لأنها أوامر الله، بل لأنها تنبع من دواخل ذوات نا، وبالتالي سنعدّها أوامر إلهية لأن فينا التزاماً باطنياً نحوها [2].. وهو كلام أشبه بالسفسطة، وذلك من أجل البعد عن الكنيسة ورجالها الذين لم يكن يكنُّ لهم سوى الاحتقار.

ووجد (كانت) في تعاليم روسو عن تهافت العقل وأولية الوجدان، وانبثاق الدين من الحسِّ الأخلاقي للإنسان مهرباً من اللاأدريه والشكّ والتحلّل الخلقي. ورأى أن روسو أيقظه من السبات العقائدي في الأخلاق كما أيقظه هيوم في الميتافيزيقيا. ولذا فإن كتابه «نقد العقل الخالص» ينتمي إلى حركة التنوير، أما كتابه «نقد العقل العملي» فينتمي إلى الحركة الرومانتيكية. ومحاولة الجمع بين الإثنين، كما يقول ول ديورانت، من أبرع الإنجازات في تاريخ الفلسفة.

وقد رأى (كانت) خادمه العجوز (لامبه) يبكي لأن الله مات على يدي الفلاسفة، فحاول (كانت) أن يهدئ من روعه قائلاً: «يجب أن للامبه العجوز إله وإلا فلن يستطيع أن يكون سعيداً أما من جهتي أنا فإن العقل العملي يستطيع أن يضمن وجود الله تعالى» [3].

وبما أن (كانت) على خلاف شديد مع الكنيسة ولا يكنُّ لرجالها سوى الاحتقار فإنه عمل على أن يتجنب العقائد الكُنسية ولاهوت الكنيسة، رغم إيمانه بوجود إله، ولكنه لا يؤمن بأن الله قد تجسَّد في يسوع، و بالتالي لا يؤمن بالتثليث، ولا بالصلب، ولا بعقيدة الفداء، وكلها أركان هامة للكنيسة، ومن لا يؤمن بها لا يمكن أن يعتبر مسيحياً عندهم. كما أن (كانت) اعتبر العهد القديم (وهو يشمل التوراة والكتب التي نسبت إلى الأنبياء من بعده إلى ما قبل يسوع مباشرة) كتاباً بعيداً كل البعد عن الأخلاق. وقد صدق (كانت) في ذلك [4] وقد أصدر

(1)ول ديورانت: قصة الحضارة ج223/41.

(2)ول ديورانت: قصة الحضارة ج223/41.

(3)ول ديورانت: قصة الحضارة ج223/41.

(4)انظر فصل الأخلاق عند اليهود في الجزء الأول من هذا الكتاب.

(كانت) كتيباً عام 1791 بعنوان «تهافت جميع المحاولات الفلسفية في الإلهيات» وقال: «إن عقلنا عاجز كل العجز عن تبصيرنا بالعلاقة بين العالم والحكمة السامية ... وعلى الفيلسوف ألا يلعب دور المحامي الخاص في ه ذا الأمر، وعليه ألا يدافع عن أي قضية يعجز عن فهم عدالتها، ولا يستطيع إثباتها بطرق التفكير الخاصة»[1] .

وهو موقف شبيه بموقف أبي حامد الغزالي، والفخر الرازي في أواخر حياته، باليأس من الفلسفة في إثبات الدين والعقائد. وقد وضع الغزالي كتابه المشهور «تهافت الفلاسفة» منوهاً بأن موضوع الإلهيات من أعقد الموضوعات في الفلسفة .. وأن أدلتهم كلها متهافتة، وقد غضب لذلك أبو الوليد ابن رشد الحفيد القاضي الفقيه الفيلسوف الطبيب القرطبي وردّ عليه رداً طويلاً سمّاه «تهافت التهافت». ولكن عند دراسة ما قاله ابن رشد في هذا الكتاب وف ي كتبه الأخرى مثل «الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة » و«فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال ». نجد أن ابن رشد وقع في أوهام في فهم فلسفة أرسطوطاليس (أرسطو) وقد دافع عنها بأقوال لم يأت بها أرسطو أصلاً[2] .

والواقع أن (كانت) ردّ على جميع ا لمحاولات الفلسفية المعقدّة التي تحاول عبثاً إثبات اللاهوت والعقائد الدينية بواسطة الفلسفة . وقد أرجع الإيمان إلى ما سمّاه النوميني (وهو العقل الفطري الوهبي الذي وهبنا الله إياه . وقد اعتبرها قوة متسامية ترانسندنتاليه تستطيع معرفة الأشياء التي لا تخضع ولا تحتاج للتجربة مثل أن الإثنين أكثر من الواحد . وقد سبق شرح كلامه بشيء من التفصيل).

وقد أصدر (كانت) مقالات أربع عام 1793 بعنوان «الدين في حدود العقل وحده » في مجلة كلية الفلسفة بجامعة يينا، بعد أن منعت نشرها الرقابة (ومجلات الجامعات لا تخضع للرقابة).

ويقول (كانت): «بقدر ما تنبني الأخلاق على مفهوم الإنسان كفاعل حُرّ، هذا الإنسان، الذي بسبب حريته هذه، يتعامى بعقله عن رؤية القوانين غير المشروطة فإن هذه الأخلاق في غير حاجة إلى فكرة كائن آخر من فوقه ليجعله يدرك واجبه (وهو كلام مختلف عما قاله في كتاب نقد العقل العملي)، ولا إلى حافز غير القانون ذاته ليؤديه .. ومن هنا فإن الأخلاق من أجل ذاتها لا تحتاج إلى دين على الإطلاق ». ويشدّد (كانت) على ألا تسبب الرقابة أي اضطراب في مجال العلوم كما حدث في حالة جاليلو .. ويجب أن يتمتع اللاهوت الفلسفي بكامل الحرية على قدر ما يمتد إليه علمه »[3] .. وهو موقف معادٍ للكنيسة بسبب تدخلها في العلوم والفلسفة، ويختلف عن موقفه الهادئ في كتابه «نقد العقل العملي» الذي سبق شرحه، وهو موقف ناتج عن اضطهاد الكنيسة له.

ويعتقد (كانت) أن نزعة الشر (الفساد) متأصلة في الإنسان، وذلك لكثرة الأمثلة الصارخة التي تضعها الخبرة أمام أعيننا. وهو لا يوافق جان جاك روسو على أن الإنسان يولد خيّراً

---

(1)ول ديورانت: قصة الحضارة ج227/41.

(2)انظر فصل «ابن رشد» في الجزء الأول من هذا الكتاب.

(3)ول ديورانت: قصة الحضارة ج227/41..

(أو كان خيراً في حالته الطبيعية وفي الطبيعة خارج الحضارة). ولكن كيف بدأ الشر المتأصل في طبيعة البشر. «إنه لم يبدأ بسبب الخطيئة الأصلية ». (أي خطيئة آدم وأكله من الشجرة المحرّمة وهي شجرة العلم والمعرفة حسب قول سفر التكوين من التوراة المحرّفة). ويقول «فلا ريب أن أشدّ التفسيرات سخفاً هو التفسير الذي يصفه ميراثاً منحدراً إلينا من أبوينا الأولين»[1] أي آدم وحواء.

«وربما كانت النوازع الشرّيرة قد تأصلت في الإنسان تأصلاً قوياً لأنها كانت ضرور ية للبقاء في الأحوال البدائية. وهي لا تصبح رذائل إلا في المدينة وفي المجتمع المنظّم . وفيه لا تحتاج (هذه الأخلاق) إلى القمع بل إلى الضبط . فالميول الطبيعية إذا نظرنا إليها في ذاتها خيّرة، أي أنها لا تُلام . ومحاولة القضاء عليها ليست عديمة الجدوى فحسب، بل ضارة ومستحقّة للوم، والأولى أن نروّضها . وبدلاً من أن يصطدم بعضها ببعض يمكن أن يُنسّق بينها لتنسجم في كل ما يُسمّى السعادة. والخير الأخلاقي هو أيضاً غريزي، كما يدلُّ على ذلك الحسّ الأخلاقي في جميع الناس، ولكنه في أول الأمر ليس إلا حاجة، لا بدّ من تنميتها بالتعليم الأخلاقي والتهذيب الشاقّ. وأفضل الأديان ليس الذي يفوق غيره في التمسك الدقيق بالعبادة الطقسيّة، بل أعظمها تأثيراً في الناس ليحيوا حياة أخلاقية[2] .

«والدين القائم على العقل لا يبني نفسه على وحي إلهي، بل على إحساس بالواجب يُفسَّرُ على أنه أقدس عنصر في الإنسان. ومن حقِّ الدين أن ينظم نفسه على هيئة كنيسة، وله أن يحاول تجديد عقيدته بالأسفار المقدّسة، وأن يعبد المسيح بوصفه أعظم البشر شبهاً بالله، وأن يعد بالجنة وينذر بالنار ولا يمكن تصور دين لا يحتوي على اعتقاد بحياة آخرة »[3] ولكن لا ينبغي أن يكون ضرورياً للمس يحي أن يؤكد إيمانه بالمعجزات، أو بلاهوت المسيح، أو بالتكفير عن خطايا البشر بصلب المسيح، أو بالحكم بالجنّة أو النار بالنعمة الإلهية دون النظر إلى الأعمال الصالحة أو الشريرة». وقد أحسن (كانت) في إيراد اعتراضاته على المسيحية وهي تتمثل في: (1) إنكار إلوهية يسوع المسيح (2) صلب المسيح ليكفّر عنا خطايانا (3) إن مجرد الإيمان بيسوع المخلص الخروف الذي ذبح من أجلنا سيخلصنا من جهنم ويدخلنا النعيم الأبدي في الجنة. وفي رأي كانت لا بد من العمل الصالح أولاً وأخيراً لدخول الجنة . وليس من الضروري الإيمان بألوهية عيسى، بل يكفي أن نعترف (حسب رأيه) أنه أقرب البشر إلى الله وهو الصورة المثلى للبشر والإنسان الرباني. وما قاله حق لولا أن محمداً هو الصورة المثلى للبشر، ولكن هذه مسألة بسيطة جداً إزاء قضية تأليه يسوع، والإيمان بقضية أنه صلب من أجلنا، وأنه بالتالي تحمّل عنا جميع الآثام وا لأوزار. وأن مجرد الإيمان به هو النعمة الكبرى ويدخلنا الجنة بدون عمل.

وقد ردّ الله سبحانه وتعالى عليهم وعلى اليهود دعاواهم في القرآن الكريم . قال تعالى {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُ وا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

(1)ول ديورانت: قصة الحضارة ج228/41..

(2)وقد صدق (كانت) في ذلك..

(3)المصدر السابق. وهنا يحاول (كانت) أن يرضي رجال الدين ويخفّف من حملاتهم عليه..

صَادِقِينَ *بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ *} [البقرة/111 - 113] .

وقال تعالى {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ *فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ *} [البقرة/135 - 138].

وصبغة الله هي فطرته وهي الكامنة في نفوسنا والتي تحدث عنها (كانت) فلم يُعرب ولم يحسن الحديث عنها إلا بالعبارات المعقدة والتي سمّاها (النوميني) والقوى الكامنة في أعماق العقل والنفس والتي تدلنا على الحق والخير والجمال.

وقال تعالى {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا *وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا *} [النساء/123، 124].

وقال تعالى {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ *} [المائدة/18].

وقال تعالى {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ *} [المائدة/77].

وللأسف فإن (كانت) لم يكن له أي اطلاع على القرآن الكريم، وربما لم يسمع به، كما هو شأن كثير من فلاسفة الغرب ومفكريه وأدبائه وعلمائه، وخاصة قبل قرنين من الزمن أو أن الصورة التي تصلهم عن الإسلام مشوَّهةٌ أشدَّ التشويه، كما هو معهود اليوم.

ويشدّد (كانت) حملته على الكنيسة فيقول : «أما حين تنقلب الكنيسة إلى مؤسسة لإكراه الناس على الإيمان أو العبادة، أو حين تزعم لنفسها الحقُّ الأوحد في تفسير الكتاب المقدّس وتعريف الأخلاقية، وحين يدعي كهنوتها لنفسه سُبل الاتصال وحده بالله والنعمة الإلهية، وحين تجعل من عبادتها مجموعة طقوس سحرية لها قوى معجزية، وحين تصبح ذراعاً للحكومة وأداة للطغيان، وحين تحاول أن تتسلّط على الدولة، وتستخدم الحكام العلمانيين (أي من غير الكهنوت لأن من لم يكن من الكهنوت فهو يُسمّى عندهم علماني) مطايا للطمع

الكهنوتي ـ عندها يثور العقل الحرّ على كنيسة كهذه، ويبحث خارجها عن ذلك الدين العقلي الخالص الذي هو السعي لبلوغ الحياة الأخلاقية»[1] .

وهكذا يتضح أن (كانت) لم يكن ضد الدين في الأساس، ولا ضد الإيمان بالله واليوم الآخر والأخلاق الدينية، وإنما كان ضد طغيان الكنيسة في أوروبا في عصره والعصور التي سبقته والتي أتت بعده، وعقائدها الفاسدة والمعقدة، وأحياناً المقزّزة كما يقول العالم النفسي (يونج Young) عن عقيدة اليوكاريست (Eucharist) أي «العشاء الرباني»: حيث يقدّمون قطعة صغيرة من الخبز على يد الكاهن للأتباع، فيعتبرون أنهم يأكلون ربّهم يسوع المسيح الذي يتجسد فعلياً (حسب عقولهم الضالة المضلّة) فيأكلون لحمه، ثم يُعطيهم الكاهن قليلاً من الخمر فيتحوّل الخمر (النبيذ الأحمر) إلى دم يسوع فيشربونه. وبذلك تحصل الوحدة بين العبد والرب. ويدخل الربّ في أجسادهم لحماً ودماً . وهي عقيدة وثنية مقزّزة ومقرفة كما يقول يونج وكثير من الباحثين الغربيين أنفسهم.

وأدّت انتقادات (كانت) الشديدة للكنيسة إلى أن يقوم الامبراطور الألماني فردريك الثاني في أكتوبر 1794 بإرسال خطاب تهديد شديد بأن يتوقف تماماً عن الهجوم على الكنيسة حتى يتجنّب سخط الملك، وأن يستخدم مواهبه في الدفاع عن الدين والكنيسة حتى يرضى عنه الملك.

واضطر (كانت) أن يكتب للملك قائلاً: «إنني منذ الآن سأمتنع كلية عن جميع التصريحات العلنية عن الدين سواء في المحاضرات أو المؤلفات» وقد وفَّى بوعده فلما مات الملك عام 1797، وجاء عهد فردريك ويليام الثالث الذي أبطل المرسوم الديني الصادر عام 1788 وفتح باب حرية القول كتب (كانت) كُتيبا سمّاه «صراع المَلَكات» عام 1798 conflict of the faculties كرّر فيه دعواه بأن الحرية الأكاديمية لا غنى عنها للنمو الفكري للمجتمع وبالتالي إعطاء الحرّية لنقد الكنيسة وعقائدها الدوجماطية ووسائلها اللاأخلاقية . وقد استطاع (كانت) بالفعل أن يهزّ الإيمان بالكنيسة وكهنوتها في ألمانيا وأرجاء أوروبا مع ما سبقه وعاصره ولحقه من الكتّاب الذين أدانوا الكنيسة وهرطقاتها[2] .

وفي فترة الضغط عليه أيام فردريك ويليام الثاني كتب إلى صديقه اليهودي الفيلسوف موسى مندلسون يقول: «صحيح إنني أفكر بأوضح اقتناع وبغاية الرضى في أشياء كثيرة، ولكن ليس لديَّ الشجاعة أبداً على قولها، و لكنني لا أقول أبداً أي شيء لا أعتقده ». وهو موقف أخلاقي متوقع من (كانت) صاحب فلسفة «الواجب». ومندلسون (1729 - 1786) كان ضد سيطرة الحاخامات وأن الدين اليهودي يعتمد على وجود الإله والإيمان بالعناية الإلهية وخلود الروح». والعقل يمثل المضمون، والوحي يمثل الشكل . ودين اليهود لليهود فقط.

---

(1)ول ديورانت: قصة الحضارة ج229/41 وهو موقف إنسان نبيل يستخدم عقله ويثور ضد طغيان الكنيسة وخرافاتها وأساطيرها ودينها الذي اخترعته.

(2)ول ديورانت: قصة الحضارة ج230/41 .

وقد قام (كانت) بدور كبير في نشر أفكاره حول السلام بعد مؤتمر بازل سنة 1795 الذي عقد لترتيب الصلح بين ألمانيا وفرنسا وأسبانيا . وكتب كراسة عنوانها «السلام الدائم » معرّضاً بذلك على جهود الساسة الذين كانوا يسعون لسلام مؤقت، ثم يعودون لح روب أخرى، فأرسى أفكاراً قوية لم تتبعها أوروبا إلا بعد الحرب العالمية الثانية بصورة مبتسرة أي بعد 150 عاماً من كتابات (كانت) الرصينة في موضوع «السلام الدائم».

السلام الدائم

وقد أكَّد في رسالته «السلام الدائم» أنه لا يتوقع من الساسة أن يروا فيه أكثر من مجرد معلّم نظري متحذلق عاجز عن إحداث أي ضرر بالدولة . ولكنه رغم ذلك قدّم مقترحاته للسلام الدائم في أوروبا وفيها ست مواد أساسية:

(الأولى) تحريم جميع التحفّظات والملاحق السرّية لأي معاهدة (لأن هذه الملاحق السرّية تقوض الاتفاقات الجيّدة والمعلنة).

(الثانية) يَحرُمُ على أي دولة أن تستولي على أي دولة أخرى أو تسيطر وتهيمن عليها.

(الثالثة) التخلّص التدريجي من جميع الأسلحة والجيوش الدائمة.

(الرابعة) لا يجوز لأي دولة أن تتدخل بالقوة في دستور دولة أخرى.

(الخامسة) لم يذكرها ول ديورانت في قصة الحضارة، ولم أجدها في دائرة المع ارف البريطانية أو غيرها من المراجع التي كتبت عن (كانت).

(السادسة) يجب على كل دولة في حالة حرب أن لا تستخدم الأساليب القذرة في الاغتيالات، والتسميم، وإثارة الفتنة في صفوف الدولة المحاربة أو استخدام أسلحة الدمار . لأن هذه الوسيلة تجعل حدوث سلام بين الدولتين، لو حدث، مؤقتاً فقط، حتى تستعيد الدولة المهزومة قوتها وتعود لتنتقم لما حدث لها ولشعوبها.

وإذا لم يكن مستطاعاً إيجاد سلام دائم مباشرة فيجب السعي لإيجاد نظام عالمي جديد يتضمن الآتي:

(1) يجب أن يكون دستور كل دولة جمهورياً على اعتبار أن الملكيات في عهده تنزع إلى الحروب المتكررة. (وقد تبيّن له فيما بعد أن الجمهوريات تفعل الشيء ذاته وخاب أمله فيها).

(2) يجب أن يُبنى كلُّ حقّ دولي على أساس اتحاد فيدرالي بين الدول الحرّة . وألا يكون هذا الاتحاد دولة عظمى تتحكم في الدول الأخرى وتسبب الحروب والدمار.

(3) ينبغي أن يقرّر كل شعب حكومته الخاصة به. ولكن على كل دولة بمفردها (وخاصة دول أوروبا) أن تتجمع في اتحاد كونفدرالي تُخوَّلُ له سلطة التحكم في علاقاتها الخارجية . وهذا ما حققته أوروبا في أواخر القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين أي بعد مرور أكثر من مائتي سنة من تقديم كانت لاقتراحه هذا.

(4) يجب على الدول أن تمارس القانون الأخلاقي فيما بينها. والشرُّ الأكبر في نظره هو الممارسة الدائمة لهذه الدول ورجال السياسة فيها للخداع والعنف الدوليين (وقد صدق في

ذلك وأمثلة حرب العراق وأفغانستان وجوانتانامو أمثلة صارخة تؤكد ما قاله (كانت) قبل مائتي عام).

(5) يجب أن لا يكون هناك تضارب بين الأخلاق والسياسة . ولا بد للساسة أن يلتزموا بالأخلاق والصدق والأمانة والعدالة (وهو أمر شبه مستحيل) ذلك لأن الأخلاق وحدها هي القادرة على حلّ العقدة التي لا تقوى السياسة على فكها وحلّها.

وآمن (كانت) أن سبيل هذه التغييرات هي التربية والتعليم، وكان دائماً ضد العنف والثورات. وقال: «يجب أن نسمح للطفل منذ نعومة أظفاره بكامل الحرية شريطة ألا يتدخل في حرية غيره، وقد أرسى بذلك مبدأ الحرية الذاتية Autonomy الذي يعتبر من أسس الأخلاقيات في الطب وغيره.

ولكن (كانت) اعترف بوجوب الانضباط والتربية في تكوين الأخلاق «فإهمال الضبط شرٌّ أعظم من إهمال الثقافة، لأن إهمال الثقافة يمكن علاجه في الحياة فيما بعد ». «والتربية الأخلاقية لا غنى عنها وينبغي أن تبدأ في مرحلة مبكرة وإذا كانت الطبيعة البشرية تحتوي بذرة الخير والشر كليهما[1] فإن كل تقدم أخلاقي رهن باقتلاع الشرّ وغرس الخير . ولا يكون هذا بالثواب والعقاب بل بالتشديد على مفهوم الواجب ». (ووجود الثواب والعقاب مهم جداً لغالبية البشر وما قاله كانت بعيد عن الواقع البشري).

وكتب مقالاً بجعل التعليم بعيداً عن تحكم الحكومات وركز على التربية التي تُبعد الناس عن التعصب المقيت سواء كان تعصباً للقوم أو الدين أو الوطن . وكان متفائلاً بأن التقدم الأخلاقي ممكن، وخاصة إذا وجد نظام تربوي منفتح، مع وجود نظام حكومي عادل وغير متعصب.

والجدير بالذكر أن النظام التعليمي في الحضارة الإسلامية كان بعيداً عن تحكم الحكومات وكانت هناك مؤسسات خيرية وأوقاف كبيرة جداً للتعليم في المساجد وما يُلحق بها من مدارس (عرفت باسم مدرسة في العهود المتأخرة منذ أيام المماليك والدولة العثمانية). ولم تكن الدولة تتدخل في النظام التعليمي، بل كان التعليم حُرًّا، وهناك الحلقات المستمرة في المساجد الكبيرة . وكان من أشهرها المسجد الحرام بمكة المكرمة، ومسجد النبي بالمدينة المنورة، والجامع الأزهر بالقاهرة وغيرها كثير . وللطالب الحق في الانتقال من حلقة إلى أخرى ومن شيخ إلى آخر. ولم تكن مواد الفقه والحديث واللغة فقط تدرّس في تلك المساجد، بل كانت الرياضيات والفلك والطب كلها تدرس في تلك الجامعات المفتوحة.

وكان (كانت) يؤمن بأن التاريخ يشهد تقدّماً في الأخلاق . ففي مقال له بعنوان «أفكار لتاريخ عام من وجهة نظر عالمية » نشره عام 1784 قال أن البشرية (والمقصود بذلك أوروبا) تتقدم من الخرافة إلى التنوير. وطالب بمؤرخين يرتفعون فوق التعصب القومي.

---

(1)هنا يبدو أن (كانت) قد نضج تماماً واعترف بوجود بذرة الخير والشر في الإنسان قال تعالى {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا *فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا *قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا *} [الشمس/7 - 10] ولكنَّ إلغائه لمفهوم الثواب والعقاب خطأ فادح، فإن مفهوم الواجب فقط لا يكفي لمعظم البشر في أن يفعلوا الخير ويمتنعوا عن الشر . ولا بد لغالبية البشر إن لم نقل كلهم من وجود ثواب وعقاب «ومن لم يخف العقاب أساء الأدب».

وكان مؤمناً بالتقدم الأخلاقي والفكري وردّ على موسى مندلسون قوله بأن كل تقدم يلغيه تقهقر قائلاً: «في الإمكان الاستشهاد بأدلة كثيرة على أن النوع الإنساني بوجه عام، لا سيما في زماننا بالقياس إلى الأزمنة السابقة كلها، قد سار خطوات لا يُستهان بها نحو حياة أفضل من الناحية الأخلاقية . ولا ينقض هذا القول حالات التوقف المؤقتة، وصراخ القائلين بأن النوع الإنساني ينحطُّ باستمرار».

وكان (كانت) يؤمن إيماناً لا يتزحزح بقوة العزيمة والعقل. وقد كتب في سن السبعين مقالاً بعنوان «في قدرة ا لعقل على التحكم في الشعور بالمرض بقوة العزيمة ». وكان يعتقد أن الإنسان يستطيع أن يتحكم في أمراضه بقوة عزيمته . وقد صدق فإن الأبحاث الحديثة أثبتت أن قوة العزيمة والتفاؤل والرضى النفسي تحسّن جهاز المناعة العجيب لدينا، وبالتالي تلعب دوراً في الوقاية، وفي الشفاء من كثير من الأمراض، أو التخفيف من آلآمها وأوصابها.

واشتهر (كانت) في حياته بالتنظيم والدقة حتى قيل أن الناس في مدينته كونيجزبرج كانوا يضبطون ساعاتهم على موعد خروجه للمشي كل يوم. وكان ينام في العاشرة مساء ويستيقظ في الخامسة صباحاً. وثابر على ذلك لمدة ثلاثين سنة. ولم يكن يحب الإختلاط بالناس ولا إضاعة الوقت في الكلام. وعندما كان يدعو أحداً لبيته فإن العدد لم يكن يتجاوز اثنين، وغالباً ما يكونان من تلاميذه أو زملائه في الفكر والفسلفة، ولم يكن بينهم امرأة قط . ولم يسافر خارج مدينته أكثر من مائة ميل قط، بل ولم ير البحر في حياته وكان حسّه الأخلاقي يفرض عليه حياة الزهد والتقشف حتى بعد أن اشتهر وتحسَّنت حالته المادية.

وقد وافته المنية في 12 فبراير 1804 بعد أن تجمعت عليه الأمراض والوحدة وكانت آخر كلماته: «هذا يكفي». وقد اهتمت به ألمانيا وروسيا بعد موته بأضعاف اهتمامهم به أثناء حياته. وتأثرت بفلسفته أوروبا كلها ولا تزال تتأثر بفلسفته إلى اليوم.

فلسفة الواجب Deontology

يسمي (كانت) فلسفته في الأخلاق فلسفة الواجب (Deontology) على اعتبار أنها تمثل الواجب الذي ينبغي أن يعمله الإنسان دون انتظار لأي جزاء لا في الدنيا ولا في الآخ رة، وإنما استجابة لضمير الإنسان أو الواجب الأخلاقي الذي ينبع من ذواتنا . وهو ما عبَّر عنه القدماء باسم السجيّة. وقد قال الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير »: «الخُلُق السجيّة المتمكنة في النفس باعثة على عمل يناسبها من خير أو شر».

وقد ميّز الماوردي ف ي كتابه «تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك» بين أخلاق تحدث بالطبع والسجيّة، وأفعال تصدر بالإرادة . أما أخلاق الذات فهي عائدة إلى الفطرة . وسميت أخلاقاً لأنها تصير كالخلقة، منها ما هو محمود ومنها ما هو مذموم. وهذا راجع إلى اختلاف ما امتزج من غرائزه (وهي متباينة)، ولذلك صار من غير الممكن وجود فاضل بإطلاق أو دنيء بإطلاق. وإنما الفاضل من غلبت فضائله رذائله فمكَّنَهُ ذلك من قهر رذائله. ومن هنا تصير الأخلاق نوعين: غريزية (فطرية) طبع عليها الإنسان، ومكتسبة تطبّع عليها.

ويفرّق الماوردي بين السجايا والأخلاق: فالسجايا عنده ما لم تظهره الطبائع، والأخلاق ما أظهرته، فكانت قبل ظهورها سجايا، وصارت بعد ظهورها أخلاقاً. وهذه هي أخلاق الذات، وهي راجعة إلى الفطرة. أما أفعال الإرادة فتصدر عن أسباب باعثة عليها، داعية إليها، وهي العقل والرأي والهوى. وأفعال الإرادة إذا صدرت عن العقل كانت فضيلة، وبالتالي إن كانت صادرة عن الهوى أو الرأي التابع لمصلحة خاصة فإنها تكون رذيلة.

وهذا التقسيم أفضل من تقسيم (كانت) وفلسفته. ولكن فلسفة (كانت) وجدت لها صدى في أوروبا في زمنه ولا تزال تحظى بالقبول والتأثير لدى طائفة كبيرة من فلاسفة الأخلاق في الغرب إلى اليوم رغم ما يوجّه لها من انتقادات.

دراسة بوشامب وشيلدرسِ لنظريات (كانت) في الأخلاق

كما درسنا رأي بوشامب وشيلدرس عن المنفعة (المصلحة) (Utility) في كتابهما «قواعد أخلاقيات الإحيائية الطبية» (Principles of Biomedical Ethics) فإننا سنستعرض هاهنا رأيهما في النظرية الكانتيه (Kantian Theory) في الأخلاق وفلسفة الواجب وخاصة أنهما وُضعا في فصل واحد (هو الفصل الثامن من الكتاب) [1].

وقد وضعا شروطاً ثمانية لاعتبار النظرية صالحة للتطبيق. واعترفا بأنه لا يمكن أن توجد جميع هذه الشروط في أي نظرية أخلاقية، وبالتالي لا بدّ من القبول بها لو اشتملت على شروط إيجابية مهمّة ولو لم تحز كل تلك الشروط التي أوضحناها فيما سبق [2]. وقالا عن نظرية كانت (ومن تبعه): «نجد نظريات (كانت) متماسكة ومتطابقة مع كثير مما نراه ولكنها محدودة جداً في مجال الوضوح والبساطة والمخرجات (المحصول أو الناتج)».

وقد ضرب المؤلفان مثلاً بقصة طفلة في الخامسة من العمر تعاني من الفشل الكلوي، وقد وصلت إلى مرحلة لا بد فيها من زرع كلية من متبرع. ووافقت العائلة على إجراء الفحوص لمعرفة الشخص المناسب للزرع. ولم يكن في فحوصات الأنسجة من يصلح لذلك سوى الأب. وقد أخبر الطبيب الأب بالنتيجة، وأخبره أيضاً أنه حتى لو زرعت كلية جيدة وصالحة للزرع، فإن المرض الموجود لدى الطفلة سيسري في الغالب إلى الكلية الجديدة، وبالتالي سيظهر الفشل الكلوي مرّة أخرى بعد فترة زمنية لا يستطيع أن يحددها الطبيب.

وقرّر الأب أنه لا يريد أن يتبرع بكليته لابنته للأسباب التالية: (1) أن المرض في الغالب سيعود إلى إبنته، وبالتالي ستطول فترة معاناتها وقد عانت بما يكفي. (2) احتمال وجود كلية من ميت دماغياً (وهو احتمال ضعيف) (3) يعترف الأب بأنه يخاف من العلمليات الجراحية. وطلب الأب من الطبيب أن لا يخبر زوجته بحقيقة فحص الأنسجة، ويقول لها أن زوجها غير مناسب، على اعتبار أن ذلك سيحطم الأسرة ويؤدي إلى الافتراق أو الطلاق.

---

(1) Beauchanp T, Childress J: Principles of Biomedical Ethics edition, 2001, Oxford University Press, New york pp337 - 383.

(2)أنظر سابقاً من هذا الكتاب.

وقد تردَّد الطبيب كثيراً في أن يقوم بالكذب على الأسرة، لأن الكذب أساساً مرفوض وعمل غير أخلاقي. وسيؤدي ذلك الكذب إلى الانتشار في عالم الطب، وبالتالي سيؤدي إلى فقدان المرضى الثقة بالأطباء، كما أن الكذب في حدِّ ذاته رذيلة.

وقد ناقشنا فيما سبق موقف الفلاسفة الأخلاقيين النفعيين (Utilitarians) بمختلف فئاتهم، وسننتقل هاهنا إلى مناقشة موقف الفلسفة الكانتية Kantian Philosophy أو فلسفة الواجب Deontology كما يعرضها (بوشامب وشيلدرس). إن فلسفة الواجب، حسب المفهوم الكانتي، تقتضي أن لا يكذب الطبيب (أو أي شخص) مهما كانت الظروف لأن الكذب رذيلة، ويجب تجنبها في كل الأحوال، ولو كان الصدق سيؤدي إلى قتل بريء، أو أن الصدق سيؤدي فعلاً (لا وهماً) إلى تحطيم الأسرة كما يُظنُّ في هذه الحالة. وحسب هذه النظرية يجب أن يصارح الطبيب المريض بحقيقة مرضه، ولو كانت هذه المصارحة ستؤدي إلى تعاسة المريض وزيادة حالته شدّة.

وهذا الموقف مرفوض عقلاً وديناً، لأن إنقاذ حياة أهم من كذبة، وقد سمح الإسلام بالكذب في مثل هذه المواقف، بل في مواقف أقلَّ منها شدّة، مثل إصلاح ذات البين، ومثل ما يكون بين الزوجين حتى تدوم العشرة الزوجية التي قد تتعرض للخطر في بعض الحالات بمجرد قول الحقيقة، كما في الحالة المذكورة أعلاه.

وقد أمرنا بالتنفيس عن المريض. فقد أخرج الترمذي في سننه (كتاب الطب) وابن ماج ه في سننه (كتاب الجنائز): عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله : «إذا دخلتم على المريض فنفّسوا له في الأجل، فإن ذلك لا يرد شيئاً، وهو يطيّب نفس المريض » . وقد سبق الإشارة إلى ما ذكره ابن القيم في الطب النبوي من أهمية هذا الحديث وإن تطييب نفس المريض تتقوى به الطبيعة (أي طبيعة المريض وجهازه المناعي) وتنتعش به القوّة فيساعد على دفع العلّة أو تخفيفها الذي هو غاية تأثير الطب . ولا شك أن التأثير النفسي والتفاؤل له دور في دفع العلّة أو تخفيف آثارها.

وإذا تركنا جانباً موضوع الكذب في قصة هذه الطفلة المحتاجة لزرع كلية ، فإن هناك جوانب أخرى أخلاقية وهي : (1) سرّ المهنة : فعلى الطبيب أن يحافظ على سرّ مريضه، وخاصة أن المريض (وهنا الأب المفروض أن يتبرع بكلية لابنته ولكنه لم يرغب في ذلك) قد نبَّه الطبيب ورجاه أن لا يخبر زوجته بالأمر. وعليه يكون من واجب الطبيب الحفاظ على هذا السرّ. ولا يوجد ما يبرّر كشف هذا السرّ، إذ لا يباح كشف السرّ في المهنة الطبيّة إلا في ظروف مقيّدة جداً، ومنها إذا كان هناك مرض معدٍ وفرضت الإدارة الصحية التبليغ عنه، فيكون التبليغ للجهة المسؤولة فقط، أو إذا كان هناك خطر على صحة أو حياة الآخرين أو أفراد بعينهم فيجب إبلاغهم بهذا الخطر، أو إذا أمرت المحكمة في موضوع محدّد معلومات من الطبيب، وفي هذه الحالة لا يزال هناك وجهات نظر متعارضة في الكشف عن السرّ أو عدم الكشف عنه، والاتجاه إلى الكشف إذا كان ذلك سيوضح جريمة أو ينفي تهمة عن بريء.

والخلاصة أن الطبيب ملزم في م ثل الحالة التي أوضحناها بالتزام السرية وعدم البوح بالمعلومة، وعليه أن يستعمل المعاريض وفي المعاريض مندوحة عن الكذب.

وهناك مبدأ الحرية الذاتية autonomy ومن حق الأب أن يرفض أن يتبرع بكليته لابنته، وبالتالي لا يعتبر موقف الأب غير أخلاقي، ولذا فإن على الطبيب أن يحترم هذا القرار.

ويعتبر (كانت) أن القرار لكي يعتبر أخلاقياً ينبغي أن يصدر عن الشخص باقتناع بأنه يقوم بواجب أخلاقي، لا يرجو منه جزاء ولا شكوراً (لا من الناس ولا من ربّ الناس). فإذا قام الأب في هذه الحالة مثلاً بالتبرع لابنته بكليته بدافع الشفقة أو المحبةّ لابنته أو لأي اعتبار آخر غير الإحساس بالواجب الأخلاقي، فهو قد عمل عملاً جيّداً، لكنه لم يقم بعمل أخلاقي حسب تفسيرات (كانت) ومدرسته الأخلاقية. ومن باب أولى يعتبر أي عمل ولو كان مفيداً للآخرين، نتيجة الرغبة الشخصيّة، أو الخوف من الانتقاد أو بمجرد التعاطف والشفقة، يعتبر ذلك العمل جيّداً في حد ذاته، ولكنه ليس عملاً أخلاقياً حسب تعريفه، لأن العمل الأخلاقي لا يكون إلا استجابة للواجب الأخلاقي بصرف النظر عن جميع الدوافع الأخرى. وهو أمر من النادر أن يتحقّق في الحياة. بل هو مفهوم طوباوي يعيش في عالم المثل التي أبرزها أفلاطون (Plato) قبل أكثر من ألفي عام منذ زمن (كانت).

لهذا كله فإن (كانت) يعتبر هذه العوامل الخارجية المؤثرة على القرار الشخصي كلها عوامل يجب أن تستبعد حتى يكون القرار أخلاقياً ونابعاً من الحرية الذاتية (Autonomy) ومن الإحساس الأخلاقي بالواجب (Deontology) وقد أعلى (كانت) من شأن الذاتية باعتبارها أهم معالم الأخلاقيات : The Principle of autonomy alone gives people respect, value and proper motivation. A Persons dignity - indeed sublimity - Comes from being morally autonomous.

«إن مبدأ الحرية الذاتية وحده يعطي الناس الاحترام والقيمة والدافع الحقيقي . إن الكرامة الشخصية والتسامي: تأتي من كون الإنسان حُرَّاً ومتحكّماً في ذاته».

ولقد كان تأثير (كانت) عظيماً في هذا الجانب، وخاصة في موضوع التجارب الطبية التي كانت تُجرى بدون موافقة متبصّرة من الذين تُجرى عليهم التجارب. وفي أحيان كثيرة بكذب مباشر كما حدث في توسكاجي ألباما بالولايات المتحدة عندما كذبوا وخدعوا بضع مئات من الفقراء السود المصابين بالزهري وأوهموهم بالعلاج، ولكنهم لم يعالجوهم أبداً، رغم توفر البنسلين (وهو علاج ناجع جداً في القضاء على الزهري) واستمرّوا في الكذب عليهم، وأخذ عينات من الأحياء والأموات حتى عام 1972 عندما فضحهم أحد الأطباء، ونشر ذلك في الصحافة. واضطرت الجهات الرسميّة الداعمة لهذا البحث الحقير إلى التوقف، ثم اضطر الرئيس كلنتون إلى الاعتذار علناً للأمة الأمريكية وللشخص الباقي الوحيد من هذه المجموعة التي توفي أغلبها بسبب مرض الزهري.

وأصبحت التجارب، وخاصة بعد تجارب الطبيب النازي منجلي (في الأربعينات من القرن العشرين) محل هجوم من جميع الجهات وخاصة بعد محاكمة نورنبرج التي أدانت هذه التجارب ومن قاموا بها.

وبعد جهود متواصلة أصبح إجراء التجارب الطبيِّة في الغرب مقيّداً بقيود كثيرة جداً أهمها الموافقة المتبصّرة الواعية من الشخص البالغ الحرّ الذي يستطيع أن يقبل أو أن يرفض، أو

ينسحب من التجربة في أي وقت يشاء، دون أن يقع عليه أي ضرر من أي جهة كانت . وإذا أصيب هو بالضرر فإن له الحقّ في التعويض الكامل . لهذا كله اتجه ت الشركات الدوائية والأطباء في الغرب إلى العالم الثالث لإجراء تجاربهم دون رقابة ـ ولكن الوعي انتشر، وأصبح من العسير إجراء هذه التجارب حتى في العالم الثالث دون قيود مشدّدة تشبه إلى حد كبير القيود والضوابط الموجودة في الغرب، وذلك بعد سلسلة من الفضائح التي تزكم الأنوف والتي قامت بها الشركات الدوائية العملاقة.

الأخلاقيات الكانتيّة المعاصرة

تمّ تطوير أخلاقيات (كانت) على يد كثير من الفلاسفة في القرن التاسع عشر بعد وفاة كانت، ثم ظهرت تطورات أخرى على أيدي الفلاسفة في نهاية القرن العشرين.

ومن هؤلاء : (1) ألآن دوناجان (Alan Donagan) الذي أصيب بلوثة منتشرة في الغرب وهي القيم اليهودية المسيحية (Hebrew - christian Tradition) وهي قصة اخترعها اليهود الذين سيطروا على كثير من مراكز الأبحاث في الجامعات الغربية، وخاصة في الجانب اللاهوتي ومقارنة الأديان والأنثروبولجي والأخلاقيات.

ولم يكن بين اليهود والنصارى على مدى التاريخ إلا اللعن. والأناجيل تشهد على ذلك ففي إنجيل متَّى الإصحاح 21 «قال لهم يسوع »: «الحق أقول لكن إن العشّارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله، لأن يوحنا جاءكم في طريق الحقّ فلم تؤمنوا به وأما العشارون والزواني فآمنوا به ..» وقال لهم يسوع : «مكتوب بيتي بيت الصلاة وأنتم جعلتوه مغارة لصوص».

وفي إنجيل متَّى الإصحاح 23 خاطب يسوع أحبار اليهود قائلاً : «ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تغلقون ملكوت السموات قدّام الناس. فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون . ويلٌ لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تأكلون بيوت الأرامل، ولِعلّةٍ تطيلون صلاتكم، لذلك تأخذون دينونة أعظم . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلاً واحداً، ومتى حصل تصنعونه إبناً لجهنم أكثر منكم مضاعفاً... أيها الحيّات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم».

والأناجيل كلها لعن لهؤلاء اليهود الكفرة الفجرة، وكان النصارى، ولا يزال كثير منهم، يكرهون اليهود، وكم أحرقوا من اليهود في أسبانيا وأوروبا . وكم طردوا منهم وذبحوا باعتبارهم قتلة الرب (يسوع) حيث اعترفوا لبيلا طس النبطي حاكم أورشليم بأن دم هذا البريء عليهم وعلى أبنائهم. (قال لهم بيلاطس: دم هذا البريء عليكم. قالوا: دمه علينا وعلى أولادنا).

ولم يجدوا المعاملة الحسنة إلا في الدولة الإسلامية، وخاصة في الأندلس، وفي الدولة العثمانية، وفي المغرب العربي الكبير بعد أن تمّ طردهم من أسبانيا.

وهاك ملخص مختصر جداً جداً عن بعض المذابح لليهود في أوروبا[1] :

في إيطاليا: مذبحة عام 1242 ومذبحة عام 1540.

في بريطانيا: مذبحة عام 1290، ثم منع أي يهودي من دخول بريطانيا.

فرنسا: مذبحة لويس التاسع، ثم مذبحة فيليب الوسيم ثم مذبحة عام 1341 ثم مذبحة عام 1394.

أسبانيا: مذابح محاكم التفتيش التي استمرت طوال القرن الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر. واستمر الاضطهاد حتى عهد فرانكو في القرن العشرين.

روسيا: مذابح متعدّدة في كل عهود القياصرة حتى قامت الثورة البلشفية التي كان معظم قادتها من اليهود.

وكل هذه المذابح كانت تحدث بصورة شديدة عندما يُطبع التلمود، وهو الكتاب التشريعي الهام لدى اليهود (ويعتبرونه الوحي الشفوي الذي كتبه الأحبار وهو أهم لديهم من التوراة ذاتها). وآخر هذه المذابح تمت في عهد هتلر في أواخر الحرب العالمية الثانية [2]. وإن كان اليهود الآن يبالغون في أعداد من قتل في هذه المحرقة.

وفي التلمود يوجد ما يلي : (1) يسوع الناصري موجود في لُجَّات الجحيم بين الزفت والقطران والنار. وأمه مريم أتت به من زناها بالعسكري يوسف باندرا. ويسوع المسيح ارتدّ عن دين اليهود وعبد الأوثان. وكل مسيحي لم يتهوّد فهو يعبد الأوثان وعدو لله ولليهود.

(2) الكنائس المسيحية بمثابة القاذورات والمزابل والواعظون فيها كلاب نابحة.

(3) قتل النصارى من الأفعال التي يكافىء الله عليها . وإذا لم يتمكن اليهودي من ذلك فواجب عليه أن يتسبّب في إهلاكهم في أي وقت، وعلى أي وجه.

(4) يجب على اليهودي أن يلعن النصارى كل يوم ثلاث مرات، ويطلب من الله أن يبيدهم ويفني ملوكهم وحكامهم.

(5) على اليهود أن يعاملوا النصارى كحيوانات دنيئة نجسة . ويحقّ لليهودي أن يطعم الكلاب في الأعياد، ولكن لا يحق له أن يطعم النصارى الذين هم أشدّ نجاسة من الكلاب والخنازير.

(6) المعجزات التي قام بها يسوع كانت بقوة السحر. وقد تعلّم السحر عندما كان في مصر من سحرتها.

---

(1)لمعرفة تفاصيل أكثر عن اضطهاد أوروبا لليهود بسبب جرائمهم المتعددة راجع كتاب عيد الوهاب المسيري ( ): اليهود واليهودية والصهيونية، الموسوعة الموجزة ج 137/1 - 212 وانظر بصورة خاصة للصفحات 148 - 156 تحت عنوان بعض التجليات المتعينة لمعاداة اليهود .

(2)انظر من 80 - 84 (حرق التلمود) وص 117 - 119 من كتاب «المسيح المنتظر وتعاليم التلمود» لكاتب هذه السطور، إصدار الدار السعودية، جدة.

(7) وتعلّم يسوع ما يقوله للناس على يد حبر مطرود من الكنيس اليهودي لهرطقته وكفره وهو جوشوا بن برخيا (Joshua bin Ferachia) .

(8) حكمت المحكمة اليهودية العليا السنهدرين بأن يسوع أفّاق وساحر وكاذب . ورغم أن السنهدرين طلب من جميع سكان القدس أن يتقدم أحدهم بشهادة لتبرئة يسوع فلم يتقدم منهم أحد، لأن الجميع قد أجمعوا على جرمه وأنه مستحق للصلب.

(9) صُلب يسوع مع لصّ وقاطع طريق بعد أن طافوا به في شوارع القدس وهو يصرخ ويصيح ويبكي، وهم يصفعونه بالأحذية على وجهه، ولو كان نبيّاً أو إلهاً لأنقذه الله أو أنقذ نفسه من هذا المصير البائس، وهم يبصقون في وجهه.

(10) تلاميذ المسيح ملحدون وهراطقه.

(11) كُتب العهد الجديد أي الأناجيل تسمى كتب العار والإثم.

ويقول الدكتور جوزيف باركلي في كتابه «الأدب العبري»: «إن الطبعات الأولى من التلمود شملت كثيراً من كلمات السبّ والشتم ضد سيدنا المسيح وضد المسيحية .. ولكن الطبعات الأخيرة لا تشمل إلا القليل جداً من شتم المسيح».

وقد منع أحبار اليهود طبع التلمود إلا للأحبار فقط، وهو يطبع سنوياً للأحبار ويوزع عليهم فقط . ورغم ذلك توجد سطور غُفْلٌ (أي ليس فيها كتابه) يشرحها الرابي الحاخام لتلاميذه. وهي كلها شتائم ليسوع وللنصارى.

فأين هو التراث اليهودي المسيحي المشترك الذي يتحدثون عنه؟ إنه خرافة وأسطورة وضعها اليهود ليضلّلوا أجيال النصارى وخاصة بعد أن تم القضاء على النازية في الحرب العالمية الثانية .

قال تعالى {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ} [البقرة/112].

وهذه الأكذوبة الكبرى التي يتحدثون عنها وكأنها الحقيقة الأولى «التواث اليهودي المسيحي المشترك والأخلاق اليهودية النصرانية، والحضارة اليهودية المسيحية » كلها مخترعات أوجدها هؤلاء اليهود الذين استولوا على المراكز الجامعية في الغرب».

وقد كان موسى بن ميمون (ميمونيدس) طبيب صلاح الدين يكتب ويجادل عن التراث اليهودي الإسلامي المش ترك، وأن المسلمين هم أقرب الناس لليهود، وأن النصارى هم وثنيون وأبعد الناس عن اليهودية . وهكذا هم اليهود طوال تاريخهم يتقرّبون للأمة الأقوى وينافقونها، ويتقرّبون إليها بكافة الوسائل حتى يمكّنوا، ثم بعد ذلك يعملون فيها هدماً وتخريباً . وهم المفسدون في الأرض قال تعالى {كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا} [المائدة/64].

ونعود إلى آلآن دونجان Alan Donogan المعاصر والذي قدَّم نظريته وكتابه نظرية الأخلاق The Theory of Moralty واعتمد فلسفة كانت في الواجب ولكنه عبأها

بخرافات «التراث اليهودي المسيحي المشترك » الذي لا وجود له كما أسلفنا . وأكّد على معاملة الإنسان كغاية في ذاته وليس كوسيلة لغايات أخرى . وأن كل إنسان هو في النهاية إنسان عاقل Rational creature . ويعتقد أن كل المبادئ الأخلاقية. تبنى على هذه القاعدة.

ومن أعلام الكانتيه المعاصرة (2) جون راولس (John Rawls) الذي تحدّى الفلسفات النفعية وأيَّد نظريات (كانت) في موضوع العقل والحرية الذاتية والمساواة (Reason, Autonomy, Equality) ، وأن هذه القيم هي الأساس في احترام الذات وحقوق الأفراد، وتوزيع الخيرات، وتحمل المسؤولي ات في المجتمع . ويرى راولس أن أي فلسفة ترى أن حقوق الإنسان التي تتفوق على المبادىء الأخلاقية العقلية هي فلسفة مرفوضة . وحتى الأعمال الشجاعة والتي يقرّها الضمير لا قيمة لها عنده ما لم تقرّها المبادئ الأخلاقية العقلية (الكانتية). ودافع بقوة عن الأساس الأخلاقي للنظام الديمقراطي الدستوري. ويعترف راولس بأن (كانت) لا علاقة له بهذه النظرية، ولكنها كما يقول مستمدّة بالقياس من أفكاره ونظريته الأخلاقية.

وهناك عدد من الفلاسفة الكانتيين مثل روبرت نوزيك (Robert Nozick) وبرنارد وليامز (Bernard Williams) وتوماس ناجل (Thomas Nagel) الذين قالوا بنظرية الكوابح الأخلاقية للواجبات أو الكوابح النابعة من الواجب Deontological Constraints وأكّدوا على صوابية (كانت) في قوله: إن بعض الأعمال غير مسموح بها أخلاقياً، ولو كانت نتائجها حسنة (وهو ضد الغاية تبرر الوسيلة). ووضعوا لذلك مثالاً وه و ما حصل في الولايات المتحدة الأمريكية حيث قامت ثلاثة مستشفيات جامعية (سنة 1945 إلى 1947) ببحث في كيفية معرفة تأثير البلوتونيوم (وهي مادة مشعّة شديدة الخطورة) على القوات العسكرية التي قد تحتاج لاستخدامها . وكان البحث المطلوب معرفة إخراج البلوتونيوم من الجسم بعد التعرض له (excretion rate of Plutonium in humans) .

وبدأ الباحثون بإعطاء البلوتونيوم لمرضى مصابين بالسرطان، لا لغرض التداوي، بل لمعرفة كيف يتم التخلص من البلوتونيوم من الجسم الإنساني . وبطبيعة الحال لم يتم أخذ الموافقة من هؤلاء المرضى، وتم إيهامهم بأن ذلك ضمن العلاج . وقد زعم الباحثون أنهم بتعريضهم هؤلاء المرضى للخطر، بل للموت، أنهم ينقذون الآف الأشخاص الذين يعملون في المفاعلات النووية، وفي القوات المسلحة، وأن هذه التضحية بهذا العدد القليل من البشر (المتوقع أنهم من السود لأن بوشامب لم يذكر شيئاً عنهم معتقداً) هو عمل إنساني نبيل.

أما أصحاب نظرية الكوابح الأخلاقية (Deontological Constraints) فإنهم يرون أن استخدام البشر وتعريضهم للخطر والموت هو عمل غير أخلاقي، ولو كان سينقذ آلآف أو حتى ملايين البشر. والوسيلة القذرة هي وسيلة قذرة ولا أخلاقية. و«الغاية لا تبرّر الوسيلة»، كما يرى كثير من أصحاب الفلسفة النفعية.

ويعلّق بوشامب وشيلدرس على هذه الأقوال بأن أصحاب هذه النظرية يمنعون الأخ أن يسرق ميراث أخيه، ولكنهم لا يخبروننا كيف نقسّم التركة بين هؤلاء الأخوة؟ أي أنهم لا

يوضحون لنا الوسيلة التي نستطيع بها أن نحمي البشر دون أن نعرّض بضعة أفراد للمخاطر.

واعتراض بوشامب وشيلدرس في غير محلّه. فليس من المفروض من أصحاب النظرية الأخلاقية أن يوجدوا الوسائل للمعرفة أو لحماية البشر .. الخ. ولكن المفروض من أصحاب النظرية الأخلاقية أن يوضحوا لنا هل هذا الفعل فعل أخلاقي يجوز فعله أم لا يجوز فعله أخلاقياً. وقد فعلوا ذلك، وهذا في نظري يكفي تماماً لقبول وجهة نظرهم.

ويقول بوشامب وشيلدرس: أما أصحاب الفلسفة النفعية (Utilitarians) فلا أهمية عندهم لبضعة أشخاص (وخاصة إذا كانوا من السود أو من الأجناس غير البيض) يتعرضون للمخاطر في سبيل إنقاذ آلآف وربما ملايين البشر. بينما يرى أصحاب فلسفة الواجب أن النتائج غير ذات بال إذا كانت الوسائل المتّخذة في تحقيقها غير أخلاقية، وهو موقف سليم تماماً أخلاقياً في رأينا.

ويضع بوشامب وشيلدرس القضية التالية:

إذا كان هناك شخص مريض (مرض الموت) ومن شدة ألمه يطلب من الطبيب أن يريحه من هذه الحياة، وعائلة هذا الشخص أيضاً موافقة على هذا الإجراء، ويعتقد الطبيب أن كل واحد (الأسرة والمريض وربما أيضاً المستشفى) سيكون أحسن حالاً لو استجاب لهذا الطلب، وهنا سيختلف موقف الطبيب الذي يؤمن بالنظرية الأخلاقية النفعية والذي سيوافق على ق تل المريض (إراحة المريض من آلامه حسب طلبه وطلب أسرته) عن موقف الطبيب الذي يؤمن بالنظرية الأخلاقية الكانتية (فلسفة الواجب)، لأن هذا الأخير سيرى من واجبه الطبي: إنقاذ الحياة، وليس إزهاقها. وبالتالي سيرفض ما يسمى «قتل الرحمة» (Euthanasia) ولو كان بطلب المريض نفسه، وبموافقة أهله على ذلك.

ما هو الموقف بالنسبة للطبيب المسلم؟ طبعاً سيرفض الطبيب المسلم هذا الطلب، وإن كان مقدم الطلب ليس مسلماً، لأن مهمة الطبيب المحافظة على الحياة وليس إزهاقها، حتى ولو كان بطلب الشخص. وتختلف المذاهب الإسلامية في الحكم على من قتل شخصاً بطلبه، فمنهم من قال القصاص، ومنهم من قال الدية، ومنهم من قال يأثم إثماً عظيماً وهو حكم أخروي وليس دنيوي. وحكم التعزير يرجع إلى ولي الأمر والقاضي ليحدّد مدى العقوبة ونوعها.

وبالنسبة لقضية التجارب واستخدام البلوتونيوم فإن أصحاب الفلسفة النفعية كما يقول بوشامب وشيلدرس يرون أنه لا مانع من التضحية بشخص أو أشخاص معدودين (وخاصة إذا لم يكونوا من الجنس الأبيض)، إذا كانت الفائدة كبيرة جداً لآلاف الأشخاص. وفي رأينا أن موقف المجموعة الكانتية (نسبة إلى كانت) موقف سليم ومبدأي أيضاً لأنهم يرفضون أن يكون الإنسان وسيلة وأداة لمصلحة مجموعة أخرى، وبالتالي يرفضون مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» الذي يؤمن به أصحاب المذهب النفعي. وهو ما نؤيده بقوة من وجهة النظر الإسلامية، وتتفق فيه معنا الأديان كلها (إلا إذا انحرفت).

ويرى أصحاب نظرية الواجب الأخلاقية أن كل إنسان له قيمته الذاتية، ولا يجوز إحداث ضرر به عمداً لإنقاذ آخرين. كما لا يجوز قتل المريض المشرف على الموت لنريحه من آلآمه حسب قولهم، حتى ولو كنا نعتقد أنه سيموت بعد أيام أو أسابيع قليلة.

نظرة نقدية للفلسفة الأخلاقية الكانتية

يعتقد بوشامب وشيلدرس أن النظرية الأخلاقية الكانتية قاصرة مثلما هي النظرية الأخلاقية النفعية، وإن كانت كل واحدة منهما تحقق جوانب مهمة، إلا أنها تقع في المحذور في جوانب أخرى.

اصطراع الواجبات : نفرض أننا وعدنا أطفالنا برحلة، ووعدنا كذلك الوالدة بأنها إذا مرضت فإننا سنقف معها وندخلها المستشفى. ولنفرض أن كلا الأمرين وقعا في وقت واحد . فإن صاحب الفلسفة الكانتية سيقع في حرج شديد إذ أن كلا الوعدين يجب أن ينفّذا طالما أن الشخص قد وعد بذلك. وبالتالي لا يوجد حلّ مرضٍ لهذه القضية من وجهة النظر الكانتية . لأن المقولات الأخلاقية عند (كانت) مطلقه، ولا بدً من الالتزام بها، ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نفي بكلا الالتزامين في وقت واحد.

والأمر في واقع الأمر أبسط من هذه السفسطة. فبالنسبة للمسلم لا بدّ من تقديم رعاية الأم أو الأب، وخاصة إذا كان أحدهما مريضاً . وأما الأولاد فالرحلة يمكن أن تؤجل إلى وقت آخر. بل إن لم يكن هناك وعد أو التزام من الشخص لوالده أو والدته بالقيام بذلك . فإنه ملزم شرعاً، ولا يحتاج الأمر بالنسبة للمسلم أن يكون قد التزم لوالده أو والدته بذلك . وإذا لم يبادر إلى تقديم الرعاية لوالده أو والدته وخاصة عند المرض والحاجة لذلك، فهو عاقّ . والعقوق من أخبث الخطايا وقد وضعها الرسول ا لكريم مباشرة بعد الشرك بالله . فالاختلاف بيننا وبينهم جذري وأساسي ولا مجال للمقارنة بين الموقفين.

والواجبات تختلف في أهميتها وتقديم الأهم على المهم من أساسيات القواعد الفقهية في الإسلام، وكذلك الضرر ينبغي أن يزال، فإن كانت هناك أضرار في وقت واحد قُدِّم إزال ة الضرر الأكبر على الأصغر وقد سبق أن شرحنا ذلك عند الحديث عن المصلحة في الإسلام ويعتقد الفلاسفة الكانتيون (أي الذين يتبعون أسس كانت الأخلاقية) مثل جون راولس (John Rawls) أن الكوابح الأخلاقية والأسس التعاقدية الأخلاقية بين الأفراد، والحرية الذاتية هي الأسس الهامة للأخلاق في أي مجتمع متحضر. ولا يحصرون هذه الأسس على الأفراد، بل يعممونها على المجتمعات، والتعامل ما بين الفرد والمجتمع، والمجتمع والدولة، والدول فيما بينها.

ويرى بوشامب وشيلدرس أن هذه الأسس التعاقدية Contractual basis for obligations تصلح للعلاقات بين الدول وبين الدولة والفرد وبين الأفراد في المجالات التعاقدية، ولكن العلاقات بين الأفراد تتجاوز ذلك إلى الصداقة وإلى العلاقات الأسرية الحميمة، وهي بدون شك أقوى من الأمور التعاقدية وكأنها أمور قانونية أو أعمال تجارية يحكمها القانون وشروط العقد.

وعلاقة الآباء بأبنائهم ليست مبنيَّة على أمور تعاقدية، بل هي مبنية على المحبّة والشعور بالمسؤولية تجاه الأبناء، وبالمثل فإن علاقة الأبناء بآبائهم وأمهاتهم لا تدخل في باب التعاقد، بل هي أسمى من ذلك بكثير، وهي علاقات مبنية على المحبة والرحمة والمودة وبرّ الوالدين إلى غير ذلك من المبادىء السامية التي أتت بها الأديان السماوية كلها، بل وعرفها الإنسان البدائي بفطرته . وقل مثل ذلك في العلاقة بين الزوجين وبين الأخوة والأقارب، بل والأصدقاء، فهي علاقات مبنيّة على المحبة والرحمة والمودة، بل والإيثار.

صحيح أن عقد الزواج في الإسلام هو عقد ينبغي الالتزام به، ولكنه الحدّ الأدنى والعلاقة الزوجية تتبني أساساً على المودة والرحمة كما قال تعالى {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *} [الروم/21].

ونظرية (كانت) الأخلاقية التي تقوم على مبدأ التعاقد والالتزام به، لا تصل هذا المستوى الإنساني الرفيع أبداً وتبقى دائماً في السفح عند المستوى التعاقدي وهو أمر لا يصلح للحياة الإنسانية في النطاق الأسري وفي نطاق الصداقة.

وقد قام الفيلسوف هيجل بانتقاد نظرية «كانت» بأنها تفتقد القدرة على إيجاد نظام واضح للأخلاق المهنيّة (Professional Ethics) ، وهي الأخلاق التي يلتزم بها أصحاب كل مهنة في إطار مهنتهم، وبالتالي تنظم مهنتهم في الجوانب الأخلاقية، ويتم الالتزام بها . ويرى هيجل أن «العقلانية » و«الإنسانية » و«الحرية الذاتية » كلها أمور جيّدة، ولكنها لا تكفي لوضع نظام للأخلاق المهنيّة، واعتبرها من الناحية العملية والتطبيقية فارغة وغير عملية في كثير من الأحيان ولا تجيب على كثير من التساؤلات، ولا تحل كثير من المعضلات التي تواجهها هذه النقابات المهنيّة من الجانب الأخلاقي.

ويلخص بوشامب وشيلدرس رأيهما في نظريات (كانت) الأخلاقية كالتالي:

يقول (كانت): إذا كانت الدلائل العقلية تؤيد عملاً ما من الناحية الأخلاقية، فإنه بالقياس يمكن استخدام ذلك الحكم على كل موقف مشابه. وكمثال على ذلك فإننا إذا قررنا من الناحية الأخلاقية وجوب الحصول على إذن متبصر واعٍ informed consent من أي شخص بإرادته الحرّة لإجراء العمل الطبي أو البحثي عليه، فإنه لا يمكن أن نستثني من ذلك أحداً لأي سبب كان. فوجوب الإذن بإجراء التجارب خاصة مهم جداً، ولو كان ذلك العمل مهم للتقدم الطبي وسيفيد آلآف أو حتى ملايين البشر. ولهذا لا يمكن إجراء التجارب الطبية على المساجين أو المعتقلين أو الأسرى أو المرضى من المتخلفين عقلياً أو أطفال الملاجىء ... الخ وقد حدث ذلك كله في القرن العشرين مرات عديدة وبنتائج فادحة ضارّة لهؤلاء الذين أجريت عليهم هذه الأبحاث.

ولذا فإن الأبحاث على هذه الفئات التي لا تستطيع أن تعطي قراراً حُرّاً واعياً مدركاً informed consent ، يجب أن تتجنبها الأبحاث، إلا بشروط مشدّدة، واعتبارات كثيرة منها أن يفيد البحث الشخص الذي سيجرى عليه أو المجموعة المماثلة له.

وقد استطاعت النظريات الكانتية في القرن العشرين بأن تقوم بهذا العمل الجيّد وإذا لم يكن للكانتيه (الحديثة) إلا هذا الفضل وحده في مجال أخلاقيات الطب فإن ذلك يعتبر إنجازاً هاماً تستحق فيه هذه النظرية الأخلاقية أن تزهو بأنها قدمت للطب وأخلاقياته إنجازاً رائعاً.

المراجع

(د.ت = دون تاريخ)

القرآن الكريم والتفسير

(1) محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم كتاب الشعب، القاهرة (د.ت.).

(2) حسنين مخلوف: كلمات القرآن تفسير وبيان، دار الكتب العلمية، بيروت 1408هـ/ 1988.

(3) القرطبي (أبو عبدالله محمد الأنصاري): الجامع لأحكام القرآن، طبعه مصورة (د.ت.).

(4) ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي): تفسير القرآن العظام، عيسى البابي الحلبي، القاهرة (د.ت.).

(5) ابن جرير الطبري (محمد): جامع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة، بيروت (د.ت.).

(6) المحلّي (محمد بن أحمد) والسيوطي (عبدالرحمن بن أبي بكر)؛ تفسير الجلالين، المكتبة الشعبية (د.ت. ود.م).

(7) الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن الكريم، دار القلم، دمشق / الدار الشامية، بيروت /1412هـ/ 1992. تحقيق صفوان عدنان داوودي.

(8) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.

(9) الرازي (الفخر محمد بن عمر القرشي): التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، طهران ط2، (د.ت.).

(10) الماوردي (أبو الحسن علي بن محد): النكت والعيون، تحقيق السيدعبد المقصود، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.

(11) أبو حيان التوحيدي الأندلسي: البحر المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ/ 1993م.

(12) الزمخشري (جار الله) الكشاف عن حقائق التنزيل، دار المعرفة، بيروت (د.ت.).

المعاجم والكشافات

(1) الجوهري (إسماعيل بن حماد): الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، القاهرة، 1982 (ط2) على نفقة الشربتلي.

(2) ابن منظور (محمد بن مكرم الخزرجي): لسان العرب، دار المعارف القاهرة، ودار صادر بيروت، 1981.

(3) ابن فارس (أحمد بن فارس بن زكريا): معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة، 1969.

(4) أبو هلال العسكري: الفروق في اللغة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980.

(5) الفيروزبادي (محمد بن يعقوب): القاموس المحيط، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت (د.ت.).

(6) الفيروزباري (محمد بن يعقوب): بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المكتبة العلمية، بيروت (د.ت.).

(7) الجرجاني (علي بن محمد الشريف): كتاب التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، 1403هـ/1983.

(8) التهانوي (محمد علي): كشاف اصطلاح الفنون والعلوم، مكتبة لبنان، بيروت 1416هـ/1996م.

(9) حاجي خليفة (مصطفى بن عبدالله) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار العلوم الحديثة، بيروت طبعة مصورة.

(10) قاموس وبستر اللغة الإنجليزية الطبعة الموسوعية، 1989 The New Lexicon Webster's Dictionary of the English Language, Encyclopedic Edition, NewYork, 1989.

(11) كحالة (عمر رضا): معجم المؤلفين. دار إحياء التراث العربي. بيروت (د.ت.).

الموسوعات

(1) موسوعة نظرة النعيم في مكارم أخلاق الوسول بإشراف د. صالح ابن عبدالله بن حميد وعبدالرحمن بن محمد بن ملوح، دار الوسيلة، جدة 1418هـ/1988م.

(2) الموسوعة العربية العالمية، الرياض، مؤسسة أعمال الموسوعة طـ2، 1419هـ/1999م.

(3) دائرة المعارف البريطانية باللغة الإنجليزية الطبعة 15 لعام 1982. Encyclopedia Britannica, Encylopedia Britannica Inc., Chicago London, 15th edition, 1982.

(4) دائرة المعارف الإسلامية (مجموعة من المستشرقين) ترجمة أحمد الشنتناوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبدالحميد يونس، دار المعرفة ـ بيروت (طبعة مصورة). (د.ت.).

(5) الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غربال، دار الشعب ومؤسسة فرانكين. القاهرة 1965.

(6) ول ديورانت: قصة الحضارة (44 جزءاً) ترجمة د. زكي نجيب محمود وغيره ـ دار الجيل بيروت والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس (د.ت.).

(7) تراث الإنسانية وزارة الثقافة والإرشاد القومي والمؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، ثمانية مجلدات القاهرة (د.ت.).

(8) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة . بإشراف د. مانع حماد الجهني، الندوة العالمية للطباعة والنشر، الرياض، طـ3، 1418هـ/1998. (9) مواقع على الشبكة العنكبوتية.

Wikipedia, islam pedia, religion facts. com, bbc, Co.U.K./religion.

كتب الحديث والسيرة

(1) البخاري (محمد بن إسماعيل): الجامع الصحيح، كتاب الشعب، القاهرة، (د.ت.).

(2) البخاري (محمد بن إسماعيل): الأدب المفرد وشرحه : فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد لفضل الله الجيلاني (يوزع مجاناً) (د.ت.).

(3) النووي (يحيى بن شرف): شرح صحيح مسلم، دار الفكر، بيروت (د.ت.).

(4) النووي (يحيى بن شرف): رياض الصالحين، تحقيق أحمد عبدالله باجور، الدار المصرية اللبنانية القاهرة: بيروت 1413هـ/1993.

(5) ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي): فتح الباري شرح صحيح البخاري، المطبعة السلفية ، القاهرة بتعليق الشيخ عبدالعزيز بن باز وإشراف محب الدين الخطيب. (د.ت.).

(6) العجلوني (إسماعيل بن محمد): كشف الخفاء ومزيل الإلباس عمَّا اشتهر من الأحاديث بين الناس، تصحيح وتعليق أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، طـ3، 1403هـ/1983.

(7) ونستك ومجموعة من المستشرقين: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ليدن هولنده، 1936 طبعة مصورة.

(8) الترمذي (أبو عيسى محمد بن عيسى): سنن الترمذي (الجامع الصحيح) تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف، دار الفكر ـ بيروت طـ1403/2هـ 1983.

(9) النسائي (أحمد بن شعيب) بشرح السيوطي وحاشية السندي: سنن النسائي، المكتبة العلمية، بيروت طبعة مصورة.

(10) أبو داود (سليمان بن الأشعث) عون المعبود شرح سنن أبي داود لمحمد شمس الحق العظيم أبادي، دار الفكر، بيروت طـ1399/3هـ 1979م.

(11) مالك بن أنس: الموطأ، وزارة العدل والشؤون الإسلامية، دولة البحرين 1415هـ/1994.

(12) أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، المكتب الإسلامي، بيروت 1398هـ/1978م.

(13) الزرقاني (محمد بن عبدالباقي): شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، دولة الإمارات العربية المتحدة، 1413هـ/ 1992.

(14) الهندي (علاء الدين المتقى بن حسام الدين): كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، مؤسسة الرسالة بيروت 1409هـ/ 1989.

(15) الحاكم النيسابوري (محمد بن عبدالله): المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 1411هـ/ 1990.

(16) الدارقطني (علي بن عمر): سنن الدارقطني، تحقيق السيد عبدالله هاشم يماني المدني ـ دار المعرفة ـ بيروت، 1386هـ/ 1966م.

(17) المنذري (عبدالعظيم بن عبدالقوي): الترغيب والترهيب، دار الفكر، بيروت، 1041هـ/ 1981م.

(18) البزار (أحمد بن عمر): البحر الزخار (مسند البز ار) تحقيق د. محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت ومكتبة العلوم والحِكم المدينة المنورة، 1409هـ/ 1988م.

(19) الديلمي (شيرويه بن شهردارين): كتاب فردوس الأخبار مع شرح ابن حجر العسقلاني، تحقيق فواز أحمد الزمرلي ومحمد المعتصم البغدادي، دار الكتاب العربي ـ بيروت 1407هـ/ 1987.

(20) الشوكاني (محمد بن علي): نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيّد الأخيار (المنتقى للشيخ ابن تيمية)، دار الفكر ـ بيروت طـ2. 1403هـ/ 1983م.

(21) الشوكاني (محمد بن علي): قطر الولي على حديث الولي، تحقيق د . إبراهيم هلال، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د.ت).

(22) الطبراني: المعجم الكبير، تحقيق حمدي السلفي القاهرة، ومكتبة ابن تيمية الرياض (د.ت).

(23) ابن الأثير: جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ويوسف الشيخ، دار الفكر، بيروت 1403هـ/ 1983.

(24) القاضي عياض (أبو الفضل عياض بن موسى): الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الكتب العلمية، بيروت 1399هـ/ 1979.

(25) ابن رجب الحنبلي (أبو الفرج عبدالرحمن): جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، دار المعرفة، بيروت (د.ت)

(26) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول، تحقيق د. السيد الجميلي ود. أحمد السائح.

(27) ابن هشام (ابن المعافري): سيرة ابن هشام، تعليق محمد محيى الدين عبدالحميد، دار الفكر بيروت، طبعة مصورة 1937.

كتب في الأخلاق والعقائد والفلسفة

(1) ابن تيمية (أحمد عبد الحليم الحراني): مجموع الفتا وى، جمع وترتيب عبدالرحمن محمد بن قاسم، الطبعة السعودية، مكتبة المعارف ـ الرباط المغرب (د.ت).

(2) ابن تيمية (أحمد عبدالحليم الحراني): السياسة الشرعية، دار الكتاب العربي، القاهرة 1969.

(3) ابن تيمية (أحمد عبدالحليم الحراني): درء تعارض العقل والنقل، تحقيق محم د رشاد، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1401هـ/ 1981.

(4) ابن تيمية (أحمد عبدالحليم الحراني): العبودية، المكتب الإسلامي، بيروت طـ4 1397هـ/ 1979.

(5) ابن القيم (محمد بن أبي بكر بن أيوب): مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، (شرح كتا ب منازل السائرين لعبدالله الهروي)، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت 1392هـ/1972.

(6) ابن القيم (محمد أبي بكر بن أيوب): مفتاح دار السعادة، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض (د.ت).

(7) ابن القيم (محمد بن أبي بكر بن أيوب): زاد المعاد في هدي خير العباد، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة (د.ت).

(8) ابن القيم (محمد بن أبي بكر بن أيوب): الطب النبوي، تحقيق د . عبدالمعطي قلعجي، دار التراث، القاهرة 1398هـ/1978.

(9) ابن القيم (محمد بن أبي بكر بن أيوب): طريق الهجرتين وباب السعادتين، المطبعة السلفية، القاهرة 1376هـ/ 1956.

(10) ابن القيم (محمد بن أبي بكر بن أيوب): الروح، دار الكتب العلمية، بيروت 1395هـ/ 1975.

(11) ابن القيم (محمد بن أبي بكر بن أيوب): شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر، دار التراث، القاهرة (د.ت).

(12) ابن القيم (محمد بن أبي بكر بن أيوب) التبيان في أقسام القرآن، تعليق طه يوسف شاهين، مكتبة القاهرة، القاهرة (د.ت).

(13) ابن حزم (علي بن أحمد): الأخلاق والسير في مداواة النفوس، تحقيق د . الطاهر أحمد مكي، دار المنارة، جدة 1428هـ/2007م.

(14) ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق د. نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965.

(15) ابن سينا (أبو علي الحسين بن عبدالله): كتاب النفس من موسوعة الشفاء، تحقيق جورج قنواتي وسعيد زيدان الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (د.ت).

(16) ابن رجب الحنبلي: تزكية النفوس وتربيتها، تحقيق ماجد بن أبي الليل، بيروت 1405هـ/ 1985.

(17) ابن رشد (أبو الوليد محمد بن أحمد): ثلاث رسائل في النفس، تحقيق الفرد عبري ومراجعة حسن مهدي، إصدار المجلس الأعلى للثقافة (الإمارات العربية) والمكتبة العربية، القاهرة 1994.

(18) ابن رشد (أبو الوليد محمد بن أحمد): الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1998.

(19) ابن رشد (أبو الوليد محمد بن أحمد): فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، مقدمة وشرح محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت طـ3 سنة 2003.

(20) ابن رشد (أبو الوليد محمد بن أحمد): كتاب الكليات، تحقيق د . عمار الطالبي ود . سعيد شيبان، المجلس الأعلى للثقافة (الإمارات العربية) والاتحاد الدولي للأكاديميات، القاهرة، 1989.

(21) ابن رشد (أبو الوليد محمد بن أحمد): رسائل ابن رشد الطبية بتحقيق جورج قنواتي وسعيد زيدان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1987.

(22) ابن الجوزي (أبو الفرج عبدالرحمن): صفة الصفوة، تحقيق محمد فاخوري وتخريج محمد رواس قلعجي، دار المعرفة، بيروت، طـ3 سنة 1399هـ/ 1979.

(23) ابن الجوزي (أبو الفرج عبدالرحمن): الطب الروحاني، تحقيق محمد السعيد زغلول، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1406هـ/ 1986.

(24) أبو زهرة (محمد): مقارنات الأديان القديمة، دار الفكر العربي، القاهرة 1974.

(25) أبو ريده (محمد عبدالهادي): رسائل الكندي الفلسفية، دار الفكر العربي، ولجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، 1950.

(26) أبو طالب المكي: قوت القلوب في معاملة المحبوب، دار الفكر بيروت، ودار الرشاد القاهرة 1990.

(27) أبو نصر الفارابي (محمد بن محمد بن طرخان): الجمع بين الحكيمين، دار المشرق، بيروت 1986.

(28) أبو نصر الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت 1995.

(29) إبراهيم إبراهيم ياسين: مدخل إلى الفلسفة، دار الإسراء طنطا، مصر 2008.

(30) إحسان عباس: عهد إردشير، دار صادر، بيروت 1967.

(31) أحمد أمين: الأخلاق، المكتبة العصرية - بيروت 1428هـ/ 2007م.

(32) البار (محمد علي): المسؤولية الطبية وأخلاقيات الطبيب، دار المنارة، جده 1416هـ/ 1997.

(33) البار (محمد علي): أحكام التداوي والحالات الميؤوس منها وقضية موت الرحمة، دار المنارة، جدة 1416هـ/ 1995.

(34) البار (محمد علي): الطب النبوي، لعبد الملك بن حبيب الأندلسي: دار القلم، دمشق.

(35) البار (محمد علي): المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، دار القلم، دمشق 1990م.

(36) البار (محمد علي): الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم، دار القلم، دمشق 1991م.

(37) البار (محمد علي): دراسات معاصرة في العهد الجديد والعقائد النصرانية المعاصرة، دار القلم. دمشق 2006م.

(38) البلو (محمد علي): الحياة الإنسانية بدايتها ونهايتها، دار القلم دمشق (كتب قيمة).

(39) البار (محمد علي): ما رواه الواعون في الطاعون للسيوطي ـ دار القلم، دمشق 1997م.

(40) البار (محمد علي) الصوم وأمراض السمنة، الدار السعودية جدة دار القاريء العربي توزيع الدار الس عودية جدة 1992م.

(41) البار (محمد علي): القدس والمسجد الأقصى عبر التاريخ، الدار السعودية جدة 2002م.

(42) البار (محمد علي): الأضرار الصحية للمسكرات والمخدرات والمنبهات، الدار السعودية ـ جدة.

(43) البار (محمد علي): الخمر بين الطب والفقه، الدار السعودية، جدة طـ7 1986م.

(44) البار (محمد علي): المسيح المنتظر وتعاليم التّلمود، الدار السعودية جدة ط2، 2000م.

(45) البار (محمد علي): من يعقوب بن كلس إلى مونيكا لونيسكي، الدار السعودية، جدة 2000م.

(46) البار (محمد علي): خلق الإنسان بين الطب والقرآن، طـ13، الدار السعودية، جدة 2005م.

(47) البار (محمد علي): المسلمون في الاتحاد السوفيتي، دار الشروق، جدة 1983م.

(48) البار (محمد علي): كيف أسلم المغول؟ دار الفتح عمان الأردن 2008م

(49) البار (محمد علي): هل كان جوته شاعر الألمان مسلماً؟ مكتبة كنوز المعرفة ـ جدة 2007م.

(50) البار (محمد علي): مشكلة الخمور والمخدرات: نظرة إلى الجذور واستشراف للحلول، دار القلم، دمشق 2001م.

(51) البار (محمد علي): إضاءات قرآنية ونبوية في تاريخ اليمن، العصر الحديث، بيروت 2007م.

(52) البار (محمد علي): العدوى بين الطب وحديث المصطفى، الدار السعودية، جدة طـ4.

(53) أحمد عبد الرحيم السايح: السلوك عند الحكيم الترمذي، دار السلام، القاهرة 1408هـ/1998.

(54) إسماعيل مظهر: فلسفة اللذة والألم، مطبعة حجازي، القاهرة، (د.ت).

(55) باسودان (عبدالله أحمد): مطالع الأنوار، شرح رشفات السادة الأبرار، لعبدالرحمن بن عبدالله بلفقيه، دار الأصول، تريم، حضرموت (د.ت).

(56) باصهي (سالم بن عبدالرحمن): كشف الغطاء عما يحصل للسالكين من الخطأ، مخطوط.

(57) بيثتام (جيرمي): أصول الشرائع، ترجمة أحمد فتحي زغلول مطبعة بولاق، القاهرة (د.ت).

(58) توفيق الطويل: مذهب المنفعة العامة، مكتبة النهضة، القاهرة (د.ت).

(59) الحكيم الترمذي (محمد علي): بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب، البابي الحلبي القاهرة 1958.

(60) الحكيم الترمذي (محمد علي): غور الأمور، تحقيق أحمد السائح وأحمد عبده عوض، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، 1422هـ/ 2001.

(61) حسن الشاذلي: ابن رشد الفيلسوف، المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، الكويت، ندوة أعمال ابن رشد 1415هـ/ 1995.

(62) حسن الشاذلي : الغزالي: المنهج وبعض التطبيقات، منشورات جامعة محمد الخامس، الرباط، الندوة الخامسة (د.ت).

(63) الحداد (الحبيب عبدالله بن علوي): الدر المنظوم لذوي ا لعقول والفهوم (ديوان)، عيسى البابي الحلبي، القاهرة 1400هـ/1980.

(64) الحداد (الحبيب عبدالله بن علوي): رسالة المعاونة وبهامشها رسالة المذاكرة، عيسى البابي الحلبي، القاهرة (د.ت).

(65) الحداد (الحبيب عبدالله بن علوي): النصائح الدينية والوصايا الإيمانية، دار ا لحاوي طـ 2، 1414هـ/ 1994 غير مذكور مكان النشر.

(66) الحداد (الحبيب عبدالله بن علوي): رسالة المريد، دار الحاوي 1414هـ/ 1994.

(67) الحداد (علوي بن طاهر): عقود الألماس مكتبة المدني، القاهرة 1968.

(68) (أحمد مشهور): مفتاح الجنة، تقديم الشيخ حسنين مخلوف وتخريج د . مصطفى بدوي، دار الحاوي 1416هـ/ 1995.

(69) الحبشى (أحمد بن زين) شرح العينية، للحبيب عبدالله الحداد، مطبعة كرجاي، سنغافورة 1407هـ/ 1987.

(70) جمال نصار: مكانة الأخلاق في الفكر الإسلامي، دار الوفاء، المنصورة، مصر 1425هـ/2004.

(71) الجاحظ (عمرو بن بحر): التاج في أخلاق الملوك، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت (د.ت).

(72) الجابري (محمد عابد): العقل الأخلاقي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، طـ2، 2006.

(73) الخاني (قاسم بن صلاح الدين): السير والسلوك إلى ملك الملوك، تحقيق سعيد عبدالفتاح، مكتبة الثقافة الدي نية، القاهرة 1422هـ/ 2001.

(74) الخاقاني (محمد): علم الأخلاق: النظرية والتطبيق، دار مكتبة الهلال، بيروت 1987.

(75) ديوي (جون) تجديد في الفلسفة، ترجمة أمين مرسي، مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة (د.ت).

(76) دراز (محمد عبدالله): دستور الأخلاق في القرآن الكريم، تعريب وتحقيق د. عبدالصبور شاهين مؤسسة الرسالة، بيروت 1402هـ/ 1982.

(77) دولة عبدالرحيم إبراهيم: الاتجاه العلمي والفلسفي عند ابن الهيثم، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1995.

(78) دوركايم أ: التربية الأخلاقية، ترجمة السيد محمد بدوي، مكتبة مصر، القاهرة (د.ت).

(79) الرازي (أبو بكر الطبيب): المدخل الصغير إلى علم الطب، تقديم وتحقيق د. عبداللطيف محمد العبد، دار النهضة العربية، القاهرة 1977.

(80) الرازي (أبو بكر الطبيب): الطب الروحاني، تقديم وتحقيق د. عبداللطيف العبد، مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1978.

(81) الرازي (الفخر محمد بن عمر): المباحث المشرقية.

(82) الراغب الأصفهاني (الحسين بن محمد): الذريعة إلى أحكام الشريعة، تحقيق أبو اليزيد العجمي، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، مصر 1987.

(83) راجي التكريتي: السلوك المهني للأطباء، دار الأندلس، بيروت (د.ت).

(84) زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (د.ت).

(85) زيدان (يوسف): حي بن يقظان: النصوص الأربعة ومبدعوها، دار الأمين، القاهرة طـ2 1998.

(86) سعيد حوي: الإسلام 1389هـ/ 1969، غير مذكور اسم الناشر ومكان النشر.

(87) الشامري (أبو بكر محمد بن جعفر): مساوىء الأخلاق ومذمومها، تعليق مصطفى أبو نصر الشلبي، مكتبة السوادي، جدة، 1412هـ/ 1992.

(88) عمرو خالد: أخلاق المؤمن، دار المعرفة، بيروت طـ3، 1424هـ/ 2003.

(89) عبدالحميد حمدان: الرسالة القشيرية لعبدالكريم القشيري (زبدة التراث)، عالم الكتب، القاهرة 1425هـ/2004.

(90) عبدالحليم محمود: قضية التصوف: المدرسة الشاذلية، دار المعارف، القاهرة طـ4 سنة 2003.

(91) عبدالرحمن بدوي : دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت (د.ت).

(92) عبدالرحمن بدوي: الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1954.

(93) العامري (أبو الحسن): السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية، تحقيق أحمد عبدالحليم دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991.

(94) العز بن عبدالسلام: قواعد الأحكام في مصالح الأنام (القواعد الكبرى) تحقيق د. نزيه حماد ود. عثمان ضميريه، دار القلم، دمشق 1421هـ/ 2000.

(95) العز بن عبدالسلام : شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال، تحقيق إياد خالد الطباع، دار الفكر، دمشق 1991.

(96) القشيري (عبدالكريم بن هوازن): الرسالة القشيرية في علم التصوف، دار الكتاب العربي، بيروت (د.ت).

(97) الغزالي (محمد بن محمد): إحياء علوم الدين، تصحيح عبدالمعطي قلعجي، دار صادر، بيروت طـ 2. 1414هـ/ 1994.

(98) الغزالي (محمد بن محمد): المنقذ من الضلال. دراسة وأبحاث في التصوف للشيخ عبدالحليم محمود، دار الكتب الحديثة القاهرة (د.ت).

(99) الغزالي (محمد بن محمد): مكاشفة القلوب، دار الكتب العلمية، بيروت 1992.

(100) الغزالي (محمد بن محمد): ميزان العمل، دار المعارف، القاهرة 1964.

(101) الغزالي (محمد): خلق المسلم، دار القلم، دمشق، طـ16، 1422هـ/ 2001م.

(102) ليفي بريل: الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية، ترجمة د. محمود قاسم، البابي الحلبي، القاهرة (د.ت).

(103) مصطفى حلمي: التصوف وابن تيمية، مكتبة ابن تيمية، دار الدعوة، الإسكندرية 1982.

(104) المسيرى (عبد الوهاب): البهود واليهودية والصهيونية، الموسوعة الموجزة في مجلدين دار الشروق القاهرة، طـ2 سنة 2005م.

(105) الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد): تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك، تحقيق رضوان السيد، دار العلوم العربية، 1987.

(106) الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد): الأحكام السلطانية والولايات الدينية، علق عليه خالد العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت 1410هـ/ 1990.

(107) الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد): أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993.

(108) الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد): نصيحة الملوك، تحقيق محمد جاسم الحديثي، دار الشؤون الثقافية، بغداد 1986.

(109) محمد نزار خوام: تاريخ العلاج والدواء في العصور القديمة، دار المريخ، الرياض، 1990.

(110) مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد): تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تحقيق قسطنطين زريق، بيروت 1966.

(111) محمد يوسف موسى: تاريخ الأخلاق، دار الكتاب العربي القاهرة، طـ3، 1953.

(112) مقداد يالجن: علم الأخلاق الإسلامية، دار عالم الكتب، الرياض طـ2، 1424هـ/ 2003م.

(113) همفري (كريسماس): البحث في البوذية، ترجمة إبراهيم ياسين في كتابه مدخل إلى الفلسفة العامة دار الإسراء طنطا، 2008.

(114) ول ديورانت: قصة الفلسفة، ترجمة د. فتح الله المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، 1988.

(115) Beuchamp T, Childress J: Principles of Biomedical Ethics, Oxford University Press 5thed., New York 2001. المحتويات